هيلين دوتش

علم نفس المرأة

الأمومة

ترجمة

اسكندر جرجي معصب

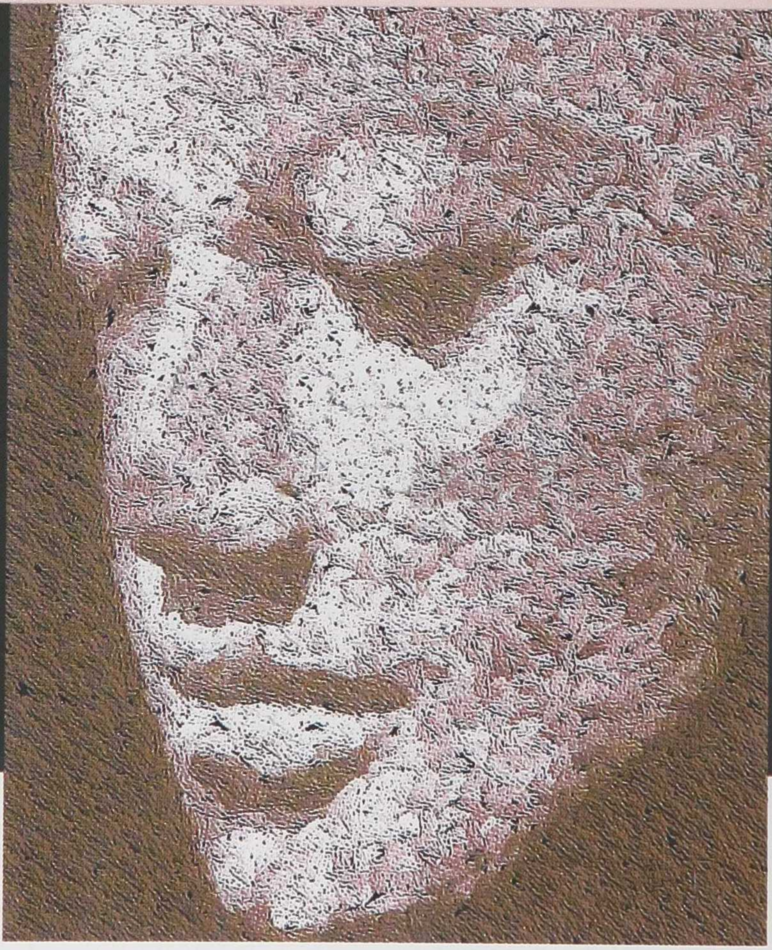

علم نفس المرأة
الأمومة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام - ص.ب. 113/6311
تلفون 791123 (01) - تلفاكس 791124 (01) بيروت - لبنان
بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 978-9953-463-96-4

١٥٥
دهـ ع

هيلين دوتش

علم نفس المرأة

ترجمة

أ. اسكندر جرجي معصب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة

The psychology of women, volume 2

By Helene Deutsch

علم نفس المرأة

الجزء الثاني

الأمومة

مقدمة

العزم الذي نويت عليه في تصوير الحياة النفسية للمرأة الطبيعية في مجتمعنا ينتهي مع هذا الجزء الثاني من «علم نفس المرأة». وقد استخدمت في عرضي للمواضيع وثائق مرضية وأمثلة مستبقة من التاريخ، إنما كان ذلك دوماً لتفهم الروح الأنثوية الطبيعية والحديثة بصورة أوضح.

ولعل الترابط الموجود بين التطورات النفسية والفيزيولوجية لا نراه في أي مكان كما نراه في الوظائف التناسلية للمرأة. وفي دراسة المظاهر النفسية للأمومة، نسوق أنفسنا بالضرورة لتحديد موقع الاضطرابات فيها ليس فقط في أحد هذين المجالين إنما أيضاً في الآخر. حتى أنه ليس هناك امرأة، إن جاز التعبير، ما لم ينغِّص صراعاتها النفسية الطبيعية الطور البيولوجي للأمومة إلى درجة ما. لذلك، سيهتم هذا الكتاب، بمختلف الأطوار الفيزيولوجية غير الطبيعية، مثل العقم والإجهاض وحوادث الحمل والولادة والإرضاع، ... إلخ. وبما أنني تحاشيت دوماً الابتعاد عن الطبيعي، فلم تُعالج هذه المظاهر المرضية إلا معالجة سطحية، واحتفظت بمعالجتها إلى كتاب آخر وبصورة أكمل.

كما يمكنني القول أن العوامل الثقافية والاجتماعية، تؤثر في بنية الروح الأنثوية. وقد أشيرُ إلى هذه العوامل أحياناً في هذا الجزء كما في الجزء السابق، وعلى الأخص لتأييد رأيي حول ثبات بعض المظاهر النفسية لحياة المرأة في جميع الحضارات. إنما سأكرس عملاً آخر لدراسة خاصة لهذه المسائل.

وأريد أن أعبر عن امتناني للسيد الدكتور ستانلي كوب، الذي أتاح لي استئناف ملاحظاتي السريرية في خدمة المشفى العام للطب النفسي في ماسا شوستس.

كما أتوجه بالشكر لجميع أعضاء المعونة الاجتماعية الذين منحوني الفرصة، خلال سنوات عدة، لأن أضطلع على المظهر الاجتماعي للصراعات النفسية لمرضاهم. وإني مدينة كثيراً، على نحو خاص، لأولئك الذين أتاحوا لي إغناء توثيقي بفحص ملفات الاستشارات ومجموعات الدراسات. كما أني ممتنة للسيدين ا. باريت ول. فاين على مساعدتي في الإعداد لنشر كتاباتي.

هيلين دوتش

الفصل الأول

ملامح إجتماعية وبيولوجية

يحيا الإنسان بطريقتين في علاقته مع العالم الذي يحيط به. فهناك قبل كل شيء التجربة الفردية لأناه؛ إنه بواسطتها يشعر بكل الحوادث الخارجية ذات الصلة فقط مع أناه الخاص، وتجمّل هذه التجربة الإنطباعات المباشرة لحواسه ولاتعطيها مضموناً إلا بقدر ما ترتبط هذه الإنطباعات بحياته الخاصة. وهناك نوع ثانٍ من التجربة ترتكز على أنّ كل كائن انساني، بكل كيانه، هو حلقة في السلسلة الطويلة للتطور التاريخي، وأنه دوامة في السيل الخالد للحياة. في هذا النوع من التجربة، لا يتحدد الوجود مطلقاً بالماضي الشخصي، فالماضي اللاشخصي يحل محله ويخلق للتجربة الفردية خلفية لازمنية، ومنظوراً «للأزلية والخلود».

وهكذا تجد المرأة في الأمومة فرصة رائعة للبرهان على هذا الشعور بالخلود بصورة مباشرة. فالوظيفة الأنثوية في التكاثر ليست مجرد فعل فردي، وحيد أو مكرر، يحدث على المستوى البيولوجي. فعلى العكس تماماً، مثل هذه الأحداث البيولوجية تعتبر كمظاهر فردية للتذبذب الشامل الذي يحمل الانسانية من القطب المبدع إلى القطب المدمِّر، وفي الطقوس الدينية، وفي الفكر الفلسفي الأكثر تطوراً. ويمكننا دراسته وبصورة مباشرة وإفرادية من خلال مهمات تناسلية للمرأة.

ومن ناحية أخرى، فالأمومة بصفتها تجربة فردية، لاتمثل فقط طوراً بيولوجياً، إنما أيضاً كنهاً نفسياً تتلخص فيه تجارب فردية عدّة، وذكريات،

ورغبات، ومخاوف، سبقت التجربة الواقعية بكثير من السنوات.

إن عالم النفس يراقب ويحلل في مختبره التجارب الفردية كما تبدو له بصورة ذاتية. والرؤية التي نحصل عليها هكذا عن الحياة ليست مستثناة من التناقضات. إنما لعله من الممكن، بعدد كبير من تلك الملاحظات، أن نخلص إلى بعض الاستنتاجات العامة. ويُطرح هنا سؤالان. يمكن أن نعبر عن الأول هكذا: هل هناك حوادث نفسية تسمح للملاحظ صوغ استنتاجات موضوعية، وبالطبع باستثناء العناصر الفردية الطارئة؟ وعلى عكس ذلك، هل تقوم المظاهر النفسية الفردية للوظيفة التناسلية للمرأة على أفعال بيولوجية أو اجتماعية شاملة؟ قد ندع هذا السؤال للبيولوجيين وعلماء الاجتماع. فعلى البيولوجيين أن يذكروا ضمن أي نطاق تخضع الأحداث المراقبة من قبل عالم النفس للقوانين العامة، أي هل هي محددة تحديداً بيولوجياً، وعلى علماء الاجتماع أن يذكروا ضمن أي نطاق هي محددة بالتأثيرات الثقافية. فمهمة علم النفس تكمن في مراقبة ووصف بعض الأفعال النفسية المحدودة في الزمان والمكان.

كما يؤمن علماء النفس في هذه الآونة بإمكانية المساهمة على نحو أفضل بتفهم الظواهر النفسية بإثارة العوامل الثقافية وبالسعي لإثبات أن العنصر النفسي يتعلق تعلقاً استثنائياً بالبنية الاجتماعية المفترضة. واهتم بعضهم بالمكانة التي تشغلها المرأة في نظام اجتماعي ما وبدورها في العائلة، وبتأثير هذه العوامل على نفسية الأمومة المعتبرة كظاهرة اجتماعية. كما أبرز البعض الآخر تأثير المؤسسات الاجتماعية، والإيديولوجيات، على نفسية الوظائف البيولوجية للأمومة.

وكمثال لمنظور اجتماعي أول لمسألة الأمومة، لنذكر الدور الذي تلعبه المرأة في المجتمع الحالي والمقارنة التي يمكن أن نجريها بين مواقف المرأة الأوربية والمرأة الأمريكية قبل الحرب. فبالنسبة لبعض الأسباب التاريخية البالغة الدقة، أصبحت المرأة الأمريكية أكثر «تحرراً»، أي أن حقوقها وواجباتها الاجتماعية لم تعد تختلف عن حقوق ووجبات الرجل،

الأمر الذي لا نراه في كثير من الدول الأوربية. إنما فيما لو اختبرنا هذا الأمر عن قرب، والمُرضي بحد ذاته، لرأينا أن ذلك غير ناجم عن تقدم مستمر، إنما هو رصيد من حقبة ماضية، وتم نتيجة اتجاه إرجاعي. ففي مطلع القرن التاسع عشر، عندما غزت الحضارة القارة الأميركية، كانت نساؤها مضطرة للتخلي عن ميولهن البيولوجية لشغل المهمات الكبيرة كمجندات متقدمات إلى جانب رجالهن. وكان يُتوقع منهن الشجاعة وروح الغزو النشطة، وقد ناضلن مع أزواجهن وإخوتهن لمواجهة الصعوبات المريبة للحياة على هذه القارة المكتشفة حديثاً. وفي دورهن الجنسي، كن أقل عدداً من الرجال، فكان تقييمهن تقييماً فريداً. وهكذا ساهمت مختلف العوامل في ضمان المساواة وحتى التفوق للنساء الأمريكيات. إلا أنه منذ بداية الاستعمار الأمريكي، راحت تيارات تضع العراقيل أمام الوضعية الاجتماعية الرفيعة للمرأة ومايزت بين الجنسين. وفي البداية، كانت هذه التيارات بالكاد مسموعة ثم تثبتت شيئاً فشيئاً. وعند انتهاء القرن التاسع عشر، أصبح دور المرأة الأمريكية متماثلاً أكثر فأكثر مع دور المرأة الأوربية. وتضاءلت قيمتها الاستثنائية بالقياس مع تضاؤل ندرتها كأداة جنسية، لكن الموقف القديم استعاد نفسه أيضاً بـ «الغزل» خاصة، وأحياناً المفرط لدرجة هزلية، والذي أُحيطت بها لادعائها «الضعف»، واستمر دورها الاجتماعي مرتبطاً ببعض الامتيازات، وكانت تشغل ضمن العائلة موقفاً مهيمناً. وانخرط الرجال الأمريكان آنئذ بصراع عنيد في غزو الثروات الجديدة وسط حضارة راحت تتطور بخطوات سريعة، ولم يتبق لهم إلا القليل من الوقت للالتفات إلى المسائل العائلية والدينية والثقافية. وقد تركوا هذه المسائل للنساء بكل طيبة خاطر، معترفين لهن بتفوق أخلاقي وإلى حد ما ذهني. بل واستطاعت المرأة الأمريكية أن تحصل على ميزات اجتماعية وسياسية كبرى أهلتها، كما ذكرنا، لنيل المزيد من الحقوق بما يفوق أختها الأوربية. وكان الوضع المسيطر للمرأة قوياً على نحو خاص ضمن العائلة. والمرأة «الأمومية الحاكمة» أصبحت مألوفة في بعض طبقات المجتمع الأمريكي بما لا نجده في أوروبا.

هنا يمكننا التوقف عند هذه الطريقة في رؤية وضعية المرأة الأمريكية. إنما لو غيّرنا منظورنا، واختبرنا الأمور عن قرب، لأدركنا أن هذه المقارنة المقتضبة لا تنطبق إلا على بعض الشرائح الاجتماعية، وأن نمطنا للمرأة الأمريكية نصادفه عادة في عدد من المناطق الأوربية بين طبقات اجتماعية محددة تماماً، إلا أن مظاهرها الثقافية تختلف (على سبيل المثال في بعض المراكز اليهودية الأرثوذكسية، ولدى بعض الأمم السلافية، ... إلخ). لنلاحظ هنا أيضاً أن دور النساء الألمانيات في الطبقات المتوسطة قبل الحرب كان مختلفاً عن دور الفرنسيات من نفس المرتبة الاجتماعية، رغم تشابه الظروف الاجتماعية والثقافية.

وينطوي المثال الذي أوردناه على قضايا أخرى. فتأثير الأسباب الاجتماعية، كما لاحظناه في أمريكا هل هو ثابت؟ أم أنه يتلاشى بفعل التطور الاجتماعي اللاحق؟ ولماذا يحدث التقدم دوماً في نفس الاتجاه وفي الحالة المعاكسة؟ وهل تتناقض العوامل النفسية والبيولوجية مع مؤثرات التطور الاجتماعي؟ وعلى افتراض أن المرأة المسيطرة تكون نتيجة للتطور الاجتماعي، فهل تستخدم كل امرأة هذا الموقف المكتسب بنفس الطريقة، إزاء نفسها وإزاء محيطها؟ فعلى سبيل المثال تكرّس المرأة في انكلترا الجديدة نفسها في تكوين الشخصية الأخلاقية لأبنائها. ففي طباعها تصوغ مثلاً أعلى متشدداً بالنسبة لها ولأولادها ويتضمن إلزامات تشكل وزراً على الأبناء. والمكانة التي تعزوها للأب تتعلق بالذوق الذي تمتلكه. فإذا انتقصت من قيمته وجعلته مهمشاً، فتسبب لا محالة صراعات نفسية عميقة لدى أولادها. أما إذا امتلكت المعطيات الأنثوية في الحدس والدفء العاطفي، رغم موقفها الاجتماعي المتفوق، فسيكون للتأثير مفعول آخر.

أما المرأة المسيطرة من نمط آخر والتي تستخدم وضعها لترضي عدوانيتها، فهي عاجزة عن حيازة حياة أنثوية ذات دفء عاطفي. وتكون المساواة الاجتماعية هنا كلعنة، ويخاطر المرء في أن يبدو رجعياً بأن يتمنى لهذه المرأة أن تُحرم من سلطتها العائلية. ويجب أن نؤكد أن هذا النمط من النساء لا نصادفه فقط في أمريكا.

كما أن المرأة الأمومية المسيطرة في العائلات اليهودية، تتميز عادة بالحنان المفرط الذي تكنه لأولادها، وغالباً ما يكون لحبها طابعاً بدائياً يحملها على إرضاء أولادها بلا انقطاع.

ويمكننا أن نورد عدداً من الأمثلة الأخرى تكون فيها مواقف التحديد الاجتماعي المتماثل مؤدية إلى ردود فعل نفسية معارضة.

وبالرغم من هذا التنوع في ردود الفعل للتأثيرات الاجتماعية المتماثلة، وبالرغم من تشابه ردود الفعل في ظروف ثقافية مختلفة، فبعض العلاقات العاطفية بين الأم والطفل تكون عميقة جداً، وأساسية جداً، بحيث أنها تتجاوز كل الاختلافات الاجتماعية والفردية. ففي عام 1933 عندما كان الكره العرقي في أوجه في ألمانيا، حصل معي أن قمت برحلة في ڤيينا إلى سويسرا في قطار مكتظ. ومعظم المسافرين كانوا من النساء، وخاصة اليهوديات الأرثوذكسيات اللواتي غادرن ألمانيا، وكان هناك أيضاً اثنتين من العاملات كانتا مشبوهتين سياسيتين بلا شك، وألمانيتان ترتديان ثياباً على أكمامهما الصلبان المعقوفة، رمزاً للتعصب الألماني آنذاك. وقد تصنعتا موقفاً محتقراً تجاه المسافرين الآخرين. وعند الفجر، عندما دخل القطار محطة هامة، جلب أحدهم صحيفة الصباح. ورورت المانشيت فيها أن شاباً وقائداً نازياً شهيراً كان يقوم برياضة التزلج على الثلج في الجبال قد دُفن تحت انهيار ثلجي. ثم تتوارد حكاية البحث الذي قامت به الأم عن الشاب، وسيرها في الإعصار مكافحة الثلج والجليد حتى فقدت وعيها. وقد قرأت إحدى النساء هذه القصة بصوت مرتفع، وبعد عشر دقائق، لم يعد في المقصورة، يهودية محتقرة، أو ماركسية، أو نازية، إنما أمهات متأثرات في مشاعرهن الأمومية المشتركة، وينتحبن على مصير أم أخرى لا يعرفنها.

ومن ناحية أخرى، عندما حمل الجنود الأمريكان في الحرب الحالية آلام بلدهم وعانوا من الحرمان الشديد، راحوا يتحدثون عن الأطباق الصغيرة التي تعدّها أمهم. وحتى الجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى

راحوا يتذكرون الكعكة بالتفاح أو الأطباق الأخرى المحلية التي كانت تعدها أمهاتهم، وهذا يعبر عن حالة عميقة ترمز للحنين الطفولي للأم. ومن الملاحظ أنه كلما واجه رجل بكامل عافيته الخطر أو الموت، سواء على هذه القارة أو غيرها، فإنه يبتهل إلى أمه، مهما كانت الظروف الاجتماعية والثقافية التي تولدت فيها صلته الأمومية العميقة والقوية.

وفي كل حالة، نكون على صلة من ناحية بردود فعل فردية على موقف اجتماعي ما، ومن ناحية أخرى بمركب انساني شمولي متجذر تجذراً عميقاً، ومستقل عن الوسط المحيط، وناجم عن وجهة نظر نفسية. إن عالم النفس الذي يتحلى بالإخلاص والذمة يعلم تمام العلم أنه لا يمكن التوصل إلى فهم عميق للمسائل التي تطرح عليه إلا بمساعدة المعلومات المأخوذة من مجالات علوم الاجتماع والبيولوجيا.

وعندما نتوجه نحو أعمال أخصائيي علم الإنسان لنجد معطيات حول تاريخ الأمومة بصفتها ظاهرة اجتماعية، نكون أمام نهجين متعارضين. يتمثل الأول بالنظرية الأبوية التي تقوم على فرضية سادت لزمن طويل والتي يكون الذكر بحسبها المرشد الدائم لعرقه، وذلك بفضل تفوق قوته الجسدية وقدراته العقلية. إلا أن هذه الفرضية دُحضت بالتقصيات العلمية، حيث اكتُشفت أنه عند مختلف الشعوب تعود جميع الحقوق العائلية للأم وليس للأب. كما سمحت مختلف القوانين القديمة بإنشاء تصميم لمجتمع أمومي سبق المجتمع البطريركي الأبوي. كما أيّد «باشوفين» الفكرة القائلة بأن الكومونة البدائية كانت عبارة عن مجموعة من أقرباء بالدم لهم أم واحدة قد انبعثوا منها.

إن هذه الفرضية، التي بحسبها سبق المجتمع الأمومي المجتمع الأبوي وحيث مثلت سلطة النساء فيه الشكل الأصلي للمجتمع الإنساني، كانت موضوعاً لسجالات عنيفة. وإذا كان المرء مستعداً لقبول أن المرأة بصفتها أم قد احتلت وضعية سامية، في بعض الأنظمة الاجتماعية والقضائية، فإثبات «باشوفين» لمرحلة من الهيمنة الأنثوية العمومية والتي لم

تستبدل بعد ذلك إلا بالعائلة ذات المجتمع الأبوي لاقت تشكيكاً قوياً ورفضت كخطأ مبتذل. وفيما كان المدافعون عن الحقوق الأبوية السلفية يرفضون التخلي عن أوضاعهم، تذرع أنصار الأنثوية بالنظرية الجديدة ليدعموا ذرائعهم.

ويتفق اليوم مختصو علم الإنسان على القول بأن هناك نمطين من العائلات الإنسانية: عائلة من نسل أبوي عُبّر عنها في أحد أجزاء القانون الروماني وتسود في المجتمع الحديث، وعائلة من نسل أمومي حيث لا يتفرّع النسب إلا من الأم وحيث يتبع الإرث النسل الأنثوي. هذه الصيغة الأخيرة للمجتمع كانت موضوع ملاحظة مباشرة من قبل علماء الإنسان المعاصرين، ومن قبل «مالينوفسكي» لسكان جزر «تروبريان لغينيا الجديدة الشمالية الشرقية أو ميلانيزيا الشمالية الغربية[1] (في المحيط الهادئ)».

ينتقد «بريفولت»، النصير المتحمس لنظرية المجتمع الأمومي، النظرية المعاكسة في كتابه «الأمهات»[2]. وترتكز براهينه على عوامل بيولوجية. وبرأيه، أن العلاقات الاجتماعية الملاحظة في عالم الحيوان والبعيدة عن الإنسان تقوم على وظائف التناسل وليس على الغرائز الاجتماعية، ولا يلعب النسب في عالم الحيوان إلا دوراً ضئيلاً. وتتشكل المجموعة العائلية من الأم وذريتها، ويمكن للذكر أن يلتحق بها، إنما دوره مهمش ولا أهمية وظيفية له.

علاقة النسب تتحدد بالعلاقة الكائنة بين الأم والأولاد. فالأبوة لا وجود لها. والعائلة الحيوانية ليست نتيجة للتشاركية بين الذكر والأنثى، كما يفترض أن تكون العائلة الإنسانية، إنما هي نتيجة للوظائف الأمومية. فالأم فيها هي المركز الوحيد والصلة الوحيدة. وليس هناك تقسيم للعمل بين

---

(1) Malinowski B. : Sex and repression in savage society. New-York, Harcourt, 1927

(2) Briffault R. : The Mothers. New-York, Macmillan, 1931.p. 23.

الجنسين لتوفير أسباب العيش. فالحماية تؤمنها الأنثى وليس الذكر. كما أن السكن والتنقل وقيادة الجماعة، تابعيتها الوحيدة هي الأنثى. فالعائلة الحيوانية ليست جماعة ناتجة عن تحريضات جنسية إنما عن تحريضات أمومية، ولم يخلقها الأب إنما الأم[1].

وقد جعل «بريفلوت «جميع المشاعر الاجتماعية للمجتمع الإنساني تتفرع عن علاقة الأم بالطفل كما أرجع أصلها إلى المرحلة الممتدة حيث كانت حماية النسل فيها تابعة للأم.

وتخضع هذه العوامل المحدّدة والتي هي أصل المجتمع والعرق الإنساني لوظيفة النزوات الأمومية. وهي تنجم عن الفعل الملائم لهذه النزوات على العائلة الحيوانية المتمركزة حول الأم.

واستناداً لرأي «بريفولت»، فإن نظرية النظام الأمومي للأصول الاجتماعية نتيجة لهذا التطور.

وعند اختتام حديث «بريفولت» تجب ملاحظة أنه عارض وبتحفظ شديد الرؤى الأنثوية.

نظراً لأن ظروف المراحل الأولى كانت مختلفة تماماً عن تلك التي تحصل على درجات من الثقافة أكثر تقدماً، فنظرية النظام الأمومي للأصول الاجتماعية لم تؤثر على المذاهب الأنثوية إلا بصورة غير مباشرة. ومن غير المشكوك به أن جزءاً كبيراً من الطبائع الجنسية الثانوية النفسية والجسدية والتي اعتبرت بيولوجية، نجمت في الواقع بفعل الظروف الاجتماعية المنطوية على النظام الأبوي. ومن ناحية أخرى، لا يمكننا أن نثبت إلا أن التمايز الجنسي هو نموذج لأسس بيولوجية... فنظرية النظام الأمومي للأصول الاجتماعية تقر بما لا يقبل الجدل بأن النساء اللواتي يطلبن نيل قسط من أنشطة اجتماعية وثقافية ينكرها عليهن النظام الأبوي، لا تجيد

(1) Op. cit, p 66

إبداء أي استعداد بيولوجي. والمسائل التي تثيرها المطالبات الأنثوية ترتكز على أرضيات مختلفة تمام الاختلاف[1].

لعل الأسباب التي من أجلها تتعلق النساء الذهنيات بنظرية النظام الأمومي واضحة. إنها طريقة للاحتجاج في مواجهة ادعاء الدونية الإجتماعية للمرأة وضد عدم المساواة من قبل حضارة عصرهن.

ومن الصعب العثور على درب عبر متاهة النظريات المعارضة التي يطرحها علم الإنسان، فدراستنا للماضي أوصلتنا إلى نتائج متناقضة جداً. ولم يكن علم النفس دوماً معيناً فاعلاً في مجرى إعادة البناء النظري. فكل ما يتخيله الباحث في الأزمنة الغابرة مشوباً قبل كل شيء بخبراته الذاتية الخاصة وبنوع من إعادة اكتشاف لذاته ولعالمه النفسي الذي صممه في عالم خارجي متلاش منذ زمن بعيد.

ولعل الجهد اليائس الذي يقوم به أحياناً للحصول على نظرة موضوعية للعالم، من خلال «العلم»، ليس إلا محاولة شديدة للهروب من الذات، إنه جهد لا يتكلل بالنجاح عموماً إلا بصورة جزئية. وعلى اعتباره عالمٌ، فهو يسعى لإيجاد الحقيقة بتنظيم الأمور التي اكتشفها، إنما تأويلاته تكون ذاتية على الدوام. إن مالينوفسكي المختص بعلم الإنسان، يتحدث بشك عن المنطلقات والبنى المختصة بعلم الإنسان؛ ويقول «إنها تخلط بعض الأمور بكثير من الافتراضات» لكنه لم يتوصل إلى الأخذ بعين الاعتبار الدوافع النفسية الكامنة وراء هذه الافتراضات.

إن ذاتية النظريات العلمية يمكن أن تبرهن بصورة تجريبية حين تخضع حياة العالم، الساعي بنزاهة لبلوغ الموضوعية، للملاحظة التحليلية النفسية. ولحسن الحظ، تهيأ عدد من أعضاء دائرة علمية صغيرة يدرسون هذه القضايا لهذه الملاحظة. ولن أدوّن إلا بعض النتائج الحاصلة. فلقد اكتشف

---

(1) Op. cit, p 313

أن المتعصبين بحماس لنظرية النظام الأمومي، رجالاً أم نساء، كانوا متأثرين بآرائهم العلمية بدوافع لاشعورية بحتة. ولاينتمون مع ذلك، جميعهم لنفس النمط النفسي، كما تصدر أحياناً أخرى آراء متماثلة عند أفراد مختلفين في ميولهم النفسية اختلافاً كلياً. وهكذا يؤمن عالم الإنسان بنظرية النظام الأمومي لأنه يكافح كفاحاً عبثياً، وبحقد مكبوت كبتاً عصابياً، ضد السلطة الأبوية لوالده. ويريد آخر إحلال «الأم الكبيرة» للماضي البدائي محل أمه الفاعلة والمسيطرة التي كان يعبدها في طفولته ثم رذلها لأنها أحبطت تطلعاته المثالية. إنه لا يدرك أنه في الواقع يطلب من هذا الشكل الاسطوري أن يساعده على إعادة اكتشاف أمه القوية فيما مضى من الزمان، هذه الأم التي افتقدها عاطفياً منذ زمن بعيد. والحجج «الموضوعية» المتعددة والمطروحة من شاب آخر متخصص في علم الإنسان في صالح التفوق الذكوري والنظرية الأبوية يعود منشؤها إلى حبه الذاتي النرجسي، في حين أن متعصباً آخر لنفس الآراء يرضي بهذا موقفه السلبي تجاه والده مسقطاً ذلك الأب على آباء الماضي، وعلى السلطة التي يريد أن يخضع نفسه لها كمبدأ حي خالد. وإذ أعرض دور المؤثرات الذاتية على العلم الموضوعي لا يعني بغيتي الإقلال من شأنه، إنما توخي الحذر الضروري تجاه هذه الأمور.

كثير من البراهين تكافح من أجل النظرية التي بحسبها تعيد دعائم التنظيمات الاجتماعية الأولى إلى البحث في التطورات العضوية. وبتحديد أكثر، تبدو ثمة مرحلة تطورية لعلاقة الأم بالطفل هي النموذج الأولي لأول تنظيم اجتماعي.

وحول الطريقة الثانية للتناول الاجتماعي لمسألة الأمومة، سنذكر هذه الجمل لأحد المتخصصين[1]:

لنلخص باختصار ونحدد هذه العوامل الاجتماعية التي تؤثر بالأمومة في مجتمعنا. فالأمومة هي مثالية أخلاقية ودينية وحتى فنية لحضارتنا؛

(1) Malinowski B. : op. cit., pp. 19-22

والمرأة الحامل تكون تحت حماية القانون والعرف؛ ويجب أن يُنظر لها كشيء مقدس، في الوقت الذي يجب أن تشعر بالفخر والسعادة لظرفها. إن المعطيات التاريخية والإثنية تثبت أن الأمر متعلق هنا بمثالية جديدة بالتحقق. وحتى في أوروبا الحديثة، تضع ذلك مجموعات يهودية ارثوذكسية موضعاً عملياً، وضمن هذه المجموعات، تكون المرأة الحامل موضع إجلال حقيقي وهي تفخر بظرفها. وفي المجتمعات المسيحية الآرية، يشكل الحبل، على العكس، عبئاً ثقيلاً في الطبقات الدنيا وينظر له كمصيبة، وبالنسبة للأناس المحترمين، إنها مسألة إزعاج وعدم رفاهية ومناسبة للإبعاد الزمني عن المشاركة في الحياة الإجتماعية. فطالما علينا الإعتراف بتأثير الموقف ما قبل الولادة للأم على مشاعرها المستقبلية تجاه وليدها، وطالما أن هذا الموقف يتنوع كثيراً تبعاً للوسط أو تبعاً لسلم القيم الاجتماعية، فإن من المهم دراسة هذه المسألة الاجتماعية عن كثب.

ففي لحظة الولادة، تكون الدوافع الغريزية للأم بارزة و مدعمة من قبل المجتمع الذي يجعل من الأم، بكثير من الأعراف والقواعد الأخلاقية والمثالية، مرضعة للطفل، وهذا ما يحصل أيضاً في الطبقات العليا والدنيا من المجتمع، ولدى جميع الأمم الأوربية تقريباً. ومع ذلك، حتى تجاه علاقة جوهرية أو بيولوجية مؤكدة يحصل أن لدى مجتمعات يفسح فيها العرف ونبذ الدوافع الغريزية المجال لانحرافات واضطرابات ملحوظة. مثل ذلك النظام القائم على التخلص من الطفل خلال السنة الأولى من حياته بتسليمه لمرضعة مأجورة؛ وكان هذا العرف، في وقت ما، منتشراً جداً بين الطبقات المتوسطة في فرنسا؛ وكذلك أيضاً، النظام المؤسف الرامي إلى حماية نهدي الأم باستئجار مرضعة أو بإرضاع الطفل إرضاعاً اصطناعياً، هذا العرف السائد في الطبقات الغنية والموسوم بالعار اليوم كمخالف للطبيعة. وهنا أيضاً، عالم الاجتماع له كلمته في رسم المظهر الواقعي للأمومة الذي يتنوع حسب الاختلافات القومية والاقتصادية والأخلاقية.

ولنمعن النظر الآن بالعلاقة نفسها في مجتمع يركّز على الأم على

ضفاف المحيط الهادي. فالمرأة الميلانيزية هناك (في جزر فيجي وغينه وكاليدونيا)[1]، تظهر باستمرار عبادة تجاه طفلها، ويؤثر المجتمع المحيط بها بعواطفها هذه، ويشجع ميولها هذه ويرتقي بها بقوانينه العرفية. ومنذ بدء الحمل، يتوجب على الأم المستقبلية أن تدأب على خلاص طفلها مراعية المحظورات التي تفرض على الأغذية المختلفة ومتبعة أيضاً الشعائر الأخرى. ويُنظر للمرأة الحامل كإنسان جدير بالاحترام، وتلك هي مثالية متحققة تماماً لدى السلوك الواقعي ومشاعر السكان الأصليين. وهناك احتفالية معقدة يُقام بها عند الحمل الأول للمرأة هدفها غامض على نحو ما إنما تنطلق من أهمية هذا الحدث وتضفي الشرف والتميز على المرأة الحامل.

وبعد الولادة، تعزل الأم والطفل لمدة شهر تقريباً، وتهتم الأم بطفلها دون انقطاع وتغذيه، وفي هذه الآونة يسمح فقط لبعض المقرّبات من دخول الكوخ. أما تبني الطفل فهو، في الأحوال العادية، نادر جداً، وحتى لو حصل هذا، فلا يُسلم الطفل عادة إلا بعد الفطام، ولا يصح التبني للأجانب على الإطلاق إنما فقط للأهل المقربين. كما هناك العديد من الشعائر، مثل الوضوء الطقسي للمرأة والطفل، ومحظورات خاصة على الأم واحترامها، وزيارات التعارف، تربط الكائنين بعلاقات عرفية تضاف إلى العلاقات الطبيعية.

وهكذا، ففي مجتمع ما، تضاف القوى الاجتماعية للعرف وللأخلاق إلى التكيف البيولوجي والغريزي التي تربط الأم بالوليد أحدهما بالآخر، وتمنحهما مجالاً حراً لمعايشة الحميمية المضطرمة للأمومة. ومثل هذا الانسجام بين القوى الاجتماعية والبيولوجية تعطي الرضى الكامل للكائن، كما ترسي أكبر قدر من المنافع والبركات.

وعند وصولنا لهذه النقطة، لابد لأخصائي التحليل النفسي أن يطرح

---

(1) المترجم

السؤال التالي: كيف تكون نفسية أم تعيش في نظام اجتماعي لا يوجد فيه انسجام بين العرف الاجتماعي والعوامل البيولوجية؟ إن عالم الاجتماع يلفت نظرنا إلى المظاهر المختلفة للمجتمعات؛ لتمكن ملاحظة النساء اللواتي عليهن التكيف مع العلاقات الاجتماعية الراهنة، إنما لايمكنه وصف ردود أفعالهن العاطفية، الشعورية واللاشعورية سواء بسواء، إذ هنا يأتي دور عالم النفس.

ولنتخذ بادئ ذي بدء المظهر البيولوجي للمسألة، ففي الأشكال الدنيا للحياة، يلقي التنظيم الأمومي خارجاً الخلايا الانتاشية غير المخصبة غير عابئ بمصيرها. وبواسطة الإخصاب الداخلي، تجد الخلية الجنسية الشروط الملائمة لتطورها؛ إذ تمكث بارتياح وتتلقى الغذاء والحرارة والمأوى. وهكذا تجري حمايتها من الأخطار الخارجية، كما يمكن للبويضة المخصبة أن تستخدم كل طاقتها الحياتية بغية نضوجها. وعلى امتداد فترة الحمل، يتحمل الجنس الأنثوي قسطاً أكبر من العمل التكاثري، ويزداد هذا القسط، شيئاً فشيئاً، عند التوصل للأجناس الحيوانية العليا. وتتوطد سلامة النوع بانتقال جزء العمل التكاثري إلى داخل الجسد، كما تنشأ علاقات فيزيولوجية من لحظة الانطلاق بين الأم وصغيرها، وفي أعقاب هذا الاتحاد الجسدي، تتيقظ غرائز لدى الأم تستمر بعد ولادة الصغير. ويمتد التحالف بين الأم والوليد على طول المرحلة التي لا يكون فيها قد نما النمو الكاف لضمان سلامته وتأقلمه مع العالم المحيط.

فخلال التطور النشئي النوعي، تترسخ علاقات ذات تعقيد متنام بين الأم والوليد خلال مرحلة الحماية الضرورية هذه، وتقود، شيئاً فشيئاً، إلى مظاهر عالية التناسق من الغريزة الأمومية. كما تنمو هذه المظاهر لدى جميع الأجناس الحيوانية بحسب بعض الصيغ المرسومة نمطياً ووراثياً والتي تكون دوماً متحددة في كل جيل بالتطورات الفيزيولوجية التي تنشأ في جسد الأم. وهي من القوة بحيث يبدو تحت تصرفها ذكاء متفوق وقدرة فائقة للعواطف. ولعل الصون الذاتي للأنثى، والطريقة التي تتجنب بها المخاطر الفردية

بفضل آليات الخوف، وغزو موطن غذائها، كل هذه الوظائف تخدمها أساليب ووسائل مدهشة.

لكن هذه الاعتبارات جميعها تفقد بروزها عندما ندرس الحيوان الأم الأنثى على اعتبار أنها تمثل النوع. فلدى الحيوانات، تتحدد هيمنة الغريزة بعلاقتها العضوية بصغارها، كما يتحدد بمرحلة ضعف الصغير. إن الموقف التشبيهي الذي نمتلكه أمام العالم الخارجي يحملنا على الاعتقاد بأن المظاهر الغريزية للحيوانات تترافق بعواطف سنبرهن عليها في وقتها. لكن فحص الأفعال واختبارها يدمر هذا الوهم. كما أن تهيئة الغريزة الأمومية الحيوانية تستجيب لضرورات فيزيولوجية، كما لا تستمر إلا على أساس من الأحاسيس الجسدية الدقيقة، وتتضاءل عندما يصبح الصغير مستقلاً وتنقطع أحياناً بقسوة دون أن تترك أدنى أثر لعلاقة عاطفية. فالبقرة أو النعجة (وأتحدث هنا عن ملاحظة شخصية)، عندما نفصلها عن نسلها من الصغار تبدي جميع المؤشرات التي تنم عن اضطراب عاطفي، بحيث في اندماجنا مع الحيوان، سنميل إلى وصف ذلك «بالحنين واليأس». لكن اهتمامَ البقرة أو النعجة بعجلها أو بحملها يتلاشى ما أن ترضي حاجتها الجسدية الصافية. وهكذا نتمكن من اختزال الموقف العاطفي ظاهرياً بردة فعل بسيطة فيزيولوجية بالتفريق. وكما ذكرنا أن مظاهر الغريزة تختلف باختلاف الأجناس. فالغريزة الأمومية للنعجة، مثلاً، على صلة متينة بطبيعة جلد الحَمَل. كما ترفض النعجة بقسوة منح ضروعها لحمل ليس لها، حتى لو كان من نفس العمر والمظهر. إنما يكفي أن نعلق جزءاً من جلد الحمل الحقيقي على ذلك الذي حل محله حتى تتصرف معه كأم. وعلى عكس ما يحصل مع النعجة، ترضع أنثى الخنزير أي خنزير كان، ومن أي أصل كان وتبدي نحوه الكثير من الصبر والروح الأمومية. لكننا نعلم أنها إذا افتقدت للغذاء وعانت من درجة ما من الجوع، فإنها ستفترس صغيرها الخاص بها.

أما الاختلاف الموجود بين المظاهر الغريزية للأمومة الحيوانية والعاطفة الأمومية للكائن الإنساني قد يجعلنا نعالج ذلك كظاهرتين

متماثلتين ومختلفتين تمام الاختلاف. إحداهما الظاهرة الغريزية الحيوانية، على أنها تطور محدد بصورة فيزيولوجية، والأخرى تتوافق مع تطور نفسي إنساني. وما يجمع بينهما أن كلتيهما تخدمان الوظيفة التناسلية.

ومع ذلك، فتحول الغريزة الأمومية إلى «حب أمومي» لا يصدر فقط عن الجنس البشري. فلدى المتقدمات، (من رتبة الثدييات الهباريات والقرديات والبشريات)[1] لا يمكننا ملاحظة سلوك ما يوحي، إلى جانب الغرائز، ببعض العناصر المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعواطف الإنسانية.

فلأي درجة تتزود الأفعال الغريزية للحيوانات المتفوقة بطباع عاطفي، تلك هي مسألة تثير الاهتمام. وفي جميع الأحوال، فلقد استطعنا التثبت بصورة تجريبية، لدى الحيوان، من علاقة السلوك الأمومي مقابل التطورات الهرمونية. كما نسعى للتوصل إلى اليقين نفسه لدى المرأة[2].

وحتى هذه اللحظة، يصعب القول لأي درجة يعبر النظام العاطفي المعقد الذي أسميناه «الروح الأمومية» عن شرط بيولوجي. وبلا شك، تولّد هذا النظام بصورة مباشرة عن موقف بيولوجي، إنما، خلال التطور، أخذت العناصر غير الموروثة والمرنة والمتغيرة، شيئاً فشيئاً، وتحت تأثير التطورات الثقافية والتجارب الفردية تتبلور في حب أمومي، وعاطفة قوية ومعقدة.

لعله من الواضح أن الحميمة المتفردة الموجودة بين الكائنين، الأم والطفل، تعزز النظرية التي ترى أصل العائلة البشرية يكمن في هذه «الفئة» البيولوجية. علاوة على أنه في مجتمعنا، تقوم العواطف الاجتماعية والفاعلية الاجتماعية في التأقلم على العلاقة الأولى للكائن الإنساني الفتي مع أمه.

---

(1) المترجم

(2) Benedek et Rubinstein: Ovarian activity and psychodynamic processes. Psychosem, Med. , vol. I 1939

فعلى العلم التجريبي الإثبات، في يوم من الأيام، أن الظاهرة المعقدة للأمومة تتعلق بالشرط الهرموني الفيزيولوجي والغريزي، فوجهة نظرنا لن تكون محققة من ذلك بشكل قوي. وفي الموقع الأول، في المجال نفسه للوظائف الهرمونية، لن نكون أمام تطور بسيط، إنما أمام تفاعلات معقدة ستكون بلا شك أبعد من طرقنا الحالية في الاستقصاء. وفي الموقع الثاني، فإن الغنى الكبير لدوافع العاطفة الأمومية، والدوافع المنبثقة عن مصادر متعددة، ترفض هذه العاطفة وتردها إلى تحديد فيزيولوجي مباشر. وليس في مقدورنا التفسير الفيزيولوجي إلا جزءاً من المسائل التي تطرحها علينا المظاهر النفسية للأمومة .

فالمركبات الغريزية للأمومة قد تسامت، كما أن تطور «حكمة الغريزة» نحو الروحانية قد تعقد جداً. ولربما الحدس، تلك الصفة الأنثوية بعمق، هو إلى حد ما ذكرى لهذه الغريزة القوية التي تقوم عليها المرأة منذ القدم، وكما ذكرنا، موقفها السابق المهيمن في المجتمع البدائي. وإن تبتعد المرأة أشواطاً عن هذه الغريزة، تفقد طباعها المتفرد. وطالما أن المجتمع الإنساني الحديث لم يُبن على عناصر غريزية، فقد هجرت المرأة فيه دورها المهيمن. وهي تحاول الآن إعادة اكتساب وضعية أكثر تلاؤماً بتحولها إلى الناحية الذهنية وعبر إنجازات عملية نهض بها الرجل، وهذا يتضمن بالضرورة بالنسبة لها خطورة متدرجة في افتقاد طباعها الأنثوي المتفرد. ومع ذلك فقد تم الحفاظ على جزء كبير من المكتسبات العميقة الموروثة في مجال الوظائف التناسلية للمرأة رغم تعديلها بالمؤثرات الثقافية والتربوية التي تتنوع كثيراً وفقاً للحالات ورغم التطور المذهل في الحياة النفسية. وبسبب ذلك يتضمن هذا مسائل بيولوجية، سنترك أمر استقصائها للمتخصصين في البيولوجيا كما تركنا لأخصائيي علم الإنسان مسائل التطور الثقافي، إنما سيحدث لنا من تارة لأخرى العودة لعلم البيولوجيا وعلم الإنسان لترسيخ بعض المقارنات.

وكما يبدو أن جميع تعابير الحياة تتحرك ضمن حدود ضيقة من

التكرار. كذلك سلوك الأم الإنسانية هو في جزء كبير منه الرصيد المتبقي من صيغ السلوك المنسية منذ زمن بعيد والمنتمية إلى أجناس حيوانية مختلفة من الأقل إلى الأعلى ارتقاء. فتاريخ التطور الفردي للكائن يلخص تتطور النوع، وردود الأفعال عالية التمدن تذكرنا أحياناً بأخرى مغرقة في البدائية للتكاثر، حيث يكون الإخصاب خارجياً، لا تعبأ الأم بالمصير اللاحق للخلايا التناسلية المنفصلة عنها. بينما نرى نبذ نسلها ورفض امتلاك أي صلة عاطفية لدى الأنثى البشرية هو أكثر نسبياً مما لدى أمهات الأجناس الحيوانية العليا. ويبدو هذا السلوك تراجعاً إلى مرحلة من النمو لم تكن الغريزة الأمومية موجودة فيها. ويُرى هذا في حالات القصور العقلي القاسي، ولدى الحمقاوات كما يرى أحياناً لدى الذهانيات.

ومن المثير للفضول التحقق كم يمكن للغريزة الأمومية أن تقوم بأخطاء فادحة. فالسلوك نفسه يمكن ملاحظته في بعض الاضطرابات العاطفية التي قد تنفي بطريقة حتمية تماماً المشاعر الأمومية الأكثر بدائية بحيث يأخذنا انطباع بوجود حالة بدائية توصف بغياب تام للروح الأمومية. وعندما ننظر عن قرب، نلاحظ أنه ليس هناك تراجعاً نحو غياب واقعي للروح الأمومية، إنما بالأحرى تطور نفسي معقد رفضت فيه المشاعر الأمومية.

لندون مثالاً آخر. إذ نجد في الأفكار البدائية والساذجة للرجل حول طور التناسل، مماثلة تستوحي الظاهرة البيولوجية للتناسل العذري من غير إلقاح. ومن المحتمل أنه، خلال زمن طويل، لم تتناول الذهنية البدائية العلاقة الموجودة ما بين الترابط الجنسي والإخصاب. وخلال حقب عالية التمدن، ظهرت فكرة التناسل العذري في الأساطير والأديان. فكثير من الأفراد الاسطوريين اعتبروا كأبناء لعذراء، وعقيدة الحبل بلا دنس لمريم العذراء، هي إحدى العناصر العاطفية الأساسية للمسيحية، تمثل إحدى تلك المعاودات لفكرة التناسل العذري. كما نجد أحياناً، في ذهن نساء حديثات، خيال طفل مولود بلا دنس، يعبر عن رغبة للمرأة بسلطة مستقلة

كلياً عن الرجل، إن لم يتعلق الأمر هنا بطور أعمق وأكثر تعقيداً. أمثلة ومماثلات يمكن تدوينها إلى ما لانهاية .

وهكذا، فالظاهرة الطبيعية البدائية للأمومة تخفي عالماً كاملاً من العناصر: تطورات فيزيولوجية يتم التوصل إليها بالملاحظة المباشرة، ومداخلة القوانين البيولوجية للموروث والتكيف، والأطوار العقلية والأطوار العقيمة ظاهرياً، وعناصر نفسية وتاريخية وفردية، الخ. كل ذلك يندمج في كل ضخم ومعقد لا زالت فيه الكثير من الأمور تحتاج إلى تفسير. وجزء كبير من هذا الكل يمكن لعلم التحليل النفسي أن يوضحه.

الفصل الثاني

الأمومة، الروح الدموية والأحاسيس الجنسية

استخدمت في هذا الكتاب عبارتي «أمومة» و«الروح الأمومية» لتحديد مفهومين متميزين بشكل واضح. فعبارة «أمومة» تعود لعلاقة الأم بطفلها ككل اجتماعي وفيزيولوجي وعاطفي. وتبدأ هذه العلاقة من لحظة تكوّن الطفل وتمتد إلى جميع مراحل التطور الفيزيولوجي اللاحقة، من الحمل إلى الولادة إلى الإرضاع إلى العناية الجسدية. وتترافق كل هذه الوظائف بردود فعل عاطفية متماثلة في ما بينها وواصفة للنوع، لكنها تتنوع إلى حد كبير بصورة فردية، لأنها على صلة وثيقة، بالنسبة لكل امرأة، مع مجمل شخصيتها. في ما شدة ردود الفعل هذه، وظهور إلزامات جديدة وعلاقات عاطفية جديدة، كل هذا يطلق مخاوف تبلبل وتقلب حالة الأمور، في آن واحد، في نفس الفرد وفي علاقاته مع العالم المحيط به.

وعندما أقول «روح أمومية»، أقصد فكرتين: 1 ـ مجموعة السمات الخاصة التي تطبع مجمل شخصية المرأة، 2 ـ الظواهر العاطفية التي تبدو على صلة مع ضعف الطفل وحاجته للمساعدة. وما ذكرته عن المرأة الأنثوية في الجزء الأول من هذا العمل، ينطبق على المرأة الأمومية، مع بعض التحفظات والإضافات. إنما مع كل ما نسعى إليه في ترسيخ هذه المماثلة، لا يتحتم علينا أن نهمل الاختلافات أيضاً. فهناك تغيير لأن هناك تعديل كمّي للمركبات الفردية وتعديل في الهدف. لقد حددت صفات المرأة الأنثوية في تفاعلها المنسجم بين الميول النرجسية، وبين قابليتها الماسوشية

في تحمل ألم الحب والعطاء. فالتمني النرجسي في أن تُحب، وهوَ نمطي جداً لدى المرأة الأنثوية، يتحول لدى المرأة الأمومية من الأنا إلى الطفل أو بديلها. وفي هذه الأثناء، يمكننا بكل وضوح ملاحظة أنه رغم هذا التحول الإيثاري تبقى العناصر النرجسية سليمة وغير ممسوسة. مثلاً حب الأم للطفل يشترك مع إيمانها بأنها لا غنى عنه على الإطلاق. وتخف لدى المرأة النرجسية إلى درجة كبيرة، شدة حبها الأمومي كلما تخلص الأولاد من حاجتهم لها. ويكمن مؤثر آخر للمركب النرجسي في الحب الأمومي، في القابلية المألوفة للمطالبة من جانب الطفل. فالأم النرجسية تطالب القدر بتلطف خاص تجاه ابن«ها» ولا يمكن أن تقبل له الحوادث المزعجة التي تحصل بشكل طبيعي للكائن الإنساني.

كما تظهر المركبات الماسوشية للروح والذهن الأموميين في استعداد الأم للتضحية بنفسها، على عكس ما يحصل للمرأة الأنثوية، في عدم مطالبتها بأي مقابل من الطفل، وكذلك في قبولها التألم من أجل خير ابنها وفي التخلي عن التعلق به عندما تحين ساعة تحريره(1).

ولعل أهمية تقبل الألم هذه، تعود بالخطورة على أنا المرأة في ما لو لم يكن لديها ممانعة نفسية للحماية. كما تكون أفراح الأمومة مكافأة ثمينة، إذا استخدمنا هذه العبارة العامية التي تحددها تجارب الروح الأمومية، إنها هنا قوىً توازن الماسوشية. علاوة على أن الروح الأمومية تترافق بعناصر نشطة معينة. وقد سبق لفرويد أن لفت الانتباه لنشاط الأم. كما في الجزء الأول، محاولة مني لإلقاء بعض الضوء على هذا النشاط. ناهيك عن أن د. ليفي أوضح، على نحو خاص، هذا الوجه للوظيفة الأمومية. إن هذا

(1) Cf. Sachs H. : One of the motive features in the formation of the superego in women. Internet J. Psycho-analysis, 10: 50, 1929

يصنف ساش أولئك النساء، اللواتي تمثلن بالنسبة لي النمط الأمومي بامتياز، تحت عنوان كبير «مرتا وماري» ؛ ويقول: «يكمن قهر النفس بالنسبة لهن في التخلي».

النشاط ليس طباعاً عدوانياً أو رجولياً، بل أعتقد أنه على العكس، يمثل ذلك المركب من الروح الأمومية الذي هو أقرب للنشئية النوعية والغريزة العقلانية. إنه يستدعي إلى ذهننا بقوة، مآثر الأنثى الحيوانية التي تكافح لإيجاد مأوى وغذاء لصغارها والتي تدافع لدرء الأخطار التي تحيط بها. وإذا ترافق هذا النشاط الحمائي في الدفاع والغذاء، بمركبات عدوانية - ذكورية، فإن هذه المركبات لا تأتي من الروح الأمومية الأنثوية، إنما من مجالات نفسية مرافقة ومعادية لهذه الروح. فهناك نساء لديهن هذه الطباع العدوانية في روحهن الأمومية، والتي سنجدها عند دراسة الأنماط المختلفة للأمهات.

إن «الغريزة الأمومية» و«الحب الأمومي» عنصران مختلفان عن الروح الأمومية في كليتها. فالغريزة لها أصل بيولوجي وكيميائي، وتكمن ما وراء الفلك النفسي. أما صيغتها البدائية فبالكاد أن تصل إلى حضارتنا. إنها متخفية خلف الشخصيات الفردية والتأثيرات المحيطة، أو بالأحرى بمجمل المضامين النفسية. فالحب الأمومي هو تعبير عاطفي مباشر عن الصلة الإيجابية مع الطفل (بديلها). وأثره المهيمن هو «الحنان». وكل عدوانية وإحساس جنسي موجود في شخصية المرأة هو الآن مبعد وملغى بفعل هذا التعبير العاطفي الكبير، الروح الأمومية. ومن نافل القول، أن نميز في الحب الأمومي تأثيرات عدوانية وحسية، إنما لدى المرأة الأمومية، يحوَّل الفائض من العناصر العدوانية الموجودة، من الطفل نحو الوسط المحيط، وغالباً ما يكون غرضه الدفاع عن الطفل. أما بالنسبة للعنصر الجنسي، فهو موجود بصورة مشبعة في اللجوء إلى الاحتكاك الجسدي بالطفل، وفي مداعبته، وفي الأفعال المتعلقة بالعناية به والتي هو بحاجتها.

وضمن مقياس متغير وفقاً للحالات، تثير الوظائف الفيزيولوجية للأم وحاجات الطفل، دوافع موجودة مسبقاً وذات صلة بحالة من النعاس. ومع ذلك نلاحظ ثمة دوافع تظهر كذلك عند المرأة الأمومية، بصورة مستقلة عن التأثيرالمباشر لوظائف التكاثر. ويتغير نوع وشدة هذه الدوافع بصورة فردية

وفقاً للبنية الشخصية في مجملها. لنأخذ، مثلاً، ميلاً ما موجوداً على الدوام في الروح الأمومية، إنه الميل النمطي للمرأة في منح الغذاء لكل كائن يلقى عنايتها وليس فقط لطفلها. ولاستخدام التعبير لما نسميه «الدوافع الجزئية»، إنه المركب «الفموي» للروح الأمومية. ولإشباع هذا المركب، تبدي المرأة اهتماماً خاصاً تجاه أطوار التغذية للكائنات التي تحبها كما تظهر عناية كبيرة لما يخص تغذيتها. وتكرّس بعض النساء هذا الاهتمام بطريقة مهيمنة أو استثنائية لأطفالها كما تمتد أحياناً لتطال الأفراد الأقرب من عائلتها. هذا الاهتمام الخاص جداً والمتلائم مع التغذية نمطي جداً لدى النساء اليهوديات. ولندوّن أيضاً مثالاً عن المضيفة المسؤولة عن أشخاص أكثر بعداً، هذا النوع الخاص من العطاء، نجد غالباً هذا النمط من المرأة لدى الفرنسيات والسلافيات. أما المرأة الزاهدة في انكلترا الجديدة فتأبى هذا النوع من الإشباع الأمومي تجاه أطفالها، مؤثرة تغذية الجوعى والمعوزين.

إن نمو الروح الأمومية، والمسالك التي تلجأ إليها، والطريقة التي تنفذها، والعلاقة بين الأم والطفل، مشروطة كلها بالكثير من العوامل. وحتى الطفل حين يبدي اهتماماً أصلياً وبدائياً بأمه، ليس إلا حلقة ضمن سلسلة عوامل حياتية تحيط به وتتعلق بها.

وسنوضح ذلك لاحقاً بمجموعة من الأمثلة.

ورغم أننا نؤكد وجود عوامل عديدة في نفسية الأمومة، لا نلغي منها خلفية غريزية عميقة. بل وربما، جزء كبير من الحياة النفسية للمرأة لا زال تحت تأثير غريزة قوية هامة جداً لا نفهمها لكنها تسبغ أطوارها النفسية حتى إلى ما وراء مجال الوظائف التكاثرية. وبخصوص هذه الفرضية، ينبغي علينا أن نطرح السؤال التالي: إلى أي حد يبلغ التماثل وأين يبدأ الاختلاف بين المظاهر الغريزية الأنثوية الحيوانية والإنسانية؟ وفي نهاية الأمر، ففي عالم الحيوان أيضاً، يختلف السلوك الغريزي وفقاً للأجناس، كما أن قوته وضعفه ليس دوماً مجارياً درجة تطور النوع.

وقبل كل شيء، كما ذكرنا في السابق، ترتبط العلاقات العاطفية للأم البشرية بطفلها، بعدد كبير من التأثيرات النفسية غير المباشرة والتي تعقدها وتبعدها عن الطباع البدائي للغرائز.

فالروح الأمومية، قد تنسجم مع الميول الأخرى النفسية، أو تتعارض معها وتجعلها مضطربة ومكبوتة، أو توجهها نحو مسالك خاطئة. مثلاً، كما نعلم لها أحياناً تأثير كابت على العشقية. كما أن الإفراط بالروح الأمومية قد تهيج أو تيسر ممارسة مهن مختلفة من نمط أمومي (مثل التعليم، والعناية بالمرضى، ...إلخ) وعلى العكس، اهتمامات أخرى أو علاقات عاطفية، العشقية على نحو خاص، قد تؤدي إلى إفقار المشاعر الأمومية.

كما نلاحظ ذلك في انحرافات الروح الأمومية، إذ أن مشاعر أمومية مفرطة قد تساعد شعوراً واقعياً بمركباته العاطفية وتوجهها نحو غايات مختلفة تماماً، لا علاقة لها بالطفل. إنه تأثير محزن لهذا الطور، حيث امرأة أمومية قد تبقى بلا أطفال، أو محرومة كلياً من أن تكون أماً حقيقية. على خلاف ما نراه لدى الحيوان، فالعواطف الأمومية للأنثى البشرية تستمر إلى المرحلة التي يكون الطفل فيها بحاجة لرعايتها، وتتابع هذه العواطف الطفل في نضوجه، وقد تستمر دون أن تفقد شيئاً من شدتها، طيلة حياة المرأة. وتكمن إحدى التجارب الماسوشية للأمومة في الفعل الذي تتطور به عواطف الطفل نحو العالم الخارجي، بعيداً عن الأم، في حين أن الأم تملك ميلاً للبقاء مولعة به وعليها الرضى بالتخلي.

وخلال المراحل المختلفة لوظيفة التكاثر، تكون المشاعر الأمومية متعززة بردود فعل معينة تمثيلية للمرحلة مدار البحث (علوق، أو حمل، أو إرضاع، ... إلخ)

كما أنه في النفس الإنسانية، لا يكون أي مركب مستقل عن آخر، فهناك عناصر تبدو متعارضة ويرتبط بعضها بالبعض الآخر، وتظهر في آن واحد أو بصورة متناوبة، في حين أن عدة ميول قد تدعم أو تكبت ميلاً

آخر. وهذا ما يجعل كل كائن إنساني في غاية التعقيد وغاية الإثارة. وتحتوي النفس الانثوية على عامل غير موجود في النفس الذكورية: إنه العالم النفسي للأمومة. وبسبب ذلك، تظهر المرأة بسلوك أكثر تغيراً وتعقداً أكثر عظماً، إزاء ثنائية القطب التي أتينا على ذكرها في مطلع هذا الجزء، إنها ثنائية الحياة والموت، غريزة البقاء ووظيفة التكاثر، فضلاً عن التفاعل بين المشاعر الجنسية والروح الأمومية. وتلحق هذه القطبية بالثنائيات الأخرى، مثل، الإيجابية والسلبية، العدوانية والماسوشية، الأنوثة والرجولة. فالصراعات المألوفة الموجودة بين هذه القوى تنعكس بعضها على البعض الآخر، معطية عمقاً وغنىً لنفسية الأمومة.

وهكذا يترسخ التميز بين الغريزة الجنسية وغريزة التكاثر، وبين غريزة البقاء وغريزة حفظ النوع، هذا التميز الذي يُنظر له، كأساس للشخصية الإنسانية، يعد جزءاً من مفهوم قوي وقابل للجدل.

إن إشباع الرغبة الجنسية وإفراغ شحنتها وتوترها، يشكلان أساس الغاية المباشرة للحاجة الجنسية. وتم التعرف، شيئاً فشيئاً، عن أن الإخصاب، ينتج، على نحو ما بشكل منتظم، عن الفعل الجنسي. وقد يكون هذا الأثر للحاجة الجنسية، والمناسب للحفاظ على النوع، مرجواً بشكل مقصود، وبدرجة أعلى، قد تكون رغبة الإرضاء الجنسي متحولة عن هدفها الواقعي لتكون في خدمة التناسل بصورة عقلانية. وقد طالبت الزهدية الكاثوليكية بهذه العقلنة كوسيلة للتخفيف من خطيئة الحاجة الجنسية.

ويقدم علم البيولوجيا البراهين، على أن الحاجة الجنسية عند الحيوانات، قد تقولبت وتوجهت وفقاً لغريزة التناسل. وهكذا يأخذ زمان ومكان العلاقة الجنسية بعين الاعتبار، الشروط الأكثر ملاءمة من أجل ولادة ونشوء الصغار.

فبعد الحمل، تهدأ الرغبة الجنسية للأنثى، وتتوقف عن ارسال الرائحة المميزة، ويفقد الذكر بذلك ما كان يحثه على التزواج. ولدى

العديد من الثدييات، تغيب الحاجة الجنسية ما دام الصغار بحاجة للإرضاع الأمومي.

وقد أجريت مؤخراً تجارب على الحيوانات أظهرت أنه لا يوجد أي تطابق مطلق بين السلوك الأمومي والسلوك الجنسي.

إن الفصل ما بين السلوك الجنسي والسلوك الأمومي واضح تماماً لدى الحيوان. فما قبل الدراسات الحديثة الخاصة بالغدد حول السلوك الأمومي، كان كثير من الباحثين، يعتبر أن تغذية الصغار والحب الأمومي مشتقين من الغريزة الجنسية. «سيني» الكاتب في عام 1927، أشار بعدة طرق أن الدافع الأمومي كان بلا علاقة مع الأطوار الجنسية للأنثى. وفي التجارب التي أجريت على الدجاجة، كشفت أن الدافع الأمومي كان يعيش بعد الإخصاء، وأن تطعيم البيضة بالإباضة على دجاجة عندها صيصان أوقف الدافع الأمومي، وأن هناك قلة في النشاط وارتداد عن البيوض خلال حضنها، ومبالغة في النشاط الإباضي خلال مرحلة التحريض الجنسي، وعندما حمّل «سيني» الديوك سلوكاً أمومياً بالزرع الغددي، توقف أي نشاط جنسي لدى هذه الطيور. أما «ويسنر وشيرد» فقد عملا على الجزدان، واكتشفا كذلك، أن الاستئصال التجريبي للبيوض خلال الحمل أو بعده، لم يكن له أي تأثير على السلوك الأمومي. كما يذكر «ييركز» «مدام آبرو» ويقدم ملاحظاتها الخاصة، حيث توقفت ثلاث من أنثى الشمبانزي عن أي علاقة جنسية ابتداءً من لحظة الوضع وحتى خدمة صغارها[1].

لا ريب أن تلك الملاحظة الأخيرة، قد تخدم النظرية القائلة بأن الحاجة الجنسية تشمل الحاجة الأمومية، والأولى من هاتين الحاجتين تفي غرضها بينما تلجأ الثانية إلى السبات.

---

(1) Levy D.M. : Op. cit., p. 139

في ما الرغبة الإنسانية هي في امتلاك ذرية تتولى عدة صيغ ثقافية. فالتوصية الدينية تقول: «تكاثروا»، وترتبط هذه الرغبة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بفكرة الخلود. كما تخرج هذه التوصية عن مصادر نفسية بحتة، وعن أفكار بدائية حول الإنسان والطبيعة، وحول الحياة والموت. فغريزة التكاثر تنعكس فيها بشكل روحاني وترتبط بالحاجة العميقة لنفي وإنكار الموت ولخدمة الحياة. ووفقاً لمعتقدات هندوسية قديمة، على سبيل المثال، يتعلق مصير كل إنسان بعد الموت بالفعل الذي استطاع أو لم يستطع أن يتخلد به على هذه الأرض. وليس إلا بإنجابه لولد، يحصل الإنسان على المضي نحو السماء والمكوث فيها إلى الأبد. إنه لا يحقق خلوده إلا من خلال نسله. وتعتبر المرأة هي الكائن الذي يجدد العرق، كالحقل الذي يبذر الإنسان به الحب.

ولقد لعبت دوماً الدوافع الاجتماعية والاقتصادية دوراً هاماً في التكاثر وأثرت به في مختلف الطرق وفي مختلف الحضارات. وفي بعض الظروف الاجتماعية، من المفيد اقتصادياً إنجاب المزيد من الأولاد. فالسبب في التناسل هنا هو سبب عملي بحت. وتلعب أحياناً الأسباب الاجتماعية والاقتصادية دوراً بطريقة معارضة وتقيّد الرغبة في التناسل، كظروف الفقر أو ندرة إيجاد السكن، ... إلخ ولها كلها تأثير كابح على الإخصاب.

ويصعب القول إلى أي حد تؤثر الظروف الخارجية في رغبة المرأة في أن تكون أماً، وإلى أي حد تتكيف بصورة سلبية مع أمنيات وأفكار البشر على مر مختلف عهود الحضارة، وإلى أي حد تتوافق مع ميل بدائي، جعلت دوافعه شعورية ولا شعورية في آن واحد.

إن الارتباطات الموجودة بين الشعور الجنسي والروح الأمومية ذات طبيعة نفسية معقدة، ويبدو هذا التعقيد مشيراً إلى تحديد ما هو ليس هرموني بهذه البساطة. كما يكونان أحياناً في منتهى الانسجام، في حين يبدوان أحياناً أخرى منفصلين بشكل كامل، كما أشرنا إلى ذلك في

التجارب التي تحدثنا عنها على الحيوانات. وفي كثير من الحالات، يسمح لنا وجود أحد هذين العنصرين الاستنتاج بوجود الآخر، وتنوعات أحدهما يؤدي إلى تنوعات الآخر. وهناك نساء لسن عاشقات ولسن أموميات وأخريات يشركن بصورة رائعة ما بين شدة العشقية والأمومية المحتدمة. وقد يُحدث الفصل بين الشعور الجنسي والروح الأمومية صيغاً لا حصر لها. وقد يؤدي هذان العنصران إلى التوجه نحو أدوات مختلفة للحب. فثمة امرأة ترغب برجل رغبة جنسية أو تثيرها فكرة أنه راغب بها، لكنها تختار رجلاً ليكون أباً لأولادها وتحبه بحنان ووفاء على اعتباره هكذا. في ما امرأة تمتلك انسجاماً نفسياً، يُمكن أن تُشبع في رجل واحد شعورها الجنسي وروحها الأمومية.

وقد يُهيمن أحد المركبين كلياً على الحياة الشعورية في ما يبقى المركب الآخر متوارياً في اللاشعور، إلى أن ينتشله التحليل. وقد أدركت عبقرية بالزاك بصورة حدسية ما جَهد المخبريون على اكتشافه بصورة تجريبية. لقد قدم في مذكرات «شابتين متزوجتين» وصفاً جليلاً لهذين المركبين المتعارضين في النفس الأنثوية[1]. صديقتان ترويان تجربتهما بالمراسلة. وتمثلان نمطين متعارضين، إنما كل منهما تكتشف، بعمق مخبوء في نفسها، الحنين لشيء ما لدى الأخرى، والحاجة لإحساس ما هو مناقض لطبيعتها. ويبرهن هذا الحنين تماماً أن هذا الشيء موجود عندها، إنه يتخذ صيغة بدائية ومرفوضة. مما يأخذنا على الاعتقاد حقيقة أن بالزاك استخدم هنا خدعة أدبية تقليدية، إنه تشخيص فاصل لاثنين من ردود الفعل المتعارضة. وواقعياً، تمثل المرأتان ميلين متناقضين في امرأة واحدة. فهذا التواجد المشترك للميلين المتعارضين هو شيء طبيعي، وما رجحان أحدهما على الآخر إلا عاملاً مؤدياً إلى تعقيدات وصعوبات عصابية.

البارونة «لويز دي ماكومير» هي العاهرة النمطية، فالمرأة خلقت

(1) Deutsch H. : Motherhood and sexuality. Psychoanalyt. Quart., vol.2 1933.

للحب، والهدف الوحيد لها في الحياة هو في مواصلة الهوى، والاستمتاع بالتجارب العشقية الشديدة. في ما صديقتها «رينيه دي ليستوراد» تحقق النمط الصافي للحب، وحتى في علاقاتها مع زوجها تكتب لويز:

كلانا امرأتان، أنا العاهرة المفعمة بالحب، وأنت أسعد الأمهات...... لاشيء يساوي متع الحب.... أنت صديقتي، وعليك أن تبوحي لي بمباهج الأمومة لكي أتمكن من أن أتذوقها من خلالك ....

ومع ذلك، وحتى وسط نشوات علاقاتها الغرامية، تهتف لويز:

امرأة بلا طفل شيء فظيع، لقد وُلدنا لنكون أمهات. أنا أرغب أنا أضحي بنفسي، واستغرق في هذه الأيام بأفكار كئيبة: ألن يكون هناك فتى يناديني يا أمي ؟

لكن هذا الإظهار العابر لحاجة الأمومة يرتد ويطرد بلهيب الهوى، وقد أفنت لويز فيه نفسها دون أن تلائم أنوثتها أبداً مع إرضاء أن تصبح أماً.

ومن ناحية أخرى، تكتب الأمومية مدام دي ليستوراد :

تكمن سعادتي الحقيقية الوحيدة (كم هذا ثمين لي !) في يقيني في تحديد حياة هذا الرجل التعس، حتى قبل منحه الطفل!

وهكذا تكون الأمومة حتى في جوهر علاقاتها الغرامية مع زوجها.

فالرغبة في إنجاب الأولاد والأمومة، تغمر الحياة العاطفية لهذه المرأة. رافضة كل الأحاسيس الجنسية، إنها لا تقبل أي مشاعر، مراعاة للأمومة، ومع ذلك تكتب إلى صديقتها العاشقة مايلي:

توجّب عليّ التخلي عن متع الحب، وملذات الجنس التي أتوق إليها والتي لم أستطع معايشتها إلا من خلالك، كالمواعيد الليلية تحت ضوء النجوم، ورغبات الحب وتدفقه بلا كابح.

وهكذا يتوارى الحنين لمتع الحب توارياً عميقاً في نفس رينيه

الفاضلة، كما يتوارى الحنين للأمومة في نفس لويز المغرمة. وهي تقر بأن الطفل قد يثير حقداً يكمن أصله في التخلي عن الإشباع العشقي، وفي تقييد التحقق الغرامي المنتظر بصورة لا واعية، رغم التكريس المنذور للأمومة. وتمسك الأمومية مدام دي ليستوراد، طفلها على ركبتيها وتكتب لصديقتها المفضلة مايلي: «لقد حمل الزواج لي الأمومة، وأنا سعيدة هكذا» لكنها تقول في ما بعد:

الكل يتحدث عن فرحة أن تكون أماً ! أنا وحدي يمكنني أن أحكم على ذلك. إني أخجل أن أعترف لك أني لا أحس بشيء ... لدي الرغبة التامة في التعرف كيف يبدو فرح الأمومة هذا. وداعاً يا صديقتي السعيدة، من خلالك أحيا ثانية وأتذوق الملذات المسكرة للحب، ومشاعر الغيرة من أجل نظرة، والأسرار المهموسة في الأذن.

أي مثال سريري لا يمكن أن يعرض، بصورة لافتة وواضحة، التعارض الموجود بين الأمومة والعشقية كما عرضه الوصف البلزاكي لهاتين المرأتين المتعارضتين والمتكاملتين.

فمدام دي ليستوراد تركز كل عواطفها الأنثوية على الأمومة، ليس بالعلاقة مع أولادها فقط، إنما أيضاً مع زوجها وبصورة محتملة مع كل الكائنات الإنسانية. والعشقية، هذا المظهر الآخر للأنوثة، ليست بالنسبة لها سوى رغبة تعترف بها لصديقتها، لكنها مرفوضة تماماً لديها ما دامت تمثل بصورة عاطفية. لقد وهبت الولادة والحياة لأولادها، واستثمرت عواطفها الأمومية بهم، وهم من لحمها ودمها. فالروح الأمومية والأمومة ممتزجتان في نفسها. إنما هناك نساء تكرّس أرواحهن الأمومية إلى أدوات أخرى غير أبنائهن، أي لأبناء نساء أخريات أو لراشدين امتدت حمايتهن الأمومية نحوهم. فكثير من هؤلاء النساء يخترن مهناً معينة يستخدمن فيها مشاعرهن الأمومية.

إحدى مريضاتي كانت قابلة شابة. كانت قد اختارت هذه المهنة

(الغريبة جداً عن إنسان من طبقتها الاجتماعية)، ليكون لديها أولاد باستمرار، الكثير، الكثير من الأولاد، وكلما كان الأطفال ضعفاء البنية ويحتاجون للعناية، كانت تحبهم أكثر. وكان يلعب خوفها الشخصي من الحمل دوراً كبيراً في اختيارها، لذا وجب عليها ترك هذا الخطر لامرأة أخرى قبل أن تتمكن من المماثلة مع أم في امتلاك طفل. لقد كانت قابلة ممتازة، و مدربة جداً، وجديرة بأن تنذر نفسها لعملها بلا حدود. كما أتت من أجل التحليل بسبب بعض المصاعب الغريبة التي تعاني منها في ممارساتها لواجباتها. «فامرأة بالطلق» كانت تمثل لها نداء حرب تستجيب له بحماس (داخلياً على الأقل). وعند رؤيتها للنساء الأخريات في أحوال الوضع، تشعر بمزيج من القلق النفسي والمتعة، مثير للفضول. وفي لحظة الولادة، أي اللحظة التي تجلب فيها الوليد وتمنحه العناية الأولية، كانت بالنسبة لها تجربة انتشائية. أي طلق لم يكن قاسٍ بالنسبة لها، وباستطاعتها تمضية ليالٍ بلا نوم ودون تعب. إنما ما لا تستطيع تحمّله، يكون في معرفة ولادة في حالة التهيئة ولم تتمكن من حضورها، ومن الصعب أن تتغاضى أو تسامح نفسها في فوات اللحظة الحرجة والحاسمة. ومنذ أن عملت في دار التوليد، أصبحت تعيش في حالة من الإثارة والإنهاك مما أودى بها في نهاية المطاف لأن تعرض نفسها على التحليل.

وكانت الأعراض تتحدث عن نفسها. فالنشاط المهني لهذه المرأة، كانت غايته تحريرها من شعور ظالم بالذنب إزاء أمها. وكانت حاجتها في إنقاذ حياة الآخرين، تأتي من التخيلات التي أضمرتها بقتل أمها ومولودها الجديد. والحياة والموت اشتركا اشتراكاً وثيقاً في تخيلات مرحلة طفولتها. وعندما كانت طفلة، سمعت بلا ريب، الأحاديث عن الآلام والمخاطر التي تعرضت لها أمها خلال ولادات عديدة. وكان ذلك سبباً في تصورها الماسوشي، إلى أبعد الحدود، عن الدور الذي تأخذه المرأة خلال الفعل الجنسي. وقد ظهرت ميولها الماسوشية خلال مرحلة البلوغ بتخيلات شرسة جداً حول الاغتصاب، والخطر الذي يتهدد أناها من جراء تحقق هذه

الأوهام، كان كبيراً لدرجة أنها عزفت نهائياً عن مشاعرها الجنسية، ولم تستطع أن تعطي درساً حراً لمشاعرها الأمومية إلا بالطريقة التي أتينا على ذكرها. وهكذا، فاختيار مهنتها كان يخدم استحواذين، استثمار وتوظيف شعورها بالذنب، وميولها الماسوشية التي كانت تشبعها بالاندماج بالولّادات. وعندي لها صورة تظهر بها وبين ذراعيها ثمانية أطفال صغار، كتعبير نموذجي عن الأمومة.

ولعلنا نجد حالة مماثلة، ومع ذلك مختلفة، في كتاب «تانت تولا» لـ «ميغل دي أونامينو». تستحوذ على «تانت تولا» فكرة الأمومة. وهي تعتبر كل ما يمس الأحاسيس الجنسية والعشقية محتقر ومقرف؛ وهي تولي الفعل التناسلي لامرأة أخرى عناية خاصة، كمزارع يتآلف مع محاصيله أو عامل حدائق مع وروده. إنما فقط النتيجة أو الثمرة التي نضجت تحت رعايتها اليقظة تمتلكها كشيء يخصها، وتنذر نفسها له بالكامل. وتتوصل بهذا لامتلاك حياة بصورة روحانية، تلك الحياة التي أنجبتها امرأة أخرى بالآلام الجسدية. وتعد «تانت تولا» التوأم النفسي لقابلتنا، إنها فقط قاسية وصارمة تجاه الطباع الجنسي من أمومتها. وهي تتمسك طيلة حياتها بملكية الأطفال الذين أنجبتهم إلى العالم لها امرأة أخرى. وهي هنا غير منطقية على الإطلاق مثل القابلة، إذ تترك المرأة الأخرى تموت بقسوة، ما أن تنهي وظيفتها التناسلية. حتى أنها تعتبر الرجل الذي سوف ينجب هؤلاء الأطفال طفلاً، وهي تقتل العلاقة العاطفية التي يكنُّها لها وتوجهه، بتصميم متصلب الفؤاد، نحو امرأة أخرى.

تترك «تانت تولا» أختها تتزوج الرجل الذي أحبته وأحبها. بل وترتب مراسم الزواج، ثم تضغط على الزوجين لإنجاب طفل، وتتعهد بعد ذلك به بصورة كلية. كما تدفع أختها الواهنة من ولادة إلى أخرى، حتى تخور قواها وتموت، تاركة جميع أولادها لرعاية أختها «تانت تولا» أمهم الروحية. ثم تحيا مع زوج أختها كأم لأولاده، وتوجه هواها الجنسي نحو الخدمة، تلك «الأداة الجنسية الدنيئة» التي يجب بدورها أن تموت موتاً

بطيئاً بعد أن أنجبت العديد من الأولاد لـ «تانت تولا». إنها تلعب دورها بتصميم كأم روحية ولا تدع الأطفال يعتقدون للحظة واحدة أنها حملتهم في أحشائها وأنجبتهم. فذكرى الأم الحقيقية يجب أن يبقى حاضراً دوماً، خشية أن تدنس بظنون المشاركة الجسدية، الأمومة الصافية والحقيقة لـ «تانت تولا». وتظهر من وقت لآخر الرغبة المردودة فتغادر «تانت تولا» القرية حيث تعيش مع زوج أختها الأرمل، لتمضي إلى المدينة. وتتحدث عن موقفها بهذه العبارات:

«لا يوجد صفاء حقيقي في الريف. فالنقاوة لا تنمو إلا حين يجتمع الناس في ركام مختلط قذر من المنازل تعزلهم على نحو أفضل. فالمدينة هي دير للعزلة. في ما تجذب طبيعة الريف الناس بعضهم إلى بعض والأرض التي يستلقون عليها للنوم. أما بالنسبة إلى الحيوانات فهم أفاعي الجنة. لنعد إلى المدينة»!

وتقول عن الرجل الذي رغب بها: «إنه لازال صبيانياً وسخيفاً في كثير من وجهات نظره. كيف أتمكن من جعله أحد أولادي ؟»

مرة أخرى تحطم الرغبة غير الروحية عقبات الأمومة الروحية.

وها هي تأخذ ابن أختها الصغير الذي كان يبكي جوعاً وتنزوي معه في غرفة. وحالما تحرر أحد ثدييها من الثياب، الثدي المتجعد لفتاة عانس والمحمر والمرتجف كأنه من الحمى، والمضطرب بضربات قلبها القوية، وتضع الحلمة في الفم الوردي العذب للرضيع. لكنه ضاعف صراخه ما إن مص الحلمة المرتجفة الجافة.

وترفض تانت تولا رفضاً باتاً القبول أن لها أباً مسؤولاً عن مفهومها، مع أن الكاتب يعلمنا جهاراً بذلك. ويندرج هذا الرفض تماماً في تجربتنا التحليلية. وفي ذهن هذه المرأة، الأب العظيم والمحبوب هو «دون بريميتيغو» شقيق والدتها ووالدها المربي. أما «أونامينو» فيعرض بصورة واضحة، كيف ترغب تانت تولا في حياتها الخيالية أن تحتفظ دون مساس

بطهارة أمها، وكيف تصون أمها الحقيقية وكيف يصدر رد فعلها في علاقتها مع أطفالها بالتبني كعلاقتها مع أمها.

وبهذا نستطيع بيسر تفهّم ما تقوله تانت تولا عن دون بريميتيغو لأختها:

«إنه دوماً جليل وهادىء، وبكلمة بسيطة كان يقولها لنا أنه كرّس حياتنا لعبادة أمنا وجدتنا اللتين هما أخته وأمه. لقد وهبنا أماً مزودة بمسبحة وردية[1]، وعلمنا كيف يجب أن تكون الأم».

نتعرف هنا بكل جلاء ووضوح على خيال تصور الأم الطاهرة بلا دنس، والأمومة دون أب. علاوة على أن الكتاب يصف ذكريات تانت تولا عن ألعاب مرحلة الطفولة، والدمى التي كانت تمتلكها، حيث كانت في جوهر تطورها اللاحق.

لا حصر لعدد النساء اللواتي، بسبب خوفهن من الأحاسيس الجنسية، لا يتمكن من إرضاء روحهن الأمومية إلا بالمواربات والوسائل غير المباشرة. وكثيرات منهن يخترن، تيمناً بقابلتنا، مهناً تمنحهن الفرصة في تلبية و إرضاء روحهن الأمومية، وترك المقتضيات الجنسية وتجربة التناسل لنساء أخريات. أما دوافع السلوك أو تصرف ما فلها اختلافات كثيرة، فالمرأة الناضجة بالنسبة لموضوع الأمومة لا يمكنها هجر تصوراتها الطفولية، ومخاوفها المتعلقة بطبيعة ومعنى و مخاطر الولادة إلا بطريقة شعورية. وقد يكون لاشعورها مليء كذلك ببقايا مرحلة الطفولة التي تتعارض مع تحقيق أمانيها كامرأة.

فالأنا الأعلى الذي ترسخ الفتاة قيمه استناداً لها، يتقبل الأنوثة في دور الأم. وفي رغبتها نحو تحقيق الكمال، تكرر الفتاة الصورة المثالية التي

(1) مسبحة وردية عند المسيحيين: ذات خمس مجموعات تستخدم عند الصلاة لدى بعض الطوائف الغربية (المترجم)

تعزوها لأمها، كما تريد الآن الارتقاء بالمقتضيات التي فشلت أمها في تحقيقها، فهي تريد أن تكون أماً دون أن تتعرض للخطيئة الجنسية ودون أن تنحدر وتهبط بأناها. مثل هؤلاء النسوة يكن متكيفات جداً مع الواقع، ويوجهن حاجتهن الأمومية نحو العالم الواقعي ويستخدمنها في إنجازات اجتماعية مفيدة، وتحديداً في بعض المهن.

لدى اختبارنا للأسباب العميقة وراء اختيار مهني ما، نجد من السهل التعرف على أصله العاطفي. وتستجيب هؤلاء النساء بفاعلية، في صالح الأطفال الذين عُهد إليهن بهم، وهو المطلب العاطفي نفسه الذي طلبنه من أمهن. ويعتنين بهم بهمّة عالية ويجهدن بتصرفاتهن، في البرهنة على أن أمهات هؤلاء الأطفال غير جديرات في منحهم الحنان الواجب والتربية التي يحتاجون إليها، وإظهار أن لديهن كفاءة أكبر في النهوض بهذه المهمة. وبما أنهن يمتلكن اللياقة وحسن الذوق، فيتوصلن إلى نيل الرضى في عملهن. إنما نجد كثيراً من النساء والشابات نشيطات جداً، ويعانين من صراعات بلا انقطاع لأنهن غير قادرات على ضبط مشاعرهن العدائية تجاه الأمهات اللواتي عهدن بأولادهن إليهن.

كما تختار العديد من النساء مهناً معينة ويتخلين عن الزواج والأولاد لتهدئة عدوانيتهن القديمة لأمهن وإخوتهن وأخواتهن الأصغر منهن. ويردن مساعدة الأمهات الأخريات وتكريس ونذر أنفسهن للأطفال الصغار، بالتخلي عن كل مشاعرهن الأنانية من أجل النهوض بهذه المهمة. ويكمن خطر اختيار المهنة هنا في ميل مفرط للتضحية لا تعطي دوماً نتائج تربوية حسنة، فالمعلمة التي تصبح هدفاً لعدوانية تلاميذها في الصف أو ميدان اللعب، رغم لطفها وروحها المضحية، تنتمي لهذا النمط. هذه المرأة التعسة هي أم متألمة تحاول، بطريقة معينة وناقصة، أن تطلق العنان لروحها الأمومية. لقد عرفت معلمة في حضانة للأطفال، ذات صفات حميدة، لا تتمكن من إدارة صفوفها إلا إذا تواجد بها عدد كبير من الأطفال الصينين أو اليابانيين، حيث كان لها قامة مرهفة نحيفة ولم تتمكن من أن تفرض

سيطرتها الضرورية إلا على تلاميذ قصار جداً، فقد كانت الأصغر في عائلتها وكانت تظل الطفل التوّاق إلى النضج والأمومة. ولم تتمكن من أن تشبع رغبتها إلا بهذه التسوية الخاصة.

ونجد شكلاً آخر للتسوية لحالة هؤلاء النساء اللواتي لا يستطعن تكريس أنفسهن لمهنة تشمل العناية بالأطفال، إلا إذا كان لديهن أطفال. وبمعنى آخر، هن يفشلن بسبب كبت هنا وكبح هناك، أو بسبب ضعف عصابي... الخ. وهناك كذلك امرأة من نمط معارض، لا تجد الفرصة في ابنها، إلا إذا استفادت أيضاً من اتجاهها الأمومي نحو أطفال آخرين. وهذا النمط يذكرنا بحيوية، بالمرأة التي لا تسعد بالزواج، إلا إذا كان لديها صديق أو صديقة كأداة حب، فضلاً عن زوجها، أو على العكس، التي لا تظهر شغفاً قوياً لرجل آخر إلا إذا وجدت في الزواج توظيفاً ما لمشاعرها. وتهدف تلك الأساليب للتكيف مع التناقض الوجداني العاطفي، أو في إرضاء مشاعر موزعة، موجودة في جميع العلاقات الإنسانية. وفي جميع حالات الاضطرابات الخفيفة هذه، يكتشف التحليل تثبت مواقف مرحلة الطفولة والميل إلى الاستمرارية، أو تولد هذه المواقف في حياة الراشد من جديد.

كما أن إرضاء الميل الأمومي، وبنفس الوقت، الانتقام المظفر من الأم الفعلية، يتواجدان بصورة لافتة ومأساوية، لدى المرأة التي تخطف طفلاً دون عائد مادي أو لخدمة عصابة أو رجل ما. ولحسن الحظ، مثل هذه الحالات، نادرة الوجود. وبعض الحالات التي تمكنت من ملاحظتها، بصورة مباشرة، كانت متماثلة بعضها للبعض الآخر، بحيث نتمكن أن نراها بيقين تُناط بالطور النفسي نفسه. فامرأة كهذه «تختطف» عادة، طفلاً ضعيف البنية وبائس بحيث تتمكن بيسر من أن تؤلف قصة وهمية، بأنها تجده معرضاً لعدد من أخطار العالم الخارجي من أم شريرة. فهو بلا حماية، ومهمل، بحيث تحس الخاطفة نفسها مدفوعة وحتى ملزمة على حمايته والعناية به. أما الطفل المخطوف فهو عادة تركته أمه أمام متجر ما، أو في

سيارتها الصغيرة، أو أمام باب المنزل بحيث تتمكن من مراقبته من النافذة.

وهاهي الخاطفة تصف مشاعرها تماماً كا يفعل مهووس بالسرقة: إنها شدة رهيبة في إدراك الطفل (الأداة)، ورغبة في امتلاكه لا تقاوم. إنها تمكث هناك، تترقب فرحته، وتكون منهكة ومحبطة بعمق إذا لم تحظ بها. إنما في معظم الأحيان، تماماً هو الحال بالنسبة للمهووسة بالسرقة، الموقف يحرّض على الرغبة. ومن النادر أن يتعلق الأمر بنية عن سبق الإصرار والتعمّد أو بطفل خاص. وحتى لو كان أهل الطفل فقراء، فالعامل المادي لا يأخذ دوراً ذا شأن في حالة الهوس في السرقة.

ورغم القلق النفسي الذي يرافق هذا الفعل، فالشعور الظاهر عند خطف الفريسة الصغيرة، يقوم على فرحة غامرة وحنان كبير تجاه الطفل. وتشعر الخاطفة، أنها أنقذت الطفل من خطر ما، وأنها على نحو ما، أعادت له الحياة. ثم بعد مضي وقت طويل على نحو أو آخر، تجد نفسها أمام الواقع وأن عليها أن تتخلص من الطفل بأسرع ما يمكن، فتلفّه بقطعة من الورق، أو بغطاء أو بشيء مماثل، وتودعه في مكان يمكنها بالتأكيد أن تكتشفه (إنما ليس بصورة مباشرة) وتهرب. ولا تعبأ مطلقاً بمصير هذا الطفل الذي كانت ترغبه منذ وقت قليل، كما لا تشعر بتأنيب الضمير، ولا تشعر بارتكابها أي غلط، ذلك ما يذكرنا أيضاً بالمهووسة بالسرقة.

ولسوء الحظ، لم تكن لي أبداً فرصة تحليل مثل تلك الحالات. إنما تمكنت من إخضاع امرأتين من هذا النمط لملاحظة عيادية نفسية جادة، كما أثار اهتمامي، خلال سنوات عديدة، كل الأحداث المختلفة في الصحف والمتعلقة بهذا النوع من «خطف الأطفال». والحالتان اللتان درستهما شخصياً، تخصان شابتين استطاعتا امتلاك زوج وأولاد بصورة يسيرة. وقد اتخذ اتجاههما الأمومي مع ذلك، شكلاً مرضياً، إذ أرادتا معايشة الولادة بشكل رمزي لحالة إنقاذ، وكذلك باستخدام القصة الوهمية للأم الشريرة. وتماثلهما واندماجهما بالأم التي تخلّت عن الطفل المعرّض لأخطار مجهولة يتحقق في الحركة الأخيرة من مغامرتهما، عندما تتصرفان تماماً كهذه الأم غير الجديرة.

وتنبغي الإشارة هنا إلى الأهمية المتعلقة بالعقاب المفروض على الأم الحقيقية للطفل، هذا العقاب الذي يشعرها، بواسطة هذه الخسارة، بنتائج تهاونها. وكان من الواضح، في كل واحدة من هذه الحالات، أن يأس وقلق الأم النفسي يؤديان إلى حبور كبير ومتعة تظهرها الخاطفة. إنما كان هناك في مركز تطورها العاطفي، الفعل الدافع للاستيلاء على شيء ثمين لا يخصها بل يخص امرأة أخرى. وفي لحظة الحدث، يسيطر على الموقف قصة الإنقاذ الوهمية، وكذلك الميل لتكبيد خسارة تقبع في اللاشعور، وليس لها بالنتيجة أي وعي بالشعور بالذنب.

هاتان المرأتان اللتان لاحظتهما تنبثقان من عائلتين فقيرتين وكثيرتي العدد. ولهما عدة أخوة وأخوات أصغر منهما سناً، وكان عليهما مساعدة أمهما بالعناية بهم عندما كانوا صغاراً جداً. ورغبتا بكل تأكيد امتلاك هؤلاء الأطفال وأخذهم من أمهم. فرغبة اتخاذ طفل والانحلال منه توجد لدى كل فتاة توجّب عليها أن تقول لصديقتها مايلي: «لا أستطيع اللعب معك الآن إذ ينبغي أن أراقب أختي الصغيرة.» إنما لماذا يستمر مثل هذا الموقف في الذهن لفترة طويلة جداً ويجبر المرأة على إعادته، ونحن ليس في وسعنا أن نفسّر ذلك إلا بمساعدة الفرضيات، إذ لا نمتلك المعرفة التحليلية النفسية لمثل هذه الحالات.

علينا أن نتناول آراء الأساتذة والممرضات... إلخ الذين تحدثنا عنهم آنفاً، فهاتان المرأتان لأسباب نفسية، غير جديرتين بحمل وولادة الأطفال، وتسعيان لإرضاء روحهن الأمومية بتبني أطفال لنساء أخريات. لكن مسألة التبني هذه معقدة بحيث سنتناول علاجها بالتفصيل لاحقاً.

وهناك، على ما يبدو في أمريكا أكثر من غيرها، شكل آخر لتحقيق الأمومة دون جنس ودون أخطار الولادة وبلا رجل. نصادفها لدى امرأتين وهبتا نفسيهما لمهن نشيطة وحيوية تعيشان معاً صداقة متسامية على نحو ما، وتتبنيان طفلاً. وتنهض إحداهما عادة بدور الأم، بينما تقوم الأخرى بأعباء العائلة. وليس هذا التقسيم للمصالح إلا نسبياً، لأن المرأتين ترغبان

عموماً بإرضاء توجههما الأمومي. الأمر الذي يجعل مركب الهيمنة الذكورية عند إحداها، والأنثوي عند الأخرى، يذكرنا بآلية وصفتها قصة «المرأتين» لبلزاك. وكل من المرأتين تمثل ميلاً مقابلاً للآخر، وتكملان بعضهما لتأليف روح أمومية فاعلة ارتباطاً بالطفل. أما السلوك الذكوري فهو سلوك مخادع ولا ينطبق دوماً مع عقدة الرجولة. ومثل هذا الموقف المتمثل بغياب الرجل، قد يُشاهد أيضاً بين صديقتين لإحداهما طفل من زواج كان مصيره الانفصال أو من خارج أي زواج. والأكثر نشاطاً وفعالية بين الاثنتين تنقذ الأخرى من إزعاج التبادل الجنسي وتقوم بدور الرجل المطرود، وتعمل من أجل الأم والطفل، وبهذه الطريقة شبه الرجولية، ترضي حاجتها الخاصة في الأمومية.

ويمكننا أن ندوّن بلا نهاية، أمثلة لمواقف مشابهة لتسويات وحلول وسط من هذا القبيل، نصادفها في مراكز الاستشارات النفسية والخدمات الاجتاعية، حيث ترغب الأمهات بمعونة مالية وأخرى تعرض مشاكلهن النفسية. ولعل الانفصال الحاصل بين المشاعر الجنسية والروح الأمومية ليس دوماً في صالح الأخيرة كما هو الحال عند «مدام ليستوراد». و «لويز دي ماكيمير «حيث تثبت ذاتها أيضاً في الحياة الواقعية، مع أن المرأتين اللتين تشبهانها ليستا دوماً من طبقتها الاجتماعية أو مستواها الثقافي. إننا نجد لدى كثير من النساء ما رأيناه عند «المدام ماكيمير»، من عواطف أمومية عميقة متخفية تحت قناع. امرأة من هذا الطراز تعالج معالجة نفسية تحليلية على أن لديها الشعور. وسأتحدث عنها تحت اسم «جوليا».

منذ خمس عشرة سنة، وهبت جوليا نفسها لجميع الفتيان الذين عرفتهم. وكانت دوماً تعيسة وغير مشبعة، إنما الغرابة أنها تماماً غير خاضعة لتبكيت الضمير، رغم تربيتها المتزمتة. ولن أدون إلا بعض حوادث قصتها. فأصدقاء جوليا الراغبون بتجنيبها حياة العهر، دعوها مرتين لعقد زواج محترم، مما فشل فشلاً طبيعياً. إذ لم يصبح عندها أولاد، فهي غير جديرة بالحمل ولا ترغب بهم. ومفردات الأمومة والروح الأمومية كانت تثقل كاهلها، وتشعر بالنفور من كل ما يمت لهذه المفردات بصلة، وبكلمة

مختصرة كانت بأقل ما يمكن من الأمومية. ومع ذلك، ولنعط من الآن مفتاح تحليلها الطويل، نقول أنها كانت في حياتها الغريزية أماً متكاملة.

ومن الممكن تفسير السلوك العصابي لجوليا، بارتكازنا على حوادث طفولتها الأولى، وعلى القوة المفرطة لتعلقها الأمومي، فخلال ست سنوات، ظلت طفلة وحيدة، مدللة بإفراط من أمها. ثم أعقبت أمها ذلك بثلاث سنوات فترات حمل متتابعة، أحست جوليا في كل ولادة جديدة، خسارة للحب الأمومي. وسمعت بهذه المناسبة قصة «الطفل القريب من قلبها» فامتلأت نفسها بالمرارة والخيبة.

وكانت غيورة جداً من حميمية أمها تجاه الأطفال القادمين أثناء فترات الحمل ثم الإرضاع. وككل فتيات سنها، كانت ترغب بلعب دور الأم ودور أخوتها الصغار في آن واحد. ورغبة الاتحاد الجسدي بين الأم والطفل، حلّت محله شيئاً فشيئاً في خيالاتها الرغبة الجنسية. وكانت غير جديرة بأي تجربة أخرى أكثر نضوجاً، فتابعت في علاقاتها الجنسية رغبتها في الاتحاد بين الأم والطفل. أما الفتيان الذين وهبت نفسها لهم باندفاع، فيرمزون دوماً لأخوتها الثلاثة. وكانت باردة جنسياً لأن خيالاتها كانت تستبعد الأحاسيس الجنسية، وشعورها بالذنب بقي غائباً ظاهرياً، لأنها بالمنح الأمومي لذاتها، كانت تنفي تنافسها العدائي مع الفتيان الصغار، مفرغة ذلك من وعيها.

تذكرني جوليا بطريقة فريدة، بمظهرها وسلوكها، بآنا، تلك العاهرة التي درسناها في الجزء الأول. فكلتاهما كانتا من نفس النمط الأشقر، الوديع، والعينين الزرقاوين. وكانت جوليا دوماً ذات مزاج محبب، في ما حل اللطف والكياسة محل ذلك عند آنا في بعض الظروف وفي بعض الهيجانات المبتذلة. وكانت حنونة، ولطيفة، وخدومة مع الرجال الذين تحسهم في أوضاع صعبة. أما الآخرون، فتعتبرهم بلهاء وأشرار ويستأهلون معاملة قاسية. ولا نعلم في ما إذا أبدت آنا وجوليا الروح الأمومية نفسها تجاه الرجال. وفي جميع الأحوال، كانت أسباب الفجور مختلفة عند هاتين

المرأتين. فكانت تفعّل جوليا دوماً خيالها الأمومي في الفعل الجنسي. في ما لم تجد آنا إرضاءها الأمومي إلا في حياتها الخيالية، كما استطعنا معرفة ذلك. ولم تكشف عن خيالاتها لإنسان، ولا حتى لي عندما كنت موضع ثقتها. وتكلمت بإسهاب عن طفل، ادعت أنها تمتلكه وتحبه، ولم تقم بذلك إلا لرئيسة الممرات في الخدمة النفسية للمشفى الذي كانت نزيلة فيه من وقت لآخر. وقد طلبت منها تبني طفلها بعد موتها، إنما بعد موت آنا لم يُعثر على هذا الطفل، حيث لم يكن له وجود إلا في مخيلتها.

وبهذا التصرف، ظلت آنا تماماً الفتاة التي تريد امتلاك طفل مع أمها المقرّبة جداً، في ما والدها كان مستبعداً بالكامل. وعلى اعتبار أن الممرضة كانت مشاركة في خيالها، فكانت تمثل أمها بوضوح. على عكس جوليا، التي كان سلوكها ناتجاً عن دوافع واقعية بحتة، كان والدها سكيراً وشرساً، والأطفال الذين أنجبهم لزوجته لم يكونوا بالنسبة لها (هكذا كانت تشعر آنا) إلا عبئاً مفروضاً نتيجة معاملته الجنسية السيئة. ولأسباب دقيقة ومحددة، لم تستطع الروح الأمومية لآنا أن تتفتح، إنما كانت موجودة بداخلها، كما كانت موجودة عند السيدة ماكيمير، مخبأة خلف السلوك المبتذل لعاهرة عدوانية، ومرفوضة بقسوة، إنه حنين عميق للأمومة.

أما النمو النفسي لجوليا فقد لاقى أوضاعاً صعبة، لأنه تداخل في نفسها ميلان متعارضان، الميل الجنسي والروح الأمومية، بحيث لم يتمكن أحدهما من أن يأمل بتحقيق سعيد. وفي حالة آنا، منعت وقائع قاسية بلوغ أمومة طبيعية. وفي حين انتمت جوليا لطبقة ضمنت لها تربية حسنة وحماية اجتماعية، ألقيت آنا في الشارع نتيجة للظروف المادية لوسطها، وحافظت وأثبتت مع ذلك على مشاعرها الأمومية، إنما خلف صيغة مستترة.

ولو أن المركبات المختلفة للنفس الأنثوية يمكن أن تُقاس كعناصر كيميائية، فماذا سيظهر تحليلها لدى جوليا وآنا؟ وهل ستختلف درجة الروح الأمومية لهاتين الفتاتين عنها لدى أم تشعر بعاطفة في علاقتها المباشرة مع أولادها؟ وهل علينا أن نحكم على درجة الروح الأمومية بالطريقة التي

تظهر بها، أم أن نهمل ذلك ونقارن فقط درجة شدة هذه المظاهر؟

لدى بعض النساء، تفعم الروح الأمومية الحياة العاطفية لدرجة أن الحدود تختفي بين العاطفة الأمومية وجميع العواطف الأخرى. والأحاسيس الجنسية لا تتميز حينئذ عن الروح الأمومية، لأن الاحساس الجنسي لهؤلاء النساء، سواء كن وحيدات الزوج أو فاجرات، يندمج في روحهن الأمومية. فالمدام دي ليستوراد، لم تكن إلا أماً حتى في حياتها الجنسية الوحيدة الزوج بصورة صارمة، وكان عليها أن تتخلى عن التجربة الجنسية. في ما جوليا وآنا كانتا كلتاهما فاجرتين وأموميتين بصورة عميقة، إنما دون الحصول على الإشباع الجنسي أو الفرحة الأمومية.

وفي كتاب «شجرة تنمو في بروكلين»[1]، سيسي، شخصية تبدو منسحبة بصورة مباشرة من الحياة، تشعر بهاتين العاطفتين في نفس التجربة. وهي عاهرة أمّية ودنيئة، وخليلة لكثير من الرجال، وموهوبة بحدس أنثوي أمومي حاد الذهن، مما جعلتهم جميعاً سعداء لانها كانت أماً بالفطرة. وبسبب من حرمانها لأي أمومة حقيقية خلال سنوات وسنوات، فقد حوّلت كل رجل، عانقته وضمته إلى صدرها، إلى طفل، ومع ذلك دون أن تجعله أقل رجولة لأنها أيضاً ترغبه جنسياً كرجل.

كان لسيسي نقيصتان، فهي عاشقة بارعة وأم كبيرة. وتملك في نفسها الكثير من الحنان والكثير من الشهوة تمنحهما لمن هو بحاجة لما تمتلكه، سواء مالها أو وقتها، ثيابها، أو عطفها، تفهمها وصداقتها، رفقتها أو حبها. كانت أماً لمن يتقاطع مع دربها. وتحب الرجال بالتأكيد. كما تحب النساء والمسنين وعلى الأخص الأطفال. وبما أنها تحب الأطفال، فتحب التعساء. وتريد جعل العالم سعيداً. وقد حاولت إغواء الكاهن الطيب الذي استمع لاعترافاتها النادرة، لأنها شعرت بالحزن نحوه. وتعتقد أنه أهمل أكبر بهجة على الأرض في عزوبيته التي أجبر عليها.

---

(1) Smith B.: A tree grows in Brooklyn.New York : Harper , 1943

لقد حملت سيسي لما كان عمرها أربعة عشر عاماً.

وحين بلغت الرابعة والعشرين من عمرها كانت قد أنجبت ثمانية أطفال، ولم يكتب لأحدهم الحياة..... وبعد كل من هذه الولادات الفاشلة، تزايد حبها للأطفال. ومرّت بلحظات مخيفة اعتقدت فيها أنها ستصبح مجنونة إن لم يكن لديها طفل تحبه. وقد حوّلت أمومتها المحرومة إلى الرجال الذين أقامت معهم علاقات جنسية، وإلى أختيها وأولادهما.

وسنطرح الآن هذا السؤال: هل هناك نساء تختفي لديهن الروح الأمومية بالكامل لصالح الإحساس الجنسي؟

فآنا العاهرة والتي جعلت من الجنس مهنتها، أظهرت لنا بوضوح حنينها الأمومي. ومع أني درست عدداً من العاهرات المحترفات، لم أصادف أبداً هذا النمط من العهر العدواني الذي لا يحمل أي أثر للحنان، فالعاهرة ليست معادية للأمومة إنما هاوية لها. لعل هذا النمط اللاأمومي بالكامل هو بلا شك صادر عن خيال نمط ما من الرجال الذين فصلوا فصلاً واضحاً بين الاحساس الجنسي (العاهرات) والروح الأمومية (الأمهات اللاجنسيات). وسيتملكنا شغف أكبر بوثائق اثني مختص بعلم الأجناس والأعراق البشرية عن حضارة تبدو فيها النساء فاقدات لأي أثر للروح الأمومية. هذه الوثائق زودنا بها «كارل لينتون» في كتاب «كاردينر» عن حضارة جزر الماركيز[1] «الفرد والمجتمع»[2].

ولقد أضاف «كاردينر» إلى هذا العمل دراسة تحليلية ممتازة. ولن نناقش آراءه هنا، ولن نهتم إلا بقضايا محددة تماماً حول مركب نفسية النساء المركيزيات، وهو روحهن الأمومية. وقبل التطرق لهذه المسألة، سنذكر بعض المقاطع الأساسية في عمل لينتون.

---

(1) أرخبيل تابع لفرنسا في المحيط الهادئ (المترجم)

(2) Kardiner A.: The individual and his society. New York : Columbia Univ. Press, 1939, P. 154

كان يصبح الطفل الأكبر عمراً، مهما كان جنسه، أو الطفل الذي تم تبنيه، ليتخذ وضعية الأكبر، الرئيس الرسمي لأهل البيت من لحظة ولادته أو قدومه. ومن اللافت، أنه عند التحقق في الروايات الاسطورية المركيزية، ينتهي تاريخ الرجل دائماً عند ولادة أول ابن له، ويغادر حينها هذا الرجل مسرح الأحداث لتستمر الاسطورة مع مغامرات الابن...

ويتجاوز عدد الرجال في البيت عدد النساء بكثرة. والاختفاء الرقمي للجنسن في هذه الجزر لأمر مفاجئ. ويقسم المركيزيون بعدم ممارسة قتل المولود، ومع ذلك تبلغ نسبة الرجال ضعفي ونصف عدد النساء. ومن المحتمل أنهم يتخلصون من البنات الأصغر، إنما هذه الممارسة غير مذكورة في الوثائق الثقافية. ويصعب ذكر أسباب هذا السلوك، ويمكن الافتراض أن الجماعة لا تتكاثر إلا في حدود الواردات الغذائية... إذ في المواسم السيئة، عند ندرة الغذاء، من الضروري تحديد عدد النساء...

وكانت أجمل الفتيات، وأكثرهن خبرة في مجال الجنس، شديدة الطلب للزواج من قبل الأبناء البكر، إذ تبعث الجاذبية للنساء على مظاهر القوة والأبهة في البيوت... أما السلطة الفعلية فكانت بيد المرأة، طالما أنها تشرف على الرجال في منحهم نعمهن الجنسية.....

ولم يكن يُطلب الشيء الكثير من الولد كالخدمة أو الولاء للنظام.... كما لا يبدو أن هناك تعلقاً عاطفياً وثيقاً بين الطفل والراشدين في البيت... وكان الأولاد يقدمون واجبات الاحترام لأمهم مع لامبالاتهم تجاهها، ويبدو أن فضولهم يتجه نحو رجال البيت بصورة أكبر....

وأحياناً كانت تموت النساء خلال فترة الحمل أو الولادة مما يشكل موضوعاً لقلق نفسي شديد وإثارة للنقاش. وكان يُعتقد أن المتسبب بالموت هو السحر الأسود، أو الأرواح الملعونة. ولم يكن من النادر ملاحظة الحمل الظاهري الذي كان له بالتأكيد أصل عصابي، إذ ترغب المرأة بممارسة السلطة على زوجها، تلك السلطة التي أمدتها بها وضعية الحمل.

وعندما لا يحصل هذا الحمل، فيعتقد أن الطفل اختطفته الغولة فيهيني فايي وأن «فاناوا» كان مسؤولاً عن ذلك ....

وكان الأب يحضر الولادة إذ اقتضى الأمر ذلك. ولم يكن هناك قابلات، إذ يُعتقد أن الأرواح ذات التأثير السيء تكون حاضرة في تلك اللحظة، وتخشى النساء الاقتراب منها... وبعد الحمل مباشرة، تقطع المرأة الحبل السري بأسنانها وبأظافرها....

وكان يعتقد المركيزيون أن الإرضاع يجعل الطفل فوضوياً وتصعب تربيته. وبصورة احتمالية، كان يتم الإرضاع على نحو ضئيل عندما تمسك به الأم، إنما لفترة زمنية قصيرة في كل الأحوال. وكانت النساء تفخر بصلابة وجمال منظر أثدائهن، وهي الصفات المميزة عند الممارسات الجنسية. ويعتقدن أن الإرضاع الطويل الأمد، يفسد أثداءهن مما يجعلهن ينفرن منه.

فكانت الطريقة قاسية في تغذية الطفل، حيث يمدد على ظهره، على فسحة المنزل، وتكون أمه بقربه مع مزيج من الحليب والكاكاو والخبز الناضج والبرغل، وتتناول الأم قبضة من هذا العجين وتضعها على وجه الطفل، وتضع الغذاء في فمه؛ فيغص الطفل ويبصق، ويبتلع ما يمكنه. عندئذ، تمسح الأم وجه الطفل بحركة من يدها ثم تكرر العملية ثانية.

وعندما يولد الطفل، لا يظل وحيداً، فهو مهدد باستمرار أن تسرقه الغيلان وتأكله... بل كانت هذه الغيلان خطرة على الرجال أيضاً. فقد تتقدم على هيئة نساء جميلات إلى فتى وسيم، في مكان منعزل، وتدعوه للذهاب معها. وإذا تمكنت من استمالته، تصطحبه إلى كهفها، وهناك تستعيد شكلها الأصلي وتفترسه. وتحاول الغيلان أحياناً، بدلاً من أن تأكل ضحيتها، أن تقيم معها علاقة عاطفية، مما يضع الرجل في موقف قوي ومريح إنما خطر جداً. ويصف الرجال الذين التقوا بالغيلان، على أنها فتيات حسناوات، إنما متعطشات على الدوام. وإذا تم الإمكان مراقبتها عند عملية السلب،

فترى عيونها التي تقدح لهيباً وشرراً، ولسانها الطويل تخرجه وتلحس به الأرض...

والفاناوات هي أيضاً كائنات خارقة للطبيعة. أرواح لرجال راحلين، أصبحوا مقربين من النساء، يحضرنهم، و يشتمون نساء أخريات، بناء على طلبهن...

وتُكرس إساءات الفاناوا قبل كل شيء في مرحلة الحمل، كما تتمكن من تحطيم الطفل وهو في أحشاء أمه (الحمولات العصابية الخيالية) أو قتل الأم أثناء الحمل أو الولادة. وتفسر جميع حالات الوفاة من هذا النوع بهذه الطريقة.

لا ريب في أن عمل لينتون وترجمات كاردينر تعلمنا الكثير عن أحوال الحضارة المركيزية. ومن الواضح أن النساء المركيزيات لم يكنّ فقط إلا أموميات إنما شريرات أيضاً. فهنّ لا يغذين أطفالهن وإن فعلن، فبطريقة شرسة جداً، كما يتركنهم برعاية الرجال من أي خطر خارجي يُخشى منه، وعلاقتهن مع العالم المحيط كلها تتسم بطابع جنسي بحت. وهن في ذروة الاحساس الجنسي، لا يتبوأن وضعية اجتماعية إلا بقيمتهن الجنسية، وأكبر تجاربهن هي التجارب الجنسية، وطموحاتهن متجهة فقط نحو الفوز الجنسي. ولا يظهرن أنهن جديرات بإظهار مشاعر الحنان تجاه أطفالهن وأزواجهن.

وبعد كل ما ذكرناه عنهن، يبدو أيضاً أنهن كائنات عدائيات يكرهن الرجال. ويظهرن في القصص الاسطورية على هيئة غيلان، أو نساء متوحشات، شابات وذات جمال باهر، يفترسن الأطفال ولا يغوين الرجال إلا من أجل افتراسهم أيضاً. ولعل اسطورة الغول نشأت في خيال شعب كان همه الأكبر هو الغذاء وكل ما يرتبط به. فالحياة العاطفية للمركيزيين، وأساطيرهم، وعاداتهم الدينية... إلخ، ملأى بالعناصر الفموية. إنهم أكلة لحوم البشر، إنما لا يفترسون أولادهم والمقرّبين منهم إلا في حالات

استثنائية. والجنسان متساويان حتى أن النساء تساهم بنشاط في أكل لحوم البشر.

إن الغول، هذا المنتج الخيالي لحضارة غريبة عن حضارتنا، هو شخصية مألوفة نجدها أيضاً في ثقافات أخرى بما فيها ثقافتنا. ونعلم منذ القدم أن :

الساحرة في القصص، وهي شخصية متناقضة للجنية الطيبة، تمثل لكل منّا «الأم الشريرة» وتستخدم في تجسيد موقفنا الشرير وسط التناقض الوجداني البدائي لصراعاتنا مع أمنا[1].

وبهذا الخصوص، تعد قصة «هانسل وغريتل» ذات تأثير خاص حيث ذكرها كاردينر كمثال:

في هذه القصة، تجوّع الأم الشرسة الأولاد، وتلقي بهم خارجاً في الغابة. وهناك، يحلمون بجنية هي عرابتهم، تعدهم بالاهتمام بهم. وفي اليوم التالي، يقعون في محنة الساحرة، التي تحاول جذبهم إلى باب الفرن، لتلقي بهم داخله وتصنع منهم الكعك بالزنجبيل[2].

وفي روايات مترجمة أخرى، تخلط الساحرة السم بشراب الحب، السم لتعذّب خصومها وشراب الحب لتغوي الرجال. كما نشهد في حضارتنا، قضايا الساحرات حيث نرى نساء يُتهمن بإعداد السم في نوايا إجرامية. وفي رغبتها الوحشية في أكل لحوم البشر من الأطفال، نجد أن ساحرتنا قريبة جداً من الغولة. فالنزاع مع الأم، الذي استمدت ساحرة رواياتنا وجودها منه، يأتي كملامة لا شعورية ضدها. ومن الصعب القول إلى أي حد شعور النقيصة لدى الأم مبني على الواقع، وإلى أي حد يأتي الطباع المرفوض لمتطلبات الطفل. فعند المركيزيين، لكره الأم التي تهمل

(1) Deutsch H.: Psychoanalysis of the neuroses. London : Hogarth, 1932, P. 124.

(2) Op.cit., p. 224

ابنها عاطفياً، أساس واقعي. طالما أن الغذاء هو مركز جميع الاهتمامات، والحرمان الفموي الذي تقترفه الأم لا يمكن التغاضي عنه أبداً. وفي هذه الحياة في الجو الفموي لحضارة أكل لحم البشر، تظلم الأمهات أنفسهن، برفضهن تغذية أولادهن، كما يظلمن روحهن الأمومية وامكانيتهن في إظهار الحنان ويقول كاردينر: «هؤلاء النساء محرومات من الغريزة الأمومية» ويبدو كل شيء يؤكد هذا الرأي. إنما من أين يأتي ذلك؟ وهل النساء المركيزيات مجردات من الميول الأمومية ولادياً ؟ إن أفكارنا البيولوجية تمنعنا من قبول وجود مجتمع ذي صيغة محددة في الحياة تنتهك القوى الأكثر بدائية للطبيعة وللحياة النفسية[1]. وفي عالم الحيوان، الغريزة الأمومية هي المسيطرة، كما يمكننا ملاحظة، لدى الكثير من الحيوانات، ظواهر توحي بوجود حنان أمومي. (ولم يجر الحديث عن الشغف الجنسي الذي لم نجد له أي أثر في الحضارة المركيزية) إنما هل تستطيع العادات الجنسية أن تلغي جذرياً الميول البيولوجية والقابلية لعواطف العطف والحنان ؟ وإذا ما بدا ثمة زوال لتطورات بيولوجية، فمن هي القوى المسؤولة عن ذلك؟

في حضارتنا، نجد أن النساء اللواتي لم يتلقين الحب الأمومي في طفولتهن (سواء من الأم أو ممن يحل محلها) يكتسبن روحاً أمومية أقل من الأخريات. وما يكبت ويكبح مشاعرهن الأمومية أحياناً هو رفضهن الذاتي لأمهاتهن. إنما ما نشهده أيضاً، ذلك النمط من الأم المفرطة في تساهلها والتي، بالتناقض مع الأم المرفوضة، تريد أن تمنح لطفلها بسخاء ما حرمت منه في طفولتها.

لا ريب أن في الحضارة المركيزية قصور ونقص عند الأم، يمثلان شراً أوجبه وأورثه المجتمع، وتمت معايشته بصورة واقعية. ثم تخلد غياب

---

(1) لعل ملاحظات مارغريت ميد حول موضوع ردود الفعل العاطفية المختلفة للأمهات البدائيات وأولادهن مفيدة علمياً جداً

Cf. Mead M. : Sex and temperament. New York : Morrou. 1935

الغريزة الأمومية من جيل إلى جيل، إنما في الوقت نفسه، هناك انطباع، بأن عنصراً فردياً يجب أن يُضاف إلى الاستعداد المسبق الموروث ويعززه.

ومن ناحيتي، أعتقد أن ضمور المشاعر الأمومية، يبدأ بالصدور مباشرة بعد ولادة الطفل. فالمظهر الأول للمطلب الفموي للوليد، يؤدي بلا شك بالمرأة المركزية إلى ذعر شديد، ويعود هذا الذعر، ارتباطاً مع نزعة أكل لحوم البشر، إلى خشية أن يفترسها طفلها. وهذه الخشية تعود إلى مرجعية واقعية، حيث أن الطفل يمص حلمة الثدي، التي هي جزء من جسد أمه.

وتظهر، عندنا أيضاً، الملاحظة المباشرة للأمهات أن مسألة التغذية هي على الصعيد الأول علاقة الأم بالطفل. وهنا تنشأ العلاقة الأولى، بين متطلبات الطفل وإرادة الأم الطيبة في الاستجابة لها، ما بين أخذ وعطاء. فكثير من النساء، رغم تحررهن من المحرّمات ورغبات أكل لحوم البشر، يتخذن موقف الخوف عند طلب الحلمة، ويعود هذا الخوف بجزئه الكبير إلى اللاشعور. وهو يلعب دوراً هاماً خلال الصعوبات المتعددة التي تتضمنها تغذية الأطفال، وهو أحياناً لدى الأم، دافع لا شعوري لرفض تغذية طفلها، وقد يؤثر على التطور الهرموني لإدرار الحليب، والرفض اللاشعوري يتضح هكذا أقوى من الرغبة الشعورية في تغذية الطفل[1]. ولدى المرأة النرجسية المعتدة بجسدها والتي تنتمي إلى النمط «العاهر» (تلك التسمية التي أطلقها كاردينر على النمط المركيزي) يكون انشغالها بجمالها وبجاذبيتها الجنسية، تماماً كما هو الحال عند المركيزيات، دافعاً لرفض الوظيفة الأمومية. ولدينا أيضاً ثمة دوافع ليست إلا تسويغاً سطحياً للخوف العميق الذي تمتلكه المرأة عند رؤية تدمير أناها. ولدى شعب المركيز، يأتي هذا الخوف من التدمير، من رغبات أكل لحوم البشر، في

(1) السؤال الذي يطرحه المهتمون بالتطورات البيولوجية هو : أي صيغة تتخذها الفاعلية الهرمونية للإدرار عند النساء المركيزيات؟ وهل لديهن الحليب؟

ما عندنا يتأتى من خوف أكثر روحانية هو في افتقاد أناها لصالح الطفل. وفي كلتا الحالتين، تتوضح بصورة أشد، القوى الإيجابية، التي تلعب دورها في علاقة الأم بالطفل. وفي حضارتنا، قد تؤثر صراعات فترة الإرضاع على مرحلة طويلة، لكن الأم قد ترسخ علاقتها بطفلها على صعيد آخر لا يتوافر عند المركيزيين، لأن الصراع المتحدد بأكل لحوم البشر يظل من الصعب إصلاحه.

ويمكننا أن نتعمق أكثر، في الموازاة الكائنة بين حضارتنا وحضارة المركيزيين. ففي لوحة «الأم» للرسام الألماني ماكس كلينجر، يظهر طفلاً بديناً يتفجر بالصحة، جالساً على ركبتي أمه ذات الجسد الهزيل كجسد الأموات. تعبّر هذه اللوحة بطريقة واقعية فكرة أن حياة الفتى تنمو على أنقاض حياة الأم وعلى حسابها.

كما نقرأ في بحث الأساطير المركيزية: «يتحدد تاريخ الإنسان دوماً عند ولادة أول طفل له.» ومن الناحية الاجتماعية، يتخلى الإنسان عن وجوده لصالح ابنه الأول. ومن الطبيعي الافتراض أن فكرة إقصاء مشابه تراود ذهن الأم التي ولدت طفلاً، وعلى الأخص بنت، وأن هذه الفكرة تفزعها. فضلاً عن أن الموقف الاجتماعي لدى شعب المركيز، يتحدد بالبكورية، وبغض النظر عن جنس الطفل. وقد علمنا أن المركيزيات غيورات إلى أقصى حد من النساء الأخريات، وخاصة من ناحية الجاذبية الجنسية التي تعطي النساء سبيلاً لوضعهن الاجتماعي.

وقد تتجه هذه الغيرة أيضاً ضد الفتاة المولودة حديثاً وتؤدي إلى زيادة الخوف المتوحش للأم. ويقال لنا، أن عقدة أوديب لا تُعرف عند المركيزيين إلا بصيغة معاكسة لعقدة إليكترا، وأن الزنى المحرم بين البنت والأب شيء طبيعي وبديهي منذ البدء. وعند هذه النقطة تمدنا تجاربنا المتعددة والخاصة بعلاقة الأم بالبنت بحالات للمقارنة.

فالمرأة المركيزية شريرة، وابتدع خيالها غول الفاناوا، وهو روح

ذكرية تساعدها على تحقيق رغباتها بقتل نساء أخريات، مقابل منحه المتعة الجنسية التي تعطيه إياها. ويقتل الفاناوا بأمر من عشيقته، الأمهات والأطفال أثناء الولادة، كما يدمر الجنين وهو في رحم أمه. وبالإجمال فإنه يحقق لهن جميع هذه الرغبات الشريرة التي يكتشفها التحليل عند مرضانا في عالم اليوم والتي تغذي عندهم كثيراً شعورهم بالذنب. كما ترافق المخاوف وردود الفعل الدفاعية أحداث التناسل، والتي تقترب كثيراً من الإيمان بالفاناوات. ومن الصعب القول في ما إذا كان الفاناوا من ابتكار مخيلة الرجال، فهم يدركون الرغبات السيئة للنساء، ويعبرون عن نفورهم من اسطورة الفاناوا، ويساورهم الشك بأن النساء المركيزيات أسقطهن تصوراتهن الخاصة في هذه الاسطورة. إنما الغولة (فيهيني هايي) هي المرأة المركيزية نفسها، الأم الشريرة، والتي بخوفها المتوحش من أن يفترسها الطفل، حرمته حليبها، وحيّدت خوفها بتحويل الاحتمال السلبي من أن تُفترس إلى احتمال إيجابي في افتراسه. ومن المحتمل تماماً أن ترسخ وتجدد الولّادة النفساء سحرها وجمالها الشبابي بأكلها للوليدة الحديثة العهد، بسبب خوفها من فقدان قيمتها الانثوية في المجال الجنسي، وتصبح بذلك هي نفسها فيهيني هايي الغولة.

وعند شعب المركيز، يعتبر المكان الذي تحصل فيه الولادة مكاناً خطراً، تملؤه الأرواح الشريرة، ويلجأ كل إنسان إلى تجنبه، أما الزوج فهو الوحيد الذي يحضر الولادة. وهذا المكان يخضع لمحظور ما، مما يشمل بالتأكيد المحظورات المتعلقة بالغذاء. وبالنظر لهذه الشروط السريرية المحققة، فمن الطبيعي أن يموت الكثير من الأمهات والأطفال، وهذا ما يفسر تماماً الإيمان بالأرواح الشريرة.

ومن اللافت عدم تمكن المختص بعلم الأعراق الإجابة على هذا السؤال الاجتماعي الهام :

لماذا نرى لدى هؤلاء الشعوب نسبة رجلين ونصف مقابل امرأة ؟

وبما أنه من المحال الافتراض بولادة بنات أقل من الصبيان، فتكون الوفيات بين الأطفال البنات هي الأقوى. والمختص بعلم الأعراق غير مقتنع تماماً إن قال المركيزيون بعدم ممارسة قتل الأطفال. فهو يظن أن مستوى الولادات مضبوط بتعمد كافٍ وفقاً لكمية الغذاء. ومن ناحيتي أعتقد أن هذا الضبط يتم بمعونة الغولة فيهيني هايي أي النساء المركيزيات الشريرات أنفسهن.

وكما نعلم في أيامنا، حين تكون الولادة مؤلمة، ومنهكة جداً، تكون الأم الشابة بحالة من الانزعاج النفسي والعدوانية. وحين تكون المرأة البدائية في هذا الحال، فمن الممكن تماماً أن الفيهيني هايي، حفاظاً على روحها، تلجأ إلى عمل وحشي في أكل لحم بشري من حساب المولود الجديد. وقد قيل لنا أن الأم تقطع الحبل السري بأسنانها، ولا يمكنني أن أمنع نفسي من خوف أنها تعض مدى أكبر من الحبل، فتضبط بهذا نسبة الفتيات إلى الذكور.

وبإمكاننا المضي بافتراضنا على اعتبار أننا لا نستخدمه كبرهان. فبالنسبة لعالم النفس، اكتشاف حالات نفسية متماثلة، في شروط اجتماعية مختلفة، لأمر يثيره إثارة خاصة. فخلال ملاحظاتي للوظائف التناسلية للمرأة، لفت نظري منذ زمن طويل التواتر الذي به تستحوذ الحيوانات المتوحشة، التي تفترس الأم والطفل أو كليهما معاً، الأرواح الجامحة لنساء مصابات بحمى النفاس. وهذا ما نراه خاصة في ما نسميه بحمى الحليب، فالضغط المؤلم على الثديين والمشترك بالانهاك، يحول الدافع البيولوجي والعميق للإرضاع إلى هذيان الافتراس أو الوقوع في افتراس الغير. وتفترس بعض الحيوانات ذريتها مباشرة بعد نزولها، ويبدو هذا الفعل صادراً عن الخوف، وربما يهدف إلى حماية النسل بوضعها في ملجأ داخل الجسد. وفي عالم الحيوان، تكون ردود الأفعال الغريزية قوية جداً، .ويمكن أن يصبح هدفها في حالات استثنائية مشوشاً.

وتكشف هذه الأفكار الجامحة للنساء في وضعية الولادة عن صراع

مرتبط بتغذية الطفل. وفي حضارات غير الحضارة المركيزية، تُضبط الغولة فيهيني هايي عندما يكتشف الجسد حالته الطبيعية ويصبح الطفل بالأحضان.

كما نرى أحياناً في تاريخ الحضارة، إشارات لعادات تستوجب حضور عدد من النساء حول الولادة. إذ تحتاج المرأة خلال الطلق، إلى حلقة من النساء المفضالات والمحببات لكي تتخطى حالة خوفها من الموت. وحتى الجيل السابق لنا، كان على الأمهات حضور ولادات بناتهن. ويشاركن بناتهن بالانتظار القلق، ويدربهن على أولى حركات الأمومة. وكانت تخفي هذه العادة احتياجاً عميقاً تحس به المرأة لمصالحة تامة مع أمها، ولتصبح هي نفسها امرأة أمومية. وكلما استمر على الولادة آثار الفيهيني هايي، تظهر صعوبات مبكرة أو متأخرة مختلفة للوظيفة التناسلية.

وتكون المرأة المركيزية شريرة لأنها حُرمت في طفولتها من المحبة الأمومية، ولأن روحها الأمومية خنقت منذ البداية لدى خوفها الوحشي ولدى جهودها في طرد الأرواح وتدارك الخطر.

ولعل المرأة ليست بحاجة لتضع مولوداً لتصبح أمومية، فكما رأينا، قد تتوجه الروح الأمومية نحو غايات غير مباشرة. والصعوبة النفسية التي تتعارض مع التحقيق المباشر للأمومة تأخذ أسباباً مختلفة، إذ أن قاسمها المشترك الأكثر ألفة، هو الخوف من أن تفقد المرأة شخصيتها لصالح الطفل. وقد يظهر هذا الخوف، كخوف بدائي من الموت أو من تهديد لقيمتها العشقية أو جمالها، وإما قد يكون الخوف من الإلزامات الواقعية والقيود التي يفرضها واقع الحمل....إلخ. وأحياناً أخرى هو خوف من خسارة المؤهلات المهنية والذهنية، وإما شعور بعدم الكفاية أمام المتطلبات العاطفية الكبرى للأمومة. كل هذه المخاوف وأخرى غيرها هي مخاوف مبررة، ويقوم على ذلك القانون الطبيعي الذي يريد من القديم أن يفسح المجال للجديد. والحضارة المركيزية هي تعبير كامل عن هذه المخاوف.

لقد أعدت حكمة الطبيعة وسائل لتجاوز هذه المخاوف. فحب المرأة لطفلها هو عادة أكبر من حبها لذاتها، كما أن فكرة الخلود التي لها صلة بالتناسل، تدفعها على تخطي خوفها من الفناء. فالمستقبل ينتصر من الحاضر، إنما فقط إذا كان الماضي على ما ينبغي من أجل ذلك.

وفي حضارتنا الحالية أيضاً، قد يحجب الشعور الجنسي أو العشقية عند المرأة مشاعرها الأمومية. وكما نعلم أن الطاقات النفسية لها قدرة عالية على تبديل غاياتها. وقد أشارت بعض الأمثلة التي قدمناها كيف أن أحد مركبي الحياة النفسية للمرأة يلغي الآخر، وكيف يبقى الآخر ويظهر بصيغة مرفوضة.

إن سمة كل شغف كبير، تتكون برفض ورد جميع المشاعر الأخرى. فالمرأة التي تعيش غراماً جارفاً، قد تبقى لفترة ما غريبة عن أولادها بل وتعتبرهم عبئاً عليها. فالأم التي تخشى على حياة ابنها ترفض كل المشاعر التي تمتلكها تجاه حبيبها. وهناك مخاوف اجتماعية تمنع المرأة أحياناً من تحسس تحقيق أكبر رغبة لها كفرحة حقيقية، فأكثر الأمهات أمومية مستعدات للتخلي عن أبنائهن غير الشرعيين، دون احساس بأي ألم، تحت ضغط غريزة البقاء.

امرأة مغرمة، تستطيع زيادة الكثير من الشغف والحنان في حبها للرجل بحيث يحرف بسهولة روحها الأمومية عن مبتغاها المباشر. وامرأة ذهنية تستطيع أيضاً اعتبار عملها كابنها وتتخلى هكذا عن روحها الأمومية. كما تظهر النساء الذكوريات روحهن الأمومية بصيغ أكثر تحديداً. ووفقاً لشروط داخلية وخارجية، تستطيع المرأة أن تظهر أمومتها، على نحو أكثر أو أقل، بالتناوب بين العشقية والأمومية.

وفي ما لو توجهنا مجدداً نحو الأدب للعثور على أمثلة، فكتاب «آنا كارنينا» لتولستوي، يقدم لنا حصيلة وافرة من الملامح النفسية، حول النزاعات الموجودة بين الروح الأمومية والعشقية.

فآنا كارنينا تُقدم لنا كأم قبل أن تتكشف لنا عشقيتها القوية. ونعلم منذ البداية أن لديها ابناً عمره ثمان سنوات، «إنها لم تفارقه أبداً، ويقلقها كثيراً تركه»، فخلال انفصالها الأول، بين دوامة الأنشطة الاجتماعية وفي أول اضطراب لحب ناشئ، تظهر فجأة حنينها نحو الطفل:

كانت، بصورة عامة، تأتي في الساعة العاشرة، لتقول لابنها طاب مساؤك. وتنيمه بنفسها قبل أن تمضي إلى سهرتها. وتحس الآن بالحزن نتيجة بعدها عنه. ودون أن تعير انتباهاً لما يقوله الناس عنها، تعود بأفكارها باستمرار إلى ابنها سيروزا الصغير ذي الشعر المجعد، وتأخذها الرغبة في العودة ثانية والتحدث إليه.

ولعلنا نتفهم حب آنا المفرط لسيروزها الصغير، عندما نتذكر أنها لم تحبه فقط لأنها أمومية، إنما أيضاً لتعويض حرمانها به، ذلك الحرمان الذي ابتليت به من زوج لم تحبه.

نجد هنا أمراً معروفاً جداً في حب الأم لابنها المتعلق بعوامل كثيرة، ومبدأ بسيطاً يكون فيه ابن الحبيب أو الزوج المحبوب جداً أغلى وأحب من طفل هو ثمرة زواج منطقه غير واضح. وتوقع التعويض من الطفل، يتخذ شيئاً فشيئاً لدى المرأة الأمومية، طباع الحب الأمومي الحقيقي. وفي حياة آنا كارنينا، يلعب الطفل دور المدافع عن وضعيتها الاجتماعية، كما يشكل رمزاً لتعلقها ببيتها. لا يجب إهمال هذا العامل في مأساة صراع آنا بين الحب الأمومي والنزعة العشقية. فمهما تكن الظروف الاجتماعية والإيديولوجية التي تدور حياة المرأة وسطها، فتعلقها ببيتها يشكل جزءاً من روحها الأمومية، ولا ينبغي اعتبار عجز آنا عن التخلي عن بيتها كمحصلة بسيطة لأفكارها الارتدادية.

وما أن افتقدت للوهلة الأولى حماية ابنها، الحارس لوفائها الزوجي، حتى وقعت في الحب من النظرة الأولى، وبدأ حبها الأمومي يتزعزع. وعندما عادت إلى بيتها مفعمة بنشوة الحب، وراح صغيرها الحزين يقبلها ويضمها.

ليس بأقل من زوجها، أيقظ ابنها في نفسها مشاعر لما يشابه انقشاع الأوهام. فتخيلته فاتناً أكثر مما كان في الواقع. ثم أجبرت على الصحوة من حلمها لتراه كما هو.

وعلى الدوام كانت تهرب من حبها إلى ابنها، سواءً في الواقع أو في تخيلاتها الأمومية. وكل ما كانت تشعر به آنا في صراعها بين الحب العشقي والأمومي هو نمطي جداً. ولم تكن قادرة على التمتع بأي من هاتين العاطفتين، لأن كل منهما كانت تشوش على الأخرى. وكلما اتجهت نحو ابنها أكثر، وشعرت أنها مستعدة لأن تكرس له حبها، كلما تواثبت رغبتها باحتدام أكثر نحو الرجل الذي تحبه.

ولم يستطع ابنها سيروزا حمايتها من العشقية إلا في فترة كان خصمها فيها الرغبة وليس الواقع الحي. لكن لسيروزا الآن، حليف أقوى من خوف أمه أمام مخاطر العشق، إنه شعور آنا الثقيل بالذنب، إنه العامل الأكثر قوة في التركيبة النفسية كلها للروح الأمومية. فالقلب الأمومي قد يحس بعدوانية الطفل وحقده، لخطبه، وإساءاته، وقد يتحمل أي شيء عدا حنين الأم ورغبتها في الحب. فالاحساس بالشعور الأمومي المذنب، كما بدا عند آنا، هو أحد صفات الروح الأمومية.

هذا الشعور بالخطأ، كان قاسياً ومتصلباً، ولم يخمده إلا تقبل للتضحية الكاملة. وكلما أصبحت روح المرأة ضحية لماسوشية أشد قسوة صادرة عن شعور بالذنب. وهكذا لم تعد آنا تجد حلاً لصراعها إلا بالانتحار. فما حدد مصيرها أخيراً، ليس الغلبة لنزعتها العشقية على روحها الأمومية، إنما سلبيتها الأنثوية:

منذ أن بادرتها رسالة زوجها، أحست في أعماق قلبها أن كل شيء سيبقى كما كان، وقد لا تمتلك الشجاعة للتضحية بوضعيتها المدنية، وللتخلي عن ابنها واللحاق بعشيقها.... ولو علم (؟رونسكي) بهذه الأخبار، لطلب منها بحب و حزم «تخلي عن كل شيء وتعالي معي» ولهجرت حتى ابنها وعادت إليه.

لقد استخدمت آنا كرهها لزوجها لجذب ابنها أكثر فأكثر. لكن هذا الكره لم يكن حليفاً جيداً، حيث زاد شعورها بالذنب وتحول شؤماً بالنسبة لها، لأنها في لحظة ما، اتجهت ضد أناها الخاص.

فالحكم بالموت الذي أصدرته آنا كارنينا على نفسها، يظهر بطريقة نمطية خلال حملها. ومنفذ الحكم المثقل بالخطايا الشعورية واللاشعورية يبدو على كل النساء لحظة بدء حملهن لحياة جديدة. وقد حلمت آنا بعجوز قصير القامة يقول لها: «سوف تموتين، سوف تموتين، عند الولادة يا ماتوشكا» وهو حلم يمثل الانزعاج النفسي النمطي من الحمل والذي يظهر بطرق وأساليب كثيرة. وتهرب جميع النساء من خوفهن بالطريقة نفسها التي اتبعتها آنا:

اختفى الخوف من وجهها، الذي اتخذ تعبيراً لطيفاً ينم عن الاهتمام الجدي والحنون... كما كانت قد لاحظت في أحشائها حركة حياة جديدة.

لا ريب أن المرأة الأمومية لا تستطيع أن تستبدل طفلاً بآخر إلا إذا قبلت بخسارة الأول، وبعد فترة حداد لزمن ما. لأن كل من أطفالها هو طفل وحيد، هو «الطفل» وكل ما يتبع من المشاعر الأمومية.

فحداد غير ثابت، وغير مقبول بسبب قوة الشعور بالذنب، يمنع نمو المشاعر الأمومية عن طفل جديد. و آنا كارنينا ترغب في تغذية طفلتها لكنها لا تتمكن من ذلك. كما تريد أن تحبها، ولا تتوصل إلا لتغطية أعباء حالتها كأم. وتتوصل المولودة، خلال فترة وجيزة، إلى النفور بقلبها، وحينها لا تفكر بابنها إلا نادراً. إنما بعد ذلك، همّ الذنب الذي تحمله منه يمزقها بشراسة. أكبر من ذي قبل:

عندما كانت تنظر للطفلة الرضيعة، تشعر بصورة واضحة أن العاطفة التي تكنّها لها ليست من نفس نوع حبها لسيروزا. وكل ما كان في هذه الطفلة لطيفاً و محبباً، إنما لم تكن تستطيع إلى درجة ما، أن تلبي حاجات قلبها.... وكانت تتركز على مولودها الأول، مع أنه ابن رجل لم تكن تحبه،

كل قوة حب لم يكن مُرضياً. في ما ولدت ابنتها في ظروف أقل صعوبة، ولم تنل جزءاً صغيراً من الرعاية التي كانت قد منحتها لسيروزا. عدا عن أن هذه الصغيرة لا تمثل إلا آمالاً، بينما سيروزا كان تقريباً رجلاً، ورجلاً وسيماً بكل معنى الكلمة :

وعندما مرضت الفتاة الصغيرة، أسدت عليها آنا كارنينا العناية، ولكن،

عبثاً فعلت، إنها لم تستطع حب هذه الطفلة، ولا أن تدعي بامتلاك مشاعر لا وجود لها.

لقد أنجبت هذه الفتاة من رجل أحبته. ومع ذلك، كانت عاجزة عن أن تجعل من هذه الطفلة ابنتها، أو من عشيقها أب.

وبالإجمال، تصور آنا قدرها كصراع بين نوعين من الحب لا يمكن جمعهما :

«ألا ترون؟ أحبهما كلاهما بنفس القدر تقريباً، وأكثر حتى من نفسي، هذان الكائنان، سيروزا وألكسي... لا أحب إلا هذين الكائنين، اللذين ينفي أحدهما الآخر. لا أستطيع الجمع بينهما، ومع ذلك، هو الشيء الوحيد الذي أرغبه»

هذا الصراع المأساوي بين النزعة العشقية والشعور الأمومي يحيي هنا صورة تتجاوز المصير الفردي لشخصية ما، وتعكس مظهراً شاملاً لقدر المرأة. لماذا يسمى الرجلان اللذان دخلا حياة آنا كلاهما ألكسي؟ آنا نفسها، ألمّت بها الحمّى، عند طرحها لهذا السؤال. ألم يتلمس الكاتب الروسي الكبير هنا، الآلية النفسية نفسها لبلزاك في كتابه «ذكرياته عن فتاتين متزوجتين» ؟ ربما الإثنان ألكسي هما رجل واحد، مقسّم إلى أب مكرّس لكنه مرفوض من الناحية العشقية، وعشيق مرغوب من الناحية العشقية إنما مرفوض كأب. فالدور الأبوي لألكسي الأب يتكشف لآنا في لحظة الولادة. وإذا صح افتراضنا، فالكاتبان المختلفان جداً عن بعضهما البعض، يمثلان

بطريقة متماثلة الصراع السرمدي للمرأة بين شعورها الأمومي ونزعتها العشقية. ويتمثل هذا الصراع لدى بلزاك بامرأتين، في ما يسقطه تولستوي على رجلين. ويناصر الكاتب الفرنسي الحياة، في ما يترك الكاتب الروسي القرار للأنا الأعلى القاسي.

نمط آخر للمرأة، يتمثل بفتاة شابة، تتفجر سحراً وجمالاً وحاجة أنثوية لأن تحِب وتحَب، تستطيع التخلي عن كل سحرها كامرأة لصالح روحها الأمومية، وتعبر عن هذا شعورياً ولا شعورياً. شخصية ناتاشا في «الحرب والسلم» هي مثال رائع. ولنذكر من جديد، كما نعلم ذلك، بالدراية العميقة جداً بالنفس الأنثوية التي يتحلى بها تولستوي:

تزوجت ناتاشا في الأيام الأولى من ربيع عام / 1813/ ، وفي عام / 1820/ أصبح عندها ثلاث بنات، ثم الصبي الذي طال انتظاره والتي راحت تغذيه بنفسها. وانفرجت وأخذتها السمنة والبدانة، لدرجة أصبح من الصعب التعرف في هذه الأم البدينة على ناتاشا النحيلةا لكثيرة الحركة التي كانت في ما مضى، كما برزت ملامح وجهها تعبر عن الوضوح والرخاوة الهادئة. ولم يعد فيها بريق الحياة المضطرمة التي كانت تضفي عليها سحرها وجمالها في الماضي. أما الآن، فلا تلمح منها إلا وجهاً وجسداً في ما لا نرى روحاً. كما لا نرى إلا أنثى قوية، جميلة ومخصبة. أما بريق الماضي فلا يعود للظهور إلا نادراً....

أما في المجتمع، فلم تعد تُرى الكونتيسة الشابة بيزوخوف إلا قليلاً، ومن يصادفها لا تترك عنده انطباعاً سارّاً فهي لم تعد ظريفة أو لطيفة. وليس في الأمر أنها تأمل بالوحدة (فهي لاتعلم إن كانت تحبذها أم لا، وأغلب الظن لا)، إنما حمولاتها المتتابعة، وإرضاع أطفالها، والقسط الزمني الذي خصصته لكل منهم واقتطعته من حياة زوجها، جعلها تتخلى عن العالم. وكل من كان يعرفها قبل زواجها، تأخذه الدهشة لهذا التغيير، وكأنه شيء في منتهى الغرابة. عدا الكونتيسة العجوز، أدركت ببصيرتها الأمومية، أن

كل اندفاعات ناتاشا، نشأت عن رغبة وحيدة في تكوين أسرة وزوج ... وما فتئت تردد أنها أدركت دوماً، أن ابنتها ستكون زوجة وأماً نموذجية...

ولم تتبع ناتاشا تلك القاعدة الذهبية التي يطالب بها أهل الفكر، وخصوصاً الفرنسيين والتي بحسبها، لا يجب على الشابة عندما تتزوج أن تهمل نفسها ومواهبها، إنما تستمر بالاهتمام بشخصها، ساعية إلى إغراء زوجها كما كانت تفعل معه عندما كان خطيبها. أما ناتاشا، فعلى العكس، لقد تخلت دفعة واحدة، عن كل مثيراتها، وحتى عن الغناء، الأقوى بينهن. لقد تخلت عنه لسبب وحيد، إنه أفضل ما كان يضفي عليها السحر والجمال. ولم تعد ناتاشا تهتم بالأساليب الجميلة ولا بأمور اللياقة، ولا بتبرجها، لتضع نفسها بموضع مميز أمام زوجها، ولا تشغل نفسها بكل ذلك لئلا تزعج زوجها بمتطلباتها. فكانت تتصرف تماماً على خلاف تلك القواعد. وهي تشعر أن الإغراءات التي كانت تمليها عليها غريزتها في ما مضى، أصبحت تافهة ومثيرة للاستخفاف في عيون زوجها الذي منحته نفسها وروحها، دون أن تحتفظ بزاوية سرية من أجله. كما تشعر أن اتحادها مع زوجها لا توثقه هذه الأحاسيس الشاعرية التي جذبته نحوها، إنما هو شيء آخر، لا يمكن تحديده أو وصفه، إنما هو شيء صامد، وصلب، كما لو أنه اتحاد روحها مع جسده ....

وكما نعلم، أن للإنسان القدرة على الانكباب في شاغل ما؛ مهما كان عديم الأهمية. ونعلم أنه ليس هناك شاغل عديم الأهمية لا يمكن أن يمضي بالأهمية نحو اللانهاية عندما يتركز الانتباه عليه بالكامل....

إن ما استأثر بناتاشا بالكامل، هو العائلة، أي الزوج الذي عزمت على الحفاظ عليه دون مشاركة أحد، والبيت والأولاد الذين حملتهم وغذتهم وربتهم....

والأكثر من ذلك، أنها لم تستغرق في هذا الأمر المفضل بعقلها فقط، بل بكل روحها وكيانها، وكلما ازداد هذا الأمر أهمية في نظرها،

كلما بدت لها جهودها أكثر غير كافية، بحيث كان عليها أن تركزها كلها على الجهة نفسها دون أن تتوصل أبداً مع ذلك إلى القيام بما يبدو لها ضرورياً....

هذا الاستبدال، لصيغة أنثوية فعالة بأخرى، والنزعة العشقية بالشعور الأمومي، هو بصورة عامة أكثر تعقيداً مما نعتقد. ولعلنا نتذكر كم سبّب لناتاشا سحرها الأنثوي من ألم، وكم كان شعورها بالذنب عميقاً، وها نفهم الآن لماذا تخلت بغتة وبشدة عن كل ما تراه «مغرياً لدرجة قوية».

وفي هذا الطور ذي التحقيق الكامل للروح الأمومية، حافظت ناتاشا على الصفات التي نذكرها لها كأنثوية نمطية (vol.I):

نعتقد عموماً، أن بيير كان تحت سلطة زوجته، هذا ما كان حقيقة. ومنذ الأيام الأولى لزواجهما، فرضت ناتاشا شروطها. وكانت دهشة بيير كبيرة لدى سماعه رأي زوجته، الجديد كلياً بالنسبة له، بأن كل لحظة من حياته مكرّسة لها وللعائلة. كما أثارت متطلبات زوجته استغرابه لكنها دغدغته وأرضته ثم أصبح خانعاً لها... وما يحدث في أحيان كثيرة، وفي لحظة غضب، مشاجرات كثيرة بين الرجل وزوجته، إنما بعد حين، يجد بيير، المندهش والمفتتن بأفكار وأفعال زوجته، الرأي نفسه الذي احتجت ضده ... وبعد مضي سبع سنوات على الزواج، يمتلك بيير الشعور المبهج والأكيد بأنه لم يكن رجلاً سيئاً، ويشعر بهذا الشعور، لأنه يرى نفسه في مرآة روح زوجته. كما يشعر داخل نفسه، بالخير والشر يمتزجان بصورة يتعذر حلهما عن بعضهما. إنما الخير وحده كان به وينعكس على زوجته، فكل ما لم يكن حسناً بصورة كلية يُرفض. وهذا لم يكن بتأثير عقلاني ومنطقي إنما رؤية مباشرة وغامضة.

ونرى في ناتاشا هنا، المرأة الأنثوية، عطاء المشاعر الأمومية يصبح عالمها، وتنذر نفسها له بالكامل. إنما تظهر لزوجها متطلباتها الأنثوية النرجسية، بكل وضوحها، لكي تندمج بعد ذلك به وتصبح، في آن واحد،

تلك التي تأخذ وتعطي. وناتاشا، لأنها أمومية، فهي طيبة، وقد جعلت زوجها طيباً أيضاً، وهذا ما يفسّر تلك «الرؤية الغامضة».

عندما تكون العواطف البدائية، من غيرة وتنافس ورغبة في نيل الإعجاب كيفما ظهرت، مهيأة للتواري لصالح كائن آخر، وعندما تفقد غريزة البقاء هيمنتها التامة، ويتم تخطي المخاوف المتعلقة بها، عندئذ نستطيع التحدث عن «روح أمومية صافية». وحكم وقضاء سليمان يكون أحد الأمثلة الجميلة على ما أتيت على ذكره.

فحتى النساء السليمات من الناحية النفسية، لا يعشن جميعهن الشعور الأمومي بنفس الطريقة. فمن بين تلونات فردية لا حصر لها، يمكن أن نميز نمطين: الأول هو نمط المرأة التي يثيرها ويوقظها طفلها، نحو حياة جديدة دون أن تحس بانطباع وخسارة ما. أما النمط الثاني، فهو المرأة التي ترى، منذ البداية، في علاقتها مع طفلها، نوعاً من زوال للشخصية. تضع هذه المرأة عاطفتها في قيم أخرى مثل (العشقية والفن والتطلعات الذكورية)، أو تكون هذه عاطفتها من الأساس ضحلة جداً ومتناقضة الوجدان، ولا تستطيع مواجهة مهمة عاطفية جديدة. والنمط الأول يفرج أناه بالطفل، أما الثاني فيشعر بأن أناه استبعد وفقر.

كما تحدد الظروف المادية للحياة، والوسط الاجتماعي، والتجارب القديمة والحديثة عند الأنماط المختلفة تلوناتها الفردية. وتعطي علاقة المرأة بزوجها وعائلتها، ووضعها الاقتصادي، والمكانة التي يكنها الطفل في وجودها، كل ذلك يعطي طابعاً شخصياً للروح الأمومية للمرأة.

الفصل الثالث

المراحل التمهيدية

التجارب الكبرى في حياتنا ليست مستقلة إحداها عن الأخرى، إنما هي مرتبطة بسلسلة طويلة. فعندما ندرس وظيفة التناسل عند المرأة، نصادف باستمرار عودة إلى مواقف سابقة، وأحياناً، صادمة. وتجاوز الماضي هو شرط أساسي للصحة النفسية للمرأة، وإلا لاستدعت المواقف الجديدة صدمات جديدة. وإن تحملت المرأة، بصورة حسنة الضغوط والتوترات العاطفية في طور التناسل، فسيؤدي بها ذلك إلى استمرار نوع من الانفراج النفسي، والقدرة التي تمتلكها عندئذ بالأمومة، حيث تتيح العواطف الجديدة للأمومة للأنا، حل المشاكل التي لم يتبادر له حلها من قبل. وعندما يبقى في الحياة النفسية كل شيء مكبوتاً وبلا حل، يخلق استعداداً للقلق النفسي، وما أتينا على ذكره يتلخص بإسهاب بالطريقة التالية: تعطي تجربة التناسل للمرأة فرصة لضبط حالات القلق النفسي القديمة، بضبط الحالات الجديدة.

وفي الفترة التي تدخل فيها بخدمة النوع، تصل كل امرأة إليها بدرجة ما من الضعف والتبعية، أو الميول العدوانية الحاقدة، أو الشعور بالذنب، أو الحاجة للعقاب الذاتي الماسوشي. كل ذلك يشكل جعبتها العاطفية القديمة. ونحن نعلم أن عناصراً تعاقبت مع الزمن تتعايش في اللاشعور. هذا التقابل يشكل الغنى المضطرب للنفس الإنسانية. ويستطيع علم التحليل النفسي أن يرسم مخططاً ناظماً لهذا الاضطراب، معيداً في بناء السياق الزمني للنمو النفسي.

كل فعل معزول عن الوظيفة التناسلية يتطلب دراسة ممعنة. فكل فعل مشترك مع مرحلة معينة من الماضي، ويخضع لقوانين عامة، فيزيولوجية ونفسية. لكن الأدوات النفسية التي نمتلكها، تعتبر فردية تماماً، وكل امرأة لها تجربتها الخاصة المختلفة عن أي امرأة أخرى من نفس الطور.

إن أطوار التناسل لها سلف مما قبل التاريخ يمكن أن يُقسّم إلى مرحلتين، لأن الأمومة مثل كل الحياة، ذهنية وغريزية في كليتها، وتتجاوز مرحلتي الطفولة والبلوغ.

في ما يعلمنا تاريخ تطور الوظائف الجنسية الأنثوية، أن المرأة الراشدة تحل بصورة جزئية مهامها البيولوجية، بنفس الوسائل التي يستخدمها الطفل لإشباع وضبط دوافعه الجسدية الأولية. كما نعلم أنه في بعض مراحل الحياة، يتجه اهتمام الطفل الصغير بالكامل، نحو التطورات البيولوجية المحددة لعضويته التي لا تخدم فقط الهضم والبقاء والنمو، إنما تعد أيضاً مصدراً للمتعة يتهافت نحوه بشغف. وهكذا تترسخ، منذ البداية، العلاقات النفسية الجسدية والتي تختلف غايتها في كل مرحلة من مراحل النمو، إنما تبقى إمكانيات التعبير عنها محدودة. وتعود هذه العلاقات للظهور باستمرار في ميول ثلاثة: ميول الخلط وميول الإلغاء وميول التمسك أو الاحتفاظ[1]. وفي كل مرحلة، تصدر سلوكاً مختلفاً وفقاً لمستوى التطور.

كما ينجم عن هذه الميول مماثلات خلال المراحل المختلفة. وبسبب هذه المماثلات يمكن لمرحلة سابقة لنموها أن تشمل عناصر تصاعدية ومرحلة أكثر تقدماً عناصر تراجعية.

ولنوضح كل هذه الأمور بالأمثلة. فطرح الفضلات غير الموجهة

(1) يسمي ألكسندر هذه الميول «آليات الاتجاهات»

Cf. Alexander F. : The medival value of psychoanalysis. New- york : Norton , 1936

للتغذية، والتي غدت عديمة الفائدة وخطرة على العضوية (في ارتدادها) يترافق مع ردود فعل عاطفية معقدة، ناشئة عن الصراع بين الميل للاحتفاظ والميل للطرح، كما في مسألة عسر هضم الغذاء. وتعلمنا نظرية التحليل النفسي للغرائز أن الدوافع الذهنية الغريزية، وأحاسيس المتعة، والتخلي ... إلخ، مشمولة في هذا الطور. كما أن تأثيرات التربية الملزمة، والأهمية التي يعلقها المحيط على «المحصلة»، وتشكل «آداب التحكم بعضلة التبول»، والخيالات المرافقة للغائط المحصور داخل الجسم... إلخ كل هذا يعطي للتطور البيولوجي أهمية نفسية كبيرة.

وتعد بعض عناصر هذا الطور تصاعدية، إذا أنها تمثل آجلاً تصميم الولادة. فخلال الولادة أيضاً، يكون توزيع الأعصاب بصورة متناوبة ما بين إطراح وإمساك، تماماً كما في التحول والارتداد. وتمضي المماثلة بعيداً. فالفعل التمهيدي للطور الهضمي، وعسر الهضم، تبدأ، من حيث التطور التاريخي للفرد، مع الإرضاع. وكما نعلم أن هذه الوظيفة البدائية في الحفاظ الذاتي للنوع تترافق بدوافع ذهنية غريزية كما يمكن أن تصبح نموذجاً نمطياً لكثير من الأطوار النفسية المستقبلية. ولعل في الجماع، وهو الفعل التحضيري الأول للأمومة، يكون متماثلاً بصورة وظيفية مع نشاط الرضيع أثناء عملية الرضاعة، فحركات مص المهبل، وقابليته للتلقي، تتماثل مع وظيفة الفم في التلقي. في ما الدوافع المتوحشة والمترافقة لعسر التغذية والدافعة للعض المؤلم لثدي الأم، لها أيضاً مماثلاتها التناسلية في الخيال العصابي المعروف جداً والذي يرى في المهبل عضواً يتلقف ويعض. مثل هذه الخيالات قد تؤدي إلى عجز عند الرجل.

وبالإجمال، فإن النموذج النمطي للفعل التناسلي يجري تصوره، مطولاً قبل الحدوث، في الوظائف الاستباقية الفيزيولوجية النفسية. ومن وجهة النظر هذه، يعد التناسل نشاطاً متمايزاً بثبات وتصميم و متخللاً بالعناصر التراجعية.

لقد لفتنا الأنظار حول هذه النماذج النمطية العضوية والطفولة بأنها

على صلة بمختلف الدوافع الذهنية الغريزية التي تمد التخيلات والرغبات والمخاوف بالمحرّض. وبتنسيق التجارب الداخلية والانطباعات الخارجية، تدمج الحياة التخيلية لأطفال الجنسين، بصورة منتظمة، الجنين مع محتوى الأحشاء. وتنشأ هكذا بعض المظاهر للأمومية المستقبلية للفتاة الصغيرة، وقد تؤثر هذه المظاهر على الأطوار الفعلية الواقعية

ويترسخ التأثير المتبادل بهذه الطريقة: هناك تمهيد لأحداث طور التناسل في التخيلات الطفولية، كما تؤثر أحداث الطفولة، على نحو أو آخر، بالوظيفة التناسلية اللاحقة. وتشكل وظائف الخلط، والطرح، والتمسك جسوراً جامعة لكلا العمرين.

سوف ندرس الآن هذه التطورات الطفولية بطريقة مفصلة أكثر. فقبل كل شيء علينا اعتبار هذا الأمر ضمن إطار أن النمو الكلي للفتاة الصغيرة، لأعضائها، ومهبلها ورحمها، كلها تحتل موقفاً خاصاً، ورغم المهمات الكبرى المقدرة لها، تبقى مجهولة للفتاة التي تمتلكها إلى اليوم الذي تدخل فيه في خدمة الوظيفة التناسلية. وتعلمنا التجربة أن التخيلات والمخاوف حول موضوع الوظائف التناسلية على علاقة بداخل الجسد، هذا الداخل الذي يتم تصوره مندمجاً مع أعضاء الهضم، دون أن يكون هناك إلمام بالأعضاء الجنسية الأنثوية.

وقد يكون ما يعقب ذلك عظيم الأهمية، مهما يكن الاهتمام الذي يهيمن حول موضوع هذا «الداخل». فالأفكار التي استمدتها الطفلة حول هذا «الداخل» قد تترافق بالتطلعات الوادعة، وبالزهو، وبالتقييم الإيجابي. وفي حالات أخرى، إنه عدو لدود وخطر ذلك الذي يفترض أنه كامن في الداخل، وتتخلص منه الطفلة بنوبات من الإقياء أو الإسهال. كما أن الصراع الشاق الذي يجب أن يظهر على هذا الكائن السيء أو المرغوب، يُترجم أحياناً بإمساك مؤلم.

إن خيال الفتيات الصغار (أو الصبيان الصغار)، يحيك نظريات لا

حصر لها حول موضوع الولادة. وبصورة عامة، يتم الحمل بالنسبة لهم بواسطة الفم، والولادة بواسطة الشرج، أو السرة أو الحضن. والقضيب الذي يجب أن يخترق الجسد، والطفل الذي يخرج منه، يقارنان لدى الطفل بضآلة منافذه الجسدية الخاصة، فيحتفظ لاشعور الراشد عن هذه الحقبة، بترائيات مرعبة.

ولعل جميع المنافذ الجسدية للطفلة قد تشملها هذه التخيلات[1]. ففتاة في الثالثة من العمر، أخبرتها أمها بالمجيء الوشيك لأخ صغير أو أخت صغيرة، سنجدها في الليل في سريرها، تحاول سد جميع منافذ جسدها: آذانها لكي لا تسمع صراخ أمها، وأنفها لأن الطفل ربما تكون له رائحة كريهة، ومنافذها السفلى لأن اللقلق قد يضع لها خطأً الطفل في الشرج. وتكون الفتاة الصغيرة قد استعلمت من أمها تماماً عن طور الولادة، لكن هذا لا يمنعها من إطلاق خيالات شفافة ومتعددة. وما تعتقده حول صراخ أمها والرائحة الكريهة للطفل، يأتي بلا شك من خوفها من خطر ما قد يداهم أي منفذ من جسدها[2].

قد نتساءل إذن لماذا يوجه الصبي الصغير، الذي اشتمل نموه نفس الوظائف العضوية ونفس الإرضاءات الذهنية الجنسية المرافقة لهذه الوظائف، اهتمامه بسرعة أكبر وبطريقة مستقرة أكثر من داخل جسده إلى العالم الخارجي، ولماذا ليس إلا في حالات استثنائية يتخذ موقفاً أنثوياً، بإبقاء خيالاته المتصلة بالحمل والولادة بطور الهضم.

بالنسبة لنا، يفسر لنا هذا الأمر، الاختلاف التشريحي الجسدي بين الجنسين. فاهتمام الصبي الصغير يتجه نحو نشاط عضوه التناسلي، الذي

---

(1) Deutsch : Studies in pathogenesis. Psychoanalyt. Quart. , vol.2 , 1933.

(2) سنرى رد الفعل المثير لفتاة في الرابعة من العمر حول حمل أمها في كتاب Barrettw.G.: Penis envy and urinary control, pregnancy fantaisies and constipation; Episodes in the life of a little girl. Psychoanalyt. Quart., Vol.8 1939.

يعطيه الآن مخرجاً لطاقاته الجنسية، ولمساعيه نحو اللذة، ولمخاوفه المترافقة مع ذلك. وعلى خلاف ما يحدث للصبي، تكون الفتاة مجبرة، بعد محاولات عبثية وآمال خائبة، في توجيه اهتمامها نحو داخل نفسها، إنما هذه المرة في اتجاه جسدي فاحش وليس في اتجاه نفساني (vol.I p. 124.) إنها تتخلى شيئاً فشيئاً عن ردود فعلها العاطفية لغياب العضو، وتتأنث حياتها الخيالية، وإن صح القول، يتجه اهتمامها اتجاهاً تصاعدياً نحو فكرة الطفل، وتتوصل بذلك إلى مرحلة طفولية قد نطلق عليها اسم المرحلة المنذرة بالأمومة المستقبلية.

وانطلاقاً من هنا، يصبح النمو الجنسي للجنسين مختلفاً اختلافاً شديداً. إذ يحافظ الصبي حتى النضوج على الاهتمام القلق الذي يكنه لأعضائه التناسلية الخارجية، في ما تستمر الفتاة في طرح مسألة الطفل. وبما أنها تجهل لفترة طويلة جهازها التناسلي، فتمثيلها للتناسل وللطفل يبقى مرتبطاً بالفعل الهضمي. ويظل هذا التمثيل الأكثر ترسخاً للمبادئ الطفولية الموجودة عند المرأة الناضجة، ويمارس أحياناً تأثيراً مشوشاً على بداية أمومتها. مشكلات كثيرة أخرى تضاف إلى ذلك شيئاً فشيئاً، عامة وفردية.

وبطور معقد، وأحياناً بإساءة فهمه، تتخطى المرأة صدمتها التناسلية ورغبتها بالقضيب، وبداية رغبتها لطفل. ولأول وهلة، يبدو في هذا الأمر تشوش ذو أهمية كبيرة في ما يخص مطابقة القضيب مع الطفل. فالتحول من رغبة العضو الذكري إلى رغبة بطفل، يرجح أنها تُتخذ كبديل، عن أن تكون طوراً ديناميكياً محدداً تحديداً بيولوجياً. وتظهر حقيقة، في الحياة التخيلية للفتاة الصغيرة، مماثلات لها أسباب مختلفة. و لدى تحويل اهتمامها من خارج جسدها إلى داخله، قد يشمل ذلك القضيب الذي تتخيله كعضو داخلي وتتمسك بهذا الرأي لفترة من الزمن. ويتماثل هكذا القضيب والطفل في ما يعتبران كلاهما كجزءين من جسد الفتاة. ونصادف أحياناً هذا التماثل في حالات الضيق النفسي لمرحلة البلوغ، وفي الرغبة التي تعبر عنها

المراهقة لإجراء عملية لها. ويحرّض الحمل الواقعي بحد ذاته، لدى كثير من النساء، الفكرة القديمة بامتلاك شيئ ما داخل الجسد، متماثلاً إلى حد كبير أيضاً مع العضو الجنسي للصبي. ومع ذلك، لا أعتقد أن جميع الفتيات الصغيرات يعتبرن الطفل كتعويض عن دونيتهن الجسدية التشريحية، إذ إن، في مرحلة الطفولة والبلوغ، لا يصح لشيء غير موجود أن يكون تعويضاً، ومن ثم خلال مرحلة التناسل، يأخذ الطفل معنىً جديداً ينشأ عن مصادر أخرى.

وهكذا نكون قد تناولنا باختصار المراحل الطفولية للوظيفة التناسلية، بقدر ما لها من علاقة بالمراحل النفسية التمهيدية، وبالدوافع الذهنية الغريزية التي تتوافق معها. والطفل لا يمثل فيها بعد أداة مرغوبة في العالم الخارجي. إنها موضوع لا زال ضمن الإطار الخيالي، ومنحل في مجموعة من العناصر النفسية حيث الأجزاء الموجودة أو المرغوبة من جسد.الفتاة، وطرح الفضلات، والقضيب، والطفل لا زالت غير مميزة بصورة جلية في اللاشعور. كما أن تمني الطفل لا زال أمراً ليس له شأن كبير، بالترافق مع التجربة العاطفية اللاحقة للأمومة، وهو يعبر عن ميل غريزي لامتلاك شيء ما. وتُقارب عواطف الشهوة والحرمان هذه الرغبة، من رغبة القضيب، لسبب وجيه أنها لا يمكن أن تكون مرضية على الإطلاق.

لعل هذه الحقبة الطفولية السابقة للأمومة، هي أقرب ما تكون للمجال البيولوجي منها إلى المجال النفسي. إنما هناك لدى الفتاة الصغيرة، مظاهر أخرى يمكن أن تعتبر كتحضيرات للأمومة.

لقد سبق وذكرت أحياناً أن اندماج الفتاة الصغيرة مع الأم النشيطة الإيجابية هو أحد مصادر النشاط الأنثوي. حتى لو سلمنا بأن نشاط الأم في صالح ابنتها هو نشاط محدد تحديداً بيولوجياً، فثمة تصور يعود إلى مرحلة الطفولة هو الأساس في الروح الأمومية، هذا تصور يدوم عادة خلال جميع مراحل النمو، كما لا يستغنى عنه للإتمام السعيد اللاحق للدور الأمومي. فمن قبل أن تتمثل الفتاة الصغيرة موقفاً نشيطاً تجاه أبيها باعتباره يمثل

الواقع الخارجي، تنسلخ بقفزات نشيطة من الأنا الذي يحررها شيئاً فشيئاً من تبعيتها لأمها. وبتأثير هذه الحاجة، تقلد أمها في بادئ الأمر في جميع المسائل، وبنجاحها من حسن إلى أحسن، تقلب الأدوار بصورة تصاعدية[1]. وتبذل قصارى جهدها في قلب جميع المواقف التي تستمد من الحياة اليومية لهذا الجهد، وتحديداً في الألعاب التي تشرع بها مع أمها نفسها. أو مع أطفال أصغر، أو مع الدمى ...إلخ. لقد ابتكر الراشدون الدمى التي تستوعب ميل الفتيات هذا في تقليد أمهن والذي يشجعهن عليه بتعقل وحكمة. وقد تكون الفتاة سعيدة بأن تعمل لأمها ما عملته لها وحتى أكثر، وإذا تمكنت من ذلك، فستفرض على أمها، في عدوانيتها الطفولية، ما قد ترفضه لنفسها بعنف. كما تبادر أحياناً في إرضاء ميولها العدوانية «الأمومية» هذه على دميتها، باضطهادها، وباقتلاع أو تدمير أعضائها... إلخ. وقد تتجاوز بالتأكيد الاندماج مع أمها العذبة واللطيفة.

وما لا تستطيع تحقيقه فعلياً، تفضحه في خيالاتها . (vol.I p.81) التي تبدأ بعبارة «لو كنتِ صغيرة ولو كنتُ كبيرة....». ولو نبحث عما تفكر به، لحصل أننا نلاحظ على الفتاة عدم تصورها فقط لدورها الأمومي تتحول من السلبية إلى الإيجابية، إنما باستخدامها هذا الدور لشحن دوافعها العدوانية. وفي خيالاتها مثلاً، تصغر الأم في حين الطفلة تكبر، وتستمر في الصغر إلى أن تختفي بالكامل فخيال الطفلة غني ويتجاوز حدود الواقع. وفي ما بعد، عندما تبلغ الفتاة الصغيرة، العمر الحقيقي للأمومة، قد تعود هذه العدوانية الأولية للظهور تجاه طفلها.

إن الميل للتطور من السلبية نحو الإيجابية له جذوره في الأنا، كما يجد حتماً حلفاء له في مجال الغرائز. وهكذا يظهر على سبيل المثال، تأثير الأفكار الهضمية على الإيجابية والنشاط في التسارع والاندفاع اللذين بهما

---

(1) Freud. S.; Concerning the sexuality of woman. Psychoanalyt. Quart. Vol.1, 1932.

تغسل وتنظف الدمية أو طفلاً أصغر منها وذلك بلعب دور الأم والطبيبة.

كما تتخذ الروح الأمومية للفتاة الصغيرة كذلك مظهراً أكثر تعقيداً، وتعيد وتكرر المواقف العائلية بنشاط دون أن يتضمن ذلك الأب وحتى يمكن إلغاءه بالكامل. كما تبتكر الفتاة الصغيرة الطفل بالتعاون مع أمها وتلعب معه لعبة الأسرة. ووفقاً لغنى خيالها تستقبل الطفل وتحمله، أو تبتكره بنفسها بينما تكون أمها متوارية بدور سلبي تماماً. وتشجع جميع الأمهات الذكيات هذه الأنشطة جميعها عند بناتهن، ويعلمن أن ذلك يسهم في بزوغ أنوثتهن، أكثر بكثير مما قد تفعله التطمينات الساذجة والعبثية: «صحيح أن ليس لك قضيب، إنما عندما ستكبرين، سيكون عندك طفل». فالوعد بالإرضاء المؤجل له أحياناً، كما نعلم، نفس تأثير الحرمان.

كل هذه الألعاب الأمومية قد تعود للظهور في الحياة اللاحقة، ضمن إطار تمنّ لطفل «عذري التناسل»، بلا أب، أو ضمن إطار تبنّ لطفل ممتلك بالاشتراك مع صديقة...الخ. وفي حالات أخرى، تتحول لعبة الأم والطفل مستقبلاً إلى موقف جنسي، تكون فيه جميع صيغ الإرضاء الذهني الغريزي الطفولي ضمن إطار علاقة جنسية مثلية. ومع ذلك، ثمة طريقة لإعادة إحياء العلاقة الأصلية بين الأم والطفل لا تتأتى وفقاً لطريق قويم، إنما بتحولات وارتدادات تتضمن رفضاً للأطوار الأكثر حداثة. (vol.1, chap.IX)

وإن تتمة المراحل السابقة لمرحلة الأمومة، تتطور وتنمو ضمن إطار عقدة أوديب، ففي خيال الفتاة الصغيرة، يشترك الأب اشتراكاً غامضاً بفكرة الطفل الذي يخصها. وفي تلك الحقبة، لا تزال الفتاة تجهل أصل الطفل جهلاً تاماً، حتى لو كانت مثقفة ثقافة جنسية. إذ لا تزال خيالاتها مرتبطة بالأطوار الأحشائية الهضمية، ويشترك دور الأب بالأفكار الماسوشية، في ما تصبح الأم منافساً وخصماً... إلخ. ولا يخفى أن ولادة الأخوة والأخوات أو أطفال الجيران يفاقم هذه الخيالات والنظريات والمخاوف.

وهكذا، فالفترة الطفولية للأمومة تشمل مرحلتين تؤثران على الأمومة اللاحقة. المرحلة الأولى تكون عندما تمتلك البنت الطفل مع أمها، وتحوّل النموذج الأولي النمطي للروح الأمومية النشطة. في ما المرحلة الثانية هي المرحلة الأوديبية بكل تعقيداتها، والتي تتصف بالرغبة في استقبال الطفل استقبالاً سلبياً. وكما رأينا، تمد التطورات الفيزيولوجية للطفولة وما يرافقها من الناحية النفسية، نماذجها الأولية النمطية بالمظاهر الجسدية الروحية لعملية التناسل.

وبات من السهل تفهم أن ولادة أخ صغير أو أخت صغيرة، يوقظ فضولية الفتاة الصغيرة نحو مسائل التناسل، ويجعلها تضع نفسها سريعاً في مركز هذه المسائل، وتشرح لنفسها باهتمام نرجسي، وتعزو ذلك إلى نفسها. إنما حين لا يكون هناك ولادة مشابهة، فسنجد أنفسنا أمام لغز: كيف تحيك الفتاة الصغيرة كل هذه الأفكار والنظريات المعقدة؟ وزيادة على ذلك، فحتى لو كانت الفتاة الصغيرة طفلاً وحيداً أو الأصغر في العائلة، يبين التحليل النفسي أن لاشعورها، يتصرف كما لو أنها قد شعرت واقعياً. بجميع الانطباعات ذات الصلة بحمل أمها، وبجميع مشاعر الاحتجاج إزاء طفل مولود بعدها. أو في ما لو كانت البكر، نلاحظ أن خيالها يخلق لها بكراً، (وبصورة عامة من الجنس الذكري) يجب أن يكون قد اختفى قبل أن تكون قد ولدت. وفي حال دعمت خيالاتها أحداث واقعية، أو علمت مثلاً بطفل ولد قبلها وتوفي، فتتولى مسؤولية اختفائه، وتفرض على نفسها القيام بكل ما ينبغي لتعويض هذه الخسارة. وكل وفاة لأخ أو أخت تحدث بعد ذلك، أو إجهاض للأم، واقعي أو مشبوه، فهو جريمة اقترفتها هي وقد تكفّر عنها لاحقاً عند وظيفتها التناسلية.

وبهذا نجد أن خيالات الفتاة تتركز بحيوية على مسائل الحمل والولادة، فهي تشعر بمخاوفها ورغباتها ومشاعرها بالذنب بشيء من الشدة، بحيث يكتسب كل هذا عندها قيمة ذات واقعية تامة. ويبدو الأطفال العاديون السليمون، غير خاضعين للانشغال بهذه المسائل، إنما باختبار

أكثر إمعاناً بحياتهم النفسية، يظهرهم منشغلين علانية بالمسألتين الهامتين ألا وهما، الولادة والموت، كما يبين لنا أنهم يشركون هذين القطبين، لأن كلاً منهما غامض ومحرّم وعسير عن التفسير. وحتى النساء السليمات نفسياً، يحتفظن بهذه المسائل في عمق أمومتهن الواقعية.

أما الفعل الثاني لمرحلة ما قبل الأمومة، فيتموضع في البلوغ، ويترجم منذ هذه المرحلة بهبة بيولوجية توجه الفتاة نحو التحقق. ولقد درسنا سابقاً أطوار البلوغ المؤدية لمرحلة الأمومة وما يليها .(vol.I, p124) وقد رأينا أن موقف الفتاة الشابة البالغة إزاء وظيفة التناسل يكرر أحداث الطفولة.

إن الخيالات الجنسية تبقى لاشعورية، في ما الخيالات الأخرى، كالاندماج بالأم النشيطة، هي أقل خطورة، وقد تصل إلى تفعيل مباشر وشعوري. أما المركب الذي يبقى في الحياة التخيلية اللاشعورية فيحركه ظهور الطمث. كما نلاحظ ذلك في ردود الفعل المرضية، وعموماً في أعراض التحول الجسدي، الذي يخفي خيالات ومخاوف الحمل، أو في الحالات المسببة للقلق النفسي وحالات الرهاب. لقد تحدثنا عن الرغبة التي تشعر بها الفتاة لإجراء عمل جراحي (قصة نانسي vol.I)، تلك الرغبة التي تلعب فيها الزائدة الدودية عادة دور الجزء الداخلي من الجسد والذي هو مرغوب ومرفوض في آن واحد. إننا مقتنعون، في هذه الحالات، أن الفتاة الصغيرة غير ناضجة لتحقق خيالاتها، حتى لو بلغ جهازها البيولوجي مرحلة الأمومة.

فنحن نعرف نمطاً لمرحلة البلوغ، لا تبقى فيه الروح الأمومية منزوية في الحياة الخيالية، إنما تبدو مفعّلة حية. ونريد التحدث عن هذا النمط من الفتاة، التي لا تدع أي فرصة تمر لتتصرف تصرفاً حيوياً بطريقة أمومية، إذ تكرّس نفسها للعناية بأخوتها وأخواتها الأصغر، وهي تسعى جهدها لتحل محل الأمهات في بيوت الجوار، إنها بالإجمال، شخصية صغيرة، نمطية جداً، وتجعلنا نراقبها مراقبة مسلّية. وعند رؤيتنا عن كثب لفتاة كهذه، ندرك

أن روحها الأمومية، لا تختلف كثيراً عن تلك التي تلعب أمام الفتيات مع الدمية ممثلة أماً نشيطة لها. إنهن أيضاً، يحتجن لمرحلة نضوج ليصبحن أمهات حقيقيات. وأحياناً، هن موهوبات بالأمومة، وأحياناً أخرى، يفضي هذا النشاط عن كبت في النمو، وعجز عن أن يتسامى أكثر.

لهذا النمط من الفتاة، درب طويل تجتازه قبل أن تتمكن من أن تصبح، بملء حريتها الداخلية، أماً لأولادها. ولايمكنها التصرف كأم إلا إذا خلت من المسؤوليات أو شاركتها بها شخصية أمومية أخرى. وسوف نعطي عنها مثالين .

كانت ليديا فتاة في السادسة عشرة من عمرها، وبعد دراستها الثانوية، راحت تقدم لأم المساعدة في عائلتها، التي تحتضن ثلاثة أطفال ما بين سنة حتى خمس سنوات. في ما كان الأب في الخدمة العسكرية.

كما كانت ليديا خير معين للأم. وبعد انقضاء أسابيع قليلة، غدت خبيرة بحيث تمكنت الأم من الراحة والإتكال كل يوم عليها أكثر. وغدا الأولاد يحبونها حباً فائق الوصف. وكانت سعيدة بذلك بحيث لم تطلب شيئاً آخر من الحياة. والسيدة ك. الأم، تشتكي فقط من رؤيتها للفتاة تحيا بطريقة زاهدة، وتنذر نفسها بإفراط للأطفال بصورة استثنائية. وحالما أيقنت السيدة ك. من امكانية تركها مع الأولاد طيلة النهار تقريباً، راحت تتفرغ للشؤون الأخرى.

ثم سقطت السيدة ك. مريضة رهن الفراش، ووجب عليها إجراء عمل جراحي، وتولت ليديا مسؤولية الأطفال بالكامل. وأظهرت بذلك طاقة كبيرة، وبينت عن أهلية للثقة أكثر من أي وقت مضى. كما أدركت كل شيء بصورة منتظمة وتلقت توجيهات السيدة ك، مع أنها ليست بحاجة فعلية لها.

إنما بعد مضي فترة وجيزة، ضعفت بسالتها، وفترت همتها، وأهملت الأولاد، وتركتهم مساء لتذهب إلى السينما، وتتصل بزملائها القدامى في الدراسة، وبالإجمال، تتصرف كغالبية فتيات سنها.

وقد جرت محاولة لمساعدة ليديا في مهمتها بدعوة جدة الأولاد للمجيء إلى البيت. فغدت ليديا منذئذ لا تُحتمل كلياً. والأولاد لا يهمونها قط، وانتهى بها الأمر لترك مكانها، والالتحاق بمعمل لتشتغل فيه بصورة جيدة، إنما بلا اندفاع.

وبناء على طلب السيدة ك.، ولأن ذلك يهمني شخصياً، التقيت بليديا، فأعطتني عنها في الحال انطباع فتاة عادية، بلا صعوبات عصابية واضحة. وأخبرتني أنها كانت ابنة وحيدة، وأن أبيها مصاب بالسل، وأنها متعلقة جداً بوالدتها. وقد أمضى والدها سنوات في المشفى وتوفي عندما كان عمرها عشرة أعوام. وأنها كانت تتحدث دوماً مع أمها عن الأطفال وتصمم على امتلاكهم. أما ظاهرياً، فكانت الأم شخصية أمومية جداً، وكرّست نفسها كثيراً لصالح ابنتها. وقد رهنتا أحلاماً مشتركة في ما يخص موضوع الأطفال. وتماثلت ليديا بهذه الأحلام جداً مع أمها، واندمجت بها، بمظهرها الأمومي النشيط. كما باحت ليديا لي بحلم بلوغها، إذ بعد أن اقتصدت مبلغاً كافياً، أرادت إتمام دراستها وأخذ أمها لبيتها. إذ قد تتزوج، وتنجب المزيد من الأولاد وتساعدها أمها في تربيتهم.

ولعب الزوج دوراً مؤثراً إلى حد ما في مخيلتها. ووجدت أن أحلامها تتحقق إلى حد بعيد، كما حولت على السيدة ك، علاقتها الإيجابية مع أمها، وأوغلت في اندماجها مع أمها وفي عنايتها بأولاد السيدة ك.، وعندما سقطت هذه الأخيرة مريضة، وتوجب على ليديا النهوض بكافة المسؤوليات، ضعف نشاطها الأمومي لأنها كانت مرتبطة بشرط الاندماج المستمر مع أمها الحقيقية، الخارجية. وروت لي ليديا أنه بعد رحيل السيدة ك، راحت تضطرب باستمرار من مسؤوليتها، وأصبحت موسوسة، كما خشيت من رؤية الأطفال يسقطون مرضى...إلخ. وقد أصبحت نزقة وغير صبورة، ولم تعد تستطيع مطلقاً تحمل البقاء في البيت. وجلب الأطفال إليها الملل والتعب، رغم أنها أحبتهم باستمرار، ولم تغادر إلا لأنه كان من السهل عليها تحمل فراقهم بهذه الطريقة. وهي راضية عن

عملها الجديد، وتعبر عن رغبة في الالتحاق آجلاً بمدرسة السكرتارية. وبقيت وفية لمشروعها في الزواج، وامتلاك أطفال، وأخذ أمها إلى بيتها.

ولا أعلم في ما إذا ستصبح ليديا أماً مستقلة راشدة. فعندما انقطعت عن علاجها، كانت دوماً عرضة للشك في اندماجها مع الأم النشيطة، بمعنى أنها لا تستطيع الاعتناء بالأطفال بفاعلية، إلا إذا كانت أمهم أو من ينوب عنها موجودة، لأن ليديا لم تبلغ بعد المرحلة الراشدة للروح الأمومية. وتنقصها العدوانية الضرورية لتصبح «مختطفة أولاد» والتي تستولي على أطفال بدون رضى أمهم، مع أنها كانت، من الناحية النفسية، قريبة جداً من نمط «مختطفة الأولاد» كما يبدو للوهلة الأولى.

وتخص ملاحظتي الثانية أماً التقيتها في وكالة اجتماعية. إنها السيدة بارون، امرأة شابة من أصل سويدي، كانت صغيرة جداً عندما أتت إلى أمريكا. وقد توجهت إلى الوكالة من أجل ابنها الذي كان في الرابعة والنصف من عمره، ويعاني من السلس البولي، والكوابيس المزعجة، وكان نومه متقطعاً بنوبات يصرخ فيها وينتحب ويتشنج. في ما خلال النهار، يكون الصبي الصغير نشيطاً جداً وميالاً لمشاجرة أولاد الجوار. أما علاقته مع أمه، فكان قلقاً بصورة واضحة وصعب المراس وليس على سجيته، كما يذكر، من وقت لآخر، حنينه لوالده الذي كان متعلقاً به جداً، وفقاً لما ذكرته السيدة بارون. أما السيد بارون، فكان في البحرية منذ عدة أشهر وسوف يبحر قريباً. وكان للسيدة بارون ابن آخر في الثالثة من عمره. ولاحظت بعد أيام قليلة من تحرك زوجها أنها حامل من جديد. مما جلب إليها الضجر، ليس بسبب العبء المالي أو العمل الإضافي الذي يمثله الحمل الجديد هذا، إنما لسبب آخر لم تتوصل إلى تحديده بوضوح. لقد كان الانزعاج النفسي من علاقتها بأولادها، والواجب العاطفي الذي تشعر بأنها بحاجة لأن يشاركها زوجها به. وقد أصبحت أكثر فأكثر واهنة القوى وقلقة وتخشى من البقاء وحدها في البيت. وبنقص الشهية والنوم، خسرت من وزنها، وعانت من كوابيس متكررة واستيقاظ مع الصراخ.

وكانت كثيراً ما تفقد أعصابها تجاه أولادها حتى ولو كان الأمر بسيطاً لا يستحق، رغم جهدها ضبط انفعالها. إضافة إلى حالة ابنها البكر واضطراباته الليلية المتكررة، خاصة عندما يبلل سريره، كل ذلك أصابها بحالة اكتئاب شديد. وقد أضجرتها غيرة هذا الطفل من أخيه الصغير، كما وضعتها البغضاء الموجودة بين الولدين في حالة من الذعر. وتشتكي من هذه الغيرة والطريقة «الفظيعة» التي يعامل فيها ابنها البكر أخاه الصغير، حيث يقرصه ويضربه ما أن تدير ظهرها. أما الناس الذين عرفوها فقالوا إن الطفلين كانا كثيرا الحركة بصورة غير طبيعية وأن السيدة بارون المتوترة، كانت قاسية بإفراط معهما عندما لا تحس نفسها على ما يرام. ومن ناحية أخرى، لم تكن تريد مواجهة وضعهما لبعض الوقت. وكانت تشعر بالوحدة، وأنها ستتحمل المزيد من المتاعب بسبب أولادها. كما تشعر أنها تكون أكثر هدوئاً، لو علمت أن ولديها برعاية شخص أهل ثقة كأخت زوجها الشابة مثلاً. ولا تستطيع طلب المساعدة من أمها، لأنها هي الأخرى مكرسة نفسها بالكامل للعناية بأمها.

كما روت لي السيدة بارون قصتها. ففي السنة الخامسة عشرة من عمرها، أصبحت حاملاً من رفيقها في اللعب من نفس عمرها، فتزوجته قبل ولادة الطفل بوقت قصير. وكانا سعيدين وينتظران هذه الولادة بفرح. وعندما أتى الصبي الصغير، كلاهما أولياه العناية. ومن خلال وصفها الحي، أدركنا أن الطفل لم يكن له أب وأم يهتمان به إنما أمّين، لدرجة أن السيدة بارون التي شعرت دوماً بقلة ثقتها بنفسها مع الأولاد، خففت من الأعباء العاطفية للأمومة بالمساهمة النشيطة لزوجها بالاعتناء بالولد. وقد ألحت بطريقة ملفتة على أن موضوع الصعوبة الرئيسية لم تأت من العمل الفعلي الذي يُعطى للطفل، إنما من الإعياء النفسي الذي شعرت به دوماً منذ ولادته. وتبعيتها القلقة لزوجها فاقمها ولادة الابن الثاني، التي حدثت، بعد مضي ثمانية عشر شهراً. وقد أعقب الولادة الثانية نزفاً أجبرها على نقل الدم.

وقد عبرت السيدة بارون عن فرحها في تلقي الدم الذي احتاجت إليه من زوجها، راغبة بالتوضيح أنه شاركها بحيوية بأخطار الولادة. وتمثلت الصعوبات الأولى عندما السيد بارون أبعده عمله عن بيته لجزء كبير من النهار والليل، تاركاً زوجته وحيدة مثقلة بمسؤولية البيت والأولاد. ثم أحست، شيئاً فشيئاً، أنها أصبحت متوترة ليلاً، وتخشى من البقاء وحيدة، مما أجبر زوجها على الاهتمام ببيته أكثر وبإيجاد عمل بساعات أقل. ومنذ ذلك الحين، آلت صحة زوجته إلى التحسن.

كما وصفت حالتها خلال غياب زوجها، كشعور التائهة بلا سند أو دعم، خاصة بما يخص الأولاد. أما في النهار، فكانت تتحمل غيابه بصورة أفضل، وخاصة عندما يكون الأولاد على ما يرام، والعناية التي يطالبون بها لا تتعدى الحد الطبيعي. وتكرر أنها لا تستطيع التخفيف من عبء ضيقها النفسي، إلا إذا شعرت بزوجها قريباً منها ومستعداً لرعاية أولاده بحب. وهو سعيد جداً بالقيام بذلك (وهناك ثمة داعٍ قوي لتصديقها)، حيث كان يقوم بطهي الطعام للصغار، كما يهتم بحاجاتهم الجسدية، وروحه ممتلئة دوماً بالحنان تجاههم. وليس للسيدة بارون أي انطباع بأن الأطفال يشكلون عبئاً عليه أو يشعر بالارتباك في أنشطته الخارجية بسبب واجباته العائلية. وكان عاملاً طيباً، وسعيداً بالقيام في أصعب الأعمال إذا مكنه من رعاية أسرته بصورة مناسبة. ولا تشعر السيدة بارون بأي ضيق نفسي أو حالة عصبية طالما زوجها معها. وفي الأشهر الأخيرة، عادت الأعراض، التي عانت منها سابقاً خلال غياب زوجها، إلى الظهور عندما كان يغيب عن البيت.

وقد وجد السيد بارون في البداية ارتياحاً وارضاءً كبيراً في عمله الذي سعى لتأديته على أكمل وجه، كما كان متحمساً لفكرة الانخراط في البحرية. أما الآن، فهو يشعر بقلق واضح لدى علمه بأن زوجته حامل من جديد ووحيدة. وراح يكتب الرسائل إلى الأهل والأصدقاء يعبر فيها عن ضيقه النفسي واستيائه من التدريب. ومن المرجح أن شعوراً بالذنب ونوعاً

من الاهتمام الأمومي تجاه عائلته، كان يثقل عليه ويكبت نشاطه الرجولي. وحتى لو اعتبرت السيدة بارون كضحية للحرب، وإحدى النساء الكثيرات اللواتي وجدن مصاعب في العيش منفصلات عن أزواجهن، فمن الواضح أن مصاعبها كانت تتفاقم بسبب وضعها النفسي الخاص.

وقد ذكرت لي السيدة بارون أن للمشاعر الأمومية أثرها المهيمن في طباعها منذ طفولتها الأولى. كان عندها أخوة وأخوات أكبر منها، وأخ أصغر منها بسنتين. وما تذكرته أيضاً، أنها كانت تساعد والدتها دوماً بالعناية بهذا الطفل، كما اهتمت أيضاً بأطفال الجوار. كانت صغيرة جداً عندما وجدت نفسها حاملاً، وتملّكها فرحٌ كبير لفكرة امتلاك طفل، وأنها بالكاد أدركت الأوجه الاجتماعية والمالية لوضعها. ورغم أن زوجها لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من عمره حين تزوجا، (كانت وقتها في الشهر السادس من حملها) فقد تقبل بفرح واجباته الأبوية. ومع ذلك فصِلَتُه بأولاده لم تكن تنم عن شخصية أبوية قوية.

كان انطباعي في إسهام زوجها في الحياة العائلية، وفي مجتمع لنقل أنه ذو نظام أبوي، أن من الطبيعي أن تحتاج المرأة لرجل ليس فقط كأداة حب، إنما أيضاً كسند وكمدافع أمام العالم الخارجي. زيادة عن أن علاقاتها العائلية في طفولتها، وتجاربها العاطفية مع والديها، تخلق عند أي امرأة استعداداً نفسياً مسبقاً للدخول في المثلث النموذجي النمطي في موقفها الأمومي الخاص (راجع الطفولة والمراهقة). إنما هناك شيء آخر في حالة السيدة بارون، كما لو أن عنصراً إيجابياً ناقصاً في روحها الأمومية تعوّل الثقة عليه. فنساء هذا النوع يصبحن تائهات عندما نتركهن لوحدهن مع أطفالهن. وينتقل قلقهن النفسي إلى أولادهن فيخلق لديهم ردة فعل قلقة، وتنشأ بذلك دائرة شائبة من التوتر المتبادل. فالصعوبات العاطفية الطبيعية للأطفال، وغيرتهم من أخوتهم وأخواتهم الأصغر تعطى لها قيمة أكثر من حجمها، وتضع الأم نفسها في حالة من يُجبر على «القيام بفعل ما» ليقوّم هذه المؤثرات الفظيعة في الطباع التي تبالغ فيها. وفي مشاجرات الأطفال

المبتذلة، تشعر أن عليها مناصرة الأضعف، ثم تخشى من أن تكون غير عادلة، فتزداد صراعاتها ويزداد بؤسها. وتدعو أحياناً أمها لتساعدها، إنما تظهر حينها احتجاجاً عدائياً ضدها مصدره الشعور بأنها تقف حائلاً أمام النشاط الأمومي لابنتها.

كثير من النساء يعملن على حل هذه الصعوبات، كما تفعل السيدة بارون، بجذب أزواجهن إلى ميدان أنشطتهن الأمومية. ومن الطبيعي أن يمتلك الزوج مؤهلاً أنثوياً واضحاً ليستجيب لهذا الطلب العاطفي لامرأته. وكثير من النزاعات الزوجية (من شراسة، وسكر، وزنى الزوج)، تأتي من شعور الزوج بتهديد رجولته، لقاء طلبات زوجته، ما يدفعه إلى هجر منزله. ولا يبدو أن هذه هي حالة السيد بارون، ومع ذلك لدينا انطباع هنا أيضاً أنه قد ينشب صراع في نهاية الأمر، حيث أن الرجل الشاب قد يصبح عاجزاً عن المضي في نشاطه الذكوري بصورة حسنة، عندما يشعر بضرورة المشاركة بعمل الأم في البيت. ومن الواضح أن الشعور الأمومي للسيدة بارون ينقصه مركباً إيجابياً نشيطاً يتكثف عادة أمام الحاجة التي يقوم عليها بصلابة عمل الأم.

والشرط الضروري للنمو الهرموني لهذا المركب، يكون بأن ينهض الزوج بالواجبات المختلفة التي يلقيها مجتمعنا عليه بصورة فعلية. وإذا لم يكن هناك أي شيء منها، وإذا أنهكت الزوجة، روحها الأمومية، بسبب الأعباء المفروضة عليها، فستكون أماً غير جديرة تجاه أطفالها. مثلاً، إحدى النتائج البائسة للحرب فرضت على النساء المساهمة بالدعم الاقتصادي للأسرة أكثر مما مضى، فتبادر المرأة أحياناً إلى ذلك بفضل قوة روحها الأمومية، دون أن تتشوش علاقاتها بأولادها. إنما تضعف غالبيتهن تحت وطأة النشاط المضاعف، ويخضعن لحلقة مفرغة من الضيق النفسي والحالة العصبية، كما رأينا ذلك في حالة السيدة بارون. ولا يمكننا معالجة النتيجة المشؤومة للحرب هذه إلا بمساعدة خارجية، وبرعاية خبيرة تقدم للأطفال، وتفهم واقعي للأمهات.

وقد تنشأ أيضاً مصاعب للأم، حين يفرض الموقف السلبي للرجل عليها مزيداً من النشاط الإيجابي، وحين لا يكون الرجل أهلاً للثقة.... إلخ كما أن الاهتمامات العشقية (كعلاقة غرامية) قد تحرف النشاط الأمومي عن غاياته المباشرة وتخلق صراعاً.

وبما أنه لم يكن شيئاً من هذا القبيل في حالة السيدة بارون، فتحليل مفصل، فسر، دون شك، لماذا كانت مرتبكة جداً في دورها كأم حين كانت تنقصها مساعدة زوجها. وإليكم كيف أجد موقفها: لقد أصبحت السيدة بارون أماً في فترة لا تزال فيها، من الناحية النفسية، «أماً مساعدة» (وقد استخدمت هذه العبارة لأكون أكثر وضوحاً)، أي أنها لم تتمكن من محبة الأطفال والقيام برعايتهم إلا إذا كانت المسؤولية الفعلية متروكة لأم راشدة. وقد ظلت «أماً مساعدة» تجاه أولادها أيضاً، ليس بمساعدة مسؤولة كأم أخرى، كحالة ليديا، إنما بإشراك زوجها بواجباتها الأمومية. كما نفترض أنها ما أرادت لامرأة أخرى تعهد الدور الذي نهض به زوجها. إذ شعرت دوماً بتمني الفتاة الصغيرة بأنها ليست الأم، إنما هي نفسها، التي تتمتع بالامتلاك الكامل للطفل. إنه لأمر ذو دلالة، أن تشعر السيدة بارون بالارتياح عندما عهدت بأطفالها لعمتهم الشابة، والتي قدمت لها الخدمة دون التعرض لأخطار شخصية أمومية فعلية. وإذا أبت بشدة وضع أطفالها، فلأنها قد تحس في هذه الحالة، أن امرأة أخرى قد تأخذهم منها.

إن مصاعب السيدة بارون تشبه مصاعب ليديا مع أن «الإخراج» يختلف. فمحبتها الأمومية كانت مشوشة بكبت غير منضبط، تماماً مثل ليديا. وكانت، مثل ليديا، قريبة أيضاً من فتاة صغيرة تلعب لعبة الأم، وتفعّل حنانها، إنما أفعالها لا تزال تحت تأثير اندماجها القوي بأمها، والتي لم تكتسب الصفات الضرورية من تجربة فعلية ونشاط مستقل. وإذا لاحظنا ألعاب واهتمامات الفتيات الصغيرات، نجد أن أولئك اللواتي يهتمين بصورة مستديمة بالأطفال الصغار هن الأكثر تعلقاً «ببيوتهن» والأكثر سلبية. في ما الفتاة الصغيرة تندفع أحياناً هي أيضاً نحو اهتمامات أمومية

وتندمج مع أمها، إنما سرعان ما تحس بالإعياء من هذا الدور، كما حصل مع ليديا، وتتجه نحو أمر آخر. ويصح هذا في الطفولة الأولى، ويمتد إلى مرحلة ما قبل البلوغ والبلوغ الناشئ. ولعل ولادة الطفل الأصغر تطلق عموماً هذا النوع من الروح الأمومية. وفي هذه المرحلة من حياتهن، تتخذ الفتيات السلبيات موقفاً أمومياً تجاه المولود الجديد، ويأخذن أحياناً على عاتقهن قسطاً من الأعباء الناشئة مع قدوم المولود. وإذا حصل هذا، فهو ليس بصورة دائمة، وليس فقط لأن المشاعر الأمومية للفتاة الصغيرة تتكثف. حيث يصدر عن الفتاة في طريق النمو، كرهاً شديداً للأم التي تحقق وضعاً تشتكي منه ابنتها في المستقبل القريب، واحتجاجاً ضد هذا العمل في غير أوانه للأم. وإذا استمر هذا الكره، فقد تعبر الفتاة عنه هكذا: «الأجدر بك أن تكوني جدة لابني لا أن تكوني أماً لابنك». وعند بعض الفتيات السلبيات، استعداد مسبق لمشاعر الذنب، ويترجم أن الشعور بمحبة مفرطة للمولود الجديد، يكبت أحياناً نموهن اللاحق.

فعلى الفتاة الصغيرة التي سوف تصبح أماً حقيقية، والموهوبة بجميع صفات الأم النشيطة، ألا تنمو وفق خط مستقيم. فالاهتمامات والأنشطة الأخرى، تحررها من خطر الاندماج المفرط بأمها، والذي لا يمكن أن يكون مرحلة تمهيدية للروح الأمومية. وإذا تشبثت الفتاة بهذه المرحلة، ستتصف بطباع، أكثر فأكثر، سلبية ولا تخرج لسنوات طويلة من صراعات عاطفية تمت لمرحلة البلوغ.

وأثناء مرحلة الطفولة الأولى، قد يكون احساس الفتاة الصغيرة ضد الطفل، الذي يكون امتلاكه موضوع تنافس مع الأم، أكثر بدائية وشدة. وفي الواقع ما قد تفضله سيكون في إلغاء، ورفض الصغير المعكر للصفو، وقتله بالمعنى النفسي للعبارة. ويحصل ذلك بصورة خاصة عندما تنافس الفتاة الصغيرة المولود الجديد على محبة الأب أو الأم، وعندما تشعر نفسها مهملة بسبب الطفل، أو عندما تتفاقم غيرتها العدائية بسبب الجنس الذكري لهذا الطفل. وقد تكون أمنيتها في امتلاك الطفل لنفسها، أمنية

متوقدة في خيالها، وقد تتمثل الروح الأمومية عندما تلعب لعبة الأم، لكن هذا لا يترجم كدليل خاص على وجود غريزة أمومية قوية أو كبوادر لذلك. وقد يُلاحظ أنه كلما أزعجها هذا التماثل والاندماج بالأم، سرعان ما تتخلى عنه وتتكشف عدائيتها للطفل بصورة مكثفة.

لقد ذكرت أن السيدة بارون كانت «أماً مساعدة»، وفسرت عدم نضوجها بموضوع أنها أسلفت مرحلة أمومتها قبل الوصول للنضج المطلوب لذلك، أي في مرحلة كانت لا تزال الأمومة فيها في الخيال وقد تبقى فيه. وقد ظهرت دوماً السيدة بارون شخصية سلبية إلى حد ما، ويمكننا توقع ذلك في أنها لم تصبح جديرة، بتولّي دور أم حقيقية إلا شيئاً فشيئاً. كما قد قطع نموها النفسي الحمل المبكر، وظروف الوضع غير الميسور بصورة غريبة، والهموم المادية، والإنهاك الجسدي، وابتعاد الزوج. إن خوفها من المسؤوليات أتى للوهلة الأولى واتخذ طابعاً عصابياً. وبرأينا، أن ميلها التراجعي، أرجعها إلى مرحلة من حياتها كانت تعتني فيها بأخيها. وخلال محادثاتنا، كانت السيدة بارون تعود لذلك الصبي الصغير بإلحاح لافت، وكنا على حق، في اعتقادنا أن نفاذ صبرها، وطبعها المتشدد وغير المتسامح تجاه أولادها مرده عدوانيتها القديمة تجاه هذا الأخ. وكانت تتنصل وتنكر هذه العدوانية، برفضها المطلق الانفصال عن أولادها، كما لم تشتك نهائياً من حملها الجديد الذي أعقب الحمل السابق بفترة وجيزة، بل تقبلته بكل طيبة خاطر. وعندما جرى الحديث معها عن ضبط ومراقبة الولادات في المستقبل، رفضت هذه الفكرة بعنف.

لقد اضطلعت ليديا والسيدة بارون كلتاهما بدور الأم النشيطة والمستقلة قبل الأوان. وتتطلب الروح الأمومية الحقيقية قوة للأنا، في ما لم تكن الفتاتان قد توصلتا بعد لمرحلة البلوغ. وكلتاهما تنتميان إلى ذلك النمط الذي أطلقت عليه اسم «الأم المساعدة».

كثير من النساء يبقين هكذا طيلة فترة حياتهن، لأن تطور النضج تعرض للكبت لسبب ما، حتى أن عدداً من الأمهات لا حصر له، أمضين

فترة بلوغهن منذ أمد بعيد، وظلت أمومتهن متوقفة عند تلك المرحلة، ونرى منهن عادة، لأن هذا الموقف يؤدي إلى مصاعب عصابية. وأحياناً تعبر المراهقات عن أمنية امتلاك الكثير من الأولاد، ويضعن مخططات للتربية... إلخ. ولا ينبغي الوثوق والتباهي بهذه الروح الأمومية، فهي تحتفظ عموماً بطابع الخيال، وليست كحاجة عاطفية حادة، أو أن الحاجة الواقعية الفعلية تبقى منفصلة عن التحقق الممكن، بسبب عدم الجدارة الموجودة في الفتاة الشابة للاضطلاع بالمسؤولية الكاملة. إن سلوك الفتاة الصغيرة خلال مراهقتها، يتيح لنا توقع مستقبل روحها الأمومية. ولعل الذهنية العقلانية التي تُعزى للفتاة «الحديثة»، والقيمة المفرطة التي ترتبط ب «الفعالية»، قد تجعلان منها أماً بامتياز، وتطبق بحزم جميع ارشادات التربية الحديثة، إنما الروح الأمومية الواقعية الفعلية ستبقى دوماً بلا شك غريبة عنها. وكلما استبدلت الفتاة حياة عاطفية غنية بفكر علمي، ينبغي أن نتوقع في المستقبل، عقم المكانة التي تتخذها الروح الأمومية، وإمكانية تقبُّل مثل هذه المرأة بولادة عدد من الأطفال.

ومما يسمح بأن نتنبأ خيراً بالروح الأمومية، ليس في أن الفتاة تظهر المحبة والتفهم للأطفال منذ مراهقتها، فالاستعداد للأمومة يعبّر عنه بصورة غير مباشرة. والفتيات المنتميات لنمط أمومي حقيقي هن اللواتي يكن مستعدات بصورة عاطفية، ودون أن يكن عصابيات أو ماسوشيات، لإخضاع غريزتهن الأنانية المحِبة للذات لمشاعرهن الإثارية.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

علم نفس الفعل الجنسي

يخدم الفعل الجنسي، عند الرجل والمرأة، غايتين مترافقتين: الاشباع الجنسي الفردي والتناسل. وفي الوعي الفردي، يعد التكاثر أحياناً، الترافق المرجو للإرضاء الجنسي. وفي أحيان أخرى، يسعى الفرد إلى تجنبه، سواء كان النجاح حليفه أم لا. وعند اشتعال الإثارة الجنسية، تغيب عادة، تماماً، فكرة التناسل عن ذهن الشريكين. وعلينا عند تحليل التطورات النفسية، أن نتذكر الفارق الأساسي الموجود بين الجنسين. كما ينبغي علينا أيضاً، تذكر أن مركبي الإرضاء الجنسي وخدمة النوع، ليس لها نسبة الكمية نفسها عند الرجل والمرأة. فبالنسبة للرجل، الوظيفة التناسلية هي شيء مضاف على الإرضاء الجنسي، في ما الفعل الجنسي بالنسبة للمرأة، هو لذة لمكافأة مرتبطة بخدمتها للنوع. وعلى المرأة ينطبق بصورة خاصة قول فرويد[1]: «يعتبر الفرد الاحساس الجنسي كأحد غاياته الشخصية، في حين، من وجهة نظر أخرى، ليس هو في حد ذاته إلا تابعاً لمادته الهيولية الحية، والتي يستمد منها طاقاته، وبإحساسه أنه مقابل ضريبة اللذة، يكون ناقلاً فانياً لجوهر خالد افتراضياً»

ويأتي هذا الاختلاف الأساسي من أمرين:

(1) Freud. S.: On narcissism: An introduction. Collected Papers, Vol. 4 p. 35.

أ) عند الرجل، الإرضاء العضوي القائم على إفراغ الشحنة، والمترافق باللذة، وبالبلازما التكاثرية، ومسألة تموضع هذه البلازما في جسد يجد به مأمنها، هي أجزاء مدمجة لفعل «واحد». وتتحقق خدمة النوع من الإرضاء الجنسي في نفس الوقت، وبالنتيجة، يستطيع الإنسان أن يسمح لنفسه بعدم التفكير بها.

وبالنسبة للمرأة، غاية البلازما التكاثرية لديها، أي خدمة النوع، لا تتحقق إلا في أجل بعيد، وبعد فترة زمنية محددة. وتطوراتها العضوية الداخلية، خاضعة هي نفسها لانفصال في الزمن، طالما أن نضوج البويضة وخصوبتها هما وظيفتان متميزتان بصورة مرحلية زمنية.

وتمثل طول الفترة الكائنة بين الإخصاب والولادة عند الأنثى البشرية، والمرحلة الطويلة التي يتبع فيها الطفل أمه، تقدماً نشئياً نوعياً يتضمن فصل هاتين الوظيفتين، الفعل الجنسي والولادة. أما عند الحيوانات الدنيا، فتكون الوظيفتان أقرب إحداهما من الأخرى، وعند بعض الأجناس، يبدو إبعاد البويضة الملقحة مرتبطاً بأحاسيس اللذة، والحركات الإيقاعية للحيوان الذي ينجز هذه الوظيفة يذكر بحركات الجماع وقد يشكل نموذجاً أولياً لها.

وموضوع أن الإنسان قد يعدل بصورة إرادية الأطوار البيولوجية، فرض قاعدة حكمية على اللعبة العفوية الطبيعية للوظيفة الجنسية، مما أدى لجعل الأمور أكثر غموضاً. فالتطور الثقافي، والظروف الاقتصادية بشكل خاص، والسعي المبذول من قبل المرأة لاتباع الوظيفة التناسلية لاهتمامات أخرى... إلخ قاد إلى تكيف جديد مع الواقع يناقض أحياناً الميول البيولوجية. وفي هذا الانتهاك للأطوار الطبيعية، والتي تشمل عند الجنس البشري عناصر الجسد والروح، يبدو لاشعور المرأة محتفظاً بالوحدة النفسية للجماع والتكاثر. ولدى المرأة، تقود جسور نفسية تآلفية من الجماع إلى الولادة وعلى العكس من الولادة إلى الجماع. فالطوران متماثلان إلى درجة كبيرة. وسأدرس لاحقاً بالتفصيل هذين الطورين.

ب) يتمكن الرجل من إيداع كامل الوظيفة لعضو وحيد، في ما تعاني المرأة من وفرة بالنعم، إذا صح القول، تؤدي إلى تعقدات ومضاعفات. وقد صادق فرويد على أن البظر الذي أصبح بلا ضرورة عند المرأة اليافعة، ينقل إلى المهبل أحاسيس اللذة، و«يتنازل» في صالحه. في ما يظهر تحليل أكثر عمقاً وتجربة أطول، أن هذا النقل لا يكتب له النجاح بالكامل، وأنه في فترة نضوجها الجنسي، تمتلك المرأة عضوين جنسيين، بحيث أنها تكون في موقف كحمار إيسزوب[1] الذي مات حرماناً من الطعام، بسبب حيرته بين معلفين مزينين تزييناً حسناً، وبامتلاكها لعضوين، تبقى المرأة أحياناً غير مشبعة جنسياً.

ومن المحال حتماً القول، إن المهبل يزداد شبقاً بالهرمونات في مرحلة النضوج الجنسي. ويبدو أن إفراغ الشحنة الجنسية يبقى محروماً جزئياً من المركز، كما يبقى مرتبطاً بالبظر جزئياً. ولو كان صحيحاً أن الإحساس المهبلي يزداد بموجب تحريض فيزيائي كيميائي، لازداد تهيجه الجنسي من ذاته مع الوقت. ومع ذلك، فأغلب النساء اليافعات، اللواتي فاتتهن بصورة خاصة ولفترة طويلة، التجربة الجنسية المباشرة، لا يختلفن إطلاقاً من وجهة النظر هذه، عن الفتيات الصغيرات، وباستمنائهن عموماً بواسطة البظر، حيث يمتد التهيج إلى المنفذ المهبلي. ومن الجائز، أن تأثيرات ثقافية و تربوية ألغت التهيج الهرموني والمكتسب بصورة نشئية نوعية من المهبل. وفي أعقاب تكيفها مع الرجل، تبتعد المرأة كثيراً عن الإيقاع النمطي، وتفقد بواسطته العفوية الجنسية للمهبل. ولا تكفي معرفتنا بالأطوار الجنسية عند الثدييات العليا لتتيح لنا مماثلات مناسبة.

ومع أن الانقباضات المهبلية يتم الإحساس بها بصورة واضحة منذ مرحلة البلوغ، فإن البظر يبقى هو العضو المركزي في هذه المرجلة من الحياة. ولا يصبح المهبل مركزاً للإثارة العفوية التلقائية إلا عند النساء

(1) من الأمثال اليونانية (المترجم).

اللواتي مررن بتجربة جنسية مباشرة.. وتقول لنا بعض النساء اللواتي ليس لهن هذه التجربة، إن التهيجية انتقلت شيئاً فشيئاً، بصورة تلقائية، من البظر إلى المهبل، وأنه أبدى تأثراً بالتخيلات الغرامية. إنما مثل هذه الحالات لا تشكل قاعدة، وعموماً لا تسهم التهيجات المهبلية التلقائية في تجربة المرأة كما يفعل الانتصاب لدى تجربة الرجل .(cf.vol.I) ويغدو المهبل «المجهول» شبقاً في حالات عادية ومناسبة، بواسطة فض البكارة. وبـ «فض البكارة» لا أريد أن ألمح هنا إلى ذلك التخيل في مرحلة البلوغ حيث ترغب الفتاة الصغيرة بطريقة واقعية ومرتابة بنفس الوقت، بالفعل الجنسي، كنوع من الاغتصاب. وليس هنا التخيل إلا إعداداً نفسياً لتطور واقعي، أكثر عذوبة، إنما مماثلاً بصورة ديناميكية. ويظهر هذا الطور من ناحية، بالاختراق العدائي للرجل، ومن ناحية أخرى، بـ «هيمنة» المهبل وتحوله إلى منطقة جنسية حساسة. وقد تجد التعبير عن الغاية الأساسية للمهبل، في أفعال التمسك، والاحتواء، والعطاء، تلك الأفعال التي تنتمي بصورة أكبر للوظيفة التناسلية منها للتجربة الجنسية. ولقد كانت الطبيعة حكيمة، عندما أودعت للرجل مهمة تسهيل التناسل في خلق أحاسيس اللذة في المهبل، والتي تجعل الفعل الجنسي مرغوباً لدى المرأة أيضاً، وفي إعطاء المكانة الثانية، على الأقل من حيث المظهر، لاهتمامها بالحفاظ على النوع. ومع ذلك، لا يجب أن يُترجم كل هذا، كنفي لأحاسيس المتعة المحددة بصورة فيزيولوجية والموجودة في المهبل، إذ أن فض البكارة لا يمثل على الأجدر، إلا تحريضاً على استعداد كامن.

وبإمكاننا الآن أن نتفهم على نحو أفضل، معنى هذا الكبت الظاهري للمرحلة الطفولية التي أسميناها الصدمة التناسلية .(cf.vol.I) في ذلك الطور، توضع الفتاة الصغيرة أمام غياب العضو، لأن البظر انتهى بها بدوره الطفولي دون أن يتنازل عن مكانته للمهبل. ولازال المهبل عاجزاً عن لعب دوره، إذ أن الوظيفة التناسلية تأتي في مقدمة واجباته. كما لو أن المهندس البيولوجي أسقط عضوين مختلفين لوظيفتين، البظر للأحاسيس الجنسية،

والمهبل للتناسل، ثم حكم، بشكل أوثق، بربط المهبل بالغاية الأنانية للمتعة الجنسية. وهكذا ضمن المخطط الجديد، على البظر، بإحساسه الجنسي الطفولي العديم الجدوى في التناسل، أن يتنازل عن وظيفته، والمهبل لا يأخذ مكانته إلا حين يتم التوصل للنضوج الجنسي والاستعداد للتناسل. إنما هذا المخطط لا يتحقق بالكامل، إذ إن البظر يحتفظ بتهيجيته خلال مرحلة الكمون ولا يتخلى عن وظيفته بطيبة خاطر، مع أن المهبل من جانبه لا يظهر تصميماً كاملاً في تولي الوظيفتين في آن واحد، التناسل واللذة الجنسية.

وبسبب الازدواجية التشريحية للأعضاء الجنسية، وبسبب الوظيفة المضاعفة للمهبل، يغدو الإمداد الهرموني ضرورياً من الناحية الطبيعية، وتكون القوى البيولوجية مكلفة بهذه المهمة. وقد تختلط الغايتان أحياناً بالنسبة للمرأة، مما يؤدي إلى تشوش قد يصبح مصدراً لاضطرابات مختلفة. وأي تجربة نفسية كانت، قد تثير هذه الاضطرابات، التي قد تفسد مختلف أساليب التطور الجنسي (بصدور البرودة الجنسية مثلاً) أو تحقيق وظائف التناسل.

إن الوظائف التناسلية للمرأة تصبح شيئاً فشيئاً أكثر وضوحاً بالنسبة لنا، بفضل تطور علم الغدد. إنما لم يتوصل علم البيولوجيا إلى إمدادنا بالمعلومات بما فيه الكفاية حول الوظيفة الجنسية، وبخاصة حول ذروة النشوة عند المرأة، مما يوجب علينا العودة إلى ميداننا في علم النفس، مع أنه لا يلقي الضوء بصورة تامة حول هذه المسألة. فعلم النفس لا يمتلك الوسائل الفعالة التي يمتلكها علم البيولوجيا، في ما يخص التوصل إلى المعرفة الموضوعية، وفي المقابل يمكنه المضي والتوغل أكثر.

ولمحاولة إدراك طبيعة وطريقة وأهمية ذروة النشوة عند المرأة، علينا اللجوء إلى عدد من المسالك في التقصي. فالجرح الجسدي المؤلم، وتمزق غشاء البكارة، والضغط الشديد، وتوسع المهبل بواسطة القضيب، تمهد للفرحة الجنسية الأولى الكاملة عند المرأة. هذا الجرح، على اعتباره

يختلف، عند أي امرأة عادية، عن المتعة الجسدية، يؤدي إلى ألم غير مرتبط إلا بصورة ثانوية بأحاسيس المتعة، ويمد هذا الترافق التجربة الجنسية بطابع ماسوشي. لعل علم نفس المرأة كله يجعلنا نفكر، أن هذا الترافق بين المتعة والألم يترسخ في مجرى نشوء النوع، وقد خلق استعداداً تكوينياً ما، أو شيئاً يمكن أن نصفه بآلية ذات منعكس ماسوشي. وكما سنرى ذلك لاحقاً، يمتد هذا الاستعداد ليشمل الوظائف التناسلية للمرأة ويعطي طابعاً محدداً جداً للمركب النفسي للولادة[1].

وكلما سيؤدي التوقع الماسوشي إلى موقف قلق في الدفاع، كلما ستؤخّر اعتبارياً وظيفة ذروة اللذة أو ستفوّت بالكامل. وإذا تعزز هذا التوقع بصورة غير طبيعية بأسباب أخرى من الماسوشية، ورغبات ماسوشية منحرفة، فقد تظهر وتحث على دفاع أشد أو تبقى غير مشبعة.

وقد حلل فرويد في تجربته «مَحرم العذرية»، المظاهر النفسية والثقافية لفض البكارة، وعلاقاتها مع العقد الأنثوية للإخصاء... إلخ. وهو يلفت انتباهنا إلى بعض المحرمات التي تمنع الزوج من فض بكارة زوجته. ففي بعض القبائل، يُعهد بمهمة فض بكارة الزوجات الشابات لنساء عجائز، وفي قبائل أخرى لمجموعة خاصة من الرجال (أحياناً الكهنة). ولنختتم حديثنا بما كتب فرويد عن ذلك:

ويمكننا القول أن فعل فض البكارة، ليس له ببساطة نتيجة تعود بالفائدة من الناحية الاجتماعية في توثيق الصلة بين الرجل والمرأة، إنه يطلق أيضاً ردة فعل قديمة تجاه الرجل، وقد يتخذ أشكالاً مرضية، وتعبر عنه أحياناً كوابح وكبت في الحياة الغرامية للزوجين، وبسبب ردة الفعل هذه يمكننا أن نعوّل في الزواج الثاني نجاحات أكثر من الأول. ولعل

(1) لعله في البحث الجسدي الروحي، يكشف ما إذا كانت تلعب هذه الآلية الأنثوية بامتياز، حيث يختلط فيها الألم بالمتعة، دوراً مهماً في أمراض العضو. وأن البناء الطبيعي للعضو المفروض على المرأة يمكن، ضمن شروط مرضية، أن يسفر عن دوافع فردية .

محرم العذرية الغريب، هذه الريبة بين الشعوب البدائية هي التي تدفع الزوج لتجنب فض البكارة، وهي ريبة مبررة تماماً بهذا الطور العدائي للشعور[1].

وفي ممارسة التحليل، نصادف أحياناً، أزواجاً يشعرون بريبة مماثلة لموضوع فض البكارة، ويخشون من إظهار عدوانيتهم الخاصة أو كره المرأة المتوقع تجاه أول رجل قهر كبتها، ويسمح هؤلاء الأزواج لطبيب بأن يفض أبكار زوجاتهم بطرق جراحية. ويبررون موقفهم منطقياً بإعلانهم على سبيل المثال، أن غشاء البكارة للشريكة «صلب» و«لا يتمزق» لدرجة غير طبيعية. ويفسر هذا النفور عادة، كبتاً جنسياً عند الرجل، الذي لا يشعر نفسه جديراً، كما يوجب عليه ذلك، باجتياز وتخطي ممانعة المرأة. وكلما واتتني الفرصة في دراسة ردود الفعل، الشعورية واللاشعورية، للمرأة بعد الفض الاصطناعي لبكارتها، وجدت أنها تحس باحتقار يصعب تخطيه، تجاه الرجل الذي لم يمتلك القوة والشجاعة في انتهاك المحرم. وبدا لي هذا الاحتقار، بالنسبة للزواج وعلاقة الحب، أخطر من ردة الفعل المتوقعة الحاقدة والغاضبة إزاء الاغتصاب الزوجي. وفي دفاعه عن نفسه تجاه ردود الفعل العدائية لزوجته، لا يعلم الزوج بإرضاء حاجة عميقة تحس بها المرأة عندما ترى نفسها مسيطَر عليها.

علينا الآن أن ندرس الطور الفيزيولوجي، وردود الفعل العاطفية النمطية المرتبطة به ارتباطاً مباشراً. فذروة اللذة للمهبل هي وظيفة متعددة. وهي تتضمن عادة انقباضات وتقلصات موضعية من نوع الامتصاص والارتخاء. ولهذه التقلصات إيقاع متكيف تماماً مع إيقاع الرجل. والاستعداد الجسدي لهذا التكيف هو أحد العناصر الهامة لذروة اللذة الأنثوية .

(1) Freud S.: The taboo of virginity : Contribution to the psychology of love. Collected Papers, vol. 4 , p. 234.

لعل الطور الطبيعي بديناميكيته، يذكر بالمص بالفم، وبهذا يستعير الطابع الفموي لإدخال الطعام والمترافق بتناوبات الإخراج، وتذكر عناصر الإخراج بدورها، بديناميكية عضلة التبول.

وبموجب هذا التماثل الوظيفي، قد تظهر الأهمية الفموية للمهبل، في حالات مرضية، بطريقة ما. فقد أعطانا «زيلبورغ» عن ذلك مثالاً رائعاً. فإحدى مريضاته روت له أنها في تخيلات الاستمناء، «تحصل ذروة اللذة في اللحظة التي يتراءى لها فيها قذف المني. وقد ألحت هي نفسها على أهمية هذه اللحظة، إذ أن انبثاق السائل المنوي كان بالنسبة لها الشرط الضروري لذروة اللذة الإرضائية». وقد توصل «زيلبورغ» لتفهم تحليلي نفسي للأطوار اللاشعورية لمريضته. فالتخيلات الاستمنائية لهذه المرأة «مثلت لها عموماً أنها تمص الثدي، وذروة اللذة التي حصلت معها آنئذ، لم تكن تختلف بتاتاً عما يحصل لها عند تخيل وضع شيء ما، القضيب مثلاً، في مهبل المرأة». وبفضل هذه الأقوال وذكريات أخرى للمريضة، كان من الواضح أن «مريضتنا ركزت أحاسيسها الجنسية على ثدي الأم». والعمل المتلازم للفم والمهبل كان يأتي ظاهرياً من التماثل الوظيفي.

ويعمل المهبل أحياناً بصورة غير طبيعية وبأسلوب العضلية البولية، فيتلقى القضيب الذي يخترقه بتقلصات مفاجئة طاردة. وفي حالات أخرى، تأخذ التقلصات طابعاً انقباضياً قوياً مرافقاً لأذية مهبلية مؤلمة. وهناك أمثلة نادرة عن انقباضات شديدة لدرجة أنها تتوصل للقضيب المحتجز. هذا العمل العضلي البولي يثير بشدة عمل الإمعاء (الامتصاص، والطرح، والاحتباس) ونعثر في هذه المماثلات على الآليات الفيزيولوجية الأولية. إنما في هذه الأمور العادية، لا تكون دوماً هذه الآليات تراجعية. وعلى العكس، لدينا هنا وظيفة فيزيولوجية مستقلة وذاتية تبلغ غاياتها بوسائل فيزيولوجية مشابهة للوسائل التي تكون بتصرف الوظائف الأخرى.

ومن الواضح، في نظام الترافقات الداخلية والنفسية، أن العناصر

النفسية القديمة قد تستغل هذه المماثلات لغاياتها الخاصة وبعد ذلك بإمداد المادة القديمة للطور الجديد. وعندما تكون، على سبيل المثال، امرأة طفولية متعلقة بأمها بطريقة عدائية، يدفعها هذا التماثل بين المهبل والفم، للتعايش بجماع في الخيال وكأن القضيب هو ثدي الأم والمهبل الفم (الحالة التي ذكرها زيلبورغ)، وليس من الضروري أن نستنتج أن الطور الفيزيولوجي الملائم لهذا التخيل، وبسبب آليته، يستخدم دوماً في تكرار هذا الموقف بين الأم والطفلة.

إن ذروة اللذة مشترطة بشدة بالنفسية، وانحرافاتها تبلغ دوماً تقريباً إلى نفسانية واحدة. فكثير من الظواهر التي يعجز علم النفس عن تفسيرها حالياً، سيكشف عنها ذات يوم علم البيولوجيا، وبشكل خاص العلم الذي يدرس المظاهر الفيزيائية الكيميائية لمشاكلنا.

لقد تحدثنا عن صعوبتين يجب التغلب عليهما، لتصبح ذروة اللذة الأنثوية ممكنة. فهناك أولاً الكبت البنيوي، حيث لا يستجيب المهبل بصورة فاعلة إلا بالوظيفة التناسلية الإيجابية ويكون مرتبطاً بها ارتباطاً وثيقاً (إنما ليس بنفس بساطة القضيب). وتكمن الصعوبة الثانية في التصرف الصحيح مع الماسوشية الأنثوية. هاتان الصعوبتان هما مركبان طبيعيان للتناسق الجنسي للمرأة. وتعزى جميع الصعوبات الأخرى إلى الميدان المرضي، الأمر الذي لن نشغل أنفسنا به إلا في الحالات التي تستدعي تفسير الأطوار العادية.

ومن الأهمية بمكان، إذا أردنا تفهم هذه المسائل، أن نتخلى عن وهم أن الفعل الجنسي متكافئ بين الجنسين. فلا يمكننا تصحيح الخطأ الذي يسببه هذا الوهم، إلا بدراسة موضوعية للتطورات وبإلغاء أي ميل لتقليصها إلى قاسم مشترك.

فمنذ الأصل، تختلف الدوافع التي تحث الرجل والمرأة على الفعل الجنسي اختلافاً كلياً. فبالنسبة للرجل، يمثل قذف المني التهدئة مما يعرقل

رفض الإفراز، في ما الأطوار الفيزيولوجية التي تسبق الإرسال سهلة الفهم، وعدم الراحة المتنامية التي تنتقل من العضو الجنسي إلى باقي الجسم تخلق حاجة شديدة لإفراغ الشحنة. ويترافق هذا الإفراغ، بحالة قصوى من الإرضاء أثناء فعل الجماع.

وتكاد الحاجة العضوية للمرأة لا تقارن بحاجة الرجل. فهي لا تصدر إفرازاً يجب طرحه. ونقارن أحياناً القذف الذكري بإفراغ إفرازات الغدد الجنسية الخاصة بالمرأة. لكن قيمة إفراغ هذه الإفرازات صغيرة جداً، والطرح لا يخص هنا خلايا أصبحت عبئاً على العضوية. أما بالنسبة للرجل، فالقذف هو الغاية الواقعية، في ما المرأة لا تعرف غاية مشابهة. وتلعب إفرازاتها في الوظيفة الجنسية دوراً ملحقاً ومتواضعاً، إنها ترطِّب المهبل لتسهل بذلك اختراق العضو الذكري.

وعند المرأة، يُستبدل الميل العضوي للإفراغ برغبة الاحساس بمتعة عشقية، تلك الرغبة التي تنتقل للأعضاء التناسلية. في ما يمتلك الرجل «أولاً» حاجة فيزيولوجية مسيطرة تترافق بعناصر نفسية، وعند المرأة نجد طوراً نفسياً مدعوماً بعوامل بيولوجية. والنساء اللواتي يعشن في تعفف جنسي، للحالات الاكتئابية شأن قليل لديهن نسبة للتوتر الجنسي العضوي. إنها ليست حاجة جسدية تلك التي تظهر، إنما رغبة عشقية، وحاجة نرجسية لأن تُحب، وميلاً ماسوشياً للعطاء. وتظهر عند النساء اللواتي يعاني أزواجهن من العجز، سرعة الغضب والعدوانية المعتادة، وهي تعبر عن الخيبة، والتهجم، والغيظ، والاحتقار أكثر مما هي حالة تهيجية جسدية. وكلما يتم تذوق اللذة، يستتبعها رغبة في المعاودة (وهكذا تصبح جميع التجارب مستحبة)، حتى ولو لم تتواجد أي ضرورة بيولوجية ملحة.

ونجد في الأساطير أحياناً تعبيراً عن الفارق العميق للحاجات الملحة والأساسية بين الرجل والمرأة. وفي التوراة على سبيل المثال، افتُرض أن آدم ضحى بجزء من جسده، لكي يرضي الحاجة الطارئة التي يحس بها

لموضوع الجنس. وفي كثير من الأساطير، تزوّد جسد المرأة بالقدرة على ولادة ابن لها وحدها، وهذا دون شك بضغط لحاجة نفسية عميقة[1].

فحتى حين تتواجد قابلية نفسية تامة، وعندما يحتم غزل الرجل عند المرأة التهيج الضروري، تتخذ الممانعة الجسدية للمرأة في بداية نشاطها الجنسي شكل توتر يؤدي إلى انقباض في المهبل ويدفع الرجل إلى وثبة عدائية. هذا الانقباض، يجعل الأشخاص عديمي التجربة، يعتقذون أن المهبل صغير وأن التدخل الجراحي ضروري. وليس إلا شيئاً فشيئاً، وباستجابة إيجابية للاعتداء، يُمنح الرضى الماسوشي والألم المقبول، ويتوسع المهبل ويتلقى القضيب، ويصور عندئذ التكيف الدقيق الذي تحدثنا عنه والذي يُترجم بديناميكية كامنة.

ولتجنب أي التباس، نكرر أن ذروة اللذة عند المرأة هي أيضاً وظيفة موروثة ومحددة تحديداً بيولوجياً. إنما غايتها التامة وأهميتها لا تصبح واضحة، إلا إذا تناولنا آليتها النفسية. والملاحظة التالية، والتي هي بعيدة كل البعد عن البيولوجيا، سنستخدمها كمثال.

إحدى الراقصات الأكثرهن إبداعاً في العقود الأخيرة، والتي أعلن عن نبوغها وموهبتها كل أولئك الذين اهتموا بفنها، طلبت مساعدة التحليل

(1) الترجمة التي نشرت حديثاً لرواية قديمة سومرية (Kramer S.N.:Bull.Am Schools oriental Research) تلقي ضوءاً جديداً عما قالته التوراة عن المرأة وعلاقتها بضلع آدم. وكلمة «تي» بالسومرية، لها معنيان : «ضلع» و«جعله يعيش». وهناك مقطع مؤثر للرواية السومرية كما يلي:
- ما الذي يؤلمك يا أخي؟
- ضلعي يؤلمني
- لقد أنجبت لك الآلهة نينتي
بالتأكيد لقد تأثر كتّاب الترجمة العبرية للاسطورة، بدافع لا شعوري، حين ترجموا كلمة «نينتي» بعبارة «امرأة من الضلع» بدلاً من «المرأة التي تمنح الحياة»، وهكذا لا تقتصر على منح الرجل رفيقة جنسية، إنما أيضاً تجعل منه الخالق الأول للمرأة بصورة مستقلة.

النفسي، لأنها كانت تعاني من صعوبات عديدة. وتشتكي من اضطرابات مرضية مختلفة، كالحاجة لتغيير أدواتها في الحب بعكس إرادتها الخاصة، وكالبرودة الجنسية، وكالمثلية، وكالميل للانحرافات الجنسية المختلفة، وكالإكتئابات المتكررة مع أفكار الانتحار. وكانت تُعتبر مبدعة جداً، ومع أنها في منأى عن الذهان، فبعض علامات الطباع كانت فيها من نمط فصامي. ولم تكن طبيعية بالكامل إلا في ميادين الموسيقا والرقص. وهنا كانت عظيمة، وغير مكبوتة، ومبدعة، وموحية، ومصدر إلهام للآخرين.

ولشدة ما أعجبت بفنها، استحوذتني فكرة اختراق طبيعة مواهبها الفنية. فبالنسبة للموسيقا، ليست أي موسيقا، بل نمط متفرد كلاسيكي بارز، كان بالنسبة لها وثبة قوية أوجب عليها التواري إلى سلبية وخضوع تام. وكان إيقاع هذه الموسيقا يخترقها كقوة ترغمها على المتابعة بإيقاعها الخاص، وبكل جسدها. وكان رقصها تعبيراً ضرورياً إلى حد ما عن هذا التخلي الإيقاعي نحو إيقاع خارجي للموسيقا التي تحبها. وفي نهاية ما تسميه «نشوتها الإيقاعية»، تصبح منهكة بصورة كلية. وكانت تتهيأ للتجربة الانتشائية بدراسات متكيفة تماماً مع الواقع، ومع ذلك، تجابه مفاجأة كبيرة في محيطها، وكانت تتصرف بطريقة «مبتكرة» جداً. وتدع الموسيقا تسري فيها و «تدرسها «و«تحققها» بحركات رمزية إيقاعية، بأناملها ويديها وقدميها. والتجربة الدراماتيكية للرقص، والنشوة الفنية، لا تأتي إلا في النهاية، كخاتمة، ولا تعبأ بالمؤلف، ولا تهب نفسها إلا للموسيقا والإيقاع. وكانت تؤلف هي نفسها مقطوعات موسيقية قليلة الأهمية إلى حد ما، وتبدو مساعيها الخلاقة ذات طابع فصامي، حيث تصبح خاضعة لانشطار في ذاتها، نصف يخلق إيقاعاً موسيقياً، والنصف الآخر يتبع هذا الإيقاع بصورة أوتوماتيكية.

ولم آخذ انطباعاً على أن هذه الانجازات الفنية لهذه الراقصة الكبيرة كانت بديلاً مبسطاً عن الجماع، ولا حتى تمثيل تساميات لأحاسيسها الجنسية، ولم أتعلم شيئاً ذا قيمة عن طبيعة عبقريتها. ومع ذلك، توصلت

بفضلها للمرة الأولى، على تفهم عميق وموضوعي لذروة اللذة الأنثوية.

ملاحظة أخرى كانت مرتبطة بالملاحظة السابقة ارتباطاً وثيقاً وأريد أن أدونها هنا، مع أنها تبدو للوهلة الأولى غير متعلقة بموضوعنا كثيراً. فمنذ عدد قليل من السنوات، كان يُعتقد أن فتاة شابة أصابها الجنون، فأُرسلت في البداية إلى مشفى لتوضع تحت مراقبة الخدمة النفسية. وكانت تتصرف بصورة طبيعية وأعطتني (عندما كنت طبيبتها) معلومات متماسكة تماماً، إلى أن صرّحت لي، بعد تردد، بصورة غامضة وسريّة، أن كل اضطراباتها تصدر من موضوع أن «رقاص ساعتها» لا يتمكن من التكيف مع «رقاص ساعته» وأن «دقات الساعة مختلفة تماماً». وبعد اطلاعي على الرمزية التي كان فرويد قد أتى على اكتشافها، واءمتُ لغتها الرمزية مع حماسة شبابية، وأوحيت لها أن بإمكانها تكييف رقاصها مع نفسها. وخلال الليل الذي أعقب اقتراحي هذا، عانت المريضة من هلوسة، عالجتها بجهاز كهربائي لتحويلها إلى رجل. فأصبحت هذه الفكرة مركزاً لهذيانها الذهاني، وخلال عدة سنوات استخدمت إيحائي لتثبت أن المشفى (أو أنا نفسي) يرغب بتغييرها إلى رجل. والتفهم النفسي لمرضانا يمضي أحياناً بعيداً أكثر مما تستطيع فعله أذهاننا المنطقية. هذه الشابة المريضة، التي لم يكن لها بعد أي تجربة، أدركت أن تكيف الرقاص الرمزي الذي كان في مهمة المرأة، وأن التخلي عن هذه المهمة يتضمن خسارة أنوثتها، تلك الأنوثة التي كانت قد أحست بداخلها أنها مهددة بذهانها.

وبما أن كل أمر له صلة بالحياة الغريزية للمرأة، فهذا التكيف هو سلبي بشكل أساسي، حتى لو ترافق بإيجابية جنسية شديدة. علاوة على ذلك، لاينبغي علينا نسيان أن «امرأة فردية يمكن أن تكون، خارج إطار هذا، كائناً انسانياً «وأنها يمكن ألا تشعر بقابليتها في التخلي السلبي كعبودية. ولدى الكثير من النساء، الأخلاقية البرجوازية أو البرودة الجنسية المكروهة لأمهن، تبتدع فكرة أن الجماع هو تضحية تفرض عليهن قبول الحاجات الدنيئة للرجال، كما توجب عليهن تحمله بروح من الواجب.

وتأمل المرأة أن الرجل سيسمح لها بوداعة ولطف، وبجهوده نحو وفاق جسدي تام، أن يرضي حاجتها في أن تحس بتكيفها معه دون أن تهين كرامتها. فالتوصيات المتعددة و «الخبيرة» وأحياناً المضحكة، والتي تطلق في ما يخص موضوع تصرف الزوج أثناء الفعل التزاوجي، تتعلق بالمظهر الميكانيكي، بصورة عامة، أو التقني لهذا الطور. إنما في أغلب الحالات، تخضع ممانعة المرأة أمام التحقق البسيط من مساعي الرجل، إذ ترى فيها تعبيراً عن شدة رغبته، أو بالأحرى تهدىء هذه الجهود من احتجاجها الداخلي الذي تثيره إزاء وضعها.

لقد استخدمت عبارة البرودة الجنسية «البغيضة». فهناك أيضاً البرودة اللطيفة المتسامحة، تلك التي تجد المرأة نفسها فيها سعادة عميقة بمنح الرجل إشباعه بمعانقة سلبية، حنونة، أمومية، دون الشعور بالحاجة لتجربة جنسية أكثر شخصية. هذا النمط من «البرودة الجنسية» يظهر بصورة عضوية بتوسع المهبل في تلقيه للقضيب، دون أي طور ديناميكي آخر. وتتصرف بهذا الاسلوب المرأة الأنثوية التي تستثمر النزعة العشقية لديها في روح أمومية قوية بصورة مفرطة.

وهناك أيضاً ذروة للذة حاقدة، وذلك قد يظهر لسبب مناقض للعقل والمنطق. فالانقباضات الإيقاعية تأخذ حينئذ مجراها دون أن تعبأ نهائياً بإيقاع الرجل. إذ لها طابع في التلقي ودفع سريع، وهي تعطي انطباعاً يتعلق بنوع من المناظرة. وفي مثل هذه الحالات، يصبح الفعل الجنسي أحياناً منافسة، من الذي ينتهي منه أولاً (أو على العكس، من يبقى لمدة أطول) ومن يقوم به أكثر؟ وكيف يمكن توقع ذلك، ونشهد هذا النمط من ذروة اللذة عند النساء الذكوريات العدائيات، اللواتي يكافحن من أجل المساواة بين الجنسين حتى في الجزء الأكثر حميمية من حياتهن. وفي الزواج الحديث، يسعى الشريكان أحياناً في إيجاد مواءمة في اللحظة النهائية. ويبدو هذا انسجاماً كلياً في الموقف الجنسي. إنما ظهرت لي ملاحظات عديدة أن الأمر ليس هكذا بالضرورة. حيث تصدر ذروة اللذة للمرأة أحياناً

كثيرة بعد حصولها عند الرجل وتنتهي ببطء وتدرج أكثر. وتتوافق هاتان الخصوصيتان مع الدور غير المباشر الذي يلعبه المهبل في عملية التناسل. الفعل الأول هو في أن يتلقى المهبل بلطف، في ما الثاني يحنيه للاحتجاز، ويؤسس للبداية النفسية للأمومة، سواء كان هناك اخصاب أم لا. وتعتبر الكثير من النساء هذه المرحلة الأخيرة بمثابة الأكثر ارضاءً.

وقد أعطتنا امرأة، عولجت بمعالجة نفسية لأعراض عصابية، حول مصاعبها العشقية، المعلومات التالية. أن لها عدداً من التجارب الجنسية، ولم يكن عندها برود أبداً، وكانت ذروات اللذة عندها مشبعة تماماً، لكن ذروات اللذة هذه كان يعقبها بصورة عامة حالات اكتئاب. كما صدرت هذه الظاهرة أيضاً عندما تزوجت من رجل أحبته بحنان. وكانت تعيسة كذلك، لأنها سعت، منذ سنوات، عبثاً أن تصبح حاملاً.

وعندما صادفت ثانية هذه المريضة بعد عدة سنوات، كان عندها بنت صغيرة، وشفيت من اضطراباتها العصابية. كما خضعت حياتها الجنسية للتغيير. حيث أن انقباضات قوية كانت ترافق، في ما مضى، ذروة لذة شديدة لديها[1].

وغدت تتذوق الآن، خلال إثارة أكثر بطئاً ونعومة، استرخاءً مهدئاً. وبدلاً من أن تشعر بالكره تجاه زوجها في أعقاب الفعل الجنسي، راحت تظهر الحب والامتنان. كما أدى هذا التغيير إلى أن تحمل. وأعتقد أن لها الحق في ذلك. ففي بعض الحالات، تحقق ذروة اللذة العنيفة، «المضادة للأمومة» (يمكن أن نسميها هكذا) النية اللاشعورية للمرأة في طرد السائل المنوي، وبهذا ترفض في آن واحد الرجل والطفل الذي لا ترغبه. ومن

(1) Lorand S.: Contribution to the problem of vaginal orgasm. Internat. J. Psychoanalysis 20: 432, 1929.

الحالة التي سجلت في هذا العمل تشير إلى تصرف مشابه : «فحين كانت جديرة في المرحلة التالية من الاحساس بذروة اللذة، كان يترافق ذلك بصيحات غضب ومن احساس الانقباض، كما لو أن مهبلها كان اخطبوطاً»

الممكن أن العقم النفسي التناسلي لكثير من النساء سببه السير المشوش عاطفياً للفعل الجنسي. ومع ذلك، يبدو لي من المستحيل أن أقيّم أي صلة سلبية فاعلة بين البرودة الجنسية والعقم. ولدى الرجل، توجُّه الديناميكية المضاعف يعبر عن نفسه في الإيلاج النشيط والسحب، في ما الديناميكية أو الزخم يتبع لميل لحظي في الاحتجاز، والذي يتم تجاوزه في النهاية بميل للإفراغ. أما لدى المرأة، فالميل للإفراغ، في الفعل الجنسي، ليست مسألة ذات شأن. فالاحتجاز هو المسيطر، بينما تتولى الولادة المستقبلية أمر الإفراغ. وهكذا فالجماع بالنسبة للمرأة هو قبل كل شيء فعل للإخصاب، وبداية للوظيفة التناسلية التي ستنتهي بولادة الطفل. وقد لانعلم، في هذه الوظيفة المزدوجة، أن أحد العوامل وهو العامل الجنسي يخضع بالكامل قبل الآخر. وكذلك أيضاً، إذا ما علينا أن نعثر على المركب الجنسي في الأنشطة التناسلية اللاحقة. هذا التقسيم متوافق، على نحو أفضل، مع مصالح حفظ النوع، مع أنه يفرض على المرأة مهمة صعبة ومعقدة وشاقة.

كما تصادف مصاعب أحياناً على الدرب الذي يقود إلى الغاية النهائية. يأتي في مقدمتها ربما، الرفض الواعي لإنجاب طفل نتيجة مؤثرات المحيط أو لدوافع عاطفية. وتكمن المظاهر الأكثر تكراراً لهذا الرفض، في الصعوبات النفسية التناسلية للحمل، وفي الميل للإفراغ قبل الأوان، بما يبدأ بالرفض التشنجي للسائل المنوي ثم بحصول الإجهاض (والمتكرر أحياناً)، وبالولادة المبكرة، أو بفعل سريع جداً. إن التحريضات النفسية تهيئ لأطوار نفسية متعددة ومعقدة، وتتفعل هذه الأطوار لتسمح للميول النفسية بالتحقق.

نحن نعرف تماماً التحديد الأعلى لكل طور بآخر، من خلال العلاقة الكائنة بين الجماع والولادة، ولا تكمن المسألة فقط في التقابل بين الاثنين، ولا في الإلغاء المؤقت لمركب في صالح الآخر، إنما في التحقق المتواقت لكلا العنصرين بوسائل ملائمة. وفي الجماع، يستثمر المركب

الأمومي في العلاقة العطوفة المعاشة مع الشريك الحبيب. ويتخذ العضو الذكري داخل الجسد مقام طفل بسبب وضعيته وبسبب ألعوبة العواطف المتوافقة. ونجد تصويراً جميلاً لذلك في الاسطورة الدينية الهندوسية، والتي يبرز فيها الرجل في جسد المرأة بواسطة الجماع، بطريقة يولد فيها من جديد، من خلال الطفل، وبذلك ينال الخلود. ويعبَّر عن هذه الفكرة بوضوح في أحلام الأشخاص العاديين وفي الهذيانات الفصامية. ولنتذكر أن النموذج الأولي لهذه الفكرة يوجد في مرحلة الطفولة، إنه في الدمج بين الطفل والعضو الذكري.

وفي نشوة ذروة اللذة، تشعر المرأة نفسها كطفلة ضعيفة تخلى عنها شريكها في الغرام، إنها تجربة عميقة يصبح أناها فيها طفلاً تتصوره في خيالها، وتستمر في الاندماج به إذا أصبح هذا الخيال واقعاً. وقد عبّرت «كوليت»[1]، الكاتبة الفرنسية الكبيرة، عن هذه الفكرة بصورة جميلة: «أنت ستمنحني الحب، والعيون الملأى بالتعب الأمومي، آه، أنت الذي تبحث، من خلال المرأة التي بين ذراعيك، عن طفل متشوقة له أنا أيضاً».

تعبر كوليت عن هذه الأفكار مباشرة. فهي الشاعرة، تدرك بصور حدسية، أموراً نتعلمها بالتجربة العلمية، والتي يمكن أن تبدو لعين القارئ المتشكك مصطنعة إلى حد ما.

وقد يدخل المركبان أيضاً في صراع أحدهما مع الآخر. وبدراسة عملية الجماع، نواجه أولاً الصراعات الناجمة عن وجودٍ مفرط وسابق لأوانه في الطور الجنسي، لعناصر متوافقة مع الولادة. وأثناء عملنا التحليلي، نرى أحياناً قوى تراجعية تلعب دورها في الوظائف المشوشة، وهنا، تحدث الاضطرابات نتيجة الاجتياح السابق لأوانه لقوىً تصاعدية. وهناك نوع من الفصل للمركبات التي من الممكن أن تتوحد في توليف ما.

---

(1) الليل الأبيض Colette: Nuit blanche

ومع ذلك، نشهد دوماً، في هذه القوى التصاعدية، عودة لظهور قوى تراجعية قديمة والتي بنوع ما من الجذب، تستدعي، قبل الأوان، قوى تصاعدية إلى موقف حالي.

ويأتي خوف المرأة من عملية الجماع أحياناً، لما يتضمن أذية في كمالها الجسدي، ويمكن لهذا الخوف أن يُقارن بخوف الرجل من الإخصاء. وفي ظروف خاصة، يطلق التألم والطابع الماسوشي لهذه التجربة، ميولاً مدمرة تعطي هذا الخوف السمة الخوف من الموت. والملاحظة التالية لعصاب هاجسي ستوضح لنا هذه النقطة. فتاة شابة كانت تتعذب باستمرار من مشاعر الذنب، وتتهم نفسها أنها تسببت، بإهمالها، بموت أفراد من أهلها. وبعد أن تزوجت وتخطت المصاعب الأولى للجماع، توصلت لذروة اللذة الكاملة. إنما بإحساسها لفقدان الوعي المؤقت لذروة اللذة، يستحوذها الخوف من عدم استطاعتها الخروج من هذه الحالة. وفي كل مرة من عمليات الجماع التالية، تراقب نفسها بقلق نفسي لكي «لا تمضي بعيداً»، وبهذا أصبحت باردة جنسياً. وتتزيد العناصر المدمرة حدة امكانيتها الماسوشية وتحول متعتها إلى خشية من الموت. ومثل هذا الخوف من الموت، لا يظهر عموماً إلا خلال الولادة أو في الفترة التي تسبقها. ومع ذلك، هناك كثير من النساء لا يستطعن تحسس وتذوق الفعل الجنس دون التفكير بالولادة، سواء شعورياً أو لا شعورياً، ولهذه الصلة المشتركة لكلا الفعلين تأثير مشوش.

وبالطبع فإن الخوف المبرر من حمل غير مرغوب به لا يمكن وصفه بالمرضي، إنما يمكن أن يؤدي إلى كبت مباشر، وخاصة إذا أصبح استحواذياً، كما هي الحال أحياناً. إن الصيغة المتقابلة للاشتراك الشعوري للوظيفة التناسلية والرغبة بالطفل، وخاصة إذا كان تحقيقها محفوظاً بالصعوبات، قد تمارس تأثيراً كابتاً على ذروة اللذة، كما ويمكن حتى أن تجعل الحمل عسيراً.

إن التشويهات المرضية للتشارك اللاشعوري، في الحالة الطبيعية، بين

الجماع والإنجاب يفلت عادة من الملاحظة المباشرة، لكن التحليل النفسي يعرفها تماماً. وسوف ندرس حالة يكون فيها تأثير الوظيفتين الواحدة على الأخرى واضحاً، لدرجة أننا كنا نلاحظ ذلك سريرياً. والقصة التالية مأخوذة عن الوثائق المحتفظ بها في المشفى.

كانت السيدة أندروز، عندما دخلت إلى المشفى، امرأة متزوجة في التاسعة والعشرين من عمرها، وأم لستة أطفال. وكانت تشتكي خاصة من أزمات تسرع في خفقان القلب، واختلاجات وتعرّق. كما تعاني من كثير من الأعراض الأخرى ذات طابع عصابي لا يدعو للشك. وتتعرض لأزمات غضب تجاه زوجها وأولادها.

كانت تحس بقلق نفسي مستمر من الحمل الذي حجب عنها جميع الاهتمامات الأخرى، وعذّبها ليل نهار. وحتى أثناء الجماع، كانت تستحوذ عليها هذه الفكرة، وتجبر زوجها على استخدام عدة طرق لمنع الحمل في آن واحد، في الوقت الذي ترفض من جانبها اتخاذ أي احتياط. وعند محاورتنا الأولى، صرّحت أنها تعذبت، منذ مرحلة بلوغها، من خشية الحمل، إلا أنها سرعان ما أصبحت حاملاً بعد زواجها.

وقد جعلت مخاوفها، والحمولات المتعددة التي حصلت رغماً عنها، حياتها الزوجية عاصفة جداً وتعيسة. كما كان ذعرها الشديد من فترات حيضها، ومنذ أن أصبحت متزوجة راحت تتناول شيئاً ما، للإسراع في الطمث، وتُثار اضطراباً وهلعاً إن تأخر. وكان علينا علاجها مرتين بسبب التسمم أثناء صراعها اليائس مع الحمل.

ومما جعل مواقف هذه المرأة خاصة جداً ومرضية، أنها رغم خوفها من الحمل، كانت امنياتها الخيالية تتركز باستمرار على موضوع أن تكون قد أخصبت. وتريد من زوجها أن يكون متنبهاً لفترات طمثها ويأخذها جنون الغضب إذا فاته ذلك. وكانت مشاعرها تجاهه مختلطة بصورة واضحة. فمن ناحية تتمنى عودته بشوق إلى البيت، ومن ناحية أخرى، عندما تفكر

بالحمل تثور غضباً نحوه وتريد أن تضربه. وكان هذا الهاجس لا يمكّنها حتى من سماع نساء أخريات يتحدثن عن الحمل، إذ تدمج نفسها مباشرة بهن وتصبح فريسة القلق النفسي. كما تتخيل نفسها أحياناً في قاعة الولادة، مثبتة القدمين بحاملات الأرجل. وتعمل عادة بقسوة (خارج بيتها) لدرجة أنه حين يتقرب زوجها منها بغاية الجنس، تقول بعفة أنها مفرطة في التعب.

وقد حملت الحمل تلو الآخر حتى أنجبت للعالم ستة أطفال. وفي كل مرة، كافحت من أجل الإجهاض وكانت تحتد حيال الأطباء الذين يرفضون تقديم هذه الخدمة لها، وتصلح شأنها بعدد من المرات من أجل الإجهاض.

وفي كل حمل، كانت تمتلىء حقداً تجاه زوجها، وتعتبره المسؤول عن ذلك. وقد انعدت أكثر من مرة بإنتانات الجهاز التناسلي، وخضعت لعدة عمليات خطيرة، ومع ذلك تصبح حاملاً من جديد باستمرار. كما هجرت زوجها لبعض الوقت، إنما تصبح حاملاً ثانية ما أن تعود إليه.

ولم تُوْلِ السيدة اندروز أي اهتمام واقعي بأولادها، ولا بالرعاية التي يجب أن تقدمها لهم، ولا تغذيهم أبداً ولا ترغب بهم، كما لا تهتم بهم أثناء المرض ولا حتى خلال الليل. فكان الزوج دوماً هو الذي ينهض بذلك ويهتم بهم، ويوجهون النداء له دوماً. وفي الوقت الذي كانت تعمل به في الليل، كان الزوج يعدّ لهم العشاء ويهتم بنومهم. وخلال حياته الزوجية، كان يمنح قسطاً كبيراً للتدبير المنزلي والطهو. ولم تأخذها مشاعر القلق أبداً حيال أولادها، خلال فترة إقامتها بالمشفى. وكانت الابنة البكر تهتم بأعمال المنزل في ذلك الحين. لكن السيدة اندروز كانت تتكدر وتضطرب عندما يمرض أولادها، وتبالغ في وصف وعكتهم وتألمهم، على النحو الذي تتحدث عنه في آلامها خلال الحمل والوضع. وحين تحدثت عن العملية البطنية التي خضعت لها مؤخراً ابنتها الثانية، ضغطت يديها على بطنها، وتصرفت كما لو أنها هي التي أجريت لها العملية، وصرخت

وقالت للمساعدة الاجتماعية، أن جميع أعضائها اختلجت من مكانها. واضطربت كذلك عند الطمث الأول لابنتها البكر، وكانت ردة فعلها كما لو أنها هي نفسها التي تسببت بذلك.

ولفهم نفسيتها بشكل أفضل، ينبغي علينا مراجعة تاريخ حياتها باختصار. فهي تتحدر من أصل فرنسي. ولم يكن والداها متفاهمين أبداً. وقد تزوجت أمها والداها من أجل ثروته، وقد ملأت المشاجرات حياتهما الزوجية. وكانت السيدة اندروز البكر بين خمسة أولاد، ابنتان وثلاثة صبيان. أما والدها فكان رجلاً هادئاً لطيفاً ذا تربية عالية. ويعمل لصالح شركات مختلفة كمسافرو مشترٍ، وأثناء غيابه، كانت زوجته تخونه وفقاً لأقوال السيدة اندروز. وعندما بلغت هذه الأخيرة، ست سنوات، كانت تشك بأن أمها عشيقة لرجل أصغر منها. وبعد ولادة أحد أخوتها، راحت الأقاويل تدعي بأنه ليس ابن أبيه. وعندما بلغت السيدة اندروز السادسة عشرة، اضطربت لأن أمها لم تسمح إلا «لثمّة رجل شاب» في أن يحضر ولادتها، مما جعل الفتاة تشك بصورة طبيعية أن هذا الطفل لم يكن من أبيها.

وأثناء غياب الأب، كان هذا الرجل الشاب يتسلط في البيت ويأمر الأولاد. وفي عدة مناسبات، تعرضت مريضتنا لإساءة جسدية في المعاملة. وكانت أمها عصبية، سريعة الغضب، كما كانت تغضب أحياناً حيال أولادها، بحيث لا تعلم مطلقاً ما تفعل. في ما كان الرجل الشاب السند الرئيسي في المنزل. أما الأب فقد خنع واستكان لهذا الموقف على نحو أو آخر، إلى أن ارتبطت الأم بشاب آخر. حينئذ اندلعت مجابهة جدية بين العاشقين. في ما غاب الأب لفترة طويلة. وفي معرض حديثها عن النظام القاسي الذي خضعت له، قالت لنا مريضتنا أنها هي وأخوتها وأخواتها تحملوا الجروح والكدمات لأن أمهم وعشيقها اتخذا عادة ضربهم بحزام منقوع بالزيت. وإحدى المرات، ضربا أختها لدرجة أنها لم تعد تستطيع النهوض ثانية. وإذا هي نفسها عصت أوامرهما، يناديان أحد أصدقائهما،

الذي كان من رجال الشرطة، ويهددانها بإرسالها إلى بيت الإصلاحية. وحتى عمر الثالثة والرابعة عشرة، لم يكن لمريضتنا ولأختها الحق في الخروج، كما عليهما النوم في الساعة السادسة بعد الظهر. وقد علمنا من خلال محاوراتنا أن السيدة اندروز، تبدي حقداً شديداً حيال أمها، كما أضمرت حقداً عليها لعلاقاتها الزوجية الخيانية، كما تصرفت بصورة عاطفية جداً في ولادات أمها، وأنها تشعر بغيرة حاقدة إزاء العشاق وإزاء أخويها الصغيرين.

لقد كانت في نزاع مرير مع عاشق أمها الثاني، مما أدى بالتأكيد لاستفزازات لضربها. ويصعب القول ما إذا أسيئت معاملتها فعلياً، أم أن تجارب الطفولة كانت في جزء منها من محض خيالها. وفي جميع الأحوال، فقد أبدت دلالات لعصاب في عمر لازال غضاً، بصورة غضب شديد كانت تصرخ خلاله وترمي بالأغراض. كما كانت تعاني من حالات غيبوبة، وكوابيس، وهربت أكثر من مرة إلى بيت أهلها.

ولم تلعب أبداً بالدمية خلال مرحلة طفولتها، وكانت تفضل لعبة الهنود ورجال الكاوبوي. وفي المدرسة، كانت تحكم فرق الباسبول (كرة القاعدة)، وتتشاجر كثيراً، مما جعلها تُطرد من المدرسة في إحدى المرات. وتقول أنها لم ترغب الأطفال أبداً، بل كانت ترى نفسها دوماً كسيدة لها مهنة وعمل، أو كمعلمة في مدرسة على سبيل المثال. وكانت طموحة دوماً وتأسف لمغادرتها المدرسة في السنة السادسة عشرة من العمر، وعندما وجدت لها عائلتها عمل. وفي تلك الحقبة لم يكن لدى والدها عمل وكان على الفتاة الشابة أن تساهم في دخل العائلة والحفاظ عليها.

ومنذ ذلك الحين، عملت بطاقة عالية، حتى بعد زواجها، الذي تم وهي في السنة العشرين. وكانت تمثل حمولاتها، الانقطاعات الوحيدة عن العمل. وكانت في البداية خيّاطة، وفي فترة المساء تعمل في صيدلية. وبعد زواجها، اشتغلت في معمل، أحياناً نهاراً وأحياناً ليلاً. وقد اكتسبت درجة الشرف لإنتاجٍ تساوى مع إنتاج الرجل، وبأفضلية عن النساء الأخريات في

المعمل. كما كانت ترأس أيضاً نقابة محلية، وبذلت في ذلك قسطاً كبيراً من جهودها. وأحبت قيادة الصراع ضد أرباب العمل وإلقاء الخُطب فيه.

وفي الأيام الأولى لوجودها في المشفى، كانت قلقة مضطربة، وتمشي طولاً وعرضاً، وتمرر يدها في شعرها، وتلوي يديها خلال محاوراتنا. كما أصابتها أزمات حادة من الإعياء النفسي كلما طرحت مسألة الحمل على بساط البحث. وفي لحظات أخرى، كانت لطيفة، مبتسمة، ودودة، متعاطفة، صدوقة، وراغبة في مساعدتنا. وذكرت أنها فكرت بالموت عندما كانت حاملاً، وأنها احتاجت لعملية لتعود إلى حالتها، كما طلبت أيضاً أن نجعلها عاقراً. وحصل معها الحيض مرتين خلال إقامتها في الخدمة، وقبل كل مرة، تكون مضطربة ومتهيجة وخائرة القوى لدرجة كبيرة.

لماضي السيدة اندروز كله طابع هستيري، كما يبدو هذا واضحاً في إغماءاتها الدرامية، وحالات الخدر وفقدان الحس، والهروب التحريضي... إلخ. كما كانت، معظم أحاسيسها التي اشتكت منها خلال إقامتها في الاستشفاء هستيرية أيضاً، كتزحزح قلبها، والاختلاجات والاضطرابات المعدية والمعوية، وحالات الدوار والتعرق.

وقد أمكننا اختراق الأطوار النفسية التي سببت هذه المظاهر. وأصبح من الواضح، شيئاً فشيئاً، أن الخوف الذي أبدته هذه المرأة من الحمل يقوم بشكل خاص على اندماج هستيري. وكانت أداة الاندماج تارة جدتها (التي حلت محل أمها) والتي ماتت بمرض القلب، وتارة امرأة أخرى تخيلت مريضتنا أنها تجتاز معها مخاطر الولادة. كما خلق ميلها في دمج شخصها مع شخص امرأة أخرى حامل، انطباعاً بالخلط وتشوش الأفكار، إنما يتبدد هذا الانطباع حين ندرك أن جميع هؤلاء النساء كنّ البدائل لامرأة وحيدة هي الأم، والتي كانت على أساس كل اندماج. وقد ذكرت لنا السيدة اندروز، أنه خلال حملها الأول، تنبهت وأثيرت بالتعرق، وهي تفكر بأن «امرأة هندية» كانت في وضعية الولادة. (والمرأة الهندية هنا كانت

المرأة «الغريبة» التي نصادفها أحياناً كثيرة في أحلام وتخيلات مريضاتنا. إنها شخصية أمومية تمثل تبايناً تعبر عنه هذه الفكرة: «إنها ليست المرأة التي أعرفها على النحو الأفضل، أمي، إنها غريبة») وقالت لنا السيدة اندروز: «إنني جديرة في رؤية أي مرض كان، إنما في حالة امرأة تلد، لا أتمكن حتى من الاقتراب من المكان الذي يحصل ذلك فيه». إنها دوماً مضطربة ومتكدرة في ما لو تحدثت عن امرأة سوف يكون لها طفل: «لا أريد سماع حديث عن هذا، ولا أن أتكلم به أنا نفسي، ولا أن أراه».

هذا الاندماج مع الأم، ورفضه، كان أحياناً شعورياً تماماً عندها. وقالت لنا أنها تسعى لتكون مختلفة عن أمها، وأن تعمل العكس تماماً لما كانت تفعله، إنما تعترف في ذاتها، أنها لسبب ما، عليها التشبه بأمها. وبأزمات الغضب كانت تقول: «هكذا هي أمي» ومن ثم، «طغت أمي دوماً على والدي وما كنت أكرهه بها، فرضته أنا نفسي على زوجي. فأمي أيضاً لم تكن تريد أولاداً أبداً».

ومع ذلك، كان عند الأم عدة أولاد، وهذا الأمر كان بلا شك، السبب في هاجس وإزعاج السيدة اندروز.

وقد أظهر اختبار أكثر تعمقاً، أن عصاب السيدة اندروز لم يكن هستيرياً بصورة صافية. فهي نفسها كانت تصف أعراضها كهاجسية بصورة نمطية في قولها: «لدي جزء مني يمضي في اتجاه، وجزء يمضي في اتجاه آخر»

وكان عندها رأي، ومن ثم تشك به. وصراع داخلي لا ينقطع في موضوع الدين... إلخ وهي لا تعلم إن كانت تحب زوجها أم لا. وتتقرب أحياناً من أولادها، وأحياناً أخرى لا تهتم بشأنهم إطلاقاً. وهناك دليل هاجسي، كان في حاجتها لإعداد كل شيء، ولعمل «تصاميم ومخططات» وكانت تقول: «لقد أخفقت في حملي الأول لأنني لم أضع مخططاً».

فتوقع الأمور وتحضيرها، يعطيها شعوراً بالطمأنينة والأمان،

ويخلصها من شعور القلق النفسي. وإذا لم تضع مخططاً، تحس نفسها في حالة رهيبة هلعة، ولا تعلم ما الذي سوف يحصل. مثل هذا الموقف يعتبر نمطياً للحالات العصابية الهاجسية. فالصراعات الهاجسية لهذه المريضة كانت نشيطة، ومع ذلك بأفكار محملة بالعواطف التي تمس مسائل الحمل. صراع بين الحاجة التحريضية لتصبح حاملاً، في ما التمرد النفسي القلق حيال هذه الرغبة كان في مركز هواجسها. «النعم واللا» لموضوع الحمل كان يهيمن على حياتها الذهنية والعاطفية.

ومع ذلك، هذا الصراع بين قطبين متعارضين، لم يكن الطابع الاعتيادي للعصاب الهاجسي، إنه ينغمس عادة في الذهن، ويعذب المريضة بهذا السؤال: «هل سأكون حاملاً أم لن أكون؟» وكلما كان تفكيرها يُستشار، وكانت تجيب مريضتنا بـ «لا» حاسمة على هذا السؤال. في ما تختفي الـ «نعم» في فكرها، وتجعلها تحس بطريقة غير مباشرة وأكثر تعقيداً. وتختفي وتتوارى خلف الشروط التي فرضتها المريضة على الفعل الجنسي. إنها لم تتمكن من الاحساس بالمتعة وبذروة اللذة، إلا عندما تعلم أن السائل المنوي يدخل إليها بحرية. وكانت تشتهي الجماع بحيوية وتطلبه بإلحاح. وشعرنا تماماً أن ذلك لم يعبر عن حاجة عشقية واقعية، ولا رغبة جنسية من أجل الزوج، إنما رغبة شديدة في تلقي السائل المنوي .لتصبح مخصبة منه. في ما الصفة الملزمة لكل هذا الطور، يثبتها موضوع أن ارضاءها الجنسي كان مضطرباً بفكرة نفسية مقلقة «لا أريد أن أصبح حاملاً»

عند استخدامنا هنا السلوك الذي قامت به هذه المريضة، لتوضيح مسألة خاصة، لا ينبغي علينا أن ننسى أن لهذا السلوك أسباب متعددة كالمعتاد. وهكذا نعتقد أن أحد شروط إرضائها الجنسي، كان في التزامها لعب دور الرجل. وتصدر هذه النزعة الرجولية عن مجمل سلوكها، فنجدها في لعبها الطفولية، وفي الطريقة التي تكسب بها النقود، وهي مراهقة، من أجل عائلتها، وفي مزاجها في إيجابيتها ونشاطها المهني، وفي طموحاتها، وفي ميلها لتمثيل رفاقها في الصراع الطبقي بنشاط وعدوانية، وخاصة في

الطريقة التي تقلب بها الأدوار في البيت، حيث كان زوجها ممرضاً وقيّماً على البيت، بينما كانت هي سند العائلة. كما أرادت حتى من زوجها أن يسجل لها مواعيد طمثها، كما لو أن ذلك يحصل له وليس لها. علاوة على أنها استخدمت عملها كوسيلة للفرار من أنوثتها، تلك الأنوثة التي تدمجها بحالة الحمل. كما أشركت بين طور الولادة وفكرة الإذلال: «الوضعية الأكثر انحداراً للمرأة، تكمن في كونها على طاولة الولادة، وأرجلها مثبتة في الركاب، ومحاطة برجال يهتمون بشأنها»

الاحساس المكثف لقذف زوجها، لاحظنا ذلك أحياناً في حالات أخرى، أعطاها انطباعاً بأنها تملك العضو الرجولي، وأن ذروة لذتها تُنتج السائل المنوي.

أمور كثيرة باحت لنا بها المريضة حول مرحلة طفولتها، ساعدتنا على إدراك حالة عصابها. فأمها حملت مرتين من عشاقها. وفي المرة الأولى، عندما كان عمر المريضة ثماني سنوات، انتكست بالتأكيد بدلائل عضوية مماثلة لتلك التي وجب عليها التعرض لها لاحقاً. لقد قامت بثوران غاضب ضد أمها، مما أوجب على العشيق ضربها (أو تخيلت أنه فعل ذلك). ويحق لنا افتراض أنه منذ ذلك الحين، كانت لها خيالات عن الحمل، وأن غضبها وعدوانيتها ضد أمها، وضعت أسس خوفها اللاحق من الحمل ومن الموت. وقالت لي في ما يخص هذا الموضوع، عدة مرات، أن أمها كانت تتمنى أن تموت مريضتنا وهي تضع طفلها الأول. هذه اللعنة الخيالية للأم، جعلتنا ندرك تماماً القلق النفسي للمرأة الحامل للمرة الأولى. إنها انعكاس تمني الموت الذي أطلقته الطفلة حيال أمها الحامل.

وخلال مرحلة البلوغ لمريضتنا، حصل للأم حملاً جديداً لاشرعياً، وحاولت الفتاة هذه المرة، أن تحل صراعها العائلي الخطير بأنها أصبحت إيجابية لأقصى حد بالمحافظة على عائلتها، والمولود الجديد على الأخص، بعملها. إنه هنا فرار واضح نحو النشاط والإيجابية اللتين لم تسمحا لها، مع ذلك، من الهروب من المصير الذي حاولت الإفلات منه.

وبعد فترة وجيزة، أصبحت حاملاً من الزوج الذي لم تحبه. فحاولت لاحقاً، وبصورة واعية وشعورية تماماً، أن تتجنب القدر الأنثوي لحمولاتها المكرهة بنفس الإيجابية العالية المنعتقة، لكنها فشلت أيضاً لأن حاجاتها اللاشعورية تبين أنها هي الأقوى.

وبسبب هذه الدلائل، نعتبر أنفسنا أننا ارتكزنا على الاعتقاد، بأن رغبتها النشيطة واللاشعورية في الحمل عبرت عن نفسها في إشارات جسدية، وأن إحساساتها، كالغثيان، والضغط على الشرج، وانطباع التورّم... إلخ، كانت تظهر هذا الخيال اللاشعوري.

ويتكون نمط آخر في الإظهار لدى مريضتنا في تقلبات مزاجها. حيث كانت أحياناً متهيجة ومهووسة بصورة واضحة، ثم واهنة خائرة، وتعطي هذه التبدلات لسلوكها، مظهر مهووسة مكتئبة.

وقد بينت ملاحظتنا، أن مرحلة الهوس تمثل فرح رؤية الوصول للحيض. كما حاولنا أن نجد هذا الفرح عادياً، نظراً لأن مريضتنا بشكل خاص، تبدو قبل طمثها قلقة وعصبية. لكن شدة الفرح، وعدم الضبط، ومظهرها المبالغ فيه، يتجاوز حدود ردة فعل طبيعية.

وإن تذكرنا أن هذه المرأة تشعر بلعنة أمها التي تعدها بالموت أثناء الولادة، نستطيع القول أن فرحها المهووس مرده ليس تجنب الحمل إنما أيضاً الموت.

لعل المشكلة السريرية المطروحة بأعراض ودلائل عصابية ومتنوعة أيضاً، تتوقف عن كونها مشكلة عندما ندرك أن كل هذه الدلائل كانت المظاهر المختلفة لنفس الصراع. وكان هذا الصراع يرتبط دوماً بالحمل. فحتى حينما كان الحمل يُعاش ويُرغب ويُخشى بصورة فعلية لم يكن، على أقل تقدير، ذلك الحمل الخيالي في مرحلة الطفولة، باستحالة تحققه، وبنظرياته، وباندماجه الطفولي، وبميله العدائي ضد الأنا، وبتهديده بالموت... إلخ.

هذه الأماني، وهذه المضايقات النفسية الطفولية، كانت تُحارب بثلاثة أنواع من الأسلحة، العلائم الهاجسية العصابية، والهستيرية، والهوسية الاكتئابية والتي كانت موجهة كلها ضد عدو داخلي وتخدم الأرباب أنفسهم. ويمكننا مقارنة هذا الموقف بمعركة يكون الهدف فيها واحداً، إنما الأسلحة المستخدمة فيها هي البنادق والزوارق والطائرات.

أكثر ما يهمنا في حالة السيدة اندروز، هي الطريقة الخاصة التي ارتبط بها الجماع بالولادة. فتبدو جميع الدلائل متمسكة بأن توحد الجماع والإخصاب والولادة يكتسي عندها طابعاً مرضياً، لأنها تتصور هذا التوحد ضمن ظروف غير مناسبة على الإطلاق، عندما كانت طفلة ثم مراهقة، بالعلاقة مع ولادات أخوتها غير الشرعيين. فأمنيتها أن تصبح حاملاً كانت مكرهة وأي وسيلة احترازية باءت بالفشل. وكانت راغبة بذروة اللذة إنما لا تستطيع الإحساس بها إلا في لحظة قذف الرجل، أي إذا ترافقت بفكرة الإخصاب والولادة. وفي أعقاب ردود فعلها العدائية تجاه أمها، كانت هذه الفكرة أيضاً مشركة بفكرة الموت.

لقد كانت حالة السيدة اندروز برهاناً مرضياً لنظريتي التي، وفقاً لها، تحس المرأة إحساساً نفسياً بالجماع كبداية لطور ينتهي بالولادة. فمطابقة الفعل الجنسي بالإخصاب والولادة، يظهر في معظم الأحيان في الحياة التخيلية للمرأة بحيث ينبغي علينا تماماً رؤية أن الظواهر النفسية مرتبطة ارتباطاً عميقاً بالعوامل البيولوجية حيث تكون التجربة الجنسية متوحدة في خدمة النوع. كما تظهر هذه المطابقة في الوظيفة الثنائية للمهبل، وفي المماثلات الديناميكية للجماع والولادة. وتظهر أيضاً في الرمزية المماثلة للوظيفتين. إن النظرية الطفولية حول الأحاسيس الجنسية، تهيئ عموماً لهذا الإشراك بدمج الفعل الجنسي بالإخصاب. وتبدو مريضتنا متعلقة بهذه النظريات الطفولية لأنها سألت طبيبتها: «هل يحدث الحمل بقبلة؟» كما تقول: «كما لو أن الجراثيم المخصبة تحوم حولنا في الهواء»

لقد أطلقت هذه الملاحظات على سبيل المزاح، لكنها تأخذ أهمية قوية.

على المركبين، الجماع والولادة، أن يكونا، ديناميكياً وكمياً، في ارتباط منسجم أحدهما مع الآخر. ولدى مريضتنا، فكرة الولادة (والموت)، تنفصل بطريقة هاجسية عن الكل، وتهيمن على الموقف الجنسي. وسنرى لاحقاً أن فكرة الموت، التي تظهر هنا في غير أوانها، تتواجد دوماً في أعماق الذهن وخلال الولادة، وتصبح في بعض الأوقات استحواذية، كما حصل مع مريضتنا.

«ستموتين عند الولادة... ستموتين عند الولادة...». هكذا قال الشعور بالذنب لآنا كارنينا في أحلامها. في ما قالت للسيدة اندروز لعنة أمها، «ستموتين عند ولادة ابنك الأول» وهذا يعود إليها لأسباب مماثلة، ليس فقط في أحلامها، إنما أيضاً في لحظة اللذة الجنسية.

في كل نشوة، تُحل الصراعات بصورة لحظية، وتُنسى الإحباطات، كما تُفعم الآمال بالمستقبل، والرغبات الماضية غير المشبعة. في هذا الشكل من النشوة، البدائي جداً، يمكننا اكتشاف ذلك بالتحليل الدقيق، ويتم الاحساس بأن ذروة اللذة، والرغبات المرتبطة بالماضي والمستقبل، قد أُشبعت. وفي ضوء التحليل النفسي، يتخذ الفعل الجنسي بالنسبة للمرأة معنىً كبيراً، ودراماتيكياً، ومسهّلاً بصورة عميقة، إنما ذلك فقط حين يتم الشعور به بطريقة أنثوية، ديناميكية، وحين لا يتحول إلى فعل ذي لعبة غرامية عشقية أو لـ «مساواة» جنسية.

إن النمو الطفولي، محدد بطريقة بيولوجية لكل كائن بشري، رجل أو امرأة، وهو سلسلة من الصعوبات من الواجب تجاوزها، مما يؤدي إلى عدد كبير من الصدمات والتي يكون لها في ما بعد تأثيرات قوية على نحو أو آخر. وتترك وراءها، على أفضل ما يمكن، ميلاً صادماً، أي أن كل صعوبة جديدة في الحياة تطلق ما كان متبقياً من غير حلول وتضيفه إلى الصراع الجديد، أو تبعث إلى الوجود القوى الصادمة للصعوبات القديمة. فأول صدمة عامة لجميع الكائنات البشرية، هي صدمة الولادة، وهي أول ردة فعل، يستحيل تخطيها، ناتجة عن تحطيم الاتحاد الأصلي مع الأم .

ما يخترق أعماق النفس البشرية، يكتسب يقيناً اختبارياً، بحيث ليس فقط مضايقاتنا النفسية تعبر عن فكرة الاتحاد الأصلي مع الأم والصراع من أجل استعادته، إنما أيضاً كل حالات الحنين والتطلعات نحو الكمال والخلود، والخوف والرغبة من الموت، وعذابات الحب والحاجة للوحدة ورموز الأحلام والخيالات الجامحة.

في ما يأتي الموقف الثاني الصادم جراء الاختفاء الضروري للإشباع والذي يتذوقه الطفل في المراحل الأولى من حياته، إنه الإشباع الفموي، الذي يشار إليه هكذا، لأن الاهتمام الجوهري لهذه المرحلة، هو في التغذية ولأن الفم هو العضو الذي يتلقى به الطفل الرعاية والاهتمام والحب، كما يدخل بواسطته باحتكاك مع الحياة. وترتكز صدمة هذه المرحلة، بالنسبة لنا، في فصل الطفل عن ثدي أمه. ومع ذلك تبدو المشكلة هنا ليست فقط في ثدي الأم، إنما في العلاقة الحميمة معها، في ما الإرضاع يصون ويطيل هذا الاتحاد.

إن التخلي الضروري عن هذا الإشباع اللذيذ والسهل لغريزة البقاء، يطلق عليه اسم صدمة الفصام. ويتصف الموقفان الصادمان اللذان تحدثنا عنهما الآن، بالانفصال المحدد بيولوجياً مع الأم، وبالتحطيم الشرس للوحدة بين الفرد والعالم المحيط به، وللاتحاد الكلي بين الأنا واللاأنا.

أما الصدمة الكبيرة الثالثة فلا تمس إلا المرأة، ولقد أسميتها الصدمة التناسلية .(vol .I) إنها تصدر عن كبت بيولوجي يظهر بصورة نفسية كرغبة بالعضو الذكري.

وتتضمن الحاجات الأكثر بدائية للإنسان وأعلى تطلعاته، طاقات تصارع من أجل ترميم الوحدة الأصلية مع الأم. وفي نشوة الفعل الجنسي، تختفي الحدود العاطفية بين الأنا واللاأنا. وبالفعل الفيزيولوجي للاختراق، تكتمل فعلياً الوحدة الجسدية، وتُشفى صدمة الولادة بصورة رمزية. وبالتحريض النشيط للقضيب، يتولى المهبل الآن، في عمق اللاشعور،

الوظيفة السلبية للإرضاع، بتماثل ديناميكي تام مع الفم الذي يرضع، معطياً هكذا للقضيب، معنىً رمزياً للثدي الأموي. وتعوّض بصورة رمزية صدمة الفصام بفضل هذا التماثل الفيزيولوجي.

في حين يمكن للصدمة التناسلية أن تشفى بدرجة كبيرة، لأنه في الموقف الجسدي للفعل الجنسي تحل مشكلة تلك المرحلة لنمو المرأة حين كانت تشعر بدونية أنها لا تملك مهبلاً أو قضيباً. أما الآن فهي تملك الاثنين، فهي تتلقى القضيب كما تكتشف المهبل كعضو ذي وظيفة.

وخلال الوظائف التناسلية اللاحقة، سنرى بطريقة أكثر وضوحاً وأكثر ديناميكية، كيف أن الماضي يتكرر وأيضاً كيف يُعوّض .

وتجد المرأة الأنثوية، التي تتصف بصراعها في سبيل الانسجام بين القوى النرجسية لحب الذات، والقوى الماسوشية للمنح الخطر والمؤلم للذات، أعلى درجات الانتصار في وظيفتها الجنسية. وفي الفعل الجنسي، ترضي رغبة شريكها حبها لذاتها وتساعدها على تقبل المتعة الماسوشية دون التسبب في أذية لأناها، في حين أن الوعد النفسي بطفل ينبىء المَيْلان بمستقبل ملائم.

الفصل الخامس

مشاكل الحمل والشروط النفسية الضرورية له

مشاكل الوظيفة التناسلية للمرأة معقدة، وربما لوضوح أكثر، ستتم دراستها ضمن السياق الزمني. وقبل دراسة نفسية الحمل بالتفصيل، سنربط ذلك بشرطه الضروري، ألا وهو الإخصاب.

فالإخصاب يفترض سلفاً الخصوبة، وهي غير متوفرة إلا في فترة محددة من حياة المرأة. وفي مدنيتنا، تتراوح هذه الفترة ما بين عمر السادسة عشرة والخمسين. كما ترتبط بأطوار جسدية معينة، ومحددة تحديداً فيزيولوجياً وتشريحياً. ومجموعة التطورات الفيزيولوجية الغددية التي تهيئ للإخصاب هي بلا شك، في جميع المراحل، وحدة جسدية وروحية، إذ تتأثر باستمرار، وفي آن واحد، بالحياة النفسية والعضوية. كما أن وظيفة الهرمونات، التي تتفعل كـ «رسائل كيميائية» (نستخدم هذا التعبير أحياناً)، وهي وفقاً لأي احتمال، تتأثر باستمرار بعوامل نفسية. هذه الخدمة الرسائلية المعقدة، منظمة تنظيماً عالياً، مع جهاز مركزي، بتشعباتها وتفاعلاتها ووظائفها المستقلة. وهي تمتد إلى الأعضاء الواقعة بعيداً عن منشأ الرسالة، كما تمتد للأعضاء المجاورة بصورة مباشرة. في ما يشكل تحديد نقطة المدار الذي يتواجد فيه الاضطراب النفسي المنشأ، بصورة عامة، مسألة فيزيولوجية.

وعندما نتحدث عن صعوبات نفسية للحمل، نريد القول بأن العجز

الذي تجد امرأة ما نفسها فيه في أن تصبح أماً، يعود لأسباب نفسية تشوش جزءاً ما من التطور الفيزيولوجي.

كما يعترف الطب الحديث أن الاضطرابات المختلفة للوظائف الجسدية، وخاصة هنا حيث لا يمكن اكتشاف أي سبب عضوي لها، تتعلق، من حيث الأسباب المرضية، باضطرابات نفسية. كما يُفترض، بصورة عامة، أن ثمة عوامل نفسية قد تكون مشمولة في نمو اختلالات وظيفية لأمراض النساء. والتأثير النفسي أيضاً يفعل فعله بشكل خاص في العوامل الهرمونية.

وفي مواجهته كاختلال وظيفي، يعتبر العقم عند المرأة نفسي المنشأ، ظاهرة معقدة جداً ومعاندة، وسببه الأول هو بصورة عامة صعب الاكتشاف، حتى عندما تلقي الطرائق الحديثة في التقصي الضوء على الاختلالات الهرمونية. ومع ذلك، يستمر عرض (العقم) أحياناً رغم العلاج المناسب ضد الآفة الهرمونية، لأن هذه الآفة، برأينا، تستمر بالتواجد بطاقات نفسية. وعلى العكس، يتبيّن أن المعالجة النفسية عديمة المفعول إذا تعثرت بعوامل عضوية يستحيل تصحيحها (حتى ولو كانت ذات منشأ محدد تحديداً نفسياً).

ومع أن الميول النفسية المختلفة، والتي، في بعض الظروف، قد تؤدي إلى العقم، تظهر بوضوح كبير أثناء أطوار الحمل، والولادة، والأمومة، يبدو لنا صحيحاً، اختبار العوامل النفسية التي قد تحول دون الحمل، قبل أن تنجم عنها الأطوار اللاحقة.

لقد رأينا أن الجماع بالنسبة للمرأة السلبية العادية يمثل بصورة نفسية أول فعل للأمومة. وهناك صعوبات في الحمل صادرة عن عوامل نفسية مشوشة، قد تكشف بشكل مباشر عن مظهر ديناميكي للجماع، دون الانصراف المعقد عن الاختلاجات الهرمونية. فالطور الديناميكي قد يتأثر تأثراً نفسياً لدرجة أن المرأة تبادر، بحركات عضلية معينة في منع السائل

المنوي بصورة ميكانيكية في الدخول إليها. وفي مثل هذه الحالات، تعزي المرأة إفرازها الشديد لرعونة شريكها الذكري، أو لخصوصية في غددها المهبلية. وهي تظل غير واعية بالكامل للتأثيرات النفسية التي لها دورها هنا. وعادة، مع ذلك، يشهد العقم أسباباً أكثر تعقيداً. فالمعرفة الدقيقة لأطوار الفعل الجنسي، تساعدنا على فهم جيد لحالات العقم الناجمة عن اضطرابات نفسية تناسلية للحمل. وذلك لا يعني القول أننا نعتبر الطريقة التي يسير بها الفعل هي المسؤولة عن فشل الحمل، إنما يكون الفعل، بالنسبة لنا، أحياناً، دليلاً عن كل تهيئة نفسية للمرأة ولبنية شخصيتها، وعلى نحو خاص، ذلك المركب النفسي ذو الصلة المباشرة بالتناسل.

لقد حللنا الفعل الجنسي للمرأة ودرسنا مركباته، الإرضاء الجنسي والفعل الأول للأمومة، وموضوع العطاء والأخذ، إنه قبول فعّال لتتابع وإخراج عذب، وإدارة في أن تكون المرأة طفلة، وحنان أمومي، تجاه الرجل الطفل، وقابلية أنثوية عشقية في التكيّف، واستقلالية عدائية وتنافسية. كما عرفنا أن هناك جسوراً تواصلية متوارية في أعماق اللاشعور، بين الجماع والولادة. ويشكل ذلك كله دائرة مغلقة بصورة نفسية، في جزء منها واقعي، وفي جزء آخر رمزي، وهي ألف ياء خدمة النوع. وكلّ من هذه المركبات يمكنه، حين يؤخذ خارج الوحدة التأليفية للدائرة، أن يصبح عامل اضطرابات في الفعل الجنسي، أو في وظيفة التكاثر، أو في كليهما معاً. فسيطرة العطاء، أي السلبية، قد يقلل المساهمة النشيطة للمرأة في الطور الجنسي، وإننا نجهل لأي درجة من الإيجابية، من جانب المرأة، يتطلب الحمل. والإفراط في الأنانية قد يترافق بإبعاد عدائي، أو أن المركب الأمومي قد يستثمر كله في الرجل، وهنا تختفي الرغبة بالطفل وبحمله. ومن ناحية أخرى، إن لم تجد المرأة في نفسها الاستعداد لموافقة شريكها الجنسي على الحنان الأمومي الذي يشكل بالنسبة لها إرضاءً كبيراً جداً، وربما حتى الأكبر، فإنها تبدأ حملها بأسلوب غير أمومي، مما يوجب عليها تعويض عدم الإرضاء هذا في علاقتها مع طفلها. ولقد ذكرنا

أن ثمة موقف أمومي، ضروري بلا شك، خلال الفعل الجنسي المنسجم، إنما لا يؤدي دوماً لإشباع ذروة اللذة بل وأحياناً يكبتها. فالصراع بين المتعة الفردية للمرأة وخدمة النوع قد يبدأ هكذا ضد الفعل الجنسي. وتفكيرها بالوظيفة التكاثرية قد تشعر بها شعوراً مفرطاً بالشدة (كما في حالة السيدة اندروز) وتؤثر على اللذة الجنسية، أو أن المخاوف اللاشعورية من التناسل قد يكون لها تأثير كابت غير مباشر.

وما قد يحصل أيضاً، مع أن الفعل الجنسي قد يكون مشبعاً تماماً، أن فكرة التناسل، التي قد تكون مستبعدة في صالح المتعة، تفعل فعلها بطريقة قوية في اللاشعور وتصبح عاملاً نفسياً للعقم، وفي حالات أخرى، لاتظهر إلا آجلاً أثناء الحمل فتؤدي إلى مضاعفات.

وأذكر امرأة في الثامنة والعشرين من عمرها كانت تعاني من اكتئاب وكبت. وقد تزوجت منذ عدة سنوات، واتخذت علاقتها بزوجها منذ البداية شكلاً بائساً، مع أنها تزوجت عن حب وبعد صداقة طويلة. وراحت تحس تجاهه بنفور لا يمكن تخطيه، بحيث لاشيء يجد تبريراً واقعياً. ولم تبق إلى جانب زوجها إلا بسبب الإرضاءات الكبيرة التي كان يمنحها إياها في علاقتها الجنسية معه. وقد كانت حالات ذروة اللذة عندها شهوانية لدرجة فائقة الحد، ووفقاً لكلامها، كانت تشعر بها بملء وعيها وشعورها، إنما بانطباع أنها تخرج عن ذاتها، كما لو أنها تعيش في عالم آخر أو تحلق في «السماء». في ما كان زوجها يفقد أهميته الواقعية أثناء الفعل، وهي تحس نفسها مذابة به في اتحاد رائع، وغريبة عن باقي كيانها. ثم يعقب هذه الذروة في اللذة، شعور بالفراغ والوحدة والابتعاد واكتئاب لا ينقطع إلا عند ممارسة جنسية جديدة.

لعل الحالة الروحية لهذه المريضة كانت مفاجئة جداً، إذا أن المرأة لا تحصل، بصورة عامة، على ملء استعدادها للإشباع الجنسي إلا إذا أحبت وقدّرت شريكها، وإذا أثار اهتمامها من الناحية الغرامية وأدخلها في مراحل الشدة الجنسية. وقد كشفت الملاحظة التحليلية عن آليات آلت إلى هذا السلوك الخاص. فالإشباع الجنسي لهذه المرأة، يمكن بلوغه تحديداً،

لأنها تستخفّ بزوجها خارج علاقتها الجنسية، وترفض شخصه الأخوي الوادع، ولأنها تدفع باكتئابها ثمناً لمختلف الرغبات الممنوعة والمرفوضة التي تشبعها بصورة لاشعورية في نشوة الفعل الغرامي. وتخليها المؤلم عن الحنان الغرامي ومعاقبة ذاتها بالألم، كانت شروطاً ضرورية لتحقيق متعتها. كما يظهر رد فعلها بالخيبة مباشرة بعد أن تنتهي حالة التوتر. لكن التعبير الأعمق عن تخليها وعن معاقبتها الذاتية يظهر في مسألة أن رغبتها المحتدمة واللاشعورية بطفل تظلّ غير مشبعة. وكان هذا الأمر في مركز حالتها الاكتئابية. فهي تشعر بعدم امتلاكها الحق في تقبّل طفلٍ لرجلٍ محبوب بصورة حنونة، كما لا تريد امتلاك طفل لرجل محتقر ولامبالٍ. ولم يتبق لها في هذه الحياة إلا الاستمتاع الجنسي، وهي تشعر به في حالة من الخروج عن الشخصية (كما لو أنها ليست هي ذاتها)، لأن أناها الواقعي كان مستغرقاً في أمومة مستبعدة وممنوعة. وفي حالتها، كان الشعور بالذنب اللاشعوري والعميق هو سبب عقم نفسي وراثي.

وسنجد مثالاً آخر في حالة إحدى مريضاتي، العصابية الهاجسية، والتي كانت بلا طفل بعد سنوات عديدة من الزواج. وبعد علاجٍ تحليلي نفسي طويل، خفّت أعراضها العصابية الخطيرة بصورة واضحة. مع أن التحليل أظهر بشكل جليّ، أن عقمها لم يكن إلا مظهراً جزئياً لمرضها الذي كان مرتبطاً بشعور رهيب بالذنب الذي يعطي للعصابيين صفة الهاجس، وأي تبدل لم يظهر من ناحية العقم. وقبل انتهاء التحليل بفترة وجيزة، أصيبت بالتهاب رئوي خطير أوشكت فيه على الموت. وبعد أشهر قليلة من هذا المرض، أصبحت حاملاً. فأولئك الذين يعلقون أهمية كبيرة على العوامل الجسدية، قد يستطيعون تفسير هذا الحدث بربطه مع الظروف الجسدية للإلتهاب الرئوي. إنما من الواضح، بالنسبة لهذه المريضة أن التهديد بالموت، والذي شعرت به كعقاب والتكفير عن شعورها بالذنب بالألم، وفّر عوناً علاجياً وجعل النجاح في التحليل ممكناً بحيث كان يتعذر أن ينجح به لوحده.

وفي حالات أقل تعقيداً من الناحية النفسية، تسبب مشاعر بالذنب لاشعورية، العقم النفسي التناسلي الوراثي بصورة متكررة أيضاً. وفي الحياة النفسية لأية امرأة، تلعب فكرة الطفل دوماً دوراً ضخماً، ويصح هذا على جميع مراحل نموها وأمومتها. وقد رأينا أن القيمة التي تعلقها المرأة على جسدها، والخوف من عقاب موافق، ينتقل من أعضائها التناسلية باتجاه داخل جسدها أي باتجاه الطفل. ويحل الخوف من الإخصاء محل هذا الخوف عند الرجل، ونجد من هنا المخاوف من الولادة والخوف على الطفل عند المرأة. إنما قبل أن يتحقق تمني الطفل بوقت طويل، توجد الفكرة المبهمة والمزعجة نفسياً «لن يكون لي طفلاً أبداً»، وهذه الفكرة المنبعثة من مخاوف مختلفة، تستخدم على الأخص في استثمار الميول النفسية للعقاب الذاتي.

ونجد في هذا الطور الديناميكية الخفيّة للاندماج بين القضيب والطفل، والذي يبدو في البداية غير منطقي. وفي الفكرة التي يمتلكها عن عضوه، يُشرك الرجل المتعة التي تذوقها مسبقاً والتي ينتظرها دوماً بالحاجة المبهمة واللاشعورية للتكاثر، ويتعلق الخوف من فقدان العضو ومن الإخصاء بهذين الهدفين في آنٍ واحد. ويكمن الأصل الأكثر عمقاً لهذا الخوف، كما عرفنا، في الشعور بالذنب. ولدى المرأة، يرتبط انتظار اللذة الجنسية بالرغبة بطفل وبصورة أكثر وأقوى ديناميكية، والخوف من الفقدان ومن العقاب يتحول على فكرة الطفل.

في ما الشرط الرمزي لتنفيذ هذا العقاب هو «الساحرة» التي تمارس على عقم المرأة تأثيراً أقوى بكثير مما يظنه عادةً الأطباء النسائيون. وأنا أعرف حالات عديدة برهنت فيها العذراء السوداء «شيستوشوفا» (في بولونيا)، على قدرتها الخارقة في مقاومة الساحرة، وساعدت النساء العقيمات على الحمل. وهناك معالجون نفسانيون، وخاصة من النساء كانوا قادرين أيضاً على التأثير على مريضاتهم، قبل ظهور التأثيرات المنطقية للعلاج العلمي. وفي مفاجأة بجرح شعورنا في حبنا الذاتي لمهنتنا، علينا

تقبّل فكرة أن التدخلات الظاهرية وغير المنطقية هي أكثر نجاعة، في حالات العقم النفسي التناسلي الوراثي، من إعادة الترميم البطيء للشخصية النفسية للمريضة من قبل المحلل النفسي.

كَثير من أطباء الأمراض النسائية الذين يعالجون العقم بالطرق الفيزيائية، يتقبلون الدور الذي تلعبه التأثيرات النفسية، إنما يلحون على أمر أنه دور ثانوي. ومع ذلك، ففي كثير من الحالات العكس هو الصحيح. فالعلاج الفيزيائي الجسدي يلعب في الواقع دوراً عقابياً مخلصاً، أو دوراً تمهيدياً، أو لبعض العوامل النفسية الأخرى، ولهذا العامل الأهمية الكبرى في الحصول على النتيجة.

واستناداً لتجربتي الخاصة في التحليل النفسي، أمكنني تحديد أنماط معينة للعقم النفسي التناسلي الوراثي. إنما أرغب بالإصرار على موضوع أن أي عقم نفسي تناسلي وراثي ليس إلا نسبياً، وأريد أن أذكر أنه من الممكن التغلب عليه إن تغيّرت الظروف النفسية (شريطة أن تسمح الحالة العضوية بذلك)، وأن العوامل النفسية ذاتها يمكن ألا تظهر إلا في المراحل اللاحقة للوظيفة التناسلية دون اضطراب مرحلتها الأولى، الإخصاب. وفي هذه الحالات، يتبين أن فاعلية البلازما التكاثرية أقوى من الميول النفسية المعارضة لها.

ويمكننا القول، بشكل عام، إن السبب الأكثر تكراراً للعقم هو في الخوف اللاشعوري. وهذا الخوف يمكن أن يؤثر ليس فقط على الوظيفة التناسلية إنما على كل ما يمت للجنس بصلة، مستبعدين هكذا كل إمكانية لأمومة جسدية باستبعاد التجربة الجنسية نفسها.

ومصادر هذا الخوف متعددة، في ما يبدو أن تجارب مرحلة البلوغ تلعب دوراً كبيراً في التأثيرات اللاحقة (vol.I قصة موللي وتحليلها. cf.) فالعنصر الرئيسي للخوف هو الشعور بالذنب، الذي يأتي بصورة عامة من مصادر لاشعورية وهي الأكثر عمقاً في الحياة النفسية. إنما علينا أن نتذكر

حالة السيدة اندروز التي تبدو لنا، بطريقة تثقيفية بحتة، أنها نفس نوع الخوف، فبدلاً من أن يقوم مقام إشارة إنذار، يمكن أن يكون الشرط لتجربة شهوانية لفعل الحب، ويقود هكذا إلى نتيجة معارضة للعقم، أي الحمولات المحتومة.

هذه تحفظات تتخذ، والآن أريد تحديد عدة أنماط للعقم النفسي التناسلي يقوم على ملاحظاتي الشخصية.

1 ـ نصادف النمط الأول لدى المرأة الطفولية جسدياً ونفسياً، والتي رغم العمل الطبيعي لأعضائها التناسلية يستبعد مظهرها الخارجي فكرة الأمومة[1]. إنها قصيرة، حساسة، وتحتاج دوماً لمساندة أحد ما. إنها تعتمد أولاً على أمها أو على أبيها (الأم بصورة عامة)، وبعد ذلك على زوجها. وهي عادة باردة مهبلياً، إلا أنها تحصل على متعة كبيرة بالفعل الجنسي. ويكون عضوها الجنسي في البظر، إنما تعرف كيف تتصرف بحيث أن «سبات» مهبلها لا يزعجها ولا يزعج زوجها. وهي تطلب بنهم إبداء الحنان، في ما حنانها الخاص هو حنان طفلة وليس أم. وفي كثير من الحالات، تظهر مثل أولئك النساء خلال مرحلة بلوغهن ولفترة طويلة قبل الزواج، علامات جسدية رأيناها كمظاهر نمطية لتخيلات الحمل. وتتكوّن هذه العلامات في القيء المتكرر، وفي ميول للتورم، وفي أحاسيس مؤلمة في مختلف الأعضاء، مع انزياحات نمطية لعلامات من الأعضاء العليا إلى السفلى (أو العكس) من الدنيا نحو العليا (أو العكس)، ورغبة في إجراء عملٍ جراحي، وفوق ذلك كلّه اضطرابات في التغذية، واضطرابات من أي طبيعة كانت تصل حتى رفض التغذية.

وعندما تملك في ما بعد احتمال تحقيق هذه التخيلات، تجد هذه

(1) Cf. Wittkower F. et Wilson A. T. M.: Dysmenorrhea and sterility : Personality Studies; Brit. M. J. vol.2, 1940; Wittkower E. : New developments in the investigation and treatment of sterility, Proc.Roy.Soc.Med. , vol. 36, 1943.

المرأة نفسها عاجزة عن ذلك بالكامل. وتبقى في منأى عن الأمومة، تعاني من المخاوف، ويصبح اهتمامها الرئيسي في الحياة هو معالجة عقمها. وتُصبح أحياناً حاملاً بعد سنوات عديدة، وبالأحرى بتأثير أحداث حياتها التي أنضجتها بسبب العلاجات المختلفة التي خضعت لها. وأحياناً، لا تصبح حاملاً إلا لإزاحة مصاعبها الجسدية نحو المراحل اللاحقة للوظيفة التناسلية.

ويميل علم الطب النفسي الجسدي، لأن يعزو مثل هذه الاضطرابات العضوية على أنماط معينة في الطباع. فنمط المرأة العاقر التي ندرسها الآن ربما يدخل في مخطط ذلك النوع، إن لم يكن حقاً النمط نفسه، والموهوب بطبائع جسدية ونفسية متماثلة، ونصادفه أيضاً بين النساء اللواتي يصبحن حاملات بسهولة خاصّة ويؤدي بهنّ ذلك إلى الكثير من الحمولات المتقاربة. وكانت لي فرصة أحياناً في مراقبة ذلك النمط من الأمهات. فامرأة كهذه تسعى، مدركة وبصورة غامضة للا أموميتها ونقص الروح الأمومية عندها، بمساعدة الواقع، للمضي نحو الدور الذي ترغب بشغله بحيوية وبصورة شعورية. إنها تنتمي أحياناً لدائرة من النساء الشابات اللواتي يكنّ جميعاً، إلى حدٍ ما، من هذا النمط والذي ينافس الأمومة.

2 ـ ونجد نمطاً متعارضاً بصورة كلية، وهو في المرأة التي رغم امتلاكها لجميع صفات الروح الأمومية، تبقى عاقراً لأسباب نفسية. وإذا درسنا شخصيتها النفسية كما تبدو خلال الجماع، فنرى أنها من ذلك النمط الذي يجد بهجة كبرى في المنح الحنون لنفسها وفي المعانقات الأمومية. وببنيتها الجسدية والنفسية، تكون هذه المرأة تقريباً متعارضة بصورة جذرية مع نمطنا الأول، وإنهن لا يتشابهن إلا في عجزهن عن الحمل.

والنمط الذي ندرسه حالياً، يستثمر غناه بالروح الأمومية في الحب للزوج، مسترشداً بحدس أنثوي عميق، والمرأة هنا، تحس أن زوجها لا يرغب ولا يستطيع أن يرغب بطفل. والمحبة التي يكنها لها تذوب في روحها الأمومية، فهو يحتاج إليها لذاتها، ولمراميه، ولنجاحه، ولإنجازاته.

فإن هي نضجت من أجل الأمومة، فهو لن يكون كذلك من أجل الأبوة، إنه أحياناً فنان انطوائي، أو رجل فكر، وأيضاً (أو قطعياً) قلق، ويحتاج لأم ليبقى متحرراً من المسؤوليات ليستطيع أن يتطور وينمو أو حتى ليظل كما هو. وتشعر زوجته الأمومية بالمخاطر التي تتهدده في الأبوة، ونتيجة لمحبتها له، تتخلى عن الطفل. وغريزتها في الصون الذاتي التي تضعها في منأى عن الأعباء التي قد تتحملها في ما لو جعلت هذا الرجل، غير الأبوي، أباً لأطفاله. علاوة عن أنها قد تجد في الحمل تهديداً للانسجام الغرامي لزوجها، فليس لأن العشقية والأمومة تتعارضان في ذاتها، إنما لأن الفعالية العشقية لزوجها قد لا تقاوم نمو أمومة واقعية فيها.

فالرجل، مع أنه يحب زوجته الأمومية، يضع حداً لروحها الأمومية، ويتضمن تجاوز هذا الحد أخطاراً بالنسبة إليه. هناك نوع من الرجال يختار امرأة أمومية كشريكة غرامية، إنما يصبح عاجزاً إذا حملت زوجته، أو إذا وُلد لهما أطفال بعد ذلك. وفي بعض الحالات التي لاحظتها، مثل هؤلاء الرجال يهربون من بيوتهم، ويتملكهم الذعر عندما تصبح الزوجة حاملاً. وفي إحدى هذه الحالات، توارى الزوج لعدة سنوات، وفي حالتين أخريين، ظهرت أولى علامات الإدمان الحاد على الكحول للسبب نفسه.

والمرأة الأمومية المتنبهة، على نحو أو آخر، وبصورة شعورية، لهذه المخاطر تتلافاها بالتأثير على إمكانيتها في الحمل بشكل لا شعوري. والفكرة الساذجة أن الرجل يتم نضوجه عندما يصبح أباً، هي فكرة منافية للصواب لمثل هذه الحالات، وبإمكاننا في معظم الأحيان أن نثق بالمرأة لكي تتفهم الموقف بشكل حدسي. ومن ناحية أخرى، يتبين أن الريبة اللاشعورية للمرأة إزاء القدرات الأبوية لزوجها لا مبرر لها أحياناً. فلقد تعرفت على اثنين من الأزواج قرروا تبني أطفال، فالمرأتان تصرفتا هكذا لأنهما لا تريدان البقاء طويلاً بلا أطفال، أما الزوجان، فلقاء حبهما، ولأنهما يريدان إرضاء رغبات زوجتيهما. وفي هاتين الحالتين، أبدى الزوجان، لدى المفاجأة الكبيرة لزوجتيهما ومفاجأتهما الخاصة، الكثير من

الحنان والفخر تجاه الأطفال المتبنين، وأصبحا أكثر طموحاً في عملهما، وأكثر تعلقاً بزوجتيهما. وفي هاتين الحالتين حملت الزوجتان بعد التبني بأقل من سنة. وقالت لي إحداهما: «لم أكن أعتقد أبداً، أن زوجي باستطاعته أن يكون أباً صالحاً جداً. ولو كنت قد عرفت ذلك، لأصبحت أماً من وقت مبكر». ويتبين أن تبدلات كهذه في الموقف النفسي هي التي تزيل بصورة جذرية سبب العقم النسبي (cf. chap.XI)

ولا ينبغي أن نخلط بين نمط المرأة الذي ندرسه هنا وبين نمط المرأة الأمومية، التي تم وصفها في الفصل الثاني، والتي تتجنب الأمومة الجسدية وتتجه نحو مسارب أخرى لروحها الأمومية (المرأة العاقلة، تانت تولا... إلخ). ولدى هذه المرأة، تنمو الآلية المدافعة قبل وقت طويل وتتواجد منذ مرحلة الطفولة الأولى، لدرجة أن الأمومة الجسدية مستبعدة كلياً. وتسعى هذه المرأة لتجنب الصراع، بالتخلي عن المشاعر الجنسية وباستثمار مشاعرها الأمومية ضمن أمومة بالنيابة. فالمرأة العاقر المصنفة في النمط الثاني لديها كامل النية في أن تكون أماً حقيقية، وعقمها هو نوع من التكيّف الثانوي مع زوجها. ويطلب الطب الحديث من الأطباء النسائيين الذين يعالجون نساء عقيمات، أن يأخذوا بعين الاعتبار أطوار الزوج. إذ يرتضي عادة الأطباء في الاطمئنان عن قدرة الزوج وعن الحالة الطبيعية لسائله المنوي. إنما في كثير من الحالات، يبدو من المهم أيضاً دراسة السلوك النفسي للزوج كما للمرأة. وبصورة عامة، إذا أردنا الحصول على صورة نفسية تامة، فلا تكفي معرفة أن الزوجين يرغبان بطفل، وأن كلاً من الشريكين له علاقة مُرضية مع الآخر.

3 ـ يتمثل النمط الثالث في المرأة التي تتحول أحياناً عن الأمومة لصالح اهتمامات أخرى، ومع أنها مشابهة بهذا مع النمط الثاني، فإنها تستطيع امتلاك قدرة كبيرة من الشعور الأمومي. وأقترح تقسيم هذا النمط إلى نوعين:

أ ـ المرأة الأنثوية العشقية التي تخشى صراعاً في نفسها بين

الأمومة وبين حياتها الغرامية المضطرمة والغنية. وتتلاشى روحها الأمومية في أتون حبها العشقي. إنها قريبة جداً من النمط الثاني، دون أن تكون متماثلة معه.

ب ـ المرأة التي تكرّس حياتها لإيديولوجية أو لاهتمام عاطفي آخر. وتنضوي هنا النساء، واللواتي يلعبن دوراً ذا شأن، في الحركات الثورية الكبرى، ومنهن الفنانات، والعالمات... إلخ وهن لا ينفرن من الأمومة، وأحياناً يرغبن بالأطفال، إنما يتجنبن بصورة لاشعورية الصراع الذي قد ينجم عن انقسام في اهتماماتهن العاطفية، ويبقين هكذا عاقرات.

4 ـ نمط مألوف جداً للمرأة العقيمة نصادفه في المرأة الذكورية العدوانية التي ترفض تقبل أنوثتها. إنها لا تستطيع أن تظل عاقراً، إنما بشكل عام موقفها النشيط العدواني يتأكد أيضاً في مجال عملها، وأحياناً يكون عندها كثير من الأولاد. وتتوصل لإيجاد مخرج لعدوانيتها في الحمل والأمومة.

5 ـ هناك أخيراً المرأة المشوشة عاطفياً والتي تخشى من الأعباء العاطفية الجارفة، والتي تكون عاقراً ليس لأنها تجد في جهة أخرى مساراً لمشاعرها، إنما لأنها على دراية بجدب حياتها العاطفية. وتشابه بذلك نمطنا الأول، إذ تسعى أحياناً للتغلب على قصورها بحمولات متكررة.

وهكذا ككل محاولة للتصنيف، ليست هذه الأنماط صافية، فسماتها تمتزج أحياناً. علاوة عن أن، كما كنت قد ذكرت، الصعوبات التي تُصادَف في الحمل يمكن أن توجه السلوك بطريقة متعارضة جذرياً للطريقة التي كانت سابقاً. وسنجد أيضاً جميع أولئك الأنماط من النساء عندما ندرس المراحل اللاحقة للتناسل.

و قد يمكننا وصف كثير من الأنماط الأخرى لنساء عاقرات. فهناك حالات من العقم النفسي الوراثي والذي يتم تفسيره بصورة فردية تماماً.

ومنها الحالة التالية. امرأة شابة بلا أطفال بعد أربع سنوات من الزواج. وكانت البكر لوالديها ولها أخ وأخت. وكان أخوها أصغر منها بسنة واحدة. وقد نشؤوآ في وسط مثقف إلى حد كبير، في ما رأى أخوها وأختها نفسيهما يتحددان، منذ طفولتهما، بإيديولوجية ومسارات للسلوك دقيقة جداً. وكان يُنتظر من الصبي أن يدخل الوزارة كأبيه، وكان على هذه الفتاة أن تصبح أماً ذكية، متربية تربية لائقة وأنثوية. وكانت العائلة تخطط لمشاريع تكون فيها البنت أماً للعديد من الأولاد ويكون الأهل أجداداً سعداء. وقد أُفسد هذا المخطط لأن الشاب تزوج قبل أخته وسرعان ما جلب طفلاً للبيت العائلي. أما الفتاة، التي عوضت، إلى ذلك الحين، وبصورة بارعة، مشاعرها التنافسية تجاه أخيها بأنوثتها، حصل لها ضعف عصابي لأن أخاها سبقها بتحقيق غاية الأهل. وقد تزوجت على حين غرة لتستدركه، لكن الأسبقية كانت له. فأصابها، شيئاً فشيئاً، موقفاً يمكننا التعبير عنه هكذا: «طالما أنك اغتصبت دوري، فسآخذه منك»

وتصورت طموحات فكرية، وشعرت بالدونية، وأصبحت عصابية جداً، وجعلت من جسدها ميداناً لصراعها. ولتقلل من مظهرها الأنثوي، انقطعت عن الطعام، وراحت تتوقف مواعيد طمثها وتظهر مرض رفض التغذية الحقيقي، مع نوبات من الجوع الضاري تسعى خلالها بصورة لا شعورية، لتحقيق الفكرة النمطية الطفولية للحمل بمص المادة المخصبة بفمها. لأنها تحقق خيالاتها في الحمل بنوبات من الضرر ولأنها تضطهد نفسها جسدياً بالصراع ضد أنوثتها، ولم تصبح حاملاً مع أن فكرة الطفل استحوذت عليها. كما بإمكاننا أن نورد عدداً كبيراً من الأمثلة المشابهة.

إننا نعزي الصعوبات النفسية للقوى الهدامة للنفس البشرية. وعندما نكون على صلة، مثلاً، بالعلاقة للمرأة العاقر بزوجها، يمكننا أن نفترض بيسر أن كرهها ولا مبالاتها وغيرتها وخوفها من نتائج الحمل على الانسجام في علاقتها الزوجية ... إلخ هي أسباب عقمها. إنما أحياناً وبالأصح نادراً، نصادف زوجين يحبان بعضهما بحرارة، ويشهدان سعادة

كبيرة في علاقتهما الغرامية، ويشعران دوماً بحاجة حيوية جداً لجعل هذه العلاقة أفضل مما عليه، فيرغبان بطفل ومع ذلك يُرغمان نفسيهما، بصورة لاشعورية، على التخلّي عن هذه الرغبة. ويبدو أن إنجاز ذلك يمنعه الخوف من خلق اضطراب لانسجامهما، ويُحيلان ذلك للقدر والنصيب، إنه الخوف الاسطوري القديم لانتقام الآلهة.

فالتنوعات والأنماط والملاحظات التي لا حصر لها، يمكن أن تُذكر كأسباب للعقم النفسي التناسلي الوراثي. ومنذ بعض الوقت أيضاً، كانت مهمة الطبيب النفسي والمحلل النفسي يسيرة جداً. وكان الطبيب النسائي صاحب الضمير، يصرّح أن كل شيء من الناحية الجسدية على الوجه الأكمل، وأن العلاج يقع على عاتق الطبيب النفسي بشكل كامل. ولكن جهود ذلك الأخير لم تكن دوماً تُكلل بالنجاح، وكان يتحمل وحده مسؤولية الفشل. وكان من المفضل بالتأكيد في مثل هذه المناسبة، أن يكون هناك رفيق لنكد الطالع. ومع ذلك، ومع التقدم الكبير الذي قدمه علم الهرمونات، تتعارض أحياناً طريقتا العلاج والتقصي وتتعدى أحياناً إحداهما على الأخرى. واليوم، ليس الأطباء النسائيون على عجلة من أمرهم للبت بأن كل شيء على ما يرام، إذ يسعون، أكثر فأكثر، لتفسير العقم بوظيفة ذات خلل في عامل هرموني أو أكثر، وينظرون للطبيب النفسي نظرة ازدراء ورفض أو في أحسن الأحوال الصبر المتسامح. ولا يرجعون للطبيب النفسي المحتقر إلا إذا جعلهم فشلهم الخاص غير راضين عمّا حصل.

وحتى على افتراض أن العقم محدد، أحياناً أو ربما أكثر الأحيان، تحديداً نفسياً، تبقى الإجابة على هذا السؤال المثير للغضب: كيف تصدر النتيجة الفيزيائية الجسمية، وأين يتدخل العامل النفسي ليفسّر تلك الحالة؟ على علم الهرمونات أيضاً أن يجيبنا على هذا السؤال، ويعدنا بذلك من أجل المستقبل. فلم يترسخ بوضوح إلى الآن أولوية السبب العضوي أم السبب النفسي. وهل يخلق ثمة اختلال هرموني استعداداً لبعض ردود الفعل النفسية بتهيئته لسبيلها، أو أن عناصراً تؤدي إلى اختلال هرموني بارتدادها

على الجهاز العصبي الإنمائي؟ عملياً، السؤال الهام هو التالي: إلى أي حد يمكن للاختلالات العضوية المحددة تحديداً نفسياً أو (لا)، أن تُشفى بالعلاج النفسي؟ ومن الممكن أن ينتمي العلاج مستقبلاً للطب الجسدي، إنما لدينا انطباع بأن فرص النجاح في هذا المجال ستكون أكبر في ما لو ساعد الطب النفسي الطب البشري على تفهم العناصر النفسية. وفي الوقت الحالي، يسير العلمان بصورة منفصلة ويتصارعان معاً، كما يفعل ذلك، إلى حد ما، الحلفاء خلال الحرب الحالية[1].

لقد درست مسألة العقم من زاوية العجز أو صعوبة الحمل، وسندرس أبعد من ذلك المسائل المختلفة ذات الصلة، مثل الإجهاض النفسي الوراثي، وردود الفعل الثانوية للعقم ... إلخ ومع ذلك، هناك مشكلة علينا تناولها مباشرة لأنها تبدو متعارضة تماماً مع مشكلة العقم. فأود الحديث عن ذلك الاستعداد للإخصاب الذي يشكل إرغاماً وقسراً، والذي قد نصفه بما «فوق الخصوبة». ويمكن أن نحكم بصورة لا تصدق وحتى عميقة، على فكرة أن هذه الحالة من الأمور قريبة، من الناحية النفسية، للشذوذ كما هي قريبة من العقم. ونظرياً، المظهر الطبيعي المثالي لخصوبة المرأة هو التالي: يتلو الحمل أول علاقة جنسية، ويولد طفل بعد الفترة المنتظمة للحبل، ويتكرر الطور نفسه كل سنة تقريباً حتى انتهاء الحياة الجنسية للمرأة. إنما، لدى الكائنات البشرية، يخضع هذا التصميم لتغيرات كبيرة، حتى خارج أي تأثير شعوري إرادي. فالإخصاب نادر في المرة الأولى للجماع، ومن المستثنى أن الامكانيات التناسلية الكاملة للمرأة تستخدم بصورة كليّة خلال سنوات نشاطها الجنسي. فعلاوة عن المراقبة الارادية للخصوبة، يلعب التأثير النفسي الكابت اللاشعوري بالتأكيد، دوراً هاماً في هذه «الظواهر لتلف الخلية الحيّة»، كما قد نسميها برؤيتها من زاوية علم الاجتماع أو علم البيولوجيا.

(1) أذكر القارئ أنه قد تم تأليف الكتاب خلال الحرب العالمية الثانية (المترجم).

ويبدو أن الضبط الإرادي للولادات و«تلف الخلية الحيّة»، أي الأطوار التي بموجبها تهبط الخصوبة إلى دون مستواها المثالي، تقود، شيئاً فشيئاً، إلى إعادة تكيّف وإلى تقليص في الخدمة الملائمة للنوع من قبل المرأة. وفي وقتنا الحالي، كل ما يجري كما لو أن الظرف الاجتماعي للمرأة يجب أن يقوّي ويبرز هذا التطور، إلى أن تبدأ تغيّرات جديدة في تحديد توجه مختلف. وهنا يلعب علم البيولوجيا وعلم نفس اللاشعور دورهما.

وفي حالة الأمور الحاضرة، يمكن للمثالية البيولوجية أن تصبح، بشكل تناقضي، شواذاً. وهناك نساء تحدّت خصوبتهن جميع المساعي التي أقيمت لكبحها، واللواتي يدفعن بالحد من امكانياتهن الفيزيولوجية ضريبة التناسل. وكل انفعاليتهن مدفوعة في الصراع ضد خصوبتهن، تماماً كما تتركز انفعالية المرأة العاقر في عدم قدرتها على الحمل. وبما أن المرأة المخصبة تستخدم أحياناً كل السبل الممكنة لمنع الحمل، يبدو فشلها أيضاً غير قابل للتفسير كما هو الحال في العقم النفسي الوراثي الذي ليس له أي سبب فيزيولوجي ظاهر. إنما من الأيسر طبعاً الإهمال اللاشعوري للوسائل الاحترازية في الخصوبة، وأن ندع التأثير اللاشعوري على الأطوار الفيزيولوجية يفعل فعله في العقم، أولى من أن نعتبر الخصوبة كطبيعية والعقم كشواذ.

والنساء اللواتي يحملن بسهولة بخلاف إرادتهن، يشتكين عادة، كما كانت تفعل السيدة اندروز، من أنه يكفي لرجل أن ينظر إليهن أو أن يلمسهن ليجعلهن حواملاً. ويظهر التحليل لهؤلاء النساء المخصبات بإفراط أن مشكلتهن غير معنية بالروح الأمومية المفرطة والتي تطالب بإرضائهن بأي ثمن. بل على العكس، إنهن، بصورة عامة، لا أموميات، ويضمرن الحقد على أطفالهن الذين وُلدوا، وهن منشغلات بصورة مفرطة في محاولة الحد من نمو ذريتهن ليتمكن من التحول بفرح ورعاية نحو أولادهن الذين سبقت ولادتهم. فأسباب حمولاتهن الإجبارية لا تشبه بأية حال الحاجة الغريزية للأمومة.

عدد كبير من النساء اللواتي، بصورة سلبية، «لا يقمن بفعل أي شيء

حيال هذا الموضوع»، يسوغن تصرفهن الساذج بصورة تثير الفضول. فيقلن «ليس باليد حيلة». وأخريات يقدمن ثمة أسباب إيديولوجية أو دينية واللواتي قد يضللن شخصاً سيىء الإطلاع. وحينما لا يكون ثمة بواعث، يشنن معركة ظاهرية ضد الخصوبة بكل الوسائل التي بين أيديهن. إنما يبقى هذا الصراع عبثياً، لأنه يلاقي (كالصراع ضد العقم) معارضة لاشعورية. وتقوم أولئك النساء أحياناً بإجهاضات، وحالة أعضائهن التناسلية تكون كالذي يسيىء الفهم أحياناً كيف يمكنهن أن يحملن أطفالاً أيضاً. ويطالبن بإلحاح أن يكن عاقرات، وحينما يبلغن ذلك، تصبح ردة فعلهن عادة بإكتئاب خطير وحالة عضوية بائسة. وإن اعتبرنا العقم النفسي الوراثي كمجموع دلائل نفسية جسدية، فلا يتوجب علينا رفض ربط الظاهرة العكسية في فرط الخصوبة بشرط هرموني. لاشك هنا أن فاعلية خاصة للبلازما الانتاشية ونشاط مفرط للقوى الهرمونية وضعت رهن ميول نفسية، وتفاعل العناصر النفسية والجسدية أصدر حالة ربما وصفتها السيدة اندروز: «تطوف الجراثيم في الهواء لإخصابي». فلا يتوجب علينا أن نخدع أنفسنا بالظواهر الخاطئة للحالة الطبيعية.

ستكون لنا الفرصة في ما بعد لأن ندرس تفصيلياً بعض حالات الخصوبة المفرطة. وسنرى حينئذ كم من المألوف أن العقم والخصوبة المفرطة تصدران عن مصادر متماثلة ولا تقومان إلا بتمثيل الوجهين «لجانوس»[1] النفسي.

وبعد هذا الاستطراد المختصر في مجال علم الأمراض، لنعد إلى الوظائف الطبيعية للتكاثر. فمع أن الفعل الجنسي مندمج مع هذه الوظائف، تكون غاية هذه التجربة الشعورية هي «اللذة، لذة بدون دمج». وخلال الأطوار اللاحقة، تُطرح دوماً المسألة التالية على المرأة: إلى أي حد

(1) جانوس هو من آلهة روما القديمة جداً، ذو وجهين، ويعمل كحارس للأبواب (المترجم).

يزعجني الطفل في استئنافي لاهتماماتي الشخصية؟ هكذا تتحدد منذ البداية الثنائية القطبية للتجربة التناسلية، «أنا أم الطفل» تشعر كل أم بثنائية القطب هذه ضمن مقياس ما، بصورة عميقة أو سطحية. كما يمثل الطفل دوماً خللاً في حياتها الفردية، إنما في الوقت نفسه، هو وعد ونظرة متفائلة للمستقبل. ويشكل كل حمل، وخاصة الأول، بالنسبة للمرأة، فجر مرحلة جديدة، ومنعطف لقدرها، إذا عبرت الأمومة الوشيكة عن الرغبة الصادقة لهذه المرأة. وبدون هذا الانتظار الداخلي، تعتبر تجربة الأمومة أقل اكتمالاً، ولا يمثل الطفل إلا واقعاً مرغوباً، محتملاً، أو غير مرغوب ينقصه التولية المباركة للعاطفة والأمل. ومنذ البداية هناك أم تبتهج وتفرح وأخرى تذوي وتنكفىء، أمهات يعشن للمستقبل المتجسد بالطفل، وأخريات يشعرن بأناهن قد استُنفذ من قبل الطفل.

هناك أيضاً شروط أخرى يجب أن تتحقق، لكي يصل حمل المرأة الأنثوية للوفرة. وفي مقدمة هذه الشروط نطلق اسم «الأمان الاجتماعي الباطني». ويتعلق بالحاجة التي تظهرها المرأة لتحس لدى زوجها، حناناً أبوياً وحماية أكيدة. وكل أخطار الأمومة الواقعية منها أو الخيالية، والمخاوف المرتبطة بوظائف التناسل، والمخاوف الموجودة من بداية الطور حتى نهايته، تتآزر كلها ويمكنها تداركها في ما إذا أحسّت المرأة بروح أبوية في والد أطفالها.

وتشعر كل امرأة بالحمل على طريقتها، ومع ذلك، فهناك أشكال محددة تقع فيها تنوعات فردية. هذا الموقف العام هل هو «صفة للنوع، ومظهر للغريزة»؟ وإن جاز التعبير، يقظة أو إعادة لظهور ذاكرة نشئية نوعية؟وبالنسبة للمختص بعلم النفس، تبدو مبادئ التحديدية أو القابلية البيولوجية ضيقة ومنحصرة، إنما تعطيه انطباعاً مريحاً ليمتلك أساساً علمياً، وليتمكن من تحديد ملاحظاته الذاتية ضمن إطار موضوعي. ومن الحكمة التمسك بتصميم راسخ، بطريقة تزيد القيمةالموضوعية للأفعال التي تحت الملاحظة، إذا أمكننا، بتصرفنا هكذا، تجنب خطر أن تكبت في الرؤية

والفهم، وبشكل خاص، في التواصل مع الآخرين، أمور يمكن تفسيرها بوقائع بيولوجية أو اجتماعية.

إن الظاهرة العضوية للحمل على صلة وثيقة بالنفسية. وهي تدخل أكثر من عنصر نفسي، كمياً و كيفياً، في الشرط البيولوجي الطبيعي الذي لا يوافق عليه الأخصائيون أنفسهم عادةً. وما هو نمطي، وصحيح بالنسبة لكل النساء، نصادفه قبل كل شيء في الظواهر النفسية التي ترافق بعض المظاهر العضوية الثابتة للحمل، فمثلاً، الصفات الجسدية التشريحية المحضة للحمل، تؤثِر إطلاق ميول مختلفة، نصادفها في الحياة النفسية الطفولية وبين العلائم العصابية. في ما الموضوع داخل الجسد، كما نعلم، هو موضوع أفكار خاصة جداً، وعلى الأخص حالات الضيق والانزعاج النفسي في تخيلات الطفولة الأولى. ألا تعتري الفتاة الصغيرة المخاوف المفزعة لدى سماعها التحدث عن التهاب ما أو جسم غريب داخل أحد ما؟ كثير من العمليات، كما رأينا، أجريت لفتيات صغيرات، وخاصة خلال مرحلة البلوغ، لأنهن طالبن بذلك بإلحاح. يأتي مثل هذا الطلب نتيجة انزعاج نفسي تعبر عنه علائم عضوية.

مثال آخر للاهتمام القائم على التشريح الداخلي للجسم، يكون في الخوف الطفولي من الدود القادم من المعدة. هذا الخوف، كما نعلم، يتواجد أحياناً بعد الأحلام الرمزية والتي يتخذ «الدود» فيها معنى الأطفال الصغار، وعموماً المواليد الجدد.

أيضاً وبحسب واقعية الفكر الطفولي، يتم تصور هذه الفكرة، بأنه لايمكن أن نجد داخل الجسد إلا ما وضعناه به، أي الغذاء.

وهناك أيضاً مجموعة أخرى من الأفكار، تترافق مع الخوف من دم الحيض للأم، وقد يتم إشراك هذا الدم ذهنياً مع الأطوار الداخلية للجسد، وتزودها لاحقاً بصفة خطيرة.

وفضلاً عن التشريح، تكون الأطوار الفيزيولوجية للحمل جديرة بأن

تؤدي إلى ظواهر نفسية مرافقة. في الواقع، لكل مرحلة فيزيولوجية للحمل توافق نفسي معين. إن نمو الظواهر العصبية، وإعادة التنظيم التصاعدي للأطوار الجسدية للإثارة، وتعديلات الدورة الدموية، ووظائف الغدد، وطور التغذية النسجية المرتبطة بالحمل، تشكل كلها إجهاداً جسدياً متنامياً يمكن أن يمتد بالطبع إلى الفضاء النفسي. ويمكننا القول أننا على صلة هنا بردود فعل نفسية أوتوماتيكية، شبه انعكاسات، يكون إزاءها الطور الجسدي شرطاً ضرورياً. وترتبط بمجموعات محددة من ردود الفعل يمكن أن نقول أنها طبيعية ونمطية.

وإذا واجهنا ردود الفعل النفسية الأكثر فردية بالحمل، فعلينا قبل كل شيئ أن ننظر لتأثير العالم المحيط بمعناه الضيق والواسع. فكل حضارة، تعبر عن نفسها بالطبع على طريقتها الخاصة. فكيف يرتبط المفهوم الكلي لـ «نفسية الحمل» بالحياة الذهنية للمرأة ذات المدنية العالية في أمريكا الشمالية أو أوروبا الغربية مع نظيره لدى فلاحة سلافية أو يهودية أرثوذكسية، أو امرأة بدائية من أفريقيا الشمالية؟

فالأطوار النفسية المدروسة هنا غير محددة بالتأكيد، ولا أدعي أنها تنطبق على جميع الحالات الممكنة. كما لا أرغب بتوسيع ميدان اختبارنا إلى ما بعد المجال القريب من النساء اللواتي نعرفهن جيداً، واللواتي تسهل علينا الملاحظة المباشرة لهن. ومع ذلك تبدو بعض العناصر متأصلة بعمق كبير في طبيعة المرأة، والذين استمروا عبر قرون وقد نصادفهم بمستويات متغيرة من التحضر. ولأدع نفسي أذكر المثال التالي دون الدخول الآن في تفسيرات مفصلة. فلدى كل امرأة حامل يبرز مرحلياً شعوراً غامضاً، وذكرى مخاوف وخرافات قديمة، بأن هذا الاغتناء الجديد تجلبه لها سعادتها سوف تثير غيرة قوى خارقة، وأرواح وآلهة. وفي قصص الجن والأساطير، تريد الساحرة الشريرة أن تسلب الطفل بشعوذتها. وفي ذهن الفلاحة البسيطة في مناطق مختلفة، ستنال «العين الحسودة» للجار العدو النتيجة نفسها، في ما لدى المرأة المتطورة في حضارتنا، ربما الشعور هو «إحساس غير منطقي»

يتوافق مع شعور بالذنب يعمل باللاشعور. والأم الحقيقية للمرأة تمثل القوة المهددة والتي تأخذ دور الساحرة. كما هناك قصص وهمية لمخلوقات غريبة وولادات غير طبيعية تكدر فرح الانتظار وتملأ المرأة الحامل بالقلق النفسي. هذه القصص الوهمية هي قصص نمطية ونجدها في العالم بأسره. والنساء غير المؤمنات بالخرافات أبداً، يصبحن كذلك، ويخشين من قوى سحرية...إلخ وتوحي هذه الأمثلة بوجود تماثل لردود الفعل النفسية، حتى في الظروف المحيطية المختلفة كلياً.

إن موقف المرأة تجاه حملها يتأثر بشدة وبصورة طبيعية بمحيطها المباشر. والطريقة التي يعامل بها المجتمع المرأة الحامل، تتعلق، قبل كل شيئ، بالقيمة التي يوليها هذا المجتمع للأطفال. وهذه القيمة تتنوع وفقاً للأطوار والبلدان. كما تلعب دورها هنا المصالح الوطنية والسياسية والاقتصادية، وكذلك الأخلاق والدساتير. ولا يقيم التطور الاجتماعي وزناً دوماً للقوانين والعوامل البيولوجية.

فالتجربة النفسية للحمل، تتعلق إلى حد كبير، بالشروط التي تصورتها المرأة والتي ولد فيها الطفل المنتظر. إن تلك القوة الكبرى للحياة النفسية البشرية «الخوف»، مهما كانت طبيعية، يمارس بالتأكيد تاثيراً ذا شأن في السياق العاطفي للحمل. والخوف الاجتماعي من المرأة غير المتزوجة، يرافق المخاوف المحددة تحديداً نفسياً، سواء كانت طبيعية أم عصابية. وكذلك تلعب دورها الصعوبات الاقتصادية والأمراض والوفيات المباغتة في الأسرة. وبالإجمال، فإن العوامل ذات الصلة بالعالم المحيط، سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة، تؤثر تأثيراً أكيداً على مجرى الطور التكاثري.

وربما العامل الأكثر فاعلية، هو حالة الصحة النفسية للمرأة الحامل. ففرصنا نادرة في ملاحظة طور يكون «طبيعياً» من وجهة النظر النفسية. وثمة طور طبيعي لا يكون عادياً في بدايته. ومن ناحية أخرى، لا ترغب المرأة الطبيعية في مواقفها الحياتية والتي تعد الأكثر أهمية بالنسبة لها، أن تسمح لشخص آخر وعلى الأخص المحلل النفسي، أن يخترق حياتها النفسية.

وبهذا الشأن، من اللافت تحقق أن النساء الأكثر حدسية وباطنية، يتجنبن ملاحظة أطوارهن النفسية الخاصة خلال فترة الحمل. وإن صح القول، يسعين بتصميم إلى عدم ملاحظة أنفسهن. هذا السؤال، الذي يكشف عن دوافع عميقة هو أحد الأسباب التي من أجلها تكون محصلة معلوماتنا ضحلة عن الحياة النفسية للمرأة الحامل.

❀ ❀ ❀

الفصل السادس

الحمل

تهم أطوار الحمل، علم البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع. وسأهتم أولاً، بالظواهر النفسية المرافقة للأطوار البيولوجية.

إذ يعقب الحمل انقلاب هائل للعضوية الأنثوية في كليتها. وتؤكد كثير من النساء على قدرتهن على الشعور بانطلاق الحمل. ومع ذلك لم أسمع ذلك القول إلا من النساء اللواتي يرغبن في الحمل واللواتي، بالنتيجة، يخلطن بين استعدادهن للطور والطور نفسه، ويُرى ذلك بصورة خاصة بعد مرحلة ضبط إرادي للحمل، وعندما يُترك هذا الضبط عن عمد.

وعندما تستقر وتعشش البويضة الملقحة في الغشاء المخاطي الرحمي، يتضخم الرحم، وتتوسع أوعيته الدموية، ويتلاءم تصاعدياً مع مهمته في حماية الجنين. فتؤثر الأطوار التناسلية تأثيراً هائلاً على العضوية بأسرها للمرأة بواسطة عدد كبير من الأطوار الفيزيولوجية، بحيث تصبح العضوية مكرّسة تماماً لخدمة مهمة التكاثر. وتسهم كل خلية، على نحو أو آخر، بهذه المهمة، وشيئاً فشيئاً، تصبح الشخصية الجسدية للمرأة حامية للجنين، ومع ذلك يوكل الدور الجوهري للإتمام للأعضاء التناسلية وحدها.

وتتلقى النفسية، لقاء جميع هذه الأحداث الفيزيولوجية، منبهات تحريض واكتئاب من مختلف الأصناف، وتلتمس التماساً مباشراً التهيجات

الآتية من النهايات العصبية للجهاز التناسلي. كما تستخدم النفسية الأطوار العضوية للحمل بيسر لكي تظهر التوترات المؤثرة السابقة الموجودة، وبالنتيجة، تتمكن ليس فقط ملاحظة تأثير الأطوار الجسدية على الأطوار النفسية، إنما يمكننا التعرف، بشكل معاكس، على العلاقة الموجودة بين الصراعات العاطفية المؤثرة والدلائل الجسدية للحمل، إنما أكرر وبإلحاح، أن على هذه العناصر النفسية أن ترتبط بالأطوار الجسدية للحمل، بطريقة تجدر دراسة تفاعلها.

تصل كل امرأة إلى الحمل بعوامل انفعالية ومواقف صراعات تدخل بعلاقة مع حالتها بمجملها، وبمظاهر عضوية متميزة للحمل. ومن ناحية أخرى، تنطلق كذلك مجموعات مختلفة نمطية لأطوار عضوية للحمل من مواقف عاطفية معينة تظهر الآن على الملأ، مفضية ومسلمة كل الخلفية الديناميكية التي ترافقها، حتى لو كانت هذه الأخيرة، على صلة مباشرة بالحمل. ومثال على ذلك، يمكن للغثيان ذي الأصل العضوي أن يفصح عن جميع مشاعر التقزز، والتي تبقى، دون أن تنكشف، على بساط البحث في اللاشعور منذ سنوات عديدة. وعلى العكس، تعزز أحياناً وبعنف مشاعر التقزز المترافقة ببعض الأفكار عن الحمل، التهيج العضوي للغثيان وقد يؤدي عندئذ إلى قيء متكرر لا رادّ له. ويتوضح هنا التباين مع أطوار أخرى نفسية جسدية. ففي حالة القيء غير القابل للرد، تكون الأعراض العضوية المضاعفات النهائية لعدد كبير من الأحداث العضوية، حتى لو تعلقت بداية هذا التطور بمضمون نفسي خاص. وفي الحمل، تصبح الظاهرة الجسدية المكونة سابقاً بصورة طبيعية، تعبيراً مباشراً عن مضامين نفسية معينة.

ونحن نعلم ان التخيلات الوهمية للحمل تملأ الحياة النفسية للأولاد، وبخاصة البنات، منذ الطفولة الأولى. وهذه التخيلات لها طابع نمطي تماماً، وتغذى خاصة بالتحريضات المرافقة لمختلف مراحل الحياة الطفولية الغريزية. فالمص الفموي والاستبعاد، والاحتجاز والإطراح الشرجي، والاغتصاب العدواني، كل هذه التحريضات البدائية ترافق

وظائف جسدية محددة. وتلعب دوراً هاماً في الطور البيولوجي للحمل وتسيطر بجزء كبير على الديناميكية النفسية لهذه المرحلة.

وعند دراستنا للجماع، نوهنا عن التماثل الحاصل بين المص الفموي والوظيفة الاستقبالية للامتصاص في المهبل. وخلال الحمل، يمكن لجميع الأفكار والتخيلات الجنسية المرافقة للمص الفموي والإجلاء أن تحيا من جديد، بما يخص الميل للغثيان المقدر بصورة فيزيولوجية. ونرى هنا كيف أن بعض الأطوار الديناميكية تخدم التحريض الجسدي لأفكار سابقة وراسخة، إنها هنا حالة «تواطؤ جسدي»، نستخدم هنا عبارة مألوفة. إنما يعلمنا علم التحليل النفسي أن التفاقم النفسي الجنسي الموروث لغثيان الحمل، لا يصدر إلا إذا ترافقت ميول الإجلاء الفموي بعواطف لاشعورية، (أو على وشك أن تكون كذلك) لعدائية تجاه الحمل أو تجاه الجنين.

ويمكن لهذه العواطف أن تكون مختلفة، إذ يمكن أن تأخذ شكل معارضة غاضبة، أو عقاباً ذاتياً لمشاعر عدائية، أو لخوف، أو لأفعال عنيفة مشابهة. وكلما ازدادت الدوافع العدائية ضد الجنين، كلما كانت لاشعورية، وتستخدم الطور الديناميكي بعنف. وإن ترافقت الميول اللاشعورية برغبة معارضة للاحتفاظ بالطفل، نما صراع داخلي يحوّل الطور النفسي الجسدي إلى عرض عصابي، وعموماً هستيري. وقد لاحظت أحياناً، خلال التحليل النفسي، أن المحتوى النفسي، في حالة القيء غير القابل للرد، كان نفسه بالتحديد في الإقياء الهستيري للفتاة الشابة، والذي يتحرض بتخيل لاشعوري للحمل وليس بحالة واقعية. ويتكون الجسر الرابط لهاتين الحالتين عادة، في الخوف الذي يظهر العرض، وهو خوف ذو مضمون تخيلي عند الفتاة الشابة، في ما هو خوف ذو مضمون واقعي، ومادي في الجسد، أي الجنين، عند المراة الحامل. وفي كلتا الحالتين، تعود للظهور الفكرة القديمة الطفولية في الاخصاب بواسطة الفم. إنما في قيء المرأة الحامل، هناك دوماً سبب فعلي حقيقي كثيف يحرض العلاقة السلبية والمقلقة مع الطفل، وهنا نجد العرض.

الأمر نفسه ينطبق على مظاهر أخرى، وعلى الأخص أحياناً على مظاهر أخرى فموية، وخاصة خلال النصف الأول من فترة الحمل. ونذكر هنا أزمات الضور المتناوب مع غياب كامل للشهية، والآلام الهضمية التي يصعب تفسيرها تفسيراً جسدياً محضاً، والتجشؤات والحرقات المعدية، والغثيانات، والحساسية من بعض الأطعمة التي تثير التقزز، وبعبارة أخرى، المظاهر الطبيعية للحمل التي تتجاوز الحدود الاعتيادية. إن الرغبات المتنوعة للأطعمة الغريبة، مع أنها تكون ظاهرياً معاكسة للقيء، بصفتها مظاهر لتغذية تحريضية، تعبرعن نفس الصراع بين التدمير والاحتفاظ بالجنين، وفي إحدى الحالات، إنها ميول للإلغاء الذي يجلبها، وفي حالة أخرى، إنها ميول للأخذ. وفي القيء، رغبة إيجابية للاحتفاظ بالطفل تتجلى بشعور التخفيف وبالانتصار الذي يهيمن بعد طرد الطعام: «لقد ظل في الداخل رغم ذلك». إحدى مريضاتنا كانت تبحث دوماً، بذعر شديد، عن أجزاء للجنين في القيء، وتحققت بعد ذلك، وهي تضحك، من تفاهة وعبثية تصرفها. وحتى في ما يخص الرغبة في إعادة الاندماج الذي تعبر عنه الرغبات ببعض الأطعمة، يتجلى الميل المعارض بالموقف الغريب المدمر للمرأة تجاه الأغذية الأكثر خصوصية. وفي رسائلها، تشتكي مدام دي ليستوراد من نقص المشاعر الأمومية تجاه الطفل الذي تنتظره، وتتحدث عن رغبات عنيفة تحس بها تجاه بعض الأطعمة، إن أمر معاناة بعض النساء أكثر من غيرهن من هذه العوارض يكشف عن أسباب متعددة. إذ تعبر، في معظم الأحيان، هذه الرغبات عن الاستحواذ في استهلاك أطعمة يعتبرها التحليل النفسي والفولكلور رموزاً للإخصاب مثل (الفاكهة، الخيار، السمك، التوابل...إلخ) وهكذا تتسلط الرغبة بنوع من تكرار فعل الإخصاب، وبتأكيد رمزي يرافق الميل المعارض في التدمير الوحشي. ويظهر هذا الاخصاب الرمزي الجديد كهاجس في تحييد رغبة ميل لاشعوري لتدمير الطفل.

وبكل تأكيد، تعد الإفرازات الهضمية المعدلة، سبباً معلناً لهذه

التحريضات. وكلما كانت مستديمة، يظهر بحث أكثر إمعاناً، أن المريضة تظهر، بصورة مسبقة، ميولاً تحريضية، بالرغم من أنها منضبطة في ظروف عادية. ويمنح الحمل المرأة شعوراً بأنها حرة، فهي تسوغ أفعالاً قد تبدو عبثية في ناحية اخرى. وفي مثل هذه الحالات، هناك دوماً رابطة قوية متناقضة وجدانياً مع والد الطفل ومع الطفل، وأيضاً هناك مركب عدواني قوي يبالغ الحمل به. كل ما يحدث كما لو أن علامة جسدية، ناجمة عن أطوار إفرازية معدلة، أحيت تحريضاً كامناً. وتبقى، عند كثير من النساء، هذه الرغبات في حدود طبيعية، في ما عند أخريات يكون العنصر الهاجسي لا جدل فيه.

وتؤجل كثير من النساء هذا الصراع بين ميول الإلغاء والاحتفاظ، إلى مرحلة لاحقة من الحمل. وتتوجه نحو أعضاء اخرى للتعبير عن هذا الصراع، وبخاصة الأعضاء المهيأة لخدمة غاية ما والتي ترتبط،، بصورة مرفقة، مع المضمون النفسي للميول المعارضة. فالإمساك والإسهال وميول استبعاد تناسلي تعبر عن هذا الصراع، والتي تتجلى في بعض الشروط النفسية الجسدية بطلق ولادي طويل قبل الحدث. وإذا سيطرت الميول الاستبعادية، فقد يحدث الإجهاض.

إن أمر إظهار بعض النساء لهذه الأعراض النمطية وإظهار غيرهن لأعراض أخرى منوط بعوامل مختلفة. ففي بادئ الأمر، تلعب دورها استعدادات المرأة في إقبالها على الحمل بشغف. فالتماثلات الموجودة بين الظرف الجديد والأفكار والذكريات القديمة، والحاجة لمنح مضمون نفسي للأحاسيس الجسدية للحمل، والميل للعيش ثانية بطريقة إرجاعية لتخيلات الماضي بحكم الانطواء الذي تتصف به كل امرأة حامل، يؤدي كل ذلك إلى تشوه مرضي للظواهر البيولوجية.

بيد أن ما يبدو لي الأكثر أهمية، أن هناك دوماً لدى المرأة الحامل ميلاً حيوياً باستمرار لتحطيم انسجام حالة الحمل. حيث صادفت بصورة منتظمة هذا الميل لدى نساء سليمات ونساء عصابيات في آن واحد. إنما لا

نصادف ردة فعل مفرطة أو شاذة تجاه المؤشرات الفيزيولوجية التي ترافق الحمل بصورة طبيعية، إلا إن وجدت أسباب إضافية تحرض مبالغة التلبية الطبيعية.

وإن صح أن الميول الكامنة العدائية الاستبعادية تجاه الجنين، ترافق الحمل بصورة طبيعية، أفلا يناقض ذلك تأكيدنا السابق لفعلية الروح الأمومية؟ يتطلب هذا التناقض الظاهري التفسير.

من الواضح في بادئ الأمر، أنه من وجهة نظر بيولوجية، ليس هناك تمايز بين الأم والجنين. فالأم والطفل يشكلان وحدة عضوية مطلقة، ويدير الطور البيولوجي نفسه حاجاتهما معاً. ولا توجد هذه الوحدة فقط إزاء الأطوار الإيجابية للحياة، إنما أيضاً إزاء الأطوار المدمّرة. وضمن إطار الطور البيولوجي، تصبح اختلالات الوظائف العضوية لأحدهما، اختلالات أيضاً لوظائف الآخر، ورفاهية أحدهما، رفاهية للآخر، وموت أحدهما يشمل غالباً موت الآخر.

كما ان الاندماج، فيزيولوجياً وبيولوجياً، بين الأم والطفل، يلعب دوراً كبيراً في مجمل طور الحمل. في ما يمثل هذا الاندماج من الناحية النفسية، ظاهرة معقدة سندرسها آجلاً. وفي هذا التماثل البيولوجي، يعيش الجنين متطفلاً على الأم (يسمي فيرينزي[1] الجنين بـ «الطفيلي الملحق»)، ويصبح جسد الأم مستغلاً. وإذا وجدت قابلية نفسية غير كافية للحب والعطاء الماسوشيين، وإذا لم يتغلب الاندماج الأمومي الحنون على معنى «طفيلي» للجنين، فسيكون هذا الجنين معكراً للصفو من الناحية النفسية وأحياناً من الناحية الجسدية. ونحن نعلم (vol.I) من الجزء الأول، أن الرضى بالاندماج العاطفي الإيجابي وبالعطاء الماسوشي هو أحد صفات الأنوثة، وهو خاصية أيضاً للروح الأمومية في جميع مراحل التناسل.

---

(1) Ferenczi S.: Thalassa : a Theory of genitality. Psychoanality. Quart., vol.2,1933,vol.3, 1934.

إن قانون الأنوثة هذا، ينمو بموازاة نفسية، فإن وجدت صعوبات نفسية في تقبل الوضعية البيولوجية، فسيحل بالجنين نفسياً ما حل به بيولوجياً، أي، معتدٍ يستغل العضوية الأمومية. فهناك أفكار معاكسة تكمن على صعيد الإشباع المستقبلي للرغبات، إنها على صلة بالرغبة في امتلاك طفل. وإنها لا تستمد جذورها من موقف عاطفي إيجابي إزاء الجنين نفسه، والذي لا يتوافق إطلاقاً مع فكرة الطفل. فإن لم تكن الرغبة في امتلاك طفل قوية بصورة كافية، أو إن تصاعدت صعوبات في نفسية المرأة بخصوص تقبل الدور الذي تضطلع به فسيظهر احتجاج ذو أصل نفسي، إحدى أشكاله الميل الاستبعادي، وسيأتي متعارضاً مع الطور البيولوجي.

وإن نقص الحب، لأسباب خارجية أو داخلية، لدى المرأة الحامل، وإن لم يعوّض ذلك بشيء آخر، قد تضعف إرادتها الطيبة في العطاء لدرجة أن أحاسيسها الجسدية، التي لا تتغاضى المرأة عنها بصورة طبيعية إلا بفضل قبولها بالعطاء، قد تصبح مؤشراً للاستبعاد. أما أن يسلك الاستبعاد الطرق الفموية أو الشرجية أو التناسلية، فهذا منوط بالاستعدادات الخاصة. والرغبة الطفولية التي لازالت موجودة في المرأة، قد تطلق من جديد في المتطلبات المتنامية للجنين، وتأتي على الصعيد الأولي بصورة تكثيف للأعراض الجسدية للحمل. وقد يحصل أيضاً أن الاندماج بالجنين يتحقق تماماً، إن جاز التعبير، بحيث تتراجع المرأة نحو سلوك شبه جنيني، وتظهر خلال حملها كمخلوق سلبي بصورة غريبة، وتابع وغير قادر إطلاقاً على تقبل الحرمان.

ولعل الاحتجاج ضد العطاء البيولوجي قد يتخذ أشكالاً كثيرة. وإذا ترافق بميول عدائية قوية، فميل الاستبعاد يصبح خطراً ليس فقط على الجنين إنما أيضاً على الأم. وقد تترافق الأعراض الجسدية بإهمال عدائي لأي عناية قبل الولادة، وقد يترجم هذا الإهمال أحياناً بالموقف السلبي الطفولي للمرأة، وأحياناً بالحاجة التي تحسها في تدمير الجنين، دون الأخذ بعين الاعتبار الخسارة التي قد تتكبدها في نفسها. والصيغة التي

بموجبها يظهر موقف سلبي ما إزاء الحمل، منوطة بالاستعدادات المسبقة للمرأة، والعلاقة التي يطلقها هذا الموقف، ما لم تكن على صلة بمرض خطير نفسي أو جسدي، تأتي دوماً من الموقف المباشر من الحياة، ويحَس بها شعورياً أو لاشعورياً.

والحالة التالية ستقدم لنا مثالاً على ذلك. فخلال سنوات عديدة، لم تستطع أليس الفتاة الشابة الجميلة والموهوبة، أن تسير بخطوبتها نحو النهاية السعيدة بالزواج. فقد وضعها الخطيب الذي نفذ صبره أمام خيار دفعها لأن تطلب المعونة من الطب النفسي. وقد أوضحت أنها كانت تحب الشاب، إنما لا تتمكن من التصميم على الاقتران به، بسبب فكرة أنها لا تفهمه جيداً. كأن تخشى من أن يكون عاجزاً عن القيام بواجباته الزوجية، إلا أنها تعلم ان هذا الخوف لا أساس له، طالما أنه كان شاباً نشيطاً وناجحاً. ولم يكن لديها مصاعب عصابية أخرى وتجد نفسها سليمة تماماً. ومع ذلك، تعترف منذ البداية أن صعوبتها لم تكن واقعية إنما «خيالية». كما تقول إن طفولتها كانت سعيدة، في ما عدا الإمساك المتعند الذي عانت منه كثيراً، لدرجة أنها احتاجت أحد الأيام لتدخّل الطبيب لإفراغ أمعائها تحت التخدير. كما اعتادت أمها أن تعطيها حقناً شرجية بصبر وتفان شديدين. وكانت دوماً هذه الجلسات مؤلمة، إنما يعقبها بشكل عام شعور بالارتياح والعرفان بالجميل تجاه الأم.

وأصبح من الواضح أن هذه الفتاة الشابة قد حولت مشكلتها القديمة، المتعلقة بطرد المواد البرازية، على جهازها التناسلي. وأنها كانت ترتاب من فض غشاء البكارة، وتعتقد أن خطيبها غير قادر على تجاوز مصاعبها الجسدية وممانعتها النفسية. وتلومه بشكل واضح بعدم امتلاك العدائية الكافية لإغوائها خلال فترة خطوبتهما الطويلة.

وبعد فترة علاج قصيرة، تزوجت، وكان زواجها سعيداً لعدد من السنوات، دون الإحساس بأدنى صعوبة خلال حمولاتها وولاداتها، حيث أنجبت للعالم طفلين، وكانت في الشهر الثالث من حملها الجديد، عندما

تطوّع زوجها للخدمة العسكرية. وقد ارتضت بهذا القرار الوطني، لكنها أضمرت له الحقد بصورة لاشعورية لأنه تركها «في هذا الوضع».

أخذت ولديها وذهبت إلى والدتها لتسكن معها، وأحست مباشرة بأولى متاعبها في الحمل. حيث أحست بانقباضات رحمية ووجدت نفسها مهددة بالإجهاض. وقد وصف لها طبيبها الراحة المطلقة في السرير. وكانت ما إن تحاول النهوض، حتى تشعر بآلام مشابهة لآلام الطلق. وفي تلك الفترة، أدى وجود أمها بقربها وكلماتها الرقيقة منها ومني إلى تهدئة تشنجاتها. ثم بدأت تعاني في الوقت نفسه من إمساك شديد، وأشد ما أزعج طبيبها النسائي هو معالجة هذه الأعراض المزدوجة.

فعندما افترقت عن زوجها وعادت إلى والدتها، بدا أن المريضة وجدت السبيل لحل عدد من الصراعات، وسمح لها الحمل، أن تعبر عن مشاكلها النفسية بردود فعل عضوية معينة. لقد جعلنا المرضى العصابيون نألف تلك التحولات للصراعات النفسية القديمة والحديثة على الجسد، الأمر المألوف بصورة خاصة خلال الحمل.

لقد غذّت مريضتنا حقداً ضد زوجها الذي تركها، لأنه رحل وهي لا تريد ولداً منه، فطفل بلا أب أسقطت عليه بصورة واضحة حقدها تجاه زوجها. ومن المحتمل أن مخاوفها على زوجها، وتفاقم مسؤولياتها الخاصة قد لعبت دورها أيضاً. وكانت ردود فعلها النفسية متناقضة وجدانياً بصورة ظاهرة، حيث بدّل جهازها التناسلي وظيفته الاستقبالية الحمائية، بوظيفة عدائية في الإلغاء والطرد، في حين أن الوظيفة المعاكسة في التمسك والاحتفاظ واللوذ تركت للإمعاء والشرج. وفي هذا الانشطار، أصدرت ثانية شيئاً ما كان موجوداً سابقاً. وبارتدادها عن زوجها، جددت التعلق العاطفي القديم بأمها، ذلك التعلق الذي كان يعبر عنه هو أيضاً قديماً بالإمساك. وكانت ترغب فعلياً في الاحتفاظ بالطفل، وبذلت جهوداً نزيهة وشجاعة في هذا الاتجاه، لكن ميولها تحولت من الجهاز التناسلي نحو الإمعاء، وكلما كثفت جهودها أكثر، كلما لعب الاتجاهان المتناقضان

دورهما هنا حيث لم يكن يجب أن يحدث ذلك. ولنتذكر أن خطأً مشابهاً في تحديد المكان كان يدور في خيالها، حينما خشيت من أن يكون زوجها عاجزاً غن الاختراق بقوة جسده، كما كانت تفعل أمها بالحقن الشرجية خلال طفولتها.

وهناك مريضة أخرى كانت تعارض حملها غير المرغوب به بإسهال مستمر، وقد عبرت أيضاً عن علاقتها بالجنين بوسيلة الأعضاء الإبرازية المتاخمة، إلا أنها طريقة متعارضة مع تلك التي أتينا على رؤيتها.

لقد نوهنا في الفصل الثالث، أن تخيلات الطفولة تماثل، بشكل عام، بين مضمون النسيج الهضمي وبين الطفل، ويبدو أن لاشعور المرأة الحامل يعود ليرسخ هذا التماثل، أكثر طواعية، بتوحيد الجنين، والذي هو مجهول باعتباره أداة، بالطفل الذي تود أن تحبه مستقبلاً. كما تعيد الأطوار الفيزيولوجية إحياء هذا الاندماج القديم، وينتج عنه اتحاد نفسي جسدي بين الطفل وبين رواسب الغائط، هذا الاتحاد الذي يعبر عنه أحياناً بصورة عضوية. وما دامت الآليات الفيزيولوجية المنظمة للحمل بتوازن مؤكد، فلن يظهر أي خلل عضوي. إنه فقط مبالغة في التحديد، اي بجمع العوامل النفسية للحمل، والذي يخلق اضطرابات عضوية وأحياناً نمطية للحمل. ويذكرنا هذا بموقف الطفولة، وهنا قد تستخدم المضامين النفسية لغة الأعضاء.

لقد رأينا أيضاً أن المؤشرات الفيزيولوجية، التي تدل على إجهاد المكتنز الجسدي للأم من قبل الجنين، والتي هي أسباب مفجرة لبعض ردود الفعل الجسدية مسبقة التشكيل، تترافق أحياناً بطاقات عاطفية مختلفة موجهة ضد الجنين. وتكون أحياناً علاقة الأم العاطفية بالجنين الذي تحمله ملأى بدوافع مميتة وقاسية، والتي تمكث لاشعورية، مع أنه شعورياً يُنتظر الطفل بمحبة. وتعبر هذه الدوافع عن نفسها في أمزجة المرأة، في حالات نفسية وحتى ذهانية، وفي الأحلام...إلخ، دون الاستنجاد واللجوء إلى المظاهر الجسدية. كما لاحظت أحياناً أن نساء هستيريات، عانين في السابق من أعراض تحول، حيث لعبت تخيلات الحمل دوراً رئيسياً، بقين سالمات

بصورة مدهشة من أعراض جسدية خلال حمولاتهن الفعلية، مع أن صراعاتهن العصابية القديمة لم تُحل. وتعبر الآن هذه الصراعات عن نفسها على الصعيد النفسي بحالات من القلق النفسي، والرهاب...إلخ. فالعلاقة بالجنين الفعلي تدار بكثير من العوامل وتحدد النتيجة بردة الفعل المنسقة لكل هذه العوامل.

و تخضع الأطوار الفيزيولوجية للحمل لضبط ذاتي، ما لم يحدث فيها اضطرابات بتعديلات فيزيولوجية شديدة، سواء كانت كمية أم كيفية. و إذا ملأت العلاقة الإيجابية مع الطفل، باعتباره واقعاً مستقبلياً، الحياة العاطفية للمرأة، تفقد الأطوار الفيزيولوجية مهمتها النفسية غير الطبيعية، بحيث لا تصبح الرواسب البرازية مطلقاً الطفل، و النفور المؤدي للقياء يقتصر على انحراف المزاج، ذلك المزاج العضوي الملازم للأشهر الأولى ...إلخ. إنما لو كانت الأفكار الطفولية العدائية بالغة القوة، أو كان انتظار المستقبل مشوشاً بعلاقة سلبية بين المرأة وأمومتها، فسيفقد الطور الفيزيولوجي مقياسه الصحيح .

و من ناحية الحمل السليم، لا يكون دوماً برهاناً على الروح الأمومية. و السير الملائم للحمل أو للأمومة اللاحقة قد يتمسك أيضاً بقيم إيجابية جداً، لها صلة بدوافع ثانوية كالرغبة في تمتين زواج هش، أو الزهو والفخر بهذه المهمة، أو التحرر من إلزامات مضجرة أخرى ... إلخ. أو بطريقة متناقضة، قد يكون الحمل مرفوضاً بالكامل بحيث إن حتى عناصره السلبية و أوزاره الفيزيولوجية لا يتم الإحساس بها. و نلاحظ أحياناً لدى الكثير من الفتيات الشابات الأمهات، حمولات «متألقة» أدت، بطيب خاطر، إلى نفي ما. وفي حالات أخرى، تحقق الأهمية التي تعلقها المرأة على فعاليتها الخاصة، ولا مبالاتها بالظواهر التي قد تسبب لها الاضطراب، حملاً متكاملاً، حيث يتم التباهي بالصحة كأفضلية. وهناك على الأخص حالة النساء الذكوريات العدوانيات اللواتي لا يسمحن لأنفسهن بأن يكن غافلات، بسبب الحمل، عن أنشطتهن ولا يظهرن أي

علائم. ونحن نعلم، بواسطة التحليل، أن هؤلاء النساء تعبر أحياناً رغبتهن بالحمل عن أمنيتهن بامتلاك جسدي، تلك الأمنية التي تخفي الرغبة القديمة بالقضيب.

ويُناط بالموقف الجسدي النفسي في كليته، أن يُنظر إلى الجنين كطفيلي عدائي، أو كأداة لتوثبات حنونة لاندماج الأم بالطفل، وهنا يعبر التأثير النهائي لهذه القطبية التي أسميناها تناقضاً وجدانياً عاطفياً.

لا أنوي الخوض في مجال أمراض الحمل. لقد تحدثت عن بعض الظواهر الجسدية غير الطبيعية، لأنها تشكل ايضاً جزءاً من الجرد المبتذل للطور الطبيعي، ولأنها تظهر التأثير الهام للنمو الغريزي الطفولي.

لقد درست هذه المؤثرات بصورة تفصيلية في منشور لـ (S.M. Payne Et B.Warburg)[1] وقد أعطتنا رؤية بالملاحظة للأطوار الغريزية في حالة المرأة الحامل المريضة[2] بشكل خطر.

لقد أتينا على رؤية تأثير الحياة الخيالية على الأعراض الجسدية، وعلى العكس، تأثير الأحداث البيولوجية على النفسية. وتسفر الظاهرة النمطية والخاصة للحمل عن انطواء شديد، وتوجه مكثف نحو الواقع بصورة متزامنة. وتأتي المسائل الأكثر إثارة للحمل، من هذا التعارض الظاهري. ويوفر التفاعل الداخلي المنسجم لهذين العاملين حملاً سعيداً. ويؤدي عدم انسجامهما إلى لا مبالاة متساهلة أو بؤس عاطفي عميق.

لقد نوهنا أن النساء الحوامل يبحن بشيء قليل عن تجربتهن النفسية. وهذا ليس إلا جزءاً من نتيجة النفور الذي يشعرن به في تكدير وتشويه نضارة ما قد يكون أكبر تجربة عاطفية للمرأة بتواصلها مع الآخرين أو تقليص مزاجها الحميم وتكثيفه بخضوعها لملاحظاتها النقدية الخاصة أو

---

(1) Payne S.M.: A conception of feminity. Brit. J.M. Psychol. , 1936.

(2) Warburg B. : Suicide, pergnancy and robirth. Psychoanalyt. Quart., vol. 7. 1938.

لملاحظات الغير. «فالمراة لا تخون سرها» لأنها ليست دوماً من الناحية الذهنية بصورة تجاربها النفسية الأكثر عمقاً. والمحللون النفسيون على دراية تامة بهذه الظاهرة. فالتجارب النفسية الأكثر حيوية عن الطفل، نادراً ما تبلغ إدراكها الذي لم ينضج بعد، والمعلومات التي تتلقاها من الأطفال حول مخاوفهم وتخيلاتهم، نادراً ما تتبع مسلك تواصل شعوري مدرك وصيغة مباشرة. إن فقدان الذاكرة ونسيان التجارب النفسية الأكثر حيوية للطفولة، لا تنتج بكاملها عن طرد التجارب الشعورية الواعية، فالقسط الأكبر من ردود الفعل العاطفية للطفولة تظل منفصلة عن الأفكار المدركة، لأن الإدراك الطفولي لا يكون ناضجاً لدرجة استيعاب هذه الأفكار وإعدادها. حتى أولئك الذين يلاحظون الأطفال ملاحظة مباشرة، نادراً ما يعتقدون بامتداد تجاربهم اللاشعورية، وبجنون العظمة المتخفية خلف الضعف والتبعية، وبالمخاوف الطفولية المتعددة، إلا أن ذلك لا ينهك الحدود الطبيعية. فليس إلا شيئاً فشيئاً، وبتفسير وترجمة العبارات غير المباشرة للأطفال، نقارب الحقيقة ونتعلم فهم «لغة النفس الطفولية» دون تأمل الذهن.

فالتجارب النفسية للحمل هي، من وجهة النظر هذه، مشابهة لتجارب الطفولة، إنما هنا ليس العجز الذهني مطلقاً هو من يمنع الأطوار النفسية من أن تكون محسوسة بصورة واعية، إنما شدة التوجه نحو العالم الداخلي[1].

وقد يكون من اليسير تجاوز موضوع أن الحمل يترافق بانطواء قوي

(1) نانسي هال، امرأة حساسة، وصفت بقوة كبيرة هذا الموقف للمرأة الحامل:

«عندما رأيتها، تجاوزتني نظرتها وتحولت نحو مركز آخر، وبدا لي في الوقت نفسه تحولها نحو فكرة ما في ذهنها الخاص... لقد كن يغشن في حلم حميم، وفي الجانب الاخر للحاجز. ولم أستطع أن أحزر بما يفكرن، وما المخاوف التي يشعرن بها، ولا عمن يتكلمن معاً حين يكن لوحدهن. إنما كل ذلك كان سراً داخل أنفسهن... فمشاغل الجمل هي حلم يجري نسيانه كلياً كحلم آلام الوضع».

Cf. Hale N.: The season of summer. Dans Aswel M.L., op. cit., p. 81.

بصورة خاصة. فالنساء الحوامل أنفسهن يشتكين من غياب الاهتمام الشديد والصادق الذي كنّ يحملنه من قبل تجاه ميادين خارجية، ولا ضرورة لأي حدة في الذكاء والبصيرة لتعليل ذلك تعليلاً منطقياً. فبإمكانهن الاستمرار بصورة أوتوماتيكية بمشاغلهن العادية إنما ينقصهن في ذلك المساهمة الداخلية. فشرود الطاقات النفسية التي تنسحب من العالم الخارجي تمثل الخطوة الأولى، الحاسمة إلى حد ما، لطور التوجه نحو الداخل، أي الانطواء. وبهذه الخطوة، يتعدل التوازن بين الوجود الفردي وخدمة النوع لصالح القطب الثاني. قليل هذا الشيء الذي يتحقق هنا للحفاظ على النوع، لكنه يكون البداية والتمهيد.

هذا الاهتمام بالانسحاب من العالم الخارجي، يتحول الآن نحو ذلك الجزء من أنا الأم، الذي يمثل بصورة نفسية الانقلاب البيولوجي المتجسد في الجنين. هذا التجسد يعد الأم بطفل في المستقبل القريب، إنما ليس أيضاً الطفل باعتباره أداة حب للأم. فالطفل بحد ذاته، يبقى نتاجاً خيالياً للحياة النفسية للأم، والذي لا يختلف عن الخيالات الأخرى إلا في يقين تحققه والتاريخ المحدد لهذا التحقق.

نحن هنا في إطار الفعل الثاني من خدمة النوع، حيث يتحول اهتمام المرأة نحو خيالها، الذي يعد المرحلة الأولية لتحقق وشيك، وهو أيضاً المرحلة الأولية للشعور الأمومي. فاهتمام المرأة العاطفي المتحول بطريقة استثنائية، إلى حد ما، نحو أداة ليست واقعية إلا في تاريخ لاحق والتي لا زالت غير موجودة، هو أمر يمنح الطور البيولوجي الواقعي صفة تجربة تشبه الحلم بشكل جزئي.

وطالما أن هذا الواقع المستقبلي ليس له حالياً وجود مستقل، بيولوجي أو نفسي، فالطفل من الناحية النفسية يشكل ما هو عليه الجنين بيولوجياً، أي جزء من الشخصية نفسها للأم. فالطور البيولوجي يوحد بين الأم والطفل، والجوهر الجسدي لأحد الكيانين يمر بالآخر، وبالتالي، الوحدة الكبرى تتفرع هكذا لوحدتين. وهو كذلك على الصعيد النفسي،

وبفضل هذا الدمج الوادع، يتم تصور ثمرة الجسد كجزء من الذات. وتبادر المرأة الحامل إلى تحويل «الطفيلي» الى كائن محبوب.

وبناء على هذا، يستجيب الجنين الإنساني الخالد للتماثل بين الأنا واللاأنا، وهذه الرغبة الأصلية المتجذرة بعمق في إيجاد الحالة المعروفة القديمة، والعثور على الحلم المعاش قديماً قي أحضان الأم. ويصبح هذا التماثل الذي تم السعي إليه من خلال الجماع من ناحية، وفي النشوة الدينية، في الاتحاد الأسطوري الغامض من ناحية أخرى، واقعياً في اتحاد الأم بالطفل خلال الحمل. إنما لا يتم تصور شعور هذه الوحدة إلا إذا انتفى أي تأثير مخل في الأنا. كما يتوجب على الدوافع أن تكون بحالة من الارتياح، ويكون الأنا غير خاضع للشعور بالذنب، والأنا الأعلى مشبع بقيم منسوبة للكائن الذي لم يوجد بعد. هذه الشروط لا تتحقق إلا إذا لم تثقل مشاعر الذنب على الحياة النفسية وإذا خمدت التحريضات العدائية، ولا يكون الحال هكذا دوماً. فهناك نساء تكون ثقتهن بأنفسهن خلال الحمل مهزوزة بقوة. ويرين في أمومتهن القريبة عائقاً هائلاً في وجه إمكاناتهن الخاصة للنمو. وبدلاً من الاستمتاع بالسعادة، يعانين من مشاعر المرارة، والبغضاء والحقد تجاه الرجل وتجاه الطفل الذي لم يولد بعد، والزهد الخانع تجاه حياتهن الخاصة.

إن الشعور بالإثم القابع في كل روح إنسانية، يرهق اطوار التناسل بصورة خاصة. كما تكون الأمومة والحمل محملين بمشاعر ذنب قديمة وهي تضفي شدة متنامية على الأسباب الأكثر حداثة في الشعور بالذنب. وكلما كان الإحساس بالحمل كوعد غالٍ بسعادة مستقبلية، كلما زاد شعور الأم بأنها مهددة بضراوة من ثأر القدر.

ولدى كل امرأة، ناضجة ومتزنة إلى حد معين، تكون الأمومة الوشيكة، إشباعاً لرغبة قديمة، لتحقيق وعد قديم أناطه بها القدر وأولياء تربيتها حينما اعترفت وتقبلت طبيعتها الأنثوية.

وعند تسليم هذا الوعد في ما بعد، تشعر به الفتاة الشابة كإحباط وكرفض. وكانت لنا فرصة في مراقبة ثمة ردود فعل من الخيبة، وبشكل خاص خلال مرحلة البلوغ. فقد مكثت أحياناً في اللاشعور خلف هذه الفكرة: «لا أستطيع امتلاك طفل»، وتؤدي هكذا إلى الحد من هذا الخوف النمطي من الحمل الذي ينبثق عن عدد من المصادر. فالشعور الآن بأن الوعد واقعي جداً، ويظل مع ذلك غير مستجاب، ينتج عن تجربة بائسة سابقة حصلت في غير أوانها.

ويلعب هذا الحراك دوراً هاماً في عقم النمط الأول الذي وصفناه آنفاً. والتمني بحد ذاته الذي تعبر عنه الفتاة بامتلاك طفل، مستثنى من مشاعر الذنب، فقد منع عنها ذلك بتاتاً ولا يهددها بالعقاب بخصوص هذا الأمر. فمشاعر الذنب لا تثقل إلا، بصورة هامشية، هذا التمني. وأحد مصادرها هو ممارسة الاستمناء، ولنتذكر أن التعبير الأكثر مباشرة عن الشعور بالذنب يرتبط بالصدمة التناسلية وينجم عن الخشية التي تمتلكها الفتاة في أن تدمر أعضاءها التناسلية. وفي ما بعد، حينما ينتقل اهتمام الفتاة الصغيرة نحو خارج جسدها، تتحول ردة الفعل المذنب من «ليس لي أعضاء تناسلية» إلى تهديد بـ «سيكون لي أطفال»، ويصبح كعامل ثانٍ وفعال في تحديد مخاوف الحمل.

إن مشاعر الذنب المرتبطة بممارسة الاستمناء، قد تكبت وظائف التناسل منذ البداية وتجعل الحمل عسيراً. والنساء اللواتي يحسسن هذا الشعور، يضبطن، خلال الحمل، جميع أحاسيسهن الجسدية بحدة خاصة، ويتصورنها كتهديدات بالفشل، وبالكاد يشعرن ببهجة الطفل القادم، لأنهن يشككن بتحقيق أمنيتهن. وتميل مثل أولئك النساء إلى الإجهاض، وعليهن أحياناً تقوية إيمانهن المتزعزع بالطفل، بفرض تضحيات على أنفسهن والتخلي عن المباهج والأنشطة الأخرى. وتسوّغ هذه التضحيات وتُرى على أنها احتياطات تراعي شأن الحمل.

ومن المهم والمثير، وهو أمر مفهوم، رؤية أن الولادة الطبيعية

والإتمام الواقعي والفعلي للأمومة، لا تؤدي كلها دوماً لتغيير في هذا الموقف الطفولي.وبما أن الولادات الواقعية لا تؤثر على المصدر اللاشعوري لشكوكهن ولا يتمكن من تدميرها، فعلى هؤلاء أن النساء أن يبرهن لأنفسهن بحمولات متكررة، أن جسدهن قادر على صنع الأطفال. وتعد هؤلاء النساء المتأثرات بمشاعر الذنب، من بين العديد اللواتي يكون لحمولاتهن غايات أخرى غير الحاجة للأمومة.

وهناك مصدر أكثر عمقاً وقدرة للشعور بالذنب، يكمن في العلاقة الكائنة بين المرأة الحامل وأمها. بل ويمكننا أن نقول إن هذه العلاقة، هي في مركز المسائل النفسية للحمل ولوظيفة التناسل كلها. ولدى كثير من النساء، تتحكم درجة تبعيتهن أو استقلاليتهن النفسية عن الأم بمصير أمومتهن. وإذا ما أظهرت المرأة الحامل طفولية نفسية كبيرة، وإذا كانت مخلصة إخلاصاً سلبياً لأمها، ولم يكن لديها أي ميل إيجابي ونشيط للتحرر منه، فهي لا تظهر ردود فعل بالذنب، ويتصف سياق حملها بنقص نمطي للجدية وعزة النفس وتأخذ كل الأمر كـ «أضحوكة». وهي تطلع أمها بكل ما ينبهها ويثيرها، كما تقوم بكل التحضيرات الضرورية تحت إشرافها، وبصورة عامة، تنقاد بطريقة تذكر بالفتاة الصغيرة التي تلعب مع الدمى.

كما لنفسية الجدة المستقبلية دور هام في سلوك ابنتها. فحمل هذه الأخيرة، يمنح أحياناً فرصة لأمها في تحقيق أمانيها الخاصة المخبطة، وهكذا تعيش الأم والبنت حلماً مشتركاً. ولنذكر هنا بالفتاة الشابة التي وصفتها بـ «الأم المساعدة» (ص 87)، ومنذ مرحلة بلوغها، كانت تبني مع أمها ثمة خيالات للأمومة. وهناك امرأة أرملة أو مطلقة، أو التي ليس لها أي مهمة أخرى في الحياة، تحاول، بصورة خاصة، أن تكرس نفسها بالكامل لوضعية ابنتها، وتبالغ في رعايتها وكأنها «طفل مسكين»، وتعيش مجدداً جميع مسؤوليات ومباهج الحمل بإدماج نفسها مع ابنتها.

ومن الجدير بالأهمية، ملاحظة أن حمل هؤلاء النساء الطفوليات هو حمل طبيعي وسهل وبعيد، عن أي أعراض. ومثل هذه المرأة، ليست فقط

متحررة من هموم الطفل القادم، بل من جميع القضايا العملية اليومية، وبالنسبة لها، تعد قوى القدر الغامضة ومخاوف الموت غريبة عنها أيضاً، إذ بجوارها أمها أو حُماة آخرون قادرون جداً. وإن كانت من النوع الورع، فإن الرب، بكونه يمثل الآب، سيسهر على كل ما يدرأ عنها الأخطار والآلام التي تشتكي منها نساء أخريات. وإن كانت من النوع الملحد، فهي تنبىء ذكراها القديمة عن الله ببرها الجديد، والرب الجديد له كل ملامح الآب القادر على كل شيء، وتودعه قدرها ومصيرها، أو توكل هذه الوظيفة لطبيبها، من خلال أمها أحياناً، وهو الذي يحل كل شيء ويصلح بهذا الوضعية العائلية الأبوية. ونصادف أحياناً كثيرة من خلال مهنتنا مثل هذه الأنماط حينما يعقب فشل القوى الحامية ردة فعل عصابية.

واستناداً لطباعها، فقد تهمل هذه الأم الطفولية أحياناً، العناية بنفسها وبطفلها قبل الولادة، ما لم يساعدها أحد ما في ذلك، وتميل بقوة لأن تهتم بحملها بنفس الطريقة الفوضوية التي كانت تهتم بها بغرفتها في بيت أهلها. ومع ذلك، فبعض النساء من هذا النمط هم أكثر وعياً، فهنّ ينجزن، كالأطفال العقلاء، وظيفتهن الأمومية منذ الحمل بدقة كبيرة، ويتبعن بطواعية كل القواعد، إنما، من الناحية العاطفية، هنّ أقل جدية من الأخريات. ويعبر مظهرهن الخارجي أحياناً عن حالتهن النفسية، فهن لا يغيرن طريقتهن في ارتداء الثياب، كثيابهن القصيرة، التي تكشف عن رُكَبهنّ، ويشبهن أحياناً الفتيات الصغيرات اللواتي يحشين فساتينهن لتلعبن لعبة المرأة الحامل. كما ينقصهن رزانة الأمهات. ويخترن الرجال الذين يكونون غالباً رفاقهن في اللعب، أو آباء متساهلون يلهون بدور أمومي جديد لفتاة صغيرة. وليس بالضرورة أن تكون امرأة من هذا النمط شابة جداً، فقد تستمر الطفولية النفسية سنوات وسنوات بعد المراهقة.

ولدى هؤلاء النساء، يتعقد أحياناً التطور اللاحق للأمومة، كما يتكشف صراع بين الأنا النرجسي والعلاقة بالطفل، ويحدث هذا عموماً بعد الولادة. وفي مثل هذه الحالات، يقوم الحمل أحياناً بمهمة المدافع عن

أخطار الحياة، بما فيها تلك الأخطار التي قد تمثلها الأمومة الفعلية الواقعية، بما تحمله من واجبات قاسية، بالنسبة للأنا الضعيف والفتي جداً.

إن التبعية للأم ليست دوماً غير مصحوبة بصدامات. فالاحتجاج الداخلي المترافق عموماً بنوع من التبعية يحدث أحياناً خلال الحمل. «الأم الآن، هي أنا وليست أنت»، وفي هذا ما يدل على موقف المرأة الحامل، ويبين هذا الادعاء بالاستقلالية وجود ميل معاكس. ولا يتوجب على الأم أن تكون على علم بالحمل، بل يجب أن تكون الأقل دراية بهذا الأمر. ولا تدوم هذه التصريحات بالاستقلالية إلا حتى تظهر أولى حالات الضعف أو الخوف أو الإغماء، حينئذ يبدأ الصراع بين التبعية والعصيان. وكلما كانت الأم المقبلة عاجزة أكثر عن القيام بمسؤوليات جديدة بسبب، تحديداً، تبعيتها تجاه أمها، كلما كان عصيانها أشد وأكثر. ويفترض بالطفل أن يلعب دور المنقذ لهذه المسألة، إنما بدلاً من ذلك، لا يقود إلا إلى زيادة الخطر. يقول عندئذ اللاشعور «ليرحل إذن». وقد لاحظت هكذا عدة حالات إجهاض، كان سببها تفاقم حدة الصراع مع الأم. وفي كلتا الحالتين، رأيت المرأة تبتهج بالظفر بصورة واعية عندما يموت الصغير بعد الولادة مباشرة. وفي كلتا الحالتين، كان أطفال الولادات الأولى، مرغوباً بهم بشدة، وكانت الأمهات الشابات مشدودات ومذعورات لردة فعلهن غير المتوقعة على الحدث. وفي أولى هاتين الحالتين، كان عزم المرأة الشابة، ما إن تقوم من نفاسها، أن تلتحق بزوجها العسكري آنئذ، في حامية المدينة، وأن تترك الطفل لأمها، ولم يكن هذا إلا أسفاً لتصرفها هكذا، وفضّل لا شعورها أن يموت الطفل. وكذلك في الحالة الثانية، فاقم الموقف الصراع الكامن مع الأم، وهنا أيضاً أجبرت الحرب الأم أن ترتد المرأة مع مولودها الجديد لتعيش مع أمها. وكان الطفل قد زاد خطر تبعية المرأة الشابة، ففضلت بصورة لا شعورية موته على تبعيتها. وعلينا أن نذكر أن أولى هاتين المرأتين كانت قد عانت خلال مراهقتها من حالة رفض التغذية، في ما عانت الثانية من رهاب الخلاء، فالتبعية المفرطة للأم تلعب

دوراً كبيراً في هذين النوعين من العصاب. والباعث النفسي الذي يدفع هاتان المرأتان على الاستجابة بصورة مخالفة للطبيعة لدى فقد المولود الجديد، يدفع نساء أخريات إلى التخلي بصورة مسبقة أكثر عن الطفل بواسطة الإجهاض.

أكثر صعوبة وتعقيداً أيضاً، هي تلك الحمولات التي يفوق ويتخطى فيها الشعور بالذنب اللاشعوري تجاه الأم، المخاوف والتوجسات الطبيعية. فالمشاعر بالذنب اللاواعية لكل امرأة، تعيدها إلى تلك المرحلة من الطفولة التي شكل فيها حمل أمها، سواء الواقعي أم الخيالي، عبئاً ثقيلاً على الحياة العاطفية للفتاة الصغيرة. وقدوم أخ صغير جديد أو أخت صغيرة جديدة زاد بصورة طبيعية الاهتمام الذي تحمله نحو مسألة الولادة وأثار خيالها بهذا الاتجاه. إنما حتى بدون هذه التجربة الواقعية، يتغذى خيالها بالتوجسات والتقصيات، والظنون. وتتصف جميع ردود الفعل هذه، والتخيلات المرافقة لها بعدوانية لها شأنها. فإذا رغبت، في خيالاتها، بطفلٍ من أجل نفسها، فإنها تكره أمها خصمها السعيد، وإذا ارتبطت بأمها وطالبت بمحبتها، فتحمل على اهتمام أمها بالطفل الجديد محملاً سيئاً جداً، وترغب، بعنف عاطفي طفولي، أن تراهما ميتين كليهما. وتُصدر هذه الرغبة ردود فعل بالذنب.

فالحاجة للتدمير هي بصورة خاصة حاجة عدوانية تجاه الأم الحامل، بطريقة واقعية في ما إذا كان حملها واقعياً، وبالخيال إذا لم يقم حملها إلا على توقعات وظنون.

وقد يشوش الحمل، باعتباره الإنجاز الأكثر عمقاً رغبات المرأة، الإتزان النفسي، جالباً علانيةً صراعات قديمة، كامنة إلى الآن في الظل نسبياً. وبقدر ما تأخذ الأطوار النفسية الناظمة بعين الاعتبار الميول الفردية للوقاية الذاتية بقدر ما يُصان السلام. لكنها لا تكفي مطلقاً أمام المهمات العاطفية للوظيفة التناسلية. وفي ما قبل، كانت تتمكن مشاعر الذنب القديمة تجاه الأم وميول المعاقبة الذاتية، أن تجد لها مخرجاً ضمن حدود ماسوشية

عصابية على نحو ما. وقد يترافق انتظار الطفل بأكثر عواطف السعادة حيوية، وفي الوقت نفسه، قد تتنامى بلا حدود، الفكرة الماسوشية عن الألم المنتظر بصورة واقعية والخطر على الحياة، تحت صدمة مشاعر الذنب. ولدى النساء المعرّضات لهذا الطور، تتخذ الفكرة المتفائلة «سيكون لي طفل» طابع تجربة منتشية، حالما تجد نفسها معارضة للنفي المتشائم «لن يكون لي طفلٌ، وليس لي الحق في امتلاكه، سأفقده، وسأدفع حياته ثمناً لحياتي». ويمكن لهذا الانشطار أن يتوارى ويختفي عندما تتكيف المرأة الحامل مع واقع أمومتها. وبشكل آخر، يستمر الصراع في إثارة التهيّج، وتتخلى المرأة عن الطفل عندما تجهض أو تكون عقيمة، بميكانيكية الدفاع ضد الأخطار المستقبلية. وفي الحالات الخطرة، تودي به الميول المدمّرة، فكل ما رغبت المرأة بالطفل أكثر، كلما فقدته بسهولة أكثر، وتدفع واقعياً ولادته ثمناً لحياتها الخاصة. وصوت أمها المهدد ليس دوماً بالوضوح نفسه، ويمكن معرفته كما حدث ذلك في اللعنة التي تفوهت بها أم السيدة اندروز تجاه ابنتها: «ستموتين عندما تنجبين مولودك الأول». وعموماً هذا الصوت هو عنصر نفسي مستتر جداً، وغامض جداً، ولا شعوري جداً. وأحياناً يزداد الشعور القديم بالذنب بعبء جديد يضفي عليه، إن صح القول، حدّة خاصة، إذ لاحظت عدة حالات جُعلت الأمومة فيها عسيرة بسبب موضوع أن امرأة أخرى، هجرها الرجل الحبيب الذي كان يرفق، كطيف سعادته بتلك التي اختارها. وتتحد الأطياف الحديثة والقديمة بلعنة أمومية ضد أمومة المرأة الشابة.

وما يحدث للاندماج مع الأم هو عامل آخر يتعلق به سياق الحمل. فالقابلية للأمومة مرتبطة دوماً بهذا الاندماج. وعلى أنا المرأة الحامل أن يجد تسوية سعيدة ما بين الاندماج العميق اللاشعوري مع الطفل، والمتوجه نحو المستقبل، والاندماج مع الأم، المتطلع نحو الماضي. وكلما استبعد أحد هذين الاندماجين تظهر صعوبات. وفي الحالة الأولى يصبح الجنين متطفلاً معادياً، وفي الحالة الثانية، تضعف قابلية المرأة للأمومة بإرادتها السيئة في تقبل اندماجها وتماثلها مع أمها.

والحالة التالية، سوف توضح هذه المسألة. فقد كانت المريضة التي سنسميها السيدة سميث، الولد الأصغر لعائلة كبيرة العدد، تضم صبياً وعدداً من البنات. وقد أحبط الصبي الآمال الطموحة للوالدين اللذين رغبا بإنجاب ولد آخر، وبدلاً من هذا الولد الآخر، أتت مريضتنا إلى العالم. ولم تخف أمها الخيبة التي أحستها بقدومها، وكان موقفها تجاه الفتاة الصغيرة يعني بوضوح: «حبذا لو لم تكوني قد وُلدتِ» وقد هربت المريضة من الطابع الصادم لهذا الموقف بفضل تعويضين، المحبة الأليفة لأبيها، والعاطفة الأمومية لإحدى أخواتها التي كانت تكبرها باثنتي عشرة سنة. وقد أحدثت محبة والدها فيها الرغبة للحلول محل أخيها وقد وجّهت اهتماماتها وطموحاتها بنجاح نحو هذه الغاية، كما هربت من مخاطر عقدة الرجولة لأن المحبة التي كانت تكنّها لوالدها أطلقت وشجعت أنوثتها. وكان يدخل الميلان أحياناً في صراعٍ، إنما لم يؤدِ ذلك لحالة عصاب.

وبعد زواجها، وحين أدركت الرغبة الجامحة في إنجاب طفل، أبصرت صعوبات طفولتها النور وعادت للظهور. فقد أبدت تأثراً وهي فتاة صغيرة لموضوع أن أمها رفضتها وعاملتها ببغض وازدراء شعوري. وكانت فكرة الاندماج مع أمها العدوانية تملؤها فزعاً واعياً إلى حدٍ ما. وكانت قد استطاعت الإبقاء على أنوثتها حتى حملها، حيث رفضت رؤية مسألتها الأمومية، واختلف الأمر عليها عندما دنت من أن تصبح هي نفسها أماً.

واندماجها مع أختها البكر، والذي ناب عن الأم خلال مرحلة الطفولة، كان مشوشاً أيضاً. فكانت السيدة سميث قد أدركت خلال مرحلة بلوغها الناشئ أن أختها، مثلها، واقعة في صراع حاقد مع أمها، وربما شعرت، بصورة لاشعورية، أن لهذه الأخت كثير من الأطفال، ليس لأنها كانت أمومية حقاً، إنما لأنها كانت خاضعة جنسياً لزوجها. فمع من تندمج إذاً لكي تصبح أماً؟ والشعور المأساوي بأنها لن تتوصل أبداً إلى الأمومة تنامى إلى أن وضعت طفلاً ميتاً قبل شهرٍ من موعد الولادة.

وحالما أصبحت حاملاً من جديد، امتزج عندئذ فرحها بمخاوف

خسارة الطفل كما حصل في الحمل الأول. وقد دخلت في تلك الفترة في علاقة وثيقة مع صديقة قديمة كانت حاملاً هي أيضاً، وتنتظر وليدها الأول بفرح وسكينة. وبفضل هذه الصداقة، أحست السيدة سميث نفسها في حالة من الفرج والارتياح، وكانت تضحك صديقتها أحياناً وهي تقول لها: «أنت أسعد إنسان على الأرض، وسوف تنجبين طفلاً»، وكانت تعبر في هذا عن شكوكها في إتمام رغباتها الخاصة. إلا أن اندماجها الكلي بصديقتها، بدأ يجدد ويحيي فيها الأمل. ولم يحصل إلا آجلاً، وخلال التحليل، أن أدركت أن التوفيق في اندماجها مع صديقتها لا يعود إلى الانسجام الداخلي مع هذه المرأة إنما لسبب آخر تماماً، حيث كان لصديقتها أمٌّ على نقيض أمها تماماً. ففي حين أن أمها كانت طويلة القامة، مسيطرة، باردة، وعدوانية، كانت أم صديقتها قصيرة جداً وتفيض بالحرارة الأمومية. وقد بسطت أجنحتها الأمومية، لتكتنف في آن واحد ابنتها السعيدة والسيدة سميث، التي تمكنت هكذا من بلوغ الأمومة، باشتراكها بهذا الانسجام المبارك بين الأم والبنت.

لكن خطراً كان يتهددها، فقد حملت صديقتها قبلها بشهر كامل، وخلال شهر حملها الأخير كان عليها أن تختلي بنفسها. وسبب لها ذلك ذعراً كبيراً، لأنها في المرة السابقة، وضعت قبل الموعد المحدد بشهر. ولما اقترب تاريخ ولادة صديقتها، بدأت تخاف أكثر فأكثر. إنما الذي فاجأ الجميع، أن الصديقة لم تلد في الموعد المتوقع، فقد رفضت أن تسرّع ولادتها بطريقة طبية، ولم تلد الصبي إلا بعد شهر كامل من التاريخ المنتظر. وبعد بضع ساعات، دخلت السيدة سميث بالطلق، ورأيت أمنيتها مستجابة، وبصورة مستحيلة، وُلد الطفلين في نفس اليوم. وقيل عنهما بعد ذلك، بأنهما توأمان من أبوين مختلفين.

وبما أن هذه الأحداث أثارتني بصورة خاصة بصدقيتها، وشككت في أن تكون صديقة السيدة سميث قد أخطأت في حساب تاريخ حملها، أجريت تقصياً، حول هذا الموضوع وتوصّلت إلى يقين تام بأن هذا الطفل

وُلد واقعياً بتأخير شهر، وقد أكد الأطباء ذلك، وأقروا أن نمو الطفل خلال مكوثه الإضافي في الرحم تجاوز النمو الطبيعي لطفل خلال شهر خارج الرحم. وكانت صديقة السيدة سميث قد استخدمت ظاهرياً جميع إمكاناتها في «الاحتجاز» لمساعدتها في انتظار موعدها. وبالنسبة لي، كان العامل الحاسم في هذه الحالة، القوة النفسية لاندماج محب ومتواقت.

وقد تضمنت المهمة الأمومية للسيدة سميث خاتمة. فقد حلّ تفاهم تام بين الصديقتين، إنما هذه المرة بصورة واعية، حيث في حملهنّ التالي، أصبحتا حاملتين في نفس الشهر. ولم يكن هذه المرّة لدى السيدة سميث أي خوف أو شك. إنما ما حصل، أنه في مجرى الشهر الثالث من حملها، أعلمتها صديقتها أن عرضاً قُدّم إلى زوجها في مدينة أخرى وأنّهم سوف ينقلون إقامتهم جميعاً بلا أي شك. فذعرت السيدة سميث وسألت صديقتها عما سوف يحل بحملها. فأجابتها صديقتها ضاحكة أن عليها هذه المرة أن تكافح وحيدة. وفي ذات اليوم، أظهرت السيدة سميث أولى علائم الإجهاض، ولم يتمكن الطبيب الذي تم استدعاؤه من إيقافها. وقد بين التشخيص السريري تهيجية عالية مفرطة للرحم. ولم تتوصل هذه المرأة لإنجاب طفل ثان. وكانت أمومية جداً، وتمتعت بشدة بهذا الشعور في علاقتها مع ابنها الوحيد، مع أن ذلك لم يحصل بلا قلق. وعلاج التحليل النفسي لم يخفِ هذه المصاعب. فقد عالجت نفسها بطريقة ساخرة بـ «بديل» لم يؤد بها إلى الحمل إلا بالاتكاء على امرأة أخرى. وخارج ذلك الإطار، هي لم تكن عصابية بل تستطيع حل جميع المشاكل الأخرى في حياتها. أما المهمة الثقيلة للحمل، فكانت الوحيدة التي لم تستطع تسويتها، ولأسباب تدركها هي في ذاتها. وبعد أن هجرتها صديقتها، لم تتمكن من الإفلات من طيف أمها، التي رفضتها في وقت من الأوقات. ونحن في صدد دراسة الأطوار النفسية للسيدة سميث، لا يسعنا أن نطرح الافتراضات حول أطوار صديقتها. وليس في وسعنا البت بأي تعديلات فيزيولوجية صدرت عن هاتين المرأتين لكي تخضعا بصورة عميقة جداً لتأثير العوامل النفسية.

ولقاء نصيحة الأطباء النسائيين المعالجين، طلب مني برجاء أن أهتم

بحالات الإجهاض المتكرر. واكتشفت بعد عدة جلسات أن الإجهاض الأول، مهما كان سببه، يلعب دوراً صادماً لا علاج له. والرغبة الشديدة في انجاب طفل تزداد حدة بفقدانه، وتطرح التجربة المغضبة أو تفاقم هذا التساؤل المقلق: «هل سيكون لي طفل؟» ويصدر عن ذلك دوار بتكرار التجربة الصادمة. وتتنامى بعد كل إجهاض الرغبة في حمل جديد (كما تتنامى شيئاً فشيئاً الحاجة لسم زعاف) وبهذه الرغبة، يتم الميل للإجهاض. وفي إحدى هذه الحالات، تخلت المرأة عن أي أمل، وحينما أصبحت حاملاً من جديد، لم تتخذ، ضد الإجهاض، أياً من الاحتياطات التي كانت قد اتخذتها سابقاً، حينئذ فقط، أنجبت طفلاً طبيعياً.

إن التعديلات التي تحصل خلال الحمل هي تعديلات تصاعدية، ولا تتحقق المرأة الحامل إلا رويداً رويداً بأن عالمها الشخصي الواقعي سوف يغتني ويتغير قريباً، وأن هذا التغيير سوف يكون لها وحدها والذي بدأ يتحقق مع الحمل. وسيبلغ هذا الأمر أوجه، عندما سيترسخ التمايز بين الأم والطفل. ويبدو من المفارقة ألا نستطيع أن نحدد معنىً واقعياً لموقف واقعي وحاضر إلا بربطه بالمستقبل. ومع ذلك، فكرة المستقبل هذه تضع مختلف ردود الفعل الحاضرة في حراك مستمر، وبعضها له طابع الانتظار، في ما يهدف البعض الآخر إلى الإعداد بصورة نشيطة وإيجابية لعالم محيط من أجل المستقبل وفي العمل على تحسينه...إلخ. هذا الموقف المزدوج إزاء المستقبل يشكل مركباً هاماً لكل أطوار الحمل النفسية. كما يقدم المركب السلبي مخرجاً لجميع خيالات المستقبل.

أما الميل للتخيل، باعتباره مناقضاً للتوجه نحو الواقع، يسم بصورة طبيعية النساء اللواتي عشن في السابق بصورة مكثفة، وعلى الأخص، أولئك غير الراضيات عن الواقع. وحتى لو كن أموميات، وعلى الطفل باعتباره أداة واقعية، أن يمنحهن آجلاً إرضاءات جمة ويعوضهن عن الكثير من الحرمان، فإنهن يتمتعن بحملهن داخل ذاتهن، أكثر من متعهن المنسوبة للطفل. فهو بالنسبة لهن نوع من الملاذ يسمح لهن فيه بمعايشة رغباتهن

الشعورية واللاشعورية، إنه إذاً بالتوجه نحو الذات دون مشاعر الذنب الاجتماعية. إنهن يدّعين الحق في التملص من المسؤوليات الحاضرة بحجة المستقبل الذي تحملنه في ذاتهن. وفي مثل هذه الحالات، تمثل الولادة العودة إلى الواقع الذي تتفاعل معه هؤلاء النساء بصورة نمطية.

وتتركز خيالات الأم الناضجة النشيطة، بصورة طبيعية، على الطفل الآتي. وبقدر ما هي حذرة باتجاه الواقع، بقدر ما تحس أنها تحمل في أحشائها بطلاً، ويشكل مضمون خيالها ذلك الطفل «الأسطورة» في ولادتها. لا يمثل فقط رجولتها الخاصة (وإن كانت الأكثر أنوثة بين النساء)، إنما يمثل أيضاً كل القيمة المفرطة التي علقتها في السابق على والدها، ويملك كل الفضائل التي لم تتوفر فيه. هناك فكرة تتردد في ذهن السيد الكهل، في أن يكون فتىً في عيني زوجته، لكن هذا نادراً ما يحصل. وينبغي على الموت أو أي نوع آخر من الافتراق، أن يبعث شخصية الزوج، ليتمكن من أن يكون، في خيال زوجته، القدوة المدعو ابنها لتحقيقها. وحينما تكون المرأة عاشقة، بصورة واقعية، تملأ الناحية العشقية حياتها، لدرجة أن رغبتها في طفل لا تكون حاجة واقعية.وليس إلا حينما يعقب الحب النشوة في «كونها عاشقة»، تبدأ المرأة الأمومية في رغبة إنجاب طفل من الرجل الذي أحبته. إنما، في تلك الفترة، يتبدد إعلاؤها لشأن العشقية، والاحتياج المثالي الذي أصبح عدم إرضائه مؤلماً يتحول نحو الطفل القادم. ويكمن نموذج هذا الاحتياج في الماضي، وترغب معظم النساء أن يكون الطفل الأول ذكراً، وبصورة مستقلة عن العلاقة الكمية لمركباتهن النفسية الرجولية والأنثوية. ويصبح هذا الابن، بالنسبة لأمه، تجسيد الأنا الأعلى الذي تصورته سابقاً وفي جميع الكماليات التي عرفتها قديماً في والدها. ولدى العديد من القبائل البدائية، ساد اعتقاد أن الجد يعود إلى الحياة في الحفيد. وقد حلل ت. ريك هذا الاعتقاد[1].

(1) Reik T. : Probleme der Religions psychologie : die Couvade. Vienne : Internat. Choanalyt. Bibliot., vol. 5.

تعد الفتاة وبخاصة المولود الأول مغمورة إلى حد كبير جداً بهذا الاحتياج لأنا مثالي. فقد لاحظنا أن النساء الحوامل، كثيراً ما يحلمن بطفل صغير وهو في حالة السباحة. هكذا صمم الحمل في الحلم برمزية نمطية. وقد يتحدد الطفل دوماً بكونه الحالمة نفسها، مجسداً جميع الصفات التي تكوّن قيمته الخاصة والتي تكونت خاصة في مرحلة الطفولة، إنه نوع من إثبات ورسم للصورة المثالية التي يعلّق عليها الطفل المنتظر. وعندما جرى تحليل السمات الرئيسية لطفل الأحلام، نسمع غالباً هذا القول: «آه، كان يحب والدي، بصورة خاصة، هذه الصفة بي».

ومقابل وهم أن الطفل المنتظر سيكون مفعماً بجميع الفضائل وجميع المواهب تأتي الفكرة المؤلمة بأنه سيكون أحمقاً أو مشوهاً أو معاقاً. وتكون هذه الفكرة أحياناً استحواذية ومعاندة، وتبحث المرأة عن حجج في الموسوعات والكتب الطبية، وتصبح آمالها مزعزعة، بصورة عميقة، جراء هذه المخاوف.

ومن الصعب التكهن، أي دافع يلعب باستمرار الدور الأكبر في كل هذه المخاوف، هل هي مشاعر الذنب، أم التشوش الماسوشي لفرح الانتظار، أم تأثيرات الرغبات القديمة في زنى المحارم. ويبين التحليل النفسي جميع هذه المحدِّدات. إن المخاوف هي دوماً شعورية ويمكن أن يُباح بها بسهولة للآخرين. وعلى العكس، يُحتفظ بالآمال المفرطة في الغرابة بصورة مكتومة، وليس إلا في الذهانات النفاسية حيث تسمع أقوال مثل «المنقذ الذي هو بي».

وإذا كانت العلاقات طيبة بين والدَيْ الطفل القادم، فالركائز النفسية لمثلث الأبوين والطفل (راجع الكتاب الأول «الطفولة والمراهقة») تترسخ خلال فترة الحمل. وتتعلق خصائل هذا المثلث بمستوى نضج الأبوين. إنها صيغة ساذجة لحلم مشترك في ما إذا كان الأبوان شابين، وفي ما إذا كانت علاقتهما علاقة رفيقين، وبخاصة إذا كانا مكبوتين تجاه الواقع، أو إذا كان الزوج راضٍ، كرفيق طيب، بمشاركة زوجته بالتخيلات الوهمية.

ويتحدث مثل هؤلاء الأهل عن الطفل كما لو أنه موجود، وهو يعين لهم الوظائف المختلفة، ويستبقون الحديث عن نموه...إلخ، كما يتخذ جنسه واسمه أهمية كبيرة. وعلى العموم، لا يدرك الأبوان أنهما يعبران عن هذه المشاريع بمشاعر لاشعورية ويحققان تخيلات دون دراية بها، ويكشف كل منهما عن أهمية جنس الطفل بالنسبة له. وقد يتم اختيار هذا الجنس بطريقة نرجسية مثل «هو الذي لم يتسنّ لي أن أكونه» أو لقاء حب الشريك «كائن يشبهك» وقد يرغب الطفل كأداة تتطلب الرعاية، والذي يُهيمن عليه، أو كأحد ينتظر منه أن يحقق المثاليات غير المحققة. ويعبر الإسم بشكل خاص عن مختلف الميول الساكنة منذ أمد بعيد، لكنها ظاهرياً حية دوماً. فالشخصيات محط الإعجاب في التاريخ، والأدب، والرياضة أو في عالم المسرح والتي اندمج وتوحد فيها الأبوان أيام مراهقتهما، تعود الآن إلى السطح. كما تستعاد ذكرى أفراد من العائلة، يكون تقبل أسمائهم تعبير عن محبة، أو رفض شديد كتعبير عن عدائية كامنة. وفي حالة المرأة الشابة التي كانت تعيش بصورة ظاهرية بانسجام كبير مع زوجها، يفجر اقتراح إعطاء الطفل اسمها أول صراع جدي مع الزوج، إذا كانت فتاة. وبإخفاء عدائيتها، توحي المرأة الشابة بهذا الاسم، ويكون رضى زوجها الفرح، يثير ضده كل مشاعرها العدائية. ويختلف ذلك بالطبع تبعاً لكل حالة.

فحتى لو تم تقبل الطفل كأداة اندماج في أنا الأم، فانتظارها المتلهف، وتحرك مشاعرها الأمومية للتحضير للمستقبل، تعزى أيضاً للطفل قيمة أداة موجودة خارج الأنا، وينطبق على تلك الأداة، مجموعة مواقف عاطفية ايجابية وسلبية. والطفل هو ايضاً ابن الشريك الجنسي، وبالطبع، فإن قسطاً كبيراً من الحب أو الكراهية التي تخص هذا الشريك قد تتحول وتنتقل الى هذا الطفل الذي لازال إلى الآن غير مرئي. وهكذا تتجابه ميول كثيرة، حيث أن الطفل الآتي هو أيضاً جزء من الأم، ومحاط بحب نرجسي لاحدود له، وهو تجسيد للكمال وتوغل رائع ممتع للأنا. وتلعب هذه العلاقة دوراً هاماً في ديناميكية الاستباقات الايجابية للحمل. لكن

علاقة الأم بالطفل، حتى لو كانت ظاهرياً في منتهى السعادة، فقد يكون لها تاثيرات سلبية وأحياناً خطيرة خطراً فعلياً. فإذا كانت الميول الماسوشية للأم قوية لدرجة مفرطة، فسيقتطع الطفل هذا الجزء من أناها الذي تحبه لأنه يفرض آلاماً على المتبقي من هذا الأنا. وإذ أنها، وهي متنبهة لعالمها الداخلي، تئن تحت صليب الحمل، فهي سعيدة مع ذلك بهذا الموقف، وتتجاوز الحدود الطبيعية للماسوشية الأنثوية، ومنذ الحمل، تفسد وتمسخ وظيفتها الأمومية في اتجاه الأم المعذبة.

ومن المهم، أن يكون الطفل، باعتباره أداة مستقبلية، مرغوباً ومحبوباً ومنتظراً بفرح، وأن ترافق صورته الايجابية الحمل. وذلك يعزز الطاقات المتفائلة للتجربة الحقيقية. وإن كان الطفل عبئاً يُحمل بصورة سلبية، وأداة كراهية تخطر في خيال الأم، كراهية لا تحيّدها المشاعر الأمومية المُصلحة، فيصبح الحمل لعنة وليس بركة. وتتهيأ النساء نفسياً منذ الحمل للأمومة بتخليهن، لصالح فكرة الطفل، عن جميع اهتماماتهن العاطفية الأخرى، ويخلقن بذلك أرضية تفانٍ يتضمن الإيثار على النفس الغريزي في صالح الطفل الواقعي. وربما يكمن الينبوع الأقوى للمحبة الأمومية، في موضوع أن نرجسية الحمل تخفي الحدود بين الأنا والأنت. وقد يطيل حينئذ الحب المتجرّد علاقة ما، تنتقل، بواسطة الولادة وانشطار الطور الداخلي، نحو العالم الخارجي، وقد يصبح الطفل، بصفته أداة، محبوباً هكذا كجزء من الأم ذاتها. ويكون هذا المزيج المثير للفضول بين الأنا واللاأنا في علاقة الأم بالطفل خلال الحمل مظهراً آخر مثيراً لثنائية قطب هذه الحالة.

ويقوم التطور المنسجم للحمل على كثير من العوامل، قبل كل شيء، نضوج عاطفي معين لدى المرأة الحامل، وصحة نفسية وجسدية قوية، وشروط خارجية ملائمة بصورة جلية، ينبغي أن نذكر منها أولاً الموقف الزوجي، ثم العوامل الاجتماعية والاقتصادية...إلخ. فالنضج النفسي والصحة الجسدية هما، بصورة خاصة، على درجة من الأهمية لكي تتحمل

المرأة، أن تتحول بعواطفها نحو العالم الخارجي بلا خلل أو تشويش عاطفي يذكر، إذ أن الانكماش المفرط قد يؤذي العلاقة العملية مع العالم المحيط، ويتضمن خطر حب مفرط للذات.

فعلى علم الصحة النفسية للحمل أن يطمح ويهدف لجعل الطفل، أكثر فأكثر، أداة، بحيث لا تشكل الولادة فقداناً مؤلماً لجزء من الأنا، ولا تصبح فعلاً مدمراً للنفسية. ومنذ البداية، تعد نفسية المرأة الحامل آليات دفاع، تهدف لمنح الطفل معنى أداة. وتظهر هذه الآليات في توجهها القوي نحو الواقع، والذي يرافق بالتوازي، توجهها نحو العالم الداخلي. وهنا، يبدو أن العلاقات الأولى لـ «الغريزة الأمومية» تظهر. وبالفعل، سيان إن كانت المرأة سلبية وانطوائية، أو لا مبالية وبلا عون، غنية أو فقيرة، مشبعة ذهنياً وعاطفياً، مزهوة أو خجولة بحملها، فيستحوذها دوماً في تلك الفترة نشاط بنّاء للعش، وحاجة للبناء هي، على درجة كبيرة أو صغيرة، في صالح الطفل الذي تنتظره، كمنزل جديد، أو غرفة أطفال متممة، بصورة مريحة وجميلة، أو جهاز للوليد أو ثوب صغير تحيكه بيديها. إنها منتجات واقعية (حتى لو كانت أحياناً متواضعة إلى حد كبير) أو رمزية لذاك النشاط الذي تقوم به كل امرأة حامل بالتوازي مع تركيزها الداخلي. ويتواجد النشاط نفسه في الادراك الشديد والصارم والذي به تفرض على نفسها احتياطات ضرورية، وكذلك في الإمدادات التي تقوم بها من أجل المستقبل القريب أو البعيد، وفقاً لطباعها وإمكاناتها وطاقاتها في المبادرة.

وهكذا تنشأ صلة بين الأنا المنطوي بشدة والأنا المتوجه نحو المجتمع، ويهدف النشاط الأمومي منذ الحمل، لبلوغ ادراك الثنائية الحتمية بين الأم والطفل. ووفقاً للموقف النفسي في كليته، يترافق هذا الإعداد بانتظار مفرح أو حزن افتراق أو موقف غير عابئ نسبياً أو خوف من الموت. والواقع الذي يقترب، محفوفاً بالمخاطر، سواء بالنسبة للمرأة غير المحبوبة، أو الأم الفتاة «غير الاجتماعية» أو المرأة المنهكة بالعمل، أو المريضة أو المتعبة، أو الطموحة الرجولية التي وجهت نشاطها نحو غايات

أخرى. وهؤلاء النساء، المثقلات بالهموم والمرارة، ينكرن طاقاتهن الداخلية الإيجابية، ويرفضن، بتحدٍ، أي رعاية، أو مساعدة، أو عناية، كما يؤكدن شكوكهن حول وجود حب أمومي جوهري. وعموماً، ليس نفي هذا الحب هنا بتأثير عجز سابق، إنما لظروف مادية أو تشوهات عاطفية، وبالإجمال بتأثيرات ثانوية.

ولعل الانسحاب من العالم الخارجي بطاقة عاطفية هائلة، واندماجها في الطور النفسي للحمل، يؤدي إلى مظاهر مختلفة في الحياة الذاتية والعاطفية للمرأة الحامل. وتعترف أحياناً امرأة عالية القدرة على التأمل الباطني، بأن السعادة التي أحست بها خلال الحمل الأول الذي رغبت به، تفوق كثيراً مباهج الأمومة الواقعية، (طبعاً في ما عدا الأفكار السلبية المعاكسة التي تعكر صفو ذلك). وبالرغم لما يمكن أن يبين لها ذكاؤها أو ملاحظاتها، فإن لديها انطباع بأن حملها هو شيء خارق وغير عادي، وأن الطفل الذي تنتظره سيكون منّة لا سابق لها. لكن بما أنها تعتقد أن تجربتها تناقض المفاهيم والتصورات المعتادة، فإنها عموماً تلتزم الصمت، لأنها قبل كل شيء تريد أن تظهر طبيعية بعيون أصدقائها.

وهناك نساء، رغم تجربتهن في «حلم» الحمل، يحتفظن بعد ذلك بذكرى غامضة عن حالة «رائعة»، دون أن يستطعن التعريف أكثر بذلك. كل ما نستطيع أن نعلمه منهن هو أنهن يعشن فرحتهن بحالة من الاستباق. ويلمّحن أيضاً أحياناً لحالة عدم الاكتراث الغريبة، إنما المحببة، اللواتي يشعرن بها خلال الحمل تجاه جميع الشؤون الأخرى للحياة. ويبدين، بسبب هذه الذكرى شبه الشعورية ورغم جميع الحجج المنطقية وجميع الصعوبات، رغبة دائمة في إحياء وعيش حالة الحمل مجدداً.

ومن البديهي أن تتعلق حدود التجربة، بتجارب أخرى مختلفة داخلية وخارجية، مما يسهل بعد ذلك التوصل إلى ملاحظة استذكارية متعلقة بالماضي، تمثل دوماً مزيجاً من حالة أصلية وطريقة أكثر حداثة لرؤيتها. وللمرأة الذهنية موقف فاتر وقليل التأثر، على نحو ما، ومتعلق بتعقيد

حالتها. وفكرة الإحباط المحتمل حاضرة دوماً في ذاتها كملاذ كابت وحامٍ، وهي تشعر كم هو مستبعد أن يتحقق أي من استباقاتها المبالغ بها. وتعجز كثير من النساء غير الذهنيات هن أيضاً عن أن يعشن الغنى الكبير الذي يتضمن الحمل، ويعتقدن مع أخريات أن هذه الحالة ليست إلا طوراً بيولوجياً مملاً على نحو أو آخر. وبالكاد أن يتذكرن مظاهر أكثر عمقاً للتجربة، «وبالأحرى» لا يستخدمنها بعد ذلك في حياتهن، لكنهن يتذكرن بوضوح خاص النتائج المضجرة أو حتى المرضية للأمر. في ما لا تظهر النساء اللواتي أساءت الحياة معاملتهن، لا تفهماً ولا تعاطفاً، لتجربة الحمل بجميع مخاوفها غير المنطقية وأحاسيسها السعيدة.

ومن بين النساء المخصبات بصورة مفرطة، واللواتي تطرقنا آنفاً في الحديث عنهن، واللواتي يحملن بلا انقطاع دون أن يكن أموميات، من تكون راغبة لمجرد المعايشة مجدداً لمتعة الحمل وتعتبر الطفل نتيجة لا مفر منها ينبغي تقبلها .وعموماً، ومن المحال جعلهن يبحن بما هو مرضٍ جداً في هذه الحالة، ومعظم الأحيان لا يتذكرن حتى شعورياً المتعة التي رغبن لاشعورياً بمعايشتها مجدداً. وفي كثير من الأحوال، تحس المرأة نفسها على ما يرام بشكل خاص عند الحمل، لأن هذه الحالة تمثل لهن نوعاً من العطلة بعيداً عن أناها. في ما الشعور بالدونية والذي يجبرها، في أوقات أخرى، على نقد لاذع لقدراتها وعجزها، والطموح الشديد الذي يدفعها نحو انجازات لا طاقة لها عليها، كل هذا يهدأ خلال الحمل، وتبدو محاكاة نفسها كما يلي: «ليس لي الآن أن أكون بصورة أخرى، ففي نهاية الأمر أنا حامل». وبالنسبة لجميع أولئك اللواتي يعانين من شعور بالضعف لأناهن، يعد الحمل بالنسبة لهن مناسبة محتفى بها للعثور على بعض الأهمية.

ويحصل أحياناً نوع من ضياع الشخصية، وتشتكي المرأة الحامل من عدم امتلاكها للعواطف. وهذا أمر مُدرك إن تذكرنا الموقف النفسي العام الذي أتينا على ذكره، حيث إن العالم الخارجي يصبح غير واقعي، في ما يصبح العالم الداخلي مشحوناً بكثافة، والوجود الموضوعي للطفل الذي

تتجه العواطف نحوه عادة مشكوك به. والصيغ التي يظهر تحت لوائها هذا التشوش في المشاعر، مختلفة. فقد صرحت لنا على سبيل المثال إحدى النساء بأنها كانت تحس نفسها خلال حمولاتها صغيرة جداً، وأن عليها باستمرار التفكير بالطفل. وما إن توقفت عن التفكير به، حتى هشّمها شعور أن الطفل لا وجود له في الواقع. ومن غير المشكوك به أنها كانت قد تقبلت ذهنياً واقع الطفل، إنما ليس بصورة عاطفية، وبدلاً من أن تظهر انطباعاً بالانفراج أو على العكس بالضيق، أحست بفراغ. وقد كانت هذه المرأة ملزمة بملء فراغها العاطفي بفكرة الطفل الادراكية باعتباره أداة. ومضمون علاقتها الذهنية بالطفل كانت فقيرة جداً: «أعلم أن لدي طفل وذلك يجعلني سعيدة لأنني أرغب به».

وقد قالت لنا امرأة أخرى، أنه توجب عليها باستمرار أن تكون مدركة لوجود الطفل لكي تعيش الحمل كشيء إيجابي، وبدون ذلك الأمر، تحس أيضاً بشعور من الفراغ يصعب التعبير عنه. ومع ذلك، كانت جديرة بأن تعلمنا المزيد من الأفكار التي تغذيها بخصوص طفلها. وكان لهذه الأفكار طابع مشبع لدرجة خارقة وغير عادية. وفي هذه «التخيلات»، لم تعتبر الطفل أبداً كأداة من العالم الخارجي، أو كشيء آت، إنما هو شيء ما لا يوجد ويكون إلا بقدر ما كان بها وينتمي إليها. وكانت تقول على سبيل المثال: «إنه كفرن مشتعل دوماً خلال الشتاء، إنه ليس هنا من أجلك، وهو خاضع لإرادتك تماماً. وهو أيضاً مثل «دوش» منعش متدفق خلال الصيف ويجعلك بخير. إنه هنا»

وبالنسبة لهاتين المرأتين، الطفل غير موجود بصفته أداة. وهما لا تشعران بالتمايز بينهما وبين الطفل باعتباره أداة إلا حينما تفكران به. وما أن تتوقفا عن التفكير به، حتى يتلاشى هذا التمايز، ومعه الشعور المبهج بامتلاك طفل. وهكذا يتخذ الاتحاد السعيد بين الأم والطفل خلال الحمل طابعاً سلبياً عندما تتضاءل ثقة المرأة بنفسها، وتلغي في الوقت نفسه الوجود المستقل للطفل بالتجربة العاطفية. وفي هاتين الحالتين، تفضح

الحاجة الملزمة في منح محتوى ذهني مجردٍ لموقف عاطفي قادم، والعجز في إحساس شيئ ما إحساساً عاطفياً دون جعله موضوعياً، تشوشاً عاطفياً أكثر عمقاً لا يظهر إلا في أعقاب المقتضيات الجديدة للحمل. لقد كانت هاتان المرأتان غير طبيعيتين بصورة واضحة، إنما بمظهر مشوه، لقد ساعدتانا على تفهم الطور الطبيعي.

ويأتي قبل كل شيء، الضعف الموضوعي لكيان الطفل ووجوده. لقد سبق وأكدت على ذلك أكثر من مرة، على أنه لا يكون أداة إلا في المستقبل. وتأتي من هنا الظاهرة المثيرة للفضول، بأن النساء بامتلاكهن تماماً لحياة عاطفية غنية، أي النساء المليئات بالحنان، والمحبات والأموميات، يصرحن، بنوع من تبكيت الضمير، بأنهن يتمتعن بالطفل الآت وأنهن رغم ذلك لا يحببنه مطلقاً. «كيف نحب شيئاً ما لا وجود له؟» وبشكل عام، لاحقاً، عندما يشكل الطفل جزءاً من العالم الخارجي وتترسخ التضحية الكبيرة، يجعلنه كجزء من ذواتهن بكل محبة. وقد وجهت لنا هذا السؤال النساء الحساسات، بصورة خاصة، في حياتهن العاطفية المنسجمة، حول الاختلاف الذي يفصل تجارب الحمل عن حب الأم المنطقي لطفلها.

تقول كثير من النساء العصابيات، إنهن يشعرن أنفسهن متحررات من عصابهن في أي وقت كان. كما هو الحال في فترة الحمل. إنه أمر من اليسير تفهمه، فللنساء الهستيريات عندئذ دافع واقعي من أجل ميلهن في التخيل، والاستباق الذي يتصفن به، له غاية واقعية يتدربن عليها. وبالنسبة للعصابيات الاستحواذيات، قد يتذوقن مهلة للراحة من الصراع المستمر بين الحب والكراهية، لأن الأداة التي يركزن عليها اهتمامهن العاطفي، كسائر النساء الأخريات، قد لا تُحدِث أحياناً هذا التناقض الوجداني، طالما أنها غير موجودة بصورة مستقلة. وما هو صحيح بالنسبة لكثير من هؤلاء النساء، أن غياب الصراع بين الحب والكراهية يعادل غياب العواطف، وهن يشتكين، مثل النساء الفاقدات الشخصية، من عدم

الإحساس بأي شعور بالنسبة لأطفالهن. وعصابيات استحواذيات أخريات ينسبن كل صراعهن بين الكراهية والحب إلى صورة الطفل الغامضة، حيث يطلق الحمل لديهن أعراضاً استحواذية هاجسية هي الأخطر وتتركز حول حياة الطفل الآتي. ولدى الكثير من العصابيات، يؤدي استباق طور الولادة المؤلم والخطر أحياناً إلى تضاؤل الشعور بالذنب، وهو تضاؤل ملائم لحالتهن ويحسّن عصابهن.

وبنظرة منطقية، نرى أن كيان الأم يتعدل في اتجاهين خلال الحمل. فهي أولاً يكبر حجمها جسدياً ونفسياً، جسدياً بما أضيف لها من الناحية العضوية، ونفسياً لأنها تدرك بأن كائناً جديداً مرتبطاً بكيانها ويتماثل معها، ويخلق فيها احتمالات عاطفية جديدة ومستقبلاً جديداً. ومن ناحية ثانية، تصبح حياة المرأة ضيقة ومنكمشة، جسدياً لأن جسمها الآن هو في خدمة شيء ما ليس هو ذاتها، ونفسياً لأنها لا تتلقى شيئاً، إنما لن تقوم إلا بالعطاء والعطاء وحده خلال كل هذه المرحلة التي بدأت.

هذه الثنائية في المواقف قد تتخذ أبعاداً لا حدود لها، لدرجة أن التجربة الداخلية للمرأة الحامل تترنح بين غنىً لا متناهٍ، «أنا العالم بأسره» وفقر لا متناهٍ، «أنا لا شي». ويكون الباعث في الموقف الأول، الحياة والحب والزهو الأمومي والسعادة، وفي الموقف الثاني، الاكتئاب والخجل والكراهية والموت. وتتأرجح الحياة العميقة للمرأة الحامل بين هذين القطبين.

ويعبر هذا التضاد عن نفسه، ضمن مظهره الإيجابي المتفائل، ذاتياً بشعور من الانسجام المفيد. وتحس المرأة خلال الحمل، أكثر فأكثر، بأنها تحمل في أحشائها حياة واقعية، سيؤول مصيرها إلى الضياع والبؤس إن لم تحمل لها الإخلاص والتفاني. ومسألة أنها بوسائلها ستمنح الحياة لمخلوق آخر سيكون أمامها ككائن مستقل، والثنائية القادمة في وحدة لا زالت في ذاتها، كل ذلك يشكل بلا شك أغنى تجربة في حياة المرأة. لكن المظهر المتشائم للتضاد يبرز من التجربة نفسها، حيث أن حالات ضيق وقلق نفسي

خطيرة تلقي بظلالها الكثيفة، وتعكر سلام وانسجام الحمل. وتتحقق حالات الضيق هذه بفكرتين: «سأموت أثناء الولادة»، و «لن يكون لي طفل». وتتغذى هذه المخاوف من الشعور بالذنب الإفرادي، وبصورة أشمل الإنساني، ومن بقايا الذكريات، والتهديدات، أو الدوافع الواقعية، وينتابنا انطباع بأن هناك شيئاً ما أكثر عمقاً وبدائية يختفي خلفها.

وقد لا يتخطى تماماً، التقبل الواقعي للطفل بصفته أداة مستقبلية ومحبوبة جداً، النفور الداخلي في التخلي عن الاتحاد الخيّر. وهناك صوت داخلي يعارض قائلاً: «ذلك الذي سيكون في ما بعد في العالم الخارجي غير الذي هو الآن. فالذي معي حالياً، هو جزء من كياني الخاص، سيضيع. وسيكون هناك، إنما ككائن آخر، ليس مثل ذاتي، شيء ما سيتنفس برئتين أخريين، وسينبض قلبه لوحده، وسيكتسب الاستقلالية بأفعاله الخاصة. أما حالياً، فلا زال هو فيّ. إنه كائن إنساني آخر، مستعد لأن يكون بذاته عالماً قائماً خارجاً عني».

ولتجعل من ذلك كائناً موجوداً خارجاً عن ذاتها، على المرأة الحامل أن تخلص الطفل وتعتقه من أعماق كيانها، وهكذا تفقد، ليس فقط منه، إنما معه، من ذاتها. فهي لن تفقده فقط، إنما تفقد نفسها معه. هوذا برأيي ما يوجد خلف الخوف والإحساس بالموت الذي تعانيه كل امرأة حامل، وما يغير منح حياة بخسارة حياة.

وإذا لم يتم الإحساس بالانفصال على أنه خسارة للأنا إنما بطريقة أكثر موضوعية، فإن الخوف من الموت يحل محله هذا الشعور المؤلم: «لن يكون لي طفل، سأفقده، لأنه سيغادرني، ولن يكون «هنا»». ويتوافق هذا الشعور مع الإحساس الداخلي بالانفصال المستقبلي.

ولعل المخاوف غير المنطقية من الموت للمرأة الحامل، تتحدد بصورة نفسية بمشاعر الذنب وذكريات المخاوف القديمة، والتي لها عمق واقعي في فترات سابقة. وهناك نساء توفينّ أثناء النفاس، ضحايا لبنيتهن

الجسدية مع ظروف خارجية غير ملائمة. أما اليوم، فالعلم ينقذهن من خطر الموت ويخفف آلامهن. ومع ذلك، نجد في حياتهن النفسية العميقة، مظاهر الخوف من الموت، مكتومة ولا أساس لها، هذا الخوف الذي يبقى غير متأثر بغزو الحضارة. وعلى الرغم من التفهم الذهني المقبول تماماً للموقف، والتحديد الدقيق لتاريخ الولادة، ومع أن المرأة تستغرق في التحضيرات للطفل المنتظر، فإن كل امرأة حامل تغذي هذا الشك في زاوية ما من نفسها: «هل حقاً سيأتي؟» إنها تشك أولاً بحملها في الدرجة التي رغبته بها، لكنها لا تبوح بهذه الشكوك، مزهوة بالحجة القوية للتشخيص الطبي. وبعد ذلك، عندما تصبح حياة الطفل ظاهرة شيئاً فشيئاً، ترغب باستمرار في الحصول على تأكيدات بوجوده، وتكون منتبهة لحركاته، ويأخذها الرعب أحياناً في حال بقي ساكناً لفترة. لأن خلف كل يقينها الذهني يستمر الشك المؤلم: «لن يكون لي طفل» وهنا تمد مشاعر الذنب القديمة أيضاً وتجارب الطفولة، التسويغ الداخلي. إنما الفكرة التي تفندها المرأة وهي الفكرة اللاشعورية تماماً: «لن يكون لدي طفل» تنطوي على حقيقة عميقة. إذ إن الانفصال هو الموت، ولا تتلاشى أطياف الموت إلا حينما يتلقى حب الأم مجدداً الطفل في العالم الخارجي.

لقد استعرضت سريعاً أطوار الحمل النفسية، ولو كان بالإمكان، كما في مختبر، عزل الظاهرة عن جميع تأثيرات العالم المحيط الماضي والحاضر، والمراقبة المباشرة لجميع تحركات النفس التي ترافق نمو الجنين خطوة فخطوة، لعلمنا عن ذلك، دون أي شك، معلومات أكثر حول الارتباطات المتينة بين الأم والجنين. ومن خلال التحقيق التحليلي النفسي، يبدو الحمل كجزء من النفسية كلها، هذه الحالة وبشكل خاص الطفل القادم نفسه، يبدوان من الناحية النفسية كنتيجة لتفاعل العوامل غير المرتبطة مباشرة بوظيفة التكاثر، وغير المرتبطة بها فقط. وتصدر الملاحظات التي ذكرناها في معظم الأحيان، عن تحليلات لنساء حوامل طلبن التخلص من أعراض الحمل المرضية، أو أردن إنقاذ حمل شعرن بأنه مهدد بتجارب

سابقة مغضبة، ونعني بها الإجهاضات. وفي كثير من الحالات، غدت هؤلاء النساء المريضات حواملاً من خلال التحليل، وحتى أحياناً بفضلها هي، ويبدو من الحكمة متابعة علاجهن حتى الولادة، للإلمام بحالتهن النفسية في كليتها[1].

وفي جميع الحالات، كانت الأطوار الفردية للحمل ممتزجة تماماً مع أعراض عصابية والتي كان تقريباً من المستحيل الحصول على صورة واضحة عنها. وهكذا كانت تبدو خيالات وأحلام المرضى متأثرة أحياناً أكثر بالموقف التحليلي وموقف المحلل من تأثرها بأمر الحمل، وتبدو التجربة كلها ملتصقة بالموقف العام. إلا أنه من الممكن الكشف عن ظواهر نفسية تتعلق مباشرة بالأطوار البيولوجية للحمل. وأحياناً، كان لي انطباع واضح ومثير جداً للفضول، بأن مراحل نمو الجنين المختلفة كانت تتأثر بمادة التحليل النفسي، وعلى الأخص حياة المرأة الحامل الحالمة.

كما وجهنا الملاحظة أحياناً للصلة الكائنة بين المراحل المتعاقبة لنمو الحياة الغريزية الطفولية والأشكال والصيغ النشئية النوعية، كما أشرنا إلى أن نشوء النوع هو القوة المحددة للتغيرات النمائية للجنين (القانون البيولوجي الوراثي لـ هيغل). وهكذا لدينا في الحمل، ثلاثة توازيات محددة بيولوجياً، وتضم نشوء النوع، والتطور الفردي للكائن، والأحاسيس و المثيرات النفسية التي تستدعي العودة لبعض الدوافع الغريزية الطفولية. وتسبب هذه التحريضات أحياناً، لوازم فموية في بداية الحمل، إذ تبدو عندئذ الأحلام مركزة على الغذاء. وبعد ذلك بقليل تصير عناصر شرجية، وأشياء بذيئة، تجعل من السعادة التخلص منها. ويبدو الطفل القادم برموز

(1) أنا أعارض علاج التحليل النفسي للنساء الحوامل، ما لم يستهدف غاية علاجية محددة، كما أعارض بصورة عامة أي تدخل تحليلي في جميع مواقف الحياة، التي يجب أن تُحترم لتصبح تجارب واقعية، مثل علاقة حب أو زواج سعيد على سبيل المثال. وحده العصاب الذي يخلق اضطراباً في التجربة يبرر التدخل التحليلي.

نمطية، كحيوانات صغيرة زاحفة مثيرة للاشمئزاز (ومنقرضة بشكل عام)، أو كطفل ميت في معظم الأحيان. ويتخذ الجنين، شيئاً فشيئاً، شكلاً بشرياً إنسانياً، ويبدو عادة في الأحلام أكبر من حجم الوليد، وبسمات قد تعترف أنها تحقيق لأماني الحالمة، بالنسبة للجنس مثلاً، أو الشبه... إلخ. كما يبدو أحياناً بصفات الطفل المثالي، ويمثل بصورة عامة الحالمة نفسها والموهوبة بأجمل صفاتها، وبكل تلك التي تحبذ امتلاكها.

لقد عرضنا مرحلة الحمل كتمهيد بيولوجي ونفسي للأمومة، وحاولنا الإشارة بوضوح إلى أن المظاهر العاطفية المنبعثة خلال هذا التمهيد لا تتماثل مع عاطفة الروح الأمومية. فالحمل، باعتباره عقدة عاطفية، هو كيان مستقل توصل جسوره إلى الروح الأمومية وحيث تتهيأ العلاقة مع الطفل.

وأريد أن أذكّر هنا بما قلته سابقاً حول موضوع أولئك النساء اللواتي تتجنب أرواحهن الأمومية الحمل وتتجه نحو أدوات أخرى غير أطفالهن. وترغب هؤلاء النساء في الهرب من مخاطر هي في صراع، في لاشعورهن، مع مشاعرهن الأمومية، أو الجنسية، ويتخلين بصورة طوعية إرادية عن الإشباع المباشر للأمومة. وتتخذ مشاعرهن الأمومية صيغة رغبة يسعين لإشباعها مباشرة بوسيلة بديلة.

لقد أشرت آنفاً إلى وجود حالات كبت نفسية للأمومة، قد تترجم بصورة فيزيولوجية بالعقم. وتتأثر هؤلاء النساء بعد ذلك بالعقم بطريقة متغيرة وفقاً للسبب النفسي. وإن لم يكن لديهن أطفال مثلاً في أعقاب عقوبة ذاتية، فإن العقاب لا يتخذ كل أهميته ومعناه إلا إذا ناقض حاجة عاطفية شديدة لإنجاب طفل. ومثل هؤلاء النساء، لا يصبحن ضحايا لعقوبة ذاتية إلا إذا قلصن جميع اهتماماتهن في الحياة، وإذا لم يبحثن عن أي ثواب، وقبلن بالتبعية تماماً لرغبتهن في الأمومة. إنهن يجربن دواء بعد آخر، ويغيرن الطبيب باستمرار، ويطالبن بإلحاح بإجراء مختلف العمليات، ويدمرن أنفسهن عند المشعوذين، ويصبح الكفاح من أجل الطفل الرمز لهدف وحيد ومستحيل أن تملكه هذه المرأة في الحياة. وعندما تبادر أحياناً

الرغبة الواعية في الظفر على الكبت اللاشعوري فالنشاط الذي تعذب المرأة نفسها به لا يقوم إلا بتغيير الصيغة. ويعبر حينئذ عن نفسه بالمخاوف على الطفل، الموجود الآن، في الدور الاستبدادي الذي تعين له، وفي التضحيات الماسوشية المفرطة التي تقدم لأجله. وفي حالات أخرى، يصبح الكفاح في سبيل الأمومة في الوقت نفسه دفاعاً ضدها. وتصرف هؤلاء النساء تماماً كتصرف أشخاص مرضى عضوياً، ويريدون الشفاء، ومع ذلك يقومون بكل ما بوسعهم للإبقاء على المرض. ومن البديهي أن هناك ردود فعل وتأثر بالعقم النفسي الموروث بقدر ما يوجد دوافع لتحديده.

إنما ماذا يحصل لو أن العضوية لم تضع أسساً تُبنى عليها الأمومة، ولو أن الأحداث المرضية وقفت حائلاً في وجه القوانين الجسدية، ولو أن خللاً حدث في العالم الخليوي، أو في الطور المعقد لنضج البويضة أو للخلية الذكرية، أو في الآلية الخالقة التي ينجم عنها اتحادهما؟ فقد تصاب طاقات الجسم الأصغر، الذي يبني عشاً للبويضة في جسم الأم، بالشلل لأسباب بنيوية أو سبب مرض عضوي، أو قد يتضرر الجهاز التناسلي ضرراً لا إصلاح له، مستبعداً أي امكانية للأمومة. فكيف تتظاهر المرأة باليقين الإيجابي بأنها لن تكون أماً أبداً؟

بإمكاننا تلخيص نتيجة ملاحظاتنا حول هذا الموضوع بصيغة المفارقة التالية: كلما كانت المرأة أمومية أكثر، كلما اغتنت أكثر بالصفات الأمومية العاطفية، وكلما ستتحمل بسهولة أكثر قسوة الحرمان الذي عليها أن تُكابده، وكلما سيسهل عليها إيجاد الاستثمار الكامل، وغير المباشر، لمشاعرها الأمومية. وهذا لا يصح طبعاً إلا في الظرف الذي لا تتأثر به بدونيتها الجسدية بطريقة عصابية، وأن تحافظ على انسجام حياتها العاطفية رغم الإصابة في قدرتها التناسلية. فالمرأة التي لم تشهد أبداً مرحلة الحمل، تجد نفسها محرومة من تجربة هامة، وفرح الاستباق، وزهو التحقيق، والتوتر المقلق مع ضبطه، والانطواء الهادئ والحلم الداخلي، والنشاط

السعيد في التحضيرات. إن ألم الحرمان هذا المفترض سلفاً، والاستعداد الضروري، والرضى بالخضوع للتجربة، ينقص كثير من النساء.

وقد بوشر مؤخراً ببعض التجارب المثيرة في مجال تربية الحيوان، إلا أنها أوقفت بسبب الحرب. وبغرض تحقيق أكثر سرعة وضمان لتربية عرق متفوق من الأبقار، جرى تطعيم بيوض بقر مخصب من عرق جيد من ثيران مختارة على أبقار عادية. وهكذا أعطي للعرق الأفضل وسيلة لولادة أكبر عدد من الحيوانات ذات النوعية الجيدة. وبتعبير آخر، أعطي للحيوان الارستقراطي نوع من البقرة الخادمة لتخفف عنها مهمة الحمل، .بحيث يمكنها أن تستخدم استخداماً استثنائياً في تربية الحيوان المتخصصة. وتبدو الفكرة مثيرة للضحك، ولا تصدق عند تطبيقها على الكائنات البشرية. إنما علينا أن نتذكر أنه في كثير من الدول، تعمد أمهات الطبقات العليا بحكم العرف أو بتراتبية خاطئة للقيم، إلى إرضاع أطفالهن من قبل مرضعات مأجورات، ومثل هذا الاقتراح يبدو أقل رهبة وأقل ثورية. وما يصدم هنا هو دون شك المظهر الاجتماعي للمسألة، وليست المشكلة في امرأة يمكنها الإفلات من وظيفتها البيولوجية، إنما بأخرى تضطلع بها من أجلها. ومع ذلك، فمن المؤكد أن كثيراً من النساء ربما سيكن سعيدات بامتلاك أطفال ويعتبرن الحمل كجرح ويحبذن إيداعه لدى «حاملة للجنين».

وإذا أصبح ما تخيلناه واقعاً، لنشأ التساؤل والجدل، حول ما أي من المرأتين تعتبر كأم، تلك التي في خليتها التناسلية يتمثل كل أناها بعوامله الوراثية، ويعيش الفرد الجديد، أم تلك التي حملته وغذته من دمها، ثم أنجبته للعالم؟ ولدى الحيوانات، تترسخ الملامح البيولوجية الموروثة للغريزة الأمومية خلال الحبل، وتبدأ منذ ولادة الصغير تأخذ دورها بصورة أوتوماتيكية. وإذا ماثلنا هذه المظاهر الغريزية للحيوان بوظيفة الحب الأمومي، فيجب على مسألتنا أن تحل لصالح المرأة الولّادة، وإذا تمسكنا بتعصبنا بفكرة أن الطفل هو جزء من الأنا العضوي للمرأة، فإن صاحبة البويضة المخصبة هي الأم.

ومع ذلك، إذا عدنا إلى حكمة سليمان، فسنعطي الطفل، من بين المرأتين، لتلك التي تبرهن على أكبر حب أمومي فيه الإيثار على النفس. وسواء كان هذا الحب، باعتباره حاجة أولية للمرأة، موجوداً مسبقاً بطريقة ما في البلازما التناسلية، أو أُحدث في الأطوار الهرمونية وتعزز بالخيالات أثناء الحمل، فلن يصبح فعلياً بالواقع إلا آجلاً، حين يتعلق الطفل الصغير الضعيف بأمه، وينمو ككائن بشري بفضل حبها وحنانها. ويرتكز الحب الأمومي الذي تم تصوره هكذا، على فكرة الاكتساب البطيء في نمو النوع. وكلما كان الحيوان متفوقاً أكثر، كلما كان صغيره ضعيفاً، وطال الزمن الضروري لنموه. وأيضاً للحب الأمومي امتداد زمني أكثر. ومع ازدياد ضعف الطفل خلال نمو الإنسانية، أصبحت الوظيفة التي تكمن في الرعاية أكثر أهمية، وخضعت «الغريزة الأمومية» لتغيرات، وتحولت الغريزة البدائية إلى العقدة العاطفية للحب الأمومي، تبعاً لنمو الحياة النفسية في الإنسان. وأصبح هذا الحب بدوره مصدر تفان ماسوشي وخدمة نزيهة متجردة، وتجلب في نفس الوقت، مكافأة وتعويضاً في الفرحة الأمومية. وقد سمح النمو النفسي التصاعدي للطفل أيضاً أن يستجيب للرعاية الأمومية الحنونة بعواطفها الوادعة الخاصة، واستبدل تبعيته الأصلية، شيئاً فشيئاً، بالحب البنيوي. فالحب الأمومي هو اكتساب نشئي نوعي مستحدث، واكتساب عاطفي يبتعد، أكثر فأكثر، عن الغرائز البدائية.

تلك الفكرة بأن صيغة الروح الأمومية موجودة في البلازما الأنثوية، وأن التأثيرات الهرمونية تفعل فعلها في هذا الاتجاه في ما بعد، هي فكرة لا زالت افتراضية. وبتصوري عن الروح الأمومية، بصفتها عقدة عاطفية، بأنها نفسية وأعتبر أن «المرأة قد تمتلك تماماً وتتحسس الشعور الأمومي حتى عندما لا تحمل ولا تلد طفلاً». فهو شعور يتم استثماره بصورة مباشرة أكثر في النضوج الواقعي، لكنه موجود أيضاً في كل طفلة تحتاج لأم، وفي كل مخلوق يطلب، من أجل حياته ونموه وتطوره، الحنان والرعاية وقابلية الإيثار عن النفس في التضحية. وعلى المرأة، في جميع هذه المواقف البديلة، أن توجد إشباعاً نرجسياً مماثلاً للأم التي ترهن نفسها بسخاء لابنها

بصفته جزء من ذاتها. ومن الخطأ التحدث عن روح أمومية متسامية لأن الحب الأمومي، حتى لو كان قريباً من الغريزة، هو تسام في حد ذاته. ولا يحق لنا أن نتحدث عن هذه النقلة وعن تحويلها... إلخ إلى أدوات أخرى. وحتى هناك تحديداً حب حنون لأولاد نحو أهلهم، والذي يبتعد عن الحياة الغريزية في صالح التسامي. كما تتحول المركبات الغريزية للحب الأمومي نحو مختلف الوظائف الجسدية. إنها تشبع نفسها بإيجابية ونشاط، إنما بطريقة لاشعورية، في الإرضاع والعناية الجسدية بالطفل. وفي الإحساسات الجسدية المختلفة للأعضاء التناسلية. وتتكشف المركبات التحسسية للحب الأمومي في الحاجة التي تظهرها الأم في الاحتكاك الجسدي بالطفل وفي ضمه ومداعبته. وهناك أمهات يشعرن بهذا التحسس بإفراط، اللواتي بأزمات حنان عاصفة، تخونهن ميولهن الشهوانية، واللواتي يثيرن الأطفال لاشعورياً. في ما المرأة العقيمة محرومة بالطبع من أحاسيس المتعة الجسدية للأمومة بصورة مباشرة. إنما يبقى تحت تصرفها عالم كامل من احتمالات المتعة.

فرغبة إنجاب طفل تترافق بميول لا علاقة لها بالروح الأمومية بحد ذاتها. وإذا اعترفنا للروح الأمومية بأقصى درجات العاطفة الإيثارية، لا شك وهي وحيدة، فعلينا أن ندرك بأن جميع المركبات العاطفية الأخرى للأمومة هي أنانية ونرجسية بامتياز. فالإرادة الفردية في حب البقاء تدخل أحياناً في صراع مع التكاثر، إنما تكون في الوقت نفسه دافعاً قوياً في صالحها، وهذا ينطبق على الجنسين. فإنجاب وريث للأنا، يسري في دمه، الدم نفسه، مخلوق ينبثق عن الذات، كثمرة من الشجرة، ويضمن الاستمرارية وخلود الوجود المؤقت، إنها هنا دوافع نفسية، تنضوي تحت رغبة إنجاب طفل، وتبتعد تماماً عن الروح الأمومية، وفي الواقع، متعارضة تماماً معها. وفكرة الخلود، باعتبارها مرتبطة بتحريض لاشعوري في إنجاب أطفال، تترافق بعدة دوافع نرجسية ثانوية. وتعتبر الأديان والأعراف لدى كثير من الشعوب، المرأة بلا أطفال ككائن دوني. وهي لا تحقق ذاتها تماماً كفرد من أفراد القبيلة وكزوجة إلا عندما تصبح أماً. وجميع الأمم

تقريباً تعتبر المرأة كمسؤول وحيد عن عقمها، وتبدو مثل هذه المرأة في القبائل البدائية ملعونة، في ما تبدو عند الشعوب الأكثر تطوراً عاجزة.

ويعلمنا تاريخ الحضارة أن مصير المرأة العاقر كان أحياناً مأساوياً. فكانت محتقرة ومثيرة للهزء وعرضة للرفض والطلاق. وعند اليهود والمسلمين، كان العقم دافعاً للطلاق، في ما كانت الزوجة أحياناً التي لا تنجب عند القبائل الأفريقية والهندية الأمريكية مثيرة للسخرية، في حين أن حالات الطلاق كانت نادرة بدون هذا السبب. ولدى كثير من الشعوب تحترم الأم وفقاً لعدد أولادها، وبخاصة الذكور منهم. وفي الحضارات الأكثر رهافة، يُستبدل الاحتقار بالتفهم والتسامح، وفي الشرائح شديدة التحضر لمختلف الأمم، يُنظر أحياناً للخصوبة الكبيرة كانحدار و «حيوانية». إنما في شرائح اجتماعية أخرى، تتحدد الولادات بحسب مساحات وامتداد الأراضي. إن المقتضيات الاجتماعية، والخوف من المسؤوليات العملية، والحد من الحرية الشخصية وأسباب أخرى على محمل كبير من الأهمية، كذكورية الاهتمامات والنشاطات الأنثوية، لا تؤدي فقط لإعادة تقييم الخصوبة إنما تهدد حتى في الإقلال من الحاجة الطبيعية والبيولوجية والعاطفية للتكاثر.

إن معرفتنا بالأطوار الفيزيولوجية دقيقة جداً، ومسألة انتشار معرفة أن الزوج قد يكون هو أيضاً مسؤولاً عن عدم الإنجاب، ساعدت في إعادة الاعتبار للمرأة العاقر. وتقيّم النساء اليوم، إلى حد كبير، اجتماعياً وفردياً وغرامياً، دون الأخذ بعين الاعتبار، قدرتهن على إنجاب الأولاد. ومع ذلك، يبدو موقف المرأة نفسها إزاء نقص الإنجاب مغذياً لكثير من الأحكام المسبقة والرقابة واللوم والنقد التي تعود جميعها للعهود الماضية: «يشبه جسدك غصناً يابساً لا يحمل الثمر» هكذا تقول في نفسها، ويمكن لشعور الدونية الجسدية الذي عبرت عنه هذه العبارة، أن يعمي البصر عن جميع القيم الشخصية والاجتماعية الأخرى. وهذا الشعور لا صلة له بموضوع عدم امتلاك الفرصة لاستثمار الروح الأمومية. إنه ردة فعل نرجسي

في وجود الضرر العضوي الهام، وما يجدر ذكره أن ردود الفعل النفسية لكثير من النساء العاقرات تشبه بصورة غريبة أولئك اللواتي يتصفن بالعقدة الأنثوية للإخصاء. ولن أشير إلا للنمطيات منهن. فحينما تدرك المرأة هذه الدونية، تطرح على نفسها السؤال التالي: «لماذا؟» وتفسير الطبيب، والعملية التي تجري... إلخ تُقبل جميع هذه التوضيحات المنطقية قبولاً ذهنياً. لكن الحاجة لإيجاد سبب أعمق تجهل الأسباب المنطقية. وتحيل الإجابة هنا السبب إلى الشعور بالذنب للمرأة نفسها أو ذنب الغير. وتطوف على السطح، جميع الدوافع غير المنطقية المشمولة في هذا التساؤل المقلق، الذي تطرحه المرأة المخصبة على نفسها «هل سيكون لي طفل؟» في إجابة سلبية والآن بصورة منطقية ترتكز على: «لقد حطمت جسدي بنفسي، أنا المسؤولة عن عقمي» وإما، «القدر وأشخاص آخرون هم المسؤولون، وأنا ضحية تعيسة» وتحيا هنا من جديد، الإدانة الشعبية القديمة للمرأة العقيمة وأسطورة الأرواح الشريرة، مستمدة مضمونها من ردود فعل طفولية للفتاة الصغيرة في الفترة التي أدركت فيها للمرة الأولى دونيتها الجسدية في صدمتها التناسلية النسائية.

وتقود أحياناً استحالة إيجاد حل طبيعي للصعوبات النفسية الآتية من العقم لدى المرأة العاقر، إلى ردود فعل عصابية أو إلى بنية نفسية خاصة. وبشكل عام، النرجسية والعدوانية المتنامية تسم النساء اللواتي لم يستطعن ضبط «صدمة العقم». وقد ينطبق على هؤلاء النساء هذا الإسهاب لشاعر بولوني كبير: «القلوب الأنثوية خلايا نحل، عندما لا يملؤها عسل الحب الأمومي، تصبح أوجار أفاعي».

ونصادف النمط الأكثر تكراراً، لدى المرأة التي تنقل مركز ثقل وجودها نحو الخلل العضوي الذي هو سبب عقمها، وأحياناً بعد أمل عابث، إنما عادة، في حالة النساء العقيمات بصورة حتمية، يتصرفن بسلوك نرجسي هو صورة مشوهة للروح الأمومية. ويصبح العضو المريض الأداة التي تسترعي أشد الرعاية، كما هو حال طفل محبوب جداً. والألم، والحالة المرضية المستمرة، يشبعان الرغبات الماسوشية، وبصورة غير

مباشرة، العدوانية تجاه المحيط المتعاطف، والذي يأتي الزوج في مقدمته. ونساء كهؤلاء مرضى أبديات ويسببن أحياناً الألم لأطبائهن النسائيين.

وهناك نمط آخر في المرأة التي تنفي الصدمة: «في أعماقي، لا أرغب أبداً في إنجاب طفل» هكذا يقول موقفها النرجسي، إنها تأبى أن يُنظر إليها بأية دونية، إنما دون التأثير المناسب الذي كانت تتوقعه جراء ذلك. وهنا تؤجل فقط ردة الفعل الصادمة إلى زمن لاحق. وتتوجه هؤلاء النساء إلى بدائل لتقوم مقام الطفل، والتي تناسبهن بصورة أفضل من الطفل، كما يؤكدن ذلك. لكن بما أنهن سوف يمضين نحو هذه الأنشطة في التعويض بلا اهتمام صادق أو موهبة، فسيبين أنهن عاقرات، وسيكنّ هنا أيضاً معرضات لردة فعل صادمة جديدة. ويستمر طور النقل، وسيتوجهن نحو بدائل جديدة ليظهرن ويبرهن قدرتهن، إنما بنفس النتيجة. وفي الاقتصاد النفسي، نقل كهذا يمتاز بتقديم فرصة ملائمة لتحييد الحرمان المؤلم وتقبل العجز الخاص. علاوة عن أن العالم المحيط قد يُتهم بـ «عدم إتاحة الفرصة لي لأظهر قدراتي».

وحتى لو كانت هؤلاء النساء موهوبات، فإنهن يتوجهن دوماً نحو مجالات تتجاوز بعيداً مستواهن الذهني، مؤكدات بهذا عقيدتهن «أتمكن بالطبع أن أقوم بذلك». إن التحسس النرجسي الشديد، والغرور، والاعتبار المفرط للذات، والتناسق مع ميل قوي لمشاعر الدونية، صفة هذا النمط النافي. وتحوّل هذه المرأة كل إحباط تعاني منه إلى اتهام الغير، وتزداد اكتئاباتها بصورة تصاعدية مع تقدم العمر، وتتحول حساسيتها المفرطة إلى مزاج ذهاني. وهي أحياناً، تضمر الحقد لأمها «كان من الواجب أن تعلمني شيئاً ما أفضل». أو لزوجها: «لا أستطيع أن أبذل كل مقدرتي لأنه يحملني فوق طاقتي من المشاغل اليومية». إن مسألة أن هنا ردود فعل للعقم، تنكره بصورة عامة هؤلاء النساء، ومحيطهن لا يدرك ذلك.

نمط آخر يتصف بغيرة خارقة، غيرة من الأمهات قبل كل شيء، ومن النساء الحوامل، ثم من كل ما يمتلكه الآخرون، ويشعرن هؤلاء بأنهن

ملزمات بالحصول على أشياء مشابهة ليتخلصن من مشاعر الغيرة المعذبة. وتختلف هذه الأشياء المرغوبة وفقاً للوسط الثقافي، فممكن لهذا أن يكون موقفاً، كالنجاح الاجتماعي، أو أدوات ذات قيمة مطلقة أو نسبية، كالثياب أو القبعات أو الأغذية. إنما يتعلق الأمر في معظم الأحيان بأشياء تخص الغير، ويمكن أن تثير الغيرة في لحظة معينة. ومعظم النساء اللواتي يرصدن عربات الأطفال، يشكلن جزءاً من هذا النمط، ليس برغبة رؤية الأطفال بدافع الرغبة أو الاهتمام الذي يمتلكنه بصورة شخصية، وإنما بسبب غيرتهن المعذِّبة. وإنهن كذلك، مغمورات بشعور الكراهية والضغينة والغيظ والاستياء. ولقد ذكرنا أن جميع ردود أفعالهن متماثلة لتلك الصادرة عن العقدة الأنثوية في الإخصاء وفي رغبة القضيب. ومن الصعب القول في ما إذا كانت هؤلاء النساء معرضات لردود أفعال ما، لأن عقدة الإخصاء أو رغبة القضيب عندهن شديدة بصورة خاصة. ولعل انطباعي الشخصي هو أن الصدمة الجسدية الجديدة قرّحت الجروح القديمة، على نحو أو آخر، لدى كل امرأة، وتطلق الاستعداد القديم لردود الفعل. إذ يستخدم الطفل، بصورة محتملة، بشكل طبيعي لتعويض هؤلاء النساء وإثارة شعورهن الأمومي الكامن. لكنهن يمتلكن هذه الصفة بشكل ضعيف جداً لتجاوز غياب الإرضاء الذي يمنحهن إياه الطفل. فالنساء الأموميات واقعياً لا يمتلكن ردود فعل ما.

وهناك نمط آخر للمرأة العقيمة أسميه الشبه أمومي. يواسي هؤلاء النساء أنفسهن من الصدمة، بطريقة إيجابية نشيطة، في التوجه نحو اهتمامات ذات طابع أمومي، بحيث يكرسن أنفسهن للعناية بالمرضى، وبخاصة الأطفال، ويتابعن دروساً في علم التربية، ويقدمن خدمات لرياض الأطفال، ولخدمات التمريض...إلخ. وعمل البر والإحسان هو أيضاً مجالهن إذا اشتمل على تضحية بالذات. وحينما يحتفظن بقوتهن، يسعين لمواءمة مشاغلهن مع حاجتهن الأمومية، وحينما يكن بحالة من اليسر، فإنهن ينفقن المال للغاية نفسها، ويوصين بثروتهن لهذا البديل اللاشخصي عن الطفل. ومن الناحية الاجتماعية، يكون نشاطهن أحياناً مفيد جداً، في ما يكون من الناحية النفسية ضحل جداً. وإنهن لا يقمن إلا بإعادة إصدار

مظاهر الروح الأمومية. وما ينقصهن هو مواهب ونعم المرأة الأمومية، تلك الحرارة التي يكون الطفل مصدرها. ومن اللافت أن نرى مدى إظهار هؤلاء النساء لعلاقاتهن الشخصية في منأى عن قلبهن. وعلينا أن نذكر أفعالهن الطيبة لعدم القيام بها عن كراهية أو نفور. إنهن يمثلن دوراً ليس لهن، ودوافعهن أنانية محضة، وبتأثير من رغبتهن في إثبات أمومتهن. إنهن لا يشعرن بألم داخلي لعدم إنجاب طفل، إنهن مجروحات لصدمة دونيتهن الجسدية، وبصدمة فكرة: «أنا شجرة يابسة»[1].

ولم يعد من المفيد التوغل أكثر في الحديث عن الاختلاف الذي يفصل الروح الأمومية الواقعية عن بديلاتها. حيث نجد في الحالتين تفاعلاً للقوى النرجسية والإيثارية الماسوشية، ونشاطاً مكثفاً منتجاً مركزاً حول الأدوات التي هي موضع عناية من قبل المرأة. وما ينقص عن البدائل والذي يميزها عن الروح الأمومية الصادقة هو الاندماج المحب مع الأداة والسعادة الناتجة عن هذا الحب.

لقد حددتُ دراستي حتى الآن، عن النساء اللواتي يتأثرن بالعقم بشكل صادم، لكن أرواحهن الأمومية تمكنت من النمو في شروط ملائمة.

وكما كنت قد أصريت على ذلك، فإن الروح الأمومية هي بنية معقدة، وليست كياناً عاطفياً نقياً. فالعواطف تترافق بقوة تحرك نشاط المرأة الأمومي في اتجاه معين. ولقد عرّفت هذا النشاط بعبارة «بناء العش». والأنثى الحيوانية لها مزاج يقظ ومدافع، إنها أفعال غريزية، في ما الأنثى البشرية، ثمة أفعال تترافق بالعواطف الأمومية والتطلعات الواعية والتي توجهها الإرادة. إن شعور الواجب تجاه الطفل الذي يصف الروح الأمومية له شيء ما من قوة الغريزة، ويختلف بصورة جذرية عن التبعية التي تنمو بتأثير التربية، أو شعور الواجب الذي تثيره مشاعر الذنب.

وخلال هذه الدراسة، ألمحت أحياناً إلى ذلك النمط من النساء

(1) لا يجب الخلط بين هؤلاء النساء وأولئك اللواتي سبق وصفهن بتكريس أنفسهن لأنشطة تعويضية لحاجة واقعية في استثمار أرواحهن الأمومية.

اللواتي تكون أمومتهن في خدمة الرجولة. في مثل هذه الحالات، يتم الشعور بالحمل وكأنه غنىً جسدي، والطفل الذي تحمله هذه المرأة ليس أداة لاندماج وادع، إنما شيئاً تعتبره ملكيتها من بداية وجوده وعليها الهيمنة عليه. ويتخذ النشاط الأمومي هنا طابعاً عدوانياً واضحاً، إنما من العسير رسم الحدود بين ما هو رجولي عدواني وما هو أمومي وادع لأن هذين الميلين توجههما غاية واحدة، هي العناية بالطفل.

ونظراً لأن الحمل بالنسبة لنساء هذا النمط له معنى دقيق في أمنية مشبعة، ولأن الطفل بالنسبة لهن هو انجاز خلاّق، فإنهن يتأثرن بالعقم بطريقة معينة. فلا يهيمن عليهن ألم حرمانهن من الأمومة إنما ميل تأكيد الذات. وإن لم تستطع امرأة ما، من أن تضبط الصدمة بالوسائل التي تحت تصرفها، فقد يأخذها اكتئاب خطر، يمكن أن نشهد خلفه عدوانية هائجة هدامة ضد أشخاص المحيط، الذي تعتبره مسؤولاً عن حرمانها. وهنا تكون هذه العدوانية نفسها وجدت لها مخرجاً في الأمومة. لكن معظم نساء هذا النمط يفلتن من ردة الفعل المرضية ويتجهن نحو العالم الخارجي لإرضاء حاجتهن للنشاط. وإن وجدت حاجتهن الخلاقة درباً لاستخدامها بطريقة مرضية، وإن كانت قابليتهن في التحقيق في أعلى درجات هذه الحاجة، فإنهن تعدّلن غاياتهن في الحياة ببساطة مع تقبل العقم، ولا شيء جوهري يتغير بالنسبة لهن أو فيهن.

لنراع هنا مسألة بعض الغموض والتشوش في العبارات. حيث أن الروح الأمومية، بصفتها تجربة عاطفية، لا يمكنها أن تتسامى أكثر، إنما موضوع خلق الطفل قد يحل محله نوع آخر من الإنتاجية، الأكثر رجولية، وقد يستخدم النشاط الأمومي مقاصد أخرى مباشرة وأنثوية متجسدة بالطفل.

إن الحدس الأنثوي الأمومي، هذه الصفة التي تتميز المرأة بها، قد تكون خلاقة في مجالات أخرى، وقبل كل شيء في المسعى الفني إن وُجدت المواهب الضرورية. وهنا قد يتصاعد صراع، ليس في التعارض المعروف جداً والمتكرر بين الرجولية والأنثوية، إنما صراع بين نوعين من

الأساليب في استخدام القوة النفسية الخلاقة الملازمة للروح الأمومية، الاسلوب المباشر والاسلوب غير المباشر. وكانت لي فرصة في دراسة إبداع فنانة تشكيلية بارزة لقد رغبت، وكان لها عدة أطفال ولم تشعر بنفسها مضطربة بسببهم، في نشاطها الفني. وحتى كانت تحس خلال حمولاتها بحاجة فنية متنامية. إنما لم تكن تستطيع آنئذ أن ترسم غير الأطفال. وكانت ترسمهم بورع فني أكثر من أي وقت مضى وكانت تحب نماذجها، إنما ما كانت تنتجه لم يكن إلا تصويراً عقيماً، لا روح فيه. وكانت مجبرة، شيئاً فشيئاً، على إدراك أن جميع القدرات الخلاقة، التي كانت في وقت سابق سيالة في إبداعها الفني، تتركز الآن حول الطفل المنتظر. وبعد أن فرغت من النفاس والولادة، عادت لعلمها الجيد، لكنها كانت عاجزة عن تغذية الطفل ولا أن تكرس نفسها له بطريقة من الطرق. وبدا لها من الأسهل ظاهرياً أن تحول اهتمامها عن الطفل بعدما أصبح أداة خارجية، عما كانت عليه مرحلة التوحد المطلق بين أناها وبين الجنين.

يترافق أي إبداع أصيل، وأي عمل فني على الأخص، بعنصرين رئيسيين، أحدهما أمومي، وهو المبدأ الذي يهب الولادة والذي يؤدي للإبداع الحدسي، والآخر ذكوري، وهو النشاط الذي يتوالد. وتستثمر المرأة عادة حاجتها الإبداعية في مهمة التناسل وفي الطفل، في ما يستثمرها الرجل في عمله. إنما قد يكون من الصحيح أيضاً أن الرجل، نتيجة خطأ في مركّب الروح الأمومية في بنيته النفسية، لا يتمكن من الإبداع في عمله، وأن انتاجية المرأة لا يمكنها التحقق دون قدرة رجولية.

ونستطيع أن نحس وندرك مباشرة، لدى كثير من النساء الفنانات، في أسلوبهن، وجود هذين المبدأين. ولو نظرنا إلى تماثيل الفرنسية شانا أورلوف، نجد وحدة الأم والطفل، حيث يبدو الطفل حاضراً ككيان فردي، في حين أنه لا يكون كذلك إلا مع جسد أمه، وتبدو لنا هذه الوحدة بطريقة لافتة. ويوجه بالتأكيد الحدس والتجربة الأنثوية، الأدوات التي تجسد

إضفاءً لافتاً جداً لفكرة الحمل. ومن الواضح، أنه لدى هذه الفنانة، ضبط المادة وإجادتها وطاقة الإنجاز لهما طابعاً ذكورياً.

وقد دلت الأبحاث الطبية الحديثة على أن زوجين بلا أولاد ليس دوماً موضوع زوجة عاقر، فالرجل قد يكون عاجزاً عن الإنجاب. ومعرفة كيف يتأثر الرجل بعقم زوجته، وعلى الأخص، بعقمه الفردي، ربما يكون مساهمة هامة لعلم نفس الرجل. وحاجة التناسل، باعتبارها حاجة محددة بعوامل نشوء النوع، يحدثها الرجل بإفراز السائل المنوي وإفراغ الشحنة الجنسية. وبالنسبة لدوره التاريخي التطوري كأب ومحام عن حياة ذريته، قد اتصل ذلك مسبقاً، خلال نشوء النوع، بمختلف الغايات الخارجة عن التكاثر، وتعلّم أيضاً تحويل حاجته في التكاثر نحو غايات غير مباشرة. وهكذا تكرس جزء فقط من مبدأ الخالق عند الذكر للعناية بالنسل. في ما تكرس الباقي لغايات أخرى في الحياة. أما المرأة، على عكس ذلك، قد لا تستطيع فصل حياتها الجنسية عن الأمومة، علاوة على ارتباط كيانها النفسي بالسلسلة اللامنتهية للأولاد، وبمهمات التناسل وعلاقتها مع الطفل. فالتخلي عن الطفل له تمثيل عند الرجل أقل بكثير مما هو عند المرأة، رغم امتلاكه لدوافع نفسية عميقة ترفع الإرادة الأبوية لمستوى أعلى من البيولوجية الصرفة.

إن الأسطورة الإبراهيمية لبعث الأب في ابنه، والفكرة التي يعبر عنها الفولكلور بأن روح الجد تعود للظور في الحفيد، هي مبادىء متجذرة بعمق دون أي شك في الحياة النفسية للرجل. وقد أوضح علم التحليل النفسي هذا الموضوع القديم جداً، حين كشف موضوع صيرورة الأب بالنسبة للرجل (وكذلك صيرورة الأم بالنسبة للمرأة)، وتحقيق الرغبات الطفولية القديمة، وأن الطفل ليس فقط انبعاث بالنسبة لأبيه إنما أيضاً مصالحة مع ماضيه الذي لم يتوصل إلى حل. فالأبوة تعطيه شعوراً بالنصر، وبإمكانه الآن أن يحول الاندماج القديم اللاشعوري بين الولد الصغير وأبيه، إلى اندماج واقعي ومستمر. كما ينحل الآن الصراع بين التحريضات العدائية

والوادعة لصالح الأخيرة. والاهتمام بمحبة بالجيل الجديد يساعد الرجل الناضج على التحرر من طفولته، وحاجة التوصل إلى هذا التحرر هو أحد دوافعه حينما يرغب بالطفل. كما أن الإثبات الجسدي لمقدرته الرجولية يعزز إيمانه بنفسه كرجل. وتطلعاته غير المشبعة، تتزود الآن بآمال جديدة وتُعزى إلى مستقبل الطفل.

ورغم ذلك، قد يتخلى الرجال بسهولة كبيرة عن التحقيق المباشر للأبوة، في ما النساء لا يتخلين عن الأمومة، شريطة أن يهيىء النمو الشخصي لهؤلاء الرجال تسام لرغباتهم وصراعاتهم الطفولية، وأن تثبت لهم أنشطتهم الأخرى نضوجهم وخلودهم النسبي.

وتشكل، بالنسبة للمرأة، استحالة إنجاب طفل بسبب عجز الزوج صدمات متعددة في آن واحد. فلقد خاب أملها أولاً في زوجها، والتي كانت تنتظر بعث أبيها بطريقتين مختلفتين، به وبابنه. وبالتالي إنه جرح خطير تفجع به أنوثتها بغياب إشباع المتطلبات المفروضة من سلبيتها الأنثوية، إنها تطلب من رجولية الرجل ان تتأكد في حبلها بطفل. ويشكل غياب المثلث العائلي حرماناً للشريكين. وهذا الموقف ليس ضرورياً فقط لمساعدتهما على تحقيق وحدة بيولوجية، إنما أيضاً ليتيح لهما خلق اندماجات جديدة بفضل الطفل، وتحقيق عناصر مناوئة ومتممة به. فالزوج، على سبيل المثال، قد يحقق جزءاً من «روحه الأمومية» في حنانه للطفل، وتحقق المرأة أو الزوجة جزءاً من رجوليتها في مشاريع مشتركة بالنسبة لمستقبل الطفل، كما يتكامل الزوج بغنى حياته العاطفية، في ما تعزز المرأة إرادتها في التصرف والعمل عن طريق اهتمامها بالطفل.

ولدى العضويات النفسية السليمة والتي تعمل بصورة حسنة، يطلق حرمان الرغبة بالأمومة، قوىً مدافعة، تساعد المرأة على إرساء تعويضات. لكن هذه القوى المدافعة لا تأخذ دورها إلا ضمن شروط ملائمة. على سبيل المثال، عندما يأتي غياب الطفل بسبب العجز الجنسي للرجل، نادراً ما تتوصل المرأة الأكثر أمومية وحناناً، إلى تحمل مصيرها دون تعاسة أو

ألم عصابي. ولا يستطيع أي تعويض ذهني أو أي تسامح في مساعدتها على تجاوز جرحها، والاحتقار الذي تكنه للرجل العاجز. وتختلف، بصورة طبيعية، ردود الفعل الشعورية للنساء لقاء عجز الرجل وفقاً للحالات. لكن النية الطيبة الشعورية للمرأة في مساعدة الرجل نادراً ما تتوصل لهدفها. ولا يقوم التدخل الإيجابي للمرأة إلا بزيادة خوف الرجل العاجز، والمراعاة الأمومية والمتسامحة التي تمنحها له تزيد من تبعيته الطفولية. لكن العجز النفسي الأكثر تصلباً لدى الرجل هو نسبي أحياناً وقد يختصر لبعض الوقت، وهو لا يمنع الحمل دوماً. ومن المثير ملاحظة لأي درجة قد يعوض الطفل، وبخاصة الذكر، الحرمان الجنسي لامرأة أمومية. وقد يمتد الحب الأمومي منها إلى الأب ويترسخ مثلث منسجم رغم الموقف الجنسي غيرالملائم. لكن الخيبة بالطفل، وخاصة إذا كان وحيداً، تطلق ردة فعل انتقامية من الزوجة الخائبة تجاه زوجها. ومن اليسير أن تحيل الأم حبها من الابن إلى الأب، لكن الأمر أكثر يسراً في كراهيتها.

وقد تتقبل المرأة بسهولة كبيرة غياب الطفل، في حال بدت القوة الجنسية لزوجها أكيدة رغم عدم مقدرته على جعلها حاملاً. وقد ينجم مثل هذا الموقف عن بعض العيوب الجسدية في العضو التناسلي الذكري. وسأميز ثلاث أنماط من النساء وفقاً لردود أفعالهن التي يظهرنها تجاه عجز الزوج[1].

1 ـ إنها عادة المرأة الذكورية العدوانية التي يؤلمها جداً تقبل الموقف، إنها ترفض الرضى بأي بديل، كما ترفض أي اقتراح بتبني طفل، وتعود بإصرار إلى رغبتها المتصلبة بالأمومة، عندما تعلم بالاستحالة الكاملة. فهي نفسها التي يجب أن تحمل الطفل وتنجبه، والطفل الذي ليس

(1) لتوضيح الأنماط التي أصفها، اخترت أحياناً أمثلة تصميمية، وبالإمكان العثور مع ذلك على جميع هذه الأنماط تحت مظاهر متعددة مختلفة ومتلونة. ومن ناحية أخرى لجأت إلى تحديد أن صيغة ردة فعل ما ترتكز دوماً على بنية نفسية موجودة مسبقاً.

منها، ليس له أي قيمة بنظرها. وقد صادفت خلال قيامي بمهنتي، كثيراً من النساء بلا أطفال يؤكدن حبهن لأزواجهن، إنما يطلبن منهم، بتهديد الطلاق، أن يسمحوا لهن بالحبل من رجال آخرين. وهؤلاء الأمهات المزعومات وغير الأنوثيات هن على أقصى تعارض مع الشخصيات التوراتية مثل سارة وراشيل:

وأما سارة زوجة ابراهيم فلم تنجب له أطفالاً، وكانت لها جارية اسمها هاجر، فقالت سارة لابراهيم: أهوذا الرب قد أمسكني عن الولادة، فأتوسل إليك أن تذهب إلى جاريتي لعلي أرزق منها ببنين. (سفر التكوين 16: 1 ـ 2)...

و... راشيل ... قالت ليعقوب ... هي ذي خادمتي بيلها، إذهب إليها.

لقد درست حالة مشابهة في الجزء الأول. وفي حالات أخرى عرفتها، أدت المصاعب الزوجية إلى الطلاق، بعد أن فشلت النساء، لأسباب مختلفة، في التوصل لغاياتهن. ويرينا هذا النمط، المركب النرجسي الصرف للأمومة، وفي الفكرة التي عبرت عنها عبارة «طفلي»، وما هو على المحك هنا ليس الاستعداد الأمومي للحب.

ولقد رأينا أن المرأة لا يمكنها أن تحيا علاقة واقعية مع طفل قادم عندما تكون حاملاً، أو بالأحرى حينما لا تكون كذلك. وإنها لا تجابه عندئذ الصراع المأساوي بين الزوج والطفل، أو بين العشقية والروح الأمومية. وتتولد قوى هذا الصراع من عوامل أخرى لاشعورية. ولدى النمط الذي ندرسه الآن، لا تنحل مشاعر الحقد ضد الزوج والنشاط النرجسي إلا ظاهرياً في صالح الروح الأمومية.

2 ـ أما النمط الثاني، فهي تعيش على خير ما يرام مع زوجها العقيم، إنها تتخلى عن الطفل إنما تبحث بدأب عن مواطن الرجولة في زوجها. عليه أن يحقق نجاحات مستمرة في النشاط الذي هو ملكها، سواء كان مالياً أم سياسياً أم علمياً أم فنياً. إنها تظهر الحاجة لنيل قسط من هذا

الإنجاز، وترى في كل نجاح هدية مقدمة لها. إنها تهتم بكل تقدم يحرزه وتشعر بجرح لكل فشل. وهنا الموقف التعويضي واضح تماماً، إنه تعويض مزدوج، يستهدف الأول إضفاء قيمة عالية على الزوج المتدني جنسياً، ويستهدف الآخر إرضاءً مستمراً لزهو أم طموحة. ولدى هذا النمط أيضاً، يتخذ ألم عدم إنجاب أطفال طابعاً نرجسياً قوياً.

3 ـ ويُنسب النمط الثالث للمرأة الأمومية بحق، إنها المرأة التي تستجيب لعقمها بقابلية تحويل روحها الأمومية على أطفال آخرين وأدوات أخرى. إنها لا تبحث عن المسؤول، فإن كانت تحب زوجها، تفكر هكذا: «ليس لدينا أولاد». وأمام هذا الحرمان الكبير الذي يتشاركان به، الزوج والزوجة جديران أن يخلقا، حتى بلا طفل، الكائن الثالث الضروري والذي به يمارس الزوج روحه الأبوية والمرأة روحها الأنثوية، سواء كان هذا الكائن الثالث حقيقياً أم رمزياً، جسدياً أم روحياً. وسأكرر نفسي وأقول: كلما كانت المرأة أمومية أكثر، كلما ستستطيع بيسر أكثر إرضاء روحها الأمومية، حتى لو لم تتمكن من الإنجاب.

وفي البيوت التي لا أطفال فيها، حيث لا تتحدد بيقين، مسؤولية هذه الحالة من الأمور، وحيث لا يحصل الانسجام، يمكن للمنزل أن يتحول إلى محكمة. ويبدو أن مهمته الكبرى تكمن في حل المشكلة: «على عاتق من يقع الخطأ»، ووفقاً للقوى الماسوشية أو العدوانية التي تحكم، يكون الجواب اتهاماً ذاتياً، صامتاً أو مُصاغاً، أو حقداً مملوءاً بالكراهية المكرسة للشريك الآخر. ويصبح هنا الطفل الذي لم يولد بعد الملاك الثالث للمثلث. وترتكز جميع التحريضات العدائية للطرفين في العلاقة التي يحافظان عليها، وكل صراع لتناقضهما الوجداني، وجميع مشاعر الذنب وردود الفعل الخائبة، على المشكلة الوحيدة للطفل المستحيل. والمشكلة التي لا حل لها، ستصبح شيئاً فشيئاً دعامة جميع الصراعات الأخرى.

ووفقاً لشخصية المرأة، هناك ردود فعل فردية، ونقلات متباينة بين الأنماط التي وصفناها. وبالإجمال، قضية «كيف تتأثر المرأة بعد إنجاب

الأولاد؟» تحمل الإجابة عليها سؤالين: «ما هي صدقية روحها الأمومية؟» و«ما هي العلاقات بين الزوج والزوجة؟».

تقودنا مسألة العقم إلى مسألة ثانوية ناتجة عنها، إنها الإجهاض.

لكي ندرك هذا الموضوع، ينبغي علينا فهم توصيات القانون والدين التي تمارس تأثيراً خارجياً على الموقف النفسي. وكلما شكلت هذه التوصيات سلطة لا تنازع، سواء بسبب الخوف الذي يمنع من مخالفة القانون، أو بسبب وفائها لإيمانها، كلما كان الموقف عسيراً على علم النفس. إلا أنه ينبغي ملاحظة أن القوانين العلمانية والدينية تستخدم أحياناً كمسوغات، تخفي الدوافع النفسية الأكثر عمقاً والتي تتحكم بالإجهاض. وبالنسبة لي، لأي امرأة الحق في تحقيق الأمومة أو في التخلي عنها، ويبدو أن كل امرأة طبيعية تتمسك عاطفياً بهذا الحق، سواء كان الأمر شرعياً أم لا.

وحين ندرس نفسياً ردة فعل المرأة على الإجهاض الإجرائي قبل أن يحصل أو بعد، فمن المهم أن نعلم لأية أسباب كان إلغاء الطفل مرغوباً ومحققاً، وإذا كان الأمر معني بالحمل الأول أم لا. فالصعوبات الإقتصادية، والأخلاق الإجتماعية، والخوف من الأهل، واعتراضات الزوج، والعلاقات الغرامية غير المنسجمة، كلها دوافع تُصادف عموماً وتجابه الأمومة المترفعة عن الحياة الزوجية.

ومن الواضح أن على الأمومة المترفعة عن الحياة الزوجية، أن تتوقع عقوبة اجتماعية بسبب الفعل الجنسي «الممنوع» وخاصة إن كانت القوانين الاجتماعية صارمة، والتعاضد الاجتماعي غير كافٍ. ولا ينبغي التقليل من شأن التأثير الكابت للأخلاق العامة على الأمومة. وهناك ميل مسلَّم به لمنح النساء حرية جنسية كبيرة، وعلى الأخص المستقلات اقتصادياً منهن، شريطة ألا ينجم عن ذلك أي عبء على المجتمع. فالطفل المولود خارج مؤسسة الزواج، حتى في نظام ديمقراطي، لازال عبئاً أخلاقياً واجتماعياً.

ونمط الأمومة الذي يعتبر اعتباراً خارجياً، يجب أن يؤثر طبعاً على ردود الفعل العاطفية للمرأة الفردية الحرة، وتنتهز الفرصة التي تتيح لها فصل حياتها الجنسية عن الأمومة. إن رفض الأمومة الخارجة من مؤسسة الزواج يعد، في عدد كبير من الحالات، نتيجة للضغط الاجتماعي وليس لغياب رغبة أن تصبح أماً. إن هذا التخلي هو مؤلم جداً لكثير من النساء، ومع الوقت، يشوش العلاقة الغرامية الأكثر تشوقاً. إنما الحل الوسط قد يبدو مقبولاً ومحتملاً بقدر ما لا يكون حمل المرأة طارئاً.

وينشب عندئذ صراع بين غريزة البقاء والحاجة للأمومة. ويتعثر الموقف الإيجابي للمرأة تجاه الطفل والذي ترى فيه مستقبلاً واعداً، بفكرة سلبية مؤثرة وفاعلة، ويصبح الطفل منذ البداية كعبء ثقيل، ومسبب للقلق النفسي. وهناك ثلاث ردود فعل نمطية لهذا الموقف المغضب. الأول هو ردة الفعل «الثورية» والتي ترجح كفة النصر للروح الأمومية في صراعها ضد المجتمع، وتقرر المرأة تقبل جميع نتائج فعلتها وتستوعب المسؤولية الاجتماعية لطفلها وتحتويها. وتؤدي ردة فعل النمط الثاني إلى النتيجة نفسها بصورة سلبية، وتتقبل المرأة الأمومة هنا دون أن ترغبها، وتعتبرها مصيراً لا مفر منه وتشعر أمامه بالعجز. وسنتعرف على هذين النمطين من ردود الأفعال لدى الفتيات الأمهات وسندرسهما لاحقاً.

أما النمط الثالث من ردة الفعل، هو بلا شك، خارجياً، الأفضل في تكيفه مع الواقع، ويكون في محنة في سبيل إلغاء نتائج العلاقة الغرامية بالإجهاض. والمرأة التي تتقبل أو ترفض الحمل هما غالباً من بنية نفسية متماثلة تقريباً، وردود فعلهما المختلفة ليست إلا مظاهر مختلفة لنفس التوجه النفسي. فالمرأة الإيجابية العدوانية قد تجابه أخلاق المجتمع وتحافظ على الطفل، وأنها تتخلص منه بلا تردد، منادية بحق المساواة مع الرجل وحريته الجنسية، أسوة بالبطلة جينيا في الأدب، التي دافعت عن هذا الموقف والتي تمت دراستها في الكتاب الأول. أما المرأة السلبية فلن تسمح لرغبتها في الطفل أن تتعارض مع المعتقدات، وستتخلص منه

بالتأكيد بضغط من الخارج. إن الفروق الفردية للسلوك لا يمكن أن نشهدها بيسر إلا بالتدقيق والإمعان. وهكذا فالمرأة الأمومية تغذي بصمت أفكاراً حول: «كم سيكون لطيفاً»، في ما المرأة العدوانية قد تدخل في عراك ضار ضد العدالة الاجتماعية وضد الرجل، أما المرأة التي أعياها القلق النفسي فهي تخاف من الموت، والمرأة المتألمة من مشاعر الذنب تضمر الحقد لذاتها... إلخ

وعلى خلاف ما نراه في مواقف الفتيات الأمهات، لا يؤثر إطلاقاً الخوف من الأعراف الاجتماعية في مواقف النساء المتزوجات. وتكون هنا البواعث الواقعية للإجهاض الإجرائي، المصاعب الاجتماعية من جميع الأصناف، مثل التشوش لمشاريع معينة، أو رغبات «لدى ربات البيوت الشابات» في البقاء وحيدات لبعض الوقت، والشعور بعدم استعدادهن بعد للأمومة، والخوف من المسؤوليات، وفي البيوت الأكثر قدماً، هناك وجود لعدد آخر من الأولاد يجعل من غير المرغوب به تنامي العائلة أكثر. ولدى النساء المتزوجات كما لدى غيرهن، تتبع ردود الفعل النفسية للإجهاض هذه الدوافع. فالمرأة في الأمومة المنسجمة، والتي تجد كفاية مشبعة لروحها الأمومية في الأطفال الذين أنجبتهم سابقاً، تتأثر لهذه الخسارة بطريقة عقلانية، أي دون أي تعقيدات عاطفية، شريطة ألا تكون عصابية.

والمرأة المنزعجة داخلياً من الحمل والولادة بلا انقطاع (كما أسلفنا)، تتأثر بالإجهاض الإجرائي، تفرض على نفسها إما أخطار مظاهر عصابية أو حمل جديد طارئ. ورد الفعل المباشر هو غالباً مميز، إنه نوع من الظفر على انزعاجها في أن تكون حاملاً، هذا الانزعاج الذي نفاه الإجهاض. إنما اكتئاب أو حمل جديد يظهران بعد بقليل.

وترى نساء أخريات في الحمل إلزاماً خارجياً، وكأنه عبودية. إنهن يسارعن في التحرر من قيودهن، وأول ردة فعل هي شعور بسعادة التحرر. وبالنسبة لهؤلاء النساء أنفسهن حتى الزواج هو قيد، وبعدم شعورهن بقيودهن الداخلية واللاشعورية، يجعلن الظروف الخارجية مسؤولة عن غياب حريتهن.

والنساء اللواتي يحملن ردود فعل مفرطة في الذنب، يستخدمن موقفاً كالإجهاض لاتهام أنفسهن بقسوة. وحتى لو أعلنت هذه المرأة بصورة ذهنية عن صحة عزمها وثباتها، فإن أناها الأعلى الطاغي لا يترك تمرير هذه الفرصة، ويعود الشعور بالذنب للظهور بعد ذلك، وحتى أحياناً بعد سنوات. وخلال اكتئابات سن اليأس، يرتبط ثانية الاتهام الذاتي: «أنا قاتلة الطفل» بالإجهاض المنسي منذ زمن بعيد. لقد جرى معي أن اختبرت امرأة استحواذية مهووسة، وطبيعية في ما عدا ذلك، والتي كانت متضايقة لحدثين، بسبب حالتها الصحية، أجهضت فيهما جنينين في الشهر الثالث. لقد شعرت نفسها مجبرة على إقامة قبرين صغيرين من أجلهما، وقد رعتهما برحمة كبيرة. وكانت تردد: «كانا سيصبحان كائنين بكل معنى الكلمة» وأفكارها حول هذا الأمر تتغير، حتى بعد أن أنجبت عدة أطفال.

وامرأة أخرى لم تشعر بالذنب إلا بعد انقضاء عامين، عندما أنجبت طفلاً مشوهاً بعد عامين من إجهاضها، فاعتبرت «فعلها الإجرامي» مسؤولاً عن مصيبتها. ومن البديهي أن مشاعر الذنب القديمة انطلقت بسبب الإجهاض، وتتعلق شدة هذه المشاعر بالاستعداد النفسي المسبق للمرأة، وبتحديد أكبر، بقابليتها الأولية تجاه الأمومة. ولعل شعور «قتلت طفلاً»، هو عادة تذكر مبهم لحادث من ذلك الماضي البعيد، حيث العدوانية ضد حمل الأم، أو ضد أخوة وأخوات أصغر سناً، يثقل اللاشعور بخطأ تمني إلغاء هؤلاء الأخوة والأخوات.

ويكشف اختبار ممعن أكثر الآليات الداخلية، التي تلعب دوراً في عدد كبير من حالات الإجهاض الإجرائي، أنه في الأعماق، لا توجد امرأة تستجيب هنا بواقعية كاملة، فالتسويغ هو الاحتمال المفضل. ومنطقياً، يبدو من المستبعد أن تطلب نفس المرأة باستمرار الإجهاض لأسباب عملية وترفضه في الوقت نفسه. وبالنظر إلى ذلك عن كثب، نلاحظ أن هذه التناقضات نادراً ما تنطوي عن حاجة الأمومة التي قد تدخل في صراع مع الواقع. وينبغي علينا هنا الأخذ بعين الاعتبار، كل ما هو غير مرغوب في

الحمل، على أنه مشترك في الحياة النفسية. ورغم المعارضة الواعية، تستجيب مثل هذه الحمولات، مع ذلك، لتمنيات قديمة، وكما ذكرنا، هذه التمنيات هي «مخافر أمامية» للأمومة، وبسبب ذلك، يشكل تعطلها صدمة مهما كان الواقع. ومن ناحية أخرى، يعد الحمل غير المتوقع نفسه تعطل لنظام نفسي موجود، وقفزة فجائية في الحياة. لكن التعطل الإضافي، والآتي من الخارج، «الإجهاض»، يدمر أيضاً الطور النفسي المرافق للأحداث الفيزيولوجية وهكذا يجعل من المستحيل سوقه إلى بر الأمان.

وهكذا فالمشهد النفسي هو على غاية من التعقيد، وإرضاء أمنية قديمة متعطل، وصدمة الحمل لا يتم تحييدها إلا ظاهرياً بواسطة الإجهاض، وبالفعل يتعقد هذا الأخير بصدمة جديدة. والصراع الإجتماعي وحده يمكن أن يُحل ويتم تحاشيه بالإجهاض. وليس إلا بعد حين، بالنتائج النفسية، علمنا أنه قد حصل شيئاً ما زيادة عن الصراع الواضح. لقد علمنا أن الحمل، وعلى الأخص الحمل الأول، يشكل تجربة لقدر منتظر، حتى في الظروف الأكثر ملاءمة، تهيأت المرأة له نفسياً منذ سنوات عديدة. ونفهم أيضاً، لماذا ردة الفعل الثانوية على إجهاض ما، قد تكون أشد حينما تنفصل المرأة عن الطفل بعد ولادتها. والتعلق الداخلي، والاندماج مع الطفل الذي نعتبره كسمة من سمات الحمل، يصدر رغم الظروف الخارجية. وحتى لو لم يكن لهذا التعلق التعاضد الإيجابي لمشاريع مستقبلية طبيعية وسعيدة، يكون له هذا التعاضد من ماضي المرأة كله ضمن الإطار الذي تكرّس به الإمكانية للطفل. وبعد طور الاندماج، لا يؤذي تدمير الجنين فقط الطفل غير المرغوب فيه، «الطفيلي الباطني»، إنما أيضاً جزءاً من أنا المرأة. وردة الفعل على الخسارة واردة أيضاً، ويرجح أن تكون: «دمرت طفلاً» من أن تكون: «دمرت شيئاً ما من ذاتي». فهناك في الوقت نفسه رغبة بالخروج «بلا تعديل» للموقف، وهذا ما لا يتحقق دوماً.

وبعد أن تتخطى كثير من النساء الشابات خوفهن الأول، يبدين أولاً قابلية عقلانية تماماً، ويرين في الحمل نتيجة طارئة للفعل الجنسي والذي

هو فعل يرغبه الأنا ويحس به، ويرين في الجنين نمواً خارجياً مزعجاً يتوجب استئصاله. ولا يبدأن بالأسف لنشاطهن الجنسي إلا بعد الحدث، وتحول اللوم، بالنظر إلى الماضي، من الإجهاض إلى الجنس. ويصبح التخلي عن الأحاسيس الجنسية إذلالاً، طالما هناك ثمة داعٍ للأسف على نتائجه.

ولنذكر بأي تكرار، تتشوش علاقة المرأة بالرجل، بمصادفة حمل غير مرغوب به وقرار التخلص منه. فالرجل يعتبر غالباً، خارجاً عن المشكلة، وهذا ما يكثر حدوثه، وحتى هناك ميل لإقصائه تماماً عن جميع مظاهر هذا الشأن. كما لو أن المرأة يشرفها حل هذه الصعوبة لوحدها. وكلما كانت علاقة الحب محتدمة أكثر، كلما كان شعور المرأة أكثر بأن تعاني كونها منتقصة. وفي أحلام المستقبل المشتركة، يعتبر الشريكان الطفل، الذي قد تنجبه، كشيء «مدهش»، في ما يصبح الآن شيئاً بلا قيمة، ومزعج، ومقدر له الاستبعاد. وتجد المرأة نفسها فجأة، أمام ضرورة تدمير ما، له قيمة كبرى، وغالباً، ليس إلا كي تتيح لزوجها الحفاظ على قيمه كـ «مهنته وطموحاته...إلخ».

وأحياناً، مهما كان رفيعاً التفاهم المتبادل بين الشريكين قبل الإجهاض، يطرأ تبدل لدى المراة بعد ذلك. وحتى لو قيّما الـ«مع» أو الـ «ضد»، وقررا معاً، يتحطم اتحادهما بعد ذلك. ويتضح خطأ السبب البسيط القديم، وتدرك المرأة الآن أن الموافقة التي أدلت بها لزوجها أو عشيقها حول موضوع الإجهاض، كانت ذات طبيعة متناقضة وجدانياً. وأحدث ألمها والمانع المعارض لوجودها تغيراً في نفسها، وحتى لفترة قليلة لصالح غاية غير إيجابية. وفي أعقاب تجربتها الجسدية، تقول في نفسها: «أنا لست مطلقاً كما كنت في السابق».

ويمثل الإجهاض أحياناً، بلوغ حاجة نرجسية تشعر بها المرأة عندما ترى في جسدها «حرماً» يرغبه الرجل. وهناك شعور مبتذل لدى الفتاة الشابة، بأن الرجل يفقد احترامه حينما يمتلكها، ويتأجج هذا الشعور بهذه

التجربة الجديدة. وتتميز ردود فعلها العاطفية في كثير من الحالات بميوعة غريبة إلا أنها ظاهرية فقط. ويمكن تصوير ذلك بحالة زوجين شابين وجدا نفسيهما أمام موقف من الموجب اجتيازه. وكان الشابان قد شهدا حباً منذ سنوات عديدة، وقبل عام من الأحداث التي نتكلم عنها، أصبحا عاشقين، ومن جهة أخرى، كلاهما ضعيفا التجربة إلى حد كبير. وحالما أصبحت الفتاة الشابة حاملاً، بادر الرجل في عرض استعداده للزواج منها، بغية التمكن من الحفاظ على الطفل. لكنها اقترحت الإجهاض، مراعاة لأن عملها وطموحها سيتأثران سلباً في تلك الفترة، في حال أقدما على تأسيس بيت زوجي. وكانت دوماً معجبة بإنجازاته، ومواهبه، وكلاهما يحلمان بمستقبل مشرق، وقد أُرجِئت فكرة إنجاب طفل إلى تاريخ لاحق. وكلاهما كانا متحررين في تفكيرهما، وكانت أخلاقيات الفتاة الشابة صارمة، لكنها لم تكن تدين إجهاضها. وعندما كان حبيبها يأتي لزيارتها خلال نقاهتها، كانت علاقتهما لا زالت حميمة ومحبة. إنما بعد شفائها، رفضت رؤيته، مدعية أنها برغم عدم كراهيتها له، «تشعر بفراغ عند حضوره» وأنها فقدت مشاعرها نحوه.

كانت نتائج الملاحظة النفسية لهذه الحالة اختصاراً كما يلي: خضعت المرأة بصورة إرادية وعفوية لغايات حبيبها وقطعت حملها، لكنها لم تنجز أصلاً لتضحيتها، وحقيقة الأمر أن هذه التضحية كانت تنطوي على أكثر من موقف جسدي مربك. لقد ندمت بعد ذلك على فعلتها، وأحست أنه ليس من المحتم عليها إرضاء تضحية ما. كما شعرت أيضاً بعدم مساواة روحية مع حبيبها، واستولى شعورها بالدونية الجسدية والأنثوية على إدراكها بصورة قوية، لأنها أُكرهت على تحسس شيء ما بأن حبيبها لا يشاركها نفسياً. ويمكننا ملاحظة كيف أن الأطوار النفسية لهذه المرأة قُطِعت، وكيف أن اندماجها السابق بالرجل تحطم بتجربتها. وإمكانية جديدة للاندماج بمثلث عائلي لن تظهر. إنها لم تكن تعرف بيقين تام، إن كانت تأسف لتخليها عن الطفل، وما أحست به، أن شيئاً ما من ذاتها قد رحل.

لقد صدرت عدة ردود أفعال نفسية أضيفت على الشعور العصابي بالفراغ. وكانت ردود الفعل هذه أسف ناتج عن التضحية، كما هناك انطباع الانفصال عن جزء جسدي من الأنا، وشعور الدونية الأنثوية، محصلة للطور البيولوجي، وأخيراً جرعة وافية من الحقد المرفوض تجاه حبيبها. لقد كانت الفتاة الشابة تستخف ظاهرياً بمعنى الأمومة في حياتها العاطفية، إذ استعارت أناها القديم الحيوي جداً، عندما تزاوجت مع عشيقها وحملت منه طفلاً.

إن تصرف هؤلاء النساء اللواتي دربهن نحو الإجهاض مرصوفاً مقدماً بجميع ردود الفعل من الخجل والغضب الشديد والحقد ضد الرجل، يتبع بالطبع سياقاً طبيعياً وبسيطاً أكثر. فهناك امرأة تُشفى من صدمتها بسرعة خاصة وترجع بصورة كاملة لامتلاك شخصيتها السابقة. في ما يكون بعض العدوانية والرجولية عوناً كبيراً لامرأة في المواقف التي تصادف فيها أنوثتها بعض الصعوبات. ومع ذلك قد تصبح الكثافة الهائلة لهذه المركبات تهديداً مستمراً وشاقاً للرجل، والذي لا ينجح دوماً في توجيه هذه العدوانية على مسالك لا أخطار فيها.

وبنهاية المطاف، بقدر ما تكون الحياة النفسية متعلقة بذلك، تكون المشكلة هنا في إيجاد توازن بين القوى النرجسية والماسوشية. والتألم بلا تعويض يصعب احتماله ويتجاوز حدود الكفاءة الأنثوية الماسوشية.

وبالإجمال، ليست صدمة الإجهاض الإجرائي لا دواء لها، ما لم تسبب خسارة عضوية. وما يحصل أحياناً، وخاصة حين يُعهد بالإجهاض لأناس لا يفقهون شيئاً بالطب، أن الجهاز التناسلي للمرأة يفقد امكانيته على التناسل، لدرجة أن المرأة تصبح عقيمة. وتصبح التجربة عندئذ شؤماً، وحل الصراع لا يعود مناسباً على الإطلاق، والذي كان جيداً نسبياً عند الانطلاق. هذا الشكل من العقم هو الأصعب على التحمل، إذ لا يعني الأمر هنا فقط الحرمان من الطفل، إنما أيضاً مصدر مستمر لمشاعر الذنب، فضلاً عن الاتهامات العدائية ضد الرجل: «لو كان رجلاً محباً في

الواقع، لكان خلصني من هذا الشأن»، هكذا يعبر عن نفسه شعور هؤلاء النساء الخائبات. ويؤدي دوماً التخلي عن الطفل، حين ينجم عن أسباب اجتماعية، إلى إحساس صريح، على نحو أو آخر، ضد الرجل. ولو اصبح هذا التخلي أمراً مستمراً، بحيث الإرادة لا تستطيع أن تفعل شيئاً حياله، لتنامى هذا الاحساس وأصبح غالباً لا يقاوم.

لقد بذلت ما في وسعي لأبين أن هناك في حياة المرأة مواقف دقيقة مرتبطة بوظيفة التكاثر، ومتجذرة بعمق كبير، بحيث حين تُحل بطريقة واقعية، وبلا شكوك أو نفور يتوجب تخطيهما، فإن هذا الحل لا يؤول بالضرورة إلى نتيجة سارة. والتكيف مع الواقع، يتضمن أحياناً تشوشات عاطفية خطيرة. إلا أن الخيار الأصلح هو في المبادرة التي يطرحها السؤال التالي: «هل من الواجب علي، وهل أستطيع، وهل أرغب الاحتفاظ بالطفل؟» هوذا الطرح الذي يتضمن أقل خطر مباشر. فالأخطار اللاحقة من الممكن تجنبها جميعاً، وإن كان القرار بالنفي أو الإيجاب، ومن المستحيل القول مقدماً أين يكمن أكبر خطر في كل حالة فردية.

وكما ذكرنا، إن القوانين والتوصيات الدينية الموجهة ضد الإجهاض تعقّد الأمور. ومن المثير، الملاحظة في هذا الخصوص أن الحس والرأي العام والحكم الأخلاقي الطبيعي يتقبلون الحق الإنساني المنوط بالمرأة في أن تصبح أماً أم لا، وبكل الوسائل التي تحت تصرفها، وفقاً لما تتمنى. لأنه، إذا نحينا جانباً موقف بعض الفئات المتأثرة بالكنيسة الكاثوليكية، فإن ردة الفعل العاطفية الطبيعية للإجهاض تميل، في غالبية الحالات، ولدى الحضارات المختلفة، إلى صف المرأة رغم القوانين التي تحكمها.

إن المصالح العرقية والسياسية أو الاجتماعية لا تتلاءم دوماً مع حقوق الفرد. وقد نجد في المسقبل القريب، توازناً منطقياً بين هذين النوعين من حقوق المرأة: حق الأمومة المدعوم بأفضل حماية لها، وحق الضبط الإرادي أو التخلي عن الأمومة.

ولعل الإجهاض الإجرائي هو فعل إرادي على نحو أو آخر، وغالباً ما يكون تكيفاً حسناً مع الواقع. في ما الإجهاض التلقائي هو أمر آخر تماماً. وهو غالباً تعبير عن طور نفسي مستقل تماماً عن الإرادة الواعية، كالطور العضوي نفسه.

إن تقدم علم الغدد سيسمح لنا، شيئاً فشيئاً، بتشخيص الأعراض القوية التي ينشأ عنها الإجهاض التلقائي، وخاصة عندما لا يوجد أي خلل عضوي واضح. ونحن نعلم اليوم أن نسبة عالية من الإجهاض التلقائي والولادة قبل الأوان تعود لأسباب مثل عدم توازن غددي عام، أو عدم اكتفاء مبيضي أولي، أو اضطرابات درقية أو نخامية...إلخ، والانقباضات التي تنشأ في الإجهاض أو الولادة المبكرة هي نتيجة نهائية لطور قد يكون متعلقاً باضطراب في الإعداد الهرموني، إنما قد يكون أيضاً دون أدنى شك، منطلقاً ومتسبباً ومكثفاً بعوامل عاطفية.

والإجهاضات المتعددة التي لاحظتها، كانت بلا خطأ ممكن، وبلغ تأثرها بعوامل نفسية حداً جعلها من الممكن أن تكون مسؤولة عن الطور. وتختلف هذه الحالات عن الإجهاضات الإجرائية بطريقتين:

1 ـ العامل المسبب هو في النفسية.

2 ـ المرأة الحامل التي استخدمت هذا العامل لم تتصرف بإرادة واعية ولا بتوافق مع أمنياتها الشعورية. وعلى العكس تماماً، ما هو مميز تقريباً في هذه الحالات برأيي، أن القوة اللاشعورية الموجهة ضد الحمل تكون على تعارض كامل مع الرغبة الشديدة، والشديدة أحياناً بصورة غير طبيعية، التي تظهرها المرأة لإنجاب طفل. وبالأبحاث التي أجريت، بصورة منتظمة، على الإجهاض التلقائي، سنتعلم بلا شك ما إذا قابلية الجسد في الاستجابة لهذه الطريقة للتحريضات النفسية ترتكز على عناصر هرمونية، وأي ناحية تعود إلى الميول الفردية للإبعاد...إلخ

ولم أستطع وضع أنماط نفسية للنساء اللواتي يكن مهيئات أكثر من غيرهن للإجهاض. إنما لدي انطباع، خاصة في حالات الإجهاض

المتكرر، أن ميولاً تخريبية موجهة ضد الأنا أو ضد الغير كانت هي السبب[1].

حصل مع مريضة ذكية عدة إجهاضات، كانت تعتقد أن عبارة «الإجهاض الجرمي» تشير للإجهاض التلقائي، مما يدل على طبيعة أفكارها اللاشعورية.

وينبغي القيام، بلا شك، بالتمييز بين الأسباب العاطفية الحادة التي تحدث كصدمات، والأسباب النفسية العميقة، العائدة للبنية الفردية. وشخصياً لم أتحقق إلا من وجود الأسباب العميقة، وقد توصلت في كل حالة إلى نتيجة مفادها أن عوامل متعددة كانت مشمولة، وأن إضافة كل هذه العوامل كان ضرورياً لحدوث قلق نفسي لاشعوري كاف، وعجز، وإرادة سيئة، لجعل الأنا مدركاً، والذي يرغب الطفل، وعاجزاً عن مقاومة الميول اللاشعورية. ولنتذكر أن لدى أليس (ص152) ميولاً مسبقة في الإبعاد والطرد، منسقة مع الخوف من التبعية للأم، ومع الغضب العدواني ضد الزوج، أحدثت تقلصات رحمية وتهديداً بالإجهاض. ولدى نساء أخريات، يصبح الحمل ساحة علنية للمعركة حيث يكون الطفل إلى جانب القوى المعادية، أو أن الميل للعقاب الذاتي يمتلك قوة ما، بحيث يكون مستحيل وخطر الاستجابة للرغبة العارمة في إنجاب طفل.

وقد حصل مع السيدة سميث (ص 166) عدة إجهاضات لأنها كانت تخشى عجزها من أن تصبح أماً. وقد تفهمنا خوفها عندما اكتشفنا أنها ترفض الاندماج بأمها[2].

(1) لا أريد التحدث هنا عن حالات الإجهاض المعتادة حيث تكشف عن عيوب عميقة في نمو الخلايا التناسلية. ولا أعلم ما إذا قد يُعثر على عوامل نفسية وراثية إضافية في هذه الحالات.

(2) بصورة عامة، يعزز رفض الاندماج بالأم الرغبة لدى الفتاة الشابة في أن تتشبه بأبيها. وقد يؤثر ذلك في كل موقفها من الحياة، وفي جميع اهتماماتها المهنية، وطموحاتها...إلخ والصراع المتنامي مع الأمومة يتخذ طابع تناحر بين الأنوثة والرجولة.

ولدى كثير من النساء، تشترك فكرة الطفل بشدة، مع فكرة إنجاز ما (الزواج مثلاً)، بحيث الكبت العصابي المتأثر بإنجاز شيء ما في مجالات أخرى، قد ينعكس على الطفل، ويؤدي هكذا إلى الخوف المستمر من الفشل، والذي يعبر عنه الميل للإجهاض.

وسنجد مثالاً مفيداً، على نحو خاص، من الناحية العلمية، عن إجهاض نفسي وراثي، في قصة السيدة بيكا، والتي لم تأت للعلاج النفسي التحليلي إلا بعمر الخمسين عاماً.

فعندما كانت طالبة شابة، أقامت علاقة غرامية هائمة مع أحد أساتذتها الذي لم يكن يكبرها إلا بسنوات قليلة، لكنه متزوج وأب لطفل. ولم يكن يحب زوجته، إنما لا يستطيع التخلص من شعور، بأنه مرتبط بهذه المرأة وبطفلهما بشكل غير قابل للفسخ. وكان لهذا البيت طابع شكلي وظيفي تماماً. في حين أن علاقته الغرامية مع طالبته كانت قوية ومرضية. وخلال العلاج، أدركت المريضة أنه في تلك الفترة، كانت قد قبلت بالحالة الراهنة للأمور، إنما ليس دون أمل مكتوم بأن حبيبها قد يعلن الطلاق لصالحها. لكنها لم تكن تعتبر نفسها آنئذ «فوق» المقتضيات البرجوازية. وكانت ترغب بحماس، أكثر فأكثر، أن تنجب طفلاً من الرجل الذي تحبه، لكن حبيبها، المرتبط بضرورات وضعه المدني، لم يواسِها إلا بالوعود. ولاحت أمنيتها ذات يوم أنها في طريق التحقق، حيث ظهرت عليها الأعراض الأولى للحمل. وقد قرر الحبيبان معاً الإجهاض، فاكتشف الطبيب الذي ذهبا لاسشارته، أن الفتاة ليست حاملاً، واختفت الأعراض بعد فترة وجيزة كما هو متوقع.

لكن العلاقة التي كانت لهذه المرأة مع هذا الرجل أُصيبت إصابة عميقة. وقد استأنفتها وكأن شيئاً لم يحصل، وتطلعت بشوق لاستعادة حبيبها حينما فارقته، إنما في أكثر اللحظات سعادةً، قالت له: «عندما سنكون كلانا طاعنين في السن، سأقول لك شيئاً ما».

وقد ألمحت أنها ستقول له كم جعلها تعيسة وكيف دمر حياتها في رفضه للطفل. وقد رغب هو أيضاً ظاهرياً أن يتحد بالفتاة، وربما أحس حدسياً أيضاً كم هي ترغب بطفل، وربما خشي من أن يفقدها. وراح يتحدث عن الزواج الممكن في المستقبل. وقد أظهرت زوجته أعراضاً جديدة لمرض قديم في القلب، وكانت تكهنات الأطباء متشائمة. ولا يمكننا أن نخمن الأمل في تصوره رؤية زوجته ميتة، لأن أياً من الحبيبين لم يسمح لنفسه أن يصوغ هذا التمني صياغة واعية، أو على الأقل أن يعبر عنه بالكلمات. وبانتظار هذا الحدث، كان الرجل يقوم بواجبه على أكمل وجه بالقرب من زوجته وكان قلقاً جداً على صحتها. حينئذ، وخلال انقطاع موسمي قصير عن عملها، تلقت الفتاة رسالة من حبيبها يخبرها فيها أن زوجته قد توفيت فجأة في مصح بفعل مرض القلب.

ومن الواضح أن القدر صحبها على عتبة السعادة. وكان عليها أن تعود لتلتقي بحبيبها بعد بضعة أسابيع، وراحت تضع مخططات للمستقبل، وبحرية هذه المرة. إنما قبل أن تعود لترى حبيبها، وقعت بغرام شاب كانت قد عرفته في ما مضى، ولم تكترث حينها به على نحو خاص. وسرعان ما التزمت بهذه العلاقة وانخطبت.

وعندما وصل الحبيب الأول، وجد نفسه أمام أمر قد تم. ويا لها من أشهر في صراعات منهكة، بذل خلالها الأرمل قصارى جهده في غزل عنيف للفتاة، بينما هي كانت تتأرجح في مكانها، بين حنين مؤلم وعدم اكتراث تام. وشيئاً فشيئاً فاز الشعور الأخير، وتزوجت خطيبها، وكانت في منتهى السعادة. لكنها أبدت صعوبات في أن تصبح أماً. وقد رغبت في إنجاب الأطفال، وحملت لعدة مرات، لكنها لم تتوصل لإنجاب طفل. وحصل معها أحياناً إجهاضات تلقائية، وأحياناً أخرى ولادات مبكرة. وبما أنها كانت فنانة، وتكن للفن شأناً كبيراً، وبما أن علاقتها مع زوجها كانت حميمة وصدوقة، فلم تشعر نفسها تعيسة واقعياً. وقد لقي حبيبها الأول حتفه في موت بطولي أثناء الحرب العالمية الأولى. وليس إلا من خلال

التحليل، حتى أدركت مريضتنا لماذا حصل إجهاضها الأول ما إن علمت بخبر وفاته.

وفي الحقيقة، كانت تريد إنجاب أولاد، إنما فقط من ذلك الرجل الذي منعهم عنها. وذكّرها موته باستحالة تحقيق أمنيتها. وقد اكتشفت أنه حتى في سن الخمسين، بعد أمد كبير من الأحداث، كان لديها تخيل وهمي يستجيب لرغباتها الأمومية بعد انفصالها عن حبيبها الأول.

كانت تتخيل أنها عندما اعتقدت بحملها وهي طالبة شابة، كان الأمر كذلك بالفعل، ثم، حين أحست بمعارضة حبيبها، كتمت حالتها، وسافرت إلى المغترب، وأنجبت طفلاً رائعاً أولته كامل الرعاية. وفي تخيلها الوهمي، نجحت في عملها، وكونت العديد من الأصدقاء، وجمعت حولها حلقة من الناس المثقفين الذين أحبوا ابنها الصغير لدرجة العبادة. وحاول حبيبها اللحاق بها، لكنها كانت دوماً ترده وترفضه. إلى أن أتى بعد عدة سنوات، إلى الشقة الصغيرة التي تسكنها، والتقى هناك بشاب رائع، عرف أنه ابنه. لكنه أجبر على التخلي عنه، لأن حب الأم الجريح تصاعد ما بين الأب والإبن.

وخلال العلاج، أمكن تفسير، حب هذه المرأة لرجل يعاني من زواج سيء، وعناد تعلقها به، وحاجتها المتأججة للثأر...إلخ، أمكن تفسير كل ذلك على أساس دوافع عميقة محددة مسبقاً. وإذا اعتبرنا أن رغبتها وتخيلها الوهمي بالثأر بقيا حتى بعد حبيبها الأول، أمكننا أن نخمن امتداد الخيبة وقهر النفس النرجسي اللذان أحست بهما. الأمر الذي جعل موت الزوج ضرورياً لتتمكن من إشباع رغباتها العشقية غير المحتملة في حب الذات كفتاة شابة.

وتذكرت مريضتنا أنها ما إن علمت بمرض زوجة حبيبها، حتى خشيت من رحيل هذه المرأة، لأن هذا الحدث سيرفع لحبيبها، إمكانية إثبات إرادته في تحطيم جميع الصلات التي تجمعه بعائلته ومجتمعه في صالح حبه لها. وهي لا تستطيع التخلي عن فرض ذلك عليه. وكما نوّهت

عن ذلك بنفسها، إنها تستطيع التخلي عن كل شيء عدا هذا المطلب. وبقيت رغبتها في إنجاب طفل مرتبطة بهذا الرجل الذي لم يمنحه لها.

لقد شغلها التخيل الوهمي في إنجاب طفل من هذا الرجل بشكل كامل، لدرجة أنها لم تبق مكاناً في قلبها لطفل واقعي. وكان هدف هذا التخيل الوهمي إرضاء حقد عدواني أجدر من أن يكون رغبة أمومية فعلية. ولم يستطع الطبيب النسائي تفسير عجزها عن إنجاب طفل من زوجها، رغم رغبتها بذلك بصورة شعورية.

ولنلاحظ أن ميلها في التعبير عن مضامينها النفسية بأعراض جسدية تناسلية، كان قد ظهر منذ مرحلة شبابها. فمنذ أن كانت في المدرسة، كانت تشبع هذه الأعراض رغبتها في إنجاب طفل، وبادرت في ما بعد أيضاً، إلى أساليب عضوية لتعبر عن احتجاجها اللاشعوري ضد طفل من رجل لا تحبه.

إن كفاح المرأة ضد حمل لا ترغب به، يستخدم أساليباً تتعدى الإجهاض الإجرائي، أو التلقائي. إذ تتخذ كثير من النساء، ضد موضوع إنجاب طفل، موقفاً نفسياً صلباً بحيث أنه رغم التبدلات الجسدية الواضحة ينكرن حملهن، ويبدو بكل طيبة خاطر، يجعلنه هكذا، بطريقة سلبية، لا وجود له نفسياً. ولعل النفور من إنجاب طفل، ليس دوماً دافعاً لنفي كهذا. ففي كثير من الحالات، يستخدم هذا الحل أثناء صراع لتناقض وجداني قوي بين «أريد» و«لا أريد»، صراع يرغم على الصمت أو يرجئه لفترة لاحقة. لقد لاحظت هذا النفي في حالات عصابية هاجسية خطرة. وفي حالات أخرى، لا يصدر التوجه الجديد العاطفي للمرأة بسبب نوع من الغباء العاطفي، وتبقى المرأة تحت انطباع أن «لا شيء جديد يحدث».

ولدى كثير من النساء، وعلى الأخص الأكثر شباباً منهن، ينجم نفي الحمل عن نوع من الفتور النفسي، أو نفور لرؤية بوادر تعقيدات لحياتهن. وتكون مثل هؤلاء النساء طفوليات، ويبتعدن كثيراً عن التفكير في أن يصبحن أمهات، لدرجة أنهن عاجزات كلياً عن تقبل الواقع. ولدى أخريات، يصبح النفي السبيل الوحيد لانقاذ حمل يهدد الواقع الخارجي:

«لم أكن أعلم بذلك» هكذا تقول النساء الشابات الحاملات وغير المتزوجات عندما تصبح أعراض حملهن مرئية لجميع الناس، ويصبح التدخل فواتاً للأوان. ومثل هؤلاء النساء، يتكرن أحياناً الموضوع بعناد إلى حين مفاجأتهن بآلام الطلق. وفي كثير من الحالات، يأتي النفي عن مشاعر بالذنب لاشعورية، والتي تعبر عن نفسها هكذا لتجد تهدئة من آلام أمومة غير مؤاتية وفي غير أوانها، ويخدم التفي هذا الدافع الماسوشي استحالة أي معونة خارجية. وقد يفاجىء الحمل المنفي أشخاصاً آخرين، ويخدم هنا جهاراً وعلانيةً إشباع الميول المحبة للانتقام.

وتنضم مع اللائي ينفين حملهن، النساء المنزعجات من الملاحظة الموضوعية لذواتهن، في خشيتهن من أن يكن عاجزات عن الإنجاب، وخاصة حين يلعبن مع القدر لعبة ما: «ربما لن يكون في الأمر شيء من ذلك في نهاية الأمر، ويستحسن في هذه الحالة، أن أحمي نفسي من الخيبة» هكذا يبدو لاشعورهن يقول، إنه طبعاً هنا خوف خرافي، قريب جداً من ذلك الاعتقاد بأن السعادة التي نتبجح بها لا تتحقق.

وبالإجمال، ما لم تكن على صلة بعدم كفاية ذهنية كالغباء أو الحمق، فإن الأمر بالنسبة للمرأة، ألا ترى حملها يأتي من أحد الدوافع النفسية المختلفة التي أتينا على ذكرها.

وعلى عكس الحمل المنفي يأتي الحمل الخيالي، أو الحمل العصبي أو الوهمي.

إن قلب الفتاة الشابة البالغة يمتلىء بالمخاوف من موضوع الحمل، ويلعب خيالها العالي التأثر دوراً مع أعراض مختلفة «شعبية» للحمل، كالقياء الأكثر شيوعاً. وقد يُرى غياب الحيض في أعمار مختلفة، كعرَض معزول أو مشترك مع أعراض أخرى (والتي منها الامتناع العقلي عن التغذية)، ويعبر احياناً عن رغبة لاشعورية بالحمل. وينبغي طبعاً وجود توتر عاطفي عنيف، ولا تكفي رغبة بسيطة لخلق شروط لثمة خلل وظيفي. فنحن

هنا، عموماً، على صلة بتراكم لدوافع نفسية، من بينها يكون الخوف من الحمل عنصراً يؤدي إلى تحميل الجهاز النفسي فوق طاقته وإلى الإفراغ الجسدي أو كبت الوظيفة.

ولا يحصل ذلك حتى مع النساء الشابات اللواتي يلاحظن جسدهن بانتباه قلق، حين يرين أنفسهن مهددات بالعقم ويتخيلن أنفسهن أنهن حوامل. ويُقدر لهذا التخيل أن يسد رغبة ما، ويؤثر بالتأكيد على الأحاسيس الذاتية والأطوار العضوية، ويفضي إلى غياب حيض دائم إلى حد ما، ووعكات صباحية، وانتفاخ مؤقت للألياف المعوية. والمراقبة الموضوعية، والتي تتخذ شكل اختبار طبي، تمنع عادة هذه الأعراض من أن تستقر.

كما أن حالة الحمل العصبي، تتجاوز بعيداً، هذه الأعراض للحمل النفسي الوراثي والمؤقت. وتظهر مع كل موكب العلامات الجسدية للحمل، من أولها إلى آخرها. ويلزم الأمر آلية نفسية وجسدية أكثر عمقاً وتعقيداً، لتحقق جميع العلامات لطور طويل، لتثير التغيرات الموضوعية للرحم، وتطلق إفراز الحليب في الغدد الأمومية[1] ...إلخ.

كانت لي فرصة في ملاحظة عدة حالات لحمل عصبي. وقد تعرضت هؤلاء الفتيات الشابات، وهؤلاء النساء لأعراضهن في ظروف مختلفة تماماً، إلا أنه من الممكن إيجاد تشابهات بينهن، ما يدعنا نفكر أن ثمة عوامل نفسية محدَّدة، ترافق باستمرار هذا الطور الجسدي المعقد.

إحدى هذه الحالات، كانت تخص امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، غير متزوجة، وتعمل في مطعم كمساعدة لطباخة. كانت تعيش في

---

(1) أصر ميلتون على الفارق الموجود بين حالات «التمثل الهستيري للعلامات الخارجية للحمل، دون تغيير غددي يذكر» والحالات التي تكون فيها الأعراض الموضوعية للحمل لها طابع عضوي عميق.

Cf. Moulton R.: Psychosomatic implications of pseudocyesis. Psychosom Med., vol.4, 1942

بيت والديها مع العديد من الأخوة والأخوات. وكان والدها مريضاً مزمناً، وتتحمل وحدها تقريباً أعباء العائلة. وكانت مشاغلها مجهدة، وهمومها مستمرة، وحياتها قاسية ورتيبة. وخلال سنوات طوال، أذعنت لقدرها بصورة سلبية، وكان من الواضح أن تنقطع عن العالم في عملها ووحدتها بخوف من الحياة. وأدركت في ما بعد أن سبب خوفها كان الحمل: «إن غامرت بنفسها فتاة مهملة مثلي بالخروج، فستصبح حاملاً في الحال».

وشيئاً فشيئاً، أصبح وجودها بالنسبة لها لا يطاق، وأحست أن عليها امتلاك الجرأة في القيام بشيء ما، إنما تنقصها الإرادة والمبادرة. وحاولت أخيراً تحطيم رتابة حياتها، وبخلاف رغباتها الحقيقية، مشت مع رفاقها في المطعم في هروبهم، ذلك الهروب الذي كان لديها محتقراً حتى ذلك الوقت. وغدا خوفها من الحمل شعورياً ومدركاً، فحددت تحركات حريتها وحالت دون أي اتصال جنسي. والتقت عندئذ برجل شاب. ولم تكن تعلم إن كانت واقعه بغرامه، إنما رافقته لمدة عام دون علاقة جنسية، مع أنهما أتاحا لنفسيهما بعض الألفة، ومع أنه رجاها بإلحاح أن تهب نفسها له. إنما تحفظت بسبب خوفها. وقد اعترفت له بهذا الخوف وعاهدته على الزواج إذا «بقيت» الأمور على هذا الحال. وأكد لها أنه لن يحصل شيء من هذا القبيل بقدر ما سيكون حذراً.

وعندما نفذ صبره أمام رفضها المتعند، هددها بتحطيم علاقتهما. وفكرت أنها لو أصبحت الآن حاملاً، لتوجب عليه أن يتزوجها، وهذا ما كانت تريده في الواقع. إنما أحست أيضاً أن كل ذلك يجعل منها أشبه بمبتزّ المال بالتهديد، وأنه لن يتزوجها إلا بالقوة وليس بالحب. وفي نهاية المطاف، تحطمت العلاقة بعد سلسلة من الرفض، وعادت لحياتها القديمة. وبدءاً من الشهر التالي، توقف معها الحيض وتعرضت لعلامات حمل عادية. وكان ذلك بالنسبة لها، مرحلة صعبة، حيث سعت لإخفاء حالتها، واستمرت في العمل إلى أن أحست بآلام الطلق، ونقلت إلى المشفى، حيث اكتشف أن الأمر يتعلق بحمل عصبي. فوضعت في جناح الخدمة

النفسية، حيث لوحظ لديها مشهد كامل لامرأة وصلت للنصف الثاني من ولادتها. ونمّ وجهها وتصرفها نمطياً على أنها في مرحلة الطلق، كما أصبح بطنها كبير الحجم، وخرجت مادة صمغية من نهديها، وكانت تقلصات أمعائها قوية، بحيث أدى لاعتبارها، لأول وهلة، تحركات الطفل الجنين.

ومن الجدير بالملاحظة، أنها لم تعرض نفسها على طبيب أبداً. وعندما سألها والدها عن اسم الفاعل الذي أغواها ليضعه أمام استحقاقاته، رفضت ذكر اسمه، وحتى هي لم تتوجه إليه قط. وكانت تؤمن بحملها، بصورة موضوعية، وفي الوقت نفسة مقتنعة في أعماقها أنها لن تنجب طفلاً. ولم يكن لديها بأي حال من الأحوال شعور الانتظار، ولم تقم بأية تحضيرات، كما لم يقلقها مستقبل الطفل، ولم تَرْتَبْ بشكل عام من المستقبل. لقد حققت، بطريقة انطباعية، رغباتها بالحمل الخيالي لكي تحمي نفسها من التحقق الفعلي. ووضعت عشيقها في موقف يجبره على الزواج منها، إنما فقط في خيالها، وتجنبت بهذا أخذ دور المبتز بالتهديد.

إننا لا ندري لماذا كانت تخشى من الحمل الفعلي، وما هي التهديدات، وما هي العواقب التي تدور في خلدها حول هذا الموضوع. ويبدو أن حملها الخيالي نفسه عرضها لعقاب قاسٍ، لأنها عانت كثيراً من الآلام خلال هذه الفترة، فضلاً عن وقوعها تحت وطأة خيبة شديدة، فغياب الطفل، والحق يُقال، أنها كانت مهيأة له بصورة لاشعورية. وفي الوقت نفسه، لاحظنا أنها، على الأقل بصورة شعورية، تنفست الصعداء بتحققها من عدم مجيء الطفل.

أود الحديث أيضاً عن امرأة كانت قد تزوجت لمدة ست سنوات دون أن تحمل. وحصل معها حملين متعاقبين خياليين، دام كل منهما عدة أشهر، مما حملنا على الاعتقاد أن ما يدور بخلدها هو إرضاء مباشر لرغبة ما، طالما أن خيبة أملها الكبرى تعود لكونها عاقراً. لكن الشيء اللافت، أن أمر حملها في الحالتين توافق مع اجتماعات سنوية لأصدقائها القدامى

على مقاعد الدراسة. وخلال فترتها الدراسية، كانت تنتمي لحلقة ضيقة من الصديقات، وفي منأى عن الطلاب الآخرين، عرف عنهن «العشرة المتلازمات»، ولم يشك أحد بأن هناك بينهن، رغم صداقتهن، روح التنافس والغيرة. وفي البداية كان التنافس في الدراسة، ثم خلقت الغيرة بين الفتيات الشابات مزاج تململ وانزعاج ضمن مجموعتهن، وفي ما بعد، منافسة في مجال العشق والغرام، وأخيراً، تنافس فيمن تكون الأولى في الزواج والأولى في إنجاب طفل.

وعند انتهاء دراستهن، تعاهدن وأقسمن على الوفاء الخالد، وقررن الاجتماع سنوياً في تاريخ معين. والمرأة التي تحدثنا عنها، والتي كانت دوماً إحدى الأوائل في المنافسة، سرعان ما وجدت نفسها على بون شاسع في الجري الأكثر افتتاناً من الجميع، وهو السباق نحو الأمومة. وكان يعزى سبب عقمها لخلل غددي، وفي الوقت نفسه، كانت تستخدم أعراضها الخاصة لتبدو حاملاً أمام صديقاتها القدامى، وترضي بذلك رغبة متأججة.

ومن الملاحظ أيضاً، أنه خلال أي من هذين الحملين العصبيين، لم تقبل أن تعرض نفسها على طبيب. وفي كل مرة، كانت مقتنعة أنها حامل، إنما، وفي الوقت نفسه، تشعر أن هذا ليس صحيحاً ولا تود سماع القرار السلبي للطبيب. وخلال المحادثة مع المختص النفسي، ساندت فكرة أن حالتها جعلت من مزيج من الدراية والجهل. وكان تأثير منافستها مع صديقاتها لا ريب فيه. وبصورة طارئة، رغبت كثيراً أن تقبل مجموعتها، في كل مرة، التفسير المقبول للإجهاض. كما كان من الواضح، أنها أظهرت أيضاً نوعاً من نشوة الظفر بأنها الأخبث في خداعها لصديقاتها بهذه المهارة. ففي المدرسة، كانت تتنافس مع صديقاتها فيمن الأكثر ذكاء، وفي الموقف الحالي، كانت هي الفائزة بصورة لا جدل فيها.

وفي دراسة كاردينر التي ذكرت آنفاً حول المركيزيات، نقرأ المقطع التالي :

لم يكن من النادر على الإطلاق ملاحظة حمولات مصطنعة كانت بالتأكيد ذات أصل عصابي، لأن المرأة كانت ترغب في ممارسة السلطة على زوجها، تلك السلطة التي منحتها إياها حالة الحمل. وعندما يتم التحقق من عدم ثبوت الحمل، يُعتقد أن «فيهيني هايي» قد اختطفت الطفل أو أن فانوا هي المسؤولة عن ذلك...

ويرتبط المظهر العصابي للحمل العصبي بالغيرة الموجودة بين النساء بخصوص أبهة الحمل(١).

ولو كانت مريضتنا مركيزية، لامتلكت ميزة كبيرة في إلقاء مسؤولية الأمر على الأرواح الشريرة. ولاتُهمت الفاناوا بتدمير الطفل في جسدها، بناء على طلب من إحدى صديقاتها التسع «متأثرة بالحسد وروح المنافسة». ويبدو لي تشابهها النفسي اللافت مع النساء المركيزيات، رغم الاختلافات الثقافية الكبيرة.

ونجد مثالاً ثالثاً، في حالة شابة متزوجة لم يحالفها الحظ في أن تصبح حاملاً، بسبب عيب عضوي في خصيتي زوجها. وقد وقعت في غرامه بشغف وتزوجته رغم احتجاجات والديها. ودام حملها العصبي عشرة أشهر، وفي الشهر الثاني شخص الطبيب حالتها بحمل محتمل وكان عليها مراجعته في تاريخ معين ليثبّت تشخيصه، فلم تقم بذلك أبداً، وامتداد حملها غير العادي وحده أجبرها أن تخضع لفحص طبي، فاكتُشف عندئذ بأن الأمر يتعلق بحمل عصبي.

هذه المرأة أيضاً، حدثتنا عن هذا الشعور المتناقص وجدانياً بشكل خاص، والذي جعلها تصدق أو لا تصدق حالتها، وكحال الأخريات، خشيت من القرار الموضوعي للطبيب. وبقدر ما أمكننا اكتشاف دوافعها النفسية، يمثل حملها جهداً بطولياً لإعادة الإعتبار لزوجها، وقبل أي شيء،

---

(1) Kardiner A. : Op. Cit ,p.162

في نظر والديها اللذان عارضا الزواج (لم نستطع معرفة ما إذا كانت معارضتهما سببها معرفتهما بعيب الزوج). وبجميع الأحوال، كانت تقول عند حملها: «ترون كم أخطأتم، إنه بكامل القدرة على إنجاب طفل».

لكنها شاعرة بإخفاقها بصورة لاشعورية، وبخيبتها بزوجها في رغبتها بالأمومة، وراحت تنتقم بنفس الوسيلة، حيث خيبت، أمله بالوعد الخادع بطفل. وفي الوقت نفسه، بتغريرها لنفسها، كانت تنفي تأنيبها الشرير المرفوض: «لا يمكنك أن تهبني طفلاً». وبهذا وبالفعل نفسه، كانت الخادع والمخدوع في آن واحد.

حالتنا الرابعة هي في أم مهجورة، والتي كانت فريسة، بعد موت ابنها الثاني، لحالة اكتئابية توصف بالاتهامات الذاتية. وكانت تلوم نفسها بأنها السبب في موت هذا الطفل وبتحولها عن وليدها الأول، الذي كانت تحبه والذي هو الآن ابنها الوحيد، وبعقاب ذاتي واضح: «أنا لست أماً».

وباستمرار، وُجهت لها نصيحة بأن تصبح حاملاً من جديد، ويكون هذا دواء لحدادها. فرفضت النصيحة، لكنها أصبحت حاملاً على طريقتها، أي أظهرت جميع العلامات النمطية للحمل. وكانت تنفي في ذاتها حملها بكآبة مميزة جداً وتكرر أنه «لن يخرج منها شيء». ولم يشك أي شخص بحملها عداها هي ذاتها، لكن الأمر تطلب وقتاً طويلا لإقناعها بوجوب فحصها طبياً، عندما لا سبيل سواه للتخلص من وساوسها المرضية. فأظهر الفحص صوابها، وأن حملها خيالي. لكنها كانت في ذاتها مهزوزة ومتفاجئة بعمق، إذ في زاوية من عمق نفسها، كانت تأمل أن نفيها لحملها كان في الواقع فكرة مرضية من ابتكارها.

من الواضح هنا، وجود شعور خطير بالذنب، فالحمل الواقعي لا يمكن تقبله، والرغبة المتناقضة الوجدان التي ترتبط به، لايمكنها أن تتحقق إلا بشكل وهمي وبخداع الذات.

وفي كل من هذه الحالات، كانت الآلية النفسية مختلفة. والعوامل التالية كانت مشتركة فيها رغم ذلك:

1 ـ كان هناك موقف متناقض وجدانياً أمام الحمل: رغبة ورفض لهذا الحدث في آن واحد، ورغبة بالطفل وفي الوقت نفسه، خوف من مجيئه أو تحريم داخلي لهذا الموضوع.

2 ـ رغبة الحمل لم تنتج فقط عن رغبة بالأمومة، إنما عن دوافع ثانوية من نمط عدواني عدائي على العموم. والإخفاق المتوقع بصورة لاشعورية، هدفه إرضاء هذه الدوافع الثانوية.

3 ـ أحياناً، وربما دوماً، تُضاف نية بالعقوبة الذاتية إلى العدوانية.

4 ـ كانت تعلم المرأة أن حملها وهمياً، وفي الوقت نفسه ترفض معرفة ذلك، ويظهر هذا في جميع حالاتنا برفض الفحص الطبي.

وفي السلوك النفسي المرافق للحمل العصبي، تذكرنا كثيراً من الأمور بحبكة القصة، تخيل وهمي يعد مسبقاً ليكون أداة الكذب، لنفي أو تحاشي حقيقة أكثر خطورة. وتؤدي شدة القصة الوهمية عند الكذاب، إلى شعور بعدم اليقين، تماماً كما عند مريضاتنا اللواتي يخلقن أعراضهن: «هل هذا صحيح أم لا؟». ويبدو الشعور بالنصر خديعة للغير لدى مبتكر القصة الوهمية ولدى المرأة الحامل بحمل كاذب، يتخذ لهجة الثأر: «لست أنا هذه المرة التي خُدعت، إنما أنتم». والإحساس الداخلي الذي تعبر عنه هذه الكلمات: «ما أدعيه في هذه اللحظة هو مغلوط بالكامل» يُستخدم في الحالتين كعقاب ذاتي.

كيف تتجلى الظواهر النفسية في الأطوار العضوية المعقدة للحمل العصبي؟ تلك مسألة تختص بالبحث المرضي النفسي.

لقد رأينا أن بعض النساء تنفي الحمل الفعلي، وأن أخريات يعشن قصة خيالية بأن حملاً وهمياً هو حقيقي. وتخشى جميع هؤلاء النساء

الحقيقة الموضوعية، لأن الأمومة لديهن ضحية صراع بين الإرادة والرفض، بين الرغبة في تحقيقها والعجز في بلوغها، بين التمني والخوف، بين الإرغام الداخلي والمنع الخارجي. وبالإجمال، في جميع هذه الحالات، تحول المصاعب الخارجية والداخلية دون تحقيق الأنا الأمومية.

❀ ❀ ❀

الفصل السابع

الولادة

إذا كانت الولادة طوراً جسدياً فيزيولوجياً صافياً، فقد لا تكون بلا شك كذلك في الإختلافات الفردية والتأثيرات الثقافية. ففي شروط عضوية طبيعية، قد يكون دوماً الطور نفسه. في ما تقودنا تعقيدات الولادة إلى أن ندرك لأي درجة يتحدد هذا الطور بعوامل نفسية.

ويقدم المختصون في علم الإنسان، كثيراً من النظريات، لشرح أن فعل الولادة يكون يسيراً على نحو ما، وفقاً للعصور، ووفقاً للثقافات، والشعوب، والأعراق ...إلخ. ويعزي بعض الباحثين هذه الإختلافات، إلى تأثير المناخ أو إلى مؤثرات أخرى خارجية، تمارس تأثيرها على وظائف الغدد التي لها شأنها في هذا الحدث، ويصر آخرون على أهمية نوع الحياة، في كليتها أو في بعض مظاهرها، بالعلاقة مع نمو الجسد الأنثوي وبصورة خاصة، الأعضاء التناسلية. ويرى آخرون أن العامل الأساسي هو في العضلات الحوضية، التي تكمن في تحركاتها عملية الولادة. ووفقاً لهؤلاء، تكون الفاعلية الوظيفية للعضلات الحوضية أكبر عند النساء البدائيات، بسبب طريقتهن في الحياة الأكثر نشاطاً، في ما يعتقدون أن الحضارة، تمارس تأثيراً مخلاً وكابتاً على وظائف الولادة. وغالباً ما يتم الإصرار أيضاً، على الحساسية الضئيلة للنساء البدائيات تجاه آلام الطلق. وموضوع احتمالهن الألم بصورة أفضل، قد يعطي انطباعاً خاطئاً، بأن طور الولادة بحد ذاته هو عندهن أسهل وأسرع. وفي جميع الأحوال، نعتبر

عموماً كأمر راسخ، أن الطور التناسلي عند النساء البدائيات، هو أكثر سهولة مما هو عند النساء اللواتي «أفسدتهن» الحضارة. لكن هذه المسألة، لا زالت غامضة جداً، وتوحي دراسات مختلفة، بأن البساطة النسبية أو تعقيد الطور ليس له علاقة دوماً بالدرجة المرتفعة للثقافة على نحو ما.

وغالباً ما نصادف صيغاً، تعطي الملاحظ الخارجي نظرة مشوهة للأمور، فهناك اختلالات خطيرة لطور الولادة تحدث أيضاً عند الشعوب البدائية، ونرى في ذلك مثلاً، نساء تموت أو تحديداً تبقى مرضى. ونحن لا نستطيع مطلقاً أن نمنح الثقة للمعطيات المتعلقة بمدة الطور، إذ لا نتمكن دوماً، من إقرار البدء الفعلي للولادة استناداً لسلوك المرأة. وهناك تشوش في المعطيات الموجودة، يعود جزء منها إلى أخطاء الملاحظة، وجزء آخر بسبب الفروقات الفردية التي تمس طور الولادة في شروط ثقافة متماثلة. وهكذا، ووفقاً لمستكشفين مختلفين، تتراوح مدة الطور عند قبائل استرالية تعيش في نفس الظروف الثقافية، وتتغير ابتداءً من بضع ساعات وحتى يوم أو عدة أيام. وعند بعض القبائل، تكون المرحلة الإجمالية لما بعد الولادة مسألة دقائق، وحالما تستحم الأم الشابة ووليدها معها في أقرب جدول تصادفه، ثم تعود إلى عملها المقطوع وكأن شيئاً لم يحصل. وإذا فوجئت امرأة بآلام الطلق أثناء سفرها البري أو المائي، فإنها تستأنف سفرها مباشرة بعد الولادة وتكمله حتى وصولها إلى الجهة المسافرة إليها. وتعلمنا ملاحظة مثيرة وجديرة بالاهتمام لـ كوهلبردج[1]، أن ولادة امرأة تانجيرسينية من جاوا، نادراً ما تأخذ أكثر من ساعة، إنما في بعض الحالات الفردية المنعزلة، يستغرق ذلك وقتاً أطول، وخاصة لدى النساء اللواتي تستغرق ولادة أمهاتهن فترة طويلة. وفُسر هذا الأمر بالوراثة. ولو نتذكر، في ظروفنا الثقافية، كم أن طور الولادة يتأثر باندماج المرأة بأمها، لاستطعنا إثبات أن الطور البيولوجي لدى النساء البدائيات لا يتحرر تماماً من تأثيرات نفسية.

---

(1) Ploss H. et Bartels M. : Das Weib. Berlin : Neufeld, 1927 , vol.2 p. 604.

لمَ لا تحدث الولادات وفقاً لمثالية في الوظيفة الطبيعية، حتى لدى الشعوب البدائية، عندنا البرهان على ذلك، فعلى سبيل المثال، لدى كثير من الشعوب الآسيوية، تتم المبادرة بطلب المعونة من القابلات. وبما أن هؤلاء النساء ليس لديهن أدنى فكرة عن التعقيم الحديث، أو دراية فعلية ذات شأن بطور الولادة، فإنهن يبدين عامل اضطراب أكثر من عامل مساعدة، ونسبة الوفيات أثناء الولادة هي نسبة ذات شأن .

لعل الكثير من الوصفات، والقواعد، والمحرمات، المتعلقة بالمرأة الحامل، تجعلنا نفكر بأن البدائيين هم أيضاً عرفوا تجارب مؤسفة خلال الولادات. وتؤكد لنا هذه الأعراف في رأينا بأن المستوى الحضاري لشعب ما، لا تحدده سهولة أو صعوبة الوظيفة التناسلية. ومن الجدير بالملاحظة، أن كثيراً من الأعراف والخرافات للشعوب البدائية والتي تمس الحمل والولادة، تظهر تشابهات ليس فقط في سلوك عصابيات حضارتنا، إنما أيضاً في سلوك نسائنا ذوي النفسية الطبيعية.

وهكذا فالأعراف الأولية المتعلقة بمكان الولادة، تعوّل عليه.نساؤنا أفضلية فردية جداً. (ومع ذلك لا تهتم عموماً أنظمتنا المدنية الصحية ودساتيرنا بهذه الأفضليات). فمثلاً، لدى بعض القبائل، تحصل الولادة في وحدة تامة، في الغابات أو على الشاطىء. وتلد النساء الماوريات في نيوزيلنده في الأدغال على ضفة جدول، وتعتكف بذلك وحيدات تماماً. في ما تلد نساء جيبريتو ومونتيسكا في الفيليبين دون مساعدة، وغالباً ما يكن لوحدهن عندما تبدأ آلام الطلق. وتكون وقتئذ المرأة واقفة، وتسند بطنها إلى ساق شجرة الخيزران وتضغط عليه بقوة. ويتلقى الطفل رماداً دافئاً، ثم تتمدد المرأة إلى جانبه وتقطع بنفسها لحبل السري.

وتغادر المرأة الهندية فارام في غينيا البريطانية قريتها ما إن تأتي ساعتها. وتنتظر الولادة وحيدة في كوخ في الأدغال، ولا تتعرض ظاهرياً لأي خطر بالنسبة لها، ثم تعود بعد ذلك إلى عائلتها مع وليدها الجديد، دون اللجوء لمساعدة أي إنسان. وتتصرف على هذا النحو أيضاً، نساء

بعض القبائل الهندية في غواتيمالا، ونعثر على قصص مشابهة في تقارير أول من سافر إلى فيرجينيا.

وفي حضارتنا، تلوذ كثير من النساء بعد الولادة، إلى حالة من «الضعف»، لينعمن بطفلهن في كنف الرعاية والسلامة، محمية بالزائرين المحملين بالورود. إن حاجة إنجاب الطفل في العزلة، والبقاء وحيدة معه لفترة زمنية، قد يظهر في معظم الأحيان، لو أن أعرافنا الثقافية لم تكن تعترض على ممارسة كهذه.

ويُنظر للمرأة، عند كثير من الشعوب البدائية، على أنها نجسة وحتى خطرة خلال فترة حملها كلها. ويُعتقد أن شياطين أشرار، يملؤون بيتها ومكان الولادة، ونكتشف أعرافاً لا حصر لها مرتهنة لحمايتها، هي وخلاصها ضد هذه الأخطار. إن الاعتقاد بأرواح شريرة تهاجم المرأة الحامل وتهاجم الثمرة التي تحملها، قديمة جداً ومتجذرة بعمق. ووجودها عند الشعوب البدائية هو برهان آخر للتجارب البائسة التي شهدتها في عملية الولادة.

وعند كثير من الأمم، تتجسد «الروح الشريرة» في كائن أنثوي. وكانت لابارتو الشريرة عند الساميين، تنشر الرعب والدمار في كل مكان حيث تظهر، وكانت خطرة، بشكل خاص، على الأطفال الذين لم يولدوا بعد وعلى أمهم: «إنها تقلب الأعضاء الداخلية للمرأة عند الطلق، وتسحب الطفل من جسد المرأة الحامل». وكانت تحرض الإجهاضات والولادات المبكرة، وتحوم فوق الولادة مهددة بالموت. وكانت تعتبر عرائس البحر اليونانية والساحرات في كثير من البلدان، مالكة لقدرات مشابهة. وعدد هؤلاء الأرواح الشريرة الأنثوية غير محدود، وتمثل جميعها الفاهيني هايي عند شعب المركيز(ص49)، وصوت الخوف، ذلك الصوت الذي يُسمع أيضاً في نفس المرأة الحديثة يقول: «ستموتين عند الولادة، أيتها الأم الشابة».

وهناك عُرف قديم جداً، منتشر بين الشعوب البدائية، يفرض على المرأة مكاناً خاصاً للولادة، وهو مكان منفصل عن سكنها، إنه كوخ مكرس لذلك. وعند كثير من الشعوب، تستخدم النساء الكوخ نفسه أيضاً في فترة الحيض، مما يبرهن على أن هاتين الوظيفتين تخضعان لنفس المحرمات والتقييدات.

وفي هذا الكوخ، تعيش المرأة أثناء الولادة وحيدة، ولا يحتك بها إلا صديقات من عمرها يحضرن ولادتها. وفي بلدان مختلفة، هؤلاء الرفيقات يبقين معها حتى أربعينها. وتغادر نساء نيما نيما في أفريقيا الوسطى، مثلاً، عند اقتراب ولادتهن، منزل الزوجية، إلى الغابات المجاورة، حيث ينجبن أطفالهن بمعونة صديقاتهن الشابات. ألا يذكرنا هذا بما نسمعه أحياناً: «تنتظر صديقتي المفضلة طفلاً، وقد تكون حزينة ومتألمة إن لم أكن بقربها»؟. وهكذا، فالوعد القديم، الذي يعود إلى مرحلة البلوغ حيث لا تكتسب أي تجربة معناها الحقيقي إلا بمشاركة صديقة، يعود إلى نساء حضارتنا. وخلال تلك المرحلة، تقطع الفتيات الشابات على أنفسهن أيضاً هذا الالتزام: «من تكون الأولى بيننا..». فالولاّدة الشابة في ما بعد ترغب بإشراك تجربتها في الاندماج، مع الصديقة، وبسبب مشاعرها بالذنب كمالكة سعيدة لطفل، تذهبان معاً إلى الغابة المجاورة.

ويتحول ذلك إلى أمومة حديثة. ولنتذكر تلك المرأة (ص167) التي حملت طفلها شهراً إضافياً لتلد في نفس موعد صديقتها. لكن هذه الحاجة للإتحاد، تعبر عن نفسها عادة ببساطة أكثر.

وبين الشعوب البدائية، ولأسباب جيدة وعقلانية، تحل، شيئاً فشيئاً، محل الرفيقات، نساء أكثر نضجاً وتجربة في مهمتهن كمساعدات. وخيار هؤلاء النساء جدير بالاهتمام، فعند الماوريات في نيوزيلنده[1]، تحضر الجدة، من ناحية الأم، ولادة الطفل الأول، أو إن لم تتمكن من المجيء،

---

(1) Op.cit. , vol. 2 , p. 645.

تحضر الجدة الثانية، من ناحية الأب، وعند شعوب بدائية أخرى، الحماة هي التي تخلص المرأة عند النفاس. وبالطبع، يتم اختيار هؤلاء المساعدات ليس بسبب خبرتهن الكبيرة، إنما لأسباب أهلية، أي عاطفية. ولا يتحوّل العرف إلى عمل عقلاني إلا شيئاً فشيئاً، وحينئذ، تستبدل المرأة «التي هي من الأقارب» إلى امرأة «عارفة»، وفي نهاية الأمر إلى قابلة. وفن القابلة، يبدأ بصورة بدائية، مروراً بتجربة منقولة، إلى أن يصبح معونة احترافية خبيرة بالولادة. وتكون العلاقة النفسية بين الوالدة والقابلة، حتى في حضارتنا، قريبة جداً من تلك التي قامت على ذلك الاعتقاد البدائي، بأنها امرأة مسنّة، ذات سلطة في مصالحة الأرواح الشريرة وتهدئة الأرواح الملعونة.

«فالمرأة المسنّة»، والساحرة، والقابلة المثقفة الحديثة، تتيح للمرأة في حالة الطّلق، إلى حد ما بتجنب لعنة الشيطانات المؤنثة عند الشعوب البدائية، وعندنا، الشعور بالذنب اللاشعوري تجاه الأم. ويتم اللجوء عند الشعوب البدائية إلى التعويذات، في ما عندنا إلى وسائل نفسية أكثر تعقيداً. وعندما تحول كل مشاعرها ضد أمها على القابلة، تفرغ المرأة في حالة النفاس شحنات غضبها، وتأثير القابلة قد يحررها من خوف الولادة، معززة إيمانها الطفولي بالقدرة الفائقة الفعلية للأم أو لبدائلها.

على الزوج، عند الأقوام البدائية، أن يبقى بعيداً عن المرأة في حالة النفاس، لأنه قد يتعرّض لخطر كبير إن اقترب من هذه المرأة «النجسة». ولدى بعض الأقوام الأخرى الأكثر مادية، ليست النفساء نجسة بقدر ما تفرزه من أعضائها التناسلية خلال الوضع. ويُخشى أن يخرج منها شياطين تشكل خطورة على الزوج. وعلى الرجال الآخرين أو الفتيان الشباب، أن يتجنبوا أيضاً أي احتكاك بهذه الإفرازات، وإلا سيصيرون معاقين بأذرعهم أو بأرجلهم، هذا ما تعتقده حالات القلق التشاؤمية والخرافية لأقوام مختلفة.

وفي دور التوليد الحديثة كذلك، نسمع أحياناً، التفوه بلعنات وشتائم

ضد الزوج وضد الرجال عموماً، تلك اللعنات التي تستمد من أصلهم البعيد في الاعتقاد بالأرواح الشريرة الملعونة، التي لا يمكن تدارك سحرها المدمر إلا بسحر مضاد في حياة المولود الجديد. إن مقتضيات التعقيم الحديثة تحافظ على الزوج وتحميه من لعنة الشياطين.

ليس دوماً وليس في أي مكان يكون الزوج مستبعداً عن المساهمة النشيطة في ولادة ذريته. فعند كثير من القبائل، يتولى الزوج التوجيه العام لطور الولادة، ولدى قبائل أخرى، يأخذ دوره كمساعد، في مثلث يشترك به مع القابلة والمرأة في المخاض.

وقيل لنا هذه الكلمات[1] عن ميكوبيا في جزر آندامان:

عندما تحين لحظة الولادة، من المتعارف عليه، مساعدة الزوج وصديقة المرأة النفساء، ويمسكها الزوج من ظهرها ويضغطها على جسده، في اللحظات التي يكون فيها ذلك مفيداً، بينما تمسك الصديقة شاشة من الورق أمام الجزء الأدنى من الجسم، وتساعد الوالدة على أفضل نحو أثناء الولادة والخلاص.

وفي حضارتنا، يحتل هاتان الزاويتان من المثلث، الممرضة والطبيب، ويعطي هذا التقسيم المهني المنطقي للعمل، للميول العاطفية مخرجاً ملائماً، فالمحبة والكراهية، الثقة والحقد، الخضوع ونفاذ الصبر، قد تتحول الآن وتنصب على هؤلاء الممثلين للعواطف الطفولية التي تطلقها عملية الولادة. كما تتحول المساهمة النشيطة للزوج، على الصورة الأبوية القوية المتجسدة بالطبيب. ولا يُسمح للزوج نفسه إلا بالانتظار على الجانب الآخر من الباب، وبحالة من التحفز، والمشي رواحاً ومجيئاً مع نفاذ الصبر، وهو يلعن أو يحس بآلام زوجته في مخيلته. والمختص بالتوليد له أسلافه الأقوياء من الأطباء الدجالين والسحرة والكهنة، حتى لو كانت

(1) Op. cit., vol. 2 , p. 656.

المعونة التي يقدمونها للنفساء سحرية وخارقة. ولا يشك المعاونون الحديثون في عملية الولادة بأن المرأة النفساء، تستسلم إليهم استسلاماً سلبياً، وتعزي إليهم قدرات سحرية كثيرة، لتضبط خوفها المضطرب الذي يستولي عليها.

لقد أشرنا باختصار إلى بعض التماثلات الحاصلة بين البدائيين والشعوب المتحضرة في ما يخص طور الولادة. وقد نتوغل بهذه التماثلات أكثر، ويصبح لدينا انطباع، بأنه رغم الإنجازات الكبرى في فن التوليد، والميزات الضخمة في المعرفة العلمية الدقيقة، فلا زالت تحتوي الحياة النفسية للنساء المتحضرات في مرحلة ولادتهن، كثيراً من العناصر التي تأخذهن للمخاوف ولخرافات أخواتهن البدائيات.

ومن الصحيح أنه مع نمو الحضارة، يضعف، شيئاً فشيئاً، الاعتقاد بمشاركة قوى خارقة للطبيعة في الوظيفة التناسلية. فعلوم البيولوجيا والتشريح وعلم النفس، تضطلع بكل مسؤولية الطور الطبيعي أو المرضي. إنما في هذا العصر، بإنجازاته العلمية الهائلة وبالفلسفة المادية، تعود الأرواح والشياطين في الولادة إلى الظهور بأشكال جديدة. فالعناصر النفيسة التي ترافق الوظيفة البيولوجية، ليست هي المعنية مطلقاً في عالم الشياطين. وبنظر معرفتنا الحديثة، لم يعد طور الولادة مرضياً فقط، ، إنما نفسياً ومرضياً، وغالباً ما تطالب الصعوبات التي يصادفها هذا الطور تعاون الأخصائيين النفسيين لكي تُحل.

ويمكننا الاعتقاد أن طور الولادة يسير وفقاً لشروط معينة، مترابطة، ومحددة بيولوجياً، وأنه محمي تماماً من التأثيرات النفسية الخارجية والداخلية. ويتميز بأطوار أخرى نفسية جسدية نتمكن من بلوغها باختبارنا بتطورها النمطي، أي حين تكون بدايتها ونهايتها محددة زمنياً بدقة، وأيضاً بطابعها الطبيعي، وغايتها المحددة بوضوح...إلخ. ومن جانب آخر، من المنطقي الادعاء أن حدثاً مشمولاً بتوتر داخلي، متنام بحيوية، أو انقلاب جسدي هائل، يجب أن يتضمن مادة نفسية ذات شأن. كل ما من شأنه أن

يجعلنا نتوقع الصراعات الداخلية الموجودة مسبقاً ستشتد وتبرز في موقف خطر، والمشاعر المسبقة ومخاوف الحمل ستتفاقم مع بدء الطلق.

وتكشف الملاحظة النفسية بسرعة كبيرة، أن جميع الأطوار الوظيفية والمحددة مسبقاً بصورة بيولوجية، من البداية وحتى إنجاز الهدف النهائي في الوصول إلى الأمومة، مبالغ فيها أو مكبوتة بتأثيرات نفسية. ويبرهن كل فعل فيزيولوجي، وكل ألم في الطلق، بلا استثناء، ليس فقط عن تبعية متبادلة للعوامل الجسدية والنفسية، إنما أيضاً أن جميع الوظائف البيولوجية للتكاثر، والتطور النفسي العام للمرأة ومجمل ماضيها العاطفي يلعب دوراً حاسماً.

وليس للأطباء النفسيين عادة، الفرصة في ملاحظة طور الولادة بصورة مباشرة، فهم لا يتلقون مادتهم إلا مستعملة، وبصورة مشوهة على نحو خاص، ومختلطة بسياق وظروف عديمة الفائدة. علاوة عن أن المركبات النفسية للولادة معرضة بسهولة لفقد الذاكرة أو التحريف اللاشعوري، ونضيف إليها الموكب العاطفي للوظائف الأخرى الجنسية والأنثوية (من استمناء وحمل).

ولا يمكننا مطلقاً الوثوق بالمعطيات الموضوعية التي ترافق الولادة، لأن أحاسيس المرأة في المخاض تكون، على قدر ما، منتقصة، ولأن ميدان إدراكها يتقلّص بالانتباه الذي تعطيه لسير عملية الولادة. وتكون أحاسيسها غير كافية بشكل واضح لجميع الانطباعات التي لا تخص الحدث بصورة مباشرة.

وعلى امتداد كثير من السنوات، اهتم الأخصائيون النفسيون بالحالات الذهنية للوليد الجديد، وبتجاربه الصادقة، وبمخاوفه. واعتُبرت حالته الأولى القلقة، بسبب انفصاله عن الأم، كنموذج وكسبب لجميع حالات قلقه النفسي اللاحقة. ومن اللافت أن الأطوار المتلازمة بالأم لم تعط الانتباه المطلوب. ويبدو التقدّم في فن التوليد الحديث يقلل من

المساهمة النشيطة للأم أكثر فأكثر في طور الولادة، والملاحظات الواردة في الفقرات التالية سرعان ما ستبدو في غير أوانها.

ومن المفيد، وبالنتيجة، اختراق ردود الفعل النفسية للمرأة، التي تلد بصورة عفوية، أي التي تعيش بأكبر قسط ممكن التجارب الأنثوية، في الألم والفرح، وفي الاختلالات ذات أصل نفسي التي ترافقها، وذلك قبل أن تختطف التقنية الحديثة من الأخصائيين النفسيين إمكانية القيام بها. فلدى أخصائيي التوليد والقابلات فائض من العمل بالأطوار الجسدية ما يمنع عنهم الانشغال بالتجارب النفسية لمريضاتهم. وغالباً ما يكونون متعبين ومنهكين، وبما أنهم يركزون على العوامل الجسدية، فاهتمامهم لا يتنبه إلا عندما يتطلب الأمر تدخلاً فعالاً. ويعتبر أخصائي التوليد أن مهمته قد أنجزت وانتهت، عندما يخرج الطفل بحالة جيدة من جسد أمه، وعندما لا يبدو عليها أي علامات مرضية.

وعلاوة على ذلك، لا ينتظر أخصائيو التوليد ظهور حالة شاذة في عملية التوليد لكي يتدخلوا بفعالية. وأكثر فأكثر، يجري تقبل تسريع الولادة من قبل الطبيب، ما إن يكون الطفل، وفقاً لجميع الاحتمالات، مستعداً لمواجهة جميع محن وجوده في الرحم، ويبدو أنه، عما قريب، لن يكون هناك مطلقاً، طور بيولوجي تلقائي للولادة.

يعود تاريخ الملاحظات التالية في جزء منها، إلى عهد كان فيه علم فن الولادة لا يعدل الطور التلقائي إلا في حالة الضرورة الخاصة. وكان من الممكن هكذا، ليس فقط متابعة الظواهر النفسية المرافقة للطور الفيزيولوجي، إنما أيضاً الارتقاء إلى السبب النفسي للخلل الصادر. وأحرص على التحديد هنا أنه، بأقل دلالة معاكسة، جميع هذه الوثائق تتعلق بولادات لمولدين. والولادات اللاحقة هي تكرار للأولى، أو، لها طابع أكثر فردية بالعلاقة مع الموقف الحالي للمرأة في الحياة. وتبدو العوامل النمطية متهمة أكثر خلال الولادة الأولى.

لكي نفهم الموقف النفسي لحظة الولادة، علينا العودة إلى المرحلة الأخيرة من الحمل. فاقتراب الولادة تنبئ عنه بعض المؤشرات المنذرة. وقبل الحدث بعدة أسابيع، يهبط الرحم. وبإثارة خارجية خفيفة، أو عفوية تماماً، ينقبض، كما يتروض من أجل الطلق القادم. ويؤدي هذا الوضع للرحم الهابط إلى إحساسات بالضغط، والتوتر، وضيق التنفس، وحتى المرأة السليمة تماماً تشهد الآن حالة عضوية غير مريحة وصعبة. ويضاف إلى ذلك، نفاذ صبر نفسي، ويضطرب الانسجام بين الأم والطفل. كما لو أن الطبيعة تهيئ مسبقاً للأمر، وتحرص على ألا يكون الانفصال الوشيك عن الطفل مؤلماً على الأم من الناحية النفسية.

لقد علمتنا العديد من التجارب أنه ليس هناك مطلقاً، طوراً بيولوجياً لا يترافق بطور نفسي ولا يتأثر به. فخلال الأسابيع الأخيرة من الحمل، يتشوش اتحاد الأم بالطفل بعوامل فيزيولوجية، وتؤدي التغيرات العضوية إلى مشاعر متنامية بانعدام الشعور بالراحة. ويشكل العبء الجسدي، خلفية لتحريضات عاطفية، تتخذ طابعاً عدائياً تجاه الاتحاد مع الطفل. ويحول الاحساس الداخلي للأم، الإرغام المفروض على الجسد، الجنين إلى جسم غريب، تماماً كالمرحلة الأولى من الحمل. وكلما ازداد انعدام الشعور الجسدي بالراحة، كلما استسلم أنا المرأة السليم نفسياً، شيئاً فشيئاً، للعوائق التي تقابل الحمل بانفراج حياتها، وبموقفها الجسدي والنفسي غير الطبيعي. ويبدو أن اندماج الطرفين، الأنا والنوع، لا يمكن تحمله طويلاً. فالعلاقة مع الطفل تتحطم: ويكون كائن الداخل الرحمي قد وجد ثُناءه، هذا الثنائي هو أداة جميع التوقعات وجميع الارضاءات المسبقة، والذي كيانه الواقعي، بصفته شخص مميز، يقترب شيئاً فشيئاً. وفي نهاية الحمل، يكون كلا القطبين الأنا والأنت منفعلين، ويستخدم التوافق النفسي لتحريضات الحب والعداء هذه الازدواجية: على العدو أن يخرج ليظهر من جديد في العالم الخارجي كصديق ثمين.

وهكذا خلال هذه الأسابيع الأخيرة، يظهر الصراع بين الإرادة في

الاحتجاز والإرادة في الاستبعاد، وبصورة طبيعية، يبقى هذا الصراع نفسياً تماماً. وتعبر إرادة الاحتجاز قبل كل شيء، عن الإدعاء النرجسي بالاكتفاء الذي ينمو خلال الحمل، والذي يأبى التخلي عن الوحدة المترسخة. ويتجلى إعلان الأحاسيس الجسدية عن التدمير الوشيك لهذه الوحدة، بالاندماج المتنامي بين الأم والطفل ويتعارض مع ميول الاستبعاد. ومن جانب آخر، تنمو خلال مرحلة الحمل كلها، صورة الطفل كأداة محبة خارجية في الأفق القريب جداً، وتنسجم الآن مع العواطف السلبية لميول الاستبعاد (بعواطف سلبية نسمع تأثيرات الضيق النفسي). وإذا اكتسب الصراع بين الميلين طابعاً مرضياً، وإذا كان الترجيح للقوى الاستبعادية، فقد يؤدي ذلك إلى ولادة قبل الأوان. إنما لو قلقت الأم، زيادة على الشعور النرجسي بالوحدة، على المصير الذي يهدد الطفل بعد استبعاده من ملاذه الآمن، وإذا ارتابت من مسؤوليتها الجديدة، فإن ميول الاحتجاز، ومعها ميل إطالة فترة الحمل، تصبح مكثفة. والتعلق بالحالة الراهنة للأمور، والخوف من بتر اتحاد جُبل بقدر من الروابط العاطفية والجسدية، والخوف من آلام ومخاطر الولادة، يخلق كل ذلك ممانعة ومقاومة لإنهاء الحمل. وعدم الانسجام ذو الأصل الكيميائي والفيزيولوجي بين الأم والطفل، والذي يتجلى في الأسابيع الأخيرة من الحمل، هو التمهيد للانفصال الوشيك الذي يشير بصورة طبيعية لانتصار العنصر الفيزيولوجي على النفسي. ومن الجدير بالاهتمام ملاحظة أن الحدة الخاصة للميلين تتبين في أحلام المرحلة الأخيرة من الحمل، عندما تزداد تكراراً شيئاً فشيئاً، الأحلام النمطية للحمل حيث تتوقع فيها الأم الاندماج مع الطفل القادم (في ما ندعوه الوهم الرحمي الأمومي). والأم التي تبدو غالباً في أحلام المراحل السابقة للحمل كفتاة صغيرة تسبح في الماء، ترى نفسها الآن، تجتاز المزالق الضيقة، أو تسقط من علو، أو تخرج من الماء بمشقة، أو تجهد لبلوغ هدف بعيد.... إلخ. وبإمكاننا معرفة شخصيتها الخاصة من أحلامها، مباشرة أو بواسطة المرفقات. وربما أن مسألة جنس الطفل هي الآن أكثر حدة، وأن فضول الأم حول هذا الموضوع يؤدي علانية لجعلها

نافذة الصبر، فجنس الطفل يؤثر في أحلامها بصورة خاصة.

ومن هذا القبيل، تكون تمنيات الأم الشعورية واللاشعورية عادة في صراع، فأحياناً ميل الحلم لإشباع الرغبة يتكيف مع محاباة شعورية، وأحياناً أخرى، مع الصدق اللاشعوري. ومن الناحية الإدراكية، يرغب عدد كبير من النساء، سواء الذكوريات أم الانثويات، أن يكون وليدهن الأول ذكراً. وربما، لدى غالبيتهن، تلعب رغبة بعث رجل دوراً كبيراً، إنما لا يجب على دوافع أخرى أن تبقينا غير عارفين. وسأهتم هنا بالدوافع الاجتماعية وخاصة الفردية والنفسية. حيث يرغب وينتظر الجد والأب (أو الأب والزوج) ذكراً ليبعث به. وتنضم المرأة الأنثوية إليهما في هذه الرغبة وتريد أن تظهر لهما، بولادة ذكر، مؤشراً عن محبتها، كما تتملكها رغبة متعلقة بالمستقبل، حيث ستجد في ابنها يوماً ما، رجلاً محباً يحميها. وسأدرس هذه الأمنية بالتفصيل مع نفسية المرأة في سن اليأس.

وهناك تطلع نرجسي، يتوارى بعمق خلف هذه الأمنية ودون علاقة مع الحب الموضوعي، حيث ترغب المرأة ببنت لتُبعث بها، وتكون موهوبة بكل سحر كائن جديد[1]. ومن اللافت التحقق، كم يبدو الذكر غالباً مخيفاً في الأحلام، في ما تبدو الأنثى جميلة. وتعبر عن نفسها هذه العلاقة المتناقضة وجدانياً للمرأة، بهذه الأقوال لزوجها: «هوذا ابنك، إنه مخيف مثلك» في ما تبدو الصورة الخاصة الحالمة، مكتسبة البهاء الكامل كما تتمناه لذاتها ولابنتها.

وفي معظم الأحيان، يبدو الطفل في الأحلام، ليس فقط بأنه وُلد، إنما بأنه تقدم في نموه وكلامه ومشيته...إلخ. وفي هذا الحلم، تشبع الأم رغبتها في رؤية ابنها في العالم الخارجي، متحرراً سلفاً من المخاطر التي

(1) هذا التحقق، الموجود في نفسية الأمهات الحديثات، قادني إلى التفكير بأن النساء المركيزيات تفترسن وليداتهن الجديدات، لامتصاص سحرهن وفتوتهن. وقد جعلنا التراث الشعبي نألف أيضاً هذا الدافع.

تخشاها هي نفسها. ولا تكون الأحلام تفاؤلية دوماً، حيث يجري الإفراط في المبالغة، بإنجاب مخلوق مشوّه أو غريب وذلك خلال الأسابيع الأخيرة من الحمل، كما يبدو المعاقون والبلهاء والمشوهون في أحلام المرأة الحامل خلال قلقها النفسي بالسهر. وقد لاحظت أن المرأة التي تقوم بإجهاض إجرائي أو تلقائي، والتي تشعر في نفسها مسؤولة عنه، تكون، بصورة خاصة، فريسة لمثل هذه الأحلام كمعاقبة ذاتية.

وحين تشتد الأحاسيس الجسدية، ويظهر ما نسميه بالآلام الأولى، يكرر مضمون الأحلام أحياناً الطور الجسدي، فتحلم المرأة بأنها مشدودة في اتجاهين، وأنها مدفوعة بقوة مشخصة على نحو أو آخر...إلخ ثم نجد، لاحقاً، ثانية جميع هذه الأحلام والكوابيس خلال طور الولادة.

وفي عشية دخولها القاطع في الأمومة الواقعية، تتحول المرأة الأكثر نضجاً، بطريقة إرجاعية، إلى طفل. وكما في مرحلة البلوغ (في الجزء الأول)، نتحقق هنا من هذا الفعل الخاص، بأن هبة حيوية للوجود تطلق قوىً إرجاعية. حيث تذكرنا الفضولية النافذة للصبر للمرأة خلال أسابيع الحمل الأخيرة، بالحاجة الطفولية لاكتشاف الأمور، تلك الحاجة التي تعبر عادة عن فضولية جنسية: «كيف سيخرج الطفل؟». وترتعد المرأة الراشدة من القلق النفسي تماماً كالطفلة: «كيف سيجتاز شيئاً كبيراً بحجم الطفل هذا المنفذ الصغير؟» وتكرر رغبتها القديمة واللاشعورية، في رؤية أحشاء أمها الحامل، وتتملكها هذه الرغبة المتشوقة: «لو كان بإمكاني أن أرى ما في داخلي ولو لمرة واحدة فقط، لما قلقت حينها من أن يدوم الحمل مدة أطول». والخوف الذي عانت منه خلال المراحل الأولى من الحمل، «هل أنا حامل فعلاً؟» يعود الآن ويقول :«هل هو طفل حقاً؟» وإذا كان حراك الجنين أقل من ذي قبل، فلا بد أن يكون قد حصل شيء ما منغص، وإذا أكثر الحراك، فشيء آخر ليس على ما يرام :«إنه يتحرك كثيراً» ويتفاقم الآن الشعور بعدم سلامة ذلك الذي يسكن في المرأة خلال كل فترة حملها، وهي تخشى ليس فقط على حياتها الخاصة، إنما على حياة الطفل أكثر:

«هل هو هنا فقط؟ هل سيعيش؟ هل هو طبيعي؟ من يشبه؟ ما جنسه؟» ويصبح الهم والشك هاجسها وسط ترقبها المفرح.

ولدى جميع النساء، السعيدة منهن أو البائسة، القوية أو الضعيفة، العاشقة أو المحبة للانتقام، الشكوك والاضطراب ونفاذ الصبر والانتظار الفرح، كل ذلك يخفي الخوف من الولادة، ذلك الخوف الذي يزداد خطره، شيئاً فشيئاً، مع اقتراب الموعد. فما هي مصادر هذا الخوف؟ وإلى أي حد يُبرر؟

مع أن الولادة ظاهرة فيزيولوجية، يكون عدد من مظاهرها قريب من المرضي. وحتى في الشروط الأكثر طبيعية، تتضمن آلاماً ونزفاً والتي لا تُرى خارجاً عن ذلك إلا في حالات مرضية. وليس للطبيعة ميل بالتأكيد لجعل الطور الطبيعي عسيراً جداً، ومع ذلك، كلما ارتقى النوع في التسلسل الحيواني أكثر، كلما تعقدت وظيفة التكاثر أكثر، وكلما كبرت المخاطر وزاد الألم.

ولدينا اليوم طرائق فعالة لتجاوز مخاطر طور الولادة. فالجراحة تتغلب على الحالات التشريحية غير الطبيعية، والكيمياء، على الاختلالات الفيزيولوجية القوية. ففي عام 1847، أحرز ج .ب. سيمويلويس، الطبيب النمساوي الشاب، نجاحاً حاسماً في الكفاح ضد حمى النفاس، أسوأ عدو للولادة. ولدى اقتناعه بأن السبب الفعلي لهذه الآفة الرهيبة كان يكمن في التهاب المجاري التناسلية، خلق السلاح الفعال في التعقيم التوليدي. كما كان للسير توماس واتسون في انكلترا وأوليفر ويندل هولمز في أمريكا، مساهمة لها شأنها في هذا المجال. وبفضل أعمالهما، شهدت نسبة وفيات الولادة، شيئاً فشيئاً، انخفاضاً إلى أدنى حد.

ومع ذلك، فالخوف الذي تحمله المرأة من الموت، لم يُلغ مع الأخطار الواقعية. فلم يحصل إلا تحويل أسبابه من الواقع إلى الحياة النفسية. ولم يتمكن العلم التحليلي من اكتشاف، سوى أسباب الخوف الآتية من الحياة الفردية للمرأة. لكننا نؤكد أن جميع هذه المخاوف ليست

إلا انبعاثات وتكثيفات لخوف عميق متوارث للموت الذي يرافق الحياة الجديدة التي تستفيق في جسد الأم. ومصادره الأكثر عمقاً ليست في متناولنا. إنما نعلم أن الخوف من الانفصال أحد مظاهره الرئيسية.

وبسبب هذا الاندماج بالطفل الذي يحدث خلال فترة الحمل، لا يعبر خوف الانفصال عن نفسه بـ «أنا في طريقي لفقدان الطفل»، إنما أيضاً بـ «الطفل في طريقه لأن يفقدني». وبتعابير أخرى، يفقد الطفل عند الولادة، الحماية المطلقة والأمان، هذا الشرط الأولي للنعيم الذي يتطلع كل منا إليه. وتكشف دوماً تحليلات النساء الحوامل، في نهاية فترة حملهن، عن مادة نفسية، حيث تتوافق أفكار الخوف من الولادة تماماً مع ما نفسره عادة كردود فعل لصدمة الولادة. وفي كتابه Inhibition, Symptom, and Anxiety يقول فرويد إن القلق النفسي الطفولي الأول، يظهر عند انفصال الطفل عن أمه. في ما يعلق رانك[1]، بصورة خاصة، أهمية عميقة على هذا الخوف. وبفضل إعادة بنائنا النفسي، نعثر على هذا الخوف الفرضي من الولادة، بصورة غير مباشرة، إنما نصادفه واقعياً ومباشرة في مخاوف المرأة المشرفة على الولادة.

لعل الخوف من الانفصال يبدو لنا مألوفاً أيضاً لأسباب أخرى. فربما الفزع الذي يسيطر على كثير من الأطفال لحظة إفراغ أمعائهم، يُقارن بذلك الخوف من الانفصال في الولادة. فذات يوم، كنت على صلة بفتاة شابة، يتملكها خوف رهيب واضطراب، عندما تُترك لوحدها خلال عملها، وفي حالة من التعكير، تشعر نفسها فيها بحالة من الإرغام، فتحمل ابنها غير الشرعي إلى المرحاض، وتضعه فيه كالغائط. وقد أبلغ عنها كقاتلة لطفلها، ومن المؤكد أنه في ذروة اضطرابها، رغبتها في التخلص ترى النور. ولم يتدارك أي حنان أمومي، أو عناية طبية، خطر الآليات التغوطية التي تترافق عندها مع آلام الطلق والتي أصبحت محركاً لفعلتها.

---

(1) Rank O. : The trauma of birth. New - York: Harcourt, 1929.

يتواجد خوف مشابه من الانفصال في الحالات العصابية. فبعض الاضطرابات الجنسية لدى الرجل على سبيل المثال، ترتكز على الخوف من الانفصال عن السائل المنوي (القذف المؤجل)، وهناك مخاوف هاجسية تظهر في أن الشخص الذي يعاني منها، لا يحب إهمال أداة تنتمي إليه وتخصه أو يدع الأمور تنساق. الخوف نفسه، متغيراً بالشدة وفقاً للأفراد، يرافق الخوف العام من الولادة، كردة فعل على انفصال وشيك لمحتوى الجسد. ولدى النساء اللواتي لم يتغلبن على الصدمة التناسلية، يظهر هذا الخوف بصورة لا مفر منها، كمركب للخوف من الولادة، لكنه ليس إلا مركباً، من بين آخرين، لخوف أكثر عمومية من الانفصال عن الطفل المدرك كجزء من الأنا الخاص للمرأة، إنه خوف يتخذ طابع الخوف من الموت.

يكمن مصدر هام آخر للخوف من الموت في الولادة، في علاقة المرأة مع أمها، علاقة لم تصل إلى حل ومشحونة بالذنب. وقد رأينا أنه، في جميع مراحل التطور نحو الأمومة، وفي أي حب، وفي جميع الأنشطة التناسلية التي تقرّب المرأة من الأمومة، يكمن الخطر الأكبر في شعورها بالذنب غير المحلول تجاه أمها. لأن ذلك يجعلها عاجزة عن أن تصبح أماً سعيدة، متحررة من الضيق النفسي. ومن الواضح أن الشعور بالذنب هذا، والتوتر القلق الذي يرافقه موجودان خاصة خلال الولادة. ويصدر الخوف عن العناصر نفسها إذا أثيرت بمواقف مشتركة مع الولادة.

وفي معظم الحالات، ستصبح العملية، ولادة بالنسبة للنساء، مع جميع المخاوف والقلق النفسي المرتبطة بولادة طفل، وستتبع تماماً، مثل الولادة، لما آلت إليه علاقة المريضة مع أمها. فردود الفعل في تمنيات الموت للأم، وخاصة الأم الحامل، ومشاعر الذنب الآتية من رغبة قتل الطفل الذي سبق للأم أن ولدته، أو الذي استبق خيالها ولادته، يمكن أن تترافق مع نوم تخديري، وتعطي مضمونها لحالات القلق النفسي، ولأعراض الضيق النفسي الذي يسبق التخدير العام. وإذا لم تنجح المرأة

في حل علاقتها مع أمها، فيوجد هنا خطر أكبر وأعمق. فالارتباط المتفاقم مع الأم، والذي يظهر بتأثير ضغط الضيق النفسي وعبء الشعور بالذنب، يمكن أن يتلقى تحريضاً إرجاعياً جديداً لحظة الخطر العملياتي. ويقود عندئذ التوجه الماسوشي للعدوانية ضد الذات، المرأة، إلى ربط نفسها، بطريقة مكدرة، بآلامها وبالأعراض العملياتية اللاحقة(1).

وما سبق ينطبق تماماً أكثر على الموقف الفعلي للولادة. ومن اليسير إدراك لماذا حضور الأم بالقرب من المريضة يمثل أهمية كبيرة، هذا الحضور الذي كان قاعدة حتى السنين الأخيرة.

ولدى النساء الحوامل اللواتي عولجن من حالة عصابية، يتركز الخوف العصابي القديم، في نهاية الحمل على الطفل، ويتخذ طابعاً رهابياً أو وسواسياً. فعلى المرأة الرهابية أن تتجنب وقتئذ بعض المواقف الخاصة المثيرة للقلق النفسي، لكي يتمكن الطفل من أن يرى النور بطريقة مرضية. وتتخيل المرأة التي تعاني من وسواس المرض، بأن الطفل سيصاب بأبشع الأمراض. ونشهد في هذه الأفكار المخاوف التي تسبق الولادة عند نساء سليمات تماماً، إنما بحدة أكبر. وحالات القلق النفسي العصابي القديمة التي كانت تتعلق بالولادة مباشرة، تعود للظهور في نهاية الحمل، وحتى لدى النساء اللواتي عولجن بنجاح بواسطة التحليل النفسي.

وعند كل امرأة حامل، قد يكون الخوف من الولادة معززاً بأسباب أخرى. وقد يأتي مضمونه من موقف واقعي في الحياة، فللخوف، مثلاً، طابع حالة قلق نفسي موضوعي، في ما لو حدثت الولادة في ظروف مرضية، أو إذا استمرت المرأة بالقلق، خلال الولادة، من قدر بائس قد يهدد طفلها (عندما تكون الولادة غير شرعية)، أو إذا أصبح وضعها الخاص أكثر صعوبة بسبب قدوم الطفل...إلخ. ولا يُرى هذا القلق النفسي

---

(1) Deutsch H. : Some Psychoanalytic observations in surgery. Psychosom. Med., vol.4, 1942

الموضوعي إلا في المرحلة الأولى من الولادة، حيث يفسح المجال، شيئاً فشيئاً، للخوف الذي يرتبط بالطور نفسه. فالقلق النفسي الأولي، العميق واللاشعوري، والذي يتعلق بفقدان الوحدة مع الطفل، أي خوف الانفصال، موجود منذ البداية وحتى نهاية الوضع. وقد يُبالغ به بسبب مشاعر الذنب، وقد يترافق مع حالات القلق النفسي التناسلية النسائية السابقة (كالإخصاء، أو فض البكارة)، وقد يكون انبعاثاً، نتيجة العودة لآليات قديمة طفولية منطلقة من مخاوف فموية أو إحليلية أو غير ذلك. ومن الغريب أن نرى، مثلاً، كم يؤدي فقدان الخلاص إلى الخوف الطفولي عند بلل الفراش، وكيف تذكّر أيضاً إحساسات الدفع والطرد للطفل بالحوادث المعوية.

علاوة عن مختلف المخاوف الفردية، يجدر الاهتمام، بصورة خاصة، بالطور النفسي لموضوعين متعارضين للخوف لهما هيمنتهما بشكل عام. فهناك الخوف العميق الأساسي من الموت الذي تحدثنا عنه، والذي سيمكننا أن نسميه خوفاً أولياً، وهو يترافق مع خوف أكثر شعورية وسطحية ويوافق المخاطر الواقعية التي تهدد الحياة. ومن الممكن المبالغة بالطابع الموضوعي لهذا الخوف، بسبب الأشخاص المحيطين بالمرأة، الذين يحبونها ويغتبطون لحالتها وللنهاية الوشيكة لهذه الحالة، وكذلك يملأ القلق قلبهم خلال الولادة. ويعرف الجميع تماماً، بصورة ذهنية، أي المرأة ومحيطها، أن لا هي ولا الطفل في خطر، وأن لا شيء فيه نقص أو عيب...إلخ. ويؤمن الجميع تماماً بالطبيب الذي يحمل تنبؤاً ممتازاً. كما يعتقد الجميع بأن خوفهم الجماعي ليس له أساس واقعي على الإطلاق، ومع ذلك يقول الجميع بقلق نفسي: «غالباً ما تحدث أمور غير متوقعة، لا أحد يعلم أبداً.»

ولا يشوش هذا الخوف تفاؤل امرأة سليمة من الناحية النفسية، ولا الأشخاص العاديين من حولها. فشعورهم بالانتظار المفرح لا يرتكز فقط على يقينهم الذهني بأن ليس هناك من خطر، إنما أيضاً على ثقتهم الأولية بانتصار الحياة على الموت. وإذا شابت هذه الثقة شائبة، فإن الأم فعلاً في

خطر، فقد تظهر متقلبة إزاء المصاعب المحتملة للولادة وإزاء الأحداث الجسدية التي ترافقها أحياناً. وأمام خيار الحياة والموت، تكون المشاعر المتفائلة في جانب الحياة، في ما تكون المشاعر المتشائمة متمسكة بالقلق النفسي، وهي في خدمة الموت.

وعند كثير من النساء، من المبكر جداً أن ترضخ الأمومة لهذه المخاوف اللاشعورية. فبعضهن يتحاشين خوف الولادة بتخليهن عن الزواج وعن الأطفال، وبعضهن الآخر يستبقنه بالعقم والإجهاض. وأخريات يدعن في تلك الأثناء القوى البيولوجية تنتصر على مخاوفهن، ويجدن أنفسهن في أمومتهن، على أعتاب عالم جديد يبدو لهن مملوءاً بالألم والرعب. ويتقبلن كثيرات هذه التضحية في الخوف والألم مقابل إنجاب طفل. وأقلية فقط قد تقبل ببساطة الطور البيولوجي كما هو، ضمن الانتظار المفرح للطفل، ويتخيلن الماضي المشحون بالخوف لصالح المستقبل. ومن جهة أخرى، يبدو أن هذا التحرر نسبي فقط. وفي كل مرة يتم فيها التوصل جزئياً إلى إبعاد فقدان الذاكرة المدخلة على عملية الولادة سواء لدى النساء السليمات أو العصابيات، يُكتشف خوف مُتغلَّب عليه تماماً، إلى حد ما، وصلة مشتركة مع مخاوف سابقة.

ويترافق هذا الميل القوي للخوف مع آليات قوية في الدفاع. فدراسة المرضى الذين خضعوا لتدخلات جراحية، بينت كيف أن إعدادهم النفسي للعملية ساعدهم على تجاوز الخوف، كما ساعد هكذا على إنجاح العملية إلى حد كبير، وبعبارة أخرى، لم يكن الأمر سيان مطلقاً.

أن تُجرى العملية بشكل طارىء، دون أن تتمكن المريضة من التهيؤ لها، أو ان يتحقق موقفاً مؤاتياً أكثر، وتتاح للمريضة إمكانية تهيئة نفسها داخلياً خلال زمن طويل على نحو ما. علينا في الحالة الأولى، أن نتوقع من المريضة، ردة فعل لصدمة نفسية ثم نرى تأثير الصدمة على الحالة ما بعد العملية(1).

(1) Op. cit.

يمكن حصول الشيء نفسه بالنسبة للولادة. فالإعداد الطويل من تاريخ محدد، يساعد المرأة حتماً على تجميع احتياطات ذات شأن من القوى الحمائية أثناء حملها كله. ويلطف باستمرار الخوف من الانفصال بالترائي السعيد للطفل، ما لم تتناقض هذه الفكرة بأخرى مكدرة (عدم ملاءمة الطفل، صعوبات مادية، علاقات زوجية مكدرة... إلخ) .

ما يثير أيضاً، أن يكون لهذا الإعداد مظاهر سلبية. فللمرأة شعور، وغالباً في نهاية الحمل، بأن هناك شيئاً ما، عما قريب في حياتها، سيغير نظام العالم، من وجهة نظرها الذاتية، سوف يخرج هذا الشيء منها، ولن يكون موجوداً إلا بإرادتها، إنما سيمثل قوة لن يكون لها ضابط عليها، شاءت أم أبت، وهي التي ستخلق هذه الحياة الجديدة وسيتوجب عليها الخضوع لقوتها، هذا الإرغام متوقع، ومع ذلك غير مرئي ومتماد. وهو شيء في ذاتها ومع ذلك مجهول ولا يقاوم. إنه موقف مولد للخوف بصورة إلزامية. هذا اليقين من حدث سيحصل في تاريخ محدد، والذي تتعلق به وتتبع له، ومع ذلك لا تتأثر به، إنه مزيج من القوة والخضوع، كل ذلك يمتلك شؤماً ما، لا مفر منه كالموت.

وعند اقتراب نهاية الحمل، يتفاقم الاضطراب وعدم الشعور بالراحة لدى المرأة، ويتحدد المعنى المزدوج للطفل. وكلما اقترب الموعد أكثر، كلما اتخذ الطفل معنىً مستبقاً في الحياة العاطفية للمرأة، وكلما رغبت رؤيته في العالم الخارجي. هذا الانشطار في النفس الأمومية، هو حالة مثيرة وعابرة، يمكن أن نراها، بتعمق أكثر، مصحوبة بتعقيدات. وبصورة طبيعية، رغبة التخلص من الطاغية المستبد هي رغبة مفيدة، تسهل الانفصال. وليس إلا حين يشتد هذا الشعور، وحين يتعزز الخوف من المستقبل بتسريع مجيء هذا المستقبل، وحين ينتقل الاضطراب والضيق النفسي إلى الحدث، حتى يتواجد خطر رؤية الآلام التمهيدية وتصبح طلقاً حقيقياً، وحتى يمكن للخوف من الانفصال أن يؤدي، بصورة متباينة، إلى انفصال قبل أوانه. والملاحظة التالية ستبين تماماً دور هذه التأثيرات التي تعجل أو تؤخر الولادة.

عند امرأة قابلية الإنجاب المبكر (حيث حصلت معها أربع مرات)، كان لدور العلاج النفسي بلا عقاقير، أن خفف ضيقها النفسي اللاشعوري والذي كان سببه خفياً، فتأثرت قابليتها الانفعالية الشديدة بصورة ملائمة، وأصبحت قادرة على حمل طفلها حتى نهاية الفترة. وعندما ظهرت آلامها الأولى في التاريخ المحدد تماماً، كانت هذه الآلام بطيئة جداً بحيث كان التدخل التوليدي مناسباً. ولم يكن من العسير فهم تجربتها النفسية، بحيث أنها أبدت بذاتها الاستبطان الضروري. وكانت سعيدة لدرجة الجنون لفكرة الإنجاب بعد تسعة شهور، وصرحت بأنها شعرت نفسها متحررة تماماً من خوفها القديم. ومع ذلك، استولى عليها خلال الولادة نوع من الخشية، خلال نوبتين من الآلام، وكانت تقول في نفسها: «ماذا سيحصل لو عدت لحالتي القديمة المضطربة، ولو أخرجت الطفل بسرعة كبيرة؟ هل سيعيش حينها؟»

فالخوف نفسه الذي كان في ما مضى يهيج الدينامية والنشاط، غدا الآن مكبوتاً. والموضوع العصابي ذاته كان في خلفية الحالتين: «لا أستطيع إنجاب طفل حي».

عند كثير من النساء، يعبر اضطراب الأسابيع الأخيرة للحمل عن نفسه بنشاط متنامٍ، حيث لا يستطعن الخلود براحة، ويظهرن باستمرار الحاجة للقيام بشيء ما، وهكذا يتحايلن على وعكتهن المقلقة، وحتى يتحررن من أي خوف شعوري. فالإحساس المعزز بصورة ذاتية بانقباضات رحمية، تدفع المرأة للذهاب إلى المشفى قبل الأوان، وفي هذه الأثناء، قد تحملهن خيبتهن أمام هذا الإنذار الخاطىء إلى أقصى معارضة ذلك، حينئذ، كما في الحالة المذكورة أعلاه، قد تؤجل الولادة بطور من الكبت. مثل حالات الخلل هذه، تتصاعد في نهاية الحمل لأسباب ذاتية، قد تؤثر علانية على الطور اللاحق للولادة.

لإلقاء المزيد من الضوء على دراسة العناصر النفسية التي ترافق هذا الطور، سنجمل باختصار الظواهر الفيزيولوجية. ونميز ثلاث مراحل للولادة

الطبيعية: التوسع (في عنق الرحم)، الاستبعاد، الخلاص. فالتوسع غالباً ما يدوم عدة أيام، وهو يُلاحظ بانقباضات خفيفة للعضلة الرحمية، تترافق بشد مؤلم. وبالنسبة لامرأة حصل معها ذلك في ولادتها الأولى، تعتبر ذلك مؤشرات انذار، وتقريباً تبدي جميع النساء حينها نشاطاً لافتاً. وفقط عندما يشلهن الخوف يسلمن أنفسهن للقدر ويدعن الآخرين يتصرفون لأجلهن. هذا الخوف لا يضبط عادة، لكنه يتوازن على الأقل بالانتظار المفرح:

«سرعان ما سيكون لي طفل».

وبصورة طبيعية، سيكون موقف المرأة، محدداً منذ البداية باستعدادها وقابليتها، وفقاً للمقياس الذي ستكون مهيأة به خلال المرحلة الأخيرة من حملها، لصدمة الانفصال، أو لحالات أخرى، ووفقاً لمدى نفاذ صبرها في التخلص من عبء شوش الطور الطبيعي.

ويتبع هذه المرحلة التحضيرية الممتدة، على نحو أو آخر، ظواهر أولى للولادة بكل ما للكلمة من معنى، إنه التوسع الفعلي، نسميه هكذا لأن عنق الرحم يتوسع، شيئاً فشيئاً، بالانقباضات العنيفة لعضلة الرحم. وتجذب هذه الانقباضات بصورة قوية جداً نحو أعلى برزخ الرحم، بحيث تنفتح فتحته، فتسمح هكذا بمرور الطفل. في هذه الأثناء، تتوسع الفتحة شيئاً فشيئاً، والأغشية التي تحيط بالجنين ترتبط بها، وتضغط على الفتحة وتتهشم، تاركة خروج كمية معينة من سائل الخلاص.

وخلال المرحلة الثانية من الولادة، أو الاستبعاد، تستمر انقباضات الرحم، أي أن عضلات برزخ الرحم تنقبض باتجاه طولاني، بينما تنقبض العضلات المتموضعة في الأعلى باتجاه دائري. كما ينتقل هذا الانقباض الدائري باستمرار نحو الأعلى، ويصبح الجزء الأدنى من الرحم والمهبل مجرىً رخواً يجد الطفل نفسه مدفوعاً باتجاهه بحيث يخرج رأسه من المهبل بموجب القوة الاستبعادية للانقباضات الرحمية الإيقاعية، وبموجب ضغط العضلات البطنية.

في ما تستغرق المرحلة الثالثة من الولادة عادة 15 ـ 30 دقيقة بعد الولادة. وتُستبعد وتُطرد خلالها مؤخرة ولواحق الحمل والمشيمة.

وحدهما المرحلتان الأخيرتان من الولادة جديرتان بالاهتمام من الناحية النفسية. فوظيفة عضلات الرحم، والانقباضات والتوسعات، تتعلق كلها بالأعصاب. فالأعصاب أو التزود بها، له ثلاثة مصادر: الجهاز العصبي الودي، والكابت للاستبعاد الجنيني، والجهاز الشبه ودي، والتي تتعلق بها عضلات الاستبعاد، أما التزود الموضعي بالأعصاب والمؤدي للانقباضات الاستبعادية، فيحدث بواسطة عقد أو كييسات متوضعة داخل العضلة الرحمية. ويتعلق الطور الطبيعي للولادة بالتفاعل المنسجم للعضلات المختلفة مع تزويدها بالأعصاب. وتتبع هذه بدورها، وبصورة حادة، تأثيرات داخلية وخارجية. ويعلم الطب النفسي الجسدي، ضمن أي إطار فريد تتعلق الأجهزة العصبية الودية والشبه ودية بالتأثيرات العاطفية، وكذلك قد تقصّر أعضاء أخرى في وظيفتها بتأثير الاضطرابات، ذات الأصل النفسي، بالأطوار العصبية. وهكذا ترتكز مهمة الولادة على تأثيرات مناوئة لتوزيع معين للأعصاب. وتنتظم هذه التأثيرات بصورة أوتوماتيكية، حيث تتعارض شدة سريعة للطور مع كبت متوافق، والعكس بالعكس. وما يصح على الأطوار العضوية، يصح أيضاً على الأطوار النفسية. هؤلاء أيضاً، كما رأينا، تملؤهم المناوءات، وتتوازن مختلف الميول النفسية والتحريضات العاطفية مع أفعال معاكسة وكابتة. إن الجهاز العصبي الذاتي الذي يقوم بتوجيه الطور الفيزيولوجي للولادة، والحياة النفسية اللاشعورية، مستقلان عن الإرادة الشعورية للمرأة في حالة النفاس. كما قد تُعدل وظيفة الجهاز العصبي الذاتي بالعقاقير، وقد يتأثر اللاشعور النفسي، على نحو ما، بصورة غير مباشرة، بواسطة الشعور. فضلا عن أن المجالين قد يدخلان في علاقة مباشرة إنما لاشعورية.

يقدم طور الولادة، بضيقه النفسي بلا حد ناشئ عن مصادر أخرى، أرضية ملائمة، بصورة خاصة، لفعل التأثيرات النفسية. ويؤدي موقف المرأة

تجاه طفلها، وأهليتها للأمومة، وأحداث حملها، وأي موقف لها في الحياة، إلى تشكيل الجو النفسي للولادة. ومع ذلك، من اللافت، التحقق كم تتبع الولادات مجراها البيولوجي الطبيعي، رغم موقف بائس من الحياة، ورغم الفقر والهموم والخوف من النتائج الاجتماعية (كطفل طبيعي) لزواج بائس...إلخ. وبالمقابل، هناك اختلالات لا تفسير لها، لا في علم الفيزيولوجيا ولا في علم النفس. وما يسببها يكمن في اللاشعور، وإعادة البناء التحليلي النفسي اللاحق لمثل هذه الاختلالات، علمتنا الكثير حول طور الولادة بمجمله.

إن طرائق الاستقصاءات للظواهر النفسية التي ترافق الولادة متعددة. وكل امرأة تلون الطور بما تجلبه لهذه الوظيفة من بعض الاستعدادات المسبقة الشخصية. وبوصفنا للعامل الذي يتمسك بالشخصية، سنقتصر على تعريفات تصميمية نوعاً ما. وهكذا سنتحدث بتعابير عامة عن ميل امرأة ما إلى السلبية أو الإيجابية والنشاط،، ذلك الميل الذي يترك بصمته على الولادة. أما العامل الثاني الهام، فهو في المقياس الكمي الذي يظهر به كل من هذين الميلين. ويرتبط العامل الثالث بالطريقة التي وفقاً لها تظهر السلبية أو الإيجابية.

ويُرى الفارق بين الميلين أثناء مرحلة الآلام التمهيدية. إذ تتخذ كثير من النساء منذ البداية موقفاً سلبياً تماماً، ويقطع الطبيب وعداً لهن بعدم الإحساس بشيء، وبأن لا شيء يدعو للقلق، بل سيكن في غاية الراحة. وعندما تبلغ الآلام حدة معينة، يصبحن نافذات الصبر وسريعات الغضب، وطالبات للطبيب والمخدّر ورافضات أي تعاون نشط.

ومع ذلك، وبالإجمال، فالإيجابية التي تظهر في نهاية الحمل هي آلية دفاع في مواجهة الخوف. والاضطراب القسري، والحاجة للإيجابية، مسوّغتان عادة كوسيلتين يُقدر لهما جعل مرحلة الانتظار أقصر. في الواقع، إن ذلك إعداد لطور إيجابي للولادة، وهو حاجة لتحريضها. إن مساهمة المرأة في ولادتها، لا يظهر فقط في نتاج هذه الولادة، أي الطفل، إنما

قبل كل شيء في مشاركتها الإيجابية في الولادة. فإن تتصرف بإيجابية أكثر أو سلبية أكثر، هو شيء محدد عادة بطبيعة شخصيتها المأخوذة بكليتها، مع أن ذلك يكون بطريقة غير متماسكة. وقد وجهت بعض النساء كل إيجابيتهن النفسية نحو غايات أخرى، بحيث لا يكون طور الولادة بالنسبة لهن إلا طوراً بيولوجياً، يخضعن له بصورة سلبية. وعلى العكس، تغرق نساء عاديات، أكثر سلبية، بسبب الآلام الأولى، في حالة فرح انفعالية تأثرية، تلزمهن ببذل إيجابية أكثر.

وتظهربعض النساء، بصورة متميزة، إيجابية شديدة في بداية الولادة. فالسيدة ن. التي لاحظتها حال وصولها إلى المشفى، وصفت لي بنفسها بداية ولادتها. وهي تمارس مهنة كيميائية، وكانت تشعر نفسها خلال الحمل بأحسن حال واستمرت بتأدية جميع التزاماتها المهنية. وبدأت الآلام قبل الموعد المتوقع ببضعة أيام، وفاجأها ذلك وهي تقوم بتجربة كيميائية هامة وتعرضها مع رئيسها على مجموعة من الطلبة. وكانت تشتغل بحماس عندما أصبحت آلامها، شيئاً فشيئاً، أكثر تكراراً وراحت تفكر: «لو نتمكن فقط من إنهاء التجربة!». ولما سألتها لماذا لم تقطع عملها، أجابتني بأنها لا تمتلك انطباعاً بأن هناك نوعين من الأفعال المختلفة، وكان الأمر بالنسبة لها، كما لو أن هذين الفعلين كانا مرتبطين نوعاً ما، وأن مهمتها تكمن في تناولهما معاً. ولحسن الحظ تماماً، لم يدم هذا الموقف أكثر من ساعتين، وكانت هي نفسها مقتنعة تماماً بضبط نفسها، وأن الولادة ستأتي في وقت ملائم أي في أوانها. ولم تكن السيدة ن. امرأة ذكورية، لكنها تمتلك كامل الإيجابية المكتسبة كامرأة تبعد خوفها وتشارك فعلياً بولادة طفلها.

وبالطبع فإن السيدة ن. لم تكن إلا مثالاً مبالغاً به عن الإيجابية التي تسبق الولادة. فهذه الإيجابية عند غالبية النساء مكرسة للتحضيرات المحمومة، وعند كثير غيرهن لها طابع أكثر عقلانية، وعند أخريات أيضاً، لا يتعلق الأمر إلا بمرحلة وقتية سرعان ما تنتهي.

فالمرأة المتأثرة بعقدة الرجولة تكون ردة فعلها بطرق مختلفة تجاه

الولادة الوشيكة، إنها تتخذ الولادة بكل «استخفاف» بأنها ليست إلا طوراً بيولوجياً لا يعني القلق بشيء، و«بصورة طبيعية» لا تشتكي أبداً طوال فترة حملها. إنها تبذل ما في وسعها لجعل الطور كله عبارة عن تشوش بسيط لحياتها الطبيعية. وهي تنفي خوفها وآلامها، ولا تطلب عموماً مخدراً إلا عندما «تسوء» الأمور جداً. وهي تناقش عادة الطبيب بنفسها وطاقم المشفى ...إلخ يعتبر نوع آخر للمرأة الرجولية، الولادة كمهانة مفروضة على النساء من قبل الطبيعة، أو كإجحاف ينبغي تداركه وعلاجه. كما تأبى بالطبع تحمل الآلام أو التعاون في ولادتها، وهي على قناعة بأن على المولد الحديث أن يرتب كل شيء بأسرع ما يمكن وبأقل فظاظة ممكنة. وإذا ما قدمت بعض الطلبات أو حتى المفروض من أجل ابنها، فلأن ذلك عمله.

أما إيجابية المرأة المتوسطة، وعادة ما تكون نشيطة، لدى ظهور أولى الآلام، هو تقريباً كما يلي: إنها ترتب حقيبتها بنفسها، وتلقي نظرة أخيرة على غرفة الأطفال. لتطمئن أن كل شيء على أكمل وجه، وترغب بالحديث على الهاتف، وغالباً لصديقاتها، وتطلب غالباً بإصرار تحذير طبيبها بنفسها، والمشفى ... إلخ، بأن عمله قد بدأ. أما نفي الخوف، الذي يتخفى وراء هذا الإظهار والعرض للإيجابية والنشاط، فهو غالباً شعوري تماماً.

وتدخل كثير من النساء في إثارة مفرحة مع بداية آلامهن، وخاصة عندما يتجاوز الحمل الفترة المتوقعة: «ظننت أنني لن أنجب طفلي أبداً». ويأخذ الطفل، شيئاً فشيئاً، طابعاً غير واقعي، وتتلاشى فكرة وجوده. وعند أخريات على العكس، يصبح واقع الطفل بحيث في نهاية الحمل تمتلك المرأة انطباعاً، بأنها لا يفصلها عنه إلا «ستار» الحاجز البطني، وبحيث في تهيجها النافذ الصبر، تريد رؤيته بأسرع ما يمكن.

وخلال المرحلة الأولى من الولادة (التوسع)، قد يكون على المرأة الأكثر إيجابية ونشاطاً أن تخضع بالكامل لقوى داخلية، وتتحمل الطور بسلبية وبصبر، متعاونة فيه، كأنها مهمتها الوحيدة. وهناك نساء قد لا يتقبلن

هذا الموقف، ويردن دون انتظار الاهتمام، بالولادة بأنفسهن، أو القيام بشيء ما، ويرفضن الخضوع لقوى داخلية أو آراء خارجية. وكأي مظهر آخر لإيجابية مفرطة، قد يعبر هذا السلوك عن ميل أولي أو دفاع لمواجهة الخوف. وإذا تميزت الأطوار الحيوية للمرحلة الأولى بتوتر شديد، وإذا تأثرت التحريضات بالخوف أو بنزوع شديد للمشاركة النشطة، فإن ظواهر الطلق تفقد تلقائيتها الطبيعية، ويتشوش الطور من كل هذا. ومن جانب آخر، قد تطول مرحلة التوسع بسبب موقف سلبي جداً، ومذعن لدرجة كبيرة تجاه القوى العصبية، لدرجة أن الانقباضات تصبح بطيئة، أو كسولة، أو حتى معدومة، فتتوقف الولادة.

وخلال هذه المرحلة، قد يكون التأثر الخارجي فعالاً جداً. أتذكر امرأة معارضة ومزعجة، حين لاحظت أنها تخدم موضوع دراسة لطلبة في الطب كانوا إلى جانبها، قطعت سريعاً آلامها، وكانت تقطعها من جديد كلما طالب اقترب منها. وامرأة أخرى، كانت قبل فترة وجيزة في علاج تحليلي نفسي، لم تتمكن من الاستمرار في طلقها إلا بعد أن اطمأنت بالهاتف من تعاطف واقتراب طبيبها المحلل النفسي. ولم أتمكن من اكتشاف بواعث التعند عند المرأة الأولى، أما بالنسبة للثانية، اكتشفت أن الأمر لم يكن يتعلق بحثّ أو تشجيع، إنما بتحويل متأصل بعمق يهب المحلل النفسي قدرات ساحرة.

وأثناء مرحلة الاستبعاد يختلف الموقف. فعلى الولاّدة أن تنجز حينها مهمة كبيرة جسدية ونفسية. ولا يحدث الدفع البطني خلال الولادة إلا مقابل جهد كبير، ويتفاقم الألم كثيراً. ويبدأ الدفع بإيقاع مع الآلام، وتتم المرأة النفساء عملها الفردي في خدمة النوع، محفّزة الانقباضات الجسدية الداخلية، وبإرادتها الخاصة، وبالتشجيعات الخارجية.

وتبين دون أدنى شك الملاحظة المباشرة لنساء في النفاس، أن الولادة يُحس بها كمهمة مضنية، وأنها تقتضي ضبطاً كبيراً للخوف والألم. إن الصدمة الناتجة عن الآلام وعن دينامية الطور تقلص طبعاً احتمال

الإحساس بالانطباعات الخارجية. وتصبح جميع الأفراح والملذات شاحبة وعديمة الأهمية، ويقتصر أي تواصل بين أنا النفساء والمحيط على مسائل ذات صلة مباشرة مع طور الولادة. وتُناشد إيجابيتها بإلحاح وبصورة كاملة، وتربطها مهمتها، بإمعان شديد، بالأطوار الدينامية، وما تبقى من حاضر وماضي ومستقبل يبدو مختفياً. إلا أنه أحياناً، تبدو الانطباعات الحساسة المشتركة مع الولادة بصورة مباشرة، حادة لدرجة مفرطة، وتقريباً ذهانية، وللنفساء ميل في التعبير عن نفسها، بصورة سيئة، وكذلك في سماع الآخرين... إلخ.

ورغم تركيزها القلق على أناها الخاص، ففكرة خدمة النوع وهم الطفل تريان النور. وقد لفتت ايرڤينغ، في كتابها Safe Deliverance انتباهنا إلى نمط خاص في السلوك[1] :

أولئك اللواتي يتعرضن لنزف خطير، ويبقين واعيات، يشعرن أنفسهن منفصلات عن الواقع بصورة غريبة. إنهن يدركن النشاط الذي يحيط بهن وأهميته، ويشعرن بالضيق النفسي للأطباء والممرضات الذين قاموا بكل ما من شأنه السيطرة على موقف خطر، لكنهن الأقل قلقاً من الجميع. ومع أنهن يدركن إمكانية الموت، لا يخشين من مجيئه أبداً بحيث ينظرن بسكينة شرقية تقريباً. وبقدر ما تستمر قدراتهن العقلية، ينعدم وجود الخوف والإحساس بسكرة الموت والجنون والصراع من أجل الهرب من القدر، لأن اللاشعور وحده يؤدي للاضطراب.

أنقل عن نساء شهدن ولادات عسيرة جداً، إنما تلقائية بالكامل تقريباً، أنهن قبل أن يستغرقن في النوم بقليل من الوقت، ويخضعن لتدخل ضروري، شعرن بالحالة التي وصفتها إيرفينغ إنما مع فارق أنهن، في بلادتهن الكاملة، انشغلن أيضاً بحماس بمصير أطفالهن وتعذبن من أجل أن يعيشوا بعدهن.

---

(1) Irving : F.C. : Safe Deliverance. Boston : Houghton Mifflin. 1942 , P. 299.

لقد علّمنا التحليل النفسي أن ندرك، على نحو أفضل، طور الولادة في ما يخص هذا الموضوع، وأظهر أن التأثيرات النفسية اللاشعورية، تلعب دوراً واضحاً في الميل الذي أُشير إليه أعلاه في المشاركة النشيطة الإيجابية. فخلال هذه الفترة من الوعي المخفف، قد يكون تأثيرها أقوى حتى من الحالات الطبيعية. ولأجل هذا السبب عموماً يتوقف طلق كان قد بدأ فعلاً، ولهذا السبب أيضاً تصبح الانقباضات قوية جداً أو ضعيفة جداً، أو لا تحدث في لحظة مناسبة، أو بطريقة متباينة. وبدلاً من الاسترخاء، يكون الانقباض، وبدلا من الدفع الفعال تكون حركة احتجاز واعتراض السبيل...إلخ. وفي بعض الحالات، يمكننا ملاحظة توقف مفاجىء عن مشاركة المرأة، إنها تحمي نفسها تجاه الخوف الذي يجتاحها وتجاه الآلام، تاركة نفسها تنزلق نحو السلبية. وتريد نساء أخريات الحفاظ على ضبطهن الإيجابي، لدرجة أنهن لا يحترمن الإيقاع الطبيعي للطور، ويجلبن بذلك نوعاً من البلبلة في نشاط الانقباضات. كما يمكن اللجوء إلى الصراع بين الميول الإيجابية والسلبية للتعبير عن ظواهر جسدية.

وعندما يتوصل التحليل اللاحق، بفضل معرفة تحليلية للمرأة، إلى إعادة بناء التجارب التي عاشتها، والتي برزت من فقدان الذاكرة تماماً، على نحو ما، يصبح من الممكن تماماً إدراك الاختلالات التي ميزت حملها. ولا بد من الإشارة أولاً، إلى أن فترات الراحة، وحالات نصف النوم بين ألمين، غالباً ما تعج بالأحلام والهلوسات المنوِّمة. وخلال إحدى هذه الفترات، تبرز الميول النفسية غير المحلولة وغير المنضبطة المرتبطة بالولادة، كحلم، ومن العسير عموماً معرفة ما إذا كنا على صلة بحلم حقيقي أم هلوسة منوِّمة أم تخيل مرغوب. حيث كنا الآلام والإحساسات العضوية للحمل على صلة، دون أدنى شك، خلال الوقفات، بمضامين نفسية. والحلم التالي، حلم عصابية استحواذية، قطعت تحليلها قبل ولادتها مباشرة، ثم استأنفته بعدها مباشرة، يبدو أنه يعطينا مثالاً نمطياً عن هذه الظواهر.

السيدة بيرد امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، كانت متزوجة منذ ثلاث سنوات عندما بدأت تحليلها. وكان عندها عصاب استحواذي هاجسي في ما يتعلق بطقوس التزين والثياب. وكانت تعاني من آلام في الرأس شُخصت بالشقيقة. وكانت تريد إنجاب أطفال، إنما لم تتجرأ لا هي ولا زوجها على التفكير بذلك بسبب هذا العصاب. وكانت تتعلق بزوجها، الذي شملته هذه الأعراض، لدرجة أنه كان أيضاً مجبراً على الخضوع لطرق معينة في تزينه. وكانا موسيقيين. السيدة بيرد عازفة فيولونسيل موهوبة وطموحة، وبنفس الوقت، أستاذة هارموني وتلحين.

وبعد أشهر قليلة من التحليل، تحسنت حالتها لدرجة أنها سمحت لنفسها بالتفكير في إنجاب طفل، وأصبحت حاملاً بعد ذلك بفترة قصيرة. وحصل حملها دون أدنى تعقيد، فقط كانت تشتكي، من وقت لآخر، من عدم إحساس شيء ذي أهمية بالنسبة لطفلها. وكان عندي انطباع أن السيدة بيرد، التي تتأرجح حياتها العاطفية بين الحب والكراهية، على علاقة بنمطها العصابي الهاجسي، وتنقصها الثقة بمشاعرها الخاصة، وتنظر لموقفها العادي تجاه الطفل الذي لم يكن بعد إلا خيالياً كمؤشر لانزعاج عاطفي. وكان الحبور يستولي عليها لفكرة الإنجاب، وتقوم بكافة التحضيرات الضرورية المتعلقة بولادتها، إنما مع تقدم حملها، غدت صراعاتها أكثر حدة. وكانت تتقبل ألا يشوش الطفل نشاطها المهني، إذ يمكنها بيسر أن تعطي دروسها في بيتها. إنما ألا يكون الطفل عائقاً في نمو موهبتها؟ أهي جديرة فعلياً على تكريس نفسها لطفلها؟ وهل لديها الوقت لأن تكرس نفسها للطفل والعمل في آن واحد؟

وكانت السيدة بيرد تعلم أن هذه المسائل لا علاقة لها بقضية وقتها ولا بقواها، إنما تصدر عن صراع بين رجولتها وأنوثتها. وقد حلت هذا الصراع بصورة حسنة حتى ذلك الوقت، لأنها تسامت على كل ما هو رجولي في طبيعتها، في عملها المهني. وشعرت بدقة حينئذ أن هذا الحل يتعرض للتهديد.

وكانت بداية ولادتها عادية. وهي من أولئك النساء اللواتي يستطعن العثور في الولادة على استثمار ممتاز لميولهن النشيطة. وتعاونت بكل طاقتها دون أن تشتكي من الآلام. وفي لحظة ما، طلبت منها القابلة ألا تفرط في الدفع، فطرأ حينئذ توقف طويل، واسترخت السيدة بيرد كنصف نائمة حلمت خلالها الحلم التالي: أصابها ألم فظيع في الرأس، واعتقدت أن رأسها سقط من مكانه وانفصل عن جسدها، وخرج منه عدد كبير من الإلفات[1] الصغار يرقصون بحلقة دائرية. حينئذ، استيقظت تحت وطأة ألم جديد، وابتداء من تلك اللحظة تضاءلت آلامها بدلاً من أن تزيد، ولم يتقدم طلقها. وتوجب مساعدتها لإتمامه، ثم أنجبت صبياً، وأحست بكل الأفراح الأمومية دون أدنى انزعاج عاطفي، ولم تعاود أعراضها العصابية الهاجسية إلا بعد عدة أسابيع، خلال الإرضاع.

تفسير حلمها كان سهلاً، لأني كنت على إلمام بمجمل وضعها النفسي. تحول الألم دليلاً من منطقة دنيا إلى عليا أعلن عنه مرض الشقيقة السابق، ذلك المرض الذي كنا قد ظنيناه في ما قبل، متخفياً بأوهام الولادة. ليس من المهم كثيراً إن كان هذا الافتراض صحيحاً، إنما رضيت واستجابت أن تكون مفيدة في الحلم، طالما أن المريضة، قبل الولادة بأيام قليلة، تحققت من أنها لم تعانِ من آلام في رأسها منذ عدة شهور، وبناء على ذلك أطلقت ملاحظة على سبيل الممازحة: «لقد وجدت مكاناً آخر للولادة».

التأثير المباشر للتحليل على الحلم ظهر هكذا: قبل فترة وجيزة، خلال آلامها، حثّت المريضة نفسها لأن تكون شجاعة، وهي تفكر بتحليلها وبمحللتها، وتقول إن هذه الأخيرة ستكون فخورة بسلوكها.

كما بدا صراعها بين الرجولة والأنوثة مصوراً بجلال بالحلم، حيث فيه ولدت من رأسها كما أنجب زيوس مينيرفا، أي كرجل. كما حاولت

---

(1) جنّي أسطوري في اسكندينافية يرمز للهواء والأرض والنار (المترجم)

أيضاً، في صراعها، أن تبلغ غايتها من علاجها، وما أنجبته في حلمها لم يكن امرأة ذكورية، إنما كائنات صغيرة حساسة، بيضاء، ودعاء، أنثويون جداً، لا يعزفون على الفيولونسيل، إنما يرقصون بصورة دائرية، كالنساء. في ما استبدال مجموعة من الفتيات الشابات بفتاة شابة وحيدة تريدها كرجل شاب، يعود لأسباب متعددة. فالانطباع المرئي لقارورة الشاش والقطن المعقم، الذي نظرت إليه لحظة استغراقها في النوم في قاعة الولادة، كان أحد الأسباب التحريضية.

وبينت لي السيدة بيرد بوضوح خاص، كيف تحركت كل الشخصية العاطفية للمرأة خلال الولادة، وكيف ظهر لاشعورها تأثيره رغم شدة التركيز على الموقف المباشر. سمح ذلك بقبول أن ثمة ميول لاشعورية تظهر مباشرة أيضاً في الوظائف الجسدية، وأنها يمكن أن تؤثر في مجرى الولادة. وتدعي مريضات أخريات إمكانية تذكر أحلام خلال الولادة حيث كانت تطير، وبدا في هذه الأحلام بوضوح خاص كل الرمز الجنسي المألوف في التجربة التحليلية.

تحدثت أخريات أيضاً، عن أحلام اضطهاد وكانت الصفة الرئيسية لها، أنها مترافقة مع أحاسيس جسدية. وفي هذه الأحلام، تطارد حيوانات مفترسة الحالمة، أو أن مخلباً أو سناً حادة تنغرز في جزء من جسدها، وهي تحاول الهرب، لكن مضطهديها يمضون في أعقابها، وتصادف في هذه الأثناء خطراً جديداً ماثلاً أمامها. إن ما هو مشترك ونمطي في جميع هذه الأحلام، أنها إثارة محركة ومرافقة لشعور بالعجز وعدم المقدرة على بلوغ الهدف. وانطباعي أن مثل هذه الأحلام تعيد انتاج اللوحة الفعلية العامة لطور الولادة. ويظهر الألم الجسدي في الحلم، والنشاط المحرّك يتم الشعور به كمهرب وككبت، لأن النفساء تحس نفسها فعلياً تسيطر عليها قوة محركة لا تتمكن من الإفلات منها. ويُرى الخوف هنا، حتى عند النساء اللواتي يدّعين بحدّة، أن الخوف لم ينل منهن عند عملية الولادة. وآلية الإسقاط التي نعرفها تماماً في أحلام النساء الحوامل، تظهر أيضاً، بشكل

آخر، خلال أحلام الولادة، وحيث الطفل هو الأم نفسها. وتبدو لنا الآليات نفسها مألوفة بفضل أحلام اللواتي يجرين عملية (قبلها أو بعدها): حيث يحلمن بأنهن يحضرن عمليات تجرى على أشخاص آخرين. وتلتجئ النفساء أيضاً في بعض الأحيان لنفس الآلية في الإسقاط، لتمثيل عملية التوليد مباشرة، وتكون بطلتها امرأة أخرى.

وتمثل هذه الأحلام أحياناً إرضاءات مباشرة لرغبات: فيبدو الطفل قد وُلد، وأن مظهره وجنسه يرضيان أغلى ما تنتظره وتتوقعه الأم.

وينبغي القول أنه من النادر سماع استعادة ذكرى هذه الأحلام بصورة مباشرة. إذ أن طور الولادة هو في مجمله سبب في فقدان الذاكرة إلى حد كبير، فقط بعض التفاصيل التي تحوم وتطوف في الذاكرة بشدة معينة، تكون على صلة عادة بأحداث وأفعال خارجية، وليس بالانطباعات العاطفية. وأحياناً، يُحتفظ بكل الأحداث الخارجية في الذاكرة بدقة تصويرية، في حين أن التجارب العاطفية للمرأة تذهب بالكامل طي النسيان. وتعود هذه التجارب للظهور في التحليل، مثل الأحلام. ويفقد عموماً فقط تعاقبها الزمني، ومن العسير أحياناً أن نكتشف بالتأكيد إذا ما ظهر بالواقع الإحساس بالحلم خلال فترة بين الآلام، في بداية عملية الولادة، أو في ما بعد، قبل البنج أو بعده. كما لا نصل دوماً على الإطلاق إلى تمييز أوهام التخيلات عند نصف الوعي، من الأحلام بكل معنى الكلمة. إنما من المسلّم به، أن هناك تجربة نفسية على علاقة بالولادة.

وفي حالة السيدة بيرد، يمكن للحظة الحلم أن تقرّر بدقة. وحتى الآن كانت نشيطة في ضبط طور الولادة، وكان يسيطر عليها الشعور التالي: «أستطيع أن أقوم بذلك بنفسي». وكانت واعية تماماً عند المساهمة التي قدمتها. وبتأثير الصدمة العنيفة للألم والخوف بحيث رأت نفسها الآن مرغمة على الاعتراف، شعرت فجأة بقوة أقوى من قوتها الخاصة. وأصبح لديها انطباع بأن عليها الإذعان لقدر ما، قدر خاص بالمرأة. وتوقفت عن اعتبار الولادة كشيء يمكن إتمامه بنفسها، وبحيث تشعر نفسها فيها إيجابية

نشيطة وذكورية، وأحست أنها أصبحت مخلوقاً ضعيفاً وخانعاً، وأنها امرأة. لقد رغبت في استدعاء طبيبها لمساعدتها، كما تفعل ذلك جميع النساء ـ «لا حيلة لي في ذلك مطلقاً» ـ وبينما كانت تعاند هذه الرغبة، كان لها هذا الحلم. وبعد الولادة، خجلت من ضعفها واتهمت في ذلك علاجها التحليلي. واستأنفت هذا العلاج، وانشغلت بأمورها البيتية، وأصبحت الآن مضغوطة أكثر بالأعباء، ولم تقرر في نفسها العودة إلى التحليل إلا حين طرأت أعراض في علاقتها مع الطفل. فمع أنها كانت سعيدة لإنجاب طفل، اتهمت محللتها على إرغامها في أن تصبح حاملاً وبذلك عرفت التجربة التي ليست فقط مؤلمة إنما «مخزية». إنها تجربة الولادة.

لعل موضوع إعادة ولادة في حلمها لأشكال من إلفات بيضاء، كان فألاً لنجاح لاحق لتحليلها. نمطياً، كانت السيدة بيرد تمثل المرأة الذكورية الإيجابية النشيطة، التي تريد أن تكون ولادتها إنجازاً نشيطاً من قبلها. ويؤدي تشويه النشاط الأنثوي بالرجولية إلى تعقيدات في الولادة. ومن السهل التعرف على طبيعة هذه التعقيدات في حالتها، طالما كان مصدرها الأعراض العصابية ذاتها.

وعلى النقيض تماماً تجد باقي النساء أنفسهن في الولادة في سلبية تامة. وحتى خلال الحمل، امرأة من هذا النوع لا ترى نفسها مالكة لطفل ولا مسؤولة عمّا قد يحصل. إنها تقتصر على حمل ثمرة ستولد منها. في ما الطبيعة والرب والعناية الإلهية سيتحكمون بالولادة، وسلطات العالم الخارجي، والأم والأب سيهتمون بالتفاصيل الضرورية. هؤلاء الراشدون عارفون بكل شيء، وفي نهاية الأمر، الأم المستقبلية بحد ذاتها قد لا تدري كيف تتصرف. وبعضهن ينمّين، إلى حدٍ ما، هذا الجهل وهذا الخضوع السلبي، فبنظرهن، من الخطأ على المرء أن يعرف أياً كان، وينظرن لأي معرفة كمسبب للاضطراب. إنهن يتبعن توصيات الغير بصورة عمياء، وكالأطفال، لا ينشغلن إلا بالتخلص من خوفهن، وبالتألم بأقل ما يمكن. ولسلوكهن أثناء الحمل صفة خاصة، يرافقن أمهاتهن على الدوام (أو

من يحل مكان الأم) ويتركن ما أمكنهن نشاطهن للزوج. إنهن سعيدات ولطيفات، ولا يتعرضن للمشاكل إلا حين تترافق سلبيتهن بنرجسية طفولية ذات شأن، وفي هذه الحالة، يصبحن نافذات الصبر جداً نحو نهاية حملهن، ويطلبن بإلحاح أن تعجل ولادتهن، قائلات إنهن لا يستطعنْ مطلقاً ضبط عدم صبرهن. وحد تساهلهن الماسوشي يتم بلوغه بسرعة، في ما تستولي نرجسيتهن عليه.

ومن المثير ملاحظة أن كل ما نتعلمه من امرأة كهذه في موضوع حملها هو في عبارة: «إنه شيء رهيب»، أو «إنه رائع، لم أحس بشيء». وبالنسبة لامرأة سلبية وطفولية، الأمر برمته له طابع سحري على نحو ما، إنها تسقط فقط على العالم الخارجي ما حُقنت به لحظة الجماع. ويتكفل أناها مجابهة الخوف بالخضوع منذ البداية لقدرات تمثّل الحياة والموت.

والعدائية التي أحست بها في ما مضى، كجميع الفتيات، تجاه أمها، لا تهددها مطلقاً طالما منذ البداية، أعادت الطفل لأمها، الطفل نفسه، إن صح القول، الذي حسدتها عليه في ما مضى أو الذي رغبت أن تسلبها إياه. ولو أن مثل هذه المرأة كانت قيد علاج تحليلي، لبيّنت علاقتها مع محللتها أن كل شخصيتها هي على تعارض مع شخصية المرأة العدوانية. وحالما يبدأ ألم الطلق، تبوح به لمحللتها كأفضل صديقة، وأحياناً لأمها. ومن اليسير إدراك لماذا تكون المحللة بالنسبة لها بديلة أمومية، عليها المشاركة بالولادة، وفي حالة الخطر، تساعدها بمعيّة أمها الحقيقية.

وبعد الولادة، تنتظر زيارة المحللة النفسية بفارغ الصبر، وهي على عجلة في أن تريها الطفل وتعبر لها عن امتنانها. «أنا مدينة لك بهذا الطفل» تقول لها هكذا، حتى لو أن التحليل لم يكن له شيء يذكر أمام أمومتها.

وتهدف هؤلاء النساء بتصرفهن الخانع والمطيع خلال الولادة، إلى نفس الغايتين اللتين تستهدفهما الأخريات بتصرفهن النشيط والعدواني وهما: 1) الوقاية الذاتية التي تعني بالنسبة لهن، تجنب الألم والخطر

بصورة سلبية، 2) إرضاء رغبتهن بطفل في ظروف تلغي التهديد القديم «لن تنجبي طفلاً». وتتحقق هذه الظروف، في الخضوع للقدرة الكلية للراشدين، خضوع يحررهن من شعورهن بالذنب ومن أية مسؤولية.

بعض هؤلاء النساء أظهرن دوماً سلوكاً طفولياً، سلبياً، تابعاً، وحتى خلال الحمل، بقين أمينات لهذا النمط. ورغم افتخارهن بالأمومة المقبلة، ورغم ظرفهن الجسدي الجيد، تشبه هذه المرأة خلال حملها بنتاً صغيرة تلعب بالدمية. وأحياناً، لا تبين خلال حملها امتداد سلبيتها، وتتصرف كراشدة خلال هذه الفترة، وليس إلا صدمة الخوف لاقتراب الولادة، يجعلها تتراجع نحو سلوك سلبي طفولي.

في ظل فن التوليد الحالي، من المستحيل، بالنسبة لكثير من النساء، التحدث بواقعية عن حدث الولادة. فهن منقذات من قبل أن يأخذهن أدنى وعي للطور، وقبل أن يمتلكن الوقت لمعرفة الخوف، أو بالأحرى تجاوزه. وفي ما مضى، عندما كان من الممكن ملاحظة سلوك هؤلاء النساء الطفوليات خلال الولادة التلقائية، كنا نتمكن من التحقق أن إرادتهن الطيبة في الاستسلام ترافق غالباً مظاهر عدوانية جداً في الاحتجاج. وكانت عادة ضحية هذه العدوانية الأم، وأيضاً بديلتها، القابلة. وبما أن هذا النمط، مألوف علانية، فتظهر القابلات عموماً كثيراً من الصبر والتسامح لمثل هؤلاء النساء، معترفات بالطابع الطفولي لتصرفهن.

لقد لاحظت، بشكل مباشر، ولادة امرأة شابة سأدعوها دوللي. وقد عولجت قبل أشهر قليلة من رهاب الخلاء خلال فترة قصيرة. وفي كل ألم للطلق، كانت تقع في أزمة غضب جنوني، حيث تضرب القابلة بالضماد الرطب الذي تمسكه على جبينها. وكان هذا الغضب الجنوني يتنامى بصورة خاصة كلما شجعتها القابلة، وتوسلت إليها لأن تكون صبورة. وعندما دخلت إلى الحجرة، وبناء على طلب ملح من المريضة، غيرت سلوكها كلياً، وتوقفت عن العدوانية، وتصرفت تماماً كشخص كبير. وراحت تظهر

في الوقت نفسه، مؤشرات عنيفة للخوف، والتعرّق، وضربات القلب، والحاجة للذهاب إلى المرحاض... إلخ.

لاحقاً، خلال التحليل، علمت أن دوللي كانت تريد أن تظهر لي كم هي شجاعة وصبورة. حيث لم تتوقف عن العدوانية إلا لتبين أن هذه العدوانية تدافع عنها إزاء ضيقها النفسي، وعندما تخلّت عن هذا الدفاع، اجتاحها الخوف. وأظهر التحليل أنها كانت تعيش في حلقة مفرغة مشابهة لحالات أخرى كذلك. فكلما كان يأخذها الغضب الجنوني، كانت تطرد أولاً هذا الشعور، ثم تحس بالضيق النفسي بديلاً عنه، ثم لكي تتخلص من ضيقها النفسي، كانت تفرغ شحنة عدوانيتها بصورة أزمات غضب جنوني. وكانت علاقتها مع محللتها متأثرة بشدة بعلاقتها القديمة مع أمها، بحيث زيارة المحللة غيّرت طابع ولادتها كلياً. وقبل عدة سنوات، كانت المحللة قد ولدت في نفس المشفى، الأمر الذي علمته المريضة من القابلة بعد زيارة المحللة. وقد سُرّت القابلة بالإجابة على أسئلة المريضة بخصوص هذه الولادة، وهكذا سارت الولادة، بصورة لا إرادية، بما تبقى منها بتقليد المحللة.

إن ميلها للاندماج السلبي مع أمها (أو بديل أمها)، أعطى ولادة دوللي طابعاً لا يرتبط مطلقاً مع شخصيتها. واعتقد المولد والقابلة بسذاجة، بأن الأمر معني هنا بنوع من الإيحاء المغناطيسي. ففي ذلك العصر، لم تكن ظواهر الاندماج والتبعية الشديدة للأطوار العضوية إزاء الأطوار النفسية معروفة كثيراً كما هو الحال عليه اليوم.

وكثير من النساء، خلال ولادتهن، يتصرفن مثل دوللي. إنهن عاجزات عن ضبط الوظيفة بأنفسهن، ويطلبن مساعدة خارجية، وردّة فعلهن على عجزهن تكون بالغضب الجنوني أو الخوف. والتأنيب الغاضب الذي يوجهنه للراشدين، مزدوج: فاستناداً للقدرة الكلية للراشدين، تنتظر هؤلاء النساء الطفوليات أن يصونهن من المشقات والآلام، وفي الوقت نفسه، وبسبب حاجة طفولية للاستقلالية أيضاً، يردن بأنفسهن تسيير عملية الولادة بصورة

حسنة، مع أنهن منذ البداية يشعرن أنفسهن عاجزات عن ذلك. وإذا قُدمت إليهن مساعدة نشطة، يخشين فقدان استقلاليتهن فيأخذهن الغضب. ويشعرن أن الولادة مهمة، تتمكن امرأة راشدة أن تنجزها بنفسها وبنشاط وإيجابية، لكن نزعتهن الطفولية تجعلهن عاجزات عن ذلك.

لعل التفسير الذي أدلت به دوللي عن غضبها تجاه القابلة مهم جداً، حيث ذكرتها تحريضات القابلة ـ «هيا، ابذلي جهداً، حاولي» ـ بمربيتها التي كانت تشجعها بنفس الطريقة عندما تكون في حالة الإمساك.

تمثل السيدتان بيرد و دوللي، نمطين متعارضين للمرأة النفساء، ولا يمكن لسلوكهما أن يُفهم دون مساعدة مشددة من التحليل. فقد كانت لدوللي، السلبية والطفولية، ولادة طبيعية ونشيطة، كراشدة، بعد أن أظهرت، في البداية فقط، طبيعتها الحقيقية. لقد توصلت إلى ذلك بالاندماج. في ما حاولت السيدة بيرد، المرأة الذكورية الإيجابية، في البداية أن تحارب خوفها من الولادة وآلامها بنشاطها وإيجابيتها، بحيث تدخل جهودها الخاصة لامتلاك الطفل. وبما أن هذه الإيجابية تخص محاولة ذكورية عدوانية، فقد دخلت في صراع مع أنوثتها وأصبحت عاجزة عن السير بجهودها إلى بر الأمان.

ويمكننا أيضاً، مقاربة فهم الأطوار الجسدية للولادة، ببعض الآليات الفيزيولوجية الأولية التي أتينا على ذكرها في الفصل الثالث، والمتضمّنة في جميع وظائف التكاثر. إنها آليات الاحتجاز والاستبعاد. هذا التوجه المزدوج للدينامية، والمحدد عضوياً، يطلق مرفقات مع وظائف مجموعات أخرى للأعضاء، مثلاً مع وظائف التغوط.

وبسبب هذه المماثلة الوظيفية، تنبه الولادة المضامين الجسدية التي رافقت أطوار التغوط في مختلف مراحل الحياة. ويكفي تذكر أوهام الولادة للفتاة الصغيرة التي لاحظها باريت لنفهم بأية سهولة يمكن لطور الولادة، بسبب تشابهه الفعلي مع الحركات المعوية، أن يثير ثانية الموقف السابق والعواطف المرافقة له. ويمكن لمثل هذه الانبعاثات الثانوية، في غير

أوانها، وذات المضامين الجسدية المرافقة لنشاط وظيفي سابق، أن تصبح بيسر، نقطة انطلاق لاختلالات في طور الولادة.

وقد وصف إيسلر[1] منذ عام 1923 في مقالته «حول الظواهر الهستيرية في مستوى الرحم» حالة حيث، رغم الوضع العضوي الطبيعي الحتمي، والحالة الجسدية الجيدة، كان الطلق كسولاً بصورة غريبة. وبعد أن امتد الطور ثلاثة أيام، قرر الطبيب النسائي التدخل. ويتم التهيؤ برؤية ملقط الولادة، وإذ فجأة، تبدأ الولادة تلقائياً. وحسب أقوال إيسلر، «لدينا انطباع، إن صح القول، أن الوسيلة المخيفة كان لها هنا قدرة كبيرة جداً، لأن التطور النفسي السابق للمريضة، خلق استعداداً محدداً لردة الفعل هذه».

ولدى مريضة إيسلر، احتجاز الجنين قد يوضع في حساب الميول الشرجية الطاردة. ففي السادسة من عمرها، عندما وُلدت أختها الصغرى، راحت تعاني هذه المريضة، تماماً كما وصف باريت الفتاة الصغيرة، من إمساك متعنّد. ولم تكن قد شفيت منه تماماً وتحوّل ظاهرياً إمساكها على ولادتها. ومع ذلك، بيّنت لي تجربتي الشخصية أحياناً، أن مثل هذه التأثيرات على الطور الديناميكي، لا تفسّر دوماً لمجرّد تكرار آليات فيزيولوجية مماثلة (وفي هذه الحالة، الآليات المعوية). فالمشكلة القائمة في موقف من الحياة الحاضرة، أو في علاقة عاطفية مع الطفل، أو الخوف من الانفصال، أو رفض آلام الطلق ...إلخ قد تلعب دوراً كعوامل سببية لتحريك آلية مشكّلة مسبقاً. كما أن علاقة شديدة عاطفية مع المولّد، تملك طابع تحويل عواطف قديمة على الطفل، مؤهلة بصورة خاصة أن تلعب دورها. فالأطباء الذين استغرقوا وقتهم في ملاحظة الظواهر النفسية يعرفون أن التهديد بالتدخل يمكن في كثير من الأحيان، كما في حالة إيسلر، أن

---

(1) Esler J. M. : ueber hysterische Erscheinengen in Uterus. Internat. Ztschr. F. Psychoanal, vol.9 , 1923 .

يجعل الإنجاز عديم الفائدة وأنه، على العكس من ذلك، يُنقص كثير من النساء الإيجابية في ولادتهن، لأنهن ينتظرن تدخلاً خارجياً، ويتمكّن، إلى حدٍ ما، من انتزاع إشباع هذه الرغبة عندما يُلزمن أنفسهن بخلق تعقيدات بصورة لاشعورية.

إحدى حالاتي، تبيّن بوضوح كم يمكن للذكريات المرفوضة لوظائف قديمة أن تؤثر بعمق، بالمماثلة، بطور الولادة. فالسيدة وايت البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً، كانت قد عانت وهي فتاة شابة، من أعراض هستيرية، إذ كانت تعتقد أن لديها جسمٌ كروي في حنجرتها (هستيري)، وتتعرض أحياناً لأزمات من الإقياء والإغماء، أو حالات من القلق المؤقت ...إلخ. وكانت هذه الأعراض كلها خفيفة ووقتية عابرة، واختفت، شيئاً فشيئاً، بفعل المعالجة النفسية. ثم تزوجت في ظروف جيدة، وسُرعان ما أصبحت حاملاً، وخلال حملها، شعرت نفسها بحالة جيدة جداً. وكانت تنتظر ولادتها بهدوء، وتجد نفسها من الناحية الذهنية مهيأة تماماً للحدث. وكانت مفاجأة كبرى لها ولمحيطها، لمّا فقدت السائل قبل الأوان، فاستولت عليها أزمة عنيفة من الضيق النفسي. وبنوع من الذعر، استدعت مولّدها الذي قال لها عن طريق المساعدة أن لا داعي للخوف، وأن تستمر في مراقبة نفسها، وتستدعيه ثانية بعد بعض الوقت. لكنّ السيدة وايت لم تعد تعرف الهدوء وازداد خوفها، واضطرّت لتناول المسكنات، في ما طلبت أمها بإصرار التدخل النفسي. وكان من الواضح، للملاحظ المنطقي أن هذه المرأة كانت تخاف بعد تمزّق الجيب المائي، من أن تولد بسرعة شديدة، قبل أن يتمكّن المولّد من الحضور.

وكانت تعتقد أن بدونه ستسوء الأمور، لأن علاقتها معه كانت ذات طابع طفولي، وشعرت مع ذلك، كونها راشدة، ملزمة بطرد الحاجة الشديدة بإحساس حضوره المباشر. وأدرك الطبيب النفسي الموقف، وأحس أنه لا مفر في هذه اللحظة من إرضاء رغبتها. ومع ذلك كان إيقاع الولادة قد اضطرب، ولما كان الطلق غير كاف، اتضح أن التدخل بات ضرورياً.

وبعد عدة سنوات قررت السيدة وايت، التي منذ ذلك الحادث، عانت من جميع أنواع الأعراض العصبية، أن تخضع للتحليل. ومنذ ذلك الحين فقط، أمكن فهم الضيق النفسي لبداية ولادتها بصورة فعلية. فجميع هذه الصراعات النفسية كانت قد بدأت خلال مرحلة ما قبل البلوغ، حين كانت تعاني من سلس بولي ليلي، أفسد حياتها على مدى سنتين. واتضح أن هذا العَرض مستعصٍ على العلاج الطبي، ثم اختفى بعد ذلك تلقائياً، مفسحاً المجال لأعراضٍ أخرى أشير إليها أعلاه. وأدت أوهام بالحمل، وهي نمطية في مرحلة البلوغ، إلى تشكيل هذه الأعراض، بما فيها هذا السلس البولي. ومع أن حملها الفعلي كان متحرراً من العناصر الإرجاعية، إنما التشابه بين سريرها المبلل في ما مضى، وفقدانها، غير القابل للضبط، لسائل الخلاص، دمّر البنية الفوقية الجيدة نسبياً والتي بُنيت على صراعاتها القديمة، وأطلقت مخاوفها العصابية القديمة.

وهذا ليس كل شيء. فخلال الحمل، حرّكت فيها المعارف الذهنية حول سائل الخلاص، بعض الأفكار القديمة. وكانت تفكر أنه في هذا السائل يسبح الطفل كالسمكة في الماء، وهو يتغذى من هذه المياه كالسمكة، وهو يموت إن لم يتلق ما يكفي من هذا العنصر الحيوي. وكانت تتحدث أيضاً، ممازحة، عن الجنين بوصفه «سمكتها الصغيرة الحمراء». ولما فقدت هذه المياه، خشيت أن يموت إن لم تقدّم له الإغاثة الفورية.

يبدو أن هذا الخوف كان السبب الرئيسي لفشلها في الطلق. وكان كبت النظام العصبي الذاتي، مقارناً بالكبت القاطر والمحرّك النمطي، لحالات القلق، التي تؤدي ليس إلى الجريان المضطرب، إنما الاستحالة المطلقة للتحرّك.

كان بالطبع للسيدة وايت قابلية عصابية، وكان بلا ريب سلوكها شاذ وغير طبيعي. إنما لو تذكرنا أن الحد بين الطبيعي وغير الطبيعي ليس متأكداً كثيراً، وبصورة خاصة لدى الأشخاص ذوي القابلية الهستيرية، وأن أوهام الوضع والنظريات الطفولية للولادة موجودة دوماً في الحياة النفسية للمرأة،

لفهمنا بأي سهولة يمكن لصدمة الوضع، والخوف الطبيعي المرافق له، أن توقظ المخاوف القديمة، الكامنة، على نحو أو آخر، والمتغلّب عليها تماماً.

لعل عملية الولادة هي على تماثل مع عملية الجماع بشكل أكثر وثوقاً من الوظائف الأخرى للجسد. وفكرة أن الجماع والولادة يشكلان طوراً واحداً، والذي يبدأ بالقبول والاحتجاز وينتهي بالعطاء والاستبعاد، تتوافق تماماً مع الأفعال البيولوجية. فالفعل البيولوجي يبدأ لحظة الإخصاب، ويستمر بالحمل، ويصل شيئاً فشيئاً، إلى غايته في عملية الولادة.

هذه الوحدة الدرامية التي أرادتها الطبيعة، وهذا التطور للأحداث من أولها إلى آخرها، وموضوع ان أحدهما مشروط بالآخر، وهذه الاستمرارية في التطور، ليست بيولوجية فقط، إنما نفسية أيضاً. وتجربة عملية الولادة مرسومة مسبقاً، بصورة نفسية، في عملية الجماع، وتنبىء ردود الفعل الفردية خلال الحمل عما ستكون عليه الولادة، وهي نفسها ليست حل العقدة الدرامية.

• فلقد ألمحنا أحياناً إلى المهمة المزدوجة للجهاز التناسلي الأنثوي. وهناك، ضمن إطار ما، تقسيم للعمل. وقدِّر للمهبل أن يتلقى الخلايا الإنتاشية الذكرية، في ما يخدم الرحم كأرضية للبويضة المخصبة. كما يفتح المهبل، بطريقة استقبالية، باب الحياة للطفل، ويمد الرحم القوى التي تبعده حين يتوصل إلى النضج. ويتولى المهبل متعة الحمل، والرحم آلام الولادة. ويهيمن الإيقاع الأنثوي في الاحتجاز والاستبعاد، في آن واحد، على الجماع والولادة. وفي الجماع، ينطلق هذا الإيقاع بالإدخال النشيط للذكر، وفي الولادة بالأطوار البيولوجية بطابع كيميائي وميكانيكي. ولفت فيرانزي[1] الانتباه حول هذا الفعل قائلا :

---

(1) Ferenczi S. : Op. Cit.

«من اللافت رؤية بأي ثبات يتمثل الجماع والولادة في الأحلام والحالات العصابية والأساطير والتراث الشعبي بالرمز نفسه للإنقاذ من الخطر».

كما أوضح رانك[1] بشكل واضح اندماج الخبز بالعضو في تشكيل الأساطير، ويلاحظ أيضاً ما يلي: «ما يُصنع في الفرن هو الخبز، وهو أيضاً مماثل لما يُصنع في جسد الأم، وهو الطفل». ولا يرتبط هذا الاندماج فقط بالوظائف، إنما أيضاً بوسائلها وبمنتجها.

وتمدنا الملاحظة السريرية بفرص متكررة في العثور على مثل هذه التماثلات. فالمعاناة والخوف، والمتعة المترافقة بالألم، والجرح المحتمل والقيمة المتلقاة بتعويض، والخضوع السلبي والضبط الإيجابي، والانتصار المحقق على الصعوبات النفسية والجسدية، كل ذلك يعزز التماثل بين الفعلين، تماثل له جذور بيولوجية عميقة.

لقد درسنا حالة امرأة، لم تستطع الإحساس بمتعة الفعل الجنسي إلا إذا تمكنت، في الوقت نفسه، من تخيل آلام الوضع (السيدة آندروز). وفاتتنا عناصر سريرية لتصوير الموقف المعاكس. ووفقاً لقول غروديك، «تخفي آلام الطلق المفتّتة للقلب، قدراً من الملذّات يجهله الرجل»[2] واستناداً لتجربتي، على العكس تماماً، لم نتمكن من اكتشاف أي مؤشر لهذه اللذة في سلوك النساء، لا خلال الوضع نفسه، ولا في الذكريات المتبقية منه. إنما يجد التحليل النفسي باستمرار، تماثلاً لمتعة الجماع، وألم الوضع في التآلفات، والأحلام، والأعراض العصابية. ولنذكر منها بعض الأمثلة من بين كثير غيرها: الأزمات الصرعية التشنجية والهستيرية، ورهاب الخلاء، ورهاب الحبس، إنها باستمرار محددة بالعنصرين، في المظاهر الجسدية، وفي الأحلام التخيلية.

(1) Rank O. : Psychoanalytische Beiträge zur Mythenforschung. Vienne : Internat. Psychoanal Verlag, 1919 , p. 27 .

(2) Groddeck G. : The book of the id. New-York , 1928.

إن تماثل هاتين التجربتين، يتواجد في الطريقة التي تنفعل بها لاحقاً جميع النساء الأنثويات، حيث ينسين الألم، ولا يحتفظن إلا بذكرى الإشباع، ويرغبن بإعادتها.

وقد تكون القيمة المنسوبة للولادة في الإنسجام النفسي كبيرة في جميع الحالات. فالأمر كان واضحاً في حالتي السيدتين بيرد ودوللي، خلال تحليلهما اللاحق. وتجد الحاجة للإيجابية لدى السيدة بيرد التعبير عنها في إنجاز تكون غايته المسبقة إرضاء ميولها الذكورية. وقبل وقت قليل من ولادتها، توقف الطفل عن أن يكون أداة لتخيلاتها الطموحة (منتَج«ي»)، لكي يصبح كائناً محبوباً جداً تدلله تدليلاً أمومياً. وتؤدي تجربة الولادة عملياً إلى هذا التغير في الموقف، حيث حققت السيدة بيرد بفضله، إمكانية أن تكون نشيطة إيجابية وتنتج شيئاً ثميناً، دون أن تكون ذكورية.

ومن المحتمل، في حالة دوللي، أن الولادة، لم يكن لها أي تأثير نفسي، دون العلاج التحليلي الذي تلاها. وكانت سلبيتها تسلب من تجربتها أي مزيّة دينامية. واستطاع التحليل وحده مساعدتها في تحويل اندماجها السلبي مع أمها، إلى اندماج إيجابي أكثر نضجاً. وقد أعطت، كما رأينا، الولادة بحد ذاتها لدوللي، فرصة في أن تزود اندماجها السلبي بطابع إيجابي إلى حدٍ ما. وعجزها السابق عن إحساس الحياة على خلاف اندماجها السلبي مرده لضعف أناها، ولكبت نموها الذي جعلها تتجنب أي مسؤولية، وتدعها برمتها للراشدين الذين تؤمن بقدرتهم الفائقة. وحدث التنسيق بين العاملين، ساعدها على شق طريقها نحو الواقع، حيث أعطى علاجها التحليلي القوة لأناها، كما ساعدتها أمومتها على تجاوز اندماجها الطفولي مع أمها.

ويمكن للتأثير الملائم للولادة بحد ذاتها أن يظهر بوضوح. فقبل كل شيء، هناك أثر مليِّن مرتبط بتجاوز تجربة مخيفة، بصورة نشيطة، نظراً لأن المساهمة النشيطة للمرأة تكون فيها هامة على نحو كاف. وهناك أيضاً في المعاناة «تطهير للنفس»، وذلك قد يكون بالتأكيد تأثير له شأنه. ويتواجد

تهديد خلال جميع المراحل الأولية للأمومة «لن تنجبي طفلاً». وخلال الولادة، قد يجهل الأنا هذا التهديد، بمساعدة واقع الطفل، لأن الشعور القديم بالذنب، يجري تحييده بواسطة ألم الطلق، ولا يتعارض مطلقاً مع تصور الواقع المفرح.

ومع ذلك، ليس الألم الحدث الوحيد الذي له أهمية كبيرة في الإنسجام النفسي للمرأة، إنما بالأحرى النشاط الذي يرافقه، نشاط يمضي نحو غايته رغم الألم. ومع أن هذا النشاط يكون خارج نطاق الإرادة، إلا أنه يُحس بصورة ذاتية كفعل من الإرادة. وأحياناً نملك انطباعاً بأن الألم بحد ذاته، والانتصار عليه، يفعل فعل الخميرة في الحياة العاطفية. ومع ذلك، فالعائق الرئيسي، أن هناك في إلغاء الألم يتكون ما لا نتوصل إليه إلا في بعض الظروف التي تلغي تجربة طاقات أخرى نفسية، مستقلة عن الألم. على سبيل المثال، تحول عواطف المرأة من أناها الخاص، نحو الطفل، بصفته أداة تتهيأ خلال فعل الولادة نفسه. لكن هذا الطور يتقلّص، في الولادة بلا آلام. وفي العمق، رغم احتجاجات المرأة وتوسلاتها بتخفيف أي ألم عنها، تريد، بقدر كبير، مكافحة آلام الولادة بمعونة مصادرها الخاصة، وهي مستعدة لتقبّل مقدار ما من الألم، لتحس هذه التجربة بصورة كاملة. وتأخذ هذه الرغبة لدى بعض النساء شكل إسباغ الكمال المثالي على اللعنة التوراتية «وقال للمراة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً» (تكوين، 3: 16). وبالطريقة نفسها تطلب المرأة الألمانية الحديثة، تحت تأثير تعصّب هستيري، أن يُسمح لها بإحساس آلام عنيفة من أجل «الفوهرر»، بانجاب طفل من العرق المختار.

وتستخدم النساء الدينيات والوطنيات إيديولوجيتهن لتسويغ وعقلنة رغباتهن الماسوشية، حيث تؤثر هذه الرغبة فيهن، بأبعاد ونسب غير طبيعية ومدمرة. إنما درجة معتدلة من الماسوشية تكون طبيعية، وتساعد على تحمّل الألم الذي على المرأة أن تخضع له في عملية التناسل.

وبالنسبة للطريقة التي يعبّر بها عن الألم، تتصرف النساء الولّادات

من هذه الناحية، بأساليب مختلفة جداً. فهناك نساء، منذ البداية وحتى النهاية لا يصدرن أصوتاً، فيما تتصرف أخريات كوحوش كاسرة. وتنفي بعضهن بعد ذلك تعرضهن لكثير من الألم، ولا تنقطع أخريات عن القول كم كان هذا مخيفاً. فالتسامح والتشدد بالألم مسألة بلا ريب معقدة جداً وتتعلق بعوامل كثيرة. وهناء أو بؤس أم المستقبل، وانتظارها المفرح أو رفضها للطفل، يؤثر بلا شك بحدود تساهلها وبحدود ألمها وبأهليتها على تقبل ذلك. ويمكن التعبير الأكثر تكاملاً لعدم التسامح، في الهرب إلى البنج بالتخدير، وبفقدان أي وعي. واستناداً لتجربتي الشخصية، لدي انطباع بأن هذا التخلي السلبي عن الوعي لا يعبر دوماً عن عدم تسامح حقيقي للألم، إنه بالأحرى وسيلة للهرب من خوف لا يطاق.

وبعض النساء، رغم الآلام العنيفة، ورغم إرادة الأطباء التخفيف عنهن، يحتججن ضد المنوِّم، كما يحتججن أكثر ضد الآلام. ويخشين برهبة من تخفيفها جسدياً، لأن لديهن انطباعاً، أنهن أثناء النوم، سيفقدن تماماً مراقبة أحاسيسهن ووظائفهن الجسدية، وأنهن سيكن تحت رحمة السلطات الخارجية الحاكمة والعاجزة عن الدفاع عنهن، وأنه سوف يُجرى لهن شيئاً رهيباً، أو سيكن أنفسهن ملزمات على التصرف وبطريقة مخيفة. والبعض يراقب بانتباه تحضيرات الولادة، والبعض الآخر يضبط نفسه ويسأل بقلق، أثناء اليقظة، عما فعله وعما قاله أثناء البنج. ويزيد التهديد بفقدان الوعي، الخوف من الموت. والمرأة النفساء، من هذه الناحية، تختلف قليلاً عن النساء المشرفات على عمل جراحي مع بنج عام.

كثير من النساء يسئن استخدام الألم الذي عليهن معاناته. فالمرأة الهستيرية تقوم بإظهارات كبيرة لألمها أمام من حولها وتطلب تعويضاً، وتعاقب نفسها العصابية الهاجسية أو المكتئبة والمعذبة بمشاعر الذنب بإطالة ألمها وتفاقمه، في ما المرأة العدوانية الشريرة تستخدم ألمها لتثير لدى زوجها شعوراً بالذنب: «ها هو ما فعلته». وبالنسبة لزوج هذه المرأة، الولادة بلا آلام أضمن له مقابل اللوم. ولا تبقي النساء الأنثويات المحبات

أثراً لردة الفعل هذه كلما توقفت الآلام. إنما ليس كل ذلك إلا تشويهاً واستخداماً ثانوياً للولادة، ولا علاقة لها بالأهمية النفسية البدائية. وبصورة عرَضية، لردود الفعل هذه أحياناً، أهمية علاجية معتبرة، ونرى عموماً أكثر العكس، حيث يكون الشفاء أو التحسن من الاضطرابات العصابية بفضل عملية الولادة.

ولا يكتفي الطب بالتدخل في الظواهر المرضية، إنما يبسط مراقبته سريعاً على الأطوار الفيزيولوجية العادية. ويسعى العلم لأن ينتصر على الطبيعة وعلى نقائصها، وتصحيح جميع الأضرار التي كبدتها الحضارة في الطبيعة. وحتى في الحالات العادية، تتعلق مدة الولادة اليوم بتقنية فن التمريض المستخدمة. ويجري التحكم بالألم بواسطة العقاقير، في ما يجري التغلب على الخوف بتقليصه، شيئاً فشيئاً، بالمشاركة النشيطة للأم في الطور. ويصبح دوره باعتباره «مانحاً للولادة» أكثر فأكثر سلبياً.

لعلي أشكك بأن هذا التطور مرغوب. فالمشاركة النشيطة للمرأة في طور الولادة، والزهو الدائم الذي تحصل عليه من إنجازها، وإمكانية الاتحاد السريع مع الطفل، وبعض الإشباع الممنوح لتلك النوعية الأنثوية البدائية التي تعزى للألم، في الانسجام النفسي، مكانة من بين التجارب الممتعة، كل هذه العناصر مركبات ثمينة للأمومة، ويتوجب السعي للحفاظ عليها.

وعلى الطبيب النفسي والمولّد أن يتشاركا بأفضل صورة لمساعدة الطبيعة. ولا يمكن للمولّد عموماً أن يستخدم دخوله النفسي والفائدة التي قد يحسها في تفعيله. ونادراً ما يمتلك الوقت والصبر للإصغاء لقصص جزئية، وأحياناً غير مرتبطة بالمرأة قبل وأثناء وبعد الولادة. ويعطيها انتباهاً قليلاً عندما يكون إنسانياً، وأقل أيضاً عندما يكون عالماً. إنه يركض من ولادة إلى أخرى، ويرتب أموره غالباً لتتوافق حالاته، بطريقة تمكنه من خدمة أكبر عدد من النساء برعايته الخبيرة، وبأقصر فترة زمنية ممكنة. وهو يرضى عن عمله عندما تسير الأمور سيراً حسناً. مولد بارز، هو من النادرين

الذين يتقبلون وجود تأثيرات نفسية في الأطوار الجدسية، قال لي أنه لم يعرف، خلال مهنته، إلا امرأة واحدة رفضت، عند الاستيقاظ من البنج، الاعتراف بابنها كخاص بها. ومع ذلك، كنت أعلم أن أربع من مريضاته كنّ قد أحسسن بهذا الشعور، إنما لم تكن لديهن أبداً فرصة إطلاعه بذلك.

بيد أن علاقة النفساء بمولدها، لها أهمية كبرى. إنها تتغير وفقاً للأفراد وتكشف عن الشخصية بأسرها. إنما هنا بيت القصيد، فضبط الخوف، ومن ورائه كل القدر النفسي للولادة، غالباً ما يرتبط بهذه العلاقة. وتنظر المرأة أحياناً إلى طبيبها، كشخصية أبوية عارفة بكل شيء، وقادرة على كل شيء، وهي تعتقد أنها لن تصاب بأي أذى طالما هو موجود. وهي تخضع لأوامره ورغباته بصورة عمياء وسلبية. وفي حالات أخرى، إنها ترتجف أمام سلطته وتركز عليه كل خوفها، أما الشخصية العدوانية فتتخذه أداة لعدوانيتها، في ما المرأة التي تحتاج للحب، تنتظر تعاطفه، وتقديره، وإخلاصه، وتفانيه، ...إلخ. ولا تُري النساء إلا هذا المظهر من مشاعرهن الذي يمس علاقتهن. وحتى لو حمل لمريضاته اهتماماً نفسياً صادقاً، ردود أفعالهن النفسية تؤثر فيه منفصلة عن ظروفهن بطريقة، بحيث تبقى ملاحظاته المباشرة مبهمة إلى حد كاف. وبالمحصلة، لا يمكن لمثل ردود الفعل هذه، أن تكشف إلى أي حد يكون لردود الفعل النفسية للنساء معنىً مستمراً قائماً على البيولوجيا، وإلى أي حد، تتعلق بالموقف الفعلي والفردي... إلخ. ويمكن للمحللة النفسية وحدها أن ترى تجربة الولادة بإرجاع ضروري، وتضعها في كليتها النفسية، وتكتشف طبيعتها الفعلية. وعلى سبيل المثال، إن ردة فعل السيدة وايت على فقدان مياهها، كانت غير مفهومة إطلاقاً قبل أن تعطي الملاحظة التحليلية النفسية معناها. وهناك أمثلة مماثلة لا حصر لها. ومن الصعب القول إن كنا سنتمكن ذات يوم من إقناع الأطباء النسائيين بأهمية العوامل النفسية.

وإذا كانت العناصر المشوشة الداخلية والخارجية منضبطة تماماً، وإذا سارت الولادة سيراً عادياً طبيعياً، وإذا تم التوصل إلى إلغاء الإفراط

بالخوف بتأثير عاطفي مباشر، أو بوسائل أخرى، فالولادة تعد أعظم وأغنى تجربة للمراة، وربما أعظم تجربة بشرية. والمسؤول عن ذلك، عاملان قويان: أولهما فرحة الإنجاز، المرتبط بضبط الخوف والألم وبالنشاط الخاص للمراة، وبعد ذلك، العلاقة السعيدة مع الطفل، التي تبدأ حالاً بعد الولادة. ودينامية هذه العلاقة واضحة، حيث إن كل الطاقة النفسية المرتبطة بالطلق، والمنصرفة عن العالم الخارجي، ترتد على الطفل في لحظة الولادة. والحرية التي قهرت حديثاً المعاناة والخوف، تخلق شعوراً بالنصر، وتجعل من اللحظات الأولى للأمومة نشوة فعلية. ومن المبكر أن تصف الروح الأمومية علاقة الأم بالطفل، فهذا ليس إلا الحجر الأساس في البناء، وربما حتى الخزان الذي سوف يتدفق منه الحب المتنامي بلا انقطاع للطفل.

وينبغي على المرأة أيضاً، أن تتخلص بسرعة من البقايا الأخيرة للقلق النفسي الذي تأصل فيها بعمق: هل الطفل حي؟ هل هو طبيعي؟ كما أن الأماني والآمال التي تخص جنس الطفل، غالباً ما تسبب فضولية نافذة الصبر. ونستشف، تقريباً في جميع أنماط الوضع، قلقاً مستمراً واضحاً حول شخصية الطفل حتى الرؤية المحسوسة له التي تهدئ روح الأم.

ويمكن للخيبة أن تستمر بعد حين. بطريقة فضولية بما فيه الكفاية، ومن أجل تفسير القول المأثور: كل كائن حي حزين بعد الولادة، قد نتمكن من القول: كل امرأة حزينة بعد الوضع. إنما على العموم، ليس قبل أن تحس بالنشوة الأمومية. ومن الصحيح أن تُعاقب الأحداث ينقلب أحياناً، فبدلاً من الفرحة، يكون في البداية خيبة حزينة، لا تتحول إلى فرحة إلا شيئاً فشيئاً، أو أن الإنهاك وحدّة الغضب يعميان، لدى امرأة ما، المظاهر الإيجابية في خدمة النوع. وغالباً ما تعترف امرأة في هذه الظروف على الملأ، بأنها لم تحس بشيء في ما يخص طفلها، وأنه غريب عنها. وتتعدد أسباب ذلك، وهي ليست واضحة دوماً. وقد تبدو التجربة العميقة للولادة بحد ذاتها غير معترف بها إذا عكرت أفكار محزنة إنجاز الأمومة. وسنرى لاحقاً أن فتيات أمهات، عرفن بدنو أمومتهن، ففضلن قبول غياب

شعورهن، عن التألم للخسارة الوشيكة للطفل. وهناك حتى نساء تعيسات في أوضاعهن المنزلية، مستعدات لهجر أزواجهن، وتكدرهن الصلة العاطفية مع الطفل، أو نساء هستيريات، عشن في السابق بكل نشوات تخيلاتهن البعيدة ثم بدت شاحبة على صعيد الواقع، أو نساء عصابيات هاجسيات وجدن في اللامبالاة ملجأ لمجابهة عواطفهن المزدوجة وجدانياً، أو نساء فصاميات، غير عاطفيات، ينتظرن من الطفل انبعاثاً لحياتهن العاطفية، إنما غير جديرات بإمداده بالإسهام الداخلي الضروري. وهناك عدد كبير من النساء الطفوليات النرجسيات، يشعرن بالمهانة بسبب آلامهن ومجهودهن، ويضمرن الحقد للطفل بسبب ذلك. وكثير من النساء يعانين من عدم التكافؤ ما بين الناحيتين الجسدية والنفسية تجاه المهمة الكبرى للولادة. والإنهاك ليس أرضية مؤاتية من أجل السعادة.

لقد ذكرت بأن فرص دراسة الأطوار النفسية في الولادة التلقائية أصبحت نادرة جداً. وإذا وجدت نفسك في غرفة امرأة تصحو من بنجها بعد أن تحررت من طفلها، فلا تسمع شيئاً يثير السعادة أو الفرح. وحدها المرئية الآثار الأخيرة لكفاح رهيب، حيث الكدمات التي تحملها، تبين أن المرأة النفساء بدّلت التجربة الماسوشية بانفجار للعدوانية. وبتأثير المواد المخدرة وبحكم العدوانية المنفلتة بالعناصر المحركة لطور الولادة، تبلغ ماسوشيتها درجة من هيجان مدمر للذات، وتصبح ثائرة على نفسها، كما تشكل خطراً على الآخرين. وتعيش كثير من النساء أولى لحظات أمومتهن، والطفل حديث الولادة، في حين أنهن لا زلن مقيدات بأسرتهن. ويُسمع في غرفة امرأة كهذه، صوت الممرضة تبذل جهدها لتهدئة المزاج السيء للأم وهي تقول لها: «عندك صبي رائع».

ويجيبها صوت، نصف هائج ونصف ميت «آه نعم؟ إنه كامل، حقاً كامل».

وامرأة أخرى تستقبل طفلها بابتسامة حزينة قائلة: «أيها الطفل المسكين، ستواجه هذا العالم الشرير»

ويرتفع عموماً حاجز الانفصال بين الأم وطفلها، وبردة فعل لم تُضبط بعد بصورة كاملة.

ومن المحال معرفة إذا ما يلوّن هذا الإحتكاك الأولي الذي لا يفي بالغرض العلاقة اللاحقة مع الطفل، ولا ضمن أي مقياس يصدر ذلك. وربما ليس هذا صحيحاً. وربما ببساطة تجد المرأة نفسها مسكينة أكثر بنقص تجربتها. وربما ترى الأم والطفل نفسيهما يرفضان لكليهما شيئاً ما، ذا أهمية عميقة. وتكون أحياناً الأم الحساسة التي تراقب نفسها واعية لهذه الخسارة.

ولقد وُضعت تحت تصرفي الرسالة التالية لأم، ولها العنوان التالي: «امرأة بين أخريات» هوذا نصها :

بالنسبة لاثنين من أولادي، لم آخذ أي مخدر خلال الطلق، ولم يعطوني إياه إلا خلال الآلام الأخيرة القاسية قبل الولادة. وفي الحالتين، استعدت الوعي وأنا لا زلت في غرفة الولادة، وبشعور من التأثر والإنجاز. وفي هاتين الحالتين، كان لدي اقتناع، وهذا شيء طبيعي عند الأم، بأنني كنت قد أنجبت أكثر الأطفال روعة في المشفى، إن لم يكن في العالم بأسره.

أما بالنسبة لابني الثالث، فأخذت في بداية الطلق، حقنة من السكوبولامين، كما أخذت مسكناً عن طريق الفم، ثم لم أحس بأي شيء على الإطلاق بعد ذلك، إلى أن استيقظت في غرفتي بعد بضع ساعات. وكان رد فعلي الأول، كأن شيئاً لم يحدث، أو أنه سيحدث. وعندما أدركت أن الطفل قد وُلد، لم أتمكن أن أثير في نفسي رغبة كبيرة لرؤيته أو سماع الحديث عنه، وكنت أريد فقط أن أُترك وحيدة لأتمكن من العودة إلى النوم. وحتى حين رأيت الطفل واقعياً، لم تكن لي أي عواطف ملائمة، ولا افتخار خاص، ولا يقين بأن هذا الذي هنا هو ابني. كنت أشعر فقط أن هنا شيء صغير مثير للشفقة أنا مسؤولة عنه، وعلي أن أقوم ما في وسعي تجاهه لأتصنّع عاطفة لا أحسها بنزاهة.

وكما أسلفت القول، هذا الشعور، أو بالأحرى هذا الغياب للشعور، لم يدُم، ولو أن ذلك لم يؤثر إلا بي، لما أوليته تلك الأهمية. لقد فاتتني بدون أدنى شك تجربة عاطفية مشبعة، إنما الأخطر من كل هذا، أن الطفل حُرِم من علاقة خلفية أولية، لم تؤخذ أهميتها ببالغ الاعتبار.

ومن الصعب ألا نرى إلا التوافق في أمر أن هذا الطفل خجول ومتحفظ وظنون، في حين أن الآخرين عاطفيان وسعيدان وواثقان بنفسيهما. ولدي شعور أكيد بأن نقص خلفية الاهتمام والعاطفة في الأصل هما مسؤولان بشدة عن هذه النتيجة.

ومع ذلك، نساء يزداد عددهن يوماً بعد يوم، دون أن يكنّ عصابيات فعلياً، يتصرّفن بطريقة غير اعتيادية بعد ولادتهن بلا ألم، والمتكاملة من الناحية التقنية. حيث يحدث شيء ما خلال الولادة يخيّب آمال هؤلاء النساء ويملؤهن ذعراً، وذلك يزعجهن بعد حين، عندما يحين وقت تفتح محبتهن تجاه المولود الجديد. ويأخذ الطفل شعور بالذعر، كأداة غريبة أُلقي بها. فعدم وعي الأم، وغيابها، تركا بها شيئاً ما، لا يجد حلاً. لقد عاشت الطور كله بطريقة غير خلاقة، وليس كتجربة تعطي حياةً لطفل، إنما كاستئصال شيء سيء، هذا الشيء الآن، تنظر إليه من الخارج. وكانت الولادة بالنسبة لها كصدمة، امتدت آثارها على الطفل ومنعت روحها الأمومية من الانفراج. ويستحسن إخضاع مثل هذه الحالات لدراسة معمقة، وتحديد العلاقات الموجودة بين التجربة الصادمة والاستعداد النفسي المسبق للمرأة.

وتبدو ردود الفعل المرضية التي تعقب الولادات الطبيعية المؤلمة، مألوفة. فالاختلاطات، والارتباكات، وحالات الإثارة المتحولة إلى ثَوَران وحث على الانتحار، والمحاولات ضد حياة الطفل، وحالات الذهان النفاسيّة التي تتراجع تلقائياً عندما ترفض الحث على الولادة، كل هذه الأمور معروفة تماماً لدى الطبيب النفسي. فضلاً عن اضطرابات مزمنة تستقر لحظة الولادة. وبقدر ما لا نكون على صلة بمرض سببه عدوى أو إعياء،

بقدر ما نؤكّد أن الولادة تشكل محنة خطيرة جداً، وغالباً ما تستهدف الحياة العاطفية وتصبح نقطة انطلاق لأطوار عصابية وذهانية مزمنة. ومن الملاحظ أن تجربة ما قد يكون لها تأثير أحياناً علاجي وأحياناً مرضي. وفي بعض الحالات، على سبيل المثال، تتحسن حالات عصابية هاجسية بعد الولادة، وفي حالات أخرى تصبح حادّة، كما تهدأ حالات اكتئابية، أو تتفاقم لدرجة أنها تصبح مرضيّة فعلياً.

إن حالات الفصام والاكتئاب التي تظهر مع الولادة، لها طابع ومضمون مميزان، حتى حين لا يتعلق الأمر إلا باسترجاع أو تفاقم طور مزمن مردّه استعداد موجود مسبقاً. وقد درس زيلبورغ، خلال وظيفة التناسل، العلاقة الموجودة بين حالات الذهان والأطوار الغريزية الدينامية وأطوار علم نفس الأنا[1]. وقد اتُخذت كل هذه الملاحظات دون الأخذ بعين الاعتبار لنمط الولادة. ومع ذلك لا نستطيع أن نمتنع عن امتلاك انطباع بأنه في بعض الحالات، تُفسر ردود الفعل غير الطبيعية، بموضوع أن الولادة حدثت بحالة من فقدان الوعي. وكما ذكرت سابقاً، رأيت نساء، بعد ولادة طويلة تحت البنج، صرّحن بأن الطفل الذي قُدّم إليهن لا يخصهن، وأنه قد استُبدل بطفل آخر.

في مثل هذه الحالات، تسترد النساء بسرعة الناحية الذهنية، لكن اغترابهن العاطفي يستمر طويلاً. وفي حالتين كانتا قريبتين من ملاحظتي التحليلية، كان الأمر يتعلق بحالات عصاب هاجسي خطير. وكان معنى الواقع محفوظاً فيهما تماماً. وفي الحالتين، تم تقبّل التخدير منذ ظهور الألم. وكانت المرأتان ولاّدتان سعيدتان بفكرة إنجاب طفل، كما مضت فترة حملهما بصورة حسنة. ثم بينت طبيعتهما الضعيفة عاطفياً، أنهما عاجزتان عن ملء الفراغ الموجود بين انتظارهما للطفل، وبين أول احتكاك

(1) Zilboorg G. : Malignant psychoses related to childbirth. Am. J. obst. & Gynec., vol. 15 , 1928 Idem : The dynamics of schizophrenic reactions related to pergnancy and childbirth. Am J.Psychia ., vol. 8 , 1929.

لهما معه. وشعرتا بنفسيهما غريبتين عن الطفل، وقد أحدثت خيبة أملهن في فوات التجربة التي تنتظرها كل امرأة، فيهما هذا الشعور: «لا يمكن لهذا الطفل أن يكون لي، وإلا لكنت تأثرت أمامه أكثر». مشاعر كهذه للتباعد، تبدو لنا مألوفة كذلك لدى النساء الفصاميات.

في الحالتين اللتين ندرسهما هنا، الاضطراب العاطفي، حسب رأيي، كان سببه نمط الولادة. ويبدو أنه، خلال هذا الطور، وفي أعقاب انعدام وعي المرأة، الموضوعية المنتظرة لوجود الطفل، وإسقاطه في العالم الخارجي، تُكبحان، وإن صح القول، تفصلان عن سياق التجربة كلها. وتتشوش علاقة الأم بالطفل، لأن الطفل المدرك بالعالم الخارجي، لا يتوافق بالضرورة مع الطفل الذي كان في أحضان الأم، لذلك تحس الأم بشعور كهذا «أنه ليس طفلها». ولا تصدر عادة ردة فعل شديدة جداً على انتهاك استمرارية الطور، إلا لدى النساء اللواتي تكدّر ميلهن العاطفي سابقاً، إنما حتى إن كان الأمر كذلك، فثمة تشوهات مرضية مفيدة علمياً تستحق أن تُدرس بعناية.

لعل قصة التخدير، قصة تقدم متواصل، ومن المثير أن نعرف أنه استُعمل للمرة الأولى في نفس السنة التي نُشر فيها سيمويليس أعماله الجديرة بالذكر حول التعقيم التوليدي. وفي عام 1847، استخدم السير جيمس سيمبسون الأثير أولاً (وهو مركب مخدّر) في التوليد، ثم سرعان ما استبدله بالكلوروفورم. وفي بوسطن في أمريكا، أُعلن عن نصر جديد على خطر الموت بواسطة التعقيم وعلى آلام الطلق بواسطة البنج. وكان شانينغ الأول هنا في تبنيه لاختراع سيمبسون.

وفي غضون المئة سنة الأخيرة، لم يدخر العلم جهداً في تخفيف آلام النساء. حيث استخدم بروتوكسيد الآزوت والأوكسجين والأثير والكينين والمورفين وسلفات المغنزيوم في تناسقات متنوعة، ووصفات مختلفة، ووفقاً لصيغ مختلفة في التطبيق. كما يمكن لتنسيق مبتكر للمخدرات أن يحصل على تخدير لكل الطور المؤلم. ويُحدث السكوبولامين والمورفين،

تحت الجلد، نوعاً من النوم الغسقي وفقدان كامل للذاكرة، وحتى لو تم الإحساس بالآلام خلال الانقباضات. ويبدو الآميتال المشترك مع السكوبولامين والكوديئين أو المورفين لهم التأثير نفسه. كما استخدم مؤخراً كثيراً البيرنوستون بالحقن العضلي والشرياني، كما أعطى الآفيرتين نتائج مرضية. لكن حالات التهيج الناتجة عن جميع هذه المخدرات، تحث الطبيب النفسي على وضع قيمتها المطلقة موضع جدل من وجهة نظر الصحة النفسية.

وضمن وجودهم لإيجاد طريقة في الولادة، تلغي أي ألم دون استهداف الوعي، استخدم بعض الأطباء المولدين تخديراً في العمود الفقري. ولقد درست تجربة عدة نساء خضعن لهذه الطرق. وكان لهن جميعاً الشعور نفسه، كتجربة لا شخصية «إنها كما لو أن ذلك كان يحدث في السينما» وكن سعيدات لولادة أطفالهن، وشعرن بقوة وسجيّة. إنما «شيء ما» كان ينقصهن. واستطاعت امرأة ذكية أن تعطيني وصفاً مفصلاً عن تجربتها. فخلال امتداد فترة وضعها، أحست بشعور شديد وقابض للصدر ويشبه، على حد قولها، خوفاً غامضاً. وكانت لها ثقة كبيرة بقدرات طبيبها، وتلاحظ جهوده بموضوعية أكيدة. وتُقارن تجربتها بمشهد قد يحدث في محطة ما، حيث أحد ما ينتظر القطار، ويقوم العمال المتخصصون بأفضل ما في خبرتهم، لإيصال القطار في الوقت المحدد، ولإيصاله دون حادث يذكر، وقد يكون هناك تأخير طفيف. وسألتها إذا ما أحست بشعور الانتظار المفرح، كقدوم صديق أو كأحد أفراد الأهل المقربين والمحبوبين جداً. والأمر المثير، أن حالها لم يكن هكذا. فلقد تبدد فرحها بانتظار الطفل في ناحية ما خلال التخدير، وكانت كل طاقتها النفسية مكرسة لملاحظة مكثفة. وهكذا إذاً، مع أن الطور كان مماثلاً للولادة التلقائية، تكرس الانتباه على نشاط الأشخاص الآخرين.

وبعد الوضع، ذُهلت لإنجاب الطفل. لكن نشوة السعادة لم تحصل، وكان انطباعها العام، أنه ينقصها شيئاً ما. وأحست امرأة أخرى بجلاء،

وقد وُلدت تحت تأثيرتخدير سطحي، أن تجربتها مخيّبة وفارغة.

ومن وجهة نظر علم النفس، لهذا النمط من الولادة ميّزة، في الإتاحة للمرأة باتحاد سريع مع الطفل، وتحريرها من تبعات التخدير. لكن غياب شعور الإنجاز، ملاحظ تماماً. ومن الجدير بالذكر أن المرأة تدرك ذلك عموماً بعد حين.

وعليّ أن أضيف أنني تحققت من ردود فعل متماثلة تماماً وبعد ولادات مؤلمة جداً ومتعبة. وفي هذه الحالات، أصاب الألم والجهد الطاقات النفسية لدرجة أن العودة إلى البهجة لم تحدث. وقد يكون من المهم فحص عدد كبير من الحالات المشابهة بصورة منتظمة.

ويتّبع حالياً الطبيب الانكليزي غرانتلي ديك ريد[1]، طريقاً مختلفاً تمام الاختلاف. إذ يبحث في طريقة للوضع تضمن ولادة طبيعية مخففة الألم إلى أقصى حد. وهو أيضاً يعتبر أن الخوف مسؤول عن جميع الاضطرابات التي تعاني منها النساء في أعقاب الولادة، ويسعى بتثقيف ممنهج، وإعداد، ومعونة ذكية، أن يقي النفساء من الخوف والألم بإشراكها بمرح ونشاط في الطور. وتبدو، بصورة خاصة، هذه الطريقة جيدة من وجهة نظر علم النفس، مع أنه يجب إبداء تحفظات على الإثباتات النظرية لتقنية التوليد المثيرة للدكتور ريد، حيث بربطه آلام الطلق بالخوف وحده - «الذعر سببه التوتر، والتوتر سببه الخوف» - قلل من شأن أسبابها العضوية.

ولا ينجم خوف الولادة مطلقاً عن إعلام خاطىء أو إعداد أو تدريب غير ملائم. ويتخذ الدكتور ريد أمام الخوف موقفاً في منتهى الواقعية، فهو يعزيه وينسبه إلى التأثيرات السيئة للمحيط، وهكذا يقع في خطأ أولئك الذين يعتقدون أن خوف الفتاة من الحيض قد يزول بواسطة التربية (cf. vol 1.) . فالخلفية النظرية تلعب الدور الهام نفسه في الحيض وفي

(1) Read G. D. : Childbirth without fear. New- York : Harper. 1944.

الولادة، إنما ليس الدور الحاسم. ومن الممكن أن يبدو التفهم الذهني جزءاً من الخوف، إنما ليس القلق النفسي الداخلي الذي تمتد جذوره في العمق. وقد رأينا أن هذا الخوف يتحدد بعوامل عميقة ومتعددة، وتكمن المهمة النفسية للنفساء في ضبطه بطريقة حسنة، ويرجع الفضل الكبير للدكتور ريد حين أظهر لنا، أنه يمكن للمرأة أن تبلغ هذه الغاية بمشاركة فاعلة في ولادتها، متحمسةً لرؤيتها المتفائلة بالمستقبل، ومتقبلة بفرح التضحية بألمها في سبيل أملها بالطفل. ومع ذلك يقلل الدكتور ريد من شأن الأهمية الكبيرة لتأثيره الشخصي، وأن هذه الأهمية لا تكون فاعلة جداً، إلا لأن المريضات يشعرن بحاجتهن النفسية، بصورة عميقة، لأن يتفهمهن الطبيب المولد. ومهما كانت طريقته مثيرة، أشك أن تستطيع بلوغ تقنية معيارية.

وتستمر التقنية الطبية في التقدم، ولا شيء يستطيع اعتراض سبيلها نحو الأمام. إنما يمكننا محاولة إتقان هذه التقنية، بحيث تأخذ في عين الاعتبار تماماً، دينامية الحياة النفسية للمرأة. وغالباً ما تتقبل النساء بحماس صنيع ومعروف الولادة بلا ألم، دون أي إدراك لما يصادفنه من جراء ذلك، سواء بالنسبة لتجربة الولادة أو بالنسبة لنشوة الاحتكاك الأول بالطفل. ووجهة نظر الأنا الشعوري للمرأة، والذي يمثل الواقع، هو التالي: «أريد أن أنجب طفلاً، كما أريد أن أبلغ ذلك بأقل تعب وألم ممكن». والطبيب المولد هو حليف هذا الأنا الشعوري، وأنبل مظهر لمهنته، هو في كفاحه من أجل المحافظة على المرأة والطفل، ومن أجل تخفيف ألم الأم إلى الحد الأقصى. وموضوعيته الباردة، التي لا تنظر إلا إلى الأطوارالجسدية وتهمل الحالة النفسية، ربما قيمتها أفضل من تفهم لا يساعد إلا بصورة شحيحة، ويشوش الانتباه الموضوعي نحو العضوية. وإذا تدخلت الاختلالات النفسية في الطور الجسدي، فلا يمكن للمعونة النفسية أن تأتي إلا بتفهم حدسي أو بدراية موضوعية مفصلة للشخصية الفردية في مجملها. والحدس غير ممنوح لجميع الناس، والمولد لا يملك لا الوقت ولا عادة المزاج الضروري لمعرفة نفسية مفصلة. فمهمة الطبيب النفسي هي

في تواصل معرفته مع المولد، وأن يقدم له الإيحاءات المفيدة. وفي الحالة الراهنة لفن التوليد، هذه الإيحاءات هي التالية : 1) إيجاد تقنية للولادة تأخذ بعين الاعتبار القيمة النفسية لمشاركة المرأة في الطور. 2) توحيد الأم مع الطفل بأسرع وقت ممكن بعد الوضع.

ويبدو أن طريقة التخدير السطحي التي حددها ليل وهينغسون[1]، تستجيب للرغبة الثانية تلك. أما بالنسبة للأولى، فيسعى المؤلفون لإيجاد بديل عن الإيجابية الجسدية بتحويل انتباه النفساء (الراديو، أو المحادثة، ...إلخ). ومع أن الولادة تصبح أقل ألماً، لا يجب علينا نسيان أن الدينامية النفسية مستهدفة على العكس في إغفال فعل ممنوح. وتتطلب المسألة التعمق. ومن جانب آخر، لا يجب لإيحاءاتنا أن تتعارض مع الجهود المبذولة لتجنب آلام النساء، ولتحييد التأثيرات المدمرة للألم والخوف.

وأخشى أن تكون أمهاتنا الشابات، أولئك تحديداً الأكثر تحمساً لاستخدام التقنية الحديثة في التخلي عن تجربة الولادة، عاجزات، بصورة خاصة، عن تخطي المظاهر السلبية لهذه التقنية. ويتعثر نموهن نحو الأمومة بعوائق منذ البداية. وإذا كان هنا شاغلنا الرئيسي يتعلق بالنساء، لا ينبغي علينا نسيان أن علومنا أيضاً لا تزال عاجزة عن الفصل، إذا ما كانت التجربة الأمومية في الوضع، ليست الحجر الأساس لحياة نفسية لاحقة للطفل.

لقد حددنا دراستنا في الوالدات لأول مرة. ومن غير المشكوك به، بالنسبة لامرأة سبق لها ومرت بمطهر التجربة، ومتّنت روحها الأمومية بفضل الطفل الأول، أن تكون الأخطار العاطفية أقل مما هو بالنسبة لولادة للمرة الأولى. إنما حتى لنساء كهؤلاء، يدركن بصورة مؤلمة، الفارق

---

(1) Lull C. B. et Hingson R. A. : Control of pain in childbirth. Philadelphie : Lippincott , 1944.

الموجود بين تجربة ولادة تلقائية وبين ولادة مضبوطة تقنياً، وهذا ما حصل في صدق الرسالة التي أتينا على ذكرها.

ومن الممكن ان تكون تمنيات الأطباء النفسيين حول هذا الموضوع في غير أوانها ومنافية للعقل. حيث بالتأكيد، سيستمر فن التوليد في الإنجازات التقنية على هامش علم النفس، وسيتكيف السلوك النفسي للمرأة مع التطورات الثقافية. وستتحول مساهمتها الإيجابية الخلاّقة نحو غايات أخرى، تلك الغايات التي لن يكون لها علاقة مع الأمومة. والغبن التقليدي الذي لحق بالرجل، في أن أبوته غير أكيدة، يُستعاد الآن، رغم أنه أقل وضوحاً بكثير، في التساؤل المفاجىء للأم الشابة: «أهوَ ابني الذي هنا؟».

وتجد الرغبة الطفولية المرفوضة التي تكون لدى الرجل في إنجاب طفل بوسائله فقط، ، رمزاً في قصة القزم المولود دون مشاركة من المرأة. فالمولدون، أرباب الفاعلية الذكورية، يحرمون المرأة من مشاركتها النشيطة في ولادتها، ويحرمونها هكذا، في اتجاه معين، من الاستئثار الذي كانت تملكه في هذا المجال. وربما بهذا يدفع الرجل المرأة، بصورة لا إرادية، نحو مجالات النشاط هذه التي كان يطالب بها لوحده فقط في ما مضى، ويساهم شيئاً فشيئاً، في زوال الفوارق، التي تفصل بين الجنسين.

❀ ❀ ❀

الفصل الثامن

عقابيل الولادة والإرضاع
بداية العلاقات مع الطفل

عالم جديد تُفتح أبوابه على الأم كلما فصلت الولادة ابنها عنها. لكن استمرارية العناصر النفسية لمختلف مراحل الأمومة (حمل، ولادة، إرضاع) تكون مراعاة بالكامل. ويمكن لهذه العناصر أن تظهر بشدة متغيرة، في إحدى المراحل، أو أن تتوارى، أو تبقى ضمن الحدود الطبيعية، وفي مرحلة أخرى، يمكن أن تزداد إلى درجة مرضيّة. ويمكن أن تقدّم أشكالاً في التعبير مماثلة لكل مرحلة أو تتخفى خلف آليات للدفاع، مصدرة. ظواهر متعارضة مع السابقة ظاهرياً. ويمكن للعلاقة النفسية مع الجنين أن تستمر حتى إلى المرحلة البيولوجية للحمل، ثم تُستأنف لزمن يطول أو يقصر في العلاقة مع الطفل، أو أن فرحة المرأة الحامل والاهتمام بما تحمله في جسدها الخاص قد ينتقلا، مع ولادة الطفل، إلى القطب المقابل، وقد يؤدي ذلك إلى مصاعب مختلفة في علاقة الأم بالطفل. ويمكن لمخاوف الحمل أن يتم تجاوزها عند عملية الوضع، أو تستمر بصورة قلق نفسي حاد لموضوع الطفل.

ومن خلال ملاحظاتي العامة حول علم نفس الأمومة، ألمحت إلى الاختلافات الموجودة بين الأفعال الغريزية للحيوانات وبين علاقة الأم البشرية بطفلها. وتبين الملاحظة المباشرة لهذه العلاقة، هذه الاختلافات

بصورة واضحة جداً، إنما يلفت نظرنا من وقت لآخر بعض المماثلات للسلوك الغريزي.

في البداية، لنتذكر الاختلاف الأساسي، فردود الفعل الغريزية والبدائية تجعل الأمهات الحيوانيات يبلغن غايات بيقين كبير، ولا يستهدفنها لا بصورة عاطفية ولا بصورة ذهنية. في ما لدى الأمهات البشريات، وربما لدى الأمهات الحيوانيات الذكيات، تترافق العلاقة مع الطفل بعواطف وأفكار. وقد تُشرك هذه العواطف والأفكار بتمثلات عاطفية شعورية ولاشعورية تمنع هذه العلاقة إلى حد بعيد عن متابعة تطور بسيط. وحتى يمكننا القول أن مثل هذه التمثلات العاطفية تكون حاضرة دوماً إلى درجة معينة.

وقد يصبح موقف غير أمومي، ومعاكس للميول الشعورية للمرأة، قوياً جداً ويظهر في الوظائف البيولوجية، حتى لو افترضنا هيمنة الغريزة الأمومية. وفي دراستنا للحمل، أشرنا سابقاً إلى ذلك الأمر المثير للفضول، في أنه يمكن للمرأة أن تمتلك جميع صفات الأم، وكذلك الرغبة الصادقة في الحمل وتغذية الطفل، ومع ذلك ترى نفسها مجبرة على قطع طريقها، إلى حد ما، في إحدى محطات الأمومة. ومن الواضح هنا أن الأمومة النفسية تشكل بنية قوية معقدة، لن نعرف تحديد موقعنا فيها دون استخدام عدة طرق في التقصّي، وأيضاً لا نتوصل إليها، إلا بدرجة محدودة جداً. وسأبدأ عرضي بوصف الأحداث البيولوجية.

بيولوجياً، تلعب المرأة حتى حملها دور حاملة سلبية لمستقبل، وتسمح لها فقط حياتها التخيلية في تصور هذا المستقبل بفرح أمومي خلاّق. وخلال الحمل، تتكيف جميع الأطوار العضوية للمرأة مع حاجات فيزيولوجية لثمرة تنضج في أحشائها. وتشبه العلاقة العضوية الموجودة بين الجنين والأم علاقة طفيلي مع مضيفه. فالخيال وحده المتوجه نحو المستقبل، والشحنة العاطفية لهذا الخيال، يجعلان ثمرة الجسد كائناً محبوباً جداً. وتنظر كثير من النساء بحرارة كبيرة نحو هذا المستقبل، بحيث

يتخلّين، منذ الحمل، عن جميع اهتماماتهن الأخرى، وجميع حياتهن الذهنية، ويستغرقن في التخيلات الممتعة لمستقبلهن الأمومي. وتتخذ أخريات منذ البداية، وضعية دفاعية، ويسعين حتى لتعزيز الاهتمامات التي يجدنها خارج الأمومة، أو يستخدمن الطفل بصورة مباشرة لزيادة طمأنتهن وشعورهن بالفردية.

ولعل الانقلابات التي لاحظناها في الحياة النفسية للمرأة خلال الحمل هي من ناحية، تعبير عن تعديلات جمّة تحدث في جميع وظائفها العضوية، ومن ناحية أخرى، تأتي بشكل مباشر، مما تنتظره، وهو الطفل، ومن آنيّة المضامين النفسية التي هي حتى الآن كامنة. لقد تحدثت عن الصدمة النفسية والجسدية للولادة. وخلال المرحلة التي تتلوها مباشرة، لا تكون المرأة قد تحررت نهائياً من الأعباء الجسدية التي فُرضت عليها في أعقاب الفعل الجنسي وإخصاب خلاياها الإنتاشية. وعلينا أن نتذكر بدقة العمل الفيزيولوجي المعقد الذي يتم في جسد المرأة التي أتت على ولادة جنين في موعده. والرحم الذي توسّع بصورة زائدة من الحمل، ثم تخلّص من جميع الأعضاء الأخرى الداخلة، يتخذ شيئاً فشيئاً، اتساعه الطبيعي، وتعود الأعضاء الأخرى إلى مكانها. وتخدع المرأة نفسها حين تتحقق بفرح بعد ولادتها، وبحسب تعبيرها أنها عادت كما هي، ففي الواقع، مع أن العضوية تعود بصعوبة إلى حالتها الطبيعية، فهناك عمل جديد بنائي ينطلق لخدمة الوظيفة التناسلية، و ذلك في نشاط الغدد الثديية. وتتهيأ هذه المهمة العضوية الجديدة أثناء الحمل، وتعمل هذه الغدد منذ ذلك الحين، بتأثير كيميائي للغدد الصم، ويبلغ إنتاج الحليب، لحظة الولادة، حده الأقصى.

ونلاحظ هنا، استمرارية الأطوار العضوية التي تخدم الوظيفة التناسلية. فالانفصال الجسدي للجنين لا يقطع هذه الاستمرارية في تلك اللحظة. ولا تعود العضوية لحالها مبكرة من الصدمة الفيزيولوجية الكبرى للولادة، والتي عليها تأمين وظيفة فيزيولوجية جديدة في إرضاع الطفل. ومنذ المراحل الأولى لوظيفة التناسل، يعمل الجهاز الفيزيولوجي كله

للجسد الأمومي بطريقة إيثارية، لصالح الطفل، ويتكيّف جسد الأم كله مع المهمة الكبرى في الأمومة، أولاً في الوجود الجنيني للطفل، ثم وجوده الرحمي الممتاز. وبعد الولادة، يمر القسط الأكبر من الطاقات الجسدية باتجاه الطفل، إنما الآن خارجاً عن جسد الأم.

ما هو إذن السلوك النفسي للمرأة خلال هذه المرحلة الجديدة من الوظيفة التناسلية؟ وكيف تتجلى هنا الموازاة الموجودة بين الأطوار الجسدية والنفسية؟ وما هي على الأخص ردود الفعل العاطفية للأم إزاء صدمة الانفصال؟

تحس المرأة أثناء الوضع وكأنها «في نهاية العالم»، لأنها انسحبت لفترة من كل علاقاتها مع العالم المحيط، وقد تهيأ هذا الشعور أثناء الحمل بحكم أن كل اهتمامها في الحياة، كان يتركز حول خوفها. والآن، الولادة انتهت، وهي تعيد بناء العالم حول الطفل، كما تعود علاقاتها المتروكة مع ما يحيط بها إلى الحالة الطبيعية، شيئاً فشيئاً، من خلال الطفل.

يمكننا التحدث عن ثلاثة أفعال خلال إعادة البناء هذه: يتوافق الأول مع اللحظة الأخيرة للوضع، عندما تنبثق مشاعر النشوة باتجاه الطفل. وتعوّض ردة فعل الانفصال بنوع من اكتشاف جديد للطفل. أما لدى النساء اللواتي وضعن تحت البنج، فتؤجل ردة الفعل هذه إلى ما بعد، وقد لا تكون أبداً بنفس الشدة وبنفس الإرضاء، حينما يكون استقبال الطفل مباشرة عند الخروج من محنة الولادة.

ويكون الفعل الثاني في مرحلة عقابيل النفاس، إنها مرحلة في غاية السعادة، وفقاً لإفرادية الأم، ووفقاً لموقفها من الحياة بشكل عام، رغم ظهور ردود فعل لخيبة أمل أحياناً منذ ذلك الحين. وبالرغم من الفرح الذي يوفره الطفل، يكون توجه ذهن أو روح المرأة لازال نرجسياً إلى أقصى حد. ولازال العالم، لفترة ما، مماثل لأناها الخاص، وتشعر الأم نفسها

كمركز لكل انتباه عاطفي، ويعتبر ابنها قبل كل شيء كأنه عملها وإنجازها. وليس إلا، شيئاً فشيئاً، يؤكد طلباته الخاصة، وحقوقه، وحاجاته، وليس إلا، شيئاً فشيئاً، تتخذ علاقة الأم معه طابع علاقة موضوعية. وقبل أن يستقر ذلك، هناك علاقات مع الطفل، لا تكون متماثلة، بحصر المعنى، مع مستقبل الحب الأمومي، إنما تكون بالأحرى مراحل تمهيدية لذلك. فالفرح والزهو من ناحية، والخيبة من ناحية أخرى تتصارعان، وستصادق كثير من النساء الأموميات في ما بعد، على أنهن نظرن لطفلهن كغريب ومرفوض، ورأين بصورة شعورية في مشاعرهن، مزيجاً من الفرح والخوف، وحتى أحياناً من اللامبالاة المثيرة للفضول.

وما يجدر ذكره، أن ملاحظات النساء اللواتي فقدن طفلهن، المنتظر بفرح، بعد الولادة مباشرة، أو اللواتي ولدن طفلاً ميتاً، تشير إلى أن ردود الفعل لمثل هذه الخسارة، لا تأخذ طابع الألم الفعلي المعروف بعد موت شخص عزيز جداً. وتتوافق ردود الفعل هذه مع ردود فعل عدم إرضاء رغبة، أو مع مشاعر بالذنب تنطلق، أو مع اتهامات موجهة ضد الغير... إلخ. وفي هذه الحالات، تستسلم المرأة بسرعة كبيرة إلى رغبة حمل جديد وبصورة حيوية. ويختلف الموقف إذا اختفى الطفل بعد فترة من الاهتمام والإرضاع بصورة مرضية. إنه حينها حداد حقيقي، وتعود هنا القابلية لحمل جديد بصورة بطيئة، وحينما يهدأ فقط ألم الغياب. وتعد هذه الاختلافات مهمة ومثيرة، لأنها تشير إلى العلاقات الموجودة بين «الغريزة الأمومية»، التي يُنتظر أن تهيمن بصورة مباشرة بعد الوضع، والحب الأمومي، الذي لا ينمو إلا شيئاً فشيئاً.

وتتصف مرحلة عقابيل وذيول النفاس بمرحلة تمهيدية للروح الأمومية. إنها تتضمن المسألة المركزية في الإرضاع، والتي سنعود لها لاحقاً. وتتعلق الأطوار النفسية لهذه المرحلة في مجملها، بصورة طبيعية، بالمحيط، وبالموقف العملي من الحياة، وبأعراف البلد والعائلة... إلخ. فامرأة بوسائل محدودة، تكربها الهموم المالية، ويقلقها ما ستخسره لما حصل لها بسبب

غيابها، وتخيفها المصاعب التي تنتظرها عند عودتها مع هذا العبء الجديد، ستعيش هذه المرحلة من عقابيل الولادة بصورة تختلف عن امرأة شابة ثرية ستستمتع بإحساس «المجد» لوضعها الجديد. فضلاً عن العلاقة مع الزوج ومجمل الموقف العاطفي.

كما تنظم المؤثرات الثقافية التفاصيل الخارجية لهذه المرحلة، رغم أننا نشهد باستمرار، ظهور أمور مألوفة بأشكال مختلفة. فلدى عدد كبير من الأقوام البدائية، يُمنع على الرجال قطعياً، دخول غرفة المرأة وقتئذ. في ما الأمم الأكثر تمدناً، وحتى في حضارات السلطة الأبوية في الأزمان الغابرة، عندما يُسمح للرجال بالدخول إلى الغرفة، يفقدون فيها عادة أي سلطة. إنه مجال المرأة حيث لا تُحترم إلا كلماتها وآراؤها وأفكارها. وقد حصلت المرأة عندنا على حقها في أن تقول كلمتها حول القوانين والمؤسسات الثقافية والاجتماعية الأكثر أهمية، إنما تراها مطرودة، على نطاق واسع، من غرفة النفساء كناصحة أو مساعدة. كما تتيح أم النفساء الشابة المكان لصهرها، أما الناصحات والصديقات...إلخ فقد أتحن وأخلين المكان للطبيب.

وينظر كثير من الشعوب إلى المرأة النفساء كشيء نجسٍ ومحظور، في ما تقدسها شعوب أخرى. ولدى بعض الجماعات البدائية، عليها أن تنعزل، وفقاً لمعتقدات لا عقلانية، وتعتبر كشيء خطر. في ما عندنا، يقف الغرباء في أبعد مسافة ممكنة، لدرء المخاطر المنطقية للالتهاب، عن الأم الشابة.

وهناك عادة قديمة ومنتشرة جداً في القدوم لتهنئة الأم الشابة. ومن العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، كان ذلك مناسبة لاحتفالات كبرى.

كانت ذيول النفاس مرحلة يحلو فيها للنساء إظهار ثراء بيتهن وأجمل حلي عندهن لصديقاتهن، ولعلاقاتهن ولجيرانهن... وكان يؤخذ الغرور الأنثوي بعين الاعتبار. وطالما كانت النفساء تستقبل زيارات صديقاتها وجاراتها، فكانت تسعى لأن تتزيّن وتزيّن وليدها الجديد وتزيّن غرفتها،

بأغنى وأجمل ما يمكن، بطريقة لا تثير فقط الإعجاب إنما، إذا أمكن أيضاً، غيرة زائراتها[1] .

ويبدو ظهور العنصر النرجسي عند المرأة التي لاتزال غير متشرّبة الحب تجاه طفلها، ليس فقط في ثقافتنا، إنما أيضاً في ثقافات أخرى أقل تطوراً.

وتظهر غالباً في غرفة النفساء، المرأة «الشريرة» الساحرة، التي تشكل خطورة على الأم وعلى الطفل، وهي متمثلة بصورة تقليدية لدى اليهود بـ ليليث. وتعلّق النساء اليهوديات حجابات وكتابات بالعبرية تحتوي على الصيغة السحرية التالية:

باسم القادر الكبير إله اسرائيل ! النبي إيليزيه سيلتقي ذات يوم، شبحاً اسمه ليليث وحارسها... وهي تقول: «أنا ذاهبة عند ن. النفساء، لأجعلها تنام نوم الموت، ولآخذ وليدها الجديد، لكي أشفي غليلي من دمه، وأمتص نخاع عظامه، ولا أتركه إلا جثة هامدة.»

إنها، على ما يبدو، فيهيني هايي أخرى تعذّب امرأتنا النفساء بمخاوفها.

ويتوافق الفعل الثالث، في إعادة بناء علاقة المرأة مع العالم المحيط بها، مع الحاجة الملحّة التي تحس بها للخروج من حدودها النرجسية، واستعادة مكانتها العاطفية في العالم الخارجي. وهناك وسيلتان بالنسبة لها لبلوغ ذلك: من خلال الطفل، ومن خلال المحيط.

ولقد سعيت سابقاً لتعريف مختلف العناصر العاطفية الموجودة في علاقة الأم مع الطفل المدرك كأداة خارجية، وتشكل هذه العناصر في مجملها الروح الأمومية. ولقد قلّصتها في ثلاث مقوّمات رئيسية: الحنان، الإيثارية، ونشاط من نوع خاص. وتشكل هذه المقوّمات المأخوذة في

---

(1) Ploss et Bartels : Op. Cit. , vol. 3, p. 155.

مجملها، برأينا، الجو النفسي للروح الأمومية. وتقوم الإيثارية الأمومية، بحكم أن المرأة تنسى نفسها كلياً في صالح الطفل، وتقبل أن تكرّس له كل شيء بما فيه حياتها الخاصة. وجوهر الحب الأمومي أنه لا يطلب شيئاً في المقابل، وأنه لا يتضمن حدوداً، ولا يضع تحفظات. وأنه مكمّل للموقف الأول للطفل تجاه الأم، في حين أنها منبع إشباعات جميع الحاجات، وهي كائن يحس بأن ليس له أي أهمية خارجاً عنه. والتعويض الوحيد المباشر الذي يمكن للأم أن تنتظره من الطفل هو شيء ما مرتبط بالحب الأمومي نفسه: إنه فرح وجوده ورفاهيته. وتنبعث هذه العلاقة مباشرة، وبالتوازي مع الأطوار الجسدية، من الوحدة بين الأم والطفل الموجودة أثناء الحمل.

ومن الصحيح أن قطع الحبل السري يؤدي إلى إعادة تنظيم الوظائف الجسدية، ويدمر جزئياً التبعية المتبادلة بين الأم والطفل. ويسمح هذا التدمير للطفل، في حال الحاجة، أن يستبدل أمه بأداة أخرى، كما يعيد للأم بعض الحرية في الحركة. إنما في ما يخص الوجود العاطفي للمرأة والطفل، ليس لهذا التحرر إلا قيمة نسبية جداً، وتقريباً نظرياً فقط، وخاصة بالنسبة للأم، حيث يخلق الحب الأمومي، أي الصلة العاطفية بالطفل، «حبلاً سرياً نفسياً» ذلك الحبل الذي لا يتمكن من قطعه إلا الپارك[1]، والقدر، وآلهة الحياة والموت. والمعنى الرمزي لـ «خيط الحياة» الذي يمثله الحبل السري، واضح لأي شخص يستوعب ويدرك الحب الأمومي.

فوحدة الأم بالطفل في الحياة داخل الرحم، تدمر بواسطة قطع الحبل السري الجسدي، في ما الأم تستقبل بديلاً واقعياً لم يكن بالنسبة إليها إلى الآن إلا طفيلياً ووهماً. إنما لنفهم الوضعية الفريدة والتي هي وضعية الحب الأمومي من بين جميع العلاقات العاطفية الإنسانية الأخرى، ينبغي أن ندرك الأمر التالي: فبالتوازي مع الميول التصاعدية للأمومة، هناك ميل

---

(1) Les Parques: آلهة لاتينية تتحكم بالقدر والولادة والموت. (المترجم).

تراجعي يظهر عند كل أم، ويبحث هذا الميل عن ترميم وحدة قبل الولادة. ولقد تحدثنا عن الصلة الغريزية الموجودة بين الأم الحيوانية وصغيرها، وردود فعل الانفصال المرسومة فيزيولوجياً. في ما عند الأم البشرية، تُحوّل ردود فعل الانفصال من الصعيد الفيزيولوجي إلى الصعيد النفسي، وكما ذكرنا، تستمر التبعية الجسدية، وحتى الاجتماعية، للطفل تجاهها. إنها مظهر للحبل السري النفسي.

لعل مسألة أن الحب الأمومي يتخذ جذوره من حالة انشطار بين الأنا واللاأنا، لم تخلق بعد الموقف العاطفي الذي يمكننا أن نلاحظه في بعض أشكال الهوى العشقي: «الأداة، إن صح التعبير، استنفذت الأنا. حيث يشتمل كل حب هائم على ملامح تذلل، وتحديد للنرجسية، وإجحاف للذات»[1]. ويرى فرويد في الإنسان، الوحيد القادر على هذا الحب الناسي للذات، واستناداً لما أورده، لا تحتاج المرأة لأن تحِب، إنما فقط أن تُحَب، وكلما أحبت مع نسيانٍ لذاتها، فإنها تحب «على طريقة الرجل».

لن أستعيد هنا دراسة هذه المسألة. (cf. vol. p. 164) ويبدو لي أن شكل علاقة تظهر مؤقتاً في الحب الهائم هي سمة دائمة للحب الأمومي الصادق. وبما أن هذا الحب ينمو على حساب حب الذات، فقد يفقر أنا الأم، رغم الاندماج القوي الموجود بين الأم والطفل. ولكل امرأة رغبات وتطلعات لا علاقة لها بالوظيفة التناسلية. ولها أناها الخاص، الذي يكافح من أجل التعبير عن نفسه، ومن أجل إغناء ذاته، وإشباعها لكي يعيش. وإذا لم تبادر لإرضاء أناها ضمن إطار وظيفة التناسل وضمن علاقتها مع الطفل، فقد ينطلق صراع بين التناسل والأنا، أي بين الأنا والطفل.

لقد رأينا أي أشكال يتخذ هذا الصراع أثناء الحمل، وما هي الحلول الممكنة لهذه المرحلة. فبعد انفصال الوحدة، يتواجد لدى الأم اتجاهان،

---

(1) Freud S. :Group psychology and the analysis of the ego. London : Hogarth 1940.

أحدهما تصاعدي، يستهدف مساعدة أناها على استرجاع حقوقها، والآخر تراجعي، يستهدف الاتحاد مع الطفل والحفاظ على الحبل السري. وقد يكون هذا الميل الأخير، القريب جداً من العضوي، تعبيراً عن «الغريزة الأمومية».

حتى لو افترضنا أن الحب الأمومي تسببه الأطوار العضوية لوظيفة التناسل، فمن غير المشكوك به، أن هذا الحب في حياة كل امراة على حدة، يتلقى تحريضات مبعثها مصادر مختلفة، وهو موضوع تعديلات على الدوام. وفي الصراع المتولد بين اهتمامات الأنا والوظائف التناسلية، يلعب الحب الأمومي دور الموفق والوسيط. إن الإفتخار بشخص الطفل، والتبعية التي يجد نفسه فيها بحب أمه، والاندماج الذي لا زال موجوداً فيه، والتخيلات الخاصة بمستقبله، إنها هنا تعويضات يمتلكها الأنا المهدد بحوزته وتصرفه. وإنها لا يمكن أن تخدمه إلا إذا كان الحب الأمومي موجوداً.

وتكون ردة فعل الأنا في اتجاهات مختلفة. في بادىء الأمر وفي جميع الحالات، هناك دفاع أوتوماتيكي، كمنعكَس ضد العبء الثقيل المفروض من الغرور، على الأنا الذي يرى في الأمومة (وقد ذكرنا ذلك بعنوان واضح) خطر الإفقار. ثم تأتي ردود الفعل الأكثر تخصصاً لفقدان شيء ما، كشعور الأم بتحديد حريتها عن الحركة، ويصبح هذا الخطر، بشكل خاص، على الأمهات الشابات. وهناك أيضاً خطر أن نرى المرأة وقد أصيب جمالها الجسدي بنكسة تراجعية، وغالباً يتركز ذلك في نهديها. وهناك الخصومة والندية بين الروح الأمومية والعشقية، وبين التطلعات الذهنية والفكرية والواجبات الأمومية، والخطر الذي يخشاه أنا المرأة في التخلي عن ارتباطاتها الطفولية لصالح وضعية راشدة تفرضها الأمومة عليها، أو على العكس، خطر الوقوع ثانية، بسبب الأمومة، بارتباطات سابقة متراخية في السلوك، على نحو أو آخر.

ويكمن خطر آخر بالنسبة للأنا، بحكم أن كيان كثير من النساء يتشكل

بقوامٍ متوازنٍ من آليات الدفاع والتساميات، مما قد يزعزع تجربة الأمومة. وتصبح جميع هذه الأخطار لها شأنها إذا تواجد ما قد نصفه، ضمن الإطار العام، بضعف الأنا. وبتعبير آخر، لا يحس أنا المرأة بكفاءته أمام مهمات الأمومة، فيتأثر لهذا الخطر بالخوف وفي محاولة الهرب. فضلاً عن أن كثير من النساء يشعرن أنفسهن عاجزات عن منح كمية من العاطفة، يرونها ضرورية لرفاهية المولود الجديد، ويخشين من تعرضهن في هذه العواطف لصراع جديد، لتناقض وجداني لا يحتمل.

إن الميل الأمومي في الحفاظ على الوحدة مع الطفل، والرغبة الغريزية للإحتفاظ به في الذت أو مع الذات، تكونان ردة فعل في مواجهة هذه الأخطار على الأنا. وللخوف المرافق لهذا الميل طابع من خوف الضياع، إنه الوريث، والمكمل لخوف الانفصال الذي، بشكله الحاد، يتم الشعور به خلال الوضع.

ويتعلق هكذا مصير الروح الأمومية، بمخرج للصراع بين هذه القوى المتعارضة. حيث إن الإفراط في الخوف من إفقار الأنا يحوّل الأم عن الطفل، ويجعلها تُفشل الوظائف الجسدية المكرسة لخدمة التكاثر، كما يمنع إنجاز الروح الأمومية. ومن جانب آخر، يؤدي الخوف الشديد من فقدان الطفل إلى تكريس مفرط في صالحه، وهنا تتحول الأم بسرعة شديدة عن جميع الاهتمامات الأخرى، كما تجد نفسها معرضة للإحساس بالمخاوف العصابية، في ما يخص طفلها.

وبطريقة متباينة إلى حد ما، يمكننا ملاحظة، مبالغة في الحب النرجسي للذات لدى كثير من النساء، ليس فقط كأول ردة فعل على ولادة أطفالهن، إنما أيضاً خلال المرحلة الإيثارية التي تلي. ولبعض هؤلاء النساء ميول ماسوشية شديدة، على نحو خاص، وتنطلق هنا نرجسية ردة الفعل كآلية دفاع ضد الإيثارية الماسوشية المفرطة. هذا الطور مألوف لنا، ونعرف عنه كل الأهمية في علم النفس الأنثوي في مناسبات أخرى (cf.vol.I).

وتحدث مثل هذه المبالغة، بشكل خاص، في نرجسية ثانوية لدى النساء اللواتي عجزن في حياتهن العاطفية عن خلق فرح أمومي كاف بالطفل، لتعويض التضحيات التي تتضمنها الأمومة. كما يحدث ذلك في جميع المضايقات العاطفية التي ترافق الإحساس بالفراغ والإفقار. ردة فعل كهذه نمطية جداً لاختلالات عاطفية فصامية. وتنتظر النساء اللواتي يعانين من وجود مثل هذه الاختلالات من الطفل، أن يحررهن من برودتهن الداخلية، ويجدن علانية أنفسهن خائبات الأمل عندما لا يحدث شيء من هذا القبيل. إنهن يشتكين صراحة من عدم الإحساس بشيء بالنسبة لطفلهن، أو يسارعن لإيجاد تعويضات أخرى. ويستطعن اللحاق بمجموعة نساء، يدفعهن إرغام داخلي للأمومة، ويسعين لتحقيق كامل تجربتها بإنجاب المزيد من الأطفال بلا انقطاع.

وتشعر النساء اللواتي يندفعن إلى الأمومة بشعور داخلي بالوحدة بخيبة الأمل نفسها. إنهن ينتظرن من الطفل الحب الذي لم يجدنه في مكان آخر، أو إشباع رغباتهن بسبب أداة أخرى مردودة، ولا زلن متعلقات بها بصورة لاشعورية. ومن البديهي أن الطفل لا يستجيب لهذا الانتظار، لأنه يطلب من أمه، تحديداً، ما تريد هي أن تتلقاه، وهو حب بلا حدود، وعطاء بتفانٍ متجرد.

وإذا سببت ولادة الطفل الميول المدمرة للمرأة ضده وضد أنا الأم، وهذا ما يحصل في الحالات المرضية، فتوجه الأم نحو اهتمامات أخرى يمثل الخلاص ليس فقط لأناها إنما أيضاً للطفل الذي تهدده هذه الميول المدمرة.

فالنساء اللواتي تحت وطأة ضغط مستمر لمشاعر بالذنب لاشعورية، يكنّ فريسة لردود فعل عصابية هاجسية واكتئابية، ويتركن غالباً أطفالهن عرضة لعادات من الفروض الطغيانية منذ بداية حياتهم، ويظلمنهم في الواقع بسبب مقتضياتهن الخاصة. ثم يبحث أنا الأم بحثاً يائساً عن وسيلة لاستعادة حريته المفقودة. وتكمن هذه الوسيلة خارج الأمومة، وغالباً في توجه نحو الرجولة.

والمرأة التي نظرت، بصورة لاشعورية، إلى حملها كله كبديل عن نقص القضيب، والتي مثّل لها الطفل تعويضاً عن هذا النقص، تظهر ردود فعل نمطية، تتشكل في جزء منها في متطلبات تجاه الطفل، تعتبر من ناحية أخرى برهاناً على إنجازها الذاتي. في هذه الحالات، يمكن للضيق النفسي لموضوع الطفل أن يكون تماماً تكراراً لردة فعل معروفة جداً نحو الحرمان التناسلي.

وعندما لا تُحس ولادة الطفل كتعويض، إنما كصدمة تناسلية جديدة، تتفاقم عقدة الرجولة جراء ذلك بصورة مباشرة. ويُترجم ذلك، بطريقة أسهل، في أن المرأة تتحول عن أمومتها لتحقق ذاتها في مجالات أخرى. في ما تؤدي ولادة طفل لدى بعض النساء، بصورة متباينة، إلى إبداعية متنامية في كليتها. وتكشف ملاحظة نفسية حاذقة أن القوة القاطرة التي تختفي خلف الحاجة الخلاقة المكثفة، هي خيبة لأمومة ورغبة في الهرب منها. ج. لامبل دي غروت[1] يعطي الرجولة مكانة هامة في الأمومة: «كالطفلة الصغيرة التي تشبع نشاطها وإيجابيتها أثناء اللعب بدُماها، تستخدم المرأة جزءاً من رجوليتها في تغذية الطفل والعناية به، ولاحقاً في تربيته». أعتقد أن هذه الملاحظة دقيقة، إنما فقط لنمط ما من النساء.

وكلما كانت ميول المرأة الرجولية حيوية أكثر، تمكن أناها بعزم أكبر في التحول عن مهمات الأمومة، ومن جانب آخر، كلما أحست نفسها سلبية وماسوشية، كلما أصبح خوفها من التبعية للطفل أكثر، وكلما ستلجأ بحيوية أكثر إلى النشاط الذكوري. وهذا ما يفسر لماذا تعزيز الميول الذكورية بعد الولادة قد يُرى، على نحو خاص، لدى النساء اللواتي كنّ سلبيات في السابق. وسيكون بالطبع الأنا الرجولي أقدر من الأنا الأنثوي السلبي لتدارك المخاطر الجديدة.

---

(1) Lampl- de Groot J. : Problems of feminity. Psychoanalyt. Quart. , vol. 2 , 1933

ويقول زيلبورغ[1] متحدثاً عن حالات فصام نفاسية: «بالنسبة لهؤلاء النساء، يبدو على الأجدر، للطفل قيمة عضو رجولي مفقود، كائن من يكون... والولادة بكونها إخصاء، هي ردة الفعل الذهانية على الحدث في معاودة الرغبة بالقضيب». ومن الجدير بالأهمية ملاحظة أن مريضاتها يتحولن نحو الرجولية، بسبب علاقتهن الأمومية العاطفية التي لا تفي بالغرض مع الطفل، ويطلقن في الذهان استعداداً موجوداً مسبقاً ليس بعد ولادة الابن الأول، إنما فقط بعد عدة سنوات، من ولادة طفل آخر. ولقد دونت أن ردود الفعل المرضية لنساء مصابات عاطفياً بالفصام (إنما ليس الذهان)، تكون غالباً مؤجلة إلى ما بعد، ومتركزة على ولادات لاحقة. ويبدو أن صون التوازن النفسي يكون أصعب لدى هؤلاء النساء، عندما على العلاقة الأمومية أن تكون موزعة على أولاد من أن تتركز على ولد وحيد. وعند كثير من النساء، تكون الأمومة كلها وخاصة شرطها الضروري، الفعل الجنسي، مرتبطة دوماً بمشاعر الذنب، ولا تتمكن إذاً من الشعور بالأمومة إلا في الألم ويبحثن عنه بلا توقف. وموقف الأم المعذبة ينمو لديهن إلى حده الأقصى.

ولدى أخريات، تحدث فكرة ولادة ثانية خاصة، بإرفاقها مع الوضع. وهنا يلعب الألم دوراً مهدّئاً تجاه الجرائم اللاشعورية، وتشعر هؤلاء النساء أنفسهن الآن مغفورة ذنوبهن، ومولودات من جديد. والجملة المألوفة: «لو كنت أستطيع المجيء إلى العالم من جديد» تتحقق في عواطفهن، وكأنهن يقلن: «ها أنا ذا أعود للحياة، وأريد تنظيم هذه الحياة الجديدة، بحيث أتمم كل ما أهملته في المرة الأولى».

ويمكن لفكرة أن الطفل ينتمي لعالم جديد وليس لها، أن تؤدي إلى صعوبات كبيرة في نمو الروح الأمومية عند امرأة ما. وليس إلا بالاندماج

---

(1) Zilboorg G. : The dynamics of schizophrenic reactions related to pregnancy and childbirth. Am. J. Psychiat. Vol. 8, 1929

مع الطفل يمكن للأم أن تبني، بما يخص المستقبل، قصصاً وهمية جديدة تملأ أمنياتها سروراً.

لاحظت عدة ظواهر أثناء الحمل تستمر بعد الوضع. فيمكن لمتعة أن تكون المرأة حاملاً، على سبيل المثال، هذا ما رأيناه عند الأنماط الطفولية، أن تُستأنف الآن في علاقة طفولية، على نحو خاص مع الطفل. ولا تحقق مثل هؤلاء النساء التطور المتوقع نحو الواقع، ولا تتخلى عن العلاقة الخيالية مع الطفل، وهن يلعبن دور الأمومة كفتيات صغيرات قبل بلوغهن. إنهن مزهوات جداً بأبنائهن، ويردن إراءتهم لجميع أصدقائهن، ويشعرن بشعور ما بالنصر إزاء أمهن الحقيقية، ويفرحن بجنون للهدايا التي يتلقينها، بنفاذ الصبر، من الزيارات الأولى...إلخ وعندما تصبح اللعبة جدية، يبدأ الطفل باستدعاء تجرد أمه، وتظهر الصعوبات الأولى. وتكون ردود فعل هؤلاء النساء حينئذ على النحو التالي تقريباً: «كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يحصل لي؟ وفي نهاية الأمر، أنا صاحبة الحق في فرض ما أريد !» وتكون هذه المرأة «ألطف الأمهات الشابات» في الأيام الأولى، ثم مغذية ممتازة...لبضعة أسابيع. إنها وقتئذ مأخوذة بالخوف من الإساءة لحريتها، ومن تبعية الطفل، ومن إفقار أناها والتي لا زالت بحاجة للنمو، وتجد نفسها في خطر فعلي. ولم تصل بعد إلى المرحلة التي يمكن أن تشعر نفسها فيها راشدة بثقة، إنها واقعياً ليست مستعدة للأمومة. وبما أن طفوليتها عموماً على صلة بعلاقتها الطفولية مع أمها، فأمومتها ليست، بالنسبة لها، إلا مناسبة جديدة لتنامي تبعيتها لأمها والصراع الذي يقابلها.

أحياناً، هناك امرأة لا تتكيف، شيئاً فشيئاً، مع دورها كأم، ولا تصل إلى تغطية واجباتها إلا بمشاركة زوجها. ولقد تحدثنا سابقاً عن امرأة أسميناها «أم مساعدة» (ص. 88)، إنما كنا آنذاك نتحدث عن فتيات شابات، وعن نساء قُطعت مرحلة بلوغهن بأمومة فعلية، وثبتن في مرحلة الأمومة التي سبقت مرحلة البلوغ. ونتحدث الآن عن النساء اللواتي بالنسبة لما يتعلق بأعمارهن الفعلية، غادرن منذ زمن طويل مرحلة البلوغ، إنما

بسبب التثبت في بنية طفولية، لا يتمكّن من النمو أكثر والنهوض بدور أم مستقلة. وغالباً ما نصادف، لسوء الحظ، هذا النمط في أيامنا هذه، وهي إحدى نتائج الحرب[1]. نساء كنّ سابقاً طبيعيات من الناحية الذهنية، يطلبن المساعدة من الهيئات الاجتماعية ومراكز الأطفال لأن أزواجهن الآن قد أزيحوا، وغرقن تحت وطأة أعبائهن الأمومية. ويطالبن بإصرار بعودة رفاقهن، ويعتبرن بصورة ساذجة وطفولية حالة الحرب، عاراً شخصياً حل بهن. وقد يحل محل الزوج أحياناً مساعِدة ملائمة، لكن غالباً مثل هؤلاء النساء أيضاً، يبدأن بالمعاناة من عصاب كامن في السابق. وفي مثل هذه الحالات، يخترق الطبيب النفسي الوضع النفسي الخفي، ويكشف بسرعة كبيرة أن الأمر غير معني برغبة عشقية لدى المرأة، ولا غياب الأب باعتباره سند العائلة، إنما بالروح الأمومية عند الزوج، والذي بدون مساعدته لا تستطيع المرأة التصرف. وفي ملاحظة هؤلاء النساء، نكتشف دوماً تبعية طفولية قوية للأم التي تحولت نحو الزوج[2].

ومن اللافت أن نتحقق كم أن حاجة المرأة لبديل عن الأم، تزداد في المرحلة التي تعقب الولادة مباشرة. حتى لو نبذت أمها الحقيقية. وعلى سبيل المثال، تسعى النساء اللواتي تشوشت حياتهن العاطفية، لإيجاد شخصيات أمومية في محيطهن، للتعويض، بالاندماج معهم، عن افتقادهن لروح أمومية. وحتى حين لا يحسسن بأطفالهن شيئاً ذا أهمية، يقلّدن تماماً موقف أم محبة، مما يجعل الأشخاص الذين يحيطون بهنّ، يؤمنون بمصداقيّة روحهن الأمومية. لقد أسميت هذا النمط من النساء «كما لو»[3].

وأخريات يقمن بذلك لتحاشي اندماج ملزم مع أمهن «الشريرة»،

(1) أذكر القارىء بأن الكتاب صدر عام 1945 (المترجم)

(2) لقد لوحظت العديد من حالات العصاب التي ارتكز عليها وصفنا في العيادة النفسية لمعهد التحليل النفسي في بوسطن.

(3) Deutsch H.: Some forms of emotionnal disturbances and their relationship to schizophrenia. psychoanalyt. Quart., vol. 9. 1942.

واستبدالها بوجه مثالي وغالباً ما تظهر مثل هذه المرأة رغبة في الصلح مع أمها، وتتخلص هكذا من خوفها العصابي في فقدان الطفل. وأحياناً تظهر هنا الذكرى اللاشعورية، لفترة كانت فيها الأم، وليست الفتاة الصغيرة، «المالك» الفعلي للطفل. ويؤدي ذلك إلى صراع مع الأم بشأن الطفل. أو يتكون انطباع لدى الأم الشابة، أن امرأة أخرى، عموماً تكون الممرضة، تريد أن تسلب ابنها منها. ويصعب حل هذا إلى صراع لأن الأم الشابة، من ناحية، لا تشعر بمستوى مسؤولياتها، ومع ذلك تريد، من ناحية أخرى، أن تميل نحو أمومة مستقلة. وهناك امرأة نفساء عجّلت بتطوير عصاب ذهاني، بفكرة جامحة في أن ممرضتها كانت تريد أن تسلبها طفلها.

وستكشف الملاحظات اللاحقة ما هو تأثير الزواج الحديث المؤسس على الرفاقية، في التأثير على تنمية الروح الأمومية لدى النساء. وعلى خلاف ما كان موجوداً في الأجيال السابقة، حيث كانت تحضر الولادة أم المرأة الشابة، في ما الآن دورها بات غير ضروري، وفي حال سُمح لها بالدخول إلى غرفة الولادة فيكون ذلك من باب اللطف، فلا نحتاجها في ذلك، لأن «الطفل لنا». إنما تحرر الفتاة من أمها، قد يكون مع ذلك متصنعاً وليس فعلياً.

وما يحصل غالباً، أن نساء ناضجات لا يتمكنّ من نذر روحهن الأمومية، إلا للطفل الرضيع في ضعفه. فمشاعرهن تقرب كثيراً من الغريزة الأمومية للحيوانات، والتي لا تقوم بدورها إلا بقدر ما يتبع صغارها لها بصورة مباشرة. وقد لاحظت هذه العلاقة مع الطفل لدى أنماط من النساء أكثر تنوعاً وحتى تعارضاً، كما رأيت نساء عشقيات وأنثويات جداً، وبامتلاكهن حاجة كبيرة للحب، كانت مشاعرهن الحنونة تتأرجح بين العشقية وبين أطفالهن. وهنّ لا يتطلعن للعشق طالما أن الطفل صغير، إنما يصبحن بعد ذلك نافذات الصبر، ويتحوّلن إلى العشقيّة بحاجة أشد. ويأخذ الطفل ظاهرياً دوراً كبيراً لدى هؤلاء النساء كلعبة عشقية (فرويد)، إنما لا يمكن أن يخضعن لهذا السلوك إلا حينما يكون الطفل فتي جداً. مثل هذه

العلاقة مع الطفل ترضيهن وغالباً ما تحميهن أيضاً، ويردن دوماً مولوداً جديداً، ويتبعن بذلك فئة النساء اللواتي يخضعن لإرغام داخلي للأمومة.

ولأجل أسباب مختلفة كلياً، تفضل امرأة ذكورية عدوانية رضيعاً عن طفل أكثر رشداً. وبذلك تتمكن من فرض هيمنة كاملة عليه، دون مواجهة معارضة تذكر. وتعتقد أنها تربّيه في حين أنها، واقعياً، لا تقوم إلا بالسيطرة عليه.

تفضل كثير من النساء الرضيع على الطفل، لأن في العلاقة مع الرضيع، يكون خوفهن من الانفصال هادئاً والشعور بمسؤولياتهن أكثر وثوقاً. فمن الأسهل رعاية رضيع قريب جداً من الذات، وفي مأمن من مخاطر العالم المحيط، من طفل يروح ويجيء على مزاجه.

وتشعر جميع هؤلاء النساء أنفسهن عموماً بحالة جيدة أثناء الحمل، ويحبذن لو تستمر هذه الوحدة مع الطفل الذي هو الآن خارجاً عن ذواتهن.

وهناك نساء على عكس ذلك، اللواتي بطريقة أكثر ذكورية، لا يدرين كيف يتصرّفن مع الرّضيع. وليس لديهن حدساً أنثوياً، ولا يتمكنّ من الشعور بالتوافق التام مع كائن آخر، بل لا يتمكنّ من ترجمة ردود فعل الطفل، وحاجاته اللاعقلانية ظاهرياً، بلغة ذهنية، ويمكثن غريبات عنه. ويبذلن أكبر الجهود، ويقرأن جميع الكتب المتاحة حول العناية بالأطفال، ويحضرن ندوات حول هذا الموضوع، ويساهمن في النقاشات. ومثل هذه الأم تقوم بتحرّج ما تعتبره واجباً عليها، إنما لا تشارك به واقعياً إلا حين يستطيع الطفل ربط تجاربه بطريقة تؤثر في إدراكه. وعموماً مثل هؤلاء النساء يماحكن أجدر من أن يكنّ ذهنيات حقاً. ويلعب الإدراك عندهن دور آلية للدفاع في جميع مظاهر حياتهن، حيث ينتظر هناك عاطفة ما، إنها تظهر مجرّد فكرة. فكثير من النساء الذهنيات لا يقمن في حقيقة الأمر إلا بالهروب من فتر عواطفهن.

ترفض كثير من الأمهات الشابات نظام عناية حديثة متوجبة على الطفل، بل يرفضن أي نظام آخر. وتحترم أخريات القواعد بتدقيق مفرط ومنهجية، بسبب خوفهن وضعف ثقتهن بأنفسهن. والأم الإيجابية المتسيّدة والمرأة الأنثوية الحدسية تجيدان شق طريقهما وسط جميع القواعد. وفي ما تقنع الأولى طبيب الأطفال، تداهنه الثانية وتخدعه قليلاً. ويلقى الطفل الرعاية الجيدة عند كلتيهما، فعند الأولى، لأنها تحبه ولا تطالبه بشيء فوق طاقته، وعند الثانية لأنها تفهم المحبوب وتحسّ به بدقة أكثر.

وهناك دوافع فردية محددة تؤثر عادة على العلاقة الأولى بين الأم والطفل. وتتهيأ هذه العلاقة في جزئها الكبير أثناء الحمل، وتتعلق كثيراً بالقدرة الفردية على الحب، والمنهج الشخصي المستخدم لضبط الخوف. ومثلما يحدث للحمل، تكون علاقة الأم مشروطة منذ البداية بتأثيرات نفسية مختلفة، تعود لنموّها الخاص في مرحلة الطفولة، ولتربيتها، ولمحيطها الثقافي. إن وضع الطفل هو عامل مرتبط بعوامل كثيرة غيرها، إنه حلقة في سلسلة أحداث تؤثر بعضها على البعض الآخر، إنه موضوع ردود فعل عصابية .... إلخ

عرفت أماً صبية زمن الحرب، والتي لم تكن بعد ولادتها مباشرة مخلصة لزوجها الجندي، وعاشت بمساكنة من غير زواج تاركة طفلها في كنف حماتها دون أن تشعر بقلق. ولم يكن يفسر هذا السلوك الخاص إلا بإرفاقه مع دوافع مختلفة. فأثناء حملها، كانت المرأة الشابة سعيدة جداً، وتهيئ نفسها للاهتمام بطفلها بصورة كاملة. كما تريد أن تبرهن لزوجها، أنه كان مخطئاً في اعتبارها طفلة لا يمكن الوثوق بها. وحينما كتب من الجبهة لأمه يطلب منها الاهتمام والاعتناء بالطفل، ثارت زوجته غضباً، ولم يتمكن لأي حب أمومي، أن يحمي الزوج من مشاعرها العنيفة في الثأر. وكان يبدو الأمر معقولاً، وأمكننا افتراض أن هذه المرأة لبت أماني زوجها، وسلمت طفلها لحماتها، وتصرفت بحقد حين خانته. إنما اكتشفنا، شيئاً فشيئاً، أن الأم الشابة، كانت قد بدأت بالخوف من عدوانيتها

الخاصة، وحمت نفسها من نفسها بتسليم الطفل لحماتها. «هل تعلمون أن لديها عشرة أطفال، وواحدهم أقوى من الآخر؟» هذا ما قالته عند مرورها ذات يوم، دون أن تزمع من وراء ذلك تسويغ أفعالها. إنها طبعاً لم تتمكن من حب طفلها إلا ضمن مثلث، وحين ثارت غضباً ضد زوجها، أعطت نفسها هذا التخدير: «ضعي الطفل بين أياد أمينة، ففي مكان آخر قد يحصل له شيء ما».

لقد كانت هذه الأم الفاسدة المتحجرة القلب في الواقع أماً وقائية. ولم أتمكن معرفة الدوافع التي كانت السبب في ماضيها البعيد لردة الفعل هذه.

إننا نرى من وقت لآخر، أمهات تزوجن لدواعي الحرب .(cf.vol. I) ولم تبلغ ردة الفعل المتهورة هذه كامل واقعيتها إلا بولادة طفل، حينما تتحقق المرأة في أعماقها فجاة، أنها لا ترغب بامتلاك رجل، سواء كان زوجاً أو أباً لطفلها. وربما أكثر ما يعجبها في الأمر، قد يكون في محو كل هذه المغامرة، رغم وطنيتها، إنما هناك نوع من «جسد جنحة» حي يمنع هذا الحل. والطفل مشمول في طور الإنكار والتنصل، والمرأة التي يمكن أن تكون حنونة وأمومية بالتأكيد، تشتكي من عدم الإحساس بأي حب أمومي تجاهه. إنها تتصرف كالأمهات اللواتي لا يدعن روحهن الأمومية تتفتح بحرية، لأنهن يعلمن بأن عليهن الانفصال عن ابنائهن. وعدم اليقين العاطفي بخصوص المستقبل الواقعي، حيث الطفل يكون حلقة في سلسلة من الأحداث، قد يقتل الحب الأمومي في البويضة، ويحرم، بصورة حتمية، كل علاقة عاطفية مع الطفل. ومما يميز إلى أقصى حد، أن ثمة رفض وطرد عاطفيين يصدران منذ البداية في أعقاب الولادة، قبل أن يمتلك الحب الأمومي فرصته في النمو. ويبدو، في مثل هذه الحالات، أن امبرطورية «الغريزة» تكون ضعيفة جداً لدى الأنثى البشرية، في ما دفاعها النرجسي قوي جداً، من أجل أن تدع الساحة للحب الأمومي حرة.

وتبالغ كثير من الأمهات الشابات في نذر أنفسهن للطفل، ويهملن في

سبيله جميع الاهتمامات الأخرى وحتى شخصيتهن الذاتية، وهن مستعدات للتخلي عن كل ما كن يتذوقنه في السابق. ويمكن لهذا النذر، منذ البداية، أن يكون تعويضاً زائداً، والذي يهيئ عموماً بعد ذلك، لموقف سلبي تجاه الطفل، أو لا ينبعث بصورة ثانوية على هيئة ردة فعل لمشاعر عدائية ضده.

وقد عرفت حالات استخدمت فيها الأم أثناء الحمل الطفل، لتمتّن وتقوي أناها أو زواجها المبني على أسس غير كافية. وتتعلق الروح الأمومية لامرأة كهذه، بحكم أن وجود الطفل يسمح لهن ببلوغ هذا الهدف أو لا.

وليس بعدد قليل من النساء، اللواتي يرتحن على أسرّة الولادة، ويتحررن من آلامهن وأعبائهن الجسدية، إنما ليس من الخوف، وإحساسيهن أثناء الحمل تقول «حسبي أن يكون مشوه الخلقة» أو «أخشى ألا تُكتب له الحياة». وقالت لي ذات يوم إحدى الأمهات، أنها كانت تبقى الليلة الأولى كلها بعد ولادتها، في وضعية نصف جالسة، بسبب الأرق والتمكن من النظر للطفل بلا توقف. (وفي مشفى حديث، لا يُسمح بهذا التصرف) فهي تشعر نفسها مرغمة باستمرار، على طمأنة نفسها عن واقع الطفل وعن سعادتها بامتلاكه. كما ذكرت لي أيضاً أن تلك الساعات تعد الأجمل في حياتها... وأنا صدقتها. وأعتقد أيضاً أن في الماضي كثير من النساء أدركن ذلك بتجربة شخصية، وآمل أنه سيكون منهم الكثير أيضاً في المستقبل.

وفي المشافي الحديثة، تكون آذان الأم صاغية بقلق للضجيج الخارجي، وتسعى للتعرف على الصوت الصغير لطفلها الرضيع من بين الآخرين، وهي تهمس لزوارها، بأنها نجحت في إفساد الممرضة بالتملق أو بحيلة أخرى، بحيث استطاعت وضع طفلها بقربها لبضع دقائق أكثر مما هو مسموح به. وهي تسأل: «أليس لذيذاً؟». هذا الموقف هو محيّر حقاً، ونتساءل ما إذا كانت العيادة وعلم النفس على نزاع هنا. إنما طالما نعلم أن التقدم على جميع الصّعد مرتبط بميول رجعية، فلنعز أنفسنا بالأمل، بأن العلم سيعثر على تلك الفكرة القديمة، التي لا تريد تفكيك وحدة الأم

بطفلها إلا رويداً رويداً. وما كان جلياً وواضحاً في ما مضى قد يُكتشف ثانية الآن بالعلم التجريبي[1]. فـ «الأم المتحجرة القلب» ذلك التعبير الدارج جداً في هذه الأيام، سيتخذ معنىً مختلفاً تماماً، لأنه في معظم الحالات، الأم المتحجرة القلب هي أولاً أم محرومة.

وفي حين أن الأمومة تمتد، بصورة مستمرة، من الحمل إلى العلاقة مع الطفل الفعلي، مروراً بجميع مراحل وظيفة التكاثر، تعني الروح الأمومية، العلاقة العاطفية مع الطفل، وتتخذ أشكالاً مختلفة وفقاً لفردية الأم ومرحلة نمو الطفل. وعلينا هكذا أن نميز بوضوح بين علاقة الأم بطفلها الرضيع العاجز بصورة تامة، وبين علاقتها مع ابنها الأكبر. فالعلاقة مع الرضيع تختلف في أعقاب النفاس عنها عندما تنهض الأم، كما تختلف في ما بعد ردود فعل الأم وفقاً للإرضاع الطبيعي أو الاصطناعي...إلخ

علينا أن ننظر إلى مرحلة عقابيل الولادة كمرحلة وسيطة بين الحمل والحياة الطبيعية، حيث يكون قد تم التغلب على صدمة الانفصال بالعلاقة الأمومية المبتدئة مع الطفل. ومع ذلك، يبدو أن الرغبة في الاتحاد تكون في صراع منذ البداية مع الحاجة للتحرر. وينطبق الخوف الذي يظهر تارة مع الانفصال عن الطفل وتارة مع فقدان الأنا، وتارة يهدد الطفل بالحياة، وتارة الأم بالطفل. ويظهر بلا ريب التفاعل بين حب الذات ورعاية الطفل، خلال الأيام السعيدة إنما الملأى بالقلق النفسي لعقابيل النفاس.

ويتعلق جزء من مصير الإرضاع بهذا التفاعل. وتتركز كل مشكلة هذه المرحلة الأولى من حياة المولود الجديد بهذه المسالة الحياتية. وهكذا نفسية مرحلة عقابيل النفاس مرتبطة منذ البداية بمشكلة الإرضاع.

وقد كرس علم التحليل النفسي وقتاً لا يستهان به، لدراسة مرحلة

---

(1) Cf. Ribble M. A. : The rights of infants. New-York : Columbia Univ., 1943
نلاحظ ميلا قوياً في السابق في هذا الاتجاه

الإرضاع عند الأفراد الطبيعيين والمرضى، وقد أظهرت بوضوح مادة سريرية غنية، أهمية صدمة الفطام وعلاقتها بحالات العصاب والذهان.

ونحن أكثر ما نكون مدينون، لأبراهام[1] على اكتشافاته المهمة في المرحلة التي تسمى «فموية» من النمو الغريزي. ويلاحظ أطباء الأطفال المثقفون بعلم النفس، الأطوار المحسوسة، بصورة مباشرة، وهذه الأهمية الموضوعة على الطفل تزيد الأهمية الموضوعة على المرضعة.

ومنذ عام 1892، كان يعلم فرويد تماماً، تأثير القوى العاطفية على الطور الفيزيولوجي للإدرار[2]. وفي تلك الحقبة، كان لا يزال يستخدم التنويم المغناطيسي كطريقة للعلاج. وتمكن وقتئذ من دراسة امرأة شابة كانت تعاني، بعد أول ولادة لها، من أعراض مختلفة تظهر أنها هستيرية، والتي أجبرتها على إيقاف إرضاع ابنها. لقد فقدت، في أول الأمر، الشهية، وأحست بآلام في ثدييها، ثم توقف ادرار الحليب تماماً. «حين عادت هذه الموانع للظهور حديثاً، بعد ولادة ثانية، تمت إزالتها بجلستين من التنويم المغناطيسي العميق المترافق بالإيحاءات المضادة، بحيث أصبحت الولادة النفساء مرضعة ممتازة» وهكذا، آمنت للمرة الأولى، أن التجربة بينت إمكانية خضوع الإرضاع لتأثيرات نفسية.

وحظيت منذ عدة سنوات، بفرصة ملاحظة اضطراب بالإدرار مثير للفضول. إذ أن أماً شابة عصابية هاجسية، كانت قد حولت تناقضها الوجداني العاطفي على المولود الجديد، وقد أُرغمت على التخلي عن الإرضاع بعد بضعة أسابيع، مع أنها رغبت في تغذية طفلها ومع أن ثدييها ممتلئان بالحليب. وبين فترات الرضاعة، كان حليبها يفيض خارجاً، لدرجة أنها عندما تريد إرضاع الطفل تجد الثديين خاليين من الحليب. والطرق التي

(1) Abraham K. : Selected papers. London : Hogarth, 1929.

(2) Freud S. : Ein Fall von hypnotischer Heilung. Ztschr. F.Hypnot., Suggestions-therap., Suggestionsl. , vol.I ,1892.

لجأت إليها المرأة الشابة للتخفيف من هذه الحالة البائسة، أمور تأخذنا للتفكير برجل، أدرك القذف المبكر، وراح يسرّع الفعل الجنسي لكنه يجد نفسه دوماً مهزوماً باندفاعه نفسه. لقد كانت تحاول تقديم موعد الرضاعات، لكن النتيجة كانت دوماً نفسها: بعد فوات الأوان.

وهناك مرضعة بولونية كانت حياتها النفسية أقل تعقيداً من تلك المرأة السابقة، وكانت أيضاً مثالاً واضحاً لهذا الارتباط الجسدي الروحي. وبالنسبة لهذه الفتاة الأميّة الفقيرة، تكمن أحد أكبر مزاياها، في أن عليها شرب ليتر من البيرة (الجعة) في اليوم، لتنشط إفراز حليبها. إن التأثير الملائم للجعة على نشاط الغدد، والذي كان يُنظر له في ما مضى كفعل غير قابل للشك، منحها تعويض متعة كانت تقوم بها معروفاً وإلزاماً لمستخدمِها. وذات يوم، بناء على توصية الطبيب، حاول هؤلاء إعطاءها كمية أقل من الجعة، فتوقف إدرار الحليب فوراً. واستُؤنف الإدرار عندما أعيدت الحصة الكاملة من الجعة إلى ما كانت عليه. وأتذكر أيضاً، أن المحيط كان متأثراً جداً عندئذ بالأعجوبة الفاضلة للجعة وبالاحتجاج المتمرد للمرضعة.

وكان لامرأة شابة مثقفة نفس ردة الفعل تقريباً على زيارات أمها التي كانت امرأة أمومية، وتنتظر من ابنتها النهوض بواجباتها كأم، أي أن ترضع طفلها. ويأخذ المرأة الشابة خوف كمقيمة في نزل ليلة امتحانها؛ وكان إدرار الحليب يتوقف لدى كل ظهور لأمها.

ويخضع أمر النشاط الإفرازي للغدد الثديية لتأثيرات نفسية، يُقبل هذا الآن حتى من الأذهان المؤهلة حديثاً، كما يعرف كل هؤلاء الذين يدرسون تغذية الوليد الجديد، كثيراً من الحالات الواضحة كالتي أتينا على ذكرها. لكن أعمالاً جديدة ضرورية للبرهان على أن الحليب الذي يصنعه جسد المرأة يجد في حياتها العاطفية مورده الطبيعي الثاني. إنني مقتنعة شخصياً بأن القسط الأكبر من صعوبات الإرضاع ذات منشأ نفسي. وقد قال ميدلمور قولاً سديداً بأن أطوار الطفل والأم يتناسقان بوحدة، بحيث «يستحيل على

أحد شريكي الإرضاع أن يعاني من صعوبة ما، دون أن يشمل معها الآخر»[1] وأعتقد، أثناء مرحلة الإرضاع، بأن الحبل السري النفسي يربط ثدي الأم بفم الطفل، وأنه يجتاز ساح معارك الميول الأنانية والقوى الإيثارية للأمومة. وتجعل الإرضاع، نتيجة الصراع، نجاحاً أو فشلاً.

وربما يبدو بين الأقوام البدائية، أن الميل البيولوجي للإرضاع و«الغريزة الأمومية» المشتركة معه يتأكدان بصورة كاملة، لدرجة أنه لا يدخل أي صراع بينهما. ووفقاً لغالبية المتخصصين في علم الإنسان، يعد الإرضاع الأمومي عرفاً عاماً لا جدل فيه بين الشعوب البدائية والشعوب نصف المتحضرة، وفي أي مكان تتملص فيه الأم من هذا الواجب، نكون على صلة بأقوام متحضرة تماماً. ومع ذلك علينا أن نذكر، وفقاً لأبحاث حديثة العهد، أن هذه النظرية ليس لها قيمة شمولية. (الثقافة المركيزية. cf).

يقودنا اختبار أكثر تعمقاً لمكتشفات لأخصائيي علم الإنسان، إلى التفكير بأنه حتى بين البدائيين، تسببت التأثيرات النفسية بصعوبات في الإرضاع. فقد استُخدم غالباً السحر والدين بنجاح لضمان وفرة إدرار الحليب. وفي كثير من الصيغ الغامضة والطقوس السحرية التي ربطناها بالأمر، نتعرف على رسائل الدفاع المستخدمة من قبل البدائيين، وقد رأيناها في ذلك، ضد مخاوف الحمل، فحليب الأم قد ينضب لأن الأم «شريرة» (أو طفلها) أنهك الثدي، أو لأن امرأة غيورة حصلت على مواد سحرية أفسدت الحليب...إلخ. ولدى كثير من قبائل أفريقيا الشرقية، تفقد المرأة التي لا تتمكن من إرضاع ابنها، حب رجلها، الذي يتوجه نحو امرأة أخرى يزخر ثدياها بالحليب. فمتوحشة من شرقي أفريقيا، قد يكون خوفها من فقدان الرجل، حالة غير ملائمة لإفراز الحليب. وتخشى امرأة متحضرة من خسارة رشاقتها وجاذبيتها الجنسية، فتكبت وظيفة الأمومة بصورة

---

(1) Middlemor M. P. : The nursing couple.Londres : Hamish Hamilton Med. Bks., 1941, p .6.

لاشعورية، في ما ترغب قبولها شعورياً. وتتوصل المرأة المتوحشة والمتحضرة لنتائج متماثلة، رغم الفوارق الموجودة بين غاياتهما وثقافتيهما.

ومن وقت لآخر، تصمم الموضة وتقر بألا ترضع المرأة، بطريقة تعرّض جمالها وحريتها ورفاهيتها[1]... إلخ لأي خسارة. وهذا يحررها من صراع، لكنه في الوقت نفسه يحرمها مصدراً من مصادر اللذة.

ويسعى مجتمعنا الحديث على مساعدة المرأة في إيجاد حل وسط. فمع توصية المرأة بتغذية طفلها، هناك ملاءمة لحل وسط يسمح للأم، إلى حد كبير، بحماية اهتمامات أناها، وفي الوقت نفسه، يحترم العلاقة البيولوجية بينها وبين الطفل. وقد حضرنا في هذه الآونة جدال ثقافي مثير للاهتمام في هذا المجال. وفي مناسبات متزايدة باستمرار، يُعرض على المرأة تنمية أناها خارج إطار الوظيفة التناسلية، مع إعلاء شأن إيديولوجية الأمومة الفاعلة. وبالنتيجة، لا تتمكن الطاقات النفسية للمرأة، لا أن تتركز بالكامل على اهتمامات شخصيتها الخاصة، ولا الارتماء بحرية نحو الكائن المتعلق بها. وبهذا يؤجج المجتمع الصراع الداخلي التالي: يُطلب من المرأة قبول التخلي الجزئي تارة عن اتجاه وتارة عن آخر. كما أصبحت قواعد الإرضاع الاصطناعي، ونصيحة ترك الطفل في عزلة سريرية، والتغاضي عن العجز التام أو الجزئي في الإرضاع، أموراً في صالح الأنا الإفرادية. إنما موضوعياً، تعتبر الأم ضرورة عاطفية حياتية للطفل، والدراية التي تلم بها حول هذا الأمر تحدد موقع الطفل بين الأم وبين باقي العالم، كنوع من ستار يقف حائلاً في وجه الاهتمامات الأخرى العاطفية والذهنية للمرأة. زيادة على ذلك، وخروجاً عن أي تأثير ثقافي، هناك رغبة عميقة تظهرها الأم، لعلاقة حميمية أكثر مع طفلها، وقلقها المبرر بما يخص النمو العاطفي للطفل، وشعورها بالذنب حيال إهمالها الخاص، ... وبالإجمال روحها الأمومية. وتكون هذه القوى في جانب الوظيفة التناسلية في صراعها مع الأنا.

---

(1) Malinowski A. : op. cit.

وأكد فيرينزي[1] بحق أن الرضيع «لا يمكن أن يكون محتجزاً على انحدار يرده إلى اللاكينونة إلا بإسهام ضخم من الحنان والحب... وإذا نقص الحب والرعاية، فستحدث الاندفاعات الهدامة المدمرة بسرعة». ويبدو أن ملاحظات حديثة تؤكد علانية، وجهات النظر هذه، التي عُبر عنها منذ عدة سنوات. ويتزايد الاعتقاد بأن قسطاً كبيراً من العدوانية الفموية للطفل، ونفوره من المص (الذي هو مثار نقاش اليوم)، وإغفاءاته المتواصلة على الثدي واضطرابه في الأوقات المتوجب عليه النوم فيها، تعبر كلها عن انزلاق ساخط «نحو اللاكينونة» بموجب أنه لن يتلقى كفايته من «إسهام الحب».

قد يتبسط الصراع الذي ندرسه هنا في ما لو قسمناه إلى مركبيه الاثنين وإذا أوضحناه بالأمثلة.

ففي رواية سيفولينا «فيرينيا»، وُصفت القوى الأولية للأم المرضعة باختصار إنما بتألق. ويقع الحدث خلال الثورة الروسية. فيرينيا التي كانت عاهرة، تنتظر طفلاً. إنما عليها النهوض بمهام اجتماعية هامة، إنها قائدة ثورية ورفاقها بحاجة لها. وتعود إلى بيتها وسط آلام الولادة، ولا تشتكي، إنما تكتفي بكزّ أسنانها.

«أريد لولدي أن يأتي إلى العالم بفرح. لقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً... ولن أصرخ، أرغب أن تكون ولادة سهلة»

ولم تطلق إلا صرخة عنيفة مدوية واحدة فقط. ولا تبدو هذه صرخة ألم، بل فرح. ثم اخترق جسدها بعد ذلك إحساس رشيق وعذب، بصورة لا توصف، وسمعت الصوت القوي الرائع للمولود الجديد. «أروني إياه! إنه ولد؟».

---

(1) Ferenczi S. : Das Unwillkommcne Kind und sein Todestrieb. Internat. Ztschr. f. Psychoanal., vol. 13 , 1929

قرعت الثورة على نافذتها، وتوجب على فيرينيا مغادرة طفلها لمساعدة والدها ورفاقها الآخرين. القوزاق يجتاحون المنزل إنما لا يجدون إلا القابلة والطفل ويبحثون عبثاً عن فيرينيا. حينئذ، يقول العجوز الماكر آنيت: «دعوا هنا الطفل والقابلة. عندئذ ستعود الأم من ذاتها. فالحليب الذي في ثدييها سيرجعها إلى طفلها».

وبالفعل :

ظهر طيف امرأة من بستان للخضار... وكانت فيرينيا تقترب بخطى رشيقة وحيوية من حيوان مفترس. وكذئبة، دبّت على طفلها. لقد كانت كأنها تشتم الأثر مشرئبة العنق، كما لو أنها منجذبة برائحتها الخاصة، رائحة الدم الخارج من شرايينها، لتغذي صغيرها وتنقذه.

فيرينيا التي كانت عاهرة في ما مضى، تحب. إنها تحب الثورة لأنها تحب الإنسانية المعذبة وتريد مساعدتها. وتحب زوجها لأنه منحها فرصة في التعبير عن نفسها، وتحب طفلها بقوة غريزية، بدائية، «كذئبة». وهي تموت كأم، تحتضن طفلها بنكران الذات، متحررة من كل خوف من الموت، لأنها قهرت هذا الخوف بفضل قوة رعايتها لابنها.

ويبدو هنا أيضاً أننا نقع في تناقض. لقد تحدثت سابقاً عن صراع بين ميول الأنا الفردية للأم وبين روحها الأمومية. ولو لم تكن فيرينيا إلا أماً بدائية تسيطر عليها القوى الغريزية، لشهدت بأن مثل هذه الأمومة تفترض تركيزاً غير مشروط، لجميع الاهتمامات الحياتية، على الطفل. ولم يكن شيئاً من ذلك. نعلم أن فيرينيا تحب أشياء أخرى أيضاً، ولم تلتحق بالثورة بطريقة عاطفية محضة، إنما كانت تعلم أيضاً غاياتها ومناهجها. فيرينيا امرأة ذكية ومتفهمة. لكن لأنها جديرة بالحب ومتحررة من الخوف، فهي متحررة من الصراع بين أناها وروحها الأمومية. وساقنا ذلك إلى مركز مشكلتنا.

لم يكن للنساء اللواتي كنا على صلة بهن سابقاً القوة الكافية، كما لم يكن متحررات، على نحو كاف، من المخاوف لكي يحتملنها دون صعوبة

الإزاحة عن مركز جهودهن. أو بتعبير آخر، غاياتهن الاجتماعية وجهودهن الفردية بعيدة كل البعد عن المصادر التي تعطي قوتها للروح الأمومية. ولو لم يكن الأمر كذلك، لترافقت، التغيرات الثقافية والتكيفات الجديدة، أيضاً مع توازن من نوع أفضل، كما كان الأمر عند فيرينيا التي فضلاً عن أن ثدييها ممتلئان بالحليب وقلبها ينبض بالحب الأمومي، تموت من أجل الثورة، ضحية لحماسها من أجل قضية اجتماعية ومن أجل حبها لزوجها. فقد منعها القوزاق للحظة ما من أن تكون أماً فقط، في ما هي نفسها كانت مستعدة لذلك كذئبة بتحررها من الصراع.

ولنعد الآن إلى ملاحظاتنا المتعلقة بالإرضاع. فالمختص بالتحليل النفسي لا يتمكن، بسبب وضعه، من ملاحظة ثنائي الأم والطفل خلال الإرضاع نفسه، فيعوض هذا الغبن، بدراسته التفصيلية والموضوعية للمضمون النفسي ذي العلاقة بطور الإرضاع. ومن المستحسن أيضاً، ربط ملاحظاته بأحداث أكثر أهمية، تكون على صلة بهذه المسألة. وهكذا يدرك باستمرار أن المظاهر النفسية للإدرار تساهم بسلوك أكثر عمومية ضمن إطار كلي للأمومة. وتكون غاية ملاحظتنا في إدراج الظاهرة الخاصة في الطور العام.

فالنساء اللواتي يكرسن أنفسهن فعلياً لإرضاع أطفالهن، واللواتي لا ينظرن إلى هذه الوظيفة كواجب ثانوي، يؤكدن أنهن يشعرن بسعادة خاصة أثناء مرحلة الإرضاع. ووفقاً لأقوالهن، لرضاهن طابع مباشر وبدائي. والأمر المثير للإهتمام، استخدام جميع هؤلاء النساء تقريباً نفس التعابير لوصف هذه الحالة: «كنت أشعر نفسي كبقرة مرفهة، مغذاة تغذية جيدة»

وخلال هذه المرحلة، لا تهتم هؤلاء النساء في أعماقهن بصورة استبطانية بذواتهن، وسرورهن هو تماماً وظيفة لرفاهية أطفالهن. وبإمكانهن وفي الوقت نفسه متابعة ما كان يثير اهتمامهن إلى حد بعيد، إنما يعترفن بصدق، أنهن لا يكرسن له، لا الوقت نفسه ولا الطاقة نفسها كما كان الحال سابقاً. («ليبيدو» هي العبارة المناسبة واقعياً هنا). بل عليهن عادة

إجبار أنفسهن على متابعة أنشطتهن القديمة بصورة أوتوماتيكية. بإمكاننا تفهم هؤلاء النساء، حيث تسري طاقاتهن النفسية نحو الطفل والحليب في آن واحد، لذلك يشبهن أنفسهن بالبقر. ويؤكدن كذلك أنهن خلال الإدرار، يراعين وظيفة التناسل بصورة نفسية أكثر من مراعاتهن لها خلال مرحلة الحمل. وهذا أيضاً ممكن فهمه. فأثناء الحمل، ينشغلن بأمر أشبه بالخيال، أما الآن، فالأمر معني بحب واقعي. وكن يشعرن بأنفسهن منجذبات نحو الانطواء، في ما الآن، ما يجذبهن هو فعل واقعي لتضحية متفانية للذات.

يتوافق لدى هؤلاء النساء، العطاء الفيزيولوجي مع العطاء النفسي. ويتلاءم سلوكهن العام مع طابع إرضاعهن، أو أنهن أنثويات سلبيات عشقياً، في ما سخاؤهن يكون في روحهن الأمومية، أو أن العطاء والأخذ في مجمل سلوكهن، يكون بطريقة لا تخلو من سيطرة أمومية إيجابية نشيطة (vol.I). وبالنسبة لهذين النمطين من النساء، يكون عادة انتظار الحمل انتظاراً إيجابياً، والإرضاع مصدراً للفرح.

وبطريقة متباينة، تكون المرأة الذكورية العدوانية، والتي قابلناها سابقاً مع المرأة الأنثوية، مرضعة ممتازة، ولا تبدأ صراعاتها مع أولادها إلا في عمر استقلالهم. فالإرضاع هو إنجاز تفتخر به، ومسألة تبعية أولادها لها، تمنحها نوعاً من الإشباع الذي ترغب به. وأثناء المرحلة التي تخدم فيها عملية التكاثر بنشاط، تكون مدفوعة للتخلي «بصورة مؤقتة» عن كثير من إشباعاتها الأخرى. لقد عرفت العديد من النساء، اللواتي استمتعن بالتخلي عن عملهن العلمي بغية الإنجاب. وفي ما بعد، بعد أن يكبر أولادهن، يصبحن أمهات نافذات الصبر ومتشددات المطالب، ومسألة أن أولادهن ينعمون بصحة نفسية سليمة ظاهرياً ربما تبرهن عن أن المرحلة الأولى هي الأكثر أهمية.

وبالنسبة لنمط آخر من المرأة، شعورها بأنها بقرة، هو غاية لأمانها الداخلي. ولا يقوى أناها، بصورة كافية، على تحمل، دون خوف أو توتر، تغيّر اهتماماتها، وتعليق الضبط العادي لأطوارها العاطفية. إنها تحس في

الوظيفة البيولوجية، ومتطلبات الطفل، والحاجة لتكيف جديد، كأخطار محدقة، وتستعين بتدابير للدفاع. والآليات التي توضع قيد العمل في وظيفة العطاء، تظهر كذلك في ميل للاحتجاز، وتطرأ هنا مصاعب في الإرضاع. وذلك يؤدي إلى صراع بين الحب الأمومي والواجبات الأمومية من ناحية، وبين مساعي التملص منها من ناحية أخرى. ويرفض الحب الأمومي التخلي عن الوحدة مع الطفل، ويذكر الشعور بالذنب المرأة بحاجات الطفل، وهي تبذل جهوداً تعويضية فائقة، لتستمر في إرضاعه، لكنها بشكل عام، عبثية وعديمة الجدوى. وتنتج حلقة مفرغة بالنسبة للإثنين، فيتأثر الطفل بصعوبات في الإرضاع لمحاولات الأم التملص، وبناء عليه، تتأثر الأم بتفاقم كبتها في الإرضاع. بالإضافة إلى ذلك، تُدفع الأم التي لا تتمكن من الاستمرار في إرضاع طفلها بسبب «نقص حليبها»، إلى حجب مظاهر أخرى من الحب الأمومي عنه. ويُعد عجزها عن الإرضاع، صدمة بالنسبة لها، وتنصرف عن أي علاقة لها مع الطفل. ويحصل هذا أحياناً عندما تكون المرأة عاجزة عن الإرضاع لأسباب فيزيولوجية أو مدعية بذلك. فتحرم من انتظارها لفرحة الإرضاع، وتنتقم من الطفل ومن نفسها، وتدع تغذيته لأشخاص آخرين، وتحد من عنايتها به، مقتصرة في ذلك على الحد الأدنى.

وإن أحست الأم بخطر على أناها، فقد يجعلها ذلك تنظر لطفلها كعدو، ولحاجاته الفموية كاعتداء. ويمكن لحساسية الأنا بالخطر أن تظهر كخوف، حيث يتم إحساس مص الطفل على أنه أكل، وكذلك الفكرة الطفولية الساذجة بأن الطفل يفترس الأم. وإذا أصبح هذا الشعور مدركاً، تشتكي الأم من أن الطفل يرتمي عليها كحيوان، أو أن يكون لديها إحساس بخسارة جسدية ما، يجب أن تعوضها بطريقة ما. وكان لحالة أم درستها، عادة خاصة في أكل شيء مالح قبل كل إرضاع، لتعوض ما سوف يأخذه طفلها منها عندما يشرب كثيراً. وأخرى تشعر نفسها مرغمة على الأكل أثناء الرضاعة بصورة يمكننا وصفها بأنها لا تأكل. وفرضيتي حول خوف النساء

المركيزيات من أن يفترسهن أطفالهن الرضّع، تقوم في جزء منها، على ما لاحظته لدى هذا النمط من المرأة.

لقد قورنت فيرينيا بذئبة. وإني مقتنعة بأنها تحوّل إلى بقرة مغدقة وطافحة، في ما لو استطاعت إمساك طفلها بين ذراعيها بأمان.

وإن ملأ خوف حيوانة صغيرة مفترسة، الحياة العاطفية لامرأة، وإن ترافق هذا الخوف بردة فعل عدوانية، أو كان الطفل على الفور أداة رفض عدواني أجدر من حب حنون، فدورها بصفتها حيوانة خطرة أعمق. تُسقط عدوانية الأم على الطفل، وتوتر الأم القلق، قد ترسله كمؤشرات لاشعورية، تثير به نوعاً من المنعكس. ويعبر ذلك عن نفسه، برفض بسيط لأخذه بالحضن، أو بعضة مؤلمة للأم إن كانت الميول العدوانية للطفل أسرع.

وغالباً ما يبين التحليل النفسي للنساء اللواتي عانين من مصاعب في الإرضاع، أنهن بشعورهن داخلياً بعدوانيتهن الخاصة، يشعرن أنفسهن مشابهات لحيوانات أثناء الإرضاع. ويعد فشل وظيفة الإرضاع محاولة للتملص، وليس لحماية شخصهن، إنما لحماية الطفل من خطر اعتداءاتهن.

تسوقني هذه الملاحظة لدراسة أصل عدد من الأساطير. فجميع الترجمات الموجودة للأساطير تفترض أنها نتاجات خيال ذكوري، في ما يهمل العلم ذو الميول الذكورية أمر أن النساء عُرفن دوماً باعتبارهن آلهة، أو بصّارات، أو قصاصات...إلخ وربما تجد كثير من الأساطير أصلهن في بعض التحريضات الأنثوية، ويمكن لمحتواهن أن يعلمنا عن هذه التحريضات، إن درسناها بإمعان.

فترجمة جُعلت بمعنى أنثوي، تثير المسألة التالية: إذا كان صحيحاً من وجهة نظر أسطورية، محاولة المقاربة بين الأحلام والأساطير[1]، ألن

(1) Abbraham K. : Traum und Mythus. Leipzig,1909

نتمكن من استخدام أحلام ومخاوف المرأة، حيث يعبّر عن صراع الإرضاع، لتفسير بعض الأساطير التي تشبه، بطريقة لافتة، هذه الأحلام والمخاوف؟ وفي هذه الحالة، ألا نتمكن من المخاطرة بأنفسنا للإدعاء بأن رومولوس وريموس، في الأسطورة، عُرِّضا للخطر على هضبة لأن خوف وإنهاك أمهما، حولها إلى ذئبة شريرة؟[1] وربما هي نفسها التي ظهرت ثانية بعد ذلك كذئبة طيبة منقذة، لتمنح طفليها الثديين اللذين حجبتهما عنهما في السابق. وغالباً ما تظهر الذئبة كأم حيوانية في حكايا الجن والأحلام. وربما يمكننا القول أيضاً، أن أم موسى عرّضت طفلها للخطر، من أجل حمايته، ليس فقط من أب جائر، إنما أيضاً من أخطار أخرى ممكنة والتي كان يأتي التهديد بها مباشرة، من أمه تحت هيمنة صراعاتها في الإرضاع. لأنها هي أيضاً، ستظهر ثانية، مثل ذئبة أسطورة تأسيس روما، لكي تمنح حليبها لإبنها الذي كانت قد عرّضته للخطر في السابق.

ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطاً من البردي. وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به.

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أَمَتَها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أمّ

---

(1) في تحليلنا لجميع هذه الأقاصيص حيث عُرض الطفل، يرى فيها رانك وفرويد وسيلة لانقاذ الطفل من إبادة أبيه. وقد حُذّر الأب بطريقة ما بأن ابنه مولوده الجديد لن يكون في مأمن منه. والعلاقة واضحة بين هذه الأساطير وعقدة أوديب.

Cf. Rank O. : Myth of the birth of the hero. Nerv.& Ment. Dis Monog., 18 New - York : Nerv.& Ment. Dis. Pub. Co, 1914; Freud S.: Moses and monothcism. New-York : Knopf, 1939

الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. (التوراة ـ سفر الخروج ـ الاصحاح الثاني: 3 ـ 9)

تتأرجح العدوانية اللاشعورية للأم التي ترضع، بين خوفها من أن تُفترس، وبين تحريضها لإبادة ابنها بطريق فموي. ومصادر الخوف والدوافع التي يثيرها رفضها العدواني للطفل تختلف وفقاً للحالات، إنها عادة محددة تحديداً فائقاً. ويكمن المستوى الثاني المتعلق بقابلية المرأة للانشطار، بين القطبين: «أنا» و«خدمة التناسل». ويتحدد هذا الانشطار بالواقع ويتعزز بالجو الثقافي. فالأنا الضعيف، لا يمكن أن يدافع عن نفسه في مواجهة الخطر إلا بتخليه عن خدمة التناسل.

وإذا ترافق هذا الانشطار، بانشطار آخر يتعلق بمشاعر الأم متناقضة الوجدان تجاه الطفل، فالصراع يتكثف، والخوف المحسوس شعورياً، والعدوانية، وآليات الدفاع تتخذ طابع عصاب أو ذهان.

نتفاجأ أحياناً لدى سماع أم لطيفة شابة ترغب في إنجاب طفل، وتفكر بحبه، ثم تصرح أنها لا تستطيع أن تمنع عن نفسها شعور القرف عندما ترضعه: «إنه حيواني جداً، وكريه ونجس، عندما يرقد هكذا على صدري العاري».

ويمثل ذلك بصورة محتملة تحديداً فائقاً للطور، ويبدو أن مركباً معيناً من الاشمئزاز يظهر في كثير من الحالات، بقدر ما يترافق الإرضاع بإثارة عصبية مستمرة مبعثرة الأطوار الفيزيولوجية. ونحن نعلم أن حافز المص يتحول نحو الجهاز التناسلي بطريقة منعكسة، محققاً بهذا وظيفة بيولوجية هامة وكبيرة، إذ يثير انقباضاً للعضلات الرحمية، بحيث يصغر حجم الرحم، وبحيث يتوقف نزف ما بعد الولادة، وبحيث يأخذ طور الشفاء بالإسراع. وينطوي هذا المظهر الثانوي والملائم للإرضاع على بعض المخاطر. وغالباً ما يكون انقباض الرحم مؤلماً، وقد يضطرب فرح

الإرضاع بهذه الأحاسيس المؤلمة. فضلاً عن أن السياق الجسدي المنعكس من الثديين إلى الجهاز التناسلي يترافق بإثارة جنسية. وحتى خارجاً عن الإرضاع، تلعب الحلمتان دوراً كبير الشأن كمنطقة للإثارة الجنسية، وهكذا قد تتحرض الأحاسيس الجنسية أثناء الرضاعة. وقد يشوش إحساس الإثارة في المنطقة التناسلية بهجة الإرضاع. إذ بالنسبة للأم المرضعة، كل شيء يُنسب للتشوش بين الأحاسيس الجنسية الشعورية وبين فعل الإرضاع الوادع والمحبب. وما إن تظهر مثل هذه الأحاسيس، حتى يظهر الرد أيضاً، وتظهر معه ردود فعل الاشمئزاز والنفور تجاه الطفل. كما أن رد ورفض المركب الجنسي قد يشمل وظيفة الإرضاع، وتصبح هذه أيضاً مستنكرة. وينجم عن ذلك حينئذ، عجز في الإرضاع والذي غالباً ما يقاوم كل التأثيرات. ولا تجفل النساء المفعمات بالحب الأمومي أمام هذه الأحاسيس، إنهن يدمجنها في مجمل التجربة، الإيجابية، شعورياً أو لاشعورياً.

وعند بعض الشعوب البدائية، عندما تموت امرأة مرضعة، يوضع ابنها الحي في حضنها ويُحرق معها، زعماً أن بإمكانه الاستمرار في مص حليبه في العالم الآخر. وعند شعوب أخرى، يُعدم الطفل في حال موت الأم أثناء الوضع أو الإرضاع. وتنحدر هذه الأساليب جزئياً من الاعتقاد بأن الطفل المحروم من حليب ورعاية أمه هالكاً لا محالة بصورة يائسة. إنها تعبر أيضاً عن الاعتقاد بأن طفلاً كهذا سيصبح عندما يكبر فرداً خطراً ورهيباً. ويرتكز هذا المعتقد أحياناً على فكرة أن مصيبة الأم المتوفية تتحول على الطفل وتجعله شؤماً على الآخرين.

تذكّر هذه المعتقدات تقريباً بمعارفنا الحديثة حول موضوع تأثير الحب الأمومي على النمو النفسي للطفل، وحول موضوع الاندماج بين الأم والطفل...إلخ. ومن زاوية أكثر واقعية، يكمن الفارق بين ثقافتنا وثقافة الشعوب البدائية في إمكانيتنا على خلق بديل عن التغذية الأمومية، وكذلك عن الحب الأمومي. إلا أن «الأرواح» هي أيضاً فعالة ومؤثرة في هذا المجال.

لا ريب أن الإرضاع هو أحد الأطوار الفيزيولوجية الخاضعة، بصورة فريدة، للتأثيرات النفسية، مثله مثل الحيض وجميع الظواهر الأخرى المرتبطة بالوظائف الأنثوية للتكاثر. وأعتقد أيضاً أن هناك اتحاد بين الأم المرضعة ورضيعها، وهو اتحاد عميق وحساس جداً، نتغافله دوماً.

ومن أجل النمو والنجاح، يحتاج الرضيع لأمه والأم لرضيعها. إنما لا يمكن للأطوار النفسية أن توجد بالقوة، ولا حتى، حين تكون لا شعورية، بالإرادة الطيبة. ولهذا السبب، أعتقد أن جمائل الأمومة لا يمكن الحصول عليها دوماً بمراعاة بسيطة لقواعدها. كما ينبغي علينا أن نتذكر أن المرأة الحديثة مرتبكة جداً، بصراع بين اهتمامات أناها وبين أمومتها، بحيث ميلها للإحساس بالضيق النفسي يتنامى كثيراً، وبحيث أن معرفتها الذهنية وإرادتها الواعية، نادراً ما يكون لهما تأثيرحاسم في مجال الأمومة. وأعرف نساء متفوقات، بادرن لاستئناف نشاطهن المهني بأكبر قدر من الفاعلية، على الأقل بدوام محدود، وكن دوماً مع ذلك مستعدات تماماً لإرضاع أطفالهن. إنما هؤلاء الرضّع الحديثون لا يحبون الدقة، وعلى أدنى حركة نفاذ صبر من أمهم، كنظرة خاطفة إلى الساعة، يتأثرون كما لو أنها ذئبة شريرة.

تعبر كثير من النساء عن خوفهن من الأمومة، بحيث يصبحن عاجزات عنها وظيفياً، في ما لا تجيز نساء أخريات لأنفسهن، بأي إطلاق لمشاعرهن بالذنب. وكلما ابتعدن عن أطفالهن، يستحوذهن شعور خاص وغير منطقي من القلق والغم، ويصفنه أحياناً بـ «الحنين». وهذا يجعلنا نفكر بما ذكرناه عن الشابة النفساء التي أصاخت السمع، إنه الإلحاح الطبيعي للحبل السري النفسي. وكلما كان الطفل فتياً أكثر، كلما قصر الحبل أكثر، وكلما شُحن إلحاحها بعناصر عصابية، ومشاعر بالواجب متشددة، وكلما كانت متألمة أكثر.

لا يُقارن هذا الحنين بأي عاطفة أخرى، إنه ليس حباً وليس شعوراً صافياً بالواجب، إنه يُقارن، بصورة احتمالية، بخلفية غريزية، وبعلاقة أولية

بين الأم والطفل. وأعتقد أننا سوف نشهد تناقضاً كبيراً لعدد الأمهات متحجرات القلوب، إذا تمكنّا من تشجيع النمو الحر للعواطف الأمومية، بإخضاع أقل للوظائف، ومن التأثير بصورة ملائمة على الخوف. وعندئذ، سيقوم الحبل السري بالمطلوب.

وغالباً لن يُضبط الموقف تماماً إلا بأسلوب حل وسط. والنساء اللواتي اتخذت حياتهن صيغاً معينة، واللواتي أصبحت تسامياتهن مركباً ضرورياً لحياتهن النفسية، لا يستطعن أن يكنّ أمهات محبوبات، إلا إذا لم تعد الأمومة خطراً في سلم القيم القائم بثبات. مثل هؤلاء النساء مستعدات، دون أدنى شك، للتضحية من أجل الطفل بكل ما يمكن أن يكون له تأثيراً واعياً. لكن إمكانية الإرضاع، والاستعداد المستمر والجدير بالثناء في عدم الوجود إلا من أجل الطفل، لا يمكن الحصول عليه بهذه الطريقة. حيث تكمن مهمة المستشار النفسي في إعطاء هؤلاء النساء إجازة للقيام بحل وسط. وحتى أحياناً التخلي عن الإرضاع. وعليهن أنفسهن قبول النتيجة الضرورية لهذه التسوية، وفوات تجربة هامة.

لعل مرحلة عقابيل النفاس والولادة، تمدنا بشكل عام بأساس هام للروح الأمومية. وتتواصل هذه المرحلة، شيئاً فشيئاً، مع مرحلة «العمرالأول» للطفل، أي بتلك التي لا تكون فيها المرأة بكامل امتلاكها لأناها الجسدي.

ويمكن أن يُقسّم التكيف النفسي للطفل، في الحالات الطبيعية، إلى ثلاث مراحل :

1 ـ الإقامة في المشفى.

2 ـ المرحلة الأولى التي تعقب العودة إلى المنزل.

3 ـ مرحلة حرية الحركة المستوفاة مع نهاية العمر الأول للطفل.

وبالنسبة لكثير من النساء، تمثل الإقامة في المشفى، تحرراً محبباً من

أي مسؤولية، كما تمثل لنساء أخريات سجناً، عليهن خلاله صد رغباتهن وأفكارهن، وكل حاجة لنشاط الأمومة. ومن اختلاف المواقف هذا تتفرع اختلافات خارجية، فبعض الأمهات اللواتي انفرجن في المشفى واستمتعن فيه بأطفالهن، يكن بعد العودة إلى بيوتهن، عرضة لاكتئابات، إلى حد ما، ملحوظة، أو لحالات قلق نفسي، بينما تتيقظ أخريات من حالة كبت، إلى نشاط بهيج حينما يبدأن بشعور أنفسهن في بيتهن أمهات لطفلهن. وتطلب الكثيرات مساعدتهن وتعليمهن، في ما تريد أخريات أخذ كل الصعوبات على عاتقهن، بطريقة تبني أسساً متينة وواثقة لروحهن الأمومية، ويعتبرن أن علاقتهن الأولى مع الطفل، غير المشوشة بتدخل الآخرين، هي التي يأملنها. وعلى ضوء هذه التجربة، لنا شعور أن على الأمهات وأطفالهن المواليد الجدد، أن يُتركوا لأنفسهم، أكثر مما هومعمول به عادة.

❀ ❀ ❀

الفصل التاسع

علاقة الأم بالطفل

تبدأ المشكلات الرئيسية للأمومة بالظهور، في بداية وظيفة التكاثر، وتستمر، كما أسلفنا، بعد ولادة الطفل، بالعلاقة بينه وبين الأم. وتتعلق إحدى هذه المشكلات بالصراع الذي لا مناص منه بين اهتمامات الفرد واهتمامات النوع. وتكمن أكبر مهمتين للمرأة باعتبارها أم، في تأسيس وحدتها مع الطفل بطريقة منسجمة وفي تفكيكها في ما بعد بصورة منسجمة أيضاً.

وإذا الأمومة، بصفتها تعبير نفسي عن خدمة المرأة للنوع، كانت ترضيها وحدها وبطريقة تخص حياتها النفسية، فالمرأة تفقد فيها خصائصها الفردية، وقد تكون، إن صح القول، مغمورة بالروح الأمومية. وفي حضارتنا، على أقل تقدير، بواسطة مراقبة وضبط الولادات، أصبح للمرأة كل التسهيلات لتعمد إلى تسوية حل وسط بين الأمومة وبين حاجاتها الأخرى، من تطلعات واهتمامات شخصية أكثر. وهناك أيضاً في نفسية الأمومة، تنوعات بقدر ما هناك أمهات. وتقوم خاصة إمكانية التسويات هذه، واضعين جانباً الخصوصيات الثقافية الملائمة، على أن الروح الأمومية وأنوثة المرأة ليستا المصدرين الوحيدين لقواها النفسية.

وتتوافق مهمات الأمومة هذه، والتي هي في خدمة النوع، مع مراحل نمو الطفل. مثلاً، جميع اهتمامات الأم اثناء المرحلة الأولى من حياة الطفل، موجهة قبل أي شيء نحو الرفاه الجسدي للطفل. ويتكرس نشاطها

في هذه المرحلة على تغذية الطفل ومنحه الرعاية الجسدية الضرورية. وفي هذه المرحلة تكون الحاجة التي تحسها الأم للحفاظ على وحدتها مع الطفل في أعلى درجة، وإمكانية إشباعه هي الأكبر أيضاً، حيث أن عجز الطفل أثناء الإرضاع يشجع ويساعد على هذه الوحدة. لقد سبق الحديث عن الصراع الموجود لدى الأم بين خوف الانفصال (سنتمكن الآن من تسمية هذا الخوف بـ «ميل الاستمرار») وبين حاجتها للتحرر أثناء هذه المرحلة الأولى من حياة الطفل.

المهمات الجديدة للأم هي مهمات التربية، فإلى جانب الاهتمام الذي توليه إياه للعناية الجسدية، تقلقها الآن الصحة النفسية للطفل، وتكيفه مع الواقع، والتحريمات التي لا بد من أن يخضع لها. وقبل أي شيء، على الأم الآن أن تعلمه ضبط غرائزه، وكلما كانت حياته الخاصة الغريزية منضبطة أكثر، كلما توصلت إلى القيام بهذه المهمة على نحو أفضل. ولا يجب أن تفرط في عذوبتها ولطفها في نهجها التربوي، لأن التغاضي المفرط ينطوي على خطر في أن الطفل لا يتنظم ولا يهيمن على غرائزه. كما لا يجب أن تفرط في التحريم عليه، لأن التشدد في الكبت يعرّض الطفل لخطر العصاب. وبالإجمال، ليس من السهل تربية طفل، وينبغي علينا الإقرار بأن التحليل النفسي ذاته، لا يمولنا اليوم بإعداد فيه تأكيد مطلق لمهمات الأمومة. الشيء الوحيد الذي يمكننا الوثوق به في وجهة النظر هذه، هو أن الانسجام الداخلي للمرأة وحدسها، سيعطيانها أكبر قدر من تفهم الأطوار العاطفية للطفل، التي لا يُعزل عنها أي تدريب تربوي أو حتى نفسي. إنما عليها أن تستخدم تفهمها الحدسي بذكاء. فالتثقيف الآتي من الخارج ممكن هنا، ومساعدة مستشار ناصح عارف بعلم التحليل النفسي جديرة بالفائدة. وهكذا فالمختص النفسي الذي غايته تربية الطفل، عليه أن يدرك أطوار الأم، ليس فقط ليكون جديراً بمساعدتها بصورة فعالة، إنما أيضاً لأن نجاحه التربوي الخاص لا يمكن ان يُكتسب غالباً، إلا إذا أثر على الأهل بنفس الوقت، وعلى الأخص الأم. ونعترف عموماً

الآن أن الصعوبات التي يعاني منها الطفل الآن منشؤها أهله غالباً. فمعرفة أطوار الأم النفسية أصبح جزءاً هاماً من التربية الحديثة، وهذا ما حمل على الاهتمام، بصورة غير مباشرة بالأم بخصوص ابنها. وفي المقابل، يتمكن المحلل النفسي أن يتقرّب مباشرة من الحياة النفسية للأم، ولا يعتبر الطفل إلا كعنصر لتجربتها.

أمر هام جداً، وهو أن على المحلل النفسي أن يكتشف تأثير اللاشعور على نفسية الأمومة، ويؤكد أن هذه النفسية لا تتحدد فقط بالعوامل الثقافية وبالجو المحيط، ، إنما أيضاً بالصراعات غير المحلولة لماضي الأم، تلك الصراعات التي تبحث عن حل لها وعن إتمامها في الأمومة. وإن أمكن أو لم يتم التمكن من الخروج من صراعاتها بصورة مرضية، هذا منوط بطبيعتها وبحدتها.

اكتشاف هام آخر، في أن الكثير من قوى اللاشعور، تؤدي إلى إغناء الأمومة النفسية. وفي نمو طبيعي للروح الأمومية، تكون هذه القوى عرضة للتسامي. وتتحول ميول غريزية ذات طبيعة جنسية إلى حنان أمومي، بالتوازي مع طور نمو الطفل، في ما تتحول العدوانية إلى نشاط حمائي، كما أن الحاجة النرجسية الشديدة في أن تُحب، تُرضي ذاتها بنشاط في الحب الأمومي، وتُستثمَرالميول الماسوشية في الرضى الأمومي بالتضحية.

لعل الإنجاز الصحيح لهذا التحول هو أحد الشروط الضرورية لأمومة طبيعية، وعلاقة الأم بالطفل هي غالباً الحجر الأساس في توازنه. وتختلف الطرائق التي تتبعها الأم للنهوض بمهامها. وأفضل مرشد لها، هو العقدة العاطفية للحب الأمومي. وتصبح الممارسة الإيجابية النشيطة لهذا الحب، صعبة، أكثر فأكثر، مع مرور الزمن. والطفل الذي كان في البداية جزءاً من أناها الخاص، يواجهها الآن كفرد لا يكف عن استقلاليته، بكل أنواع متطلباته الفردية، وبعدد كبير من الصعوبات النمطية والطارئة، وبنموه النفسي المستمر، وحياته الخيالية العسيرة على الفهم، والمظاهر المتغيرة لحياته العاطفية. وتعبر كل حركة للطفل عن تطور هام، ومهمة الأم في أن

تكون متهيئة باستمرار وبحالة إنذار، وأن تظهر مشاعرها لطفلها، لأنها بذلك فقط يمكنها الحصول على أمان داخلي، يسمح لها إدراك التعابير الفارّة من الحياة الطفولية، وإدخالها تارة بصورة منعكس، وتارة بمداولة ناقدة، لكي تمنع أو تسمح.

بمثل هذه المشاركة الوجدانية الحدسية لحياة الطفل، تتواصل وحدة الأم بالطفل وتستمد منها التعبير النفسي. وكانت سابقاً هذه الوحدة فيزيولوجية تتعلق بالحبل السري، وتُستأنف الآن في مقدرة الأم على الاندماج بعمق مع ابنها. ويبدو، بصورة خاصة، مفهوم الحبل السري النفسي (cf. chap.VIII) خاصاً بالإعراب عن هذا التحول من الوحدة الجسدية إلى الوحدة النفسية.

وقد نشرت دوروتي بورلينغهام[1]، ملاحظات جديرة جداً بالاهتمام، حول تأثير ردود الفعل العاطفية الشعورية واللاشعورية للأم، على المشكلات النفسية للطفل. وفي هذه الملاحظات، كان الطفل هو المتلقي وهو الجزء النشيط في لعبة المؤثرات والأفكار بين الأم والطفل، وفي هذه الأثناء، تكون الأم محطة بث، تنطلق منها التحريضات الانفعالية العاطفية. وتعتقد بورلينغهام أننا معنيون هنا، من ناحية الطفل، بملاحظة حادة إلى درجة قصوى. .

واستناداً لملاحظاتي الخاصة، أرى الأم كمحطة متلقية للتحريضات العاطفية للطفل، وأعتقد أن الأم والطفل يطوران معاً، شيئاً فشيئاً، ملَكة ملاحظة تقوم على اتحاد راسخ. ويُظهر الرضيع نفسه تأثرات وانفعالات بالتحريضات الشعورية واللاشعورية لأمه، وهذه التأثرات لا تأتي بالتأكيد من ملكة خاصة بالملاحظة، إنما بالأحرى من حساسية حادة جداً وكأنها غريزية. ولو تذكرنا ردود الفعل الغريزية الحساسة الموجودة بين الأم

---

(1) Burlingham D. T. : Die Einfühlung des Kleinkindes in die Mutter. Imago. Vol. 21. 1935.

الحيوانية وصغيرها، لسمحنا لأنفسنا الادعاء بأن الأفعال الحدسية للأم البشرية هي أيضاً أقرب من الغريزة منها لملكة ذهنية في الملاحظة. وتأتي «الحكمة» الكبرى للأمهات من الخلط بين الوظيفتين، العاطفية الحدسية والذهنية.

إن اندماج الأم بطفلها قد يسبب أيضاً مظاهر مشوهة. حيث لا يتيح حب الذات، مثلاً، لبعض الأمهات أي اندماج آخر إلا مع أطفالهن وأناهن الخاص. فيسعين إذاً، بتدابير تربوية، تحقيق اندماج بالطفل مع شخصهن، ولا يحببن إلا ذواتهن في أولادهن، دون أن يخامرهن الشك بأنهن لا يستطعن بهذه الطريقة خلق إلا تشابهاً خارجياً. حيث، داخلياً، لنْ يكون للطفل أدنى تشابه مع أمه، لأنه لا يمكن لأي اندماج ناجح أن يحصل على ذلك. مثل هؤلاء الأطفال سيقلدون لاحقاً نماذج أخرى بسهولة، لكنهم لن يكونوا قادرين لا على الحب ولا على تحقيق شخصيات مستقلة.

يبحث نمط آخر للأم في ابنها وتنتظر منه شيئاً ما ينقصها في ذاتها. وبما أنها تدرك بصورة حدسية أن ابنها يبني شخصيته بناء على نماذج، وبما أنها هي نفسها لا تريد التخلي عن خدمته كنموذج، فتقوم بجهد كبير لتتصنع أمامه بما لا تكون عليه. وكما نعلم، الأطفال حساسون للغاية إزاء أفعال الراشدين الذين يسيرون على خلاف ما ينتظر منهم، إنما هم أكثر حساسية أيضاً للكذب الداخلي للأم، وللكوميديا التي تمثلها على نفسها وعلى ابنها وعلى سائر الناس، عن شيء ما، لا تكون عليه إنما ترغبه لابنها. وإذا فشلت الأم في هذا المشروع، يتحول حبها لابنها إلى عداء وتشكل خطراً عليه. ونجد عن ذلك مثالاً جميلاً، في حالة أم لا تبالي بإبنها البالغ من العمر ثماني سنوات، بسبب حنق ونقمة، لأنه كان كذاباً، في حين أنها هي نفسها كانت «تتعصّب للحقيقة». ونعلم في هذه الأيام أن التعصب للحقيقة يخفي عادة النفاق.

أمهات أخريات عاجزات عن معايشة حب أمومي حدسي، ويستبدلنه بمخطط بائس لتربية مثالية مرتبة ومنسقة بصورة ذهنية، ويسعين أيضاً في ما

بعد لتغذية علاقتهن مع الطفل، ووحدتهن معه، بفضل مثاليات كهذه. ويَفترض بناء مثالية هنا، استبدال العواطف الحارة التي تنقص الأم، ومساعدتها على حل صراعها ذي التناقض الوجداني السرمدي، وبشكل عام، لا يتكيف الأطفال مع مثل هذا القصد ولا يتوصلون إلى ما يُنتظر منهم.

وسنجد حول هذا، مثالاً مرشداً على نحو خاص، في قصة عاملة ايطالية تستعين، منذ عدة سنوات، بوكالة اجتماعية. أتت السيدة مازيتي أولاً لتطلب مساعدة مالية، وهو إجراء لم تقدم عليه علانية، إلا بعد تردد طويل وبشعور من الاعتزاز المجروح. وكان زوجها مدمناً على الكحول، ووضعه الزوجي لا يرضي أبداً، وعندها عدد من الأولاد من أعمار صغيرة، وأصبحت حاملاً من جديد.

وخلال الفترة التي كانت بها على صلة مع الوكالة، انفصلت أخيراً عن زوجها، بعد عدد من المشاجرات والمصالحات، لكنها استمرت في طلب مساعدة الوكالة. والآن أتتها المتاعب من أولادها، جميع أولادها، الواحد تلو الآخر.

وقد أوضح بسرعة، اتصال شخصي مع السيدة مازيتي، أنه رغم سعيها في طلب المساعدة، فكان من الصعب أن تتأثر بها، حيث كانت تعتبر نفسها شخصية متفوقة، وسيدة نفسها، في ما لا تستطيع مجرد أن تدرك كيف تكون على صلة وثيقة بأناس من أمثال زوجها و أولادها.

كل عاداتها كانت بالأحرى عادات برجوازية من انكلترا الجديدة، ومراقبتها وضبطها لعواطفها، كعاملة إيطالية. وتبين أن سلوكها هذا لا يستخدم، بصورة منتظمة، إلا أمام العالم الخارجي، إنما في داخل صلاتها العاطفية، أي في علاقاتها مع العائلة، كانت تتفجر بألق عاطفي. وأدى عدم الانسجام هذا في شخصيتها إلى ردود فعل مؤسفة تجاه أفراد عائلتها.

وعندما أصغينا لسيرتها الذاتية، علمنا أنها تتحدر من وسط فقير

وأمّي، واحتاجت دوماً لأن تصبح «شخصية بارزة». وفي ريعان الشباب، توجب عليها المساعدة في الحفاظ على عائلتها، في ما كانت تذهب بانتظام ومثابرة لدروس مسائية، وربما نجحت في إشباع تطلعاتها لو لم تلتق بزوجها. لقد كان مغايراً لفتى أحلامها ومثلها الأعلى، لكنه جذبها جنسياً بصورة لا تقاوم. وفي عمر السادسة عشرة، كان لها معه علاقة جنسية، وسرعان ما أصبحت حاملاً ووجدت نفسها في موقف يلزمها على الزواج منه.

وعلى ما يبدو، أنها وقعت في التباس وتشوش ما، عندما اصطدمت تطلعاتها بالتفوق برغبة جنسية بالنسبة لزوجها المستقبلي. وقد بذلت جهوداً بلا هوادة من جديد للارتقاء، لكنها كانت تختار من أجل ذلك نهجاً سيئاً ظاهرياً. وكانت تداوم في دروس مسائية، وتدرس، وتتقدم لامتحانات، لكنها في الوقت نفسه، تخلق في بيتها موقفاً مستحيلاً. وردود فعل زوجها كانت تدل بوضوح، أنها تتهمه في هذا التردي وتخلق بذلك حلقة مفرغة. فقد كان الرجل عاملا ممتازاً، في عمله، ومحبوباً من مستخدِمِيه. وكانت السيدة مازيتي تؤكد طبعاً تفوقها عليه بطريقة عدوانية جداً، مما دفع الرجل البسيط إلى ردود فعل بالثأر، وكان الإدمان على الكحول أحد ردود الفعل هذه. وجعل يهمل عمله، ويتصنع هذا السلوك العام الذي يعبر عن قوله هذا: «إن كنت تعتقدين أني لست نافعاً لشيء، فسأبرهن لك أنك على حق». وقد سعى إلى تقليل تفوق زوجته بحثّها على الاهتمام بشؤون بيتها وأولادها، معارضاً الطموحات التي كانت ترنو إليها خارج النطاق العائلي، وكذلك بجعلها علانية دوماً حاملاً.

والزوجة من جانبها، بعد أن أساءت معاملة زوجها، جعلت تُظهر كذلك ردة فعل نمطية، فخلال فترة من الزمن، كانت نادمة جداً وتبنت موقفاً سلبياً، خاضعاً، طالبة الصلح بتذلل، وراضية بالحمل. وفي فترة آخر اتصال لها مع الوكالة، كان عندها سبعة أولاد، ثلاث بنات مراهقات وأربعة صبيان.

وبعد انفصالها عن زوجها، تحولت جميع أحاسيسها نحو أولادها، وجعلت تعاملهم كما كانت تفعل مع زوجها. وفرضت عليهم كثيراً من ضمن ذهنية مثلها العليا القديمة. وبقدر ما كان الأولاد صغاراً، بقدر ما بدا لها أنها توصلت لمبتغاها. فكانوا طموحين جداً، وناجحين في المدرسة...إلخ. وعندما وصلت ابنتها البكر لويز إلى عمر النضوج الجنسي، بدت أمها في حالة من القلق النفسي على تجاربها الخاصة الماضية. وتُرجم هذا الضيق النفسي، بمراقبة متزايدة، أكثر صرامة، ردت عليها لويز بالاحتجاجات. وكانت النتيجة أن اندمجت الفتاة الشابة بأمها، ليس بمثاليتها الأمومية، إنما بأم «منحطة». ثم عاشت ثانية تجربة أمها، فأصبح عندها طفلاً لاشرعياً منذ عمر السادسة عشرة. وردة فعل السيدة مازيتي عليها، لم تكن كأم محبة متعاطفة مع مصيبة ابنتها، إنما كأم عدوانية، مجروحة في طموحها الذي تغذت به، بأن يكون لها عائلة محترمة. ثم تطلبت بأن تكون لويز أمومية مع طفلها، لكن الفتاة الشابة لم تتمكن من ذلك بصورة طبيعية، لأنها لا تشعر نفسها أمومية. وكان من المستحيل أن تتساهل السيدة مازيتي مع ابنتها، وما فتئت توجه لها فروضها الأخلاقية ولا تظهر لها أي حرارة أمومية. وبدا عليها اتخاذ السلوك المزدوج الذي كانت قد اتخذته مع زوجها، وهكذا وبعد أن عانت لويز بما فيه الكفاية، أصبحت متساهلة لدرجة مفرطة، وعاجزة عن فرض أي نظام.

لعل موقف الأم المتفوقة والمتسلطة الذي كثيراً ما أرادت السيدة مازيتي أن تلعبه، جعل أمراً ما صعباً بصورة خاصة. فهي كانت قد حاولت، ونجحت في ذلك لفترة، إقناع أولادها بتفوقها وبتدني والدهم. ومع ذلك، بما أنها تقبلت الأب جنسياً، وأصبحت تحمل منه بصورة متواصلة، بدا هكذا أنها عملت على الإقلال من اعتبارها في نظرهم. وبهذا لم تستطع الوصول لتربية أولادها وفقاً للقواعد الأخلاقية التي فرضتها عليهم. وعلى العكس، تعلّق الأولاد من الناحية العاطفية، بوالدهم الحنون العاطفي، أكثر من أمهم المعذبة بطموحاتها وهموم أبهتها. فكانوا من

الناحية الكلامية في جانب أمهم، أما عاطفياً فيلتجئون لوالدهم وضد أمهم.

صعوبة نفسية أخرى بخصوص تربية الأولاد تكمن في التناقض الوجداني العاطفي لدى السيدة مازيتي، وخاصة في الصيغ التي يتخذها هذا التناقض. فهي لم تستطع أبداً أن تكون لطيفة إلا مع إحدى بناتها الكبار، وتتساهل معها بكل العواطف السلبية والعدوانية وتفضلها عن الآخرين. وبما أن الأطفال كانوا يتناوبون حبها على التوالي، فالطفل الذي كان يُحب ثم يُرفَض لصالح غيره، كان مدفوعاً للغضب الهائج والغيرة وحب الانتقام. وهذا ما حدث مرات عدة للفتيات الثلاث الكبيرات. ثم أدرك الأولاد أنه لا يمكن الوثوق بحب أمهم، وأن تقلباتها غير خاضعة أبداً لسلوكها، وكذلك لا يمكنهم أخذ متطلباتها المثالية على محمل الجد. واستتبع ذلك أن فسدت البنات الواحدة بعد الأخرى، وحملن إلى البيت مرض السيفلس وإنجاب الأولاد، في ما جعل الصبيان الصغار يلجأون إلى السرقة، ولم تستطع السيدة مازيتي إدراك لماذا آخر أولادها، الذين كانوا في الفترة الأخيرة مطيعين وعقلاء، جعلوا يسيرون بركاب أخواتهم الكبيرات الواحد تلو الآخر ويغدون لا يصلحون لشيء. إنها لم تتوصل لرؤية أن هناك أمرين، فوق جميع الأمور الأخرى، أن الأطفال لا يستطيعون احتمال لدى أمهم: أولا فروضها ومقتضياتها المثالية عوضاً عن التآلف الحنون، وثانياً التناقض الوجداني عوضاً عن المساواة في العواطف .

وهكذا فالاستخدام الصحيح للوحدة الموجودة بين الأم والطفل، أي الاندماج، هو أحد مهمات المرأة باعتبارها أمّاً. وتتعلق مهمة أخرى بما أدعوه مأساة الأمومة، وتكون في التغلب على الانفصال المؤلم لهذه الوحدة، أي قطع الحبل السري النفسي الذي يربط الأم بالطفل. وتخص المشكلة عضوَي الاتحاد، لكن غاياتهما متعارضة، حيث يكافح الولد لفصم عُرى هذه الصلة، في ما تكافح الأم لإبقائها والمحافظة عليها. وما أن يولد الطفل، على الأم أن تعلم أن علاقتها معه ليست إلا مرحلة مؤقتة من وجوده. ومع أن هذه المرحلة تحدد مستقبله إلى حد بعيد، فسيعتبرها

صفحة من الماضي، سيتذكرها الشاب (في أفضل الأحوال) بحنان. وهو لا يتمكن من النمو كشخصية حرة راشدة ما لم يتجاوز ويسمو على علاقته الودية مع أمه، ووحدته معها.

ومع ذلك، لا شيء يُنسى بالنسبة لماضي علاقة الأم بالطفل، ولا شيء يمضي أدراج الرياح، بل كل شيء يبقى حاضراً بصورة سرمدية، وتلازم الروح الأمومية رغبة الإبقاء على هذه الصلة. والتفهم الحدسي المطلوب منها، بوجوب التخلي عن هذه الصلة لصالح ابنها، هو في أعماق نفسها، بتر لذاتها، وضربة مسددة لمشاعرها كأم. وبسبب هذا الصراع، قد تبقى الأم عرضة لمصاعب عصابية في علاقتها مع أولادها، حتى لو كانت الظروف ملائمة بصورة خاصة. وبعبارة أخرى نقول، كلما كان استعداد الأم العصابي أكثر، كلما قاومت كفاح ابنها من أجل الانعتاق، وكلما مالت لأن تكون ردة فعلها ألماً وضيقاً نفسياً للبعد التصاعدي لابنها.

يُستخرج من ملاحظات التحليل النفسي لنساء من مختلف الأعمار، انطباع لا يمكن تفنيده، أن قابليتهن الداخلية للضيق النفسي هي من غير نوع تلك التي عند الرجال، وعلى خلاف ما يحدث عند الرجال، تخضع لطور خاص من التحوّل. وفي حين أن خوف الإخصاء لدى الرجال هو في مركز أي قلق نفسي، يسير القلق النفسي، شيئاً فشيئاً، من الخوف التناسلي، مروراً بالخوف من فض البكارة والاغتصاب، إلى الخوف من الولادة والموت. ويتبع هذا الطور مسالك محددة بيولوجياً. ومن البديهي أن الاستعداد الداخلي للقلق النفسي لا يصبح تجربة واعية شعورية للخوف إلا في ظروف مختلفة تعززه وتثيره.

وإذا اتبعنا صيرورة هذه القابلية إلى قلق نفسي، نرى أن جزءاً كبيراً منها، على نحو ما، يتحول على الطفل المتخذ كأداة. وخوف الانفصال الذي رأيناه يرافق جميع وظائف التكاثر، يتغير إلى قلق على شخص الطفل، وعندما يكبر، يصبح هذا القلق، الصراع العاطفي المأساوي

للأمومة. وتستمر القابلية القديمة للقلق النفسي في هذا الصراع وذاك، وإذا تفاقم، يؤدي بسهولة إلى مضاعفات عصابية. إن فكرة «الأم القلقة» هي مفهوم واسع يشمل كل شيء، بدءاً من الرعاية الحنونة، والحاجة للبقاء دوماً بقربه، والحنين المؤلم لأي فراق، والوسواس المفرط على صحته الجسدية والنفسية، إلى حالات فعلية للقلق النفسي وحالات الذهان. وننظر للخوف كمرضي عندما يتجاوز بعض الحدود، ونؤكد عندما نتحقق منه، أن قابلية القلق النفسي عُدّلت بصورة كمية وكيفية بإضافة عناصر جديدة وقديمة.

ولدى نمط معين من المرأة الهستيرية الطفولية التي ارتبطت بأمها بإفراط، يكون الخوف ردة فعل مباشرة للفراق. أم كهذه تكون، في معزل عن ذلك، متحررة من الخوف، ولا تحمل هماً وسواسياً لما يخص ابنها، وهي على هذا النسق حنونة، وربما مفرطة، إلى حد ما، في تظاهرها بالحب تجاهه. إنما، عندما يخرج الطفل من ساحها القريب، فيتملكها القلق النفسي. وفي حالات أقل قسوة، تكفي معرفة مكان تواجد الطفل وأنه ضمن إطار عنايتها حتى يتقلص التوتر الداخلي.

كثير من النساء، الطبيعيات والراشدات، يكنّ فريسة لحنين مضنٍ، ينقلب سريعاً إلى خوف، عندما يبتعد الطفل جسدياً عنهن. وغالباً ما تقول الأمهات الملتزمات بعمل ذهني أو فني، أنهن لا يستطعن التركيز في مهامهن، ما لم يعرفن أن إبنهن في أمان في البيت، أو أن يستطعن رؤيته من النافذة. وعندما يكبر، تتحرر هؤلاء الأمهات القلقات، شيئاً فشيئاً، من ضيقهن النفسي الداخلي، أو يقعن في الصراع المأساوي الذي تحدثنا عنه، صراع يعانين منه أكثر مما كان طبيعياً في ميل الطفل للتحرر.

أم حساسة، ومتعلقة بابنها جداً، حدا بها الوعي إلى درجة أن لها شعور ذهاني تقريباً بأن صلتها به مستمرة رغم أنه يعيش في مدينة أخرى، وبفضل هذه الصلة، كانت تعلم بالتخاطر إذا ما كانت الأمور تسير معه على ما يرام أم أنه يواجه صعوبات ما. وكانت تحس الحبل السري النفسي بطريقة واقعية جداً، ويكشف شعورها الذهاني عن موهبة حدسية مفرطة

بسبب الحنين، وكانت قد نمّت هذا الإحساس في موضوع ابنها منذ طفولته الأولى، وذلك ما جعلها قادرة بعد ذلك، على نقل أي حركة أو مؤشر من ناحيته بصورة صحيحة، وتكون الحركة الأكثر أهمية.

لقد ذكرنا ان الخوف يتكثف عندما يتغذى من عدة مصادر. ولدى نساء من نمط هستيري، نجد أحياناً تهديداً مستمداً من مشاعر قديمة بالذنب: «ستفقدين ولدك» وهو امتداد للتهديد القديم أثناء الحمل: «ستموتين أثناء النفاس».

وتحس النساء من نمط عصابي استحواذي بهذا الخوف بدرجة أقل. وغالباً ما يؤدي صراع التناقض الوجداني في علاقتهن مع ابنهن إلى فتور عاطفي واستبدال الحنان بتربية صارمة ومتنبهة جداً، حيث تسعى الأم نحو كمالها وكمال ابنها. وفي حالات أخرى، يقود توتر العدوانية الموجودة إلى تعويض مفرط وصيغ مبالغ بها للحنان والرعاية كما أشار إلى ذلك د. ليفي[1].

وقام رادو[2] بوصف بارع لأم مفرطة بالقلق، مشيراً بطريقة لافتة وفريدة، إلى الإمكانية الموجودة لدى بعض النساء للتخلص من وحدة الأم بالطفل.

كان يحدث هذا على شاطىء رملي لمركز صغير للحمامات البحرية. وظهر ذات يوم، قرب المكان الذي كنت أتمدد فيه، امرأة شابة مع صبي صغير بعمر حوالي خمس سنوات. لقد كانوا أجانب، ولم تكن لي فرصة التعرف إليهم شخصياً، إنما، خلال بضعة أشهر، كنت شاهداً لا إرادياً بالسمع والبصر، لسلوكهما. وكان الصبي الصغير يتصرف تماماً كباقي الأطفال الآخرين المزدحمين على الشاطىء. ويلعب بالرمل، ويمرح،

---

(1) Levy D. M. : Op. cit.

(2) Rado S. : An anxious mother : A contribution to the analysis of the ego. Internat. J. Psycho-Analysis, vol.9, 1928.

ويذهب إلى البحر جالباً الماء في دلو صغير ليشكل كتلاً طينية، إلى ما هنالك... في ما كانت الأم تتمدد على كرسي بحر طويل، وتقرأ إما كتاباً أو صحيفة، وتملأ ما تبقى من وقتها في أعمال الخياطة. وعموماً كانت غارقة في أحلامها ولا تثرثر مع باقي النساء إلا قليلاً وبصورة عارضة. إنما، مهما كان العمل الذي تقوم به، كانت ترفع عينيها بقلق في كل دقيقة، باحثة عن ابنها بنظرة قلقة، وإن لم تستعلم مباشرة عن مكانه، تصرخ بنبرة يائسة: «مااااااسيمو، مااااااسيمو» وإذا جازف الطفل بالابتعاد بضع خطوات عنها، أو إذا لم يكن بعيداً عن ضفة الماء (لم يكن يذهب بعيداً جداً أبداً لأنه ظاهرياً كان يخاف من البحر)، فإنها تسرع نحوه، وتأخذه بين ذراعيها، وترده نحوها. وإذا تشاجر مع أطفال آخرين، يحاول المقاومة أمام أمه، فتؤنبه عموماً أو تصفعه صفعة مدوية، وإذا جعل يبكي، فسرعان ما تغطي الصفعة بقبلات حارة. وهذا ما كان يجري كل يوم. ومع مرور الوقت ودقات الساعة تُسمع الصيحة القلقة «مااااااسيمو، مااااااسيمو».

ويفترض رادو أننا على صلة هنا بتشكيل ردة فعل وفقاً لها:

كانت الأم تكره ابنها وتحبه في الوقت نفسه، لكنها طردت كراهيتها خارج وعيها بمبالغة قصوى في تكريس حنون، منهية بهذا الفوضى الداخلية.

ويمضي رادو أبعد من ذلك ويشير إلى أن :

كانت تتصرف الأم كما لو أن ابنها الذي يلعب على الشاطىء، مهدد بأخطار مجهولة وعليها حمايته من مصيبة ما... وعندئذ يعتبر الملاحظ الموضوعي، أنها تجاوزت في مبالغتها أي حد لتوجس الأم، لأنه ربما لا يجد مشكلة ذات شأن في الواقع للأخطار التي تخشاها ...وهي مرغمة على حمايته من نفسها ومن شخصها.

ومن الممكن جداً أن العدائية المردودة ضد الطفل تلعب دورها عند جميع الأمهات القلقات. وربما لا توجد أي علاقة إنسانية تخلو من

تحريضات كهذه، فكيف بعلاقة الأم بابنها؟ لكن قابلية القلق النفسي تنتج حاجة عميقة عند الأم للحفاظ على وحدتها مع ابنها، وتحدث آلية ردة الفعل من خلال حبها الكبير لابنها، الذي لا يسمح بالكراهية أن تظهر إلا بتعويض فائق مسبب لحب جديد.

في معظم الحالات التي راقبتها، حيث تواجد هذا الخوف الشديد على الطفل، كان الأطفال المعنيون ذكوراً. ويقول فرويد[1] :

الأمر الوحيد الذي يجلب إشباعاً كاملا للأم، هو علاقتها مع الابن، إنها بلا ريب العلاقة الأكمل بين كائنين بشريين، وهي الأكثر تحرراً من التناقض الوجداني.

وهناك نساء يفسد حياتهن العاطفية المرضية حتى الحب الذي يظهرنه للابن، ونساء بائسات بما فيه الكفاية ليكنّ مرغمات، بدافع ما، على رفض وعدم الاعتراف بهذا الحب. إنما بما أن الانفصال عن الطفل يمثل خسارة الجزء الأغلى من أنا الأم ومن الأداة التي تحبها بالدرجة الأولى، فإن الخوف من هذه الخسارة مستمر، ومهيأ للانطلاق. يقول فرويد أيضاً:

تستطيع الأم أن تحيل الطموح على ابنها، ذلك الطموح الذي أُجبرت على رفضه لنفسها، وهي تتوقع منه أن يرضي كل ما هو قابع في ذاتها من عقدة الرجولة.

هذه الطريقة الملائمة لتجاوز عقدة الرجولة ليست مستخدمة دوماً. إذ هناك أمهات يحوّلن على أبنائهن، كراهيتهن العدوانية والحسودة من الرجال. إنهن يخصين ويفسدن أبنائهن بكبت حاجتهن الطفولية لنشاط فعال وقاطر، بتوجيههم في اتجاه سلبي أنثوي. وفي الحالات الواضحة، تعي الأم تحاملها ضد العضو الجنسي لابنها، حيث ترفض تغسيله، وتعلم الصبي الصغير أن يبول كالفتاة... إلخ.

(1) Freud S. : New introductory lectures on psychoanalysis. New-York :Norton 1933.

وبرأيي، أسمى تعبير عن الحب الأمومي، والروح الأمومية، لا يتم التوصل إليه إلا عندما يتم التخلي عن جميع الرغبات الذكورية وتساميها نحو غايات أخرى. وفي حال «لم يفقد العامل القديم لغياب القضيب سيطرته بعد» (1) تبقى وفرة الروح الأمومية غاية لم تتحقق بعد.

فقط ما دام الأولاد صغاراً، تتأثر الأم لانفصال البنت كانفصال الصبي بنفس المستوى. وفي ما بعد، حدس الأم ينذرها بضغط أكبر للخطر الذي يتضمنه حنينها لابنها، ويُرى هذا الحنين مقابلاً للعبارة: «لا أستطيع». وبلا شك خوفها من زنى المحارم، وغموض شعور مسبق لأخطار.عشقية بينها وبين ابنها تلعب دورها هنا. والعناية بتجنب خطر الابن «المدلل» واندماج الابن معها نفسها، هو اندماج قد يجعله أنثوياً وسلبياً، ويبدو ضرورياً أيضاً سواء للأم الحدسية أو للصبي الصغير نفسه، في ما لا ينطبق الأمر نفسه على الفتاة. ففي حالتها، يبث مركب الجنس المثلي، لشهوة الأم، بصورة نادرة أكثر، مؤشرات إنذار، إلا إذا كان هذا المركب شديداً بصورة مفرطة. بالإضافة إلى ذلك، جهودها لإثارة وتعلق ابنتها هو أكثر نشاطاً وحرية ومباشرة. زيادة عن أن الاندماج بالأم هو بالنسبة للبنت أقل خطراً، وفي واقع الأمر، كما رأينا، تمثل الأم نموذجاً ضرورياً للأنوثة المستقبلية لابنتها.

ولا يتشكل احتجاج الفتاة الشابة إزاء تبعيتها الطفولية لأمها إلا شيئاً فشيئاً. ويتحول هذا الاحتجاج عادة إلى عدائية تتفاقم أثناء مرحلة البلوغ إلى منافسة مع الأم على حب الأب. وتشعر الأم نفسها مهجورة، وبسبب خوف ضياع ابنتها، وخوفها كذلك من نتائج استقلاليتها، تزيد إزاءها من تظاهراتها بالترغيب والترهيب. وتشكل الذكرى التي غذت الأم بمحاولاتها ومحنها وتجاربها القديمة في مرحلة بلوغها، عاملاً خاصاً لعلاقتها مع ابنتها البالغة. وأحياناً تلقي التجربة المشؤومة لشبابها الخاص بظلالها على حياة

---

(1) Freud S. : Op. cit.

ابنتها، وتسعى الأم بنجاح أو بعدمه، تجنيب الطفلة تكرار قدرها نفسه. وفي تشاؤمها، تسقط على ابنتها مساعيها في الرفض. ويقول الشعور بالذنب الذي تنتقده «لا يجب عليك أن تصبحي كما كنت أنا». وغالباً ما تدفع مثل هذه الجهود، الفتاة إلى تمرد أكثر حدة وتحرض الاحتمال المستبعد. وقد كان لنا في السيدة مازيتي خير مثال. وغالباً ما تبحث المرأة الذكورية في ابنتها، عن كمال الأنوثة التي كانت تنقصها، أو أنها تحاول، بواسطة ابنتها، التوصل إلى الرجولية التي كانت تُمنع عنها. ومن خلال تشوشها الداخلي، تسعى لأن تصنع من ابنتها رجلاً، أو تعارض رجولية ابنها.

وغالباً ما تُتاح لنا رؤية كيف أن الصلة غير المنضبطة التي تربط المرأة بأمها تدفعها إلى تكرار قسري. وترافق عندئذ الأم القلقة ابنتها في كل ما تقوم به، وبإظهار كبير للحنان. إنها تريد أن تطلعها الفتاة الشابة عن كل تجاربها، وتقدم لها كل أصدقائها، وتنام في سريرها، في ما ينام الزوج في مكان آخر. وعندما يحصل معي، من خلال ممارسة المهنة، أن أثير اعتراضات أمام سلوك كهذا أؤكد عدة مرات: «أنا نفسي كنت أنام إلى جانب أمي حتى زواجي».

وفي إحدى الحالات، لم تدرك الأم إلا بعد حين، بأن ابنتها حاولت الانتحار، وأنها كانت حقاً فاقدة الأمل، لدرجة أن الموت وحده بدا لها جديراً بأن يحررها من قيود الحب الأمومي. وكانت أم أخرى تعتبر أن حبها لابنتها، يحل محل كل شيء، وأن زواج الحب لهذه الفتاة وأمومتها السعيدة كانتا جريمة ضد الطبيعة. إنها لا تبذل أدنى جهد لتتكيف مع الواقع الجديد. وحينما فشلت في تدمير حياة ابنتها المنزلية، حصل لها اكتئاب خطير.

لقد لاحظت تصعيداً مرضياً أكثر، لعلاقة أم بابنتها أثناء العلاج التحليلي للشابة العصابية[1]. والمريضة البالغة من العمر عشرين عاماً، كانت

(1) Deutsch H. : Psychoanalysis of the neurvosis. Londres : Hogarth , 1932.

فتاة وحيدة لأهل أغنياء. وكان والدها يشغل مكانة متواضعة في الحياة العائلية، وكان في بيته أشبه بضيف. ومنذ البداية، كانت الأم قد حولت على طفلتها مجمل حبها المحبط. وكانت متانة العلاقة الطفولية للأم بابنتها قوية، لدرجة أنه في فترة العلاج، كانت الفتاة الشابة تنام مع أمها، ولا تستغرق في النوم دون أن تمص نهدها أو أصبعها.

وفي أعقاب هذه التربية، والثبات على هذه الوحدة، جعلت الفتاة، في مرحلة بلوغها، تعاني من حالات ضيق نفسي عندما كانت أمها تغادر البيت، وقد فسرت ذلك بخوفها من أن يحصل لأمها مكروهاً: «قد تدهسها سيارة على سبيل المثال». وكانت تنتظر أمها على النافذة، وبإفصاح لضيق نفسي شديد مرسوم على وجهها، ولم يكن يخفف هذا الضيق النفسي إلا رؤية أمها عائدة وعلى قيد الحياة. وكان يبدو أن هذا الطور قد انتهى بالانعكاس. فقد رفضت الأم في البداية الانفصال عن ابنتها، ثم كان على الفتاة الاستمرار بهذا الرفض. وأصبح الآن للأم القلقة ابنة مفرطة في القلق. والقفزة الطبيعية من البلوغ نحو التحرر من تعلق كهذا، ازداد حدة في رفض عدائي للأم. إنما عوضاً عن التحرر، كان خوف متنام من الانفصال الذي برز، واتخذ هذا الخوف طابع إفراط تعويضي في كراهية الأم.

وقبل وقت طويل، كانت جدة هذه المريضة الذهانية قد شيدت هذا الطور بتعلقها بابنتها (أم مريضتنا)، والزواج البائس لهذه البنت زاد من حدة التعلق. ولا بد من ذكر أن المثلية الجنسية عند الأم قد استمرت، وأن الجدة كانت قد تهيجت أو حبذت بلا نفور، مع أن هذا المركب الجنسي لم يكن قد أصبح شعورياً. وفي هذه الحالة (كما في غيرها من الحالات المشابهة) لم يكن السرير فقط المكان الذي يتم فيه إشباع حب الأم والبنت، إنما استُخدم أيضاً كوسيلة للهرب من العلاقة مع الزوج المحبَط أو المحبِط.

ومع أنه لا يمكن أن نرى طابعاً خاصاً لعلاقة أم بابنتها مدونة هكذا ومفرطة في الشدّة، فمثل هذه المواقف تحدث غالباً. وعلى الأخص في

فترة البلوغ، فالخوف الأمومي من فقدان البنت، مضافاً إلى الكراهية المتراكبة لتلك الأخيرة، يؤدي إلى تعلق مفرط بين المرأتين.

وقد نتوقع رؤية نمو خصومة عدائية بين أم لا زالت فتية وابنتها المراهِقة. ويبدو بالأحرى، استناداً لملاحظاتي، أن علاقة الأم بالبنت تتصف غالباً بتخل إيثاري من جانب الأم، بميل للاندماج في أفراح وأتراح ابنتها. ونرى عن ذلك تصويراً رائعاً في جملة مدونة في إحدى رسائل السيدة سيفينييه لابنتها، «قبلة غرينيان سببت لي ألماً في صدري».

وكذلك، ذكرنا أن العلاقة مع الابن ليست تقريباً مباشرة وواضحة الأهداف. فالإثارة اللاشعورية بحب وحنان الأم تظهر مبكرة جداً، في حين أن الصبي الصغير، بحسب رأيها، لا يمكن أن تكون له أي رغبة جنسية. وتستخدم الأم في ما بعد وسائل أخرى في الجهد اليائس الذي تقوم بها للحفاظ عليه. وتكون هذه الوسائل عادة في الاستمرارية للإتحاد القديم بين الأم والإبن، وفي طرائق تربوية هدفها الحفاظ على الحبل السري النفسي بفضل تبعية عاطفية مستمرة. وقد استُخدمت كثير من هذه الطرائق حيال أطفال الجنسين. وبحسب رأيي، الحماية الأمومية المفرطة، في أشكالها المتعددة، وكذلك التي رآها د. ليفي في توثيقه الغني، هدفها السامي هو إطالة تبعية الطفل وتجنيب الأم صدمة الانفصال. والوسيلة الأكثر مباشرة في هذا الاتجاه، هي في «الطفالة» أي الميل لإبقاء الطفل أطول مدة ممكنة في عجز الطفولة. وصيغة تعلق الأم بالإبنة التي تحدثنا عنها آنفاً، تبدو، في معظم الحالات، تستهدف هذه الغاية.

والأم المتساهلة التي تستسلم تماماً لطغيان أولادها، والتي تمارس حمايتها المفرطة بهذه الطريقة الأكثر سلبية، هي بالتأكيد، ينبعث الخوف عندها من مصادر ماسوشية مشحونة بالذنب. والنمط المقابل، يتمثل بالأم المهيمنة التي تؤثر في سلبية الطفل وتبعيته بسلوكها الإيجابي النشيط، والتي توزع حمايتها المفرطة بمؤازرة عدوانيتها. وتؤدي جميع هذه الأساليب إلى

نفس النتيجة، أي تبعية الطفل، وتتوافق طبعاً مع الشخصية المتميزة والعاطفية للأم.

ومع ذلك، أعتبر كتعميم مشدد، الرأي الذي نشره ليفي[1] والقائل: «قد يُنظر لأي حماية مبالغ بها من طرف الأم كتعويض عن عدائية لاشعورية». وهنالك حنين متحالف مع خوف متأصل بعمق لفقدان شيء ما، والذي ينبعث من مصادر إيجابية للحب الأمومي. ويمكن للحماية المفرطة بالنتيجة أن تخدم أيضاً آلية دفاع لتجنب الانفصال.

ومع ذلك، هناك طرائق أكثر رهافة، وأقل وضوحاً، وتلعب دورها بهدوء وبطريقة غير مباشرة، وبأسلوب أكثر فاعلية. وتتبين كذلك قوة فاعليتها بالنسبة للحفاظ على صلة الأم بالطفل، أكثر من الطرائق الفظة التي تحمل احتجاجات الطفل عاجلاً أم آجلاً.

وهناك الحياة التخيلية المشتركة، والعلاقة بين التحريضات الشعورية واللاشعورية للأم والطفل. وأحياناً، تخفي التخيلات العنصر الشخصي اللاشعوري تحت ستار الحياة اليومية، والابتذال، وأحياناً تنكّره بقناع فائق للطبيعة وشفاف. وأحياناً تكشف مباشرة عن طبيعتها، في أحلام أو في أفعال لا تكون مستورة إلا بصورة خفيفة. وقد أورد أبراهام[2] ملاحظة تستذكر علاقة ما، لاشعورية بين أم وابن:

شاب كنت أعالجه معالجة تحليلية، كان قد لاحظ منذ طفولته الوادعة أن أمه تخون أباه مع أحد الأصدقاء. وقد أرفق هذا الفعل بتخيلات وهمية نمطية من طابع «هاملت». وكان يتخيل أن أمه والصديق قد يقتلان والده. وذات يوم، روت له أمه حلماً حصل معها، بأن غريباً استهزأ بها وانتقد إمكاناتها وخصائلها. فألقت به خارجاً بمساعدة م. إكس (صديقها). فأمعن

(1) Levy D.M. : Op. cit.

(2) Abraham K. :Koinzidierende Phantasien bei Mutter und Sohn.Internat. Ztschr.f. Psychoanal.,vol.II,1925.

مريضي بما سمعه في هذا الحلم، وحالما أدرك أن الغريب لا يمكن أن يكون شخص آخر غير أبيه، وأن أمه وصديقها «ألقوه خارجاً»، أي تخلصوا منه. وقد استنتج بفطنته أن خيال أمه كان مشغولاً بنفس الفكرة الشنيعة التي راودت خياله. وقد امتدت المطابقة إلى التفاصيل. وهو أيضاً، في تخيلاته الوهمية، كان قد لام والده لعدم احترامه للخصائل الكريمة التي تمتلكها زوجته، على نحو كاف. وكانت الأم نفسها تبرر هجرها لزوجها لنفس الذريعة.

وفي حالة أبراهام، الأب رجل لا يجيد تقدير الأم. وهو اكتشاف ذكرته الأم والإبن في آن واحد، وقد يكون توطئة لمشاعر مشتركة، كما أن الوحدة الطفولية القديمة بين الأم والطفل تطورت لعلاقة بين حياتين.

وفي خيال الابن، الأب، كالأم، ليس طيباً أبداً. إنما أباً يسيء معاملة زوجته، يوطّد، دون إرادة منه، وحدة شديدة الأواصر بين الأم والإبن.

ويعلم الشعراء والروائيون ذلك تماماً. ففي كتاب «عشاق وأبناء Amants et fils لـ «د. ه.لورنس»» يدرك أبناء السيدة موريل، الجحيم الذي تعيش فيه أمهم. وغدت خيبتها الغرامية قدر أبنائها. فعليهم تحقيق المتطلبات المثالية لأمهم، تلك المتطلبات التي لم يستجب الأب لها. «كانت تخشى أن يسير أبناؤها على خطى أبيهم». لقد امتنعوا عن الكحول لأن والدهم كان سكيراً. إنه البكر ويليام الذي اتخذ هذه المبادرة.

كل الأمور التي يقوم بها الرجال، كان ويليام قد قام بها. وكان يجيد الجري بسرعة الرياح. وفي السنة الثانية عشرة من عمره، حصل على الجائزة الأولى في إحدى السباقات. وكان الكأس الذي تُوّج به موضوعاً فوق الخزانة، وأدخل سروراً شديداً على قلب السيدة موريل. فقد كان الصغير يجري من أجلها وحدها. وعاد على جناح السرعة إلى البيت حاملاً جائزته، لاهثاً وصارخاً: «أنظري يا أمي!» لقد كانت المكافأة الأولى التي قُدمت لها. وتقبلتها كملكة.

تريد جميع الأمهات أن يكنّ ملكات ويدفع أبناؤهن جزية ذلك.

وعندما يغادر الأبناء البيت سعياً وراء نجاح في الحياة، لايعلمون، كما لم يكن ويليام يعلم، أنهم أنزلوا ألماً بأمهاتهم، بسحب الحبل السري النفسي.

لم يخطر أبداً بباله، أنها قد تكون أكثر تأثراً في رحيله من سعادتها في نجاحه. وفي الواقع، كلما كان الرحيل يقترب، جعل قلب الأم ينقبض ويمتلئ بيأس حزين. لقد كان حبها له أكثر. وكانت تتوقع منه أكثر من ذلك. كانت تقريباً تعيش به. أما الآن فقد مضى. كما لو أنه تقريباً هرب من قلبها. لا يبدو أنه ترك شيئاً من ذاته فيها. إنه هناك حزنها، وألمها. لقد أخذ معه كل شيء.

وهكذا يساعدنا الشاعر على وصف ما أسميناه مأساة قدر الأمومة.

شيء أكثر مأساوية أيضاً، ويليام، كأي ابن يظل متعلقاً بأمه بحنين عميق ومؤلم، يموت ويهلك ضحية هذا التعلق. وتبكي السيدة موريل موت ويليام كما تبكي جميع الأمهات: «لو كان ذلك لي وحدي». إنها صادقة، وجميع الأمهات قد يفضلن موت أنفسهن.

لقد عرفت أمهات فقدن أبناءهن أثناء الحرب العالمية الأولى. وموت الأبناء أثناء الحرب العالمية الثانية فتح فيهن ثانية جروحاً لا تندمل. «لكم العزاء في أبنائكم الآخرين» هذا ما يقوله أصدقاؤهن، وهذا يدل عن جهل مثير للفضول، في أن فقدان ولد يجعل الأم غريبة لفترة طويلة عن أبنائها الآخرين. العناء والألم هما المركبان الأكثر قوة للحبل السري النفسي، وبخاصة حيثما يتعلق الأمر بالمولود الأول.

فالسيدة موريل ببكائها على ويليام أهملت پول كلياً، ابنها الثاني. ولم تعد إليه إلا عندما سقط مريضاً بالتهاب الرئة، كما لو أنه يقلد ويليام، وعندما أيقظ الخطر خوفها ومشاعرها بالذنب.

كان يصرخ: «سأموت يا أمي»

رفعته قائلة بصوت ضعيف: «آه يا بني، يا بني !»

لقد قالت ذلك سابقاً من أجل ويليام.

ذلك جعله يسكت. لقد فهمها. ثم عاد لرباطة جأشه ووقف.... واتحد كلاهما في حميمية كاملة. لقد عثرت حياة السيدة موريل على جذورها ثانية.

يختلف هذان الابنان أحدهما عن الآخر، وتختلف كذلك طرائق أمهما اللاشعورية للارتباط مع كل منهما.

لقد كانت امرأة متنبهة لنمو طفليها. وكان ويليام يشغلها بشكل رئيسي. إنما حينما كان ويليام يغيب عن البيت، تطلب الأم من پول أن يرافقه. وكان يذهب بعيداً ليبحث عن ثمار التوت ويجلب له أجمل ما استطاع العثور عليه.

وحينما تكافح الأم العامية وسط الواقع، تعطي لخيالها درساً ساحراً وتسعى نحو الجمال، وهنا كان پول الذي يفهمها:

«إنني امراة شريرة، غريبة الأطوار، أعرف ذلك، سأنتهي في البؤس». وحلّت باقة أخرى موضوعة في صحيفة، وأفرغت منها زهور اللؤلؤ الحمر وزهر البنفسج....

وصاحت: «كم هي جميلة !»

«أليس كذلك؟» هتفت دون أن تكتم فرحها الصافي. «انظر يا پول إلى هذه الصفراء، ما رأيك بها؟ وكم تشبه وجه عجوز مسن !»

«تماماً»، صاح پول، «كم رائحتها عطرة ! لكنها مبرقعة قليلاً».

ثم روى لها ما حصل في نهاره كله. وقصة حياته، كحكاية عربية، باح بها لأمه ليلة بعد ليلة. لقد كانت تقريباً، كأنها حياتها ذاتها.

لنلاحظ أنه في تحالف الأم مع الابن، غدت الحكايا اليومية لحياة پول موريل نوعاً من حكاية ألف ليلة وليلة، عالم خيالي لحكاية مشتركة.

وفي قصة «بير جينت» لـ إبسن وأمه آز، يعيشان بعيداً في الشمال، في ظروف ثقافة مختلفة تماماً، وكأنها صورة مزدوجة للسيدة موريل وابنها بول. إنها زوجة عامل منجم انكليزي، تروي آز لابنها الشاب حكايا الجن في ما الأب يحتسي الخمر:

ثم جلسنا كلانا في البيت
نسعى لنسيان بؤسنا
أحياناً نريد التخلص من همومنا
ونطرد الأفكار السيئة
البعض يحتاج للخمر، والبعض الآخر للأكاذيب

تدعو آز، هذه الأم المتسامحة بشكل رهيب، ابنها بالكذاب، إنما هي مستعدة، في اتحاد صامت معه، لأن تحس أكاذيبه كأنها حقائق، لأنها الشيء الوحيد الذي يعطي معنىً لحياتهما المشتركة، هذه الحياة المجبولة بالحرمان. والصلة التي أقامتها بالقصص الوهمية المشتركة وحدتهما حتى الموت، وقد ماتت آز، بين ذراعي ابنها مؤمنة بأكاذيبه، أماً سعيدة في بلدة حكايا الجن.

كثير من الأمهات، في محاولاتهن استمالة أبنائهن، يلجأن بمهارة وبأس إلى مشاعر الذنب: «ستهجرني، أنا التي عانيت كثيراً؟» وأخريات يتخذن التدابير لاحتلال مكانة الأنا الأعلى المثالي بطريقة عميقة وراسخة، بحيث كل ضعف لعلاقة الطفل مع أمه يتم الشعور به كخطر على وعيها الداخلي. كما تتوصل المرأة المهيمنة ذات السلطة الأمومية، إلى السيطرة على أولادها ببناء إيديولوجية مشتركة، مرضية بذلك ميلها التسلطي. وفي كثير من العائلات، يتبين تصلب إلزام التقاليد، لأن أماً محبة ومحترمة تمارسه. وتقدم لنا انكلترا الجديدة عدة أمثلة حول هذا الموقف.

ويبين لنا غوركي، العارف، بعمق شديد، الشعب الروسي، في روايته «الأم»، الحب المأساوي لأم أخرى تجاه ابنها. ومثل السيدة موريل ومثل آز، تم إذلالها وإساءة معاملتها وإلحاق العار بها من قبل زوجها السكير.

إنها في وحدة تامة مع ابنها بافيل في هذا العالم البائس. إنها حياة حزينة وصعبة، الأم تكرس نفسها تماماً لابنها، في ما هو كغالبية الأبناء، غريب جداً ولا دخل له في مصير أمه، عديم الإحساس بمعاناتها، مستغرقاً مع ذاته في شقائه الخاص. مأخوذ بزخم الثورة الروسية، وبيلاجيا فالاسوفا، هذه المرأة النصف ميتة، والمعذبة، وذات الجسد المنهك والذهن البليد، بسبب عناء سنوات طويلة من ضرب زوجها، تصبح بطلة عظيمة في حركة تحريرية، بسبب حبها العميق والهائم لابنها، من خلاله، ومن أجله، ومعه.

وتستطيع آز أخذ ابنها بين ذراعيها، ساعة موتها، لأنها تؤمن بحكاياته، وتعزز بها ثقتها بنفسها. في ما تصغي بيلاجيا للأمور الجديدة التي يقولها ابنها، ربما هذا ليس بالنسبة لها إلا حكاية جن. «ويقترب بافيل منها، ويعرض أمام هذا الوجه السابح بالدموع، أول أطروحة عن الحقيقة التي أدركها لتوّه» وكان يتحدث بما علم به قبل برهة، وهو فخور بمعرفته وممتلئ إيماناً بهذه الحقيقة.

لم يكن حديثه من أجل أمه، بقدر ما كان يريد اختبار نفسه... فقد كان يشفق عليها، واستأنف الكلام، إنما هذه المرة عنها نفسها، وعن حياتها... لقد كانت المرة الأولى التي تسمع فيها كلاماً كهذا عن نفسها وعن حياتها الخاصة... إنما الآن، ابنها جالس أمامها، وما كانت تقوله عيناه ووجهه وكلماته، يحرك فؤادها ويملؤه بالفخر بابنها الذي أدرك حياة أمه، والذي يحدثها عن معاناتها ويتعاطف معها...

رأى بافيل ابتسامة أمه، وجهها المنتبه، والحب المقروء في عينيها. لقد كان ذلك كما لو أنه نجح في إفهامها حقيقة ما يقول، زهو فتي مبني على بأس كلماته ويقويه في إيمانه بنفسه.

وهكذا هؤلاء الأمهات الثلاث وأبناؤهن، رغم عيشهن في أماكن مختلفة، يشبهن ترجمات لنص واحد بثلاث لغات مختلفة اختلافاً كلياً، وهي: حكاية ألف ليلة وليلة لـ پول، وحكايا بيرجينت، وإظهار الحقائق

الجديدة لـ بافيل. ويستمد الأبناء ثقتهم بالنفس من الإيمان الخالد بالأم كأعمق غاية للحياة، في رعايتها لإبنها، أو بالتوهم برعايته. بيلاجيا ڤلاسوفا هي الوحيدة من بين الثلاث التي تجاوزت ذلك، باعتناقها لمثل ابنها وبمساعدته فعلياً في كفاحه القاسي والخطر: «كلمات ابني هي كلمات صافية لعامل، لقلب نزيه غير قابل للفساد! تعلّموا رؤية نزاهته في بسالته!»

وماتت في ثقتها بابنها، متوحدة به بالإيمان بالثورة، تماماً مثل آز التي ماتت بين ذراعي بيرجنت.

وإذا استعرضنا مختلف الطرائق الهادفة للحفاظ على علاقة الأم بالطفل، لتحققنا أنها تخضع لقانون ما. إنها تتطابق مع المراحل المتعاقبة لنمو الطفل. ففي البداية، ترضي الأم الحاجات الغريزية للطفل، مساهمة في سروره. ثم يحقق الطفل علاقة متسامية وحنونة مع أمه، التي تتذوق هذا الحنان وهذه الحاجة للاتكال عليها والتي تستجيب لها. وأخيراً تصبح الأم، بعد تأثيرات تربوية وعاطفية، جزءاً من الأنا المثالي للطفل وبهذا تتحد به.

وتؤدي كل مرحلة من نمو الطفل، إلى ميول متنامية نحو تحرره. وتسعى الأم دوماً أن تبقيه مرتبطاً بها، وتعارض الأفعال التي تهدف لإطلاق العلاقة. وتستمر بجد في هذه المساعي آجلاً، بطريقة لا تناسب الفترة. والسؤال المطروح: في أي مرحلة من النمو تتوافق هذه الطرق، وهل تخدم إشباعاً مفرطاً للغرائز (الطفل «المدلل»)، وحناناً متساهلاً مكشوفاً، أو تأثيراً على الأنا أكثر شدة واستمرارية؟

ولكي تصل إلى غايتها، على الأم أن تحقق بعض الشروط. فعليها أن تمتنع عما هو ممنوع ولا أخلاقي، أو عليها إخفاؤه وستره. ومن الممكن أن علاقة حنونة كتلك الموجودة بين السيدة موريل وپول، تخفي شعوراً بالذنب لرغبة مشتركة بالموت، والموجهة ضد الأب المحتقر. والعلاقة الخيالية بين آز وبيرجينت تخفي إنكارهما المشترك لدونية بيرجينت. وغالباً ما يمكن لتحالف كهذا أن يكون منضبطاً بصيغة أقل وهمية. وغالباً ما يكون

لدينا انطباع أن مثل هذا المزج للدوافع المخبأة يساهم علانية بتعزيز علاقة الأم بالطفل.

ربما وجدت بيلاجيا فلاسوفا الطريقة الأكثر وفاءً: لقد اقترنت باهتمامات حياة ابنها وتعلمت بفضل حبها له، أن تحب شيئاً ما غير شخصي، إنها فكرة التحرر الاجتماعي.

ليس الكفاح من أجل أفكار سامية هو ميل لدى كل فتاة أو فتى. وتوفر الحياة الباهتة اليومية أيضاً فرصاً للأم للاندماج المتفهم مع ابنها (بدلاً من فرض الأمور فرضاً)، وخاصة، إذا توصلت إلى تمثل ما يثير ابنها واستبدال آفاقها الخاصة بآفاقه. وتجد الأم الأنثوية الحدسية في نفسها، الإمكانية لاندماج كهذا، حيث، بنوع من الشعور المسبق المأساوي، تعلم أن في ذلك الطريقة الوحيدة للمحافظة على ابنها. وإن نقصها قدرة داخلية ما، فعليها الاستناد لتعويضات من خارج إطار الأمومة، وتظل أماً يتيمة، حزينة، مملوءة بالمرارة.

ويقول فرويد[1]، متحدثاً عن نساء بصفتهن أمهات: «في الطفل الذي أنجبنه، يجدن جزءاً من جسدهن الخاص مؤلفاً من نوع من أداة غريبة، يكرسن لها الآن كل الحب الموضوعي الذي ينبعث من نرجسيتهن»

تعبر هذه الكلمات عن كل تعقيد الأمومة النفسية. وعندما ننظر، بعدسة التحليل النفسي، إلى علاقة الأم مع أولادها وهم يكبرون، ندرك أننا معنيون هنا بأمر ما فريد من نوعه. فبعض مركبات العقدة العاطفية الأمومية مألوفة لنا بفضل علاقات أخرى وشروط أخرى، فهناك إفراط في تقدير الأداة على غرار الهيام الغرامي، وهناك في الحزن كسوف مشابه لكل الاهتمامات الأخرى للحياة، وهناك استعداد مشابه للتضحية الماسوشية عند الأناس الذين تضطهدهم مشاعر الذنب، كما نجد في الذهان الاكتئابي،

(1) Freud S. : On narcissism : An Introduction. Collected Papers, vol.4.

اندماجاً قوياً جداً مع الغير، بحيث كل ما يعزى وينسب له، في لاشعور المريض، يتحول ضد أناه الخاص.

فالأم التي تحيا مع فكرة ثابتة ومقلقة نفسياً بأن عليها فقد أطفالها، قطعة إثر قطعة على نحو ما، لصالح نموهم اللاحق، تتصرف، مع ضبط نفسها إلى حد ما، وكأن أحداً سوف يهجرها، وفي الوقت نفسه مع أداة محبوبة جداً، أو جزء هام، غال، لا غنى عنه من شخصيتها. وغالباً ما تشبه مخاوفها بما يخص الطفل الذي في طريقه للاستقلالية، نحيبَ سوداوي المزاج الذي سحقه القلق على نفسه، وقبوله بتضحية تفوق تضحية العاشق الماسوشي الطبيعي. ونجد على الأخص لدى كثير من الأمهات، ردة فعل يبدو من الصعب تفسيرها إلا وفقاً لتعزيز خاص للروح الأمومية كما هي. وغالباً ما توافق أم كهذه بفرح، على التضحية بكل شيء لأولادها وبكل صدق، وعلى الأخص، لابنها الوحيد. وهي في الوقت نفسه تفرض شرطاً للحياة متصلباً وقاسي القلب، هو أن يكون سليماً وبصحة جيدة. وهي بهذه النقطة غير متهاونة وليس عندها اتجاه اجتماعي. فابنها هو مركز العالم، في ما الجانب القبيح من الحياة، الذي على كل البشر أن يشهدوه، عليه ألا يتعرّض له.

وتحس أيضاً أم كهذه، بوجود الحبل السري النفسي، بحدة خاصة، إنها تقاسي كثيراً من فراقها عن ابنها، وعليها متابعته في كل لحظة من لحظات حياته، وتتعلق سعادتها وشقاؤها به بصورة كاملة. وحياتها النفسية هي صدى عاطفي لما يحصل لابنها. وهي لا تعير اهتماماً للشؤون الاجتماعية وغيرها، إلا حين تفرغ همومها مما يخص ابنها، ويمكن عندئذ لهذه الشؤون أن تكون غنية وحيوية.

وعندما نحلل مثل هؤلاء النساء، نعلم أنهن كن نرجسيات جداً قبل أمومتهن، وكان لهذه النرجسية عادة طابع محدد، وكانت تظهر بتصور مثالي راق، وبرصانة انفعالية لم تكن تنذر بقدر من الفقر العاطفي ما دام الاحتياج كبيراً تجاه الأداة. إنهن لم يضطلعن على الحب المنذر والإيثاري والمتسامح

تماما مع أداته، إلا في علاقتهن مع أبنائهن. وإذا حُملت امرأة كهذه على التشاؤم وعلى المعاناة المتعمدة، فإن مخاوفها وهمومها من أجل المستقبل تُطبّق على الطفل، ويتعلق خوفها من مخاطر الحياة بشخصه أقل مما يتعلق بشخصها.

لقد أدركت أني في طريقي لوصف أم عصابية هنا. لكن عصابها ليس إلا تشويهاً، وربما خفيفاً جداً، للقدر الأمومي بشكل عام. فالحب الأمومي هو مزيج خاص من النرجسية والحب الموضوعي، وبالعمق، لا يشكل الطفل أبداً «أداة غريبة» بالنسبة لأمه. فالحب الذي تمنحه إياه هو، بطريقة متباينة، حب إيثاري على الذات. ولذلك فمهمة الانفصال عن الطفل تعد نفسياً صعبة جداً.

والطفل باعتباره أداة حب لأمه، يفترض به، في اتجاه آخر كذلك، أن يتوصل إلى كيان مستقل. وتعد العلاقة معه اكتساب جديد يحوّل، إلى حد كبير، لعلاقات قديمة. وهو مهدد أيضاً بخطر أن يندمج بأدوات أخرى، لدرجة أن جميع المؤثرات التي تكون والتي كانت مترافقة بالآخرين تطبّق عليه. وفي الموقف الثلاثي، لا يحب الطفل أن يصبح جزءاً من أحد الأبوين، إنما عنصراً مستقلاً. لقد سبق وأشرنا للخطر الذي يشكله الجهد المبذول من الأم للحصول على اندماج الطفل بذاتها. وقد يكون لهذا الاندماج علاقة بمرحلة محددة من ماضي الأم، مرحلة تمتد في حياتها الخيالية لتتكرر في الطفل. وتجارب طفولة الأم الخاصة، تكون عادة مشمولة هنا. وإلى جانب التمني: «ستكون أكثر سعادة مما كنت أنا» يظهر التكرار بصيغة ما، ويُعزى للطفل دور محدد لا علاقة له بتمنياته وتطلعاته الخاصة.

وسنجد مثالاً على ذلك في حالة أم بيّن التحليل معها ما يلي: لم يكن عندها إلا صبي صغير تحبه كثيراً. وكانت ذكية وحدسية وتعتقد أنها لا ترتكب أي خطأ في تربيته. وقد كرست لصغيرها جزءاً كبيراً من وقت فراغها، وكانت تروي له حكايات حقيقية وخيالية، حول حياتها في روسيا حيث وُلدت. والحكايات المبتكرة معترف بها دوماً كحكايات العلاقة

المشتركة. وإحدى هذه القصص، التي تُروى للطفل أثناء وجبات طعامه، كانت التالية: «عندي (في روسيا) ثلاثة أبناء طوال. إنهم ثلاثة عمالقة. يأكلون في كل وجبة بيضة كاملة وكيساً من السبانخ بحجم الغرفة. ولهم قوة خارقة ويقومون بجميع أنواع المآثر».

والأعمال الجليلة لهذه الشخصيات كانت توصف بالتفصيل، ويتسلى الطفل والأم بها كثيراً. وموقف رجالها الثلاث الأقوياء والبلهاء إزاء الصبي الصغير لم يكن بالطبع لطيفاً جداً، لأنهم يعلمون تماماً أن الأم لا تحب إلا هو. عندئذ قالت له أمه لماذا تحبه كثيراً، بصورة متميزة جداً، في حين لا تحب الآخرين، لقد كان ذكياً ومرهفاً ووديعاً وكانت له الأمور الذهنية قريبة وقيّمة مثلما كانت لأمه.

وكان يبدو أحياناً الأخوة الثلاثة كخصوم، إنما عادةً كانوا دوماً منبوذين من أمهم ومجبرين على العودة إلى روسيا دون أن يحصلوا على شيء. فليس لهم هناك أي عمل. والأم لا تحب غيره، الصغير، وكانت هذه الحكايات تعود بالحديث دوماً إلى هذه التريدة. وكانت نفسها تحس بفرح ممتع وشعور بالنصر المُحرَز على «الأقوياء الطوال» بسبب عواطفها الحارة والمشبعة، التي تشعر بها نحو ابنها الصغير المحبوب جداً. وكانت تسأم، إلى حد ما، عندما لا يأكل جيداً، أو عندما تعتريه علانية المخاوف أثناء الليل. إنما لم تكن ترى أي سوء في حكاياتها.

وأظهر التحليل أنها نفسها كانت قد ولدت قبل فترة طويلة من أختيها وأخيها. وكانت المفضلة عند والدها، والعلاقة النمطية مع الابنة الثالثة تقوم على مايلي: لقد كانت الوحيدة من بين جميع الأولاد التي شاركت والدها باهتماماته الذهنية والتي اختارت مهنته. في ما الآخرون كانوا عمالقة، إنما انتصرت بأنها أصبحت المختارة والأكثر حباً. والآن، هي الأم، تريد أن تنعم مجدداً بهذا النصر، وتجعل ابنها الصغير الغالي يشاركها به: «سيكون سعيداً معي، كما كنت أنا مع أبي».

لكنها كانت تهمل أمراً نفسياً: إذا شكل أخوتها الثلاثة بالنسبة لها مشكلة محلولة، فليس بحاجة لتكرار تجربة انتصارها على الدوام. واقعياً، لازال هؤلاء الثلاثة العمالقة هنا، كانوا خطراً عليها، وعليها الانتصار عليهم أيضاً وأيضاً. كانت تتذكر أنه، برغم حب والدها لها، تشعر بانعدام الأهمية في صغرها، وكانت تغار كثيراً من قوة ومآثر وإمكانيات أختيها وأخيها. وغالباً ما كانوا يعذبونها أيضاً وتخشاهم جسدياً. وبما أنها كانت قد رفضت هذا الجزء من ذكرياتها في حكاياتها، روته لابنها الصغير، ولم تكن تعلم أنه يرفض الطعام لأنه لم يكن يستطيع، في نهاية الأمر، منافسة صبيان يأكلون ثوراً بأكمله، وأنه يخشاهم أثناء الليل، لأنهم إن فاجؤوه، فسيتبين أنهم أقوى منهم. وهكذا كان الصبي الصغير يحس بلاشعور أمه أكثر مما تشعر هي به، وبدون إرادة منها، كان يندمج مع مركبها في الضيق النفسي.

وهناك أم أخرى كانت تتعرض لحالة مشابهة. كانت تعلم أنها تقدّم لابنتها الصغيرة المدللة والموهوبة أفضل ما يمكن من التربية والثقافة، وتقول لها رغم ذلك: ربما ستكونين ذات يوم، تلميذة متدربة عند حذّاء فقير، وتعانين هناك من حرمان أشياء كثيرة. وهذا لا يضير شيئاً في النهاية لأنه، في هذه الحالة أيضاً، كانت الأم والطفلة شاعرتين كلتيهما بحب ورعاية الأهل. إنما الأم كانت تحتاج بصورة لاشعورية، إلى إشباع ماسوشيتها في حكاياتها قبل أن تتمكن من السماح لابنتها، المندمجة معها، أن تكون سعيدة.

وهناك خطر أكبر أيضاً، يهدد الطفل الذي يجد كيانه منتقصاً باندماجه بأدوات أخرى. وإذا كان الطفل يشبه أباه، المنتقصة قيمته سابقاً من الأم، فيجد نفسه خاضعاً لجميع ردود الفعل خيبة أمل أمه. وإذا اندمج أيضاً بزوج محبوب، يُسحق أكثر أيضاً في تنافسه مع والده. وإذا ساهم الزواج والطفل في التغلب على حب خائب للأم مع رجل آخر، وإذا ظهرت ملامح وآثار الزوج غير المحبوب في الطفل، فسيتعرّض لخطر خسارة حب أمه.

وهكذا كما ذكرت، فوضوح علاقة الأم بالطفل قد يتعرّض للاضطراب خارج المثلث، بسبب التحويل التأثري لعلاقاتها القديمة، والتي لا زالت تكافح من أجل أن تتحقق. وشخصياً، لم أرَ أبداً أماً تكرر في علاقتها مع ابنها صراعاً غير محلول من طفولتها، دون أن يساق به دافعاً عاطفياً أو عصابياً أو موقفاً خاصاً. وسوف أورد مثالاً على ذلك.

أتت أم لطلب المساعدة من وكالة اجتماعية، لأن حالتها لم تسمح لها مطلقاً بتحمل بيتها وأولادها. وكانت مصاعبها تتفاقم بحكم أن زوجها في الجيش، لكن هذه المصاعب، تختلف عن تلك الخاصة بالأمهات الأخريات أثناء الحرب، التي أتينا على دراستها.

فقد كان للسيدة ك. ابنتان، أعمارهما سبع وأربع سنوات، وصبي صغير في سنته الأولى. وكانت في عمر العشرين قد تزوجت من شاب في الثانية والعشرين تعرفه في المدرسة. وعندما قرر الزوجان تأسيس عائلة، أرغمت الفتاة على قطع دراستها، وقامت بذلك دون أي شعور بالأسف. وتخرّج الزوج من المدرسة بتفوّق، وبفضل مساعدة معينة من أهله وأهل زوجته، سرعان ما كان جديراً على صون عائلته، وتنميتها وفقاً لرغباته. وحتى ولادة أصغر طفلتيها، كانت السيدة ك. زوجة وأماً مفعمة بالطاقة والصحة والاستقلالية. واستطاعت بيسر السيطرة على مصاعبها، والعادات السيئة... إلخ لابنتيها، كما وجدت دوماً الوقت لإشباع اهتماماتها الذهنية.

وبعد فترة وجيزة وبعد ولادة ابنها الصغير، تعرّضت لالتهاب مثانة حصوي، كانت قد بدأت المعاناة منه أثناء حملها الأخير. ومنذ ذلك الحين، غدت عاجزة عن الاهتمام بشؤون بيتها وحياتها الخاصة، ولم تعد تستطيع حسن التدبير أو إهمال بيتها، وأصبح أولادها أكثر فأكثر، غير منظمين، وأصبح ابنها الصغير يسبب لها المتاعب. لقد كانت مرضعة ممتازة لابنتيها، إنما ابنها الأصغر لم تستطع إرضاعه إلا لفترة قصيرة بسبب مرضها. ومع ذلك بدا الصغير جسدياً في صحة جيدة، إنما بعكس البنتين، كان سبباً لاضطراب وتوتر في البيت. وابتداءً من شهره السادس، راح يبكي

كل ليلة، ويفقد شهيته مع الوقت، ويطرح مشاكل جديدة على أمه، تارةً التهاب في الحنجرة، وتارة آلام في الأسنان، أو زكام أو اضطرابات هضمية... إلخ وكان طبيب الأطفال يقول أن فرانكي «ولد رائع» وأن أمه «عصبية».

وأثناء المحادثات بدا، شيئاً فشيئاً، أن السيدة ك. كانت تكره ابنها الصغير بصورة لاشعورية، وأنها كانت تسعى منذ البداية، للتخلص من كراهيتها بانشغالها به بصورة مبالغ بها. وكان يكلفها ذلك بذل طاقة كبيرة. ومن هنا جاء تعبها وإهمالها لبيتها، وإن وجدت نفسها عاجزة عن الاستمرار في التربية الحسنة التي تقدمها لابنتيها. وكانت تبالغ بأقل وعكة تصيب الطفل، وتعاني دوماً من هموم تجاهه، كعنصر خوف من وسواس المرض: «في نهاية الأمر، إني مريضة. انظروا إذن، سوف أغيب عن الوعي». هذا ما كانت تقوله باستمرار. كما كانت تقول أنها تنام مساءً في قلق متوقع: «هل سيزعجني أيضاً؟» وتصغي بقلق نفسي، تاركة الأبواب مشرعة ...إلخ. وبالطبع كانت تخلق جواً من القلق حول الطفل. وأثناء النهار، تجد نفسها مضطرة، لمعاقبة الصبي، أسوة بأختيه اللتين كانتا تتأثران بقلق أمهما بقلق نفسي مماثل. وكانت السيدة ك. تؤكد أن ابنتيها كانتا «ملاكَين» قبل ولادة فرانكي.

ولم يكن السيد ك. خاضعاً للتعبئة العسكرية، ومع ذلك كان منخرطاً فيها، لأنه لم يستطع تحمّل جو بيته. وقد بُذلت جهود للحصول على مساعدة بعض نساء العائلة، وعلى الأخص، والدة السيدة ك.، لكن عبثاً، فالسيدة ك. رفضت التخلي عن سيطرتها على أولادها.

وكفّت أخيراً عن رفض كراهيتها لابنها، وتقبلت الأمر، وسألت بيأس من أين يصدر ذلك. وكان عليها حينئذ أن تتخذ قراراً بوضعه في منزلٍ للأطفال.

حتى سنتها الثامنة، كانت السيدة ك. طفلة وحيدة ومدللة ومعبودة،

إلى أن أنجبت أمها صبياً صغيراً، جذب طبعاً أنظار العائلة كلها نحوه. ولم تتقبل أبداً السيدة ك. التهدئة التي تمارسها الأمهات عادةً: «سوف يكون عندك الآن أخ، تهتمين به وتلعبين معه». بل كانت تسعى لجذب الأنظار إليها، وأصبحت من ذلك الحين، طفلة مريضة فأحاطتها أمها، والتي تعاني من وسواس المرض، بالأطباء والممرضات، وكانت ترتجف لكل عرض يطرأ عليها مهما كان خفيفاً. وفي أعقاب تصرّف الأم، عانت الفتاة الصغيرة نفسها من وسواس المرض، وخلال الصيف الذي أُرسلت به إلى مخيم، أضجرت كل من حولها بتشكيها. ومع ذلك، في تلك الحقبة، كان عمرها اثنتي عشرة سنة، وبذلت جهداً لكي تتخلص من صراعاتها، بتأثير قائدة المخيّم التي كانت مولعة بها. وكفّت عن منافسة أخيها، متحررة من تبعيتها لأهلها ومن أعراضها المرضية الوسواسيّة، واهتمّت بأمور أخرى، وأقامت علاقات طيبة إيجابية مع الناس. وفي عمر العشرين، وقعت في غرام زوجها المستقبلي، وظلت بصحة جيدة، وهذا ما ذكرناه حتى ولادة ابنها الصغير.

ونعثر مع مجريات قصة السيدة ك. على حبٍ للذات فائق الحد. لقد أحبّت دوماً لكي تُحب، كما اشتغلت من أجل النجاح، وتخلّت عن مهنتها لأنها آمنت بحق، واعتقدت صواباً بالمستقبل الجميل لزوجها. ومضت فترتا حملها بصورة حسنة، و«ملاكاها» الأشقران أشبعا زهوها الأمومي. وكانت قد رغبت وانتظرت أيضاً ولداً. لكن التهاب المثانة هذا المرض البغيض المتشبّث، المزمن، كان إصابة قوية لعالمها الداخلي النرجسي الذي لم يشهد إلى حينه إلا الإرضاءات. ثم أضمرت بسببه الحقد ضد الصبي الصغير الذي شوش إرضاءها، كما فعل أخوها الصغير في السابق. وفي تلك الحقبة البعيدة، كانت تشعر بحرمان في حاجتها للحب وكانت ردة فعلها بالأمراض الجسدية. أما مرضها الجسدي الحالي، فكان بالنسبة لها سبباً في توقّع فيض من الحب، لكنّ ذلك لم يحصل في تلك الفترة، حيث لا ينتظر منها، واقعياً، إلا نذر نفسها، باعتبارها أم لمولود جديد. وبتعبير آخر، أحست بحاجة متفاقمة للأخذ، في فترة انحصرت مهمتها في العطاء. وفي

قهر للنفس النرجسية في مرضها الجسدي، كانت ردة فعلها، تماماً كما حصل أثناء طفولتها، بزيادة حبها للذات، وبجذب انتباه وسواسي مرضي، وبعدوانية ضد العالم المحيط، وبخاصة ضد ذلك الجزء من ذلك العالم الذي ينتظر منها شيئاً ما.

هذا العالم المحيط العدائي والمتطلِّب هو ابنها الصغير. لقد كان السبب في مرضها، إذ طلب منها الغذاء والعناية والحنان. وكان الصراع بين المتطلبات المكثفة لأناها، وبين خدمة التناسل، يؤدي إلى انعدام انسجام متنامٍ. وأصبحت غايتها متناقضة. وإرضاؤها الأمومي بالتضحية خضع، بصورة تامة، لصالح توجه وسواسي مرضي نحو الأنا، واستردّت حبها الأمومي ليس فقط من ابنها، إنما إلى حدٍ ما أيضاً، من طفلتيها الأخريين. وفرانكي الصغير ربما كان طفلاً طبيعياً، سهل التربية، وفي ذلك مشابهاً لأختيه، لو لم يصبح أداةً عدائية لأمه. ومن المحتمل، أن هذه العدائية كانت تظهر في جملة من ردود فعل صغيرة لم تدركها السيدة ك. لكنّ فرانكي تأثر بها بحساسيّة اعتيادية لدى جميع الأطفال الصغار. وبلا شك كان يصدر تصرّف هذه المرأة عن تجميع لتأثيرات سلبية، كمرضها، وتنشيط عواطفها القديمة تجاه أخيها بسبب تشابه الجنس، وبصورة محتملة أيضاً، كمسألة زوجها الذي حول اهتمامه نحو مهام لا شخصية في الحرب. وكانت تبدو كل هذه العوامل كافية تماماً لإثارة اكتئابها شيئاً فشيئاً.

ولا تستطيع الأمهات أبداً تحمّل تضحية شخصية عليهنّ تأديتها للطفل، إذا اشتملت على جرح لنرجسيتهن. ولدى هؤلاء النساء، يُنهك تحويل الاهتمامات المتنوعة من الأنا إلى وظيفة التناسل الاقتصاد النفسي، عدا في بعض الظروف الملائمة. ويتوجب على القوى النرجسية للوقاية الذاتية والوظائف الماسوشية للأمومة أن تتوصل لتوافق منسجم. كما أن مزج حب الذات والحب الموضوعي للطفل هو الشرط الضروري للتجربة الأمومية. وإذا تحمّل أحد هذه العناصر الأساسية للروح الأمومية فوق طاقته، فتظهر الفوضى العاطفية بمظاهرها المرضيّة.

وعند السيدة ك. أجهد المرض العضوي والمتطلبات الشديدة للمولود الشديد العنصر الماسوشي، وفي النتيجة، كانت القوى النرجسية المضادة تتكثف وسرعان ما تلجأ لوسائل كانت مفيدة في الماضي، كالوسواس المرضي، وحب الذات، والعدوانية الحاقدة ضد السبب العرضي بصعوباته. والحارس القديم لنرجسيتها المحرَّض من محيطها، وخاصةً من أمها، يمنعها من تكثيف حبها، بطريقة ماسوشية، لابنها الفتي وكأنه «طفل الآلام» (فرويد).

ومن الواضح أن سلسلة متكاملة من التجارب الداخلية كانت تُستخدم لتجعلها تحوّل على ابنها علاقتها القديمة مع أخيها، ولتطلق عدائيتها بالتوازي مع هذا التحوّل.

ولا ينبغي على الأم أن تحاول الوصول مع ابنها إلى غايات أخرى، غير تلك التي تفيد بأن كيانها له، وإلا ستجازف بخطر الفشل في مراميها، وتُحرم من تجربة الأمومة. وهناك امرأة بقيت بلا أطفال، بصورة إرادية، لمدة خمس سنوات بعد الزواج، ثم قررت الحمل لكي تتحرر«أخيراً» من تبعيتها لأمها، تلك التي أقنعتها بالعدول عن الإنجاب بسبب مصاعب مالية، أو أوضاع سياسية غير مستقرة... إلخ. وهي تُحس بأن نصيحة أمها كنهي وتحريم، فقررت تحدي هذا التحريم بالفكرة الشعورية التالية: «سيمنحني الطفل حريتي». ومضى حملها طبيعياً، إنما ظهرت مصاعب بصورة سريعة بعد الولادة. حيث عجزت عن إرضاع طفلها، واشتكت بأنها لم تحس بأي شعور نحوه، وأنه سبب لها اكتئاباً. وقد لعب الطفل دوراً عكس الذي افترضته، فبدلاً من تحريرها من قيود أمها، فرض عليها عبئاً جديداً، وشعوراً بالذنب لخرق تحريم أمها، وزادت تبعيتها تجاهها. وظلت هذه المرأة لمدة طويلة معادية لابنها، حتى بعد انتهائها من الاكتئاب، ولم تتمكن من التوافق معه إلا بالعلاج التحليلي وحده.

ولنتذكر أنه، لدى كثير من النساء، يعتبر الحمل خادماً لمقاصد محددة لا علاقة لها بالأمومة. وتُحوَّل الآن هذه المقاصد على الطفل.

وغالباً ما تكون مبتذلة وسطحية، كأن يريد الزوج، على سبيل المثال، وريثاً، أو شاهداً على رجوليته، أو يشعر نفسه مجبراً على الخضوع لتقاليد العائلة، أو تعب من العيش في وجود مضطرب، ويرغب بتأسيس بيت مستقر، وتذعن زوجته لرغباته دون أن تكون مستعدة للأمومة. وأحياناً تلاحظ على زوجها بعض مؤشرات عدم الوفاء، وترغب بإنجاب طفل لتقييده. وتدرك أحياناً فراغاً في حياتها، فتقرر أن تصير أماً درءاً للسأم إن صح القول. لا تحصى دوافع هذا النوع الذي يعتبر واقعياً بفظاظة، كما هناك دوافع غير شعورية، وحتى بعضها لا يمكن كبته.

لقد استخدمنا سابقاً عبارات الإرغام الداخلي للأمومة. وهذا ينطبق على جميع النساء اللواتي يحملن بصورة متكررة، وعندهن الكثير من الأطفال دون أن يكن أمهات بكل معنى الكلمة. وغالباً ما لا يستطعن، كالسيدة أندروز، الاستمتاع بالأحاسيس الجنسية إلا إذا اشتملت على الإخصاب.

ويردن أخريات بالحمل، تهدئة شعور بالذنب لاشعوري، ولا يقمن فعلياً إلا بتحميل أنفسهن عبء غلطة جديدة. وفي هذه الحمولات التي تتكرر بطريقة إجبارية، هناك غالباً تداعيات مشؤومة للشعور بالذنب والإحلال منه، أحدهما يحرض الآخر.

وتريد بعض النساء، تذوق الزهو بالأمومة، وأخريات، ماسوشيات، تذوق آلامها. كما تريد بعضهن تهدئة الانطباع العصابي الذي تحسسن به لإتلاف أجسادهن بالاستمناء، مظهرات أن بإمكانهن إنجاب طفل. وتريد أخريات أن تكن حاملات فقط، ويقبلن بالطفل كنتيجة ضرورية، في ما البعض يردن طفلاً فقط، طفلاً جديداً دوماً. ولا تشعر بعضهن أنهن أمهات، ويحاولن إخفاء وإنكار عدم الإشباع هذا بإنجاب طفل آخر. وتعاني أخريات بكشف طفاليتهن ويأملن بأن يكبرن بإنجاب طفل، وإذا لم يحدث الطفل النتيجة المرغوبة، فينجبن المزيد. وهكذا لا يصبح الطفل إلا وسيلة، وليس غاية بحد ذاته، وفي هذه الحالات، لا تقود الأمومة البيولوجية إلى الروح الأمومية.

ثمة دافع أحياناً، يقف حائلاً بين الأم و الطفل وتكون له في البداية أهمية ثانوية، ثم يتغير التوازن شيئاً فشيئاً، والدافع الثانوي يصير أصلياً. فمثلاً، إحدى الأمهات كانت تحب طفلتها، ثم لاحظت فجأة، أنها قد ضحّت بجمالها في سبيل أمومتها. وهي تسعى لاستدراك هذه الخسارة باستخدام ابنتها وتسخيرها لرفع سويّة جمالها واستعادته. وهذا ما فعلته الرسامة الفرنسية، السيدة ڤيجيه لوبران، حيث أخذت دور السيدة العذراء في تصاويرها المتعددة للعذراء مع الطفل. ونراها بين الناس وفي الشارع...إلخ دوماً مع ابنتها الصغيرة، حيث يصبح تمجيد جمالها الأمومي غاية علاقتها مع طفلتها. وعندما كبرت البنت الصغيرة، تمردت طبعاً ضد هذا الاندماج، وحددت لأمها الدور الذي يناسبها، إنه دور المرأة الشريرة في قصص الجن، التي تسأل مرآتها. وكان الموقف بلا أمل لأن الأم لم تستطع التصرف كأم طبيعية تشيخ، وبخاصة، لأن جمالها كان في ما مضى أمراً مهماً جداً بالنسبة لها. وفي الأحوال العادية، يخمد التنافس الغيور من الأم بسبب الاندماج بالحب مع ابنتها، التي تتذوق، بصورة غير مباشرة، لذة النجاحات التي قامتا بها. وفي حالتنا تلك، لم تكن البنت تثق بأمها بحق، وتغار من جمالها المحتفظ به، وتسقط غيرتها على أمها وتكرهها بحقد يعود شؤماً عليها.

إن طور الاندماج هذا للأم الطموحة مع نجاحات أولادها، والأم المعتدة بجمال ابنتها، هو أحد وسائل الخلاص الذي يكون في حوزة كل أم. وبصورة عامة، من النادر أن تنافس أم ابنتها، وادعاؤها بالغيرة هو عادة إسقاط عليها لصراع نمطي طفولي.

قلب آخر للأدوار، يعود لأسباب ثانوية، ويأتي من ميل الأمهات لنقل نموذج خاص، في علاقتهن مع أولادهن. وعلى هامش هذه النماذج (الراسخة منذ الطفولة بناء على بعض أفراد العائلة)، تحدث اكتسابات جديدة في الحياة اللاحقة تتحكم أيضاً، بصورة لاشعورية، بالتكرار. ويعتبر هذا الطور واضحاً جداً عند النساء الهستيريات متعددات الشخصية أو

اللواتي ينتمين إلى نمط «كأن». وتمر روحهن الأمومية بنفس تقلبات شخصيتهن في مجملها. وباعتبارهن أمهات، فيكن تارة شخصاً وتارة آخر.

النموذج الذي تنظر إليه امرأة ما، كصعب البلوغ في مجالات أخرى، يمكن أن يبدو لها سهل البلوغ كأم، ويدفعها إلى تصرف خاص. فامرأة اشتراكية ألمانية من حقبة عام 1890 تجد أناها السياسية المثالية في الثائرة ليلي براون، التي كانت مرغمة على البقاء بعيداً عن الأضواء بموهبتها المتواضعة. وفي علاقتها مع ابنها، قلدت علاقة ليلي براون مع ابنها، الرجل العبقري الذي قضى شاباً (كما كانت تبدو هذه العلاقة في ذكرياتها). وكان ابن هذه المرأة قوي البنية وضعيفاً من الناحية الذهنية، وأصبح بعد ذلك أحد مرضاي، وقد دُفع بسبب سلوك أمه تجاهه أن يصبح لصاً في إحدى العصابات.

تورّط الأمهات العصابيات أبناءهن بسهولة في الطور المرضي. ويتعدى الصراع العاطفي العصابي على أقدس أقداس الروح الأمومية. ويفقد الطفل اتجاهه الأصلي ويخضع لتحريضات عاطفية لا يفترض بها أن تخصه. وباعتباره حفيد لجد مكروه، وباعتبار الابن أو البنت من أب مرفوض، وباعتباره ذكرى لردة فعل غير مرغوب بها وربما «آثمة»، وباعتباره أيضاً جزء من أمه التي توجه ضده الهياج الماسوشي الذي تشعر به ضد نفسها، فهو مكروه أو مرفوض ومهمل ومُساء معاملته.

وعندما يصبح ضغط الواقع غير محتمل أثناء الصراع الذي يقابل ميول الوقاية الذاتية للأمومة، غالباً ما تتخلى الأم، لكي تهتم بنفسها، عن علاقة حب كان من الممكن أن تكنّها لابنها وتفضل رفضه. وفي أحيان أكثر، تبقى العلاقة العاطفية مع الطفل معلقة في فراغ يُحَس به ذاتياً، لأن تحريماً داخلياً نجح في معارضته وعزل التجربة العاطفية، قبل أن تتملك إمكانية النمو بصورة تامة. وغالباً ما تتهم أمهات فتيات جداً أو فتيات أمهات، أنفسهن «بأنهن لم يشعرن بشيء تجاه الطفل». ويحصل ذلك أيضاً بالنسبة للنساء اللواتي كل أمومتهن، بدءاً من الحمل إلى الولادة إلى العلاقة

اللاحقة مع الطفل، موسومة بالتحريمات والتهديدات بالعقاب. هناك امرأة شابة كانت تؤكد بعناد أن ابنها كان غريباً عنها تماماً، واستمرت في هذا التأكيد إلى أن اكتشفت أن أمومتها كانت قد خضعت «للعنة» أبيها المرحوم، فقد عارضها في الزواج من والد الطفل. كما أن الأم الملحدة قد تشعر نفسها غريبة عن ابنها، لأنه بنظر لاشعورها اللين كما بنظر أبويها المتدينين، «ابن زنا» بسبب زواج أهله الذي لم يتقدس باحتفال ديني.

وهناك طابع طفولي يُستأنف أثناء الأمومة (غالباً ما كانت لي فرصة في إقامة صلة مع هذا الطابع) ويخلق أرضية غير ملائمة للمهمات العاطفية الصعبة والخطرة لهذه الحالة. ولا ينجح الإنجاز إلا بصورة متقطعة، حيث تكبر الفتاة وتترعرع في فترة دورها الأمومي، لكنها عادة حائرة تائهة في عواطفها، وتهرب منها بإنكارها ونفيها بكرهها. هناك أم فتية جداً أوشكت أن تخنق طفلها الرضيع وهي تقول: «كان صراخه كثيراً ولا أعلم لماذا».

تخاف الأمهات دائماً بسبب أطفالهن وأحياناً يخفنهم. فهناك الخوف من الإرضاع («سيفترسني»)، والخوف المبرر الذي تشعر به الأم في تخليها عن أناها من أجل الطفل، والخوف الذي غالباً ما يعبر عن نفسه بقلق، بحكم طموحاتها الشخصية، وجمالها...إلخ يمكن أن تقود كلها إلى عدائية، وإلى تصرفات ناتجة عن ردود فعل. والأمهات اللواتي يتخذن هذا الموقف، لا يستطعن تحمل العدوانية الطبيعية التي يوجهها الأطفال من الجنسين نحو أمهم. وينبغي الإقرار بشكل خاص، أنهن يحرضن على هذه العدوانية. ويحدد هذا، التبعات الطويلة للمصاعب بين الأم والطفل، حيث تكون تقريباً العوامل الأولية والثانوية مستحيلة التمييز. وفي كثير من الحالات، لا ندري لماذا تتصرف الأمهات كما لو أن أمومتهن ينقصها نوع من المناعة ضد الأخطار الخاصة بظرفهن. ونملك أحياناً انطباعاً، بأنهن يتعرضن لنوع من الكبت في النمو الذي تجتاحه السلبية والذي تغيب عنه العناصر الإيجابية النشيطة للأمومة.

ويترافق الإحساس الحدسي للأطفال مع دوافعهم العدوانية،

لاستغلال الضيق النفسي الكابت للأم، وتصبح ضحيتهم المعذبة، وتترنح باستمرار، بين الدفاع عن الذات والاستسلام الماسوشي.

وعندما نلقي نظرة بالعودة إلى الماضي نحو الأطوار النفسية للأمومة، نرى أن هذا الطور البيولوجي والذي يبدو بسيطاً وطبيعياً، يشتمل على مهمات صعبة بالنسبة للمرأة. ونرى فيه عالماً كاملاً من الأقطاب المتعارضة، واهتمامات الأنا وخدمة النوع، وميل الأم للحفاظ على وحدتها مع الطفل واندفاع الطفل نحو الحرية، والمحبة والعدائية، وعدد كبير من الصراعات الشخصية، وغالباً العصابية. إن الطرق المستخدمة لحل جميع هذه المشاكل تتنوع تنوعاً فردياً. وبلا شك، الطريق الذي شقّته الطبيعة هو الأكثر فعالية، حيث أن إنجاب المزيد من الأطفال هو أفضل طريقة للحماية من الخسارة المأساوية. وكثرة الأطفال تجعل الحبل السري النفسي أكثر واقعية، وتسهل حل المشكلة التي يشكلها. ويجد هذا الطريق نفسه مسدوداً بقوة بالمؤثرات الثقافية. بيد أن تعزيز المصالح والاهتمامات الأنانية بغطاء اجتماعي، وذهني ومهني، وبخلق صراعات جديدة للمرأة، يخلق أيضاً فرصاً جديدة لحلها. كما يمكن لأنا المرأة أن يدعي أن ليس هناك بالواقع أي روح أمومية صافية، تماماً كما لا توجد أي أنوثة مطلقة ولا رجولية مطلقة، وقد اعترضنا سابقاً ضد التمييز إذا أقيم بين أم وموسس، وبالتلميح حين تعرضنا للمومس الأمومية (ص 47). فالنساء العشقيات، وربما حتى أولئك اللواتي لديهن بعض صفات المومس، غالباً ما تكون حرارة مشاعرهن الأمومية أكثر من النساء الزاهدات، ويمكن لمركبات رجولية أن تمد النشاط الأمومي بمساهمة مفيدة...إلخ كما يمكن أن يكون لكل صفة أمومية معزولة تأثيرات مشوّشة إذا كانت شديدة، ويمكن لقناع الروح الأمومية أن يخفي مظاهر غير أمومية بصورة كلية، وقد تُستخدم الروح الأمومية لغايات غير مباشرة...إلخ

وتشكَّل الصفات الخاصة للأمومة، من مركز أمومي تتجمع حوله العناصر الثانوية بدرجات متفاوتة. ووجود هذه العناصر شرط لا غنى عنه

سواء للروح الأمومية، أو لوجود المركز. ومن وجهة نظر منهجية، هذه الطريقة للرؤية هي نفسها التي استخدمتها لتعريف جوهر الأنوثة(vol.I)، في إيلاء عناية كبيرة لأخذ مركبات ثانوية هامة بعين الاعتبار.

❀ ❀ ❀

الفصل العاشر

الأمهات غير المتزوجات

هناك روح أمومية لعدد كبير من النساء، لا تكشف عنها ولا تعترف بها أخلاقياتنا الاجتماعية. فالأمومة اللاشرعية، هي قبل كل شيء مشكلة اجتماعية، ويُحكم عليها بطرق مختلفة، وفي مجتمعات مختلفة. ودون أن ندخل في كل تعقيدات هذا الجدل، سنلفت الأنظار بأنه، حتى في حضارتنا نفسها، تتنوع الأحكام الأخلاقية حول هذه المسألة وفقاً للبيئات. وفي بعض الطبقات الاجتماعية، تعيق الصعوبات الاقتصادية الإخصاب في الأسر والبيوت، وهكذا تدفع نحو الأمومة اللاشرعية. وبين فلاحي أوروبا، الأعراف المتأثرة بالموروث تمنع دوماً الزيجات المسبقة. وفي قلب الطبقات الدنيا، في الأرياف والمدن، تعد العلاقات الجنسية قبل الزواج أمراً وارداً جداً، إنما غالباً، هناك احترام لنظام الزواج الأحادي، وحتى بلا زواج، ويتمتع الأطفال اللاشرعيون بنفس الحقوق العائلية للأطفال الشرعيين الذين ولدوا بعد أخوة لهم، وعلى الأخص، حين تؤدي علاقة الحب إلى الزواج. وفي هذه الحالات، ليست اللاشرعية مُدانة من الناحية الأخلاقية، إنما تسهم في النظام الجنسي الذي تقره الأعراف.

ولا ريب أن التطور الاجتماعي في العقود الأخيرة سبب في تغير الموقف إزاء الأطفال اللاشرعيين في جميع الدول المتحضرة. واعتبار النساء خاطئات، أولئك اللواتي أنجبن أطفالاً دون المصادقة على الزواج، غدا رأي أكل عليه الدهر، والإدانة القديمة أفسحت المجال للنظر إلى

الفتيات الأمهات كعلامة اجتماعية ناتجة عن ظروف اقتصادية وجنسية معينة. ويُنتقد النظام الاجتماعي القائم لطريقته في معالجة الأمومة اللاشرعية. ومن الصعب تقييم، بطريقة موضوعية، تأثير هذا الاتجاه، على الأحكام الاجتماعية المسبقة المتأصلة ضد اللاشرعية. وتلقي شواهد غير مباشرة، أضواء قوية على الأفكار التي ترجّح هذا الموضوع. ففي حزيران عام 1944، صدرت المذكرة التالية في Les Médical Economics :

رُفض في وزارة الصحة لولاية نيويورك، مقترح يهدف إلى منع النشر في الصحافة لقوائم المواليد التي يمكن أن تراجع حالياً مكاتب الأحوال المدنية. وعند انتهاء اجتماع التداول حول هذا المقترح، ذكر الوزير أن المحامي العام للولاية أقر أنه ليس لديهم سلطة تخولهم تبني منطق كهذا.

وقد وُضع هذا المقترح في البداية، لحماية الفتيات الأمهات والأطفال غير الشرعيين من أي إشهار، لكن جمعية الناشرين لولاية نيويورك كانت قد أكدت أنه لو كان المقترح قد قُبل، لربما رفض وزراء آخرين بدورهم، النشر المنتظم لمعلومات رسمية. وقد ألغت معظم الصحف، بصورة تلقائية، نشر المواليد اللاشرعيين، وصرح محاميهم أنهم قد يستمرون في هذا الإجراء.

إنه برهان من جانب الصحافة على اللياقة، في تعليق نشر المواليد غير الشرعيين وبصورة إرادية، وأولئك الذين روّجوا لمنع قوائم المواليد في الصحافة، فعلوا ذلك بالتأكيد بدافع اعتبارات خيّرة. ومسألة أن المحامي العام غير مخوّل بتلقي هذا المقترح، وأن جمعية الناشرين ترفض رسمياً التخلي عن حقوقها، هو أمر لا يعنينا هنا. إنما أمر مثل هذه الحماية للفتيات والأمهات وللأطفال غير الشرعيين، هي حماية مرتكزة على تحفظ ولياقة الصحف، تعد ضرورية، وتبين أن مجتمعنا لازال ينظر لأمومة كهذه بأنها نكبة يجب حمايتها ضد الإفشاء. ويتيح علم الطب اليوم، للنساء، إنجاب أطفال بدون آلام تقريباً. ويعتقد بذلك أنه يزيد من إرادة النساء على أن يصرن أمهات، أو تنهضن بذلك بمهمة اجتماعية هامة. إنما ألا يفقد هذا

التقدم قيمته، بحكم أنه يصدر ضمن نظام اجتماعي أوجب على الأمومة أن تتخفى من أجله وكأنها بليّة، ما لم تؤطر بنمط اجتماعي معين؟

ولا بد أن تكون الاعتبارات النفسية هامة جداً، عندما نطرح بوضوح مسألة اللاشرعية. حيث هناك تفاعل له شأنه بين المحدّدات الاجتماعية والنفسية لهذه الظاهرة. فحينما تكون الإدانة الاجتماعية أقل قسوة، وحينما لا يُنظر للأطفال غير الشرعيين كغلطة فاحشة، لا تكون ردود الفعل العاطفية للفتيات الأمهات نفسها عندما توصم الأمومة اللاشرعية بالعار دون رأفة من القانون أو من الرأي العام.

ومع ذلك تكمن العوامل النفسية بصورة عميقة في روح المرأة، كما أن للأمومة اللاشرعية نقاط انطلاقها العاطفية الخاصة. وتشكل العوامل الاجتماعية خلفية للعوامل النفسية، ولا تتحرك بعد ردود الفعل العاطفية بصورة تامة إلا بالعقبات الاجتماعية. ونحن نعلم أنه في ظروف طبيعية، تعاني النساء غير المتزوجات من صعوبات كبيرة للتغلب على كبتهن الجنسي بسبب خوفهن من الحمل. وإلى جانب الخوف من فض البكارة، يعد تهديد الحمل الحارس الأقوى لعفاف الفتاة الشابة. كما يرافق كذلك خوف الأمومة الحياة النفسية للمرأة في الزواج، ويعد الفارق بين المظاهر الطبيعية والمرضية من هذا الخوف فارقاً كمياً، ولا يُباح به إلا إذا أدى لصعوبات تتعلق بالوظيفة التناسلية. ويلعب التحريم الاجتماعي للأمومة اللاشرعية دور حليف لهذا الخوف المتأصل تأصلاً عميقاً، ويسوّغ هذا الخوف ويسهل بذلك التكيف مع الواقع. ومن ناحية أخرى، لدينا الأحاسيس الجنسية للمرأة غير المتزوجة، والتي ليست قادرة دوماً على التهرب من النتائج الفيزيولوجية للفعل الجنسي. وقد يتضح التمني الشعوري أو اللاشعوري للطفل أقوى من الحجج العقلانية التي تعترض على ذلك.

وهكذا لدينا توزيع دقيق للقوى بين الميول التي ترغب والميول التي تحرم. ولا تتبع دوماً بصورة ميكانيكية الأطوار النفسية، مخطط هذا التوزيع للقوى. وقد يؤدي التحريم الداخلي لإحجام وامتناع، إنما قد يحرّك التحريم

ذاته تحريضاً يميل لانتهاكه. كما يمكن للاحتجاج العنيف المحدد تحديداً نفسياً أن يعترض على التحريضات الخارجية. فأثناء الفعل الجنسي يمكن لرغبة الحمل، التي لا تساوي دوماً رغبة إنجاب الطفل، أن تتثبت. لقد سبق وبينت أن الحاجة للأمومة ليست بالضرورة تعبيراً عن قوة غريزية، كما ليست بالضرورة في خدمة الروح الأمومية الواقعية. لقد عالجت هذه الظاهرة النفسية في الأمومة الشرعية، ونصادفها بوضوح أكثر في الأمومة اللاشرعية. وبهذا فنفسية الأمومة اللاشرعية لا تتوضح كما هي إلا بصورة جزئية كردة فعل على الصعوبات الاجتماعية.

وهناك مسألتان نأخذهما بعين الإعتبار في وجهة النظر هذه: أولاً- الشروط النفسية الضرورية للحمل اللاشرعي، وبخاصة في الحالات التي من الممكن تجنبها أو حين تتكرر لعدة مرات، رغم تأثيراتها الهدّامة على حياة المرأة، ورغم مسألة أنها لا ترغب حملها أصلاً. ثانياً- ردود فعل المرأة، الناتجة عن أمومتها اللاشرعية.

لقد نوّهت أن الحمل له معناه النفسي الخاص، إلى جانب مسألة أنه توطئة للأمومة. ولقد رأينا أن بعض النساء يصبحن حاملات لعدة مرات بموجب إلزام داخلي، لإرضاء ميول نفسية غير مرتبطة مباشرة بالرغبة بطفل. لكن بما أن الأمومة هي نتيجة للحمل، فمن الصعب نفسياً فصل هذا الشرط عن نتيجته. وأيضاً يستحيل علينا تجنب بعض التكرار أثناء عرضنا للموضوع.

إن نمط الأم غير المتزوجة الذي نصادفه في معظم الأحيان، هو الفتاة الشابة التي لازالت فريسة للقلق النفسي المرافق لمرحلة المراهقة. وهو النمط الذي يحتاج للمساعدة الاجتماعية. ولقد رأينا كيف يمكن للعب الجنسي السابق لأوانه أن يصبح شأناً جدياً، وكيف يمكن لمأساة الأمومة اللاشرعية أن تنتج عن دوافع نفسية ثانوية. وكل عبء شديد لصراعات مرحلة البلوغ يمكن أن يكون لها هذا الفعل. ويمكن للدافع أن يكون مهرَباً من خيالات زنى المحارم، بالاستسلام الكلي بين ذراعي أول رجل قادم

(كثير من الرجال هم بديل لواحد) مع أو بدون إشباع ما للتحمس السابق لأوانه «أريد طفلاً»، ويمكن للدافع أن ينبثق من اندماج غير ملائم (مع أم أو أخت أو صديقة حامل)، أو عن حاجة للانتقام من العائلة، أول ميل لمعاقبة الذات... إلخ. وأحياناً هناك تناسق معقد لدوافع نفسية، وأحياناً تكفي فضولية جنسية بسيطة، أن تجعل فتاة شابة مستعدة بصورة غير كافية لمواجهة الأمومة، تلك المهمة الخاصة بالراشدين بصورة قوية.

إن الشعور بالوحدة في مرحلة المراهقة، التي تحدثت عنها سابقاً، يزيد أحياناً تفاقم حالة اكتئابية وانطباع بالفراغ، وتبحث الفتاة الشابة عن معالجة لذلك، في مضيها نحو الحياة، والإثارة، والملذات الممنوعة. هؤلاء الفتيات، وعلى الأخص من زاد على شعورهن بالوحدة، نقص الحنان في محيطهن، يسمحن لأنفسهن بسهولة، إطلاق العنان لأحاسيسهن الجنسية، وهكذا يصبحن أمهات. ويتخذن توخياً للحنان، الإشتهاء الجنسي للرجل. كما أن حاجتهن الخاصة للحنان، تخلق فيهن قابلية للأمومة، بسبب الفرص الرائعة التي تمنحها هذه الحالة لإشباع أكثر المشاعر حناناً. فالأمهات غير المتزوجات الأموميات هن غالباً النساء اللواتي استسلمن كلياً لأول وثبة جنسية بعد حاجتهن للحنان.

وهذا ما حصل مع لويز، وهي فتاة شابة في السابعة عشرة من العمر، أتت عائلتها، لطلب المساعدة والنصح من وكالة اجتماعية، لقاء المصاعب التي وضعت فيها هذه الطفلة. وكانت أمها قد ماتت قبل بضع سنوات، ويعيش والدها في تكساس مع امرأة أخرى، كما يعيل لويز بشكل جزئي. والسيدة ل. ابنة خالة الأم المتوفية، كانت تعتني بالفتاة الشابة. وهي امرأة لطيفة تناهز الخمسين عاماً، وتظهر رعاية واضحة للفتاة. وكانت تعيش مع زوجها، وعائلة ابنتها المتزوجة، في مزرعة في انكلترا الجديدة. وكانت لويز تتعلم الموضة في مدينة مجاورة. وقبل أن تخضع حالتها للوكالة الاجتماعية بأربعة أشهر، أنجبت صبياً ثم عادت إلى المزرعة معه. ولم تكن ابنة خالتها تعلم شيئاً عن حملها، مع أنها سمعت أقاويل عن خروج لويز

كثيراً مع الشبان. وكانت لويز تنكر الأمر، وابنة خالتها التي أعياها عمل أسرتها لم تعد تستطيع الاعتناء كثيراً بالفتاة: «تعلم لويز أننا سنساعدها دوماً عندما تكون بحاجة لنا». وتكمن الصعوبة الآن في أن لويز ترفض الانفصال عن ابنها وتتصرف بشكل عام بطريقة وقحة جداً وغير محببة. وحين كانت طفلة، كانت لطيفة دوماً، إنما كتومة ومسترسلة في أحلامها.

وكانت لويز حنونة جداً مع طفلها، لكنها رفضت إرضاعه لأكثر من ستة أسابيع، مدعية أن ممرضة المشفى قالت لها إن الطفل ليس بحاجة لحليب أمه لأكثر من ستة أسابيع. ووجدت خالتها أن الفتاة الشابة قد تغيرت رأساً على عقب. حيث كانت خجولة ومتحفظة، وهاهي الآن تخرج مع الفتيان وتعود في ساعة متأخرة من الليل. ولا تقوم تقريباً بأي عمل، إنما تحمل باستمرار ابنها على ذراعيها وتغنجه. وتأخذه إلى سريره في الليل، وبما أنها تعود متأخرة غالباً، فكان الطفل يصرخ طالباً أن يُحمل. وتعتبر العائلة أن على لويز أن تفكر بمستقبلها أيضاً. وهي تريد تماماً الاحتفاظ بالطفل وتعطي لويز فرصة استئناف تعليمها. ويفكرون، من ناحية أخرى، أن عليها أن تشتغل في معمل، فالفراغ لا يفيدها في شيء.

وقد وافقت لويز على جميع مقترحاتهم. كما أدركت أن عليها تعلم مهنة تعمل بها، إنما لن تترك ابنها مقابل أي ثمن كان. وعندما قيل لها أن الأفضل تربيته في الريف، وأنه إن احتفظت به، قد لا تتمكن من مراقبته خلال ساعات العمل، فأجابت بحزم: «بل سأكون معه ليلاً نهاراً». وكانت تقول أنه خلال النهار قد تساعدها جاراتها إذا بكى الطفل.

«أي جارات؟»

وكانت تقول، إنها قد تجد غرفة في الحي جيدة جداً، والجميع «سيحب بيلي.... إنه طفل رائع جداً».

ملاحظات العائلة، ولا مبالاة لويز الخاصة تجاه الواقع، تجعل المرء يعتقد أن ذكاءها ليس بالقدر الكافي تماماً. إنما يدرك المرء، شيئاً فشيئاً،

أنها تمتلك إدراكاً جيداً وأن بلادتها الظاهرة كانت مرتبطة بتخيلاتها الإنطوائية. إذ كانت تمتلك خيالاً فعالاً وتجيد الانتقال به نحو عالم يخصها، حيث يتم فيه كل شيء وفقاً لرغباتها. لقد رغبت بطفل على الدوام وكانت سعيدة جداً لإنجابه. ولم تتخيل أبداً أنه قد يكون ابناً لا شرعياً. كما رغبت وتأملت ببيت لها حتى أنها لم تفكر أن يكون بوضع آخر. وهي لا تنتظر الآن مطلقاً لآمالها أن تُستجاب، إذ لديها ما يمكن للحياة أن تمنحها إياه، إنه طفلها. وهي لا تثق بأي شيء آخر، وما كان بالنسبة لها مستقبل جلي، وما كان منتزعاً منها، لا يمكن أن يتحقق إلا في أحلامها.

وكانت ترفض الحديث عن والد الطفل. وكانت تخرج معه من أجل اللهو، وكان لطيفاً وحنوناً ولا ينوي إقامة علاقة جنسية معها. ولما اقترح عليها ذلك، بدا لها أنه مناف للعقل... إذ لا تحصل أشياء كهذه، إلا بين اثنين متزوجين. ودعاها ذات يوم، وكان هائماً جداً، وممتلئاً بالرغبة، فلم تستطع الدفاع عن نفسها. وأصبحت أداة سلبية غير قادرة على قول «لا» وتكرر ذلك عدة مرات، وفي كل مرة، كان يبدو ذلك مناف للعقل إلى حد ما، وغير متوقع، ومع ذلك لا مناص منه. ولم تفكر بإمكانية أن تصير حاملاً، وفي الفترة التي أدركت أن ذلك يمكن أن يحصل، التحق صديقها بالجيش فقررت ألا تضجره بهذا النبأ، وأن تخفيه عن باقي الناس أيضاً، وأن تتدبر شأنها بمفردها. ولم تقلق من المستقبل، وعلمت أن الأمور ستترتب بطريقة أو بأخرى، وعندما نصحوها في المشفى أن تستدعي أهلها، قامت بذلك دون تردد. والجميع كانوا معها لطفاء وطيبين. وعلمت أن لديها الآن مسؤولية كبيرة في الحياة، وارتابت منها كثيراً لفترة ما. وقد استولى عليها هذا الخوف عندما كانت ترضع ابنها. ثم أخذها انطباع بأنها مقيدة، ومنخرطة بلا أمل بموقف مرهق. وبسبب هذا الضيق النفسي توقفت عن إرضاع ابنها، رغم شعورها بفرح كبير «في أخذه بطريقة مقرّبة وحنونة جداً». وكانت تقول إنها تخرج أيضاً في المساء، لأنها تريد التخلص من هذا الضيق النفسي الشديد الوطأة. ولم تعد تكترث مطلقاً بالفتيان الذين

تخرج معهم الآن، إنما كلما كان أحدهم رؤوفاً جداً معها، تضعف وتسمح له بأمور تبدو لها دوماً منافية للعقل.

كانت لويز الأصغر في عائلتها، والابنة الوحيدة لزوجة والدها الثانية. وقد تزوج أخوتها وأخواتها الأكبر وغادروا المنزل عندما كانت لاتزال صغيرة. وقد دللتها أمها لأبعد حد، ولم تتمكن من إنجاب غيرها، وكان والدها أيضاً عاطفياً جداً معها. وفقدت أمها حينما كانت في العاشرة من عمرها، ومضى والدها ليعيش مع أخته الكبرى في تكساس. وأتت لويز إلى مزرعة ابنة خالتها وانتظرت اللحظة التي سيبحث فيها والدها عنها. وهو يكتب إليها ويرسل لها النقود إنما لا يفكر مطلقاً باللحاق بها. وكانت سعيدة عند خالتها، رغم شعورها بالوحدة وهجرها لحياتها الخيالية. وكان أبناء خالتها أكبر منها ولا يكترثون بها. وعندما أتت إلى المدينة، لم تستطع تحمّل وحدتها، وكباقي فتيات المعمل الذي تشتغل به، خرجت مع أناسٍ شباب. ولم تقم علاقات جنسية حميمة إلا مع إيريك، وقد صرّحت في المشفى أنها لا تعلم إن كانت تحبه، إنما تزوجته بفرح بسبب الطفل. ولا يبدو مهتماً كثيراً بها، وتركها مع وعود معسولة ورؤوفة، تماماً كما فعل والدها.

ومن الواضح أن أمومة لويز كشفت عن دافعين: السلبية واستحالة قول «لا»، والحاجة للحنان، ذلك الحنان الذي تذوقته إلى أبعد حد في ما مضى، والذي افتقدته بعد رحيل أمها. وهذان الدافعان لعبا دورهما في استسلامها الجنسي بلا ضابط. ومن المحتمل جداً أن الحنين للأب الغائب، والذي خيّب أملها جعل من غير المحتمل حرمانها من الحب وإفلاتها من حياتها الخيالية إلى الواقع. وانطلاقاً من نمطها، كانت لويز زوجة وأماً ممتازة في حياة عائلية منظمة، ونمت روحها الأمومية الملأى بالدفء في مثلث زواج متين. وكانت تفتقر إلى ذلك المركب النشيط للأمومة، والذي يمكن للطفل من خلاله، بصفته أداة حنانها، أن يشبع حاجاتها العاطفية. وكانت تحب الطفل بحنان، إنما الحاجة السلبية التي

تحسها في أن تُحَب، ظلت غير مشبعة. وأفلتت من ابنها أيضاً بتهور، لكي تطرق تجارب جديدة، ومع ذلك، في الوقت الذي تشبثت به بكل حبها الأمومي الصادق، كان حباً بلا نضوج. وكانت تحس إحساساً غامضاً، أخطار المستقبل وتهديد ميول التكرار. وتريد الاحتفاظ بابنها لكي يحميها من هذه الأخطار، والأمهات اللواتي ينقصهن السند، غالباً ما يفرضن مثل هذا الدور على أبنائهن، إنما بلا جدوى عموماً. والمعنى الناقص الذي أولته لويز للواقع، ومركب تفاؤلي معيّن بحياتها الخيالية جعلها تعتقد، رغم إحباطاتها، أنها «قد تجد صديقة بين الجوار» وشكل كل ذلك أخطاراً كبيرة على مستقبلها، بحيث لا يكفي ابنها وتجاربها السابقة لحمايتها.

وكانت لويز قد خافت من الأخطار المرتبطة بحياتها النفسية، بحيث لم تدرك أي مصاعب اجتماعية قد تصادفها، شيئاً فشيئاً، مع ابنها. كان يهدد هذا الموقف تكيفها الاجتماعي وأصبحت بسهولة غير اجتماعية، وعبئاً على الآخرين، وخاضعة للمساعدة العامة، ومرشحة للأمومة اللاشرعية المتكررة. وتمثل لويز نمط كثير من الفتيات الأمهات غير المتزوجات اللواتي يصبحن باستمرار حوامل بإرغام داخلي. إنما ليس هنا إلا نمط من بين أنماط كثيرة غيره، وبالنسبة لي، ليس هو الأكثر صعوبة. فلدى أنماط أخرى، دوافع أخرى لاشعورية تلعب دورها خلال الحمل الأول فارضة التكرار. وفي مثل هذه الحالات، تفشل التجربة الأولى المشؤومة، بصورة متناقضة، في خلق حماية، بل تفعل العكس كتحريض فتنمي الميل للتكرار. ويصبح الخوف من الحمل دافعاً في صالحه، تماماً كالخوف من الموت، حيث أن التوتر غير المحتمل في انتظاره، قد يصبح دافعاً للانتحار.

وفي حالة جميع هؤلاء الأمهات الشابات بلا نضج، نذكر أن الأنا ضعيف بدرجة مفرطة، لكي يهرب من أخطار ومحن العالم الخارجي، أو لإقامة شروط أكثر ملاءمة لإشباع حاجة الأمومة. والحالات العديدة التي لاحظتها بيّنت دوماً ضعفاً للأنا، جعله غير قادر على مقاومة الأخطار النفسية القوية، دونما إسقاطها على العالم الخارجي. وعندما تطلب امرأة

كهذه بلا نضج، طفلاً، فهي ليست غالباً إلا طفلة تطلب أماً. وتعرف كل أخصائية نفسية محنّكة، أو كل مساعِدة اجتماعية أن مثل هذه الحالة من الأمومة تعود إلى إرغام داخلي، وغالباً ما تستطيع إنقاذ الفتاة الشابة بأخذ دور الأم إلى جانبها.

ونجد حالة مشابهة تقريباً لحالة لويز في السيدة أولسون، وهي امرأة من أصل نرويجي، متزوجة وعمرها سبعة وعشرون عاماً، وأم لولدين. وقد تقدمت إلى وكالة اجتماعية طالبة إيداع أولادها.

والبنت الكبرى كان عمرها أربع سنوات وهي طفلة غير شرعية من رجل يدعى روبيرت، والذي كان لها معه مغامرة لم تدم طويلاً. وكان أول رجل على الإطلاق يهتم بها. وبعد طفولة محرومة من البيت والحب، وجدت نفسها فتاة شابة بلا جاذبية، ومكبوتة تعذبها مشاعر بالدونية، دون أمل بالحب أو بالسعادة. وكان روبيرت يعرفها ويعرف في الوقت نفسه زوجها الحالي سيدني، وكان من الواضح أنه بمحض الصدفة أصبحت عشيقة روبيرت وليس سيدني. وكان روبيرت قاسياً وعدوانياً، واستسلمت جنسياً بسلبية آلية، بمعرفة وحماس بحكم أن أحداً لم يهتم بها غيره، وسرعان ما أصبحت حاملاً. واعتنت أمها بالمولودة الجديدة، لكن السيدة أولسون، بعد سنة، أرادت للطفلة أن يتبناها أحد، لأنها لا تحب الخضوع لأمها.

وبعد عدة أشهر من ولادة هذه الطفلة، أقامت علاقة مع سيدني، وسرعان ما أصبحت هذه المرة أيضاً حاملاً. وبعد أن أنجبت صبياً، تعلق به سيدني بعاطفة جمّة، وطلبها صديقها للزواج، فرضيت بذلك بفرح. وتبنى الولدين، وكان لهما أباً حنوناً. ثم انتُدِب في مهمة إلى ڤيرجينيا. وبقيت السيدة أولسون بعض الوقت حيث كانت، ثم غادرت بيتها لتلحق زوجها، مصطحبة ولديها. وفي مكان إقامتها الجديدة، كان الجو والطعام رديئان، فأقر كلاهما أنه من المستحيل على الطفلين البقاء هنا. فعادت السيدة أولسون إلى بوسطن لتضع فيها الولدين. وكانت مضطربة جداً، وتريد إيداع

ولديها مباشرة لتعود وحيدة إلى جانب زوجها. وقد أوضحت أنها لو كانت حرة، لتمكنت حالاً من إيجاد موقع عمل في ڤيرجينيا وتشتغل إلى جانب زوجها، إنما كان عليها الرحيل، وبأسرع ما يمكن، لأن زوجها طالبها بذلك بإلحاح. ونوّهت أنها لم تكن تريد أو تستطيع اصطحاب الطفلين معها، لأنها تحتاج لحرية الحركة، وفي حال أُرسِل سيدني إلى جهة أخرى، تريد أن تكون قادرة على اللحاق به. كما أوضحت، أن الأمور لو تيسّرت، لاستطاعت الإرسال بطلب ولديها، فلا شيء يربطها ببوسطن، ولا أهمية للمكان الذي تستقر فيه من جديد. وإذا وجب على سيدني أن يُبعَث إلى المغترب، فبإمكانها العودة إلى بوسطن، لكنها على عجلة في هذه اللحظة للذهاب إلى ڤيرجينيا. وكانت تشعر بالتزامات تجاه زوجها لأنه كان دوماً طيباً جداً معها، ويقدم لها المساعدة عندما تحتاج لأحد ما، لذلك أرادت اللحاق به في الفترة التي كان بحاجة إليها. ثم أحست أنه غضب منها حيث كتب إليها مندهشاً لعدم مجيئها لتلحق به إلى ڤيرجينيا.وقد أظهرت خلال المحادثات نفاذ صبر محموم وانفعالي، وكانت تكرر بطريقة طفولية لجوجة :«أريد أن أودع أطفالي وأذهب إلى ڤيرجينيا». وصرّحت أنها نفسها كانت طفولتها حزينة جداً. فبعد فترة قصيرة من ولادتها، تطلّق والديها وأودعت في نزل. ومع أنها عبرت عن المرارة لإيداعها في طفولتها، لم تبدِ نفس النفور في إيداع ولديها. ويبدو أن علاقتها مع أمها كان لها دور في عجلتها. وكان من الواضح أن السيدة أولسون كانت تحتج احتجاجاً عنيفاً ضد تبعيتها لأمها، ولا تريد بأي ثمن تركها تسلب حب وتبعية ولديها. وكلما أوحت أمها أو المساعدة الاجتماعية بترك الولدين عند جدتهما، تنفعل السيدة أولسون بعنف وتقول لأمها: «لا، ربما هذا عبء مفرط عليك»، أو تقول للمساعدة الاجتماعية:«آه لا، أمي هي حقاً غريبة عني، فضلاً عن أنها تدلل الولدين وتفسدهما»، وسرعان ما تضيف معبرة عن حقدها القديم وكراهيتها:«لقد أودعت هي أولادها، وأنا أعلم من تكون» ثم تشعر نفسها مرغمة على التصرف تجاه ولديها كما تصرفت أمها معها. إنما في الوقت نفسه كانت تنفي هذا الاندماج وتقول كما لو أنها

تدافع عن موقفها: «لا أريد أن أودع ولديّ أكثر من حوالي سنة، وهذا لا أهمية له طالما أنهما لا زالا صغيرين».

وقد تجلى هذا الاندماج أيضاً بطرق أخرى. حيث حرمت ولديها من بيتهما ومن والدهما، كما فعلت أمها، فضلاً، عن أن المرأتين لهما ميل في السيطرة وموقف فاتر تجاه أولادهما.

وقد لعبت عدائية السيدة أولسون تجاه أمها وفي الوقت نفسه تبعيتها لها، دوراً هاماً في حياتها النفسية. وعلى سبيل المثال، كانت تكره تلقّي المعونة المالية من أمها ومع ذلك لا تستطيع التخلص منها. وكلما كانت أمها تعطيها النقود، تبدو أنها تشعرها «أنها رب عمل» وفي الوقت نفسه، كانت تقدر أمها وتقول: «إنها تحميني، وتدافع عن مصالحي، لقد قدمت لي خدمات كثيرة في ما يخص ولديّ».

لقد كانت طفولة السيدة أولسون مجردة تقريباً، بصورة كاملة، من الحنان والحب. ولم يكن عندها أب وتعتبر أمها مسؤولة عن ذلك. ومع ذلك، ظلت أمها الكائن الوحيد الذي تتعلق به تعلقاً عاطفياً، مع أن ذلك ضد إرادتها الواعية. ومشابهة لويز، استسلمت لأول رجل صادفته، بسبب جوعها العاطفي. وبالنسبة للويز، كانت الخسارة المفاجئة للحب الحار الذي كانت تتلقاه من والديها، والاختفاء المفاجىء لوالدها، جعلا منها أداة سهلة، تمنح كل شيء مقابل الحنان، وقد دُفعت السيدة أولسون إلى أمومة غير مرغوب بها، بسبب الحرمان العاطفي في مرحلة طفولتها كلها، وبسبب خسارة والدها السابقة لأوانها، وخاصة بسبب حاجتها للهروب من أمها.

وقد وصفت السيدة أولسون حياتها مع ولديها بعد عودتها من ڤيرجينيا: كان الأمر محتملاً خلال النهار، بينما في الليل، كانت فريسة لاضطراب وفقدان أمل جعلاها تُطرد من ذاتها. وكانت تقرأ طوال الليل ولا تتمكن من النوم، وترشف القهوة وتنتظر الصباح. وتفكر، وتفكر ولا

تستطيع منع نفسها من تذكر الفترة التي كانت فيها أماً غير متزوجة. ومع أنها الآن قد تزوجت، لا زالت متألمة من ذلك. «أعتقد أن أياً من ولديّ لا يستطيع أن يشعر نفسه أفضل من الآخر، لأنهما معاً طفلان غير شرعيين».

وقد تحدثت عن تكوينها الجسدي بأنه «كالحديد» حين تريد القول بأنها تصبح حاملاً بسهولة، وسرعان ما كررت طلبها بأن يودع الطفلان، ليكونا بأسرع ما يمكن تحت حماية زوجها. وكانت تذكر الأسباب التي من أجلها لم ترد أبداً العودة إلى بوسطن، باستثناء سعيها لرؤية الولدين. و كان الناس يأتون إليها في مركز ميري للقاء الأسري للأطفال اللاشرعيين، وتلتقي هناك أحياناً روبيرت، و كان هذا اللقاء يخلق موقفاً بغيضاً ومكدراً، و رغم أنها لم تمتلك النوايا لخيانة زوجها ... «لقد كان بالنسبة لي طيباً جداً». و لو توجب على زوجها أن يُرسل إلى المغترب، لذهبت مع طفليها إلى ولاية أخرى، كارولينا الجنوبية على سبيل المثال، و لاشتغلت فيها ... «أي شيء أفضل من بوسطن» وكانت مذعورة باستمرار وتطلب بإلحاح إيداع ولديها وتحريرها.

ولكي تحمي نفسها من الاضطرابات الليلية، التزمت بعمل ليلي وتركت ولديها لوحدهما. وحينما يُقال لها أنه من غير المستحسن ترك الولدين لوحدهما، تغضب غضباً شديداً، كما لو أنها أنّبت بصورة مشينة: «النرَ، لأصبحت مجنونة لو فُرض علي البقاء جالسة طيلة الوقت بين أربعة جدران».

ومن الواضح أن السيدة أولسون أحست أن ولديها لا يستطيعان حمايتها من شعور الوحدة والحنين والأخطار التي تهددها. وعندما تبقى وحيدة معهما، تكون بصورة محتملة فريسة الليل وبنفس اضطراب لويز المقلق، التي كانت تخرج مع الأولاد لكي تتجنب خوف الأخطار الفعلية والتي تتلافاها هكذا بصورة لاشعورية. لكن لويز كانت تعتقد أن ابنها قد يحميها من هذه الأخطار، ولذلك أرادات أخذه معها بصورة حتمية، في ما كانت السيدة أولسون تعلم بحكم تجربتها أن هذا لا يفي بالغرض. ولم تكن

لويز إلا امرأة حالمة ممتلئة بالضيق النفسي، في حين أن السيدة أولسون عانت من اكتئاب عميق هربت منه إلى نشاط مفرط.

وإحساسها بأن زوجها محتاج إليها منحها الإشباع، في ما الحنان الأمومي الذي تكنه له كان يحميها أكثر من علاقتها بولديها. وكان يتعلق بها كثيراً، حيث أوضحت: «عندما يكون في البيت، يبدو سعيداً ليس إلا لأنه معي، ولا يرغب بالخروج مطلقاً. ويطيب له جداً أن يكون بيننا»

عند ملاحظة علاقة الزوجين خلال زيارة السيد أولسون لبوسطن، لاحظنا بوضوح أن هذا الرجل كان تحت الهيمنة الكاملة لزوجته، وأنها تتحكم بكل الموقف. واستناداً للملاحظات القلقة التي أبدتها السيدة أولسون بخصوص عشيقها الأول، بدا أنها لم تتحرر منه بالكامل بعد. والمركب السلبي الماسوشي لشخصيتها، تحت قناع الحاجة للحب، كان قد دفعها لتسليم نفسها لرجل عدواني باستعداد ماسوشي لأمومة لا شرعية. وفي الوقت نفسه، كان هذا القناع المظهر الحقيقي لهذا المركب من حياتها النفسية الذي جعلها تشتهي الحب. لقد تملصت من هذه الميول الخطرة، بالمضي نحو زوجها السلبي اللطيف، وهي تلح الآن، بإصرار عنيف، على اللحاق به لأنها شعرت نفسها مهددة من جديد .

ويسم هذا الميل السلبي الماسوشي بلا شك، عدد كبير من الأمهات غير المتزوجات، إنه ميل أنثوي، تفاقمه مشاعر الذنب، التي تطلب تكرار هذا الموقف كلما أشبعت أمومتها اللاشرعية بقسوة.

أمر مثير للاهتمام، أن قصة السيدة أولسون، تُختتم على خلاف ما كانت قد توقعته في خيالاتها الوهمية عن كارولينا الجنوبية. لقد تم التخلي عن هذه المخططات حين لاحظت أنها حامل من جديد. وهي محمية الآن بحملها الشرعي، وليست مطلقاً تحت التهديد اللاشرعي، وهي تستطيع تكريس نفسها بالكامل لأولادها.

كانت تكره السيدة أولسون أمها، ومتعلقة وتابعة لها في الوقت نفسه. في ما أم لويز كانت متوفية. والأمر الذي يجمع بين هاتين المرأتين هو

غياب الأب، والرغبة في أن تُحَب، والميول السلبية الماسوشية، ومشاعر الذنب تجاه موضوع أمومتهما اللاشرعية، والخوف من تكرارها، وميل تحريضي لهذا التكرار.

كانت السيدة أولسون واعية تماماً للشعور بالذنب، والذي تأثرت به بسبب أمومتها اللاشرعية، بينما بالنسبة للويز، ليس لدينا الحق في تطبيق ذلك عليها. وكان موقف السيدة أولسون تجاه شعورها بالذنب متبايناً: لقد ذكرنا أنها ارتابت من تكرار الأمومة اللاشرعية كعقاب على أمومتها الأولى، وهي تراها هكذا مسببة من ذاتها.

وقد حصل هذا الأمر كذلك بالنسبة للويز، التي بدت معرضة لخطر مماثل، وبالنسبة لكثير من النساء الأخريات اللواتي ينجبن أطفالاً غير شرعيين، ليس من أجل الدخول في تجربة سعادة الأمومة، إنما من أجل معاقبة الذات بإهانتها.

كانت إيدا فتاة شابة في السنة السابعة عشرة من عمرها، وقد عرفتها من ربة عملها السيدة درايفر. وقد كانت صديقة لابنة أخت السيدة درايفر، التي نصحتها بالعمل كمربية لثلاثة أطفال لخالتها. وقبلت إيدا هذه الوظيفة لأن سبلها لم تكن تسمح لها بتحقيق أشد رغبة عندها، في أن تصبح معلمة في روضة أطفال. وكانت السيدة درايفر مسرورة من لطافة إيدا، وطريقتها الممتازة في رعاية الأطفال، وكانت على استعداد لبذل أي شيء لمساعدة الفتاة الشابة. وبعد شهرين من بداية إيدا لوظيفتها، راحت تتعرض لأزمات دوار وإقياء. واعتقدت السيدة درايفر أن هذه الأعراض عصابية، ومسألة رفض إيدا رؤية أهلها أو تقبل أي مساعدة منهم شدّد اعتقادها. وكانت السيدة درايفر تعلم أن الفتاة المربية وحيدة لكاهن غني وتفكر بأن صراعها مع أهلها قد يُحَل خلال بضعة أيام.

وعندما أتتني إيدا، لم تولد عندي انطباعاً بأنها عصابية. وكانت تبدو طفلة إلى حد ما، وترتدي ثياباً كفتاة صغيرة في الثانية عشرة من العمر،

وقد دُهشت بسبب قلة الغم الذي تبديه بخصوص حياتها. وفي البداية، كانت منغلقة على نفسها، ثم أصبحت، شيئاً فشيئاً، واثقة، وذكرت لي أنه منذ ثمانية عشر شهراً، تعرفت في مصيف للأطفال، على شاب أكبر منها بأربع سنوات. وقد وقع أحدهما بغرام الآخر، وعزما على الاستمرار بالعلاقة إلى ما بعد العطلة. وكانت إيدا تريد اتباع دورة للرعاية في روضات الأطفال، في ما كانت نية جورج الإلمام بالتجارة بأسرع ما يمكن، ثم قد يخطبا ويتزوجا.

إنما قبل أن تتحقق هذه المشاريع، استدعي جورج لخدمة العلم. فقرر الثنائي الشاب، الزواج قبل رحيله. فعارض أهل إيدا ذلك صراحة، لأنهم بروتستانت محافظون، في حين أن جورج يهودي. وقد واجهت إيدا أهلها بكل طاقتها، وانتهت بإقناع صديقها، السلبي إلى حد ما، بالهرب معها. وأقاما في القرية التي أمضيا فيها الصيف الفائت، وبدأا بعلاقتهما الجنسية، على أساس التفكير سريعاً بالزواج. وإيدا التي كانت مغرمة بحماس، أصبحت أكثر فتوراً مع جورج، وترافقت مشاعرها الآن بأزمات مفاجئة بعدم الاكتراث، وذات يوم، ودون أن تعطي عشيقها جورج أي تفسير، سافرت والتحقت بصديقتها في بوسطن. وقالت لها، إنها لا تريد أي صلة مطلقاً مع جورج، وأن رغبتها الوحيدة الآن هي في النجاح في استعدادها القديم لرياض الأطفال، إنما دون تمويل مالي من أهلها.

وقد دفعني طابع أعراض إيدا العصابية للظن بأنها كانت حاملاً. وقد اعترفت أنها منذ مغادرتها أهلها انقطعت عنها فترة الطمث. ومع أن ذلك لم يحصل أبداً سابقاً، وأن معلوماتها ممتازة في القضايا الجنسية، لم تبدأ بالظن بالحمل إلا بعد أن بينت لها إمكانية ذلك.

وتبين أن افتراضي في محله، فبعد الصدمة الأولى، حافظت إيدا على تماسكها بطريقة فريدة. وصممت مشاريع للمستقبل واقعية جداً، وفكرت باهتمام إلى أي حد يمكن لحالتها أن تزعج مشاريع أخرى، وجعلت تقتصد في النفقات المتوقعة، وتتحدث عن طفلها كأداة غريبة ينبغي أولاً أن

تُستأصل منها، وتقيم بعد ذلك في أنحاء أخرى. وانطلقت من فكرة أن يتبنى أحد الطفل، ولم يقلقها هذا الأمر بتاتاً. وفكرت بتعاطف أهلها، إنما لا ترى سبباً كافياً للتصالح معهم، وشأنها مع جورج اختفى نهائياً، ووجدت نفسها سعيدة لتعبئته في الجيش وأنه ليس على علم أبداً بما حصل. وكانت تضجرها فقط فكرة أن الناس الذين قد تعيش معهم أو تشتغل بينهم، قد يعلمون بيوم أو بآخر أنها أنجبت طفلاً غير شرعي. وقد أسرّت للسيدة درايفر ولي أنها قررت الاعتراف بالحقيقة لأهلها، طالما ليس في وسعها القيام بشيء آخر، وطالما أنها تتهيأ بطريقة عملية لحل مشكلتها.

وقد أبقت السيدة درايفر إيدا في بيتها، على اعتبار أن حالتها غير ظاهرة، ثم ساعدتها في ترتيب أمور ولادتها وفي إيداع طفلها في نزل.

وعندما رأيت إيدا على مدى عدة أسابيع بعد ولادتها، تقبلت الاعتراف، شيئاً فشيئاً، أن موقفها الواقعي لم يكن صادقاً. وأنها عانت من مخاوف رهيبة قبل وضعها، وخشيت من الموت وراحت تصلي، رغم توقفها عن الإيمان بالله منذ عدة سنوات، وتوقفها عن الذهاب إلى كنيسة والدها.

وحتى النهاية تقريباً، كانت تفكر بطفلها كشيء غريب تريد التخلص منه بأسرع ما يمكن. وليس إلا بعد مغادرة بيت السيدة درايفر، وبعد أن وجدت نفسها وحيدة مع هذا الطفل القادم، حتى راحت تتخيل كم هو أمر جميل إنجاب طفل. وكان محتوى خيالاتها وادعاً، إنما ترى أن تحقيقها مستحيل. وقد أدانت نفسها، بصورة ظاهرية، على التنازل. وداعبتها لفترة فكرة الاحتفاظ بالطفل، والعودة إلى بيت أهلها معه. وكانت تقول إن أباها وأمها كلاهما يحبان الأطفال، وأنهما بالتأكيد الوسيلة لحل مشكلتها. ثم طردت هذه الفكرة البعيدة عن العقل، وبحثت عن ملجأ آخر في عدم اكتراثها وفي تكيفها الوقعي مع الموقف. وبالنسبة للأمومة، صرحت أنها لن ترضع طفلها وستحل موضوع التبني في الحال.

وبعد ولادتها، وجدت ابنها الصغير «بديعاً» جداً، وجعلت ترضعه، إنما بعد كل مظهر الفرح الأمومي، طلبت أن يُسحب منها ابنها بأسرع ما يمكن، طالما أنها لا تستطيع الاحتفاظ به، وذكرت أنها لا تريد إقامة أي صلة معه، وأنه لا يعني لها شيئاً، وأنها تخشى أن يعني لها شيئاً ما. لكنها في الوقت نفسه، أرجأت إيداع الطفل. وعندما اقترب موعد خروجها من المشفى، شعرت بضعف أكثر، وارتفعت حرارتها لفترة من الزمن، وكان من الواضح أنها اشمأزت من العودة إلى العالم، حيث ستواجه الواقع وقد تجد نفسها مرغمة على التخلي عن ابنها لصالح هذا الواقع. وأرادت البقاء مع الرضيع لأطول زمن ممكن. وشعرت في المشفى بالأمان، حيث تركزت فيه الحياة عليها وعلى طفلها. وكان من الواضح أنها تريد الآن الاحتفاظ به، لكنها تحققت كم من الصعوبات يتضمن ذلك. وأظهرت اهتماماً شديداً لمصير ابنها ولنوع الغرفة التي ستكون له، كما أرادت الاطمئنان بأنه سيكون فيها بحالة جيدة، وأن الاهتمام به سيكون على ما ينبغي.

وبمساعدة السيدة درايفر، قررت التخلي في هذه الفترة عن فكرة التبني، وأودع الطفل في نزل. وأتت إيدا لرؤيته فيه، وكانت متكدرة جداً، وصرحت والدموع تملأ عينيها أنها اشتاقت له اشتياقاً هائلاً، وأنها تريد الاحتفاظ به، إنما ليس باليد حيلة.

عندئذ اقترحت السيدة درايفر، وهي امرأة أمومية حقاً، أن تأخذ الطفل في بيتها وتشبع الروح الأمومية عند إيدا بالقرب من ابنها. واعتقدت السيدة درايفر أنه بإمكان إيدا أن تجد بنفسها غرفة لابنها. في ما ردة فعل إيدا كانت لها خصوصيتها. فقد رفضت بصخب اقتراح ربة عملها، كما رفضت حتى النقاش في ذلك، موضحة أن ذلك يعني إعطاء ابنها إلى أمها. ليس فقط لأنها ستضيعه بهذه الطريقة، إنما ستقع هي نفسها من جديد في تبعية جديدة.

وردة الفعل هذه لها ما يبررها، إن أخذنا بعين الاعتبار موقف إيدا في مجمله. وحالتها تعد واحدة من مئات الحالات، إنها قصة ولادة غير

شرعية وبشكل عميق مبتذلة. إنما هذا الابتذال نفسه يلقي ضوءاً ساطعاً على ماهية الحالة المألوفة جداً للأم الفتاة اللاشرعية. وكسائر مثيلاتها، إيذا شابة غير محنكة، وهي في عمر تعتبر الفضولية الجنسية ومشاعرها «أمر سيان ولا يمكن أن يحصل معي» ويشكلان أفدح الأخطار بالنسبة للفتاة الشابة.

وعند إيدا كما عند غيرها من الأمهات غير المتزوجات، يؤثر العصيان الشديد ضد الأم وضد المنظومات الأخلاقية وضد تحريات أمها كدافع ومحرك قوي في اختيار أداتها في الحب، وفي اختطافها، وفي منحها لذاتها لحبيبها. ويتضمن الاحتجاج الحاقد ضد الأم ميولاً للانتقام، وعندما تنحدر الفتاة نحو الفجور والعهر، أو تصبح أماً غير متزوجة، تشبع غالباً تخيلاً أو نزوة وهمية و تعاقب نفسها في الوقت نفسه. وكان والد إيدا من رجال الكهنوت، في ما كانت أمها ابنة كاهن رجعي، ومتعصبة ومفرطة في التقوى، وقد تألمت سابقاً من إلحاد إيدا وفسرته بحق، كعدوانية شريرة ضدها وضد زوجها، متنكّرة بالفكر الحر. وقد عارض أهل إيدا زواجها من جورج، ليس بسبب حكم عرقي إنما لأسباب دينية. ولم تبذل أية محاولات لإقناع أهلها، بوعدهم على سبيل المثال بأن يهتدي جورج إلى الدين، وقد هربت على الأقل لتشفي غليلها من شغفها بجورج ولتشبع مشاعرها العدوانية ضد أهلها. ولكي تصر على إعتاقها، ألزمت نفسها بعلاقة جنسية قبل الزواج، بحجة أن زواجها قريب. وفي الواقع، ظلت طائعة لأمها، لأن إحساسها الجنسي كان مكبوتاً، وكان الضيق النفسي وتأنيب الضمير يرافقان تحركها الجنسي، لدرجة أنها كانت باردة جنسياً تماماً. وبعد أن أتمت هذه المحاولة الباطلة نحو التحرر والاعتاق، تغير دور جورج بالنسبة لها، والرجل الذي أحبها أولاً، غدا متواطئاً في صراعها مع أهلها، وعلى الأخص أمها. وبضغط الشعور بالذنب، أصبح حبها جريمة، مما أوجب عليها التنصل من جورج، كمجرم يُنكر أمام المحكمة ضلوعه في الجرم.

وكانت إيدا تظهر باستمرار مشاعر أمومية، لكنها تنكرها بالعنف نفسه الذي تنكر به حبها لجورج. وأمام اقتراح السيدة درايفر بأخذ الطفل،

وجدت إيدا نفسها حائرة في صراع صادق وعميق. فإن احتفظت بالطفل وقبلت السيدة درايفر كأم متبنية، فعليها أن تتشارك في ذلك مع المرأة التي كانت بالنسبة لها بديلاً حقيقياً لأمها. وأحسّت إيدا بصواب كبير أن الموقف العاطفي الناجم، لن يكون إلا إثارة لصراعات مرحلة بلوغها مع أمها، وأن شعورها بالذنب تجاه أمها سوف يتنامى، وخاصة، ليس من حقها على الإطلاق إشباع حبها لطفلها كحبها لجورج. وكانت تقلقها أيضاً مهنتها، كما يقلقها تقديرها وتقدير أهلها لمستقبلها كمعلمة في روضة أطفال، وردود الفعل التي قد تصدر في بيئتها الجديدة، بيئة طموحاتها وتطلعاتها، تجاه أمومتها اللاشرعية. وقد كتب لها جورج من الجيش، مقترحاً عليها المجيء للزواج به، دون حتى أن يعلم شيئاً عن أبوته. ورفضت إيدا هذا الاقتراح بعجلة غريبة. فإن تزوجته الآن، لن يكون إلا ضحية مناسبة لابنها. وبحكم عذابها من المخاوف الاجتماعية، وتنكرها بصورة عصابية لعلاقتها مع جورج، وكفاحها من أجل تحقيق أمنية أمها القديمة في أن تراها معلمة في روضة أطفال، تخلّت إيدا عن ابنها، القلب الكبير، وتعزّت بفكرة إمكانية الزواج لاحقاً وإنجاب أولاد شرعيين.

وحتى بعد أن وُضع ابنها في نزل، كررت بإصرار أنها لا تكنّ أي شعور نحوه وطلبت تبنيه من جديد. وربما اعتبرت حالياً ابنها كما كانت تعتبره أثناء حملها، كعبء عليها التخلص منه، وليس لديها أدنى تعاطف بالنسبة لجورج، وغالباً ما كانت تدع رسائله أياماً دون أن تفتحها.

وغالباً ما نرى ردة فعل كهذه على الأمومة اللاشرعية لدى فتيات شابات مثل إيدا، لمثل هذه الأسباب. ويظهر بشكل عام اللوم الجنوني ضد الرجل «أنت من وضعني في هذا الحال» عندما يرفض تحمل مسؤولياته، أو عندما تستمر العلاقة، التي سبق لها أن فترت، ضد إرادة الفتاة، وتجد نفسها معاكسة للحاجات العاطفية التي نتجت عن حملها. في ما كانت حالة إيدا مختلفة تماماً. لقد لجأت منذ البداية إلى آلية في الدفاع مألوفة جداً، إنها آلية الرفض، ونبذت أي علاقة عاطفية مع جورج، ورفضت حياتها

العاطفية برمتها، واتخذت موقفاً فاتراً وغير مكترث، كموقف مقيمة في نزل عارية الركبتين، لا يمكنها أن تكون أماً طالما لازالت طفلة.

ويتجاوب إخفاء الأمومة على والد الطفلة عادة مع دافعين: أولاً- رفض العلاقة العاطفية الإيجابية مع هذا الأب (وغالباً لأسباب مشابهة لأسباب إيدا)، ثانياً- الخوف النرجسي من أن تُرفض وتُدان من قبله. بالإضافة إلى ذلك، كيف تمكنت إيدا، في فترة كانت فيها ممتلئة ندامة تجاه أهلها، أن تتقبل حباً دافعه أكثر أهمية من تمردها على تحريمات أهلها؟ كما كانت إيدا، ضمن مقياس ما، أم حرب. ربما نرى يتحرك فيها أيضاً دافع الأمومة النمطي في زمن الحرب الذي سبق وتحدثنا عنه، حيث من العسير مقاومة طلبات بطل يهدده الموت. وكسائر أمهات الحرب الأخريات، صرّحت أنها رضخت لطلبه في الرحيل معاً، عندما كان على وشك التعبئة، إنما رأينا أيضاً أن قبول إيدا بالمغامرة بالأمومة اللاشرعية تغذى أيضاً من مصادر أخرى.

وتُظهر لنا حالة إيدا بوضوح خاص، كيف أن علاقة الأم بابنها، تتعلق بموقفها النفسي في مجمله. فأم شابة تنتظر ابنها في جو من الحب، تجد نفسها مفعمة بالفرح لوجوده العضوي. بينما إيدا التي تدربت، إن صح القول، على الانفصال عن ابنها مباشرة بعد ولادتها، وعرضته للتبني، استبقت صدمة الانفصال باتخاذها تجاهه الموقف الذي يُتخذ من طفيلي معرقل، أو نوع من زائدة تتخلص منها في لحظة ما. ويميّز هذا السلوك الأمهات المستقبليات اللواتي يلجأن منذ البداية إلى هذه الآلية الراديكالية في الدفاع «ليس عندي طفل ولا أريد طفلاً» لكي يتهيأن على التخلي الضروري. ولا يمكن لحركات الطفل داخل الجسد أن توقظ المشاعر الأمومية، كما يحدث ذلك عادة، إذا كانت هذه المشاعر متعارضة وكابحة لفكرة حزن مستقبلي.

ويمكن للتأثيرات الخارجية أن تكثف، أفكار الحزن من ناحية، وتطلق، من ناحية أخرى، رغبة، لازالت طفولية عند الفتاة الشابة، من

أجل الأمومة. وعندما رأت إيدا الأطفال في المشفى، تأثرت كما تفعل أي فتاة شابة عادية وقالت: «يا لجمالهم!»

وربما أحست أيضاً بزخم سعادة أمومية لدى الأمهات الأخريات في المشفى، وربما رافقت في ما بعد رغبتها في الاحتفاظ بالطفل رغم كل شيء، بسبب دوافع نفسية أخرى، أقل وعياً. والمرأة التي حلّت محل أمها وأفصحت عن استعدادها بأخذ الطفل، أيقظت عندها خوفاً نمطياً طفولياً، «أمي ستمتلك الطفل»، بينما الرغبة المتأصلة بعمق تقول: «يجب أن يكون لي». ونذكر هنا لأي درجة وجدت فيها إيدا روحها الأمومية باردة، لدى فكرة أنها لو احتفظت بطفلها، لشاركتها به امرأة أخرى. وخشيتها من تعزيز تبعيتها تجاه السيدة درايفر لعب بالتأكيد دوراً كبيراً في تفكيرها. وقد شعرت إيدا نفسها مذنبة إلى أبعد حد مع أهلها، وعلى الأخص أمها. وحاولت محاربة الشعور بالذنب هذا بمختلف السبل، ففي بادئ الأمر صرفت أنظارها عن العشيق المحرّم. كما رفضت أي اهتمام عاطفي بهذا الرجل. وأتت في نهاية المطاف على قرار سبق لأمها أن ساهمت بالتخطيط له من أجلها، حيث تخلّت عن عشيقها وعن «طفل الخطيئة» لتكرّس نفسها بمهنة كانت في نظر أهلها، رمزاً للتطلعات المثالية، ومتباينة مع «دنس» الأحاسيس الجنسية.

وعندما صممت أخيراً على التخلي عن جورج والطفل، غرقت إيدا في عملها، إنما أظهر تصرفها أنها رغم تخلّيها، لم تنجح في التحرر من شعورها بالذنب. وكانت تعيش في جو من الخوف المستمر، من أحد يكتشف أنها كانت أماً غير متزوجة. وكانت متوترة ومشغولة البال بسبب خوفها من ألا تُقبل في المدارس الجيدة. وغالباً ما تُظهر ميلاً لخيانة سرها في أكثر مكان تريد إخفاءه فيه. وقد أحرزت تقدماً ممتازاً في عملها، واستحقت احترام زملائها وأساتذتها، وحصلت على منحة، وفي كل خطوة تتقدم فيها في عملها، يعتريها الخوف المكتوم نفسه مما قد يحصل إذا أُفشي سرّها. وكان سلوكها كسلوك مجرم مطارد.

والملاحظ غير المجرّب، قد تضلله إيدا بالعقلنة التي مارستها في صراعها. فالأمومة اللاشرعية هي تعقيد اجتماعي وتُطلق بقوة شعوراً اجتماعياً بالذنب، وخاصة في بيئة كالتي يعيش فيها أهل إيدا. والبيئة ذاتها الأكثر رجعية، لا تدين مع ذلك هذه الفتاة بنفس القدر من القسوة التي لا تتوقف عن الخوف منها. والبيئة التي هي فيها الآن كانت متسامحة تماماً، وأدركت إيدا أن «مصيبتها» لن تكون كذلك في عيون أولئك الذين تشتغل معهم. ولم تكن الاحتياطات القصوى التي اتخذتها ضرورية، لأن لا أحداً شك فيها على الإطلاق. والحق يقال، إن أهلها الرجعيين أنفسهم كانوا أكثر تسامحاً منها، وأكثر استعداداً على الصفح. وقد شعرت إيدا نفسها كمجرم مُدان ليس لأنها أنجبت طفلاً لا شرعياً، إنما لأنها حكمت على غلطتها بثلاث طرق متزامنة. أولاً أعطت عدائيتها مطلق الحرية بفعل عدواني ضد أهلها، وذلك بالهرب مع رجل لا يريدون لها الزواج منه. ثم حاولت إخفاء غلطتها الأولى بإنكار حبها لجورج وبصرف الأنظار عنه. وبذلك أخطأت هدفها، لأنها حمّلت إدراكها غلطة جديدة، وبلا شك حتى أكبر، بارتكابها خطيئة ضد حبها وضد جورج. وتتعلق غلطتها الثالثة بروحها الأمومية، التي رفضتها لنفسها ولابنها.

وقد رفضت إيدا بنجاح كل عناصر الذنب هذه، وحولت لومها على المجتمع بصورة مميزة جداً. وقد سعت باستمرار، لإقناع السيدة درايفر أنها ليست بحاجة لمساعدتها، إلا لإخفاء وستر أمومتها اللاشرعية، وانتصرت هكذا على مصاعبها الإجتماعية. لكن إيدا كانت موفقة في اختيار موضع ثقتها السيدة درايفر، وهي امرأة حساسة وحدسية، وتدرك الموقف ولا تدع نفسها تقع في الخطأ بسبب نجاح إيدا اللامع في مهنتها. كما علمت أنه من المهم جداً بالنسبة لمستقبل الفتاة الشابة، إيجاد نظام لحياتها العاطفية المشوشة والمرفوضة، من أن تؤمّن نجاحها المادي. وبدلاً من مساعدتها في جهودها للإخفاء، بيّنت لـ إيدا أن مشاعرها بالذنب كان لها مصدر آخر وأن خوفها من المجتمع لم يأت إلا من التحويل. وأصرت لكي تمتلك إيدا

الشجاعة ولا تهدم صلتها بجورج دون أن تراه مجدداً، ومن أجل أن تتريث قبل أن تعرض ابنها للتبني. وبفضل المساعدة الواضحة للسيدة درايفر، أصبحت إيدا زوجة وأماً سعيدة. ومثل هذا الاختتام الملائم لا يحصل دوماً، وغالباً ما يكون الحل المفضل في الهرب إلى نشاط مفيد اجتماعياً. لكن على مثل هذه الحالات أن تخضع دوماً لاختبار نفسي كامل، قبل أن يكون العامل الإجتماعي معتبراً كمفتاح للموقف.

كانت فيرجينيا فتاة جميلة في التاسعة عشرة من العمر، خجولة، قصيرة، لطيفة وجذابة. وكانت من الناحية الجسدية طفولية إلى حدٍ ما، ولا شيء فيها يدل على أنها أمومية. وعندما أصبحت على صلة مع الوكالة الاجتماعية، كان عمر ابنها شهرين. وإلى حينه، كانت فيرجينيا في دار التوليد "Maternity Home"، تهتم بابنها بنفسها، وتتمسك به بأكبر قدر من الحنان.

وقبل ولادة الطفل، اتخذت الموقف النمطي للأم غير المتزوجة، حيث حبذت كثيراً أن تجهض، وعندما رأت أن الأمر مستحيل، قبلت بحماس فكرة تبني الطفل.

وكانت طفولتها تشبه طفولة لويز، حيث فقدت أمها وهي في السادسة من العمر، وتزوج والدها امرأة أخرى ولم تكن على تفاهم مع فيرجينيا، وعلاقتها مع والدها كانت علاقة إنسانة غريبة. بينما لقاؤها مع والد الطفل كان طارئاً جداً، حسب اعتقادها، حيث التقت بـ آنتون في مطعم وأكدت أنها لم تكن لها علاقة جنسية معه إلا مرة واحدة. وأنها تأثرت بشكل رهيب بعد هذا الحادث، وسرعان ما خشيت من أن تكون حاملاً. وخلال سبع سنوات، منذ بداية بلوغها، كانت فيرجينيا خادمة عند عائلة W. وكانت السيدة W أماً لأربعة أطفال، وُلد اثنين منهم أثناء خدمة فيرجينيا. وبالنسبة لوضع الفتاة في هذا المنزل، كانت مناصفة بين خادمة، وبين فرد من أفراد الأسرة. وقد أبدت لها السيدة W كثيراً من الرعاية الأمومية، وتعرف كل شيء عن حياتها، وتتمتع بثقة الفتاة الشابة. وفي هذه الآونة، كانت حياة

فيرجينيا الغرامية، تنحصر ضمن إطار المطاعم وصالات الرقص. وبلا شك، كأي فتاة متلائمة مع علاقة الأم غير المتزوجة، كان لفيرجينيا أسرارها الجنسية، والتي لا تعلم بها السيدة W إلا عندما تشعر بحق أنها في حالة خطر. وقد نصحت السيدة W أولاً بتبني الطفل اللاشرعي. وأبقت فيرجينيا في بيتها حتى نهاية فترة حملها، وساعدتها بصورة أمومية على إخفاء حالتها على الجوار. وقد كيفت فيرجينيا سلم قيمها الأخلاقية مع مقتضيات الجوار، ولم ترضَ لأي شخص أن يعلم بغلطها. وكانت تعتقد أنه بالرغم مما حصل، من الممكن لها، بعد تماثلها للشفاء وإيداع الطفل، العودة إلى عملها في الظروف العاطفية السابقة. وكانت تنظر لمنزل عائلة W وكأنه بيتها، وإلى السيدة W أولاً كأمها المحبة والمحبوبة.

لكن مخططاتها تغيرت، فالفتاة الأمومية مثلها عليها رعاية طفلها والنهوض بواجباتها الأمومية، مع أنها لم تقم بذلك في أول الأمر إلا بالإكراه. وسرعان ما صرحت: «إذا وجب أن تسلبي مني هذا الطفل، فافعلي ذلك دون تأخير، لأني سأصبح مجنونة بسببه».

وكانت تجد صغيرها تومي «رائعاً»، وتبتسم بحرارة وهي تتكلم عنه، وتريه بزهو لزوارها. وتقول صراحة أنها لا تعلم ماذا تفعل عندما تغادر دار التوليد. وكانت السيدة W تريد إعادتها بطيبة خاطر، إنما ليس مع الطفل، ولا تريد فيرجينيا الآن التخلي عن تومي «مقابل أي شيء في العالم»، وقد فكرت في الذهاب إلى بيت جدتها، لكنها لا تعلم كيف ستكون ردة فعلها تجاه الطفل، فلربما تجد وظيفة أثناء مراقبة جدتها للطفل، لكنها تخشى ألا يُكتب التوفيق لهذا المخطط.

كنا نرى فيرجينيا تمزقها رغبات متعارضة. وكانت كل خططها مبنية على أساس أنها ترى نفسها لا زالت فتاة صغيرة متعلقة بأمها وتابعة لها، وتود البقاء معها. وكانت قد فقدت أمها وهي صغيرة جداً، وعانت من تجارب مريرة مع زوجة أبيها، وكانت سعيدة للعثور على أم جديدة. إنه شيء ذو دلالة ومغزى أن التعلق بشخص بديل، بعد طفولة مثقلة بالحرمان

العاطفي، غالباً ما يكون أكثر تشبثاً وإدامة من الصلة الأمومية الأصلية التي تضعف في ظروف طبيعية. والأشخاص المخوّلون والمكلفون حالياً بعبء الفتاة الشابة يفترضون بحق، أن أمومتها البائسة والسابقة لأوانها قد تساعدها على النضوج بسرعة، وبالنتيجة قرارها الحاسم من أجل مستقبلها ومستقبل ابنها يجب أن يختلف. وأحسوا أنه لا يمكن للفتاة أن تستعيد أبداً وظيفتها القديمة، لأنها ليست هي نفسها مطلقاً، لأنها أم وليست مطلقاً فتاة صغيرة. لكن فيرجينيا نفسها بقيت أمام ورطتها: أتعود إلى بيت أمها كفتاة صغيرة، أم تبقى مع طفلتها كأم مخلصة؟

وقد شجعت النساء الأموميات اللواتي أحاطوا بفيرجينيا مشاعرها الجديدة التي تتيقظ فيها، لدى رؤيتهن هذه المؤشرات للروح الأمومية. وفي شروط خارجية وداخلية ملائمة، يمكن للروح الأمومية الحقيقية أن تستنتج من هذه المناشدات السابقة لأوانها والتي تحدثنا عنها كمواقع متقدمة للأمومة. وهكذا، وبتأثير خارجي جداً، قررت فيرجينيا، هذه الفتاة الصغيرة التي كانت لديها رغبة عارمة لبيت مشابه وأم مشابهة، أن تتخلى عن موقفها الطفولي وتتحمل مسؤولية واجبات أم راشدة. اتخذ هذا القرار بمساعدة الوكالة الاجتماعية التي سعت أن تجد لها وظيفة تستطيع من خلالها الاحتفاظ بطفلها. وفي جميع الأحوال، لم يبد من الحكمة بشيء عودتها إلى بيت السيدة W، بعد أخذ العلم بأن هذه السيدة كانت عاطفية أكثر من فيرجينيا، حيث بكت بلا رادع في عمادة تومي الصغير.

وقد عثر على وظيفة للفتاة الشابة في بيت لطيف مع ثلاثة أطفال صغار. وقد استقبلت فيه فيرجينيا مع ابنها. إنما منذ البداية، أبدت الفتاة ممانعة ما. مع أنها قبلت جميع الترتيبات التي اتخذت من أجلها دون أن تتفوه بكلمة، وكانت بالطبع ضجرة من موقفها، وقررت أن تقول لأرباب عملها أنها تزوجت وأن زوجها كان في التعبئة.

وبعد انقضاء فترة قليلة، وجدت فيرجينيا نفسها بائسة إلى أقصى حد. وأتت لرؤية السيدة W واشتكت أن غرفتها باردة ومعتمة، ولا تدخلها

الشمس من أجل الطفل. وكانت مستعدة للتكيف، إنما أصبح من الواضح، شيئاً فشيئاً، أنها ترتكس، مهما كان الإطار الذي تعيش فيه، بخوف وبؤس وتبكيت للضمير قي كل موقع عمل جديد. وسرعان ما قررت أنها لا تستطيع البقاء حيث كانت، وأنها قد تتخلى عن الطفل وتعود إلى السيدة W. وكانت تقول: «في نهاية الأمر، منزلها هو الوحيد الذي أعرفه».

وكانت تريد السعي لتبني الطفل لأنها لا ترى نفسها جديرة بمنحه ذاتها، وإيلائه الاعتناء والرعاية والميزات المادية التي يحتاجها.

وأثناء إقامتها في موقعها الأخير، وهو موقع محبب لكنه كان غريباً عنها، كانت فيرجينيا وفقاً لعباراتها الخاصة «ملتزمة بالعقد بصورة تامة» وغير جديرة بالقيام بما يلزم من أجل تومي، ولا تهتم به مطلقاً كما تفعل سابقاً. إنما عندما أدركت أنه بإمكانها العودة إلى السيدة W، رقّت وتكلمت بحرارة مع طفلها. وهي «لا تريد التفكير مطلقاً الآن بالسعي لتبنيه» كانت تريد فقط أن تجد له غرفة مؤقتة. وربما تتزوج وتتمكن حينئذ من أخذ تومي بقربها. وكان تعلقها به يزداد كلما اقتربت فترة مغادرته. وأصبحت أكثر فطنة عند اهتمامها به، وتسعى ما في وسعها لإيجاد نزل، وكانت في مسلكها أكثر استقلالية من أي وقت مضى. وقد قررت ظاهرياً العودة بكل السبل إلى السيدة W، وقد خلصها هذا القرار من ضيقها النفسي، وأعطاها أماناً داخلياً، وسمح لها أن تحس وتتصرف في صالح ابنها. واستطاعت أن تكون أماً نشيطة ومضحّية عندما شعرت نفسها محبوبة ومحمية من قبل أم. وعندما عادت إلى السيدة W، صاحت بكل قواها: «أنا في البيت».

وسرعان ما بدأت بالنسبة لها مصاعب جديدة. إن فيرجينيا نفسها لا تعلم إن كانت تفضل أو لا تفضل أن يكون ابنها معها في بيت السيدة W. وقررت أخيراً أن ترجّح الـ لا، لأنها تريد أن تكون أحد أولاد السيدة W، كما في السابق، وكيف يمكن أن تطلب ذلك إذا كانت أُمّاً لطفل وتعيش في المنزل؟

وفي نهاية الأمر، استقبلت السيدة W، التي كانت ظاهرياً امرأة لطيفة وأمومية، الطفل أيضاً. وبعد كل شيء، لم تكن فيرجينيا ابنتها بصورة فعلية، لقد كانت خادمة شابة تُعامل بلطف. أما أن تكون أماً غير متزوجة، فتهبط فيرجينيا بهذا في السلم الاجتماعي، وحل المشكلة غير مؤكد. ومع ذلك، ونظراً للظروف، يبدو من المفضل بالنسبة لفيرجينيا أن تعود لاستقلاليتها السابقة. وكان من الخطأ اتباع مسار روتيني في السلوك، ومحاولة تحطيم صلاتها الطفولية بوسائل عنيفة، وخاصة في فترة من حياتها حيث تكون مهامها النفسية، ومشاكلها، أمام الواقع الاجتماعي والاقتصادي صعبة جداً.

وتعد حالة فيرجينيا أقل تعقيداً بكثير من حالتي لويز و إيدا. وربما تشبه أكثر من الناحية النفسية، الفتاتان اللتان وصفناهما كأمهات مساعدات (ليديا والسيدة بارون). ويمكن لفتاة من هذا النمط أن تكون حنونة ومضحّية، إنما غير جديرة بتحمل المسؤوليات النشيطة للأم الراشدة، وعلى الأخص عندما تعارضت أمومتها السابقة لأوانها مع موقف الإدانة من وسطها الإجتماعي. ولن نتوغل في البحث عن دوافع «خطأ» فيرجينيا. فربما، في حالتها، تم التغلب بسهولة كبيرة على الكبت الطبيعي لمرحلة المراهقة، ليس لأنها كانت قابلة، بصورة خاصة، للتهيج الجنسي، ولا لأن هناك ضعفاً خاصاً في أناها، إنما لأنها كانت مهمَلة، وفي هذا المعنى، كانت تحيا في وسط لا يتقبلها إلا جزئياً وينظر لها، منذ البداية، كأدنى مما هي عليه واقعياً.

وتظهر إحصائيات الأمومة غير الشرعية في مختلف دول أوروبا، أن الخادمات يشكّلن أعلى نسبة مئوية من الأمهات غير المتزوجات. إنه ظاهرياً الدافع النفسي ذاته الذي يلعب دوره في هذه الحالات، حيث أن الاحتكاك الودي مع طبقة اجتماعية رفيعة، تتمتع بقسط وافر من رفاهيات الحياة، يهيئ أرضية خصبة لإغواء أولئك المنبوذات من هذه الطبقة. كما تؤدي بالتأكيد إلى ذلك عوامل أخرى، كعدم الشعور بالأمن الاقتصادي، والطريقة

السيئة عادة في معاملة الخادمات، ورتابة عملهن. وفي حالة فيرجينيا، يكمن لب المشكلة ربما، في أن طفلة بلا أم وبلا مأوى، قد ترغب الاندماج في وسط جديد، وتعاني، بصورة لاشعورية، من أنها مرفوضة. ولدينا انطباع أن هذا الدافع المحدد قد يستمر دون شك في لعب دوره طيلة حياة فيرجينيا في كنف العائلة التي كانت خادمة عندها. والخطر الذي كان مصدره داخلياً لدى إيدا، يعد لدى فيرجينيا مصدراً خارجياً. وتمثل هاتان الفتاتان، نمطين مختلفين تماماً للأمومة اللاشرعية.

كانت إلزي في الثالثة والعشرين من عمرها، أتت مباشرة إلى الوكالة من المشفى الذي ولدت فيه ابنتها اللاشرعية. وبمرافقة أهلها. وكانت أمها شخصية مهيمنة والتي حلت المشكلة مسبقاً، حيث كان الشيء الجوهري بالنسبة لها «ألا نصرخ بالمشكلة من على السطوح». ومن هذه الناحية تذكرنا بشدة بوالدة إيدا، وكثير من الأمهات الأخريات اللواتي يحملن أخلاقيات «البرجوازية الصغيرة» تجرحهن بشدة الأمومة اللاشرعية لابنتهن، واللواتي همهن الرئيسي الحفاظ على المكانة (البريستيج) الإجتماعية للعائلة. وتودع الطفلة لفترة في نزل، ثم يُقدر لها التبني بصورة طبيعية، وقد تقرر الأمر منذ البداية.

كانت إلزي لطيفة وذكية، إنما استناداً لأقوال مديرة النزل وجميع أولئك الذين كانوا على احتكاك بها، كانت غير جديرة بالتعبير عن مشاعرها بيسر. ولم تكن قد رأت طفلتها، وكان بداخلها صراع بكل معنى الكلمة حول هذا الموضوع. وكانت تنفر من أن تريها الخوف الناجم عن عدم استطاعتها الانفصال عنها على الاطلاق.

وقد أتت من مدينة صغيرة غرب البلاد، حيث كانت تعمل معلمة في مدرسة. وقد أكملت تعليمها في مؤسسة تعليمية في نيويورك، وهناك أصبحت حاملاً. ثم عادت إلى أسرتها ورتبت أمورها على أساس إخفاء ظرفها. ولم يصبح حملها ظاهراً، إلا خلال الأشهر الأخيرة، وفي تلك الفترة كانت في مزرعة مع أهلها.

وحينما سُئِلت ما إذا رأت طفلتها، أجابت أنها لم تكن قد رأت البنت الصغيرة، وأن لديها انطباع بعدم إنجاب طفلة بتاتاً، مع أنها أحست أحياناً أنها تحبذ رؤيتها. وعندما سُئِلت عن اسم وعنوان الأب، رفضت الإجابة بعنف. وعندما قيل لها أنها شكليات وإجراءات ضرورية بقصد التبني، صرحت: «هذا مستحيل، إنه لا يعلم بوجود الطفلة، إنه في نيويورك».

وذكرت أنها تتقبل كل العبء المالي للعناية بالطفلة، وأن كل شيء سيترتب بالتأكيد على أفضل حال. وقالت ذات يوم وهي تفكر: «ما اعتقدت أبداً أن ذلك قد يحصل لي».

إنها جملة نمطية تأتي على لسان هؤلاء الفتيات.

لقد اجتازت إلزي بلا شك فترة مراهقتها في بحبوحة من العيش، إنما كل وسطها العائلي يميل لاعتبارها طفلة. وصممت العودة إلى المزرعة مع أهلها، وأن تمضي فرصة امتحاناتها لتصبح معلمة، في نيويورك، ثم تعود إلى البيت من أجل العمل.

كانت ترفض بعناد الإدلاء باسم الأب. لقد كان مدرساً يعيش في نيويورك. كما أكدت لنا أن ليس هناك أي صعوبة من أجل تبني الطفلة، وتنحدر عائلتها من أسرة عريقة جداً. لقد قررت مغادرة بوسطن دون رؤية الطفلة، لأن هذا أفضل باعتقادها. وقد تكون سعيدة بالطبع لمعرفتها كيف تجري الأمور.

لقد روت كيف عادت من المدرسة حاملاً، إنما لم تقل شيئاً لأمها إلى ان غدت حالتها واضحة. كانت متحفظة جداً على كل ذلك، كما لا يعلم أهلها شيئاً عن والد الطفلة.

ووفقاً لما قالته أمها، إنها كانت دوماً صاحبة إرادة وعنيدة، إنما كل العائلة «تعبدها». والجميع في الوكالة دُهشوا لرؤيتها كم تبدو مرحة وصافية، لقد أخذت سطحياً الموقف بكل بساطة. وفي رسالتها لمديرة

النزل، كتبت: «لم يُعط اسم للطفلة. وليس لدي أي فكرة حول هذا الموضوع... وقد أكون سعيدة إذا اخترتيه أنت لها»، كما أصرت هكذا على عدم اكتراثها العاطفي بشأن الطفلة التي أقامت في نزل إلى حين التبني.

بعد عطلة الصيف، عادت إلزي إلى بوسطن، وذكرت لنا كم كانت مسرورة ومرتاحة في المزرعة. وقد عاشت فيها مع أهلها وعاملوها «تماماً كبنت كبيرة» ولم يفرطوا في العطف، كما لم يبتعدوا عن ذلك، إنما تماماً كما كانوا دوماً. وكانت قد أنهت امتحاناتها لمهنة التعليم. وكانت تقول ضاحكة: «لقد رتبت أموري من أجل العمل» وعندما أحيطت علماً أن طفلتها زرقاء العينين، قالت بمرح إنما بطريقة غير شخصية وغير مكترثة: «أعتقد أن كل الأطفال عيونهم زرق».

وتحت ضغط التحقيق الضروري من أجل التبني، أجابت على مجموعة من الأسئلة. لقد كان والد الطفلة أستاذاً في المدرسة التي تابعت فيها دروسها. وقد عرفته لمدة سنتين، ولا تعرف الشيء الكثير عن عائلته. لقد جذبها بطباعه المرحة. ولم تحدثه عن الطفلة قط، خشية أن يطلب منها الإجهاض، وبرأيها، هذا أمر شائن ويعرض صحتها للخطر. ولم يستخدما مطلقاً الواقي المطاطي. وعندما ألمح لها أنها ربما تريد إنجاب طفل بصورة فعلية، وافقت على ذلك بخجل. ومن جانب آخر، رفضت فكرة الزواج لأنها «أبداً، أبداً، لا تريد إلغاء حريتها».

ولم تعتقد أنه كان غنياً جداً، وطموحاً، ومنشغلاً جداً بمهنته. كان يأمل الحصول على منحة لمتابعة دراسته، ويجد أن أهله عملوا من أجله بما فيه الكفاية. وعندما سُئِلت ما إذا تعتقد فعلياً أنها ستلغي حريتها، أجابت وهي مستغرقة بأفكارها:

«لا أعلم ذلك».

لقد بين التقييم الدقيق الذي قامت به لعوائدها ونفقاتها، أنه قد لا يبقى شيئاً لنفسها إذا تولت مسؤولية الطفلة كاملة. فقالت أن ذلك لايضير

في شيء، لعلها قامت بكل مشاريعها في هذا الاتجاه. ثم قالت فجأة: «أحبذ أن أرى الطفلة».

أثناء الصيف، عندما تلقت خطاباً يعلمها أن البنت الصغيرة كانت مريضة، شعرت بضيق نفسي شديد لهذا النبأ، وقررت رؤية الطفلة لدى عودتها من بوسطن.

واعترفت أنها كانت مكبوتة في التحدث عن السأم الذي تعانيه: «أعلم أن هناك ما يمنعني من الكلام عن نفسي. وأعتقد أن ذلك على صلة بطريقة التربية التي نشأت عليها... كما أعتقد أني إن لم أضع ثقتي بإنسان، فلأني في الواقع لا أثق أبداً بإنسان. إن عائلتي متزمتة... هي ذي الطريقة التي نشأت عليها. من الصواب عدم الإفراط في إظهار العاطفة. ندرك أنها موجودة هنا، لكن لا نعبر عنها... أحب إخوتي وأهلي بحنان، إنما لا أعبر أبداً عن عاطفتي تجاههم... كلما أكون واهنة، أصبر وأحاول تفهم الأمر بنفسي». وكانت طيلة الوقت تحتفظ بطريقتها الهادئة والصدوقة، وكانت جذابة وساحرة جداً، وتحدث بموضوعيتها وقعاً بأي شخص. كانت تلح على موضوع التبني، وتتصرف مع طفلتها خلال زيارتها للنزل، بطريقة يشوبها عدم الاكتراث النمطي.

لم تكن إلزي قادرة أبداً على الثقة بإنسان. كانت دوماً موضع اعتبار، إنما ليس لها أبداً أي صديقة فعلية. كانت تغير المدرسة وتقيم بسهولة صداقات جديدة.

لقد وصفت موقفها في العائلة، فأختها الكبرى أكبر منها باثنتي عشرة سنة، متزوجة منذ فترة طويلة، وتزور أهلها وإخوتها الأربعة بصورة نادرة. وكانت إلزي الأصغر في العائلة. وتقول إن إخوتها «رائعون»، وأهلها فخورون بهم. عملياً، كانت هي البنت الوحيدة في البيت وتعلم أنها محبوبة كثيراً.

كانت دوماً حياتها سهلة جداً، أهلها وأخوتها طيبون جداً معها، ولربما كانوا يدللونها قليلاً.

لم تكن زوجات أخوتها مكبوتات مثلها، بل يعرفن إظهار عواطفهن. وهي تعترف، في نهاية الأمر أنها تغار منهن. اثنتان منهن، أنجبتا أطفالاً في الفترة التي كانت فيها هي حاملاً.

غالباً ما كانت تقول لها أمها أنه، مهما يحصل، فبإمكانها دوماً العودة إلى البيت. كانت تشعر بحزن شديد لأجل والديها... فقد حاولا أن يكونا لطيفين جداً معها. وقد عادت إلى البيت أثناء فترة حملها لأنها كانت تقول: «أعلم جيداً أنه مهما كان الضجر الذي يشعر به أحدنا، فربما يرغب الأبوان دوماً أن يرونا قادمين إليهم».

لم تكن قد تحدثت مباشرة عن حملها لأمها، لأنها أرادت العودة إلى المدرسة وإنهاء امتحاناتها، لعلها أحست أن أمها لن تدعها تكمل إذا علمت بحالتها. ثم اكتشفت أمها الأمر عندما لم يعد بالإمكان إخفاؤه مطلقاً، والمسألة لم تعد قابلة للنقاش. فإخفاء الأمر هو الهدف الرئيسي، وسرعان ما تقرر تبني الطفل.

بقي موقف إلزي تجاه والد ابنها ثابتاً. كانت دوماً هادئة الأعصاب عندما يجري الحديث عنه. وعندما لاحظت أنها حامل، على حد قولها، أحست أنها لا تريد رؤيته ثانية أبداً. ولا تعلم لماذا. ولا تريد إقامة أي صلة ودية معه، طالما أنها تعلم بعدم إرادتها الزواج منه. «أفترض أن بعض الفتيات قد يفكرن أو ينشغلن به، أما أنا فليس هو النوع المفضل عندي. وقررت ما ينبغي أن افعله وفعلته».

كانت تتحدث عن هذا الرجل وكأنه جذاب جداً، «إنه منفتح جداً مع الناس، وذو روح متحمسة... وسطحي إلى حد ما» ثم تتوقف وترفض التدقيق أكثر. وحين تُسأل ما إذا هذه الناحية من الطباع تفسر عدم عودتها إليه وهي حامل، تصرخ بأنها تعرف الشيء الوحيد الذي يوحيه وهو الإجهاض، وهذا شيء مناقض لمبادئها تماماً. لقد اعترفت أن مسألة عدم استخدام الواقيات المطاطية كانت «حماقة لا تطاق». كان من الواجب عليها أن تستعلم أكثر. إنها لا تستطيع تفسير الأمر.

لم تكن الأسباب التي أوردتها لعدم الزواج من هذا الرجل اجتماعية. فعائلتاهما متساويتان في هذه الناحية. إنما على الأجدر أنها تجهل ما إذا كانت تريد الزواج منه، هي تعتقد أن «هناك كثير من الافتخار في كل ذلك» على نحو ما. بالتأكيد لم تكن تريد رؤيته يتخلى عن عمله، بما أنه يُقدِّر أن يفعل ذلك إذا ما تزوجا للاحتفاظ بالطفلة. وهي لا تريد أن يتخلى عنه من أجلها.

إنها لا تهتم بافتعال حبكات مع الرجال ولا بمغازلتهم. كما لا تشعر نفسها دوماً مذنبة جداً منذ تجربتها الأولى الحميمة مع فرانك. كما لا تحس بأي جدية تجاه أي إنسان ما لم تلتق به. غالباً ما حدثها عن الزواج، إذ كان دوماً يقول، إنه عندما ينهي هذا وذاك، سيتزوج. وذات يوم، وخلال المحادثات، اعترفت أنه قد حصل معها، في فترة ما، أن فكرت: «ربما من المحبب جداً الزواج منه». إنما بعد ذلك، عندما حملت، أحست أنها لا تريد التفكير بذلك.

«لماذا؟»

«آه، أعتقد أن ذلك قد يكدر مشاريعه. ومن ناحية أخرى، أنا لست منشغلة بتاتاً بالزواج منه»

وعندما سُئلت ما إذا تخيلت على الأقل ردة الفعل الممكنة لفرانك على مجيء الطفلة، وما إذا كانت تستطيع الذهاب إليه لتسهيل قضية التبني لصالح طفلته، أجابت أنها لم تفكر بذلك، إنما قرارها يبقى دوماً نفسه، تستمر في إرادتها من أجل التبني، إنما لا تريد الذهاب إليه.

وأثناء الإجراءات الشكلية للتبني، لم تظهر إلزي مؤشراً لأي عاطفة. و تكلمت بشكل عام بطريقة موضوعية وعادلة بالنسبة لعلاقتها مع الأب ومع الطفلة.

وقبل دراسة مسألة الأمومة اللاشرعية لـ إلزي، من الضروري التوصل لإدراك أفضل لشخصيتها. لقد كانت باردة ومكبوتة من الناحية العاطفية.

وتشتكي من عدم المقدرة على إظهار المشاعر، وذكرت بأنها لم تظهرها. وكانت فتاة وحيدة تتطلع للعثور ليس على الحب، إنما الأمان والإشباع في قوتها واستقلاليتها الشخصية. في ما الأسباب العميقة لكبتها العاطفي غير معروفة لنا، وليس لدينا إلا بعض التحققات النادرة والملاحظات التي أبدتها أمامنا. لقد أعطت تلميحات عن إطار حياتها، وهناك داع لاعتقادنا أنها اتت من وسط يحب فيه الأهل أولادهم، ويعلنون عن استعدادهم للقيام بأي شيء من أجلهم، إنما يتجنبون أي استعراض للحنان لئلا يضعفون طباعهم. ورفضت إلزي التعبير عن مشاعرها بموجب طباعها أو ربما بعد تعليمها وتربيتها. كانت منذ نعومة أظفارها مرغمة على رد (أي على إخفاء) عواطفها بشدة، وقد أصبحت بعد ذلك عاجزة عن الإحساس بها أو إقامة احتكاك عاطفي حار مع الغير. وحتى سنتها الثالثة والعشرين، لم تقع إلزي في غرام أحد أبداً كما لم يكن لها صديقات ودودات. وبرفضها جميع العواطف، وبوصمها كل تعبير عاطفي كمبالغة دالة على الضعف، كست نفسها برداء من الكبت القوي لكل حياتها العاطفية، كبت استمر منذ طفولتها. وقد وازنت نقص حياة عاطفية أنثوية حارة بالمبالغة في اطمئنانها وقوة إرادتها، كانت تلتجيء، بشكل خاص، لهذه الخصائل عندما تشعر نفسها متأثرة أو مهددة في حبها النرجسي لذاتها. وكانت تحارب من خندق ثقتها بنفسها، بعد أن انسحبت بطريقة أكثر راديكالية من العالم الخارجي.

كانت إلزي كائناً نرجسياً تماماً، مكرساً لإثبات مهارته وفاعليته في الصراع من أجل الوجود. وكانت تنظر لنفسها مستقلة تملك الثقة بنفسها، تلك الثقة الضرورية لإثبات هذه الاستقلالية.

كانت تعطي بتقتير في ما تأخذ بطلب كبير. تريد التأكد من أنها محبوبة، وبما أنها كانت جاهلة على نحو يُرثى له للتجربة العاطفية، فكانت تقيس العواطف ببراهينها الموضوعية. وهنا برأيي، يكمن سوء طالعها الأنثوي والإنساني. فموقفها في البيت العائلي، حيث أمضت سنوات

عديدة، بعد زواج أختها، كفتاة وحيدة وأصغر الأولاد، وسط عدد من الأخوة المتفوقين، ولّد فيها رغبة مزدوجة. إنها تريد أن تكون قوية كإخوتها، وتملك مهنة مثلهم، وأن تكون في الوقت نفسه محبوبة، بشكل خاص، بما أنها الأصغر وبما أنها فتاة. وضعها الأنثوي في البيت توصل، على نحو ما، إلى تسوية، بسبب زوجات إخوتها وبصورة محتملة، كانت ردة فعلها على ذلك، بحاجة متنامية لبراهين أكثر حيوية وموضوعية على الحب.

مع أنها لم تقع عاشقة (وكانت عاجزة عن ذلك)، تركت نفسها تحب بفرح، رجلاً ذكياً ولطيفاً. وبكونها أقل الناس تنبهاً جنسياً، كان لها الموقف النمطي التالي: لا شيء يمكن أن يحصل لها. ومسألة أنها تنتظر من الرجل المسؤولية الكاملة في تجنب الحمل، تبين أن نرجسيتها الطفولية استولت عليها هنا وعلى ثقتها المتكبرة بنفسها. وفي لحظة صراحة، اعترفت أنها توقعت أن تكون حاملاً (ويمكننا حتى قبول أنها حرضت حملها). ما هي دوافعها؟ في ارتكازنا على الانطباع العام الذي كوّناه عن شخصيتها، لنا الحق في القول إنها ليست الرغبة الأنثوية أو الأمومية لامرأة عاشقة، إنما على الأجدر حب الذات الذي أثر بها في ذلك، كما في جميع قراراتها الأخرى بعد ذلك. لا يجب علينا أن ننسى أن اثنتين من زوجات إخوتها كانتا تنتظران أطفالاً عندما أصبحت حاملاً. ومن المحتمل أن أول علاقة جنسية لها أعطت مضموناً محدداً لرغبتها الموجودة سابقاً، فهي أيضاً كانت تريد إنجاب طفل، وقد يكون الحمل قد أمدها بمعيار موضوعي لكي تعرف إلى أي حد كانت محبوبة.

كان صوت الروح الأمومية قد طغى على إلزي منذ البداية بسبب دوافع أنانية، لأن ما تريده، كان برهاناً للحب تمتلكه لنفسها، أجدر من إتمام أمنيتها في الأمومة. وكانت النرجسية حساسة لأقصى حد في أطوارها، وقبل حتى أن تفكر في إعلام عشيقها بحملها، أحست أنها في الظروف الحالية، لا يمكنها أن تذهب إلى الزواج باعتزاز. وكان الرجل

يحب مشاريعه الطموحة أكثر مما كان يحبها. وعندما أنجزت هذا الفعل المذل، انكفأت على نفسها باعتزاز، وتذوقت، بطريقة نمطية، إشباعاً نرجسياً بالانعطاف إلى التضحية التي بذلتها. ومثل هذا الإخفاء للحمل عن والد الطفل، فضلاً عن كونه توفير لإذلال الرفض، هو شيء مألوف، وردة فعل نمطية نرجسية. فسماع الرجل ينصح بالإجهاض يُحَس غالباً من قبل المرأة كإماتة قاسية وعميقة، وتصون كثير من الفتيات علاقتهن المستقبلية مع الرجل، وغالباً مع كل الجنس الذكري، بتجنب مثل هذه النصيحة، مفضلة المصير الصعب كأم غير متزوجة، عن الإجهاض. وقد اعترفت إلزي بذلك شعورياً بتسكينها «لمبادئها».

بيّنت إلزي أنها كانت قد مزجت بين منافستها مع إخوتها وبين علاقتها الغرامية، عندما لاحظت بسخرية معينة «أنها قد لا تريد رؤيته يتخلى عن عمله كما قد يُطلب منه ذلك» في حال تزوجا من أجل الاحتفاظ بالطفلة. فهي لم تكن ترغب بالتخلي عن مشاريعها المستقبلية في صالح أمومتها، التي لا تعطيها أي تعويض نرجسي، إنما تعطيها طفلة فقط. وبسبب حملها المرغوب رغبة لاشعورية، حققت إلزي كذلك هدفاً آخر. ربما الأهم بالنسبة لها في تلك الفترة. طالما يقاس الحب في نظرها ببراهين موضوعية، أعطت أهلها فرصة بالإشارة إلى أن وعدهم في موضوع أن «بعض الصعوبة ستحصل لأحد منا» كان صادقاً. ومن المميز أيضاً أن كل هذه الصعوبات، واجهتها بصلابة بحلولها الخاصة.

لم تكن إلزي عاجزة عن الحب الأمومي. فخلال لحظات قصيرة، ظهر وميض من الأنوثة في سلوكها، ولذلك على سبيل المثال، تملكها الخوف من الاحتكاك بالطفلة، وهربت بعيداً عنها.

فالحل أن امرأة أكثر أمومية وأقل تمركزاً حول الذات لا وجود له بالنسبة لـ إلزي. ويؤدي هذا الحل لإعطاء أهمية أكثر لامتلاك الطفل ولهنائها من الإشباع في أن تُحَب من رجل، ومن أن تُحَب بلا حدود وتكرس نفسها بنفسها. وهذا يقود إلى زواج وحل وسط.

نتابع بأن آليات دفاع إلزي عملت بصورة جيدة، بحيث تجاوزت سريعاً مرحلة أمومتها اللاشرعية، وكانت من أولئك النساء النادرات جداً اللواتي استطعن تجاوز مثل هذه التجارب، دون شعور بالذنب. وقد هدّأت هذا الشعور بنهوضها بواجباتها بصورة حرفية، وكان ذلك بلا ندم. ولو كانت قد تزوجت، لكانت أماً نموذجية. في ما قد يكون الجو المحيط بالطفلة فاتراً. وقد لعبت خلفية إلزي النفسية دور إرث شيء، وبالفعل كانت طفلتها ستحيا ثانية تجربة طفولة أمها. وبسبب هذه التجربة استطاعت التخلي بسهولة كبيرة عن طفلتها اللاشرعية، وأيضاً لن تمنح حنانها لطفل شرعي إلا بتحفظ ورزانة وحشمة.

سنجد مثالاً أقل تعقيداً لردة فعل نرجسية، لدى أم غير متزوجة في مرحلة مرحة، كنت فيها شخصياً كشاهدة. حصل الحادث أمام محكمة أوروبية. رجل متوسط العمر، ذو منزلة رفيعة في المجتمع، وأب محترم لثلاثة أولاد كبار، يرى نفسه فجأة منذراً أمام العدالة لإعالة شاب في العشرين من العمر تقريباً. ووفقاً لادعاءات أمه، كان المتهم أباً غير شرعي لهذا الشاب. المتهم قصير القامة ضعيف الجسم، قوي الذهن، أظهر خجلاً وكبتاً وشللاً بفعل المفاجأة، لقد وجد نفسه في مواجهة شخص قوي البنية، ضخم، فلاح قوي نمطي، أطول منه بمرتين، يرتمي على قدميه وهو يقول: «أبتي الصغير، ألا تريد أن تعترف بي؟».

مفاجأة الأب المدعى عليه تبدو صادقة.

أم الشاب، فلاحة قوية البنية، عدوانية، صرحت أنه قبل إحدى وعشرين عاماً، كانت خادمة في المدينة، في ما كان المتهم قد زار ابن رب عملها، وأنه أتى إلى غرفتها ليلاً وأقام علاقة معها. وقد وُلد ابنها في أعقاب هذه العلاقة. تقول الآن، إنها تريد منح ولدها سبيلاً، ليصبح متعلماً في مجال تجارة المدينة، طالما أنه لم يحب حياة العمال الزراعيين. بينما هي متزوجة وسعيدة، وأم لشقيقين شرعيين له. وارتأى زوجها أن على الأب غير الشرعي، وليس عليه، رعاية وإعالة المولود الأول. في ما يعطي

موقف المرأة انطباعاً بقناعتها التامة بعدالة القضية. لقد تذكرت بالطبع الأب المدعى عليه، بضغط المصاعب الطارئة مؤخراً في حياتها ورفعت هذه الدعوى ضمن جهلها بقوانين التقادم... مع أن المتهم لم يستطع تذكر تلك المرحلة من شبابه، إلا أن نزاهته دفعته للاعتراف بأنه «من الممكن، في نهاية الأمر أن يحصل أمر مثل هذا». فطرح القاضي على المدعية السؤال الطبيعي التالي: «إذا كنت مقتنعة في تلك الفترة بأن هذا الرجل أب لابنك، فلماذا لم تطالبي فوراً بنفقة؟»

إلا أن المرأة القوية صاحت بدهشة وسخط: «لم أكن أريد لابن أ. هذا، أن يعتقد أنني بحاجة له ولماله».

النرجسية المطعونة لهذه الخادمة التي جُرحت جرحاً عاطفياً، جعلتها تقوم بعبء الطفل اللاشرعي، أجدر من أن تطلب من رجل مساعدتها، والذي لم يستخدمها إلا أداة للمتعة.

يخضع طابع ردة فعل المرأة على أمومتها غير الشرعية، لماضيها، وللأفعال السابقة التي تتعلق بنموها. الأمومة الشرعية، هي أيضاً لها أصولها العاطفية في الماضي. والظروف النفسية التي خلقتها اللاشرعية بصورة ثانوية أو التي تؤدي إليها بصورة أولية، تعزز عادة عناصر الماضي هذه. ويمكن لميل الأم الشابة في «إعادة» الطفلة إلى أمها، أن يُشبع بسهولة أكثر في الموقف اللاشرعي. وفي بعض الأوساط الاجتماعية، بيت الأهل هو مستودع للأطفال اللاشرعيين للبنات، وتجد الجدات أمر العناية بهؤلاء الأطفال طبيعي جداً، دون أن يضمرن أي حقد على ولادتهم الشاذة.

يتوافق طفل غير شرعي متحدر من رجل متزوج، مع مخطط عقدة أوديب تماماً. في ما التخيل الوهمي الماسوشي، بأنه تُرك «في الشارع» مع الطفل اللاشرعي لرجل مغوٍ، هو تنوع مألوف للتخيل الوهمي بالعهر لمرحلة البلوغ. ويبين لنا التحليل النفسي أن الرغبة بالطفل، لها عند الفتاة الصغيرة، كثير من المركبات، وكل منها يمكن أن يكون متفاعلاً ويُساق إلى التحقيق في ظروف معينة.

يجد التمني الماسوشي في الهجر مع الطفل، عَوَضاً عدوانياً في تمني حرمان الرجل من الطفل الذي أنجبه، وذلك بغرض الانتقام. في ما يعد هذا التمني الكيدي نتيجة للحرمان الذي يُحَس به من ناحية الأب في الماضي، ويُسقَط هذا الحرمان الآن على رجل آخر. ويعد التخيل الوهمي للطفل اللاشرعي مألوفاً بصورة فريدة، وأسبابه متعددة ومتنوعة، هناك ساندريون الماسوشية، التي عاقبت نفسها بأن أصبحت أماً مهجورة، كما نعرف «المرأة الفاعلة» المحبة للانتقام التي تصحب طفلها بعيداً عن الرجل، وأيضاً المرأة الطامحة جنسياً، التي لا تأخذ الرجل بعين الاعتبار في تخيلاتها الوهمية العذرية للتناسل. يمكن لكل هذه الدوافع الفردية أن تؤدي لاحقاً إلى الحمل بطفل غير شرعي، أو لبعض ردود الفعل أمام ولادة لطفل ما.

عندما لفتنا النظر أن الحياة التخيلية للمراهقة تتضمن خطر التبلور في مظهر فعلي، أصرّينا على أمر أن التخيلات الوهمية تُترجم عادة بأعراض عصابية أجدر من ترجمتها بتحقيقات مباشرة. حيث تحلم كثير من الفتيات الصغيرات بالاغتصاب، وتعاني من الإقياءات الهستيرية، أو الامتناع المرضي العقلي عن الطعام، حيث تعبر هذه الخيالات عن الحمل، ويطلبن بإلحاح أن تُجرى لهن عملية...إلخ. ومن النادر أكثر من أن يُغتصبن، أن يصبحن حواملاً...إلخ. لكي يتهيأن لذلك بأنفسهن، وذلك لا يحصل إلا حينما تترافق تخيلاتهن الوهمية بدافع واقعي، لا يُقاوم عاطفياً، أو بعدة دوافع.

قد يؤدي الحمل الفعلي للأم أو للأخت الكبرى إلى تحقيق سابق لأوانه، أو غير شرعي للرغبة بالطفل التي تحس بها الفتاة الصغيرة، إنما فقط حين تحطم الدوافع المدمرة السادية المرتبطة بالأم أو بالأخت، أو الدوافع الماسوشية المتجهة ضد الأنا، حالات الكبت وآليات الدفاع الطبيعية.

كانت إيفلين التي دُرست مراهقتها الصعبة بالتفصيل(vol.I)، عاجزة

عن فرملة التحقيق المرضي الذي أطلق فيها عدداً من الأحداث المحددة. فبعد حالات الفرار إلى العهر، وليالي السهاد، إلى الساندريون، التي أمضتها على الأدراج، واحتجاجها على حمل أمها الجديد، والنية التي عبرت عنها في التلاؤم مع الطفل المنتظر، أحست بالحاجة لأن تصبح مستقلة في اتخاذ ملكية طفل بطريقة حصرية بشخصها ولا جدل فيها «سأكون الأولى»، هكذا قالت لأن طموحها أراد دوماً أن تسبق أخواتها الكبار في كل تجربة .

لقد غابت إيفلين عن أنظارنا عدة أشهر. وتوارت عن جميع أولئك الذين كانوا يريدون حمايتها من قدرها السيء، وكانت جديرة، بالدافع الشؤوم للاشعور، بأن تحوّل تخيلاتها الوهمية في مرحلة البلوغ إلى فجور ماسوشي. ولم تعد إلى الظهور إلا قبل وضعها بفترة قليلة، وبعد سفر طويل وشاق، أخذها من تخوم معسكر كاليفورنيا إلى بيت أهلها في ماساشوستس. والد هذه الطفلة كان بدون شك من بين كثيرين غيره، «نمط يُدعى جو» يمكن أن يُستبدل أيضاً بـ جو آخر. جميع هؤلاء الآباء الفعليين، ومع ذلك غير فعليين، بلعبهم دورهم معاً أو بصورة متتابعة، يرتكزون على أب وحيد يتعذر بلوغه.

أودعت إيفلين في دار التوليد (Maternity Home)، وكانت قد اغتنت بتجربة مريرة وظلت مع ذلك كما كانت في السابق. كانت تقول إن الفتيات اللواتي حولها، أردن محادثتها عن رفاقهن(boy friends) كما لو يعلمن بكل ما في الحياة. هي تعتقد أن ذلك بسبب الطفل، إنما هي بعيدة كل البعد عن معرفة الرجال. كان هناك خطر من أن تهرب إيفلين إلى تعمية جديدة بغاية «معرفة كل شيئ».

تقول: «من المضحك أن الأمور تغيرت». إذ شعرت نفسها غريبة في هذه الأمومة، مع أن الآخرين كانوا معها «لطفاء بشكل لا يطاق»، كانت تعلم أنها تغيرت، لكنها كانت «حمقاء» مع الآخرين. وتقول إنها لم تطلب العودة، إنما أمها طلبتها منها.

كان يضجرها، أثناء تواجدها في دار التوليد، أن عليها العناية بابنها لمدة خمسة أسابيع، في ما هي لا تريد الاحتفاظ بالطفل، وتخشى أن تصبح مجنونة جداً خلال هذه المدة إن لم تستطع الانفصال عنه. لقد قال لها أهلها إن بإمكانها اصطحاب الطفل إلى البيت وأن يساعداها برعايته إن رغبت في ذلك. لقد وجدت ذلك «لائقاً» من جانبهم، إنما قررت، متذرعة بأن عمرها ست عشرة سنة فقط، وأن «ذلك سوف يسبب لها ألماً أن تكون أماً لطفل... الأمر مع الطفل ليس لعبة». لكنها فكرت كثيراً بإنجاب طفل، وكانت مجنونة جداً بأطفال عائلتها، وتخشى من «مسألة الخمسة أسابيع هذه». ولا يبدو أنها تبحث عن وسيلة للتهرب من ذلك، إنما ذلك يضجرها.

تقول إيفلين، إن والدتها قبلت بالطبع برعاية الطفل، لكن ذلك لا يبدو صحيحاً. هي تحس أن الطفل ينتمي إليها ويخصها، إنما في بيتها، مع طفلها الخاص بها، لن تكون إلا أماً مساعدة، لأنها لا زالت غير مؤهلة لأن تكون أماً فعلية.

كانت الأسابيع الأخيرة من حمل إيفلين، كأي ولاّدة، مليئة بنفاذ الصبر والخوف المتنامي بالإضافة لنكرانه. ولما سُئلت ما إذا كانت خائفة، تنفست بعمق وقالت لا، ثم ابتسمت بحزن وقالت «جداً».

ومسألة أن الحمل اللاشرعي يضيف مخاوفاً خاصة على المخاوف العامة، فضلاً عن مأزق الموت والحياة، والبطل والمشوّه، تطرح السؤال التالي: هل أحقق رغبتي أم أرفضها؟ ولنتذكر إيدا وإلزي اللتان رفضتا وقبلتا رغبتهما في آن واحد مقررتان مثل إيفلين، التخلي عن رؤية ابنهن لتجنب خطر المشاعر الأمومية. لقد استطعنا متابعة تطور إيفلين قَبل أن تصبح أماً غير متزوجة، كما نعلم أن سلوكها كله، وقلقها، وفرارها، وأخيراً حملها، كل ذلك كان نتاج الصراعات الخطيرة لمرحلة البلوغ.

لقد أرادت أن تكون أكثر حنكة من أخواتها الكبار، وتنافس أمها،

وتنجب ولداً لها. فأصابت هذا الهدف، وأنجبت طفلاً وقبلت أمها رعايته. كما رضيت إيفلين اصطحاب الطفل إلى البيت. ولم تستطع أمومتها أن تؤثر مطلقاً على سلوك مرحلة بلوغها، وسرعان ما جعلت تستأنف صراعها القديم ضد أمها. كان يمزقها دوماً اتجاهان متناقضان، رغبة أن تكون حرة ورغبة أن تكون أماً مرتبطة بطفلها.

تعتبر حالة إيفلين بصورة خاصة مثقِّفة لنا، إذ غالباً ما ندع أنفسنا نمضي نحو الأمل المحبط بأن الأمومة ستستطيع التأثير بصورة ملائمة على الاتجاهات المرضية، عند الشابات غير الناضجات، نحو التحقق، مهملين مسألة أنه في مثل هذه الحالات ليست الأمومة نفسها إلا جزءاً من السلوك المحقَّق. نعرف العديد من الأمهات غير المتزوجات من نمط إيفلين، لهن جميعاً دافعاً مشتركاً، وتحققاً أعمى للرغبة السابقة لأوانها. وإذا ما اتضح هذا التمني اللاشعوري أقوى من الكبت الدفاعي، فترى الفتاة الشابة نفسها مدفوعة بسهولة نحو الأمومة البيولوجية، دون أن تكون جديرة من الناحية النفسية بالروح الأمومية.

هناك فتيات مكرّسات منذ الولادة لأن يكن أمهات غير متزوجات. إنه تقليد عائلي، فالجدة والأم والأخوات والخالات، جميعهن الواحدة تلو الأخرى أنجبن أطفالاً غير شرعيين ووزّعوهم في الأنزال أو أخذوهم إلى بيت الجدة.

في حين أن ليس هناك بشكل عام أي نقص في احترام الجدة، التي عاشت هي أيضاً نفس التجربة، هناك عادة احتقار للأم. يقول الأنا الأعلى غير المنجز للفتاة الشابة: «لن أُدخل ابن زنا إلى بيتنا»، حتى أصغر مما كانت أمها في نفس الظروف، تصبح على عتبة المراهقة حاملاً بصورة غير شرعية، رافضة بوعي أي اندماج مع أمها. وإن تعلق الأمر بأعراض مرضية جسدية، يمكن أن تتأثر بالوراثة، نميل هنا للتحدث عن التأثيرات التربوية. لقد عرفت عائلة من سوية اجتماعية عالية جداً، حيث «العيب» الرهيب تكرر في ثلاثة أجيال. أما مريضتي فكانت تنتمي للجيل الثالث الأخير، وقد

تربّت في دير، ولم تشتبه على الإطلاق بأن أمها أو جدتها كانتا مذنبتين بنفس الإساءة، وليس إلا عبر تحليل طويل، حتى انكشف السر الذي استشعرت به طوال حياتها، بأنها كانت أداة لمعرفة شبه واعية تمس «النكبة العائلية». في هذه الحالة، ليس بالتأكيد التأثير التربوي للمحيط، إنما اندماج حتمي مع الأم، أجبر الفتاة على مصير مشابه.

ابنة عائلة فقيرة بروليتارية حيث الأمومة اللاشرعية فيها تعد تقليداً عبر الأجيال، كانت فخورة جداً بأنها الوحيدة، من جميع إناث العشيرة، تزوجت في الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تنجب طفلاً لا شرعياً. وبقيت عقيمة خلال ثماني سنوات بعد زواجها، وكان العلاج النسائي ضرورياً لتصبح حاملاً. ومن الصعب القول، إن موقفها المتفرد في العائلة يعود إلى قصور عضوي، أو إن دفاعاتها النفسية تمتد إلى ما وراء الحدود الثابتة.

ذكرت ف. كلوتييه[1] حالة ساق فيها الاندماج بقدر الأم، فتاة شابة، بدقة رياضية، إلى الأمومة اللاشرعية.

في حالات معينة، يكون الدرب الذي يقود من التخيل الوهمي إلى التحقيق قصيراً جداً، والأحداث التي تأخذ عادة حيزاً في التخيلات الوهمية تتفعل بصورة كاملة. ويحصل الحمل في ظروف خاصة لا علاقة لها بالحب أو بالإثارة الجنسية. وتستبعد الحالة النفسية لهؤلاء الفتيات الشابات أي امكانية لمراقبة الذات، لحظة وقوعهن، إن أمكن القول، في حالة غسقية. في كثير من الحالات، هناك حتى فقدان لذكرى الحدث، حيث تنكر الفتاة أنها حامل، وتؤكد بيقين قوي أنها لا تعلم مطلقاً كيف حصل لها ذلك. أعرف قاصرة رفضت التصديق أولاً أنها كانت حاملاً، ثم صرحت بعد ذلك للعدالة، أنها وُضعت في هذه الحالة من قبل والد محترم لإحدى

---

(1) Clothier F.: Psychological implications of unmarried parenthood. Am. J. Orthopsychiat. , vol 13, 1943

زميلاتها في الدراسة. ثم تبين أن هذا الإتهام من نسج الخيال، لكن الفتاة الشابة عندها فجوة حقيقية في ذاكرتها بكل ما يتعلق بإخصابها، و«أحست» أن هذا الرجل كان المسؤول عن ذلك. ويصعب القول ما إذا كانت هذه القصة الخيالية، تذكّر مبهم، لما أحسته في طفولتها كإثارة من والدها. ومن الجدير بالذكر، أنه في حالات الإغواء الحقيقي من رجل بالغ؛ يُنكر الحمل، بعناد خاص وغالباً حتى النهاية، كما لو أن الفتاة تريد أن تقول: «لا يمكن إنجاب طفل من والدها [1]»

يميل التحقيق المرضي الذي له لسوء الحظ نتائج بيولوجية لا مناص منها، إلى التكرار، ويعود وجود عدد كبير من حالات الأمومة اللاشرعية، مع حمولات متعددة، إلى الأمانة المتصلبة التي بها يتكرر الموقف المؤدي للحمل. وبعد ذلك يُمنح الحدث سمات أزمة هستيرية، وحتى أحياناً لمرحلة ذهانية. تبدو بعض الحالات التي لاحظها بياتا رانك[2] تنتمي إلى هذا الصنف.

في مثل هذه الحالات، على الوكالات الاجتماعية أن تتدبر أمرها بصعوبات لا يمكن اجتيازها تقريباً. تأتي هذه الصعوبات هنا من اختلاط المشاكل الاجتماعية والثقافية بالمشاكل البيولوجية والنفسية، والنفسية المرضية، والتقدم الحاصل حتى الآن في هذا المجال غير مرض بتاتاً.

إن مسألة التصدي النفسي من قبل الأمهات غير المتزوجات لا تمنع أن عليهن أيضاً، الكفاح على جبهة خارجة عن الأمور النفسية. حيث تجعل الأحكام المسبقة الاجتماعية ضد أم الطفل، حل الصراع النفسي صعباً، وكذلك خلق شروط ضرورية لتجربة مرضية للأمومة. وهناك جدل واقع بين

---

(1) في اختبار لست عشرة أم غير متزوجة، وجد كاسانين عناصر عصابية مختلفة، قادت إلى تحقيقات عصابية وإلى أمومة لا شرعية.

Cf. Kasanin J. et Handschin S. : Psychodynamic factors in illégitimacy , Am. J. Orthopsychiat. , vol. II, 1941.

(2) Rank B. : Unpublished

اتجاهين. يتوافق أحدهما مع فكرة أن المساعدة الاجتماعية عليها في بادئ الأمر، أن تأخذ الطفل بعين الاعتبار، وفي الوقت نفسه تحرر الأم من العبء الاجتماعي والنفسي للآشرعية، في ما يهدف الإتجاه الآخر لإطلاع وتدريب الأم غير الشرعية على الأمومة، وتأمين الشروط الأكثر ملاءمة لها، من حيث وجهة النظر هذه. ويدافع كلوتييه عن الطريقة الأولى في الرؤية التي هي بالتأكيد أكثر توافقاً مع الواقع [1].

إنها تنتقد بحق «الموقف الصارم الذي تتخذه المساعِدات الإجتماعيات والذي وفقاً له، على الطفل البقاء مع الأم بأي ثمن». إنها تناقش أيضاً قيمة مرحلة التجربة لعدة أسابيع التي خلالها «يتوجب إعطاء الأم فرصة التقرير بنفسها أن تحتفظ بابنها أو لا» وهذا ما تقوله :

بالضغط على الأم لإرضاع طفلها، وبالسماح لتنمية علاقة الأم بالطفل، نمارس على الأم ضغطاً ضخماً للاحتفاظ بالطفل... فبعد شهر إلى ستة أشهر، الأم التي تتخلى عن طفلها، لا تفقد فقط نتاج حملها، وكل ما يمثله ذلك في حياتها الخيالية، إنما تفقد أيضاً طفلاً امتزجت به شخصيتها بصورة لا سبيل لحلها. فالإرضاع والمداعبات والرعاية الممنوحة للطفل تجعل منه جزءاً من الأم، وهذا شعورياً أكثر من حياة الطفل داخل الرحم. قارنوا الخسارة التي تحس بها الأم التي يموت ابنها عند الولادة، أو بعدها بساعات قليلة، مع الأسى الشديد لتلك التي تفقد طفلها خلال مرحلة الإرضاع أو بعدها.

حينما تنمو علاقة الأم بالطفل بصورة منتظمة، يمكن أن تُقبل حجج كلوتييه بلا تحفظ. إنما نفسية الأمومة، في شروط طبيعية اجتماعياً، تبين لنا أن هذه العلاقة غالباً ما تكون معقدة أكثر. ونعلم أنه، في شروط الشرعية، غالباً ما يتأثر موقف الطفل في الحياة العاطفية لأمه باللاشعور، وذلك هو صحيح أكثر في الموقف اللاشرعي، الذي غالباً ما يصدر هو نفسه عن

---

(1) Clothier F. : Problems of illegitimacy. Ment. Hyg., vol.30, 1941

دوافع لاشعورية. كما يحدد اللاشعور، بصورة جزئية، الدور الذي سيلعبه الطفل عندما سيصبح واقعاً. ويمكن أن يتضح وضع الطفل في الحياة النفسية لأمه، إن كان سلبياً أم إيجابياً، حتى في الظروف الأكثر ملاءمة، يمكن للطفل أن يُرى في نهاية الأمر كعنصر سلبي، وفي هذه الاحتمالية، تكون علاقة الأم معه مليئة بمشاعر الذنب التي تأتي من كراهيتها اللاشعورية واحتجاجها على وجود الطفل. حتى يمكن للأم غير المتزوجة والأم المتزوجة، أن تتذوق كلتاهما الافتخار بالخلق والتغذية الرؤوفة رغم الظروف غير الملائمة. يمكن لعلاقة كهذه مع الطفل أن تتجاوز الصراعات الصادرة عن الكفاح ضد العالم الخارجي وضد الخوف الذي يحدثه، إذا امتلكت الأم الوقت والفرصة لذلك. لعل ذوق وتجربة أولئك الذين تطلب الأم مساعدتهم تلعب هنا دوراً كبيراً.

إن الاستعداد الفعلي للمرأة في التكيف مع واقع صعب لصالح الحب الأمومي، لا يجب أن يتشوش بالجهل الطفولي للواقع ورفض صعوباته. الأقل نضجاً من الأمهات غير المتزوجات، هن تحديداً أولئك اللواتي يكافحن غالباً من أجل الاحتفاظ بأبنائهن. ويهدف كفاحهن للامتلاك، ولا يختلف البتة عن كفاح من أجل لعبة مشتهاة. في هذه الحالات، ينسحب الطفل من كونه مركزاً للحياة العاطفية، كلما تهدأ أول إثارة لإرادة الامتلاك، مثل هذه اللعبة، تكون مشتهاة من جديد بعد أن ترى المرأة قد سُحب منها. وغالباً معاودة الحمل، لدى الأم الشابة التي تخلصت من طفلها، تأتي من هذا الاحتجاج: «لكني في نهاية الأمر أريد طفلي».

كثير من الأمهات الشابات واقعات في حيرة وارتياب لما يخص أمومتهن، ويعانين من ارتباك أكبر أيضاً عندما يُترك لهن حرية الحق باتخاذ القرار. في جميع هذه الحالات، كما في جميع حوادث الأطفال، على السلطات الخارجية التدخل، متحملة ليس فقط مسؤولية القدر الواقعي اللاحق للطفل، إنما أيضاً المسؤولية الداخلية لهذه الأم ذات الشخصية غير الناضجة. وهذا يعادل من الناحية النفسية، الحديث عن خلق الأنا الأعلى

في عالم خارجي يمكن أن يخضع له الأنا الشاب. إنه الموقف نفسه في جميع تجارب صراعات الأجيال في مرحلة البلوغ، والتجارب حيث تكافح الفتاة المراهقة في سبيل الاستقلالية، إنما قد تقبل بفرح ترك مسؤولية جميع القرارات للراشدين. لعل أمر تجاوز الفتاة لفترة عذاب تجربة خطيرة، لا يجعلها دوماً ناضجة، في ما الأمومة فقط هي التي تخلق إمكانية النضوج، وليس النضوج نفسه. يجب على الحل هنا أن يستعين بمسار الاندماج مع شخص يدير الأمور. في مثل هذه الحالة، رُبّ أمر أو نصيحة لا تفي بالغرض، إذ لا يكون التأثير الخارجي فعالاً إلا بصورة عرض وفرصة مباشرة للاندماج، لأن الأنا في غاية الضعف.

أمهات غير متزوجات أخريات، مع اعترافهن بالصعوبات الفعلية، مستعدات لمواجهتها في سبيل الاحتفاظ بأبنائهن باعتبارهم أدوات تنتمي إليهن. إنهن تلك النساء العدوانيات نفسهن اللواتي يدللن أطفالهن عندما يكن أمهات متزوجات، وبهذا التحول الأنثوي، يُرضين بفضل الطفل رجولتهن العدوانية. كما تحول هؤلاء الأمهات تخيلهن الوهمي في التناسل العذري والذي يعود لمرحلة البلوغ، إلى فعل، الأمر الذي أشرت له مرات عديدة: «لدي طفل وُلِد مني وحدي، أنا أمه وأبوه. لست بحاجة ولا أرغب بأي رجل لأنجب طفلاً».

كما تحدثت أيضاً عن الأمهات غير المتزوجات اللواتي يدركن تماماً هذا الميل (vol.I p.111)، واللواتي يمنحن أنفسهن ترف خلق طفل بأنفسهن، ويقللن من شأن الرجل بما يخص الحمل. إنما في غالبية هذه الحالات، يكون الطور لاشعورياً، وهؤلاء النساء اللواتي تحدثت عنهن، غالباً ما يستأنفن مطالباتهن العدائية من والد الطفل، ليس لإحساسهن بالحاجة العاطفية لأب ينذر نفسه لطفلهن، إنما لأنهن يضمرن الحقد لوجوده ولعدم الاستغناء عنه. الملاحظ المتفهم يرى نفسه هكذا عاجزاً على التأثير هنا في المصير البائس للطفل، إلا في حال كان الأمر معنياً بأمهات متزوجات من نفس النمط.

بشكل عام، يجري صراع الأمومة اللاشرعية على جبهتين. الأولى هي جبهة العلاقة مع الوسط المباشر والبعيد. حيث تكون البنية الاجتماعية ودرجة تبعية الفتاة وعائلتها لهذه البنية عوامل حاسمة هنا. «فالزلّة» ليس لها الأهمية نفسها ما بين عائلة محترمة من الطبقة المتوسطة وعائلة من وسط بروليتاري، كما ليست نفسها حينما تُقترف من فنانة أو من معلمة مدرسة...إلخ.

أما الجبهة الثانية، فتكمن في الحياة الداخلية للأم غير المتزوجة. غالباً ما تنقل هؤلاء النساء مركز ثقل الصراع على الواقع الخارجي ويحاولن اللجوء إلى الحل بالتخلي عن الطفل. العالم الداخلي هنا، مستنكَر، والمرأة موجهة نحو العالم الخارجي، وهي تعتقد أنها في تكيفها مع متطلبات هذا العالم، يمكنها الحفاظ على الوضع الراهن دون أي تغيير. وليس لهذا التنصل دوماً من العالم الداخلي فاعلية مستمرة، ولا يمكن لمبدأ الواقع أن يُطبق بفائدة، إلا إذا تجاوزت المرأة تماماً التجربة الواعية للحرمان، والإحباط، والتخلي. وإلا هي معرضة لمخاطر ردة فعل لاحقة، كالتي سوف نراها في الحالة التالية.

السيد ڤالنتين، رجل أعمال غني ومثقف، طلب مني مساعدة نفسية من أجل زوجته البالغة من العمر أربعة وثلاثين عاماً، كانت ترفض استشارة طبيب نفسي من ذاتها، مؤكدة أن باستطاعتها بمفردها ضبط حالتها العصابية التي سببتها عواطفها، والتي سببها أيضاً، وفقاً للطبيب الذي عالجها، إنهاكها الجسدي الشديد. قبل ستة أشهر، كانت قد أنجبت بنتاً صغيرة بصحة جيدة وأرضعتها لعدة أسابيع. إنما بعد ذلك أُجبرت على وقف الإرضاع بسبب حالتها العصبية. وكانت قد أمضت ليال عديدة دون أن ترى عيونها النوم وأظهرت مؤشرات متنامية للاضطراب.

كان السيد ڤالنتين قد تزوج لينا، المريضة، قبل ثماني سنوات، وكان أرملاً وأب لأربعة أولاد أعمارهم ما بين 6 إلى 12 سنة. في ما كانت لينا شابة هادئة بأحوال جيدة، موظفة محاسبة في مكتبه تقوم بمهمتها على خير

ما يرام، وكان أكبر من زوجته بخمسة عشر عاماً، وعندما تعرّف إليها، كان أرملاً منذ ثلاث سنوات، لقد كوّن انطباعاً أن لينا يمكن أن تكون أماً جيدة لأولاده. وخلال السنين التي أمضياها معاً كان ينظر لزواجه كبركة لجميع العائلة. تخلت لينا طوعاً عن عملها، وكرست نفسها للأولاد الذين تعلقوا بها كأنها والدتهم الحقيقية. ربما كانت مفرطة في اللطف وتدللهم. ولم تعبر على الإطلاق عن رغبتها في إنجاب طفل لها، كانت سعيدة لعدم حصول الحمل لأن ذلك من الممكن أن يشوش انسجام علاقتها مع أولاد زوجها. لكنها أصبحت حاملاً بعد انقضاء سبع سنوات من الزواج، وانتظرت كل العائلة ولادة طفلها بنفاذ الصبر. فترة حملها ووضعها كانا طبيعيين تماماً. إنما منذ عقابيل النفاس أظهرت اضطراباً ونفاذ صبر، ورفضت إعطاء الثدي للطفلة وبدت متغيرة تماماً تجاه زوجها. وعندما عادت إلى البيت، استأنفت واجباتها كربة منزل. وكان موقفها تجاه الرضيعة خاصاً جداً. لقد رفضت رؤيتها، وأهملتها تماماً، وبحسب أقوال الجوار والأولاد الآخرين، كانت تتركها لساعات تصرخ وتبكي دون أن تعيرها انتباهاً. وكان السيد ڤالنتين يهتم بأمر الطفلة ليلاً، لأنه أحس أن زوجته بحاجة للراحة، ولأن نومها ثقيل يدوم الليل كله. وقال بصورة عارضة، إن زوجته كان لها قبل زواجها ابن غير شرعي، لكنها حلت هذه المشكلة منذ زمن بعيد ولم تلعب أي دور في حياتهما المشتركة.

اقتنعت أخيراً السيدة ڤالنتين بالمثول أمام الطب النفسي، واستطعت معرفة الدوافع النفسية لاضطرابها واكتئابها.

لقد تم إغواؤها وهي في الثامنة عشرة من العمر، وأنجبت طفلاً، وحصل التبني مباشرة بعد الوضع. كان الأب شاباً عرفته خلال عدة سنوات. تودد لها لفترة طويلة، ثم تخلى عنها ما إن توصل لمبتغاه الجنسي وجعلها حاملاً. واعتبرت أن حياتها قد انتهت، ورفضت عدة عروض للزواج، ولم تستسلم إلا لطلبات هذا الأرمل نظراً لأولاده، وبإحساسها بأنها بزواجها منه قامت بعمل حسن. لقد وضعت السيد ڤالنتين بصورة

ماضيها وأدى موقفه المتفهم للفوز باحترامها وعرفانها بالفضل. كانت بزواجها سعيدة جداً، وتحب الأولاد كأنهم أولادها، ولا تفكر بإمكانية الحمل. ومع ذلك، غمرتها السعادة عندما علمت أنها سوف تنجب طفلاً. وما يعذبها الآن، هو الكراهية والنفور، منذ البداية، للمولودة الجديدة، ولم تتوصل للتغلب على نفورها الغريزي، وخشية ذات يوم، أن «تقوم بعمل ما» ضد الطفلة. وارتأت من المفضل «للصغيرة المسكينة» أن تغادر البيت لحين شفائها من إنهاكها المستغرب.

لقد بدا الحل النفسي للمشكلة واضحاً، لقد أيقظت ولادة طفلتها الجديدة ذكرياتها المدفونة، ومشاعرها بالإثم العائدة لانعتاقها من طفلها اللاشرعي، ومنعها ذلك من أن تكون أماً جيدة لمولودتها الجديدة، لقد توافق هذا التفسير مع الموقف الواقعي، حيث تريد وترغب الآن لابنتها الشرعية أن تعاني من نفس المصير الذي شهده ابنها اللاشرعي. لقد كانت خالة (زوجة أب) جيدة لأولاد امرأة أخرى وأماً سيئة لابنتها الحقيقية. ورفض شعورها بالإثم بقوة خلاصها من الموقف القديم. ألا يرينا ذلك أن الصلة البيولوجية بين الأم والطفل لا يمكن أن تترك بلا عقاب؟ أليس هناك داع للتفكير بأن كل امرأة تتبرأ من ابنها، كما تفعل كثير من الأمهات الشابات غير المتزوجات، تحت ضغط المقتضيات الاجتماعية، تتعرض لهذا الخطر من العقاب النفسي؟ فولادة طفل شرعي تدمر عادة آخر بقايا التجربة الصادمة. تخلق مثل هذه التجربة فقط استعداداً مسبقاً للشعور بالذنب، أو تزيد الذنب الموجود سابقاً أو المكتسب لاحقاً. النية الطيبة الواعية التي تمتلكها المرأة لتأمين مستقبل سعيد ليس فقط لها، إنما أيضاً لابنها بتبنيه، يمكن أن تولد فكرة لاشعورية مفادها «لقد دمرت ابني وقتلته». بيّن التحليل تماماً، أنه في حالة السيدة ڤالنتين، كانت مشاعر الإثم متعندة ومتصلبة، لأنها كانت توجد خلف أمومتها التي تبرأت منها، كعبء ثقيل لغلطة سابقة. لقد كانت الابنة البكر لعائلة كبيرة. وأصبحت أمها، بعد مرض في القلب، عاجزة بعد ولادة طفلها الأخير، مما استدعى مساعدة ابنتها

الكبرى بصورة ملحة. في بداية الأمر، حلت السيدة ڤالنتين محل أمها بكل حب، لكن علاقتها مع أبيها لم تتطور بصورة ملائمة جداً. وسرعان ما احتدمت علاقتها مع أمها أيضاً، وقررت مغادرة المنزل لتغدو مستقلة. وكانت قصتها الغرامية وأمومتها اللاشرعية أول تأنيب للضمير ومعاقبة للذات. غالباً ما تحب الآلهة النفسية أن تحول الكفارة إلى غلطة جديدة، وهذا ما حصل تحديداً للسيدة ڤالنتين. وقد منحها زواجها من هذا الرجل الأرمل فرصة لتستأنف تصحيح الموقف القديم لمرحلة شبابها، حيث هذه المرة، أطفال بلا أم وجدوا فيها أماً رؤوفة. لكن هنا أيضاً لاحقها القدر، إذ أصبحت توبتها غلطة جديدة، حيث تذكرت بصورة لاشعورية أنها ستبقى في البيت العائلي، لو ماتت أمها وتركت السبيل خالياً لنشاطاتها كبديلة عنها، كما فعلت تماماً المرأة الأولى لزوجها. وقد رتبت أمورها، محملة بوزر الإثم، لكي تحافظ على توازنها النفسي، إلى حين تحققت أمنيتها الأكثر عمقاً، أمنية إنجاب طفل لها، عندئذ تم اجتياز الحد النفسي للتساهل، وانهارت تحت ثقل مشاعر الذنب، خالقة أيضاً، بقيامها بالعقاب الذاتي، غلطة جديدة، لأنها من خلال اكتئابها، تتهم نفسها بحق بأن تكون أماً سيئة.

تكيفت السيدة ڤالنتين، بصورة تامة، مع ما فرضه كفاحها على الجبهة الأولى، جبهة الواقع، إنما أرجأت آجلاً حل كفاحها على الجبهة الثانية. إنها جبهة الأنا الخاص للمرأة. وهناك لدى الأمهات غير المتزوجات، صراع بين الصون الذاتي والأمومة المتيقظة. ومع أن الحمل وتجاربها الخيالية لم تصدر بعد مشاعر أمومية، إلا أنهم أطلقوا، حتى في ظروف غير ملائمة، استعداداً معيناً للحنان، لم يستطع أنا المرأة أن يتخلى عنه بدون تضحية. كانت كلوتييه على صواب تماماً عندما اعتقدت أن الروح الأمومية تنمو كلما نذرت المرأة نفسها للطفل، وأن صدمة الانفصال تزداد كلما دامت العلاقة أكثر مع الطفل. إنما علينا ألا نهمل عاملاً هاماً: نحن نعلم بشكل مألوف، أن احتمال الواقع المرير يعد أفضل من احتمال العبء

النفسي. ولقد تجنبت إيدا وإلزي وإيفلين الدخول في احتكاك مع أطفالهن، لأنهن قلن ذلك تماماً، إن الانفصال كان بدون ذلك مشقة هائلة بالنسبة لهن، وقد أعلنّ، بهذا الفعل نفسه، عن وجود عواطف في نفوسهن بحيث أنكرنها في الوقت نفسه. وكل ما نجحن في إدراكه بخصوص موضوع الإجهاض قد علمنا أيضاً أن نكون حذرين في هذه المادة: فالانفصال عن الطفل الذي لم يُعرف معرفة واقعية في العالم الخارجي، يمكن أن يكون بالنسبة للأم، فقدان جزء من أناها الخاص.

يشكل الطفل الموجود واقعياً، والذي انفصلت الأم عنه بصورة دائمة، في كل ساعة وكل يوم، أداة حقيقية مصيرها غير مؤكد، والذي يمكن أن تحسب نفسها مسؤولة عنه، ما لم تحصل على تحريرها بصورة كاملة. وتكون جميع أنواع مشاعر الذنب، هذا الوزر الثابت في النفس البشرية، مستعدة للتنبه بواسطة تهيّج مناسب، ومثل هذا التهيّج يؤجج صراعاً غير محلول بما يخص الطفل. ومن البديهي أن الانفصال عن الطفل سيكون أشد قسوة بالنسبة للأم من أن تخلق صلات محبة بين الكائنين. ومن ناحية أخرى، ستكون ردود الفعل اللاحقة للشعور بالذنب شديدة، بحيث ستؤجج عند الأم عدوانية وكراهية ضد طفلها. هناك أم قتلت طفلها مباشرة بعد ولادته، بفعل متعمّد سببه خوفها من المجتمع، وصرحت للمحكمة أنها تحس الآن بحب كبير لابنها، وأنها أرادت رؤيته عائداً للحياة لتتمكن من أخذه بين ذراعيها وضمه إلى صدرها: «لا يهمني كثيراً ما حصل، طالما أن طفلي لا يستطيع الرجوع إلي».

كما تحدثت بصراحة مماثلة، عن الهياج والكراهية التي كانت قد أحست بها تجاه الطفل الذي تنتظره وتجاه المولود الجديد قبل قتله.

في بعض الظروف، من المفضل بالنسبة للأم أن تنفصل عن الطفل الذي عرفته وأحبته كـ «شيء» مجهول ومكروه، والذي لن يتخذ شكلاً محسوساً في خيالها إلا بعد الانفصال. قرار لصالح الأمومة لا يسعه مع ذلك أن يضمن حلاً منسجماً، حتى لو اتخذ بعد تفكير ناضج وبطريقة

واقعية. ونجد برهاناً على ذلك في حالة السيدة نافسكا، إنها أم غير متزوجة لفتاة صغيرة. استطاعت متابعتها لعدة سنوات. كانت تعيش في مدينة كاثوليكية أوروبية، وتنتمي إلى بيئة نبيلة صغيرة، يعتبر فيها الطفل غير الشرعي نكبة لا يمكن تصورها. وكانت تعيش بكيان وحيد لدرجة مستغربة. ومع كونها مدرسة اللغة الانكليزية الوحيدة في مدينتها، راحت تفقد، شيئاً فشيئاً، جميع تلاميذها المتحدرين من العائلات العريقة، وأصبحت تعلم تلاميذاً من أصول غير معروفة، وتكسب معيشتها بصورة جزئية بكشف الحظ والتنبؤ بالمستقبل للخادمات. وكانت تُرى لسنوات متعددة مرتدية الفستان الأسود نفسه، الذي مال لونه، شيئاً فشيئاً، للإخضرار بسبب قِدمه، في ما كانت ابنتها دوماً مرتدية أبهى الثياب أناقة. إلى حين مرحلة بلوغها، كان للصغيرة ستيلا أفضل الألعاب وأفضل الثياب...إلخ. وفي الحدائق العامة، كانت الأم والطفلة تسيران دوماً جنباً إلى جنب، وكانت .السيدة نافسكا تبذل قصارى جهدها وانتباهها لدرء أي صد اجتماعي عن المسكينة ستيلا. وكان الأطفال يلعبون معها طوعاً، خاصة لأن الغرفة التي تشغلها السيدة نافسكا مع ابنتها، كانت مكاناً يحرّمه الأهل عن أولادهم. بالإضافة إلى أن ستيلا كان بحوزتها دوماً أجمل الألعاب وأجمل الكتب، وتهتم أمها بها وبأصدقائها بطريقة أكثر لطفاً واهتماماً من الأمهات الأخريات. وبحوزة السيدة نافسكا دوماً أفخر الحلوى والفاكهة، وتعرف أكثر حكايا الجن إثارة، وأكثر الألعاب تسلية. في ما هي نفسها يبدو عليها أنها تعاني من الجوع، وتقوم دوماً بالأعمال الخيرية للمتسولين وهي تقول لهم: «صلوا من أجل روح أوتو ريتلوف».

والأمر اللافت عند هذه المرأة، هو استعمالها لمسحوق تجميل أبيض، وقد جلبت لها هذه العادة لقب «الكونتيسة الشاحبة». وفي ما عدا ذلك، كان سلوكها مليئاً باللياقة والكرامة وعزة النفس، ولا يدل أي مؤشر عن اضطرابات نفسية. والعزلة التي كانت تلازمها في المدينة الصغيرة، وعزلتها الاجتماعية، جعلت منها غريبة الأطوار.

لقد روت لي السيدة نافسكا حكايتها بنفسها واستطعت التحقق منها. ففي الثامنة عشرة من عمرها، التقت بضابط نمساوي شاب في حفلة أقامها نبيل بولوني، وسرعان ما أقامت معه علاقة حب. وطالما ليس تحت تصرفها المبلغ الكبير من المال الذي تفرضه التراتبية العسكرية للزواج بهذا الضابط، قرر التخلي عن عمله. وبانتظار مستقبلهما المشترك المؤكد، عاشا علاقتهما علناً، وكذلك، عائلة الفتاة الرجعية طردتها من المنزل. وسرعان ما استفادت من تعليمها الذي تلقته لتصبح معلمة لغات.

جرت الأمور على أفضل حال إلى أن ذات يوم، أرسلت بطلبها والدة الشاب، وقالت لها إن كانت تحب ابنها بحق، فعليها التخلي على الفور عن فكرة الزواج منه، لأن الزواج قد يكون حملاً هائلاً لكيانه الضعيف. وعلى اعتبارها أم، تشعر من واجبها حماية ابنها. وقد قبلت الفتاة الشابة هذا التصريح بهدوء، إذ أن كلمة «أم» أثرت بها تأثيراً عميقاً. وكونت في نفسها قناعة ويقيناً بأن هذه المرأة تتصرف لمصلحة إبنها العليا، وسرعان ما عاهدتها على الانفصال عن الشاب. وهي لا تريد خلق تعقيدات بأن تقول له ما حصل، وبالاستعانة بكل قوتها المعنوية، أجبرت نفسها على أن تصرح لحبيبها أنها لم تكن تحبه قط. وبما أنها كانت عندئذ في الشهر الرابع من حملها، قالت له إنها غير متأكدة إن كان الطفل منه.

نظراً لأن السيدة نافسكا كانت تبدو مالكة لحياة تخيلية فريدة، بإمكاننا الافتراض أنها وجدت القوة لهذا التخلي الماسوشي، في محاكاتها لبطولة مستمدة من الروايات الأدبية. إنما لم يبق أمامها إلا أن تكون صلبة في موقعها، تكافح طيلة حياتها القاسية جداً إلى جانب طفلتها اللاشرعية، وأن تحتفظ بأخلص حب رومنسي لحبيبها، وأن تحب طفلتها وتكون لها دوماً أماً جديرة بالتضحية من أجلها. وبكونها موهوبة بحدس أنثوي كبير، أرادت تنشئة طفلتها على أكبر احترام لوالدها، وهو احترام هام جداً من أجل الأنوثة. ومسألة أنها غادرت هذا الرجل ببادرة بطولية، وأنه تركها بطريقة مذِلة، شكل لها بدون شك، إرضاءً نرجسياً.

تصالحت السيدة نافسكا مع إحدى جبهتينا، فكانت سعيدة بأمومتها وأعطت ابنتها اللاشرعية أفضل ما يمكن أن تمنحه لها. أما على الجبهة الثانية، الجبهة الاجتماعية، دام صراعها طيلة حياتها، فقد دفعت قدرها الماسوشي بأكمله، ثمناً لتجاوز المقتضيات الاجتماعية ولشعورها بالإثم الاجتماعي. ولكانت استطاعت بالتأكيد أن تحيا بكيان أكثر تشريفاً وتكريماً، لو ذهبت للسكن في مدينة أخرى، ولعثرت كذلك على أصدقاء أكثر تسامحاً. لكنها لم تقتصر على قبول قدرها بصورة سلبية كمنبوذة، بل أبرزت أيضاً عزلتها بحيوية، بوسيلة القناع الشاحب الذي وضعته على وجهها كرمز.

لكي نذكر محاولة غير مثمرة لحل الصراع، هاهي قصة نمط معارض للأمومة اللاشرعية. فالسيدة رولي كانت امرأة متزوجة، من أصل إيطالي، وعندها عدد من الأولاد. وبكون عائلتها شديدة الفقر، أقامت صلة لعدة سنوات مع وكالة اجتماعية. وأثناء حمولاتها المتعددة، أصيبت إصابات خطيرة بفرط التوتر والإنهاك وتواجد الذيفان بالدم والتهاب المرارة ونتائج أخرى بسبب إهمالها التام لصحتها. وكان أولادها مرضى باستمرار، وتكرّس الأم البائسة نفسها بالكامل من أجلهم. وغالباً ما كان السيد رولي هو أيضاً مريض، وبصورة عامة، في الفترات التي يكون فيها الوضع العائلي أفضل. ومع أنه كان مخلصاً في مهامه، بالكاد أن يكفي لدعم عائلته، وهو يحتل وظيفة متواضعة جداً، دون أن يبذل أي جهود لزيادة عائداته ولا يبدو عليه أي حاجة للقيام بذلك.

وفقاً لملاحظة الوكالة، كانت إيرما الابنة البكر وعمرها أربعة عشر عاماً، ابنة غير شرعية لحظة اختبار مشكلتها. وكان والدها الحقيقي قد هجر الأم والطفلة ليتزوج امرأة أخرى. وهناك أمر ذو دلالة، أن مشكلة إيرما لم تُثر إلا عندما كانت السيدة رولي على صلة مع الوكالة منذ عدة سنوات خلت. وعندما تطرقت المساعِدة الاجتماعية بصورة كتومة لمسألة أبوّة إيرما، ارتبكت السيدة رولي للحظة ثم تنفست الصعداء، وجعلت تروي

للمساعدة الاجتماعية ما لم تجرؤ على قوله لإنسان. حيث بدا أنها حملت هموماً خطيرة عندما ذهبت إيرما إلى المدرسة باسم إيرما آرنولد. والسيد رولي كان قد ألمح لفترة ما لتبنيها، ورغبت بحماس أن يقوم السيذ رولي بذلك، لكن المسألة أرجئت باستمرار، نظراً لأن السيد رولي ليس لديه المال الكافي على حد قوله. وقد أسفت ألا يتم الأمر سريعاً، وفكرت الآن بأن إيرما منزعجة وتطرح الأسئلة عن مصير اسمها. ولم تعطها السيدة رولي أي تفسير حول هذا الأمر، رغم أن هذه المشكلة شكلت طيلة هذه الفترة ثقلاً فوق صدرها. ولم تعلم ما العمل، إنما اعترفت صراحة أنها انشغلت كثيراً بموضوع ابنتها الكبرى.

كانت إيرما طفلة هادئة جداً، إنما سعيدة وغير مبالية كباقي فتيات عمرها. وبذلت الأم ما في وسعها لئلا تحس باختلاف عن أخوتها وأخواتها، إنما كانت تعتقد أن السيد رولي، دون قصد منه، كان أقل تعلقاً بإيرما من باقي إخوتها. وكان ذلك يحزن السيدة رولي، وتنهمر دموعها عندما تتحدث عن ذلك، وتقول إن إيرما عندما كانت صغيرة، سنحت لها الفرصة بالانفكاك عنها، لكن حبها لها، جعلها تفضل الاحتفاظ بها. ومع أنها كانت تحب جميع أولادها بالمثل، لكن إيرما كانت المفضلة عندها. وتأسف لعدم استطاعتها تقديم الثياب التي تحتاجها من أجل الذهاب إلى المدرسة، إنما عندها المزيد من الأطفال لتحسب أنها لا تعلم كيف تؤمن لإيرما الأشياء التي قد تحتاجها. في ما بدأت إيرما بأعراض التمرد الاعتيادي لمرحلة البلوغ، واتخذ ذلك طريقاً معقداً بأن تعلم أو تستشف بلا شرعية ولادتها. وقبل فترة، سألها بعض الأولاد، إن كانت أمها متزوجة لحظة ولادتها. ولم تستطع إيرما إجابتهم ثم سألت أمها. فأجابتها «من الأفضل لهؤلاء الأطفال أن يهتموا بشؤونهم».

وعندما تحدثت هكذا السيدة رولي لإيرما، أمسكت قلبها بيدها وراحت تبكي من وقت لآخر. واعترفت أنها خلال هذه السنوات، ذرفت من الدمع كثيراً بشأن إيرما. لقد فكرت كثيراً بشأنها ورغبت بشدة دوماً أن

تغير اسمها إلى رولي. وسألتها إيرما عدة مرات لماذا أُدعى آرنولد. وكان جواب السيدة رولي الوحيد: «تباً، كم أنت فضولية !»

ثم أرادت على الفور تغيير اسم إيرما دون أن تحدثها بذلك، إذ خشيت كثيراً أن تهرب من البيت في حال اكتشافها أن السيد رولي لم يكن والدها. وغالباً ما تحدثت إيرما عن الأطفال الذين عندهم زوج أم، وقالت كم أن ذلك رهيب بالنسبة لهم، وكانت تقول أنها قد لا تقيم أبداً عند زوج أم. في ما كان السيد رولي لطيفاً جداً مع إيرما، ويعاملها كما يعامل أولاده الآخرين. وأحست السيدة رولي أن إيرما أوشكت أن تعرف الحقيقة، لكنها لم تستطع إقرار كشفها لها، وأحبطت الطفلة في طرحها للأسئلة وأرجأت كل ذلك إلى ما بعد.

قلقت السيدة رولي كثيراً بشأن مستقبل إيرما. واستحوذ الخوف عليها بصورة ظاهرة من أن تصبح الفتاة عاجزة عن العثور على وظيفة بهذا الإسم الفاضح، أو أن يؤثر ذلك تأثيراً بالغاً بشأن زوجها المستقبلي... إلخ. ولم تعد تحتمل رؤية إيرما بائسة لأمر قامت هي به. وأرادت لإيرما أن تكون سعيدة أكثر من كل الناس. كان عندها انطباع بأن كثيراً من الناس يعلمون الحقيقة، ولا تعلم ما يدور بخلدهم بخصوص إيرما. هل كان من المستحسن القبول بتبني الطفلة عندما كانت رضيعة؟. إنما ما أن وُلدت إيرما ورأتها، عرفت أنها تريد الاحتفاظ بها. وكانت متأكدة أنها تود دوماً صنع كل ما في وسعها من أجل إيرما. وتتساءل الآن ما إذا يشغل الفتاة شيء ما، أو إذا كانت حزينة. ولا تبقى إيرما متأخرة خارج البيت مساءً، وتهتم دوماً بتنفيذ ما تقوله لها أمها. وكانت السيدة رولي مسرورة من ذلك. إذ لا تريد لإيرما أن تعيش المأساة التي عاشتها هي.

لقد دامت العلاقة بين السيدة رولي ووالد إيرما عدة سنوات، ولطالما كانت لديهما نية الزواج، إنما لم يفعلا ذلك أبداً. وعندما التقت بالسيد رولي، حدثته عن إيرما، حيث ارتأت من المفضل حل هذه المسألة منذ البداية. كما عرفت كثيراً من النساء الأخريات اللواتي أخفين عن زوجهن

مثل هذه الأمور، ولاقين بعدها متاعب زوجية من كل نوع. فهي تريد ما أمكنها تجنب ذلك.

إنها لا تعلم ما إذا كان من الممكن السماح بتغيير اسم إيرما، لكنها ترغب بإتمامه بأسرع ما يمكن. وقد قيل لها أن أفضل وسيلة لتغيير اسم إيرما، هو في أن يتبناها السيد رولي. وهذا لا يكلف إلا خمسة دولارات. الأمر الذي جعل السيدة رولي ترفضه، طالبة ما إذا كان ضرورياً، الامتثال إلى المحكمة ليُقال إلى إيرما أن اسمها قد تغيّر. إنه أمر لم تهتم به كثيراً، فما يهمها هو إيرما، إذ لا تستطيع تحمل رؤية ابنتها بائسة.

إنها تعلم أن ما يقلقها، هو تساؤلها كم من الناس يعرفون أمر إيرما. وقد شغلها هذا الهم لسنوات عديدة، وعندما ذهبت إلى المشفى لتلقي العناية، كانت إيرما حاضرة في ذهنها باستمرار. وخشيت ألا يعامل زوجها إيرما بلطف طالما أنها كانت هناك. وتعتقد أحياناً أن سبب وقوعها في المرض، شدة التفكير في كل هذه الأمور.

كانت تقول في نفسها أحياناً، أن موت أمها كان عقاباً من الرب على حملها بإيرما، إذ توفت قبل ولادة إيرما تماماً. كما تعتقد أن الرب استمر في معاقبتها كل هذه السنوات، ولأجل ذلك عانت من الآلام في حياتها. وترى أن عقاب الرب في وقوع أولادها مرضى على الدوام، وفي عدم اكتفائها من المال من أجل العيش.

لم تستطع السيدة رولي مواجهة فكرة قول الحقيقة لإيرما، مع علمها أن هذا أفضل ما يمكن القيام به. كانت تخشى اتخاذها موقف الكراهية والحقد. كما اعترفت أنها لم تتجرأ حتى بكشف ذلك لزوجها، الشخص الوحيد الذي أرادت أن تقول له، كانت المساعدة الاجتماعية. لقد كان أمر بالغ الأسى ألا تموت إيرما عندما كانت طفلة رضيعة، لقد كانت حينئذ كملاك صغير. لو أنها ماتت في ذلك العمر، لما دخلت في صراعات مع كل ذلك الآن.

ثم جعلت رولي تتحدث عن حمولاتها المتكررة. لقد قالت لزوجها إنها لا تريد أولاداً قط، وهو لم يزعجها كثيراً. وهي لا تستمتع بالعلاقة الجنسية بصورة خاصة، لأنها تخشى دوماً أن تصبح حاملاً. ولم يستخدما أي وسيلة مانعة للحمل أبداً، ولم تقصد أبداً في أي مرة أن تصبح حاملاً. حيث تقول كم كان أولادها نحيلين وضعاف البنية، كما تشتكي من بؤسها، وتعود لمشكلتها بصورة استحواذية، مشكلة إيرما الشائكة. كانت تخشى ذات يوم من احتدام الموقف بينها وبين إيرما وأن ترجوها لمغادرة المنزل، في حين أن حقدها ضد إيرما يأتي، في الواقع، فقط من الهم الذي سببته لها. سألت مرة: «هل تريدين أن أقول كم أكره إيرما فعلياً؟».

كان للسيدة رولي أيضاً، ردود فعل أخرى بالذنب، فكل ما تقوم به، يُفسر بتأثير سوء الذمة. كانت تعتذر دوماً وتسأل ما إذا كان الفعل الذي قامت به جيداً أو سيئاً. ولم يكن لها حياة شخصية، وتهمل صحتها ومظهرها، ومنغمسة بصورة كاملة بمشاغلها بما يخص أولادها، وبحمولاتها، وبالغذاء الواجب تقديمه للعائلة. كما تذهب إلى الكنيسة مساءً، بصورة لا تدع إنساناً يراها، بسبب خجلها من وضعها، وتشعر أن ذلك كان عقاباً من عند الرب، لما فعلته في ماضيها. ودوماً هناك أحد ما مريض في العائلة، وتحيا في خوف مستمر أن يموت أحد من أولادها. وتقول أيضاً أن خوفاً كان يعذبها من أن يحصل شيء ما لإيرما.

وكلما توصلت للخروج تقريباً من ضائقة مالية تزعج العائلة غالباً، تصبح حاملاً، أو مريضة، وتهمل نفسها جسدياً، وكلما تحسن الموقف المالي قليلاً، يقع أحد أولادها أو زوجها مريضاً، وتزداد هموماً مع ازدياد نفقاتها. وهي مهددة الآن بحمل جديد وصرّحت أنها تخاف من عدم استطاعتها الاستمرار فيه، لقد عانت معاناة هائلة خلال حمولاتها السابقة. وحينما أصبحت حاملاً بصورة فعلية، شعرت بخجل شديد حيث قالت، من المؤلم لها إنجاب مزيد من الأطفال عندما تكون حياتهم بهذه الصعوبة. إنما ظلت مشكلة إيرما تشغلها أكثر من أي شيء.

تلك هي قصة أم تفكر بإيجاد حل لمشكلة ابنتها اللاشرعية. ونجد في الأصل تمني الموت الشعوري أو اللاشعوري الصادر من أم «لطفلة مسكينة بلا أب... الملاك المسكينة». وقد يلغي قرارها بتبني طفلة، ضرورة تمني الموت، لكن شعور الأم بالذنب، وتنقّل الطفلة أو إيداعها في نزل قد يكون له المعنى نفسه «لقد دمرت طفلتي». ولقد رأينا كم هو مألوف أن يظهر الشعور الأمومي عند الأمهات غير المتزوجات، وقد يكون مترافقاً برغبة خيالية قديمة، وربما يصبح صوت الضمير آمراً جداً، وربما مجموعة دوافع تدفع الأم لأن تتخذ قراراً في صالح الطفل: «أريد الاحتفاظ به». عندئذ يأتي الكفاح في الحياة، كما في حالة السيدة نافسكا، ومع أن ذلك لا يكون أيضاً غريب الشكل، أو أن زواجاً سعيداً يحل الصراع، ويجد الطفل غير الشرعي الفرصة، بأن يصبح أحد أفراد عائلة نظامية، كما في حالة السيدة رولي. ومع ذلك، في كثير من الحالات، يبقى ظل الماضي معلقاً على جبين كيان الطفل، ويتضح أن حل الصراع لا يكون إلا ظاهراً.

السؤال الحيوي دوماً هو التالي: هل يحب زوجي ابني بصورة فعلية؟ هناك رمز حي يذكّر الأم بشيء ما عاهدته على النسيان، إنه تأثيرات الحب الباقي تجاه الأب، أو الكراهية التي لاحقتها، لا يمكن أن تخمد بسهولة، لأن «جسم الجريمة» الذي يمثله الطفل اللاشرعي، يعاود باستمرار فتح الجرح القديم. وتتذكر الأم المحترمة الآن ماضيها الذي تنصلت منه، وتسعى بقلق أن تجد في إرث هذا الماضي السيئ، مؤشر تماثل مع الجزء المرفوض من أناها الخاص. وكانت السيدة رولي تخشى أن تهرب ابنتها، معبرة بذلك عن قلقها من أن تنجب الفتاة ابناً لاشرعياً كما فعلت هي. وكباقي النساء الأخريات، تؤمن بالعقاب الرباني. هناك شعور آخر بالذنب رافق الخطيئة الجنسية عند السيدة رولي، إذ تفكر أنها قتلت أمها بإنجابها لطفلة غير شرعية. فالجدة لم تمت إلا قبل ولادة الطفلة اللاشرعية بفترة وجيزة، مثل حالة السيدة رولي، إنما في معظم الأحيان، الضربة الموجهة لأم المرأة نتيجة هذا الحدث، تثقل كذلك على مشاعر الفتاة بالذنب.

كانت السيدة رولي واقعة بين حبها الشعوري لإيرما، مشاعر الكراهية المقنعة باستمرار، هل يمكنها أن تقول لها الحقيقة؟ هذا السر الخانق هل تحمله كعبء ثقيل؟

وأصبحت حاملاً باستمرار، حيث أن محظوراً قاسياً ضد ضبط الولادات، فرض عليها هذه الحمولات. وجعلتها حمولاتها الإجبارية تدفع بمآسي أمومتها الشرعية، ثمناً لخطيئة إنجابها لطفلة غير شرعية. كما استخدمت ظاهرياً حججاً دينية، كتسويغ ضد ضبط الولادات (رغم أنها لم تخش إقامة علاقة لاشرعية مع أول صديق لها). وفي لاشعورها، كانت طفولية، وترفض اقتراف جريمة جديدة بقتلها لأطفال آخرين (سواء كان بالإجهاض أو بضبط الولادات). وقد استخدمت هكذا الأمومة كتفكير مؤلم، ولم يعدّل هذا مطلقاً كراهيتها لطفلتها غير الشرعية، وكانت مجبرة أيضاً وأيضاً أن تصبح حاملاً. وكانت أفراحها الأمومية خافتة بسبب همومها، ولم تفعل الأمراض المستمرة لسوء التغذية لأولادها إلا أن فاقمت مشاعرها بالذنب الأمومي بدلاً من تهدئتها.

إن مصير الطفل غير الشرعي الذي احتفظت به أمه، ليس دوماً محفوفاً بالسلبيات اللاحقة كالتي حصلت مع السيدة رولي، وردود فعل الأم بالذنب ليست شديدة دوماً، والنهج المستخدم لتجاوزها مرتبط أيضاً بوظائف الأمومة. إنما في عدد كبير من الحالات، يصبح الصراع بين الميل للصون الذاتي وبين الأمومة حاداً أكثر، بسبب التناقض الوجداني للمشاعر المحسوسة تجاه الطفل اللاشرعي.

كانت السيدة فالنتين قد سمحت بتبني ابنها، ورأينا الصراع الخطر الذي أعقب ذلك بعد عدة سنوات. في ما احتفظت السيدة فاسكا بابنتها، مبادلة سعادتها الأمومية ببؤسها الاجتماعي. وكانت السيدة رولي تكافح بلا هوادة لتحول قرارها بالاحتفاظ بطفلتها غير الشرعية إلى حب أمومي.

ينبغي علينا الاعتراف بأن تفهمنا النفسي لازال غير متكامل أبداً، ولا

نعلم على الإطلاق ما سيعطي مستقبلاً، قرارٌ، يبدو حكيماً في بداية الأمر، ومنسجماً مع الواقع.

قد يتوجب على الحل الجيد أن يأخذ بعين الاعتبار المظهرين في آن واحد، التكيف مع الواقع الخارجي وتفهم القوى النفسية. وربما لا يجب محاولة تكييف المرأة مع الواقع بإذعانها للضغط الخارجي وتخليها عن الطفل. كما لا يجب مطلقاً الإصرار على فكرة أن السعادة تجلبها الأمومة، إن كانت المرأة عاجزة نفسياً عن مثل هذا التحقيق في الظروف التي تجد نفسها فيها. وكما رأينا، طالما أن الأمومة مشكلة نفسية معقدة تشمل كثيراً من المركبات، فيجب على أولئك المدعوين لإعطاء المساعدة الاجتماعية، أن يأخذوا جميع هذه المركبات بعين الاعتبار.

وهناك حقيقة في أن التجربة علمتنا وعلينا ألا ننسى. فإلى جانب المسائل الاجتماعية للأمومة اللاشرعية، هناك حاجة عميقة تحس بها الأم في أن تحب طفلها في مثلث عائلي. ولن يكون كافياً أيضاً حماية الأمهات غير المتزوجات حماية اجتماعية، أو تغيير الأخلاق الاجتماعية. فالمرأة الأنثوية تحتاج لهذا المثلث، وفي حال نقصانه، ستتفاقم جميع الصراعات الأخرى العاطفية، مهما كانت الجهة التي نسعى إليها لحلها.

❀ ❀ ❀

الفصل الحادي عشر

الأمهات المتبنيات

إن اقتضت حتماً التجربة العاطفية للروح الأمومية، الأمومية البيولوجية، فالبؤس النفسي لامرأة أمومية تواقة للأمومة، في الوقت الذي تبين فيه أن جسدها عقيماً، ربما يكون أمراً لا يطاق من الناحية الواقعية. فالعامل الجسدي قد ينتصر على النفسي، ويعاني كيان المرأة العقيمة من حرمان مر ومستمر. لقد بيّنا في أحد الفصول السابقة، أن امرأة أمومية بصورة حقيقية، يمكن أن تجد فرصة في نقل مشاعرها من غاية مباشرة إلى أخرى سامية. وتكون الوسيلة الأسهل من أجل ذلك، في استبدال ثمرة جسدها الخاص، بكائن بشري ضائع، يحتاج لحب أمومي ولحماية. ويمكن للأم المتبنية أن تعادل تماماً أما فعلية من وجهة نظر الطفل، وتصبح جميع الصعوبات الممكن مصادفتها لاحقاً، ذات أهمية نفسية ثانوية، إذا تم ضمان كمية كافية من الإرضاءات المحددة بيولوجياً، وجو عاطفي كاف. إن المفهوم التوراتي الذي تعبر عنه الكلمات التالية: «عظم من عظامي وشعرة من شعري» فعال جداً، عندما تتحدد علاقة الأم بالطفل بمشاعر الروح الأمومية بأقل من أن تتحدد برغبتها النرجسية في امتداد أناها الجسدي الخاص. تلك الرغبة التي تتجسد في توسع الجسم بالحمل، تُحرم منها الأم التي لم يولد الطفل من جسدها. إنما بالنسبة لإشباع الحب الأمومي، وبالنسبة للتعبير عن المشاعر الحنونة تجاه كائن إنساني يحتاجها، وكذلك بالنسبة لممارسة الرضى الماسوشي الأنثوي بالتضحية، يمثل تبني طفل فرصة متكاملة.

ويمكن للزهو النرجسي الذي تقيمه المرأة على نتاج جسدها، أن يُرحّل بسهولة، على النجاح الذي تحرزه، بفضل رعايتها الحنونة وتنشئتها وتأثيرها الشخصي، في علاقتها مع طفل امرأة أخرى. حيث يمكن للحب والاحتكاك المستمر أن يجعل من الطفل المتبني، ابنها الحقيقي على نحو ما، ومسألة أنه ليس من دمها يمكن أن تُنسى بزمن قصير نسبياً. ويتوقف الطفل، بصورة خاصة، عن أن يكون غريباً بالنسبة للمرأة الأمومية، عندما يتم تبنّيه في الأشهر الأولى من حياته، وعندما تخلّص منذ البداية من الظروف التي وُلد فيها، وعندما لم يتذوق أي حب أمومي سوى حب أمه التي تبنته، وعندما تعلّم طريقتها في التفكير والإحساس، حيث يصبح جزءاً من أناها الخاص، ويُقدر ويُحب كما لو أنها هي التي أنجبته.

إنه «طفل النكبة»، وبصورة خاصة تماماً، الطفل الذي تكافح المرأة به من أجل الحياة، أو طفل معرّض للمرض وهي «أنقذته»، ويجد كل الفرص، بقربها كامرأة أمومية، كطفل من لحمها ودمها. ونجد على ذلك مثالاً مؤثراً في حالة فتاة شابة وجدت صعوبة بالغة في انفصال الطفل الذي عُهد إليها أن تقنع الأم أن تتركه لها لتتبناه. كما لو أن أحداً حال دون إمكانية إنجابها للأولاد، وقد أجابت بيقين: «لا يهمني الأولاد الذين لم يولدوا بعد، إنني أحب هذا!»

المثلث العائلي، الذي وضعت أساساته عادة بفعل الاخصاب، يمكن أن يتشكل هو أيضاً برمته على أساس الأهداف التي صيغت على النمط ذاته، وعلى الآمال المستقبلية المشتركة، وعلى المساهمة في تنشئة الطفل المتبنى. ويمكن للغبن الحاصل من أن الطفل لا يوحده بأهله رباط الدم أن يعوّض لاحقاً بتأثيرات تربوية ملائمة.

وتتعلق في معظم الأحيان ملاحظاتنا، بالمواقف التي كانت سعيدة، بصورة خاصة، للأم المتبنية. ومن وجهة نظر تاريخية، تطرأ تغييرات كبيرة في قضية التبني. ومن المدهش أن نرى، في الماضي، أن إرادة الأمومة

بتبني طفل، لم تحبطها الصعوبات الهائلة التي ينبغي تجاوزها. فإذا تذكرنا أنه في ألمانيا، في القرن الفائت[1]، لم تكن المرأة تستطيع تبني طفلٍ ما لم يكن عمرها خمسين عاماً وما فوق، وأنه في فرنسا، لم يكن ممكناً تبني الطفل إلا بعد عمر إحدى وعشرين سنة، وفي أمريكا، كتمان اسم الأهل غير الشرعيين والأهل المتبنين لم يُحترم إلا في غضون السنوات الأخيرة، لأدركنا التقدم الملحوظ الذي تم إحرازه. حيث يمكننا اليوم تأمين أكثر الشروط ملاءمة للتبني، بدراسة الأطوار النفسية الأكثر متانة لدى الأهل ولدى الأطفال المعنيين في آن واحد.

لقد جرى الحديث كثيراً وكُتب كثيراً عن الطفل المتبنى، وقليلاً عن نفسية الأم المتبنية. مع أن السبب الأول لردود فعل نفسية الطفل المتبنى، لا تكمن في ظروف ولادته بقدر ما تكمن في نتائج هذا الحدث الفعلي على محيطه، وقبل كل شيء على أمه المتبنية، وليس إلا بواسطتها يمتد تأثير الظروف إلى الطفل بصورة ثانوية.

وإذا أردنا تفهم الأم المتبنية باعتبارها فرد أو نمط نسائي، فينبغي أخذ عاملين بعين الاعتبار، أولهما، استعدادات المرأة للروح الأمومية في علاقاتها مع الطفل المتبنى، وثانيهما، الدوافع التي دفعتها للتبني. ومن الطبيعي أن ندع جانباً هنا، جميع الدوافع ذات الطابع العملي أو الاجتماعي وألا نهتم بها إلا في الحالات التي يوجد فيها دافع عاطفي محض.

عندما لا يكون حنين المرأة في أن تصير أماً، مشبعاً بإنجاب أولاد من صلبها، وعندما تسعى لتعويض النقص بالطريقة الأكثر طبيعية ألا وهي التبني، فالقضية المطروحة هي في الأسباب التي من أجلها لم تنجب أطفالاً من صلبها. وخلال دراستنا، التقينا بعدة أنماط من النساء اللواتي

(1) القرن التاسع عشر (المترجم)

يتطلعن لإنجاب الأطفال، لكنهن عاجزات عن تحقيق هذا التطلع بصورة مباشرة، بسبب الصراعات النفسية غير المحلولة. لقد رأينا القابلة في (الفصل الثالث) التي، بخشيتها من الوظائف البيولوجية، وجب عليها أن ترضى بالإشراف على ولادة أطفال لنساء أخريات، والعمة تولادي أونامينو التي تزدري الأحاسيس الجنسية، لدرجة أنها لا تستطيع إشباع روحها الأمومية إلا باستغلال الخدمة الجنسية لنساء أخريات. ولقد رأينا المرأة الخنثوية التي تهرب من مهام التكاثر الأنثوية، ومع ذلك ترغب في أن تخلق وتؤهل كائناً بشرياً وفقاً لصورتها الخاصة، والمرأة التي توقفت عشقيتها عند حدود الجنس المثلي، والتي تتولد رغبة الطفل عندها من المصدر العميق لعلاقتها مع أمها. عدد من هؤلاء النساء يتخلين عن الرجل ويرضين رغبتهن بطفل التبني.

من بين هؤلاء الأمهات العازبات المتبنيات، هناك نساء على درجة ممتازة، وعندهن كثير من الرقة واللياقة والتفهم لحاجات الطفل، بحيث يتوصلن إلى تنسيق للموقف من الناحية الاجتماعية والعاطفية يكون غير طبيعي بالنسبة للطفل. ويشبه وضعهن وضع الأمهات غير المتزوجات، إنما مع مفارقة أن الأم غير المتزوجة مُدانة من المجتمع، في ما تكون الأم المتبنية معتبرة فقط كغير مألوفة. ودرجة التوتر العصابي الناجم عن ذلك الموقف الناقص اجتماعياً وعاطفياً يحدد مصير الطفل. هذه الحالات حيث يتخذ فيها التبني مصدره من التخيل الوهمي العذري التناسلي «لست بحاجة لرجل من أجل ذلك» يؤدي عادة، بالنسبة للحد الذي استطعت التحقق فيه، إلى التخلي عن الطفل ما أن يفرط في تطلبه من أمه. ولسوء الحظ، أنه عند تقييم استعداد المرأة لتبني طفل، يُعوّل على إمكانياتها المالية، والذهنية والأخلاقية أكثر من توازنها العاطفي.

ويختلف الموقف تماماً، عندما تتبنى امرأة غير متزوجة طفلاً ليس بضغط أولي في حاجتها الخاصة للقيام بذلك، إنما لأن طفلاً بلا أم يحتاج إليها لملء هذه الفجوة. فالفتاة العانس التي قررت، بدافع الشفقة، أن ترعى

يتيماً، لا تشبه بشيء الفتاة الشابة العازبة التي تريد إنجاب طفل. ويكمن غالباً خطر المرأة من نمط «العمة الأمومية» في المغالاة بسعادتها الأمومية. وهي تنظر إلى الطفل الذي تبنته كهدية غير متوقعة من القدر، وفي أعقاب هذا الشعور من الامتنان أو الإجبار، تخلق حول مهمتها، جواً فيه مبالغة من اللطف والتسامح.

أحياناً، صديقتان تعيشان معاً، وتشبهان كثيراً، من الناحية النفسية، ثنائياً متزوجاً، وتحتاجان للتكامل وتشكيل مثلث. لقد لاحظت عدة حالات لعلاقات متسامية بين صديقتين، أدت تطلعاتهما الأنثوية المترافقة بحاجتهما الذكورية لإنجاز محدد، إلى تبني طفل أو عدة أطفال. ولا يكون توزيع الأدوار واضحاً، حيث ظاهرياً، تلعب المرأتان دورَي الأب والأم، وهذا ما نراه غالباً في علاقات الجنس المثلي الإباحية، وغير المتسامية، حيث كل من الشريكين يبادل بالأدوار الجنسية. لدي انطباع شخصي، أن المبدأ الذكوري، في بعض الشرائح العائلية، يتمثل بالعقلانية الشديدة في العلاقة مع الطفل. وتباشر هذه الثنائيات الأنثوية بالملاحظات النفسية التربوية وبالتجارب، وتتطلع لمنح الطفل المتبنى تربية متكاملة، والذي ينظر إليهم من الخارج، غالباً ما يأخذ انطباعاً متبايناً وهزلياً بأن هذا البيت الخالي من الرجال، ينقصه عنصر أنثوي.

إنما في أغلب الأحيان، يتطوع الأبوان المتبنيان، من بين الثنائيات المتزوجة والعقيمة. وتتحدد نفسية المرأة المتبنية، إلى حد كبير، بالدوافع النفسية لعقمها (إن وجدت) وبردة فعل المرأة على التخلي الذي هو نصيبها. هل يتبين أن خوفها من وظيفة التكاثر أقوى من رغبتها في أن تصير أماً؟ وهل لا زالت طفلة إلى هذا الحد بحيث لا تستطيع التقدير بالنهوض عاطفياً ولا شعورياً بمسؤوليات الأم؟ وهل تستحوذ عليها عاطفياً مهمات أخرى في حياتها بحيث تخشى الأمومة؟ وهل علاقتها مع زوجها .مرضية جداً وغنية جداً بحيث ترتاب من تغيير للوضع الراهن؟ وهل تعتقد أنه لا يجب عليها أن تفرض على زوجها أعباء أبوة فعلية؟ وهل يُسمع الصوت

المهدِّد و المحرِّم لأمها من أعماق مشاعرها القديمة بالذنب؟ وهل تظن أن ردود الفعل المحرَّمة ألحقت الضرر بجسدها؟ وهل تعتبر زوجها مسؤولاً عن عقمها؟ وهل تثقل لعنة متوارثة لاشعورية عميقة على جميع تخيلاتها الوهمية في حنينها للأمومة؟ وعلى الأخص هل تجاوزت المرأة العقيمة الإذلال النرجسي لدونيتها كامرأة، وهل تجاوزته بصورة كافية، لتتقبل أن تمنح الطفل ملء الحب الأمومي باعتباره أداة؟

إذا اتخذت امرأة قراراً واعياً في تبني طفل، فجميع هذه الأسئلة تبقى بلا أهمية تذكر، وتصادفها بعد ذلك فقط ضرورة تجاوز جميع العقبات اللاشعورية المتصدرة. كثير من النساء لا يتوصلن إلى النضج الأمومي إلا عندما ينجبن طفلاً، وكثيرات منهن، حتى في علاقتهن مع أبنائهن الحقيقيين، يكافحن ضد مصاعب لاشعورية لا تعرقل الوظائف التناسلية، إنما تخلق، مع ذلك، اضطرابات نفسية وفيزيولوجية.

وتعتبر الآمال، والتخوفات، والهموم الخاصة بالأم المتبنية هي نفسها بصورة محسوسة للأم الطبيعية، فهي تريد لرغباتها ومثالياتها أن تتحقق في الطفل، كما تريد تحقيق «أسطورة ولادة البطل». وفي الحالتين، تُحيِّد الإحباطات بالحب الأمومي، والضرورات العائدة لقدر الطفل أصبحت أكثر تواضعاً. إن ردود فعل خيبة الأم المتبنية هي أسرع من الأم الطبيعية في التعلل الموجه للواقع: «إنه ليس ابني». فالخوف من الوراثة عند الأم الطبيعية، قد يكون أساساً فيزيولوجياً حقيقياً حين يكون في العائلة عيب حقيقي. وإذا آلت المرأة للمبالغة في مظاهر الشؤم في الحياة، فلأن فرحة إنجاب الطفل مشوبة بمخاوفها من وراثة سيئة، وغالباً ما تمارس هذه المخاوف تأثيراً غير مناسب على النمو الحر للطفل. ويمكن لهذا الخوف أن يكون له أيضاً مصدر نفسي، فالمشاعر العدائية للأم ضد بعض أفراد عائلتها، وبخاصة ضد زوجها تخلق فيها ميلاً لترصد تعابير آثار وراثية، وإن صح القول، ستسعى لاكتشاف أو على الأغلب ستثير هذه المظاهر عند

ابنها. أحياناً، الخوف من إنجاب ولد مشوه الخلقة يرافق، بشكل خفيف جداً، علاقة الأم بابنها الطبيعي، وتجعل من هذا الولد، في التخيلات الوهمية الوسواسية المرضية للأم، ضحية بريئة لذنوبها اللاشعورية. ووفقاً للدوافع النفسية المشابهة، المتأصلة بعمق أكثر وبلا صلة مع الواقع، سترصد الأم المتبنية بقلق العلاقات الوراثية المثيرة للغضب لدى ابنها المتبنى. جميع المخاوف وحالات القلق التي تأخذ شكلاً مختلفاً وبلا تعليل ظاهر، والتي كانت تتعلق بالابن المتحدر منها، ستؤدي هذه المرة إلى السؤال المبرر ظاهرياً: «كيف يمكن أن نعرف؟»

ستبرر الأم العدوانية، التي تهدف إلى إلغاء أي احتياج لنشاط مستقل أو تلقائي لدى ابنها، موقفها بالخوف من المجهول لدى هذا الطفل المتبنى، وستؤيد أن كل مظهر لإرادة غريبة يجب أن تلقى المعارضة بصورة سريعة. وتسمح الأم الماسوشية للطفل المتبنى أن ينمي عدوانيته بلا رادع، ربما لتقوده إلى تحقيق لتخيل وهمي متأصل بعمق، مفاده أن «تُقتل» من قبل الأب والآن من قبل الابن. و تحس بهذه العدوانية أنها تتحرض كتأثير لعنة متوارثة عند الطفل المتبنى. كنت أعرف امرأة ماسوشية جداً ذُبحت فعلياً من الابن اللاشرعي لأختها الذي تبنته. واكتُشِف بعد ذلك أن طريقة تنشئة الطفل كانت مغلوطة، لأنها أقيمت على ماسوشيتها وعلى الخوف المستمر الذي كان عندها من العامل الوراثي للطفل. وفي حالة أخرى، سبب ولد قوي ولطيف عصاب ضيق نفسي خطير للأم المتبنية، بسبب حلم رآه الولد ورواه لها بلا حذر، ورأى في هذا الحلم رجلاً مجهولاً يهجم على أمه بسكين. وأكد هذا الحلم المخاوف التي غذتها منذ زمن بعيد: «لا نعرف أبداً». ومع أنها لم تكن أبداً تؤمن بالخرافة، رأت هذه المرأة في هذا الحلم النمطي جداً، من وجهة نظر التحليل النفسي، فألاً مقلقاً أن ابنها قد يقتلها، هي أمه المتبنية.

جميع صعوبات الأولاد، لا يفهمها الراشدون عموماً، والتي تجد كل أم تفسيراً لها، تظهر طابع أمور فطرية عندما يتعلق الأمر بأولاد متبنين.

لماذا يخاف الطفل من الليل؟ ولماذا تحدث له نوبات غضب؟ ثم تأتي مسألة أن الأم تشعر بالأسى في قبول وتفهم «لماذا يكرهني، أنا التي كنت طيبة جداً معه؟». الصراعات الطبيعية لانعتاق الطفل، مع العدائية التي ترافقها ضد الأهل، تفسَّر كالمؤشرات لذلك الذي لا «ينتمي» إلى عائلة. إن انعدام الشعور بالأمان عند الطفل المتبنى يستمد ويتغذى من أمه، وتقام حلقة مفرغة في سؤال الأم المقلق «هل يحبني كما لو أنه ابني الحقيقي؟» وتكون إجابة الطفل بسؤال مشابه «من هم أهلي الحقيقيون؟ هل أُحَب كطفل عادي؟».

تقول الأم المتبنية «الدم أكثر كثافة من الماء». وهي لا تدرك أن خيالها فقط جعلها تفسر سلوك الطفل، تحت عدسة مخاوفها، كمؤشر لإرث ثقيل. وفي الواقع، أُطلق هذا السلوك عند الطفل بفعل قوة إيحاء ظنونه، كما يجد نفسه مدفوعاً بهذه القوة تجاه نوع من التفعيل الدفعي.

والحالة التالية ستوضح هذا التفاعل بين موقف الأم المتبنية الخائف والمنتبه بقلق، وبين ردود فعل الطفل الذي تبنته هذه المرأة.

السيدة أسمان عمرها ستة وعشرون عاماً من سلالة يهودية روسية، تقدمت إلى الوكالة الاجتماعية لمساعدتها في إيجاد خادمة جديرة بالاهتمام بأولادها الثلاثة، آن سبع سنوات، هيلين ست سنوات، وجون أربع سنوات، بينما تذهب هي إلى عملها في مصبغة. كانت هيئتها قاسية ومشاكسة وحادة الطبع، وتبدو تعيسة. وتقول إنه ينبغي عليها أن تشتغل، لأن زوجها الذي انفصلت عنه منذ سنتين، كانت مساعدته المالية لها نادرة. وفضلت مع ذلك، البقاء قرب أطفالها، بدلاً من القلق عليهم خلال عملها.

وعندما سُئِل عنها في فهرس الخدمة الاجتماعية، تبين أنها طلبت مساعدتها بخصوص أمها الحقيقية. ففي فترة زواجها، ذهبت مع السيد أسمان إلى دار البلدية من أجل شهادات الميلاد، وعلمت منذ ذلك الوقت

فقط أنها متبناة وأنها كانت طفلة غير شرعية لجندي مجهول الاسم. وقد ماتت أمها التي تبنتها قبل مجيئها للوكالة بسنتين، ووالدها المتبني قبل ذلك ببضع سنوات. وقد وصفت حياتها مع أبويها بالتبني، اللذين كانا روسيين، بأنها حياة تعيسة، لأن أمها كانت قاسية جداً. وقد تركت تعليمها الثانوي ضد رأي أمها، وذهبت لتعمل في معمل للسكاكر حيث ظلت فيه عدة سنوات. وقد حرّمت عليها أمها الترويح عن النفس بصورة حرة وعادية، وكانت تراقبها وتحرسها بكل نزاهة ووعي. وقد حصل أن ظنت السيدة أسمان أنها طفلة متبناة، لكن أهلها كانوا يواجهونها دوماً بالنفي.

وفي عمر الحادية والعشرين سنة، تزوجت السيد أسمان الذي لم تحبه قط ولم تجده جذاباً. ولم توافق أمها بالتبني على اختيار هذا الرجل، لكنها تزوجته «لتصبح حرة» ولكي تستمتع بوقتها في السفر. وكانت سعيدة لفترة قصيرة في أن تخرج كثيراً، إنما، شيئاً فشيئاً، عاد زوجها إلى«رفاق السوء»، يلهو ويتركها وحيدة في المساء. وعندما جاء الأطفال، كرست السيدة أسمان نفسها لهم. وبعد بضعة أعوام، صادفت إيرلندياً اسمه جورج، كان نادلاً في مقهى، لكنه بلا وظيفة، وهو أيضاً تعيساً في بيته. فوقعت في غرامه، وبعد عدة أشهر، رتبت انفصالها عن زوجها. ومن البديهي بالنسبة للسيد أسمان، أنها لم تعد تكترث به، فغادر البيت مع الاستمرار بإعالة الأولاد.

وبعد عدة أشهر، أوقفت الشرطة جورج والسيدة أسمان في بيتها، بناء على وشاية من زوجة جورج، وأحيلا إلى المحكمة. وبدت السيدة أسمان شرسة أمام القاضي، وقد أدينت، مع وقف التنفيذ، بالزنى وبإهمالها لأولادها. وقد اتخذت التهمة الأخيرة، لأن السيد أسمان اشتكى بمرارة امام المحكمة أنها تركت الأولاد وحدهم في البيت...إلخ. وتلقت إنذاراً بالابتعاد عن جورج، وعُهِد برعاية الأولاد للسيد أسمان.

في ما بعد، حصلت السيدة أسمان على رعاية أولادها، إذ أساء

زوجها الاهتمام بهم. وعادت لعملها، وبما أن زوجها لم تر منه مساعدة تذكر، فعهدت الاهتمام بأولادها لخادمة. ورفض زوجها الطلاق. وقالت إنها أحبت جورج باستمرار ولو كانت حرة لتزوجته، لكنها نفت أن تكون لا زالت على علاقة معه. أدركت المساعِدة الاجتماعية أن السيدة أسمان لا تستطيع الوثوق بها لأنها ترى فيها ممثّلة للقانون.

كانت السيدة أسمان قد أنجبت صبياً صغيراً وأرادت إخفاء الأمر عن زوجها وعن المحكمة، لكن السيد أسمان اكتشف ذلك وقاله للقاضي. وأمام المحكمة، ادعت السيدة أسمان أن الطفل كان منه، مع أن ذلك كان تلفيقاً. وموقفها القضائي دام طويلاً. ولعب جورج دوماً دوراً هاماً جداً في حياتها وكان أباً للطفل.

وكان السيد أسمان متخلفاً وقاصراً في ذكائه وفي طباعه، وكان متهوراً وإلى حد ما طفولياً. ومع ذلك يسلك سلوكاً حسناً وكريماً، ومراعياً للموقف في مجمله. وكان يعاني دوماً من أن امرأته لا ترغبه. وكان لازال متعلقاً بها ويستأنف الحياة المشتركة معها إن أرادت ذلك. وكان يقول: «ليس لدي شيء ضدها، إنها فتاة جيدة وأماً جيدة، كل ما في الأمر أنها لا تستطيع التمسك بهدوئها. تنتشلها من ورطة فتقع في غيرها، لعلها لا تعرف كيف تهتم بنفسها».

كان جورج أيضاً مشكلة. لقد كان صادقاً في مشاعره نحو السيدة أسمان، إنما في حيرة كبيرة من أمره بسبب حبه العميق لأولاده الحقيقيين، والذي هددته زوجته بأخذهم في حال الطلاق. هي رفضت القبول بالطلاق، على الأقل في الفترة الحالية، وفي الوقت الذي راجعت فيه السيدة أسمان الوكالة، كان يعيش مع زوجته ويمضي وقتاً أقل من السابق مع السيدة أسمان. وكان يبدو ضعيف المبادرة والقدرة في ترميم الموقف، لكونه لطيفاً وسلبياً إلى حد ما.

وكانت علاقة السيدة أسمان بأولادها مثيرة للإهتمام. وكانت ترمي

للاحتفاظ بهم بضراوة، وتبدو تحبهم كثيراً وتهتم بهم بصورة تامة، وتقوم بذلك معهم على أكمل وجه. وكانت لديها بعض المخاوف المتعلقة بإمكانية الميول الأخلاقية عندهم، نظراً لإرثهم المشكوك به، وكانت تسأل باستمرار عما يمكن ان يكون الأفضل بالنسبة لهم. وغالباً ما تكرر أن زوجها لا يهتم بأولاده أبداً، وقالت إنها تعلقت بجورج في بادىء الأمر بسبب اهتمامه الذي أبداه بالأولاد.

كانت السيدة أسمان تبدو مرتبكة إلى حد ما، وكان من الصعب فهمها في بادىء الأمر. وليس إلا شيئاً فشيئاً، حتى أصبح من الممكن رؤية ما وراء ارتباكها. وكانت تقول، عندما كانت طفلة لم تكن تعلم ماذا تعني فتاة متبناة، ولاحظت شيئاً ما غريباً في سلوك أمها. وكانت قاسية جداً معها، وعملياً لا تسمح لها أبداً بالخروج مع غيرها من الفتيان والفتيات، وتراقبها كما لو أنها فتاة سيئة. «إنها تحذر مني، مع أنها لا تملك أي سبب للقيام بذلك».

لا تجيد أي أم أخرى تحمّل كل هذا الانتباه والحب لابنتها. فهي لا تستطيع إقامة صلة صداقة مع الفتيات الأخريات، كما تمنع عنها أي احتكاك مع الفتيان: «إنها تريدني لها بالكامل، كما لو أنها غيورة».

وعندما صار عمر الفتاة اثنتي عشرة سنة، قالت لها ابنة عمها إنها فتاة متبناة، لكن أمها نفت الأمر بشدة. وقبلت الطفلة هذا الإنكار، إنما ساورتها الظنون إلى حد ما، ومنذ ذلك الحين، أصبحت الأم والبنت تترقب إحداهما الأخرى باستمرار. وراحت المخاوف تستولي على الأم في ما يخص سلوك ابنتها، والفتاة الصغيرة التي فهمت أمها بشكل غامض، صدقت ما قالته ابنة عمها، بعد ظنونها بهذا الأمر سابقاً.

وفسرت منذ ذلك الحين ما أرادت أمها القيام به، فالأمر ليس علاقة حب بقدر ما هو إرغام، فاحتجت على ذلك بتحد وكراهية. وكانت الأم المتبنية تتصور ظاهرياً تنشئة مثالية في مواجهة طباع الأم الحقيقية

للفتاة الصغيرة، إنها تريد أن تجعل منها سيدة صغيرة فاضلة ومثقفة، ومستعدة لقبول أي تضحية كانت في سبيل منحها تربية مثلى. ولم تكن الطفلة كسولة، إنما تغادر المدرسة، وترفض متابعة دروسها، مدمِّرة بضراوة البرنامج التربوي الذي وضعته أمها المتبنية. وقد شعرت بأنها مخدوعة، وراحت تقابل سوء الظن بمثله، وبإشارة احتجاج، تفعل عكس ما تريد أمها وتتوقعه منها، وكل ذلك ليس لأنه «في دمها»، إنما لأن سلوك أمها القلق والظنون يدفعها على ذلك. وقد تزوجت أول فتى صادفته، ليس لأنها أحبته، بل لأنها أرادت التحرر من الإكراه الذي تخضع له في بيتها، وربما لتضع نفسها في مأمن من القدر الذي كثيراً ما ارتابت أمها المتبنية منه.

وفي أعماق ارتيابها، كان على الفتاة الشابة أن تحس لماذا تراقب أمها المتبنية كل خطوة من خطواتها بمثل هذه القسوة، «مع أن ذلك لم يكن ضرورياً». ربما تصورت الطفلة بصورة استباقية الصورة التي رسمتها لأمها الحقيقية، كتجسيد لتعارض الاتجاهات التربوية لأمها المتبنية، واندمجت بها كتمرد مملوء بالتحدي وتعارضاً مع أمها المتبنية. في ما بعد، عندما وجدت نفسها «بصورة طارئة» مقابل أفعال حقيقية، تلقت ظنونها تأكيداً واقعياً جداً، لأنها اكتشفت أنها ابنة لجندي مجهول الاسم وامرأة عاهرة.

وعندما أتت إلى الوكالة، كانت أماً حنونة ومحِبة، إنما ينبغيْ عليها هجر أولادها، لتكرر تجاههم، تحت إرغام داخلي، قصتها الحقيقية. كانت تعلم، كما قالت، أنه من الأفضل لأولادها «بقاء أمهم وأبيهم معاً»، لكنها عاجزة عن تحقيق هذا الأمر.

كان لديها زوجاً شرعياً، إنما لا تستطيع الهروب من قدرها في أن تنجب طفلاً غير شرعي. وهناك أمر مميز، حيث صرحت، في ما يخص هذه الولادة، باسمها الحقيقي لدار التوليد، مع أن لها الحق في استخدام اسم زوجها. كانت ممزقة بين رغبتها الصادقة في تكوين أسرة، وحياة

زوجية منظمة، وكيان متكيف اجتماعياً، وبين رغبتها في السير بكيان غير شرعي، معرّض للخطر ومضطرب. لقد طلبت المعونة من المساعِدات الاجتماعيات، اللواتي كن لطيفات معها، لكنها شعرت نفسها مرغمة معهن على تكرار اللعبة التي لعبتها مع أمها المتبنية، حيث حذرت منهن، وكذبت عليهن، وأخفت عنهن نواياها في إيذاء نفسها، وعارضت نصائحهن، مع أنها أدركت بعد ذلك، أنه كان من المستحسن كثيراً في الماضي، اتباع رأي أمها المتبنية، وهو الآن رأي المساعِدات الاجتماعيات.

كان يبدو الميل الوراثي مستأنفاً، وكانت السيدة أسمان في طريقها لتكراره، مع أولادها، ومع تجربتها الخاصة كطفلة هجرتها أمها، إنما في اندماجها المزدوج، كانت تقلد أيضاً أمها المتبنية وتبدأ بالتعبير عن قلقها من أن أولادها قد يصبحوا «مجرمين»، مثلها ومثل أمها الحقيقية.

قصة هذه الفتاة المتبناة التي وقعت في اضطراب نفسي، تلقي الضوء عند استعراض الماضي على نفسية أمها المتبنية التي دفعت، بسبب قلقها الحذر، الفتاة الشابة في اتجاه «الارتداد الوراثي»، ونعني هنا في اتجاه الاندماج مع أمها الحقيقية. وتبدو مسألة إخفاء الحقيقة، والاكتشاف الطارئ للسر، هما المسؤولان عن مصير السيدة أسمان.

وفي حالات أخرى، تبين أن الإرث الذي ترتابه وتترصده المرأة المتبنية القلقة، ليس إلا إسقاطاً وإضفاءً لميولها المرفوضة الخاصة. وتماثِل الطفل كجزء مرفوض من أناها، وتتحدث عنه كبنية متوارثة من الأم المجهولة. وتوضح الحالة التالية هذه النقطة بطريقة مثيرة.

خضعت حالة مارتا وهي فتاة في الثانية عشرة من العمر، لوكالة إجتماعية بناء على طلب أمها المتبنية. لقد أعطت للسجل اسم جوليا بروكس وعرّفت المساعِدة عن نفسها باسم السيدة بروكس. ولعدة مرات خلال المحادثة، دعتها المساعِدة الإجتماعية السيدة بروكس دون أن تثير أي تصحيح. ولم تتكلم السيدة بروكس أبداً عن ابنها المتبنى إلا في قولها:

«هو». كل هذه العوامل، من مشكلة الفتاة الشابة، إلى شيء ما غير معرّف عند هذه المرأة، جعل المساعِدة الإجتماعية تعتقد أنها لم تكن متزوجة، لدرجة أنها فوجئت، عند ملئها لاستمارة الطلب، وعندما علمت أن هذه المرأة لها زوج. بدت السيدة بروكس قلقة جداً لموضوع مشكلة الفتاة وهي مستعدة استعداداً كاملاً لتقديم المساعدة لحلها. وصرّحت أن الفتاة الشابة كانت عرضة لحالات غضب عنيفة، وأحياناً تضرب أولاد الجوار، وخاصة الصبيان منهم، وكانت غير منظمة في عملها المدرسي ويحس المدرسون أن ذهنها في ناحية أخرى. وخلال المحادثة الأولى، تكلمت السيدة بروكس عن الألاعيب الجنسية بين مارتا وإحدى الجارات واسمها كيتي، عمرها أربع عشرة سنة، وأدركت ذلك بشكل خاص، ذات ليلة، عندما أمضته كيتي في بيتهم، نائمة في نفس سرير مارتا. وسمعت السيدة بروكس بعض الكلمات غير البريئة، بصورة ظاهرة، وجعلتها تظن أن الفتاتين تمارسان الاستمناء. وعلمت بعد ذلك أنه خلال، فترة من الزمن، كانت مارتا المحرضة على نشاط ذي شأن، في الملاوصة التي تحدث في الغابات الواقعة خلف البيت، مع فتيات وفتيان آخرين. كانت الفتاة الصغيرة تظهر عريها أمام الفتيان، وتقنعهم أن يقوموا بالمثل وهي تقول: «سأريكم أننا لسنا مختلفين».

أظهرت السيدة بروكس حسن النية، وبدت تنظر لمواجهة المشاكل التي تبرز، وبذلت جهداً كبيراً لتتصرف بحكمة في هذا الموقف. ولم تكن مارتا على علاقة وثيقة أبداً مع الطبيبة النفسية ولم تثق بها أبداً. وكان هذا مميز من هذه الفتاة، لأنها بشكل عام لم تكن على صلة أبداً بالناس، عدا في فتراتها الاكتئابية. وتعتقد السيدة بروكس أنها كانت متعلقة جداً بجدتها من طرف الأم. وتعلم مارتا أنها تستطيع الاعتماد على عاطفة أبويها المتبنيين، إنما لا تستجيب فعلياً أبداً مع الحب الكبير لوالدها المتبني.

كانت السيدة بروكس الثانية من بين خمسة أولاد، وعندها أخت واحدة أكبر وهي البكر، وثلاثة أخوة أصغر. وقد وصفت أمها كامرأة

متحدرة من وسط أقل ثقافة من والدها، وأنها كانت شخصية مهيمنة، عدوانية، تريد أن تتسلط على جميع أولادها. كانت السيدة بروكس تقول أنه، أثناء طفولتها، كانت أحياناً تثور في مواجهة أمها، وأنها كانت تذهب حينئذ للجلوس خارجاً إلى حين يهدأ غضبها.

ولم تنجح السيدة بروكس ولا أختها في أن تصير كل منهما حاملاً فتبنّتا ولدين. وذهبت السيدة بروكس إلى رادكليف لفترة سنتين وأرادت الاستمرار، لكن أمها لم ترد أن تكرّس لها المال الضروري، وذهبت أيضاً للعمل في معمل، وتابعت دراستها مساءً لتكمل تعليمها. وقد قيمت بمرارة بالغة موقف أمها هذا وقالت عنها: «لقد حاولت أن تدمر حياتي». كانت الأم معارضة أيضاً لزواج ابنتها، وروت السيدة بروكس أنه ذات يوم، في ما كانت مريضة أثناء خطبتها، سمعت أمها تقول، «سأجعلها تتحطم. سأجعلها تفعل دوماً ما أريد، وسيحدث هذا دوماً».

وقد قررت السيدة بروكس، مع أن «السيد بروكس كان زنجياً» أن تتزوجه. وكان قد مضى على زواجهما تسع سنوات عندما تبنيا مارتا، كما جربت السيدة بروكس مختلف السبل التي أوصى بها طبيبها لتصبح حاملاً. لقد كانت هي الراغبة بشكل خاص أن تتبنى طفلاً. وقد بحثا طويلاً عن طفل للتبني، وقررا كلاهما أن تكون فتاة.

والطفلة كانت ابنة غير شرعية لامرأة فرنسية. ورفضت السيدة بروكس سماع أي شيء عن أصولها، وعن الأشخاص الذين أعطوها إياها، وسعت كذلك أن تمنع جدتها من طرف أمها عن اكتشاف أي شيء يخص هذا الموضوع. و أصرّت على أن تكتب الوثائق الخاصة بالتبني تحديداً بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من تاريخ تسلمها للطفلة، بدلاً من انتظار المهلة المعتادة. وفي المحكمة، لحظة التبني، رأت السيدة بروكس للمرة الأولى اسم الفتاة الصغيرة لافونتين. لقد تحققت على الفور أن الفتاة الصغيرة هيئتها فرنسية تماماً، وشعرت نفسها مرهقة عند اكتشاف أنها تنتمي لجنسية أجنبية. وكانت مكدرة ومنهكة القوى بخصوص هذا الموضوع لفترة يومين،

إنما لم تحس بعد ذلك بأي اختلاف فعلي بينها وبين الطفلة. ومع ذلك، كانت تتمنى، عند الاقتضاء، أن تفهم طبيعة مارتا بصورة أفضل. وبعد التبني بحوالي شهر، كانت السيدة بروكس في طريقها لشراء فستان من متجر صغير بسعر رخيص، ورأت عاملة شابة تشبه الفرنسيات وتنظر للفساتين. فوردت إلى ذهنها على الفور الفكرة التالية: «ربما تكون أم طفلتي».

كانت المرة الوحيدة التي تتوارد إليها فكرة كهذه. ولم تعتقد أنها امتلكت أبداً مثل هذه المشاعر في أي لحظة أخرى.

أثناء المحادثات، كانت السيدة بروكس تتحدث كثيراً عن مختلف صديقاتها وعما تهتم به في الحياة. وغالباً ما كانت قد تحدثت عن إحدى صديقاتها، التي كانت أستاذة والتي رافقتها منذ زيارتها الأولى. ولها صديقة أخرى تعد شخصية رسمية في إحدى دوائر الدولة، والتي غالباً ما طلبت منها النصح. وقد روت قصة معقدة حول موضوع فتاة كندية أتت لتمضي فصل الصيف، والتي همست لفتاة شابة أنهم يعرفون كل شيء. كانت المرة الأولى التي تدرك فيها السيدة بروكس وجود أحاسيس جنسية مثلية. وتحدثت بعد ذلك عن ممرضة، صديقة لها، غالباً ما كانت تأتي لعندها وكانت غريبة إلى حد ما. كانت هذه الممرضة أول شخص يحدثها عن الاستمناء. وتهتم السيدة بروكس لهذه الأمور كثيراً، وتلعب دوراً نشيطاً جداً في منظمة نسائية، وكانت رئيسة للعديد من النوادي... إلخ. وكان يضجر زوجها أحياناً من تكريس وقتها لأنشطة خارجية.

أثناء المحادثة الأولى، نوّهت السيدة بروكس عن وضع الطفلين بصورة تبنيهما، وأنه لا أحدهما و لا الآخر أظهر على ذلك ردود فعل خاصة، ولم تتم العودة للتحدث بهذا الشأن منذ ذلك الحين. وحين تحادثت المساعِدة الإجتماعية مع مارتا، نوّهت عن أمر أنها طفلة متبناة. وكان ذلك كقنبلة سقطت على قدميها. وانقطع نفسها، وسألت: «ماذا تقولين؟»

وعندما سئلت السيدة بروكس عن ذلك، ذكرت أنها لم تستخدم كلمة «متبناة» وأن مارتا قلقة لمعرفة من أين يأتي الأطفال الصغار، وأنها افترضت بكل بساطة أنهم يأتون من محل تجاري بمعظمهم، وأن السيدة بروكس كانت قد اشترتها من أحد المشافي. ومع ذلك، وبعد هذه المحادثة، شرحت السيدة بروكس بالمقابل الموقف، وأجابت عن كل الأسئلة التي طرحتها مارتا. وردود فعل الفتاة الصغيرة كانت في غاية السرور عندما علمت أن أولاد خالتها أيضاً، كانوا أولاداً بالتبني.

أثناء جميع المحادثات، كانت السيدة بروكس تلوم أمها الحقيقية في جميع وجهات النظر. وقد وصفتها ليس فقط بالعدوانية، إنما أيضاً بذكورية شديدة و«بحبها الشديد للتملك، حيث أرادت أن تمتلك أولادها، روحاً وجسداً». وكانت تقول أيضاً إن أمها طالما أرادت أن تنام معها. وكانت تأخذ أيضاً بشكل طوعي حفيدتها مارتا في سريرها. وذلك لم يُرق للسيدة بروكس، مع أنها نفسها أحبت أيضاً النوم مع أمها. كانت تريد معرفة لماذا يريد الناس النوم مع أمهاتهم.

لجأت السيدة بروكس ظاهرياً إلى الزواج، هرباً من تبعية أمها. وطباع أمها، كما وصفته، يعد مماثلاً جداً لطباعها، لقد كانت بالعدوانية نفسها، وبالسلوك الذكوري، والملكية تجاه الأولاد، وعلى الأخص، التعلق الجسدي للبنت بأمها. حيث كانت السيدة بروكس تنام مع مارتا، تماماً كما كانت أمها تنام معها. وتحس أنه لا ينبغي التصرف هكذا، إنما تستمر به حتى بعد أن تُنصح بالعكس.

كانت تحس بخوف هائل لما يخص ابنتها المتبناة، لأنها كانت صبيانية. وسيف ديموكليس للمثلية الجنسية كان مسلّطاً على رأس الطفلة باستمرار، والفضولية الجنسية، وعرض التعري، وعلى الأخص الاستمناء، كانت خطايا مميتة، أرادت السيدة بروكس حماية روحها منها.

كل ما ظهر منها، يبرهن بوضوح أنها تسقط على الطفلة خوفها من مثليتها الجنسية، وشعورها بالذنب حول موضوع الاستمناء جعلها تتجسس

على مارتا. وقد ذكرت تفاصيل، تماماً كمرض ذهاني، وفسرتها بطريقة تؤكد مخاوفها.

قبل بضع سنوات، كانت قد لاحظت علاقة مثلية جنسية بين الفتاتين، الأمر الذي روّعها وأقرفها. وكان عندها انطباع، أن هناك ثمة فرق «غريب»، عدواني، في صداقة مارتا وكيتي. وكانت مضطربة أيضاً لأن «مارتا، كانت تنظر أحياناً للصبيان بتعبير غريب». كما ذعرت لأمر أن مارتا كانت لها ميول صبيانية، وتلعب كصبي... إلخ. وتقول إنها كانت تعرف في ما مضى شخصاً كان مثلها (وظاهرياً هي نفسها).

كانت السيدة بروكس تراقب بانتباه النمو الجنسي لمارتا، وكانت مهتمة لرؤية كيف تشرك بوثوق المشكلتين، التبني والإحساس الجنسي. وهكذا أرشدت الطفلة عن الأمرين في الوقت نفسه، كما لو أنهما مراتبطان.

كانت تكافح ضد استمناء مارتا، وتقول لها «إن جسدها شيء مقدس ولا يجب أن تلعب به». كان مقدساً لأنه ذات يوم، أنجبت طفلاً بواسطته. وقبل فترة من الزمن، قالت السيدة بروكس لمارتا، إنها كانت قد انتظرت ثماني سنوات لتنجب طفلاً وأن الرب لم يهبه لها. ومن هنا اعترفت علناً بطريقة لاشعورية، باللعبة «المدمِّرة» التي لعبتها بجسدها الخاص. ومن دون أي شك أن السيدة بروكس كانت لها مثالية خاصة في الطهارة، أنها كانت باردة جنسياً، وأن عقمها كان مترافقاً بفكرة أنها دمرت أنوثتها بالاستمناء. كانت تلوم أمها على خطايا مارتا وتقول: «إنهما متشابهتان كثيراً، إنهما من نفس الصنف».

أثناء المحادثات، كانت تعود باستمرار لموضوع الأصل الأجنبي لابنتها المتبناة. إنها تعتقد جهاراً أن الارتداد الوراثي للفتاة الصغيرة لعب دوراً كبيراً في سلوكها الشاذ. كانت تتبصر باستمرار بإتهاماتها لأمها ومشاعرها بالذنب، إظهاراً متلبساً لإسقاط ميولها الخاصة المرفوضة من الأم على الطفلة. إنما تتوارى في خلفية الأمور فكرة الإرث، للأم الفرنسية

التي أنجبت طفلة غير شرعية، والتي أساءت استعمال جسدها لغاية جنسية، والتي ورثت مارتا عنها بعض الملامح في الطباع. ولم تكن السيدة بروكس قد صاغت بوضوح هذا الإتهام المقلق، فقسمت أيضاً مسؤولية هذه التأثيرات السيئة، بين أمها الحقيقية وبين الأم الحقيقية للطفلة. إنما توجه كثير من الأمهات المتبنيات، بصورة واعية، كل اتهاماتهن ومخاوفهن المرضية ضد «الغريبة»، كانت من تكون.

حالة أخرى للتبني، سوف ترينا بوضوح كيف يكون لكل الموقف أن يتأثر بالميول اللاشعورية للأم المتبنية. كالمعتاد، لدينا بيان مختصر عن مشاكل تلك الأم، عندما طلبت المساعدة بخصوص ابنتها المتبناة. أتت السيدة سلوتسكي إلى الوكالة، طالبة مساعدتها في استعادة السيطرة على «ابنة أختها» البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة. روت أن الطفلة تسرق النقود، وترفض الخضوع، وتحرد، وتلعب كصبي، وتريد ارتداء الثياب كصبي. وأضافت المدرَسة أنه، إذا طلبت الخالة المساعدة من أجل روز، فهي نفسها بحاجة لمن يساعدها. كان العمل المدرسي لروز مرضياً، وقد وصفها أساتذتها بأنها طفلة هادئة، وليس عليها ملاحظات، سوى أنها عندما تُسأل عن نفسها، لا تقول إن لديها صعوبات، كما تقبل بمحض إرادتها رؤية المساعِدة الاجتماعية. وتسعى الفتاة الصغيرة إلى التقليل من شأن المشكلة وتتكلم كثيراً عن مرض خالتها، وتعبها، والجهود التي تقوم بها من أجل «التداوي».

كانت السيدة سلوتسكي شخصية لطيفة، واجتماعية. وقد تبنت روز، ابنة أختها، عندما كانت طفلة رضيعة. ولمدة عشرين عاماً، كانت السيدة سلوتسكي تدير صالة لاحتساء الشاي بالقرب من بوسطن، ويعيش أبواها معها. كانت تتحدث عن أمها بشعور خاص، حيث توفيت قبل ثلاث سنوات، ووصفتها «كشخصية جميلة ولطيفة، تعبد روز هي أيضاً، ولا تحيا فعلياً إلا من أجلها، إلى هذا القدر تحبها». وتقول أيضاً إن أمها كانت امرأة مستقلة، وإنهما متحدتين إلى أقصى حد. وبعد موت أمها، احتفظت

بصالة الشاي إلى حين موت والدها (وقع هذا قبل زيارتها للوكالة ببضعة أشهر)، ثم نقلت سكنها إلى ضاحية أخرى من بوسطن، ليكون لروز بيت جديد.

حصل زواجها من السيد سلوتسكي قبل فترة قليلة من موت أمها. وكانت قد خطبت لمدة عشرة أعوام لمتقدم آخر بالزواج، هذا ما قالته لنا، لكنها لم تستطع الزواج طالما كانت أمها حيّة. وكان خطيبها رجلاً إجتماعياً يحب التمتع بوقته، وكانت تخشى ما إذا تزوجته أن يؤدي ذلك إلى صعوبات بالنسبة لروز. وقد قالت له إنها قد تعهد بها إلى أحد ما ليزعاها، ولم تهتدِ كيف تتصرف من أجل هذا، طالما أنها وافقت على تحمّل مسؤولية الفتاة الصغيرة. ثم قررت الزواج من السيد سلوتسكي بدلاً من خطيبها، لأنه بدا لها من نمط الرجل الهادئ الملتزم بحب بيته، وفي حياتها معه، تمكنت من منح روز مزيداً من الوقت، بالإضافة لحياة عائلية جيدة. كان السيد سلوتسكي أكبر منها بعشرين عاماً، وبدا صديقاً يمكن الوثوق به، لكن السيدة سلوتسكي تحسن الآن بأن هذا الزواج كان خطأً في ما يخص روز، لأن زوجها كان متحفظاً بإفراط معها ويرغب ظاهرياً أن يراها في مكان آخر.

الوصف الذي أدلت به السيدة سلوتسكي عن زواجها وتأثيراته على روز، أظهر أن روز كانت خائرة القوى وتبكي كثيراً. ومن أجل هذه الأسباب، استمرت بعد زواجها في الإشتراك مع روز بالغرفة، عدا في البداية، ومع ذلك، خلال تلك الفترة القصيرة، ذهبت لتنام معها، ثم تتركها بعد ذلك لتعود إلى غرفة زوجها. كانت تضجر من التوتر الموجود في البيت، وتصف الوضع الصعب حيث تجد نفسها «ساعية لإمتاعهما كليهما». ثم تحدثت عن حالتها العصابية وعن مرضها منذ سنة عندما ولدت ابنتها الصغيرة، وخلال الأشهر الأخيرة، أضاعت فجأة ستة وعشرين كتاباً. وقد تحدث الأطباء عن الإنهاك العصبي «ويقولون إنه ينبغي، قبل الشعور بالتحسن، تناسق موقفها وتهدئة أعصابها. لقد كانت دوماً فخورة بالإحتفاظ

بعواطفها لنفسها، وتعتقد أنها «تتفوق على نفسها». في ما عبء البيت والإعتناء بالطفلة كان متروكاً في جزء كبير منه على عاتق الزوج.

كما أدلت السيدة سلوتسكي المعلومات التالية عن حياتها وعائلتها. فأم روز، تطلقت عندما كان عمرها ستة أشهر، وكانت «امرأة لامعة... موسيقية كبيرة»، وقد أحرزت نجاحاً كبيراً جداً في مهنتها. ولم تكن امرأة أمومية ولا عائلية. وكان عندها كذلك من زواجها الأول، ابن أبقته إلى جانبها. ثم تزوجت ثانية وعندها الآن أولاد آخرين. وطبقاً لأقوال السيدة سلوتسكي، أن والد روز «لايساوي شيئاً». كان سكيراً، كما سبب ابنه الآن كثيراً من المتاعب لأمه بسبب ملامح الطباع الموروثة من والده. وغالباً ما تحدثت السيدة سلوتسكي عن الملامح المغيظة في طباع روز، وكأنها موروثة بالتماثل مع والدها. في حين لم تمتلك أم روز أي شعور تجاهها، لكن السيدة سلوتسكي كتبت لها في الحالات الخطيرة، وكلما زارت الفتاة الصغيرة أمها، يتحسن سلوكها، على عكس ما تفعل مع السيدة سلوتسكي، مما آلم وجرح بالطبع شعور الأم المتبنية.

وقد صرحت السيدة سلوتسكي، أنه كان عندها أخ أصغر منها، مات في عمر صغير. ومن بين الأختين، كانت أم روز تتمتع بالتنشئة التي كانت السيدة سلوتسكي ترغبها لنفسها. لقد أرادت الذهاب إلى المدرسة مثل أختها، وأن يصبح لها مهنة، وكانت تريد أن تكون مثل أختها تماماً في كل الأمور. ولم تتحقق هذه الأمنية. وكان عليها أن تكرس نفسها لمهنة أكثر تواضعاً. كانت أختها المفضلة عند أبيها، لكن هذا لم يكن يحب روز أبداً مع أنها طفلة ابنته المفضلة.

وعندما كانت الأم المتبنية تدرس هذه المسائل في ما يخص روز، كان من الواضح أن مصدر همومها هو اهتمام الفتيان بالفتاة، بسبب اختيارها السيئ لأصدقائها، وبسبب العدائية الواضحة جداً التي تظهرها الفتاة الصغيرة لها ولزوجها في آن واحد. وأحياناً، كانا يخافان أن تسبب روز ضرراً لطفلهما. وأكثر ما كان يقلق السيدة سلوتسكي، هو أن علاقتها

بروز قد تغيرت وأنه، بعد كل الجهود المبذولة لإعطاء منزل للفتاة، تسير الأمور من سيء إلى أسوأ. كما أظهرت روز حقداً لزواجها ولولادة الطفل. كانت روز وسط مصاعب مرحلة بلوغها في موقف انتقاد. وكان من الواضح بالنسبة للوكالة، أن السيدة سلوتسكي لم تستطع منحها الشعور بالأمان، وأن الصغيرة شعرت نفسها مهملة ومهجورة. ومع أنها إلى الآن تمتلك اثنتين من الأمهات، إنما تشعر نفسها مهددة بخسارتهما معاً. فأمها الحقيقية لها عائلة جديدة وهامة، في ما أمها المتبنية لها زوج وطفل جديد. وفي عمر روز، للفتيات مصاعب حتى في الظروف الطبيعية. وكانت قد غذت تخيلات وهمية بامتلاك طفل، إنما لا تريد مع ذلك أن تتخلى عن وضعها كطفلة وحيدة لأمها المتبنية.

لقد صرحت السيدة سلوتسكي، أن روز قد طلبت، بصورة مباشرة، أن يسمح لها بالاهتمام بالطفل، لكنها قد أظهرت كثيراً من العدوانية والبغض إزاءه، بحيث خشي الأهل من تركها وحيدة مع الطفل. يمكننا تفهم أن تتمرد الفتاة، وأن تتحدى أي نظام، وأن تلوذ إلى سلوك صبياني. لقد طلبت من السيدة سلوتسكي براهين جديدة عن حبها، وأظهرت بوضوح تطلعات الطفل المتبنى الذي يشعر نفسه مهجوراً وغير محبوب، والذي تحول في الخيال نحو الأخ «الآخر». لقد عبرت عن هذا الخيال في قصة روتها، حيث عادت من المدرسة بهذه القصة الوهمية: لقد قالت لها الأستاذة إن السيدة سلوتسكي لن تتعاون معها، وإنه ينبغي إقامة الصلة مع الأم الحقيقية لروز لكي ترسلها إلى مدرسة أخرى. وعندما سُئلت عن هذه الحكاية، اعترفت روز أنها خيالية في جزء كبير منها، «إنما من الممكن أن تقول ذلك المدرسة أيضاً».

لقد كانت نفسية أم روز المتبنية أكثر تعقيداً منها. وكانت أمومة السيدة سلوتسكي محددة تماماً بعلاقتها مع أختها. كانت تريد امتلاك كل ما هو بحوزة أختها، وعندما يكون الأمر مستحيلاً، فعليها اللجوء للحلول الوسط. أختها كان يحبها والدها، والسيدة سلوتسكي قد تخلت عنه، فتحولت نحو

أمها، وبقيت مرتبطة بهذه العلاقة طيلة حياتها. وكان لأختها مهنة، وأرادت السيدة سلوتسكي أن تتخلى تماماً عن ذلك، وتنهض بدور امرأة وأم: «أختي لم تكن أماً».

إنما لم تتوصل إلى كل ذلك إلا في شروط عشقية. لقد أرادت طفلة أختها وتبنتها. وبما أنها ظلت متعلقة بأمها عاطفياً، بنت حياتها على مثلث مؤلف من أمها ومنها ومن الطفلة. ومنذ البداية، بدت السيدة سلوتسكي، بطريقة واعية جداً، حياتها وروحها الأمومية، بالطابع الذي نجده عادة في موقف الصديقتين اللتين تتبنيان طفلاً. لقد بنت مثلثها على قاعدتين، إذ أنها لن تتوقف عن مشاركة الطفلة مع أختها، وتجعلها تناديها «خالة»، وكلما ظهرت صعوبة بخصوص الفتاة الصغيرة، تتوجه إلى «أم روز».

لقد تمكنت من السير بحياة طبيعية وتنجب أولاداً لها، وهناك رجل تودد لها على مدى عشر سنوات وشعرت نفسها منجذبة نحوه، إنما تخلت عنه بصورة واعية لصالح روز، وبصورة لاشعورية لصالح مثلثها. وليس إلا بعد وفاة أمها حتى أقامت بيتاً جديداً من أجل روز. وتزوجت رجلاً يكبرها بكثير، وعولت عليه دور أمها في المثلث، وذلك لم يسهم ببرنامج حياتها إلا أنه جعل منها أماً فعلية. وعندما حصل ذلك، تهافتت عليه بإصرار. ولم تفِ بوعدها الضمني لروز من ألا تنجب لها طفلاً. وشعرت نفسها مذنبة، ولم تتح لنفسها لأن تكون أماً حقيقية، وأهملت ابنها الحقيقي من الناحية العاطفية. لكن علاقتها مع روز تعقدت، وكانت عاجزة عن تجاوز الصعوبات الجديدة.

ولم يكن إلا في ذلك الحين، حتى أظهرت ردود فعل نمطية لأم متبنية. وقد نسبت صعوبات روز إلى ارتدادها الوراثي، وفي هذه الحالة إلى والدها، وعرضته بعامل الرجوع إلى الماضي، ليس بصورة مباشرة إنما بصورة عاطفية، للمطالبة بالاعتراف بالجميل: «لقد قمت بالكثير من التضحيات لأجلك» مثل هذا الدين لا وجود له في العلاقة الأمومية الفعلية مع طفل محبوب جداً. لكن بما أن الأمومة المتبنية ليست بحد ذاتها الروح

الأمومية، وتقتصر على تقديم فرصة لهذه الروح، فأصبحت في هذه الحالة، ساحة لمختلف التجارب العاطفية، وساحة للإرضاءات، والحرمانات، التي لا علاقة لها بالروح الأمومية. ولو تحققت التخيلات الوهمية لروز، لتخلت السيدة سلوتسكي عن نزاعها مع أختها، في اللحظة نفسها التي فرضت فيها الحياة عليها الأمومة البيولوجية بدلاً من الأمومة المتبنية.

نجد في موقف السيدة سلوتسكي، إذا تفهمناه جيداً، كثيراً من العناصر النمطية كنفسية الأمهات المتبنيات. ولا تظهر هذه العناصر عادة بصورة واضحة ومباشرة كما يحصل في هذه الحالة، إنما تخدع وجودها بأساليب مختلفة.

فعند اختبار صعوبات الأمومة المتبنية، استطعت أن أثبت من جديد وجهة نظري الأساسية، إذ يمكن للروح الأمومية للأم المتبنية أن تغتني بنفس الأفراح والأحزان التي تؤول للأمومة الحقيقية. وموضوع أن الطفل المتبنى يدخل في حياة الأم ضمن شروط شاذة، وأن الارتداد الوراثي لأم أخرى يلقي بظلاله على غرفة الطفل... إلخ يسهل ببساطة الصعوبات التي قد تنبثق أيضاً في الموقف العادي، إنما التي تأخذ عادة شكلاً آخر وتكون بسهولة أكثر منطقية.

لقد أصريت عدة مرات على ذلك المظهر للأمومة المترافق، بصورة وثيقة، بالعلاقة الأمومية القديمة للمرأة. تعد هذه العلاقة لعنة إذا خلّدت الصراعات القديمة، من كراهية، وغيرة، واحتقار، وخوف من الثأر، وتعد بركة إذا كان حنان المرأة القديم لأمها، متحرراً من علاقات التبعية، وإذا استطاعت أن تزينه ثانية بالعلاقة مع الطفل.

على الأم المتبنية أن تظهر نفسها أكثر تحرراً أيضاً من التبعية القديمة إذا ما أرادت التخلص من الأفكار المثيرة للمتاعب، ليس الأكثر خيالية إنما المبررة تبريراً واقعياً، بخصوص الأم الحقيقية الضائعة والمنافِسة والمنحطة وخاصة «المجهولة». تلك هي إحدى الشروط الأساسية لنجاحها باعتبارها

أم لطفل متبنى. لقد رأينا أيضاً أن النساء تحوّل طائعات، نزاعاتهن الخاصة المرفوضة على الطفل المتبنى. فالخوف الذي كان عند السيدة بروكس من مثليتها الجنسية الخاصة، اتخذ شكل خوف من الارتداد الوراثي المفسد.

هناك دافع مألوف جداً للتبني، يهدف لاستبدال وتعويض الطفل الغالي الذي تم فقدانه. فتلجأ المرأة بصورة خاصة جداً إلى التبني إن لم تكن قادرة على إنجاب طفل آخر. إنما، بتبنيها لطفل مهجور، غالباً ما تنتظر المرأة التكفير عن عدم الوفاء للطفل المفقود. وتعتبر، بصورة لاشعورية، الأم التي في حالة حداد أن الولادة الجنسية كخطيئة، وهي مرفوضة. وغالباً، يمثل التبني جهداً من أجل قطع فظ للحداد الخطأ الذي يؤدي عموماً لنتائج مؤسفة. حيث أثناء فترة الحداد، يكون أولاد الأم الحقيقيون أنفسهم، محرومين من الحب ومعرضين لذلك اللوم المؤلم الصامت: «لماذا لم تموتوا عوضاً عن الآخر؟»

لا يسمح الشعور بالذنب للأم إزاء الولد المتوفى أن تتحول نحو أدوات أخرى، وعلى الأخص نحو أدوات جديدة، فالطفل الذي تم تبنيه ليكون تعزية، يندر أن تكون له فرص في الحصول على قلب الأم. وفي بعض الظروف، تكون أحياناً الأم في حالة الحداد قادرة على منح حبها لطفل آخر، عندما يكون هذا الطفل على سبيل المثال يتيماً بائساً، محروماً من أمه الحقيقية. يصبح مثل هذا الطفل رفيقاً في الحداد، والشفقة التي تبديها له تكرس العلاقة الجديدة.

التخيل الوهمي لعملية الإنقاذ، يلعب دوراً هاماً في التبني. مما يعبر بصورة رمزية عن الولادة في الأحلام، ويتخذ التراث الشعبي للأم المتبنية معنىً واقعياً وهاماً. ويتخذ عملها الأناني طابعاً أخلاقياً وإيثارياً كفعل حسن، ويمكن لترددها الوسواسي أن يكون أكثر سهولة في تخطيه. ومن المستحسن إنقاذ الطفل من أن تسلب غيره من امرأة أخرى.

وفي دراسة نفسية الطفل المتبنى، أظهر كثير من الباحثين، أن موقفه

يشبه تحقيق تخيل وهمي نسميه الرواية العائلية. فالمحتوى الأكثر إدراكاً والأكثر عمومية لهذا التخيل الوهمي هو التالي: «أنا لست ابن والديّ» (أو «أمي» أو «أبي»). وإلى جانب هذا المركب السلبي، هناك مركب إيجابي يجيب على السؤال: «أنا ولد ممن إذن؟» تأتي هنا إجابتان نمطيتان. المألوفة أكثر هي التالية: «أنا من محتد كريم» والأخرى، «أنا من محتد هابط»، هي أكثر ندرةً، إنما موجودة. تصدر هذه التخيلات الوهمية عن تعقيدات في العلاقة مع الأبوين، علاقة غالباً ما تصبح متناقضة بحيث تثير لدى الولد شعور أن له صنفين من الأهل.

ويمكن للولد المتبنى، أن يعطي هذا التخيل الوهمي طابعاً شعورياً ومتكيفاً مع الواقع، طالما أن له حقاً صنفين من الأهل. ويمكن أن يدخل تناقضه الوجداني، ورغباته غير المشبعة، وكراهيته، وحاجته الشديدة للحب، في إطار من هذا التشكيل المزدوج. ووفقاً لحاجاته النفسية، يمكن أن يمنح منبته الصفة العليا أو الدنيا. والمعلومات التي أعطيت له، أهي حقيقة؟ وبشكل عام لا تكفيه وتدعه عرضة للخيالات اللامحدودة.

وبالنسبة للأم المتبنية، يجب قبول أن الدرب ممهدة، بشكل معدل تماماً، لإنبعاث روايتها العائلية الطفولية الخاصة. وهي أيضاً تجد نفسها عادة أمام المشكلة التالية: «من هم الأبوان الحقيقيان لولدي؟» في إحدى حالاتنا[1]، بيّن التحليل كيف تؤثر الرواية العائلية الطفولية بالعلاقة اللاحقة للأم بالطفل. وقد روت المريضة التي كانت من عائلة عريقة أنه أثناء طفولتها الأولى، اقتنعت لفترة طويلة أنها كانت ابنة فلاح مثير للإشمئزاز. أتت هذه القناعة من كلام فارغ لأحد أفراد أسرتها حين قال: إن تكوني شريرة، فسيأتي ميشيل نوكسين ليختطفك في كيس بنفس الطريقة التي جلبك فيها، إنها تعرف ميشيل نوكسين هذا الرهيب. لقد كان فلاحاً جلفاً، غالباً

---

(1) Deutsch H.: Zur Genese des Familienromans. Internat. F. Psychoanal., vol.16, 1930.

ما رأته في مكتب والدها وفكرة أنها كانت ابنته لم تأتِ من فراغ بل بنيت على فكاهة سمعتها. وفي الفترة التي حصلت فيها هذه الملاحظة، كانت المريضة تعبد والدها بحماس. ومنذ ذلك الحين كان تحالفاً متسامياً استمر بعد ذلك على الدوام. لقد شكلت أناها الأعلى استناداً لنموذج هذا الأب المعتبر جداً، والذي كان آنئذ على الدوام فوق كل متطلباتها.

لقد كشف التحليل لماذا كانت تعتقد بعناد كبير أنها ابنة ميشيل نوكسين الفظ. فالفتاة الصغيرة، كانت تحتفظ، إلى جانب المحب والمتسامي تجاه أبيها، من فترة سابقة من طفولتها، بتخيل وهمي لاشعوري. أتى هذا التخيل من اهتمامها بالعلاقات الجنسية بين الأهل. الدور الذي عزته لوالدها يتوافق مع تفسيرها السادي للجماع، وتمثله بالضراوة والغموض و«المثير للاشمئزاز». ويتوافق ميشيل المثير للاشمئزاز مع رؤيتها اللاشعورية عن أبيها المحبوب جداً، وهي تقبله هكذا، في مركب من حياتها النفسية، كوالدها، «الحقيقي».

ما يهمنا هنا، هو موضوع أن الفتاة الشابة تخلط هذه الرواية العائلية بأمومتها الخاصة. وهي شابة متزوجة، كان لديها دوماً رغبة عارمة في إنجاب ولد يشبه الأب الذي بجّلته، والموهوب بتميز ذهني، وأخلاقية عالية... إلخ.

عندما ولد هذا الولد المرغوب، أعطته اسماً غير مألوف في وسطها، وأسمته سيپ، وهو اسم نمطي لفلاح نمساوي. وهي لم تدرك ذاتها كيف أتت على اختيار هذا الاسم. وهي تسبغ عملها بطابع عقلاني أن اسم سيپ يتضمن فكرة الصلابة، وأنها تريد رؤية ابنها متكيفاً مع أكثر المظاهر قسوة في الحياة، وأثناء تحليلها، تذكرت الحديث التالي. عندما كانت بنتاً صغيرة، كانت جالسة على إسكملة صغيرة بالقرب من مكتب والدها، وهذا غالباً ما يحصل. وكان والدها، الذي يعمل وكيل دعاوي، يملي على سكرتيرته مايلي: «يوصي ميشيل نوكسين بمزرعته وبكل ما يملك لابنه الوحيد سيپ».

كل شيء أصبح الآن واضحاً بالنسبة لمريضتنا. حيث يتوارى خلف أمنيتها الواعية، بإنجاب ولد شبيه بوالدها المبجّل، التخيل الوهمي القديم للأب الشرس، المتحدر من طبقة دنيا، هذا التخيل الوهمي الذي تُرجم بالطريقة التي أسمت فيها ابنها. هكذا وبعد سنوات عديدة، لاقت روايتها العائلية ختامها.

ومع أن ليس لهذه المريضة أم متبنية، ترينا حالتها أنه يمكن للرواية العائلية أن يحتفظ بها لفترة طويلة، لتحيا من جديد في الحياة الراشدة، في لحظة تكون مستعدة لها. والموقف النفسي للتبني، بقضيته غير المحلولة غالباً بما يخص هوية الأبوين، يمكن أن يشكل مصدراً هاماً للتخيلات الوهمية عند الأم وعند الولد. سنحت لي الفرصة في ملاحظة ممثلة مشهورة جداً، وهي أم لمراهق، والتي تبنت طفلة صغيرة. لقد رُتبت أمور التبني بسرية تامة، وكل ما تعرفه عن الطفلة، أنها كانت من محتد عريق، وربما حتى ارستقراطي. هذه المرأة، بمعزل عن ذلك، رصينة جداً ولا تبدو عصابية، وقد بنت حول الطفلة، رواية عائلية حقيقية. فقد تخيلت أن الفتاة الصغيرة كانت من عرق خاص جداً، وأن الأمير...x، المعروف بحبائله الغرامية المتعددة، ربما دخل إلى مسرح الأحداث لبضعة أيام بصفته أب، وأنه مولع بابنته الصغيرة ويكافئ بسخاء أمها المتبنية اللطيفة. وقد نمت الرواية بأصدق تفاصيلها، وأصبحت، أكثر فأكثر، غير واقعية، واستحوذت على المرأة أكثر من علاقتها الفعلية مع الطفلة. وجعلت تحس في نهاية الأمر أن الموقف كان غريباً.

أم هذه المرأة، كانت ممثلة مغمورة، وكان لها بعد انفصالها عن زوج حقير، مغامرة غرامية مع رجل غني، ذي نفوذ. وقد اهتم هذا الرجل بابنة عشيقته، وتدين له مريضتي بتربية حِرَفية ممتازة وبمهنتها. وكانت الصغيرة تعرف أبيها الحقيقي وتحبه، إلا أنها متعلقة بفكرة أن عشيق أمها هو والدها. وعندما تبنت فتاة صغيرة، عادت هذه الفكرة للظهور، وعاشت مريضتي نشراً جديداً، إن صح القول، للقصة الوهمية الأصلية. وقد

استخدمت أساليب أخرى غير أساليب أم سيپ، لقد حققت روايتها العائلية مع فارق الجيل.

أم أخرى متبنية، كانت تلاحق ابنها كظله. ولو كان ابنها الحقيقي، لاعترفنا هنا بأنه نمط الأم العصابية المفرطة بالقلق التي تحدثنا عنها آنفاً (أم ماسّيمو). إنما كانت تسوغ مخاوفها بالفراق، ولا تقول لنا ما إذا صدرت مخاوفها عن الموقف الفعلي، أو ما إذا تتصرف بنفس الطريقة مع ابن حقيقي. لقد كانت واعية لمضمون مخاوفها، إنها ترتاب من أن تخطف الأم المجهولة الطفل منها. ولم توافق إلا ذهنياً عندما قلت لها أن هذه الأم كانت بلا شك سعيدة لتخلصها من الطفل، وكان شعورها أنه «لا نعرف أبداً». كانت تعذبها أحلام من القلق النفسي بأن المرأة الأخرى تنكد عيشها دوماً، وتثأر منها، وتسلب منها الولد...إلخ. ونحن نعرف هذه الأحلام من القلق النفسي عند غيرها من النساء. إن الڤيهيني هايي كانت الأم الحقيقية للطفل، والتي فقدت طفلها فعلياً، والتي يمكن أن تطالب به فعلياً بكونه ابنها.

أنجبت هذه المرأة المتبنية القلقة طفلاً بعد بضع سنوات، وأولته انتباهاً أقل بكثير. وقد حمل قلقها النفسي المفرط إزاء الطفل المتبنى ثماراً سيئة، كما توقعنا ذلك. هذا الصبي الجميل والموهوب جداً شكل فراراً عدداً من المرّات في فترة بلوغه. وحتى في الظروف الطبيعية، يهرب الأولاد من التعلق المفرط الذي يمتلكونه لأمهم، ويبحثون بصورة لاشعورية عن أم أخرى، يكون لهم الحق في محبتها دون ارتكاب المحارم. ولا يقتصرون على تخيل رؤية عائلية، إنهم يضعونها قيد الواقع. إنما وفقاً للتخيل الوهمي لهذه الأم المتبنية القلقة، يؤكد تصرف ابنها المتبنى شكله الخالد في تطلعه للعثور على أمه الحقيقية.

أم أخرى مشابهة، وهي امرأة وسواسية مرضية إلى حد ما، استحوذت عليها فكرة أن ابنها المتبنى قد يصبح مريضاً عقلياً. كانت تلاحظه بخوف وترى في كل حركة من حركاته أولى علائم مرضه، لأنه «لانعرف أبداً»، يمكن أن يحصل معه ارتداد وراثي بالجنون.

إن فكرة الارتداد الوراثي هذه، والتي رأينا فيها دوافع غير منطقية إنما متأصلة تأصلاً عميقاً، تكون متشبثة في هذه الحالات، ويكون الكفاح صعباً جداً ضد عقلانية «لانعرف أبداً». الشهادة على الواقع، وحدها المحكمة التي وثقنا بها لنقرر في موقف مشكوك به، كانت هنا بقوة إلى جانب الأم المتضررة. وكل ما تشكل وتحدد مسبقاً في الضيق النفسي العميق لحياتها النفسية وجد نفسه الآن في مجال الإمكانية الفعلية. في ما العلاقة بين الواقع والخيال قد تزحزحت، وكثير من الأمور المعترف بها في ظروف أخرى كنتاجات صافية للحياة التخيلية، هي هنا محرّضة ومكثفة ومزودة، بطابع واقعي، بالأحداث الخارجية.

لعل الأمهات المتبنيات اللواتي أصبحن هكذا بسبب عقمهن، هن متفاجئات بصورة خاصة لمثل هذا التقييم الفائق للموقف الفعلي. ولا يجب علينا أن ننسى أنه في هذه الحالات، يعد التبني محاولة لمداواة صدمة خطيرة، ويجب تخطي هذه الأزمة قبل أن تتمكن الروح الأمومية من النمو بكامل إشباعاتها. إن نوع الصدمة مثار البحث، وردّة فعل المرأة التي عليها التخلي عن أمل إنجاب طفل، تتبع إلى حد كبير، كما رأينا، سبب العقم. حيث يمكن للصعوبات العاطفية للتبني أن تُبرز الشروط نفسها التي أدت للعقم، إن الإشباعات التي نفترض أنها أقصيت بالتخلي عن الوظيفة التناسلية، يمكن، في ظروف مختلفة، أن تعود إلى الظهور بصورة جديدة عند الأم المتبنية. فخشية «لا أستطيع أن أنجب طفلاً» على سبيل المثال، تتخذ شكلاً رأيناه في الحالة الأخيرة: «الطفل سيُسلَب مني». وقد يصبح الطفل المُتبنى موضوعاً لجميع المشاكل التي قادت إلى العقم، وفي الوقت نفسه، المشاكل المتعلقة عادةً بالطفل العادي. الفارق الوحيد هو أن الصراعات لها هنا خلفية أكثر واقعية.

لقد ذكرنا، أن مسألة عدم إنجاب أطفال هي الدافع الأكثر تكراراً لعملية التبني. هناك دافع مشابه في مسألة النقص النسبي للأولاد، وتحصل عندما ينجب الأهل طفلاً أو أكثر دون بلوغ العدد المطلوب. سيبدي

الأهل، وخاصة الذين لم ينجبوا إلا طفلاً واحداً رغبة شديدة لإنجاب المزيد. فالمرأة التي سبق وأنجبت طفلاً، وخاصة تلك التي ثبتت سعادتها بروحها الأمومية بأولادها الحقيقيين، ستكون أفضل كأم متبنية من تلك التي عانت بحنين من قدرها بحرمانها من تجربة مجهولة. الأمور تعلن عن قدومها بشكل حسن بالنسبة لكل شيء، إذا كانت الفوارق في العمر والجنس بين الابن الحقيقي للمرأة وابنها المتبنى هي تلك التي لا تقع في صراع التفضيل والأولوية، والتي يكون فيها الولد الأكبر مهيأ لاستقبال الأخ القادم من الخارج بروح الصداقة. الأم المعرضة للعصاب الاستحواذي، بميلها لمشاعر الذنب، ستتعرض بصورة طبيعية لخطر «الإصغاء إلى قلبها» بانتباه لتكون دوماً عادلة مع الطفل المتبنى، ووضعه هكذا في موقف استثنائي تريد أن تتجنبه بحق. ويصح هذا بشكل خاص بالنسبة للأم المتبنية التي أنجبت طفلاً بطريقة غير متوقعة والذي اعتُبر الطفل المتبنى أنه قد حل محله. إن قدرة القوى الطبيعية «صوت الدم»، والتعلق الأقوى بالطفل الذي أنجبته بنفسها، حملوها بالضرورة إلى حق موجود مسبقاً في أن الطفل المتبنى يُحَب بالدرجة الأولى، والأسلوب الذي ضبطت فيه الأم صراعاتها للتناقض الوجداني ولمشاعر الذنب ستحسم لقرار لصالح هذا الطفل أو ذاك.

تحدثت عن الأمهات اللواتي لديهن نوع من الهواية للعمل وللأطفال. وأخريات يردن عدداً محدداً من الأولاد، وأخريات يردن عائلة كبيرة العدد. وهناك حتى بدرجة أعلى، الأمهات المتبنيات.

هناك نساء (يمكن أن أسميهم أنثى الـ "Pied Pipers") يستخدمن فخ المنزل المرحَّب، والرعاية الأمومية، لتحويل الأطفال من المؤسسات الاجتماعية دون مراعاة لطبيعتهم، مدفوعات بحاجة نفسية قوية لمساعدة الأطفال، وإيواء العصافير الصغار في عشهم، وسماع كلمة «أم» ينطقها أكبر عدد ممكن من الأفواه. ولديهم، في آن واحد، أولادهن، وأولاد نساء أخريات، لعل ما يهمهن هو العدد والنتائج. وإن لم يكن عندهن أطفال،

فيمكن التفكير بأنه عندهن أيضاً تلعب الآلية الكمية «الكثرة تحل محل واحد». إنما حتى لدى النساء اللواتي يتمتعن بإمكانية إنجاب نسل، الرغبة الجياشة بطفل، قد تدفعهن للبحث باستمرار عن طفل جديد، وما أن تمتلكنه، حتى يردن غيره. امرأة غريبة الأطوار، في نيويورك، كرّست ثروتها وطاقتها للبحث عن قطط متروكات، لقد كانت أماً متبنية بلا غايات اجتماعية.

هناك اتجاه خفي لـ «خطف الأولاد» قد يقود غالباً، امرأة طاهرة ورزينة للشروع بمهمة اجتماعية مهيبة، في الحلول مكان أم لعدد كبير من الأولاد المهجورين أو المهملين. لقد سمعت بامرأة كهذه مهووسة بالتبني وتعبر بكل طاقتها، عن معاداتها للمساعدات الاجتماعية للأطفال، وبرأيها أن كل طفل بحاجة لأم. وهي تعرض نفسها للمجتمع لتكون هذه الأم.

لكثير من النساء، مثالية كمية للعائلة، ويسعين لتحقيقها. إن عدد الأولاد الذي يرغبن به هو عدد عائلة أهلهم، وحتى في معظم الأحيان عدد أكبر. وإن لم تنجب هؤلاء النساء عدد الأطفال المطلوب، فإنهن يلجأن للتبني. وفي أحيان أخرى، لا تكون المرأة راضية عن جنس أولادها، فتتبنى طفلاً ليحل محل الصبي أو البنت الذي ينقصها.

دُفعت إحدى مريضاتي للتبني المتعدد، نتيجة فكرة فضولية طفولية ترسخت في لاشعورها. فعندما كان عمرها ثماني سنوات، أصبحت أمها حاملاً، وأصبح عندها أخوان أصغر منها، ثم هيأتها لقدوم مولود جديد وهي تقول أنها سوف تشتري لها أختاً صغيرة. وقد استعلمت حول طور الولادة من مربيتها قبل مجيء أحد أخويها الصغيرين، إنما كانت تجهل تفسير المربية برمته، وانتظرت المولود الجديد كهدية سوف تُشترى لها. وراحت تتخيل أن هناك نوعين من الأطفال، أولئك الذين يولدون وهم لا ينتمون إليها، وأولئك الذين يُشترون من الخارج والذين يكونون ملكاً شرعياً لها. وفي ما بعد، بعد زواجها، أنجبت ثلاثة أولاد ذكور على التوالي، وبعد كل ولادة من ولاداتها تتبنى بنتاً، مع انطباعها بأن الذكور لزوجها،

والإناث لها. وقد حاولت تفسير هذا السلوك الغريب بجنس الطفل («الفتيات للأم»)، وليس إلا بعد حين، حتى أدركت حقيقة دافعها.

ومن المؤكد أن مثل هذه الدوافع الفردية، التي تبقى لاشعورية تماماً، تلعب دورها في حوادث التبني. وإننا على صلة هنا بنوعين مختلفين من المشاكل بما يخص نفسية الأمومة المتبنية. يخص النوع الأول، المرأة التي أدينت بالعقم المطلق أو النسبي، والتي مع ذلك ترفض التخلي عن الأمومة. والنوع الآخر يتعلق بالأم التي، لسبب أو لآخر، تسعى لزيادة عدد أولادها بالتبني. أحياناً يستخدم التبني لحل مشاكل مالية أو مشاكل عملية أخرى.

ولنعد إلى النساء العقيمات، أريد أن أثير من جديد هذه المسألة: ماهي الحرمانات التي على الأم المتبنية العقيمة أن تعاني منها، وما هي الفرص التي تتاح لها لإرضائها؟ تكمن الحرمانات قبل كل شيء في غياب التجارب العاطفية للطور البيولوجي للأمومة «العبور من خلال الألم». وانطواء الحمل المحبب، تلك الطريقة في الاستغراق بالتفكير في مستقبل مليء بالوعود، والنضوج المتدرج الذي يبدأ من تخيل الطفل وينتهي بواقعيته، والتكيف غير الملائم والممتع رغم ذلك لأعضاء المرأة التي تتهيأ لسكن من أجل أمر في طريقه للنمو، والإعفاء من أي إجبار، والبهجة في إرجاء مشاكل الحياة العادية، وتخيل هيئة الطفل، والاستعداد النشط والمفرح للعش، كل ذلك مرفوض على الأم المتبنية. والأم المتبنية التي لم تنجب أولاداً قط، محرومة كذلك مما يخلصها من الضيق النفسي بسبب تجربة خوف الولادة، إنها محرومة من إفراغ شحنة مشاعر الذنب التي يجلبها الألم، ومن التجربة المؤلمة والمفرحة للولادة. ومن استعادة امتلاك الطفل بعد الانفصال عنه، ومن الإشباعات النرجسية لعقابيل النفاس، ومن الإتحاد بالمولود الجديد في عملية الإرضاع.

ونجد صورة مثيرة للتبني في التماثيل الإيطالية لـ هيرا، الأم المتبنية

لـ هيركول، وتتمثل فيها وهي تعطي الثدي، للولد الذي سبق أن كبُر، لكي تنوه ولو بشكل متأخر عن هذه المهمة المرتبطة بالأمومة بشكل أساسي.

كما توفر الأم المتبنية مخاوف الانتظار، والسير التصاعدي للصراع الداخلي بين الصون الذاتي وخدمة النوع، وبين الموت والحياة. كما تظل متحررة من المؤثرات الإرجاعية التي تثيرها الأطوار البيولوجية لوظيفة التناسل. كما توفر أيضاً الآلام الجسدية، والمخاوف، والصراع بين الاحتجاز والمنح، والتهديدات الخيالية والفعلية للموت، وانطباع الفراغ الذي ينجم عنها، والخدمة الخاضعة للنوع. إنما هنا كما في مكان آخر، مكتومة بعمق في اللاشعور، تبقى الرغبة غير المشبعة للتجربة الماسوشية، التي تُجبَر على تجاوزها، والملامة الموجهة ضد الأنا في تجنب هذه الوظيفة. فالمرأة والرجل محرومان كلاهما من تحقيق الأمنية النرجسية في الخلود الجسدي. أما المركب الإيثاري، المحبوب بشكل موضوعي، للروح الأمومية، والفرحة الممتلئة بالحنان في رؤية الطفل يكبر، وجميع العلاقات العاطفية التي تُبنى بين الأم والطفل، وبين الأب والطفل، خلال مرحلة الطفولة كلها، يمكن أن تُعاش كاملة من قبل الأبوين المتبنيين.

وإذا سيطرت الرغبة النرجسية في إنجاب طفل باعتباره نتاج الجسد الحقيقي، وإذا أهمية الطفل باعتباره أداة انتقلت إلى المرتبة الثانية، فالتبني لن يجلب إلا الإحباطات. لقد درست امرأة شابة، لم تتمكن من الحمل لأسباب صحية، تبنت طفلاً وكانت له أماً ممتازة، ومُحبة ومنتبهة. إنما كلما كانت ترى امرأة حامل، أو تعلم أن إحدى صديقاتها تنتظر طفلاً، تكون ردة فعلها بيأس أكبر من الذي عانت منه في الفترة التي سبقت التبني. وعواطفها الأمومية تجاه الصبي الصغير، والتي تزودها الأمراض والنمو بكل الهموم والأفراح الأمومية التي كانت تحبها، لم تستطع تعزيتها من عدم الإحساس بالفخر الطبيعي الذي تجده المرأة في ثمرة جسدها الحقيقية.

ونعلم، أن إشباع حاجة نفسية، غالباً ما يزيد توتر حاجة أخرى، والتوتر يشوش الإشباع. وخلف عاطفة «إنه طفل معبود، أحبه كأنه ابني» هناك إحباط «إنما هو ليس ابني» يمكن أن يقلص الفرح ويشوشه. في عدد من الحالات، لاحظت اكتئابات متعندة على نحو أو آخر، وحالات رفض مؤقتة للطفل المتبنى، ومشاعر كراهية («إنه ليس لي»)، رغم المحبة الحانية التي تبديها الأم المتبنية.

لقد رأينا كذلك أن دوافع التبني قد تكون مختلفة جداً، وأن ردود الفعل العاطفية للأم المتبنية، تتعلق ببنية شخصيتها وتحددها الأحداث السابقة. وهذه الأحداث لا تُكشف لنا عادة إلا بواسطة التحليل النفسي. إنما هنا مثل مظاهر الحياة الأخرى، غالباً ما نتمكن من اكتشاف الماضي بتكراره في الحاضر. وعندما نتزود بالمعلومات الكافية، نتمكن من إعادة بناء تجارب الماضي بارتكازنا على السلوك الحالي، مع أنه في مشاكل الأمومة، تخوننا الذاكرة في أمرين: في حاجة المرأة العميقة المحددة، بيولوجياً ونفسياً، في أن تكون أماً، وفي اقتضائها من الواقع الذي غالباً ما يدفعها إلى الأمومة في الوقت الذي يعارض لاشعورها ذلك.

فضلاً عن حرماناتها العديدة، ترى الأم المتبنية نفسها أمام مهمة صعبة على نحو خاص، فعليها أن تشرح للطفل المتبنى أنها ليست أمه الحقيقية، وعليها أن تجد من جديد الأشباح التي تبذل جهداً شاقاً في مطاردتها ضمن حياتها النفسية الخاصة، وعليها أن تعيد إلى المحك، الألم و الابتعاد العاطفي اللذين ضبطتهما، أو اللذين لازال عليها ضبطهما. كما تخشى من العبء الذي عليها أن تفرضه على الطفل، سواء في خيبته، أو في الأسئلة التي سيطرحها، وفي التقصيات التي سيقوم بها. وبشكل عام، هذا الاستحقاق يُفرض على الأم من الخارج، ويُقال لها أنه لابد عملياً من أن يعلم الطفل ذات يوم الحقيقة من الآخرين، وأنه ليس باستطاعتها مطلقاً، كتمان أمر يعرفه الناس، وأنه بجميع الأحوال، من المستحسن حماية الطفل بإخباره الحقيقة، لمواجهة إفشاء مفاجئ وربما أكيد.

غالباً ما تشعر الأم نفسها بألم كبير جداً في التسليم بهذه الضرورة. لماذا تحكي للطفل؟ وكيف ستقوم بذلك؟ لعل الحب الذي تحمله للطفل يعادل حب أم حقيقية، إنه مفيد جداً له ولها بسبب ذلك تحديداً. إنها تحس بنفور طبيعي في وضع هذه العلاقة موضع الخطر. وبشكل عام، هي لا تتوصل لإيجاد فرصة ملائمة، وتؤجل هذه المحنة إلى ما بعد، وتنذر نفسها لمهمة مؤلمة، وهكذا تستسلم دوماً لممانعة متنامية، تحس بها في النهوض بواجب شاق لا تتقبل وجوده بحق. إنها الممانعة نفسها التي تحس بها كثير من النساء أمام هذه المهمة، الصعبة جداً عليهن، في التنشئة الجنسية لأطفالهن. متى وكيف يتم الحديث مع الطفل، إنه سؤال مثير ولاهب، وغالباً ما يبدو من العسير تجاوزه.

لقد تعلمنا الكثير حول مسألة التربية الجنسية بفضل تجربة الأساتذة المعنيين بالتحليل النفسي، ونقبل اليوم بشكل عام أن على الطفل أن يُرشد بصورة متدرجة تصاعدية، وفي كل مرحلة يجب على التفسيرات أن تتلاءم مع إمكانياته الذهنية. ونحن نعلم أيضاً أن الأشخاص وحدهم القادرين على الإحساس بالانسجام مع الطفل، سيعلمون كيفية إيجاد الطريقة واللحظة المناسبة. إن لحظة التفسير ودرجة التوضيح التي يمكن أن يتلقاها الطفل دون ردة فعل صادمة، لا يمكن تحديدها فقط على أساس نضوجه الذهني أو الجسدي. بالإضافة إلى أنه من المستحيل الإجابة على أسئلة غالباً ما تطرح في أعمار معينة، حيث يمكن أن يُجاب عليها بهذا أو ذاك من التفسيرات.

وهناك حتى توضيحات أخرى من الصعب تمثلها. ضمن أي مقياس يجب أن تُقال الحقيقة؟ إننا على صلة هنا بلياقة لا يمكن إخضاعها لأي قاعدة. هناك أمر مؤكد بالنسبة لجميع المواقف من هذا النوع، إذا لم نتأثر بعواطفها، فمن الصعب تحديد درجة النمو الذهني للطفل، أي الدرجة التي يمكنه فيها الفهم والاستيعاب.

لعل اختراق الحياة العاطفية للطفل، وتحديد الفترة التي يكون فيها

أهلاً من الناحية العاطفية لتلقي التوضيح لازالت مسألة ذوق وتفهم. إنه يبني روايته العائلية الخاصة وفقاً لعلاقة الحب والكراهية مع أهله. فالأم التي في خياله لم تنجبه (في هذه المرحلة غالباً ما تكون في خياله شريرة وساحرة قوية) ستعزز عنده هذه الفكرة إذا هي أعلمته في هذه الفترة. أما إذا أزيح التوضيح إلى فترة يشعر الطفل فيها بالأمان والحب من قبل أمه، فمسألة المرأة التي أنجبته تبدو له مختلفة تماماً، ولن يتغير شيء في علاقته الوادعة مع أمه. الفتاة المدعية لميشيل نوكسين، كانت سعيدة جداً ومزهوة جداً عندما قيل لها إن والدها قد اشتراها من فلاح سوقي. لقد كانت حينها متأكدة إلى هذا الحد من حب والدها، بحيث رأت برهاناً خاصاً لهذا الحب في موضوع أنه اشتراها. وكان مجبراً على تقبل أطفاله الآخرين لأنهم وُلدوا منه، لكنه اشتراها هي لأنه يحبها كثيراً، فاشتراها حباً.

ومن البديهي أن الطفل المتبنى، سيستخدم أيضاً معرفة أصله الحقيقي ضد أبويه المتبنيين، بسبب التناقض الوجداني لمشاعره تجاههما. فإذا كان محبطاً بسببهما، يستخدم تبنيه ليغفر لنفسه مشاعر الذنب التي تأتي من تحريضاته العدائية. حتى أن الطفل المتبنى سيسعى لحل لغز حياته النفسية بلغز ولادته. ومع ذلك، من الواضح أن حل هذه المصاعب يكون شاقاً جداً أو سهلاً، في موقف لن توضع فيه النقاط النفسية على حروف مشكلة التبني.

بالرغم من الاختلافات الموجودة في المواقف الفعلية، التشابه ملفت للنظر بين قلق الأم المتبنية، وقلق الأم الواجب عليها تقديم التوضيحات الجنسية لابنها، وتريد أن تهرب من هذا الاستحقاق. وفي الحالتين، تلعب نفسية الأم دوراً هاماً. وفي الحالتين، على الأم أن تتخلص من أحكامها المسبقة ومخاوفها، إن أرادت الحصول على ردة الفعل المرغوبة لدى الابن. لنتذكر السيدة بروكس التي أرفقت بوضوح شديد بين هذه المشكلات للأحاسيس الجنسية وبين مشكلات التبني، اللتين كانتا محرمتين عليها.

سنوضح هذه النقطة بالحادثة التالية. كانت امرأة ذكية جداً تبحث عن شخص خبير بتنشئة الطفولة الأولى، والذي بإمكانه إعطاء تفسير علمي

كامل عن مسائل الجنس لابنها الصغير وعمره ثماني سنوات، وهو طفل موهوب جداً. لقد قامت بكل ما عليها، إنما كلما سألها الطفل عن معلومات دقيقة، تشعر نفسها مكبوتة وخجولة جداً، بحيث ارتأت أن من المفضل التماس التعاون من أخصائي. وتحادث هذا مع الطفل، ووجده مثقفاً جداً، ويفهم لماذا لا تتمكن الأم من تجاوز صعوبة خاصة. كما رفض الطفل رفضاً مطلقاً قبول فكرة أن أمه التي يحترمها كثيراً، يمكن أن تكون على صلة على نحو ما بمثل هذه الأمور. وعندما عُرضت عليه بوضوح، أصبح متبصراً وحزيناً، في لحظة الانصراف، استدار على العتبة وقال للأخصائي بنظرة متوسلة: «إنما زوجة الرئيس روزفيلت، لاتقوم بذلك !»

إننا ندرك تماماً معنى هذه الملاحظة، أي إذا بخست منزلة أمه، فعليه أن يجد مع ذلك، في مكان آخر من العالم، شخصية أنثوية، يعوّل عليها الثقة القديمة التي أولاها لأمه، وينقذ هكذا هذه الثقة.

ستبين نفسية أم هذا الطفل لماذا وجدت من الصعب جداً الإجابة على أسئلة بطريقة مُرضية. إنها تريد تجنب خطر خسارة هالة "first lady" زوجة الرئيس، التي زينها بها الولد. ويسعى حب الولد أن يحفظ الأم بعيدة عن أي شمول جنسي، ولا تريد الأم هجر الوضعية التي عزاها ابنها لها. ومسألة أن الأمور الطبيعية أصبحت محتقرة بالنسبة للطفل ترجع إلى نقص التحرر الداخلي لأمه.

حتى هناك أمهات متبنيات، هن أيضاً يجدن صعوبة في الإدلاء بتفسيرات، لأنهن أنفسهن غير متحررات من أي تحامل تجاه أمومتهن الاصطناعية، وأصل ابنهن المتبنى. إنهن يردن إنكار الأمور عن أنفسهن، والحفاظ على الوهم بأنهن مرتبطات بالطفل المتبنى بتجربة أمومة كاملة، ويجدن في الطفل تأكيداً لهذا الوهم. إن تحررت أم من أي تحامل على أمومتها المتبنية وتمتعت بروحها الأمومية، دون كبت أو قيد في علاقتها مع ابنها المتبنى فإن حدسها سيرشدها للحظة المؤاتية.

بعض الظروف، كما سوف نرى ذلك في القصة التالية المسحوبة من وثائق وكالة اجتماعية، تستطيع مساعدتها في هذه المهمة.

تربّت شابة زنجية في دير كاثوليكي منذ نعومة أظفارها، وكانت فيه الوحيدة من هذا العرق. كانت تنادي «أمي» للراهبة التي تفضلها، وترفض التصديق أنها ليست ابنتها. ولم تدرك أنها زنجية إلا في عمر ست سنوات، عندما أرسلوها إلى أهلها. ولاحظت أن هناك فارقاً جسدياً بين أمها وبين الراهبة التي أحبتها، ولم تلاحظ إلا في تلك اللحظة، لون بشرتها الحقيقي. حينئذ، بذلت جهوداً خائبة لتتخلص من هذا اللون بالتغسيل المستمر واستعمال الفرشاة، ليس لأنها تنحاز عرقياً، إنما لأنها لم ترد قبول الأمور الواقعية. لقد أرادت أن تبقى ابنة المرأة الطاهرة، دون الاهتمام بالشخص الذي أنجبها. فكل طفل متبنى يحب ويُحب، يظهر هذه الرغبة.

في اختيار اللحظة المؤاتية، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أشخاص المحيط الأقل كبتاً من الأم، والذين يسبقونها بالطلاقة في التوضيحات الواجب تقديمها للطفل. وخوفاً من احتمال كهذا، وحباً متحمساً للحقيقة، قد يدفعان الأم على تسارعها في الإدلاء بمعلومات للطفل هو عاجز عن استيعابها تماماً. وقد تكون النتيجة سيئة تماماً بحيث تأخذه الحيرة التي تكلمنا عنها، لأنه من الضروري في جميع الحالات الإلمام بكامل الموقف النفسي للطفل للتصرف بصورة صحيحة.

لقد ذكرت أن الدوافع النفسية التي تؤدي للعقم، يمكن أن تشوش أيضاً الأمومة المتبنية. وعلى العكس، يمكن لتبني طفل، وهو أمر مثير وسعيد، أن يطلق الكثير من القوى الدفاعية ضد الأعداء النفسيين للأمومة بحيث على هؤلاء التقهقر، وفي أعقاب ذلك قد يتم شفاء العقم القديم. غالباً ما تُلاحظ هذه الظاهرة، إنما لا يبدو لذلك تفسيراً مرضياً. ينبغي الحصول على الكثير من الملاحظات المحسوسة لتجاوز الافتراضات العقلية بصورة محضة. وبهذا الخصوص، سوف أتحدث عن مادة نادرة موجودة بحوزتي.

حاولت امرأة شابة أمومية وموهوبة بالتأمل الباطني، أن تشرح لي لماذا أصبحت حاملاً في فترة ما ذهبت فيها لتتبنى طفلاً. لقد رفضت لفترة طويلة الاستيلاء على طفل لامرأة أخرى، وبعد ثماني سنوات من زواج عقيم، لازالت معلقة آمالها على إنجاب طفل. ومع ذلك، في نهاية الأمر، قررت أنه كان ينبغي عليها أن تتخلى عن ذلك، وتشرع بالبحث عن طفل يلائمها. وفي الفترة التي ذهبت فيها لتبنيه، أصبحت حاملاً. لقد قالت لي ذلك بالضبط: «أثناء السنوات الثلاث الأولى من زواجنا، كنا مهتمين، بإصرار، بفكرة تجنب الحمل، وأثناء السنوات الخمس التالية، كنا مهتمين بفكرة الحصول عليه. وفقط منذ ستة أشهر، تخلينا عن أي محاولة إرادية، وأصبحنا متحررين من أي تنّبه وقلق» وجاء الاسترخاء مع التخلي عن الطفل والنية في التبني، ثم جاء الحمل مع الاسترخاء وزوال التوتر.

وقد كشف هذا التفسير، بلا شك، عن دافع نفسي قوي في صالح الحمل. وما تحس به المرأة نفسها كاسترخاء هو بالتأكيد إدراكها الداخلي بأن الكبت قد زال. ويؤدي الخوف من العقم إلى هذه العواقب قبل أن تصبح المشكلة فعلية وآنية بوقت طويل، وزوال هذه العواقب نادراً ما له أيضاً نتائج سريعة ومباشرة. في الحالة التي ذكرتها أور[1]، ظهر الحمل تماماً كما في حالتي، حينما قررت المرأة تبني طفل بعد عدة سنوات من العقم. لقد ترافقت التحضيرات لاستقبال الطفل المتبنى مع إعادة تنظيم للحياة الخارجية للمرأة في صالح هذا الطفل، وكانت دون أدنى شك، تعبيراً عن تغير داخلي عاطفي.

لقد تحدثت آنفاً عن حالة أخرى (ص 133). حيث أصبحت المرأة العقيمة حاملاً، عندما رأت أن زوجها، الذي لم يكن إلى الآن مهيأ للأبوة من الناحية العاطفية، أظهر أمام الطفل المتبنى شعوراً أبوياً بمسؤولياته وفرحاً غير متوقعٍ. وكان عقمها ظاهرياً يعود لافتقاد الثقة بزوجها.

---

(1) Orr D.W: Pregnancy following the decision to adopt. Psychosom. Med. , vol.3, 1941

تلك هي أيضاً حالة أم متبنية، أصبحت بعد ذلك حاملاً في حين أنها لم تكن تنتظر ذلك مطلقاً، إنما هذه الحالة بينت مظاهر أكثر تعقيداً. ولهذه الأم، أنا مدينة بالملاحظة الوحيدة التحليلية النفسية المباشرة، والتي قمت بها على المشكلة التي نحن بصدد دراستها الآن. كانت المريضة امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، والتي كانت دوماً أفكارها الواعية لأمر أن تكون أماً، مرتبطة بسعادة كبيرة. وبدت لها إمكانية التوصل بنفسها إلى مثل هذه السعادة أمراً مستحيلاً ولا يمكن إدراكه. وقد كانت قبل الولد الأخير في عائلة متعددة الأولاد، وكانت أمها إنسانية حنونة مِحبة تنشر حولها نوعاً من الروح الأمومية. وجميع أخوتها وأخواتها الأكبر عندهم الكثير من الأولاد، وكانت هي نفسها تتمتع بحيوية أثناء طفولتها وحتى بعدها بدور العمة أو الخالة، وكانت تساعد غالباً أخواتها بالاهتمام بأولادهم. وتسهم بطريقة ربما سابقة لأوانها في جو الحمل هذا، وفي عقابيل النفاس، وفي العناية بالأطفال الرضّع... إلخ. كل انطباعاتها بالاحتكاك مع هذه الأنشطة كانت إيجابية، والفرح الذي يمنحها إياه الأطفال، جعلها تفكر أن المرأة عندما تنجب طفلاً خاصاً بها، لا بد أن يكون الأمر أكثر روعة.

وهكذا توفرت لها أفضل الفرص لتصبح أماً سعيدة. وتزوجت رجلاً كانت تحبه، ومع ذلك لم تشرّف عائلتها المفعمة بالأولاد، لأنها كانت عقيمة لسنوات عديدة. ثم تبنت ابن طباختها، الطفل الذي وُلد ضد إرادة أهله. وبقيت على اتصال مع أم الطفل، وتم التبني دونما مشاعر بالإثم ودون غيرة، وأظهرت مريضتي هنا لياقة بالغة. واستمرت بالدعم المالي لأم ابنها المتبنى، وساعدتها على تربية أولادها الآخرين، وعلى عكس ما تفعله عادة الأمهات المتبنيات، حافظت إرادياً على الصلة بين المرأة الأخرى والطفل المتبنى لفترة طويلة، إلى أن تم الانفصال بصورة تدريجية ودون خلاف.

وأصبح واضحاً في تلك الفترة أنها استعادت بالتبني وضعها القديم كخالة عاطفية، مع ذلك الفارق الوحيد، بأنها حصلت الآن على سعادة لم

تبلغها في ما مضى، حيث تنازلت لها أم الطفل عن حقوقها بلا تحفظ.

أثناء السنة الأولى من أمومتها المتبنية، أصبحت مريضتي حاملاً. إنما كان حملها صعباً جداً، وكافح أطباؤها لمنع تهديد بالإجهاض امتد طويلاً، وكانت ولادتها بطيئة، كما فشل الإرضاع. وقد أدركت أنها ليست جديراً كثيراً بالحمل، وخاصة أن صعوباتها كانت ذات منشأ نفسي.

ولم يوضح علاج التحليل النفسي صعوباتها إلا جزئياً. وقد حافظت مريضتي بحيوية على ذكرى جميع المظاهر الإيجابية والمفرحة للوظيفة التناسلية، تلك التي لاحظتها عند أخوتها، ذكرى السعادة الكبرى للأمومة. تصورها لهذه السعادة كان مبالغاً به بشدة، وزودته بطابع صعوبة المنال. كانت هذه المبالغة نتيجة لتطور نفسي، حيث أقرّت أن التحقيق متعذّر، لأنها أرفقته بفكرة أن السعادة الكبرى تكلّف غالياً جداً. إنما ظلّت هذه الفكرة لاشعورية. لقد طردت المظاهر السلبية، الجانب السوقي من الطور المنجب، المشقات والآلام والتخلي والمخاوف والأخطار التي رأتها في جميع فرص الملاحظة، اختفت من ذاكرتها. كانت فكرتان تعارضان إنجاز أمومتها. الفكرة الشعورية، التي كانت تقريباً هوساً، وهي «لا أستطيع إنجاب طفل، إنه لأمر يجلب أكبر سعادة». والفكرة اللاشعورية التي تضم التهديدات والمخاطر.

لقد علمها التبني قبول المظهر الإيجابي، وأفراح الأمومة، وقد نفترض أن هذه التجربة أثرت على كبتها القلِق. ثم حبلت، إنما خوفها من مخاطر الأمومة البيولوجية استمر بدوره، خالقاً صعوبات في وظائف التناسل. ينبغي علينا أن نسلّم بأن الدراسة التحليلية نفسها لمثل هذه الصراعات، تقتصر على السماح لنا بصوغ افتراضات على علاقتهم مع العقم ومع الدور الذي يلعبه التبني في الشفاء منه.

ولسوء الحظ، لقد أضعت البوصلة مع هذه المريضة، ولا أعلم إن كان العلاج سينجح. يمكننا التسليم أنه، في كل حالات الشفاء هذه من

العقم بواسطة التبني، ترتكز هذه النتيجة العجائبية على زوال المخاوف، والشعور بالذنب، والقناعة العصابية «ليس بإمكاني أن أكون أماً». لكن ذلك لا يمكن أن يحصل إلا حينما لا تؤدي المضامين النفسية إلى أسوأ من اضطراب للنشاط الهرموني قابل للارتداد أو للطريقة المباشرة لتوزع أعصاب الجهاز التناسلي. ويمكن للحب الأمومي للطفل المتبنى أن يتفعل هنا كأي حب موضوعي، على اعتبار أنه عامل إفراغ شحنة، ومصالحة وشفاء. وبالنسبة للإنسان الورع والمؤمن، يمكن أن يعتبر الطفل المتبنى كملاك سلام أو مُرسَل سماوي. إنه يساعد المرأة على أن تصبح أماً كما فعل مع المادونا شيستوشوفا (ص 128) تتمتع فكرة أن التبني يساعد على الشفاء من العقم بشعبية كبيرة بين الدنيويين، وهي تثبت وجودها في الأدب العلمي بالملاحظة الموضوعية[1]. وبحسب رأيي، «أعجوبة» التبني هي نتيجة عدة عوامل تلعب سوياً ضد الكبت وضد اضطراب الطور الهرموني.

❁ ❁ ❁

(1) Menninger K.A : Somatic correlations with the unconscious repudiation of feminity in women .J. Nerv. & Ment. Dis., vol. 89., 1939. Robbins L.L : suggestions for the psychological study of sterility in women. Bull. Menninger Clin., vol.7, 1943. Knight R.P. : Some problems involved in selecting and rearing adopted children. Bull. Menninger Clin. , vol.5. 1941. Menninger W.C.: The emotional factors in pregnancy. Bull. Menninger Clin., 7, 1943.

الفصل الثاني عشر

الخالة (الزوجة الثانية للأب)

دون أدنى شك، هناك تشابه أكيد بين الأم المتبنية والخالة زوجة الأب. حيث يمكن أن يكون الطفل سواء في الموقف الأول أو الثاني بلا أم ولنفس الأسباب، فقد هجرته أمه أو فرّق الموت بينه وبينها. وحل محلها بديلة تهتم به كأمه المرضعة أو أمه المتبنية، مع كامل حقوق أم حقيقية، أو التي تأخذ دور الأم لأن الأب الأرمل أو المهجور تزوجها أو يعيش معها.

مذ قبل أن تدخل إلى المحك، بين الخالة والطفل، العناصر الإيجابية والسلبية، المحددة بصورة فردية، في العلاقة العاطفية، يكون جو هذه العلاقة مسموماً بنوع من التقاليد. ففكرة الأم المرضعة، وإلى حد ما الأم المتبنية، تترافق مع الرغبة العاطفية والإيثارية التي تحس بها هذه المرأة لتحل محل أم اليتيم، بينما عبارة الخالة زوجة الأب تثير معنى تحقيرياً بصورة أوتوماتيكية. ويوجد هذا الإشراك في جميع الأوساط. كثير من حكايا الجن رسمت لنا لوحة حزينة عن آلام الأولاد مع خالتهم زوجة أبيهم، وهي تعذبهم بكل الأساليب، وغالباً ما تريد قتلهم. تركت هذه الفكرة المشتركة آثارها حتى في لغتنا، فنحن نتحدث عن «ابن الإله» ("GOD STEPCHILD")، .... إله. وهناك حِكَم لا حصر لها، عند جميع الأمم، توضح فكرة الخالة الشريرة.

وفي دراستنا لنفسية الأمهات المتبنيات، تحدثنا عن آلية الرواية العائلية. وغالباً ما يعطي موقف التبني للطفل، فرصة ملائمة لإشراك النقد الذي يقيمه ضد أهله مع واقع موجود، في حين أن النقد نفسه، عندما يتعلق الأمر بالأبوين الحقيقيين، يوجهه نحو التخيلات. فكل ما يمكن أن يصدر في حياته من عدم رضى أو شعور بالمذلة، وجميع تحريضاته لمنافسة أحد أبويه أو أخوته وأخواته، وجميع رغباته في الترميم، وفي الثأر، وجميع الميول للاحتقار، يمكن لكل ذلك أن يكون مشبعاً بالتخيلات الوهمية للرواية العائلية. ولعل الشعور الذي يحسه الطفل بأن حاجاته للحب لا تلبيها أمه على نحو كافٍ، أو أن عدوانيته عادلة ومبررة، يعبَر عنه في هذه الفكرة: «أنا ابن زوجها» أو «هي لا تحبني، إنها خالتي».

تغذي أجمل حكايا الجن وحكايا أخرى للأطفال هذه التخيلات الوهمية التي تمس زوجة الأب. فالعلاقة بين الخالة وابن الزوج كانت، على نحو خاص، موضوع كثير من قصص الجن. وفي بعضها، تُدفع ابنة الزوج، التي عُذّبت لفترة طويلة، رويداً رويداً إلى اليأس وإلى الموت من قبل خالتها الشريرة الظالمة. وفي قصص أخرى، على البطلة التي عوملت معاملة سيئة أن تقوم بأكثر الأعمال خسة ووضاعة من أجل خالتها. ويكون غالباً الدافع لهذه المعاملة السيئة غيرة الخالة، كما يظهر موضوع الزنى بوضوح في كثير من القصص، عندما تتهم الخالة صراحة زوجها وابنتها بتغذية الواحد للآخر بمشاعر الزنى، وتسعى لجعل منافستها الجميلة، غير مؤذية، سواء بالحط من قدرها بعمل مقرف وذليل، أو بالتخلص منها بواسطة السحر. ومن الملاحظ أنه أحياناً، يكون تأثير هذا السحر الأسود في جعل الفتاة حامل بإطعامها ثمرة سحرية، مسممة، لدرجة أنها تستطيع إتهامها بعد ذلك بارتكاب المحرمات مع والدها. الإشراك بين الإخصاب والقتل، بين الحياة والموت، غالباً ما يبدو واضحاً جداً في قصص الخالات. وموضوع أكل التفاحة هو بشكل خاص موضوع مكرر لتمثيل الثنائية القطبية هذه. ويرمز بزر التفاح للإخصاب، كما يمثل الشكل الدائري

للثمرة، الأمومة[1]. وهناك المصير الذي لقيته الخالة الشريرة في قصة بلانش نيج، وفي التفاحة (رمز النهد) التي تبهج الفتاة الجميلة ابنة الزوج، تدس السم مكان الحليب الذي يعطي الحياة.

يظهر تفسير معظم هذه القصص، أنها تمثل التخيلات الوهمية لبنات الأزواج، اللواتي يشعرن أنفسهن مبعدات عن الخالات في علاقتهن بأبيهن. وفي هذه القصص الوهمية، تغتصب الأم الشريرة، بمكر وخداع، كل الحقوق والامتيازات التي تخص الفتاة. وفي معظم الحكايات، تخضع الفتاة أولاً لمعاملة مؤلمة جداً (نوع من العقاب الأولي)، إنما بعد ذلك تحقق أمانيها. وتعاقب المرأة الشريرة، بصورة عامة، بنفس القسوة التي أبدتها تجاه ابنة زوجها، في ما تتمتع هذه بالسعادة الكاملة. إنها تتحد مع والدها بحب وادع، أو تستمتع بحب عاطفي مع بديل للأب كـ (ملك أو أمير...إلخ).

لقد أدرك علم التحليل النفسي منذ زمن طويل، أن علاقات عاطفية قوية لاشعورية مع أم حقيقية تستهوي التعبير عن نفسها في هذه القصص. ويحوّل الإعداد المصطنع للقصة الأم «الشريرة» إلى خالة شريرة. ويستجيب انشطار شخصية الأم، إلى أم حنونة عزيزة (متوفية بشكل عام) وخالة شريرة مكروهة، إلى الآلية التي نراها تُمَثل في موضوع الساحرة. وفي حكايات هانسيل وغريتل، يمضي هذا الانشطار إلى درجة أبعد، حيث تصبح الخالة ساحرة ممعنة في الشر، وتستخدم كذلك في إسقاط كراهية الفتاة الصغيرة للأم الحقيقية. ومن الجدير بالذكر، أن التخيل الوهمي المرفوض للحمل يظهر في القصص بصورة ولادة سببها سحر الخالة الشريرة. وبهذه الطريقة يمكن أن تحقق الفتاة خيالها الوهمي دون شعور بالذنب.

تقدم قصص الجن، التي تطلق النشاط الخيالي للطفل، مخرجاً

(1) Rank O. : Inzestmotiv in Dichtung und Sage : Psychoanalytisch Bettrage sur Mythenforschung. Vienne: Internat. Psychoanal. Verlag,1922.

لتحريضاته اللاشعورية، وتجد موضوعية عندما تدخل خالة في حياته. يمكن عندئذ لإسقاط صراع الطفل أن يحصل بصورة مباشرة، إذ يملك أداة واقعية كافية.

وهكذا فالمرأة التي تأخذ دور الخالة تُحاط مباشرة بجو عدائي من قصص الجن. ويعلم الراشدون بشكل أوضح من الأولاد، أن الخالة ذات التأثير السيء هي من نتاج الخيال فقط. ومن المثير أن نرى بأي سهولة يؤمن الراشدون أنفسهم بقصة الخالة ذات التأثير السيء وأي احتراس وحذر يتخذون تجاه امرأة كهذه. وتتخذ حوادث صغيرة في حياة الطفل، والتي تحولت إلى صورة أخرى، دون أن يشعر بها أحد، أهمية خاصة عندما تُدمَج فيها الخالة. يميل أشخاص المحيط إلى الوقوف بجانب الطفل، ومنظر الطفل المعاقب يوحي بأنه «معذب»، ولدى أدنى إثارة، ينشرون اتهاماتهم ضد الخالة الشريرة، باندفاع وحنق. وتلاحقها السمعة الفظة الموجودة في قصص الجن، ويبين هذا تماماً أنه لو تجاوز الراشدون بعقلانية وذكاء مرحلة قصص الجن، فلن يختلفوا كثيراً عن الأولاد، المفعمين بالعواطف الأولية. وعندهم أيضاً، تحتفظ قصة الجن بواقعية نفسية معينة، مهيأة لتحيا من جديد في كل لحظة. وهكذا يمكن للخالة، بتعلقها بالطفل، أن تستميل حبه لها بصورة كاملة، إلى أن يحين اليوم الذي يجعل فيه الراشدون في العائلة، والأصدقاء، وخاصة الأطفال الآخرون، من ابن الزوج، أداة تنفيذية لعدوانيتهم الخاصة ويدفعونه للعدائية التالية: «إنها ليست أمك، ولا يمكنها أن تحبك»، أو «احذر من أن تتلقى أي شيء منها».

ويعيش الجوار في انتظار الخالة الشريرة هذه، ومهما كانت لطيفة يوجهون النداءات لرجال الشرطة لانقاذ الأطفال الذين تسيء معاملتهم، وغالباً ما يتبين أن في هذا مبالغة كبيرة، وأحياناً يستدعي طفل من عمر ما رجال الشرطة متهماً خالته بأشد وأسوأ القسوة. وهناك أحياناً عدم توافق غريب الشكل بين هذه الاتهامات والأفعال الحقيقية. ومثل هذا التصرف

ليس برهاناً على ميل خاص للكذب، ولا يتعلق بالضرورة بكراهية شديدة للخالة. فالشعور الذاتي بظلم الخالة يأتي من فكرة شعورية أو لاشعورية مفادها: «إنها ليست أمي الحقيقية»، وهذه الفكرة تضفي على كل فعل من أفعالها معنى قاسياً، كما هو الحال في أفعال الخالة الشريرة في قصص الجن.

الخالة نفسها، بموجب دوافعها الخاصة في مرحلة الطفولة، كان لها قديماً تخيل وهمي حول الخالة ذات التأثير السيء، متأثرة بموضوع قصص الجن. وعلاقتها مع أبناء وبنات زوجها قد تحتوي أيضاً على عوامل دينامية لعبت دورها في تخيلاتها الوهمية. لقد رأينا أن موقف المرأة تجاه أولادها الحقيقيين يتأثر تأثراً كبيراً بموقفها القديم تجاه أمها، ولنا الحق في أن نعتقد بأن جميع مشاعرها وقصصها الوهمية بموضوع الخالة مشمولة في موقفها الحقيقي من الخالة.

هناك فتيات صغيرات وشابات يعشن، في أنشطتهن الخيالية الشعورية واللاشعورية، بقسوة الأدوار الماسوشية للخالات، ويعطين درساً حراً لعدوانيتهن في لعب دور الخالة مع أخوتهن الصغار أو أخواتهن أو مع دميتهن. وهناك نساء راشدات يكشفن عن باقي مثل هذه التخيلات الوهمية في الحنان الكبير الذي يحملنه لأولادهن الحقيقيين، واللواتي يصرحن بافتخار: «ليس فيّ أي أثر للخالة الشريرة».

وهكذا، تصبح قصة الجن القديمة مشكلة بالنسبة للخالة، حيث أن الناس المحيطين بها، والطفل، وذكرياتها اللاشعورية الخاصة، مشبعون بهذه المواضيع البدائية المشتركة التي تنجبها قصص الجن. والنتيجة النهائية، أي مسألة أن تصبح المرأة أماً جيدة أو خالة شريرة، تتعلق ليس فقط بالتوجه النفسي للمرأة، إنما أيضاً بجو المحيط. ولا يجب على الخالة أن تعتبر كظاهرة منعزلة، علينا محاولة فهم نفسيتها من وجهة نظر العلاقات الموجودة بينها وبين باقي الأسرة، الأب والأولاد والأجداد والأم المتوفية... إلخ.

وغالباً ما يكون تطور موقف الخالة محدد مسبقاً، منذ البداية، باختيار الزوج. فهناك نساء بخضوعهن لضرورة داخلية، لا يوجهن اهتماماتهن وميولهن إلا نحو رجال ينتمون لنساء أخريات، وهناك نساء يفضلن زواج الأرامل أو الزوج المهجور. إننا نألف تماماً الدوافع التي تحثهن على مثل هذه الخيارات.

بالنسبة للدوافع المماثلة، تشعر بعض النساء أنفسهن منجذبات، بصورة خاصة، للرجال الذين عندهم أطفال أيتام من الأم. وتسعى كثير من هؤلاء النساء لأن يكن مسيطرات عند الرجال الأرامل الذين عندهم أولاد، وأعتقد، استناداً لملاحظاتي، أن سلوكهن محدد تحديداً عميقاً، وأن هناك حساب بسيط عملي، أو تعويض بسيط، لمسألة أنهن فقدن أي فرصة لإنجاب أطفال ينتمون لهن.

ونجد مثالاً للأكثر نمطية، في المرأة المنفّذة العدوانية التي تفعّل تخيلها الوهمي اللاشعوري لخالة، وتقوم بفرض النظام، بصورة مدهشة، في منزل بلا أم، وتهمّش الأب، وتجبر الأولاد على التبعية، بطريقة ماسوشية، لخالتهم «المباركة».

وتريد أخريات تحقيق موقف محدد، حيث تحس المرأة أن أولاد المرأة الأخرى ينتمون إليها، أو بالأحرى تهدىء بفاعلية شعوراً بالذنب: «أنا امرأة طيبة تكرس نفسها لأولاد امرأة أخرى». علاقة الرجل مع مربية كهذه، أو صديقة أفلاطونية، والتي تهتم، من أجل هذه الدوافع أو تلك بفاعلية وحنان بأولاده اليتامى، غالباً ما تقوده للزواج، ليس من أجل حاجاتها الغرامية، إنما في هذا الموقف، الزواج هو الطريقة المثلى للتكيف مع الواقع. وتلعب الأحاسيس الجنسية عادة هنا دوراً ثانوياً جداً. إنما لدى المرأة، خلف قناع الواجب، والصداقة، الروح الأمومية، تخفي رغبتها الغرامية التي تريدها الآن أن تتحقق. ثم تُحبَط عندما تتحقق رغبتها، وبدلاً من تخيلها الوهمي الواعد الذي أعطاها سابقاً، في علاقتها مع الأولاد، حرارتها ورعايتها الحنونة، نجد الآن ردة فعل بالحرمان، والأم المربية

المليئة بالطيبة تتحول إلى خالة شريرة. ويعتقد الناس المحيطين بها، بطريقة سطحية، أنها بعيدة النظر ومرائية، وأنها ليست أماً طيبة إلا لتتوصل إلى هدفها العملي.

في هذا الخصوص، لنلاحظ أن موقف الممرضة أو المربية التي يمكن أن تبذل كل روحها الأمومية لصالح الأولاد الذين عُهِدَ بهم إليها، تكون عادة ملائمة أكثر من الخالة. فدور الأولى، كان منذ البداية، دوراً تمثيلياً لا يدعي الحلول محل أي غائبة. وفي جهودها للفوز بمحبة الأولاد، لا نجد ميلاً للتقليل من شأن الأم لتستولي على مكانها، وهذا نشاط قوي تقوم به الخالة. وهكذا فالشعور بالذنب تجاه المرأة الأخرى أقل شدةً، وميل الطفل ليكون وفياً لأمه يعرضه لصعوبات أقل.

وبما أن هؤلاء البديلات للأم لا يطالبن بحب الرجل، أو يرفضن هذا المطلب، فإنهن لا ينافسن أولاده، وخاصة (ويبدو هذا عامل حاسم ومحدد لموقف الأولاد تجاههن) أن علاقتهن مع الأب ليست جنسية. لأن الطابع الجنسي للعلاقة هو الذي يطلق احتجاج وكراهية الأولاد من الجنسين تجاه خالتهم.

لعل نفسية الخالة التي تشمل الأولاد في حبها للرجل، تكون مختلفة. وعندما تمرر «التسميم» وتستبدله بالروتين اليومي للحياة الزوجية، تكتشف في نفسها كراهية متنامية تجاه أولاد المرأة الأخرى، وحتى غالباً قبل إدراك أن مشاعرها بردت تجاه زوجها. الخالة التي كانت في بادىء الأمر، حنونة ولطيفة، تصبح شريرة، ولا تختلف نفسيتها بالتأكيد عن نفسية الأم الحقيقية التي ترد كراهيتها لزوجها على أولادها، إنما الخالة، بسبب موقفها، فهي متكدرة بدور آخر.

يتحدد قدر أولاد زوج المرأة وأمومتها إلى حد كبير بطبيعة حبها لزوجها. وإذا سبق وهيمن المركب الوادع والأمومي، فستتجاوز المرأة بسهولة، بحنانها، تحريضات الخالة والتحريضات المطابقة لدى أولادها. وإن تنتمي إلى نمط المرأة التي تشتهي عشقياً، والتي تريد أن تُشتهى،

فستحدد درجة نرجسيتها قدرها باعتبارها خالة. وإذا شكلت النرجسية جزءاً أساسياً من شخصيتها، فإما سترفض مطلب الابن بالحب بدافع السأم، وإما ستجعل الأب غيوراً من حنانها للطفل. فالمرأة النرجسية، بحاجتها المستمرة لأن تُحَب، ستغوي الولد، وتستمتع لفترة بالإعجاب والعرفان بجميل زوجها، ومن ثم تدرك مشاعرها السلبية تجاه الولد، فتنبذه وتنهره، تماماً كخالة شريرة. ويمنعها حبها لذاتها من أن ترى الشر الذي فعلته.

لدى نمط نرجسي آخر للمرأة، تكون رغبتها في جعل أناها مركزاً لحياة ابن زوجها، وأن يحبها ويعجب بها، الشرط الذي تفرضه لتكون خالة طيبة. وهي تريد اعتبارها كالذي ينقذ الطفل، وليس كمتطفلة دخيلة. وتتعلق إمكانيتها في الروح الأمومية بالمقياس الذي يمكنها فيه نقل نرجسيتها من فكرة «ثمرة جسدها» إلى فكرة أنها «أنقذت» الطفل. ولكي تُحَب، عليها الإغواء، إنما رغم جهودها للحصول على محبة أولاد زوجها، لا تستطيع روحها الأمومية أن تمتلك نفس التأثيرات في ما لو كانت أماً حقيقية. ويحس الأولاد أنها تريد نيل إعجابهم، ويحسون بذلك وكأنه شيء ما غريب.

وإن استوحت خيارها العشقي من صورة والدها، وإن جذبتها نحو زوجها حالة الترمّل وعلاقته الأبوية بأولاده، فسيكون موقفها الخاص محدداً بعلاقتها القديمة مع أبيها. ودور الأخت البكر ليس سيئاً، وقد لاحظت خالات سعيدات جداً، ونجحن في تربية أولاد زوجهن، عندما امتلكن ما يكفي من الأمومة لتكن متحررات من أي منافسة أخوية.

لقد لاحظت كذلك حالة كان تحديدها مختلفاً، والتي لم تكن بلا شك إلا حالة ككثير غيرها. فتاة شابة في الثالثة والعشرين من عمرها، طفولية جداً بشكل عاطفي، ذهبت بزيارة مع صديقاتها عند أرمل كان أباً لعدة أطفال لازالوا صغاراً. وسرعان ما أصبحت عشيقته. لقد أدركت أن الجاذبية التي تجدها به تستند قبل أي شيء، على موقفها اللطيف والمتفهم تجاه أولاده، لكنها لم تدرك أن الدافع الحاسم في اختيارها يكمن في

الإيمان بأنها وجدت في هذا الرجل ملامح من أمها الحقيقية. وكانت متعلقة جداً بأمها، وبما أنها لم تستطع تحمل منافسة أخواتها وإخوتها الشبان، ففضلت منذ سنتها الثانية عشرة، أن تعيش عند عمة ليس عندها أولاد، في جو أقل توتراً.

وبعد زواجها، وجدت نفسها مرة أخرى بين أخوة وأخوات صغار، وكانت علاقتها مع أولاد زوجها، الجواب القاطع لموقفها القديم. في بادئ الأمر، كانت بديلة أمومية مفعمة بالمحبة والسلطة، ثم تحول سلوكها إلى أقصى حد معاكس. فقد سئمت من الأطفال، وأصبحت نافذة الصبر معهم، ولم تعد تشعر نفسها حرّة، وكبرت المنافسة على حب الرجل الأمومي بينها وبين الأولاد، فأصبحت خالة شريرة، وبنهاية الأمر أصابها إحباط، وأحست أنها تفسد حياتها طالما أنها لم تتوصل، كما أدركت خلال العلاج، إلى الخروج من موقفها كفتاة صغيرة، والتي لعبت به في هذا الزواج دور الخالة الشريرة. ويبدو أن ترحيل العلاقة القديمة مع الأب على الزوج، يخلق بالنسبة لهذه الأمومة الخاصة، شروطاً أكثر ملاءمة من الترحيل الأكثر طفولية لعلاقة أمومية قديمة. وكما رأينا، تتطلب الأمومة دوماً درجة معينة من النضج، وينطبق هذا بصورة خاصة حالة الخالة.

يؤثر عمر وجنس أولاد الزوج تأثيراً كبيراً على ردود الفعل النفسية للخالة. وإن أخذت خالة ما طفلاً على عاتقها قبل أن تستطيع تحقيق صلة وثيقة مع أمه الحقيقية. وإن خلقت المثلث العائلي قبل أن تترك فيه الأم الحقيقية سمة خاصة، فتتعرض رغبتها للحصول على أمومة صادقة لفأل سعيد، نظراً لأنها قاربت الموقف من روح أمومية كافية.

شرط آخر أيضاً يجب تغطيته، فعلى المرأة أن تتحرر بصورة كافية، من مشاعر الذنب في اللحظة التي تصبح فيها أماً لولد من امرأة أخرى. وفي علاقتها مع هذا الولد، لم تعرف المؤثرات المطهِّرة للألم، والموقف في نفسها خاص جداً لتنمية مشاعرها بالذنب، وخاصة إذا كانت الأم الحقيقية للولد متوفية.

حدث أن لاحظت زواج أرمل من صديقة زوجته، التي توفيت من فترة قريبة بعد أن أنجبت طفلاً. وقد تزوجت المرأة الجديدة برغبة إنقاذ هذا الطفل الذي أصبح بلا أم، ولتحل محل تلك التي كانت صديقتها. وعندما لاحظت أنها تحب زوجها وأن هذا الزواج لبى أيضاً أمنياتها الغرامية، وقعت في حالة قلق ورفضت لفترة طويلة إقامة علاقة مع زوجها. كما لم تستطع أن تصبح خالة طيبة إلا بشرط تحررها من أي شعور بالذنب.

امرأة أخرى مُحبة وأمومية، أصبحت خالة سلبية وشريرة لأنها لم ترض استيعاب دور الأم في بيت زوجها إلا إذا أُقصيت الزوجة الأولى تماماً من جوّها العاطفي. يمكن لهذا الشرط أن يأتي عند بعض النساء، من شعور شاق بالذنب، وعند أخريات من غيرة من الزوجة الراحلة. ويمكن للصور الفوتوغرافية والأدوات الشخصية لهذه الزوجة المتوفية ألا تكون محتملة وتُعامل بلا احترام، أو بالأحرى تثير رؤيتها حقداً مستمراً. وغالباً ما تسعى الخالة لطرد المرأة الأخرى بطريقة سابقة لأوانها، قبل أن يتمكن أفراد العائلة من تقبل الأمر احتراماً للمرحومة، وهكذا يُخلق جو مملوء بالنقمة والاستياء. وفي حالات أخرى، يمنع حضور الأولاد المرأة من طي صفحة الزواج الأولى لزوجها، وتصبح خالة لا تطاق ومزدرية وشريرة.

لقد لاحظت امرأة تعرضت لحالة عصابية مزمنة، في أعقاب جهود قامت بها لتفرط في تعويض موقف مماثل. وكانت تشرك بحيوية بين الجهود المبذولة لكي تحافظ بشكل ورع على ذكرى المرحومة، وتجمع وترتب جميع الأدوات المرتبطة بهذه الذكرى، إنما في الوقت نفسه تكره أن تبقيها موروثة لزوجها، وقد سعت عبثاً، خلال سنوات، للبحث عن إقامة أخرى. وكانت خالة ممتازة، إنما حولت بيتها كحرم مقدس للراحلة، وكان ذلك لدرجة أن الأولاد لا يستطيعون اللعب فيه بصخب، كما لا يستطيعون آجلاً القيام فيه بأي نشاط اجتماعي، بحيث كانت تنتقم منهم بصورة لاشعورية، الأمر الذي جعلهم يعتبرونها أماً أخرى.

تهدف الخالة واقعياً ليس فقط لكسب محبة الأولاد، إنما أيضاً

لرضاهم العاطفي عن علاقتها مع والدهم. وبشكل آخر، يمكن لهذه العلاقة أن تتخذ طابع فعل ممنوع، حيث يساعد رضى الأولاد الخالة على الانفكاك من مشاعرها بالذنب والحصول على السلام الداخلي. وعليها من أجل ذلك أن تقوم بتضحية للأولاد، بحيث عليها تقبل مشاركتهم بحب زوجها. وتستقر هذه الموافقة أحياناً منذ البداية، وفي مرات أخرى تترسخ رويداً رويداً وتبقى موضوع تنوع. وليس جميع الخالات جديرات بالكفاح الهادئ من أجل موقفهن يوماً بعد يوم. فالخالات اللواتي لديهن استعداد هستيري مسبق، وعواطفهن مفرطة، ويظهرن بحماس محبة أولاد أزواجهن، سرعان ما يشعرن أنفسهن محبطات في أحلامهن، وخائبات بسبب الموقف الحذر لهؤلاء، فيسحبن عرض المحبة الذي تقدمن به ويصبحن سلبيات في علاقتهن.

ويمكن لامرأة من نمط هاجسي عصابي، أن تتصور مثالية كاملة من الناحية الموضوعية في التربية، وتظهر إزاء الأولاد نوعاً من عدم الإكتراث باعث على الأمل، يخلي المكان لموقف أكثر عاطفية، عندما تتضح أهلية الأولاد، حسب رأيها، لحبها الأمومي.

والجدير بالذكر، أن الخالات تعاني بشكل عام من صعوبة في كسب عاطفة أولاد أزواجهن. وغالباً ما يكون لهؤلاء موقف عدائي. إنهم يقاومون بغضب ومرارة وخبث مكتوم، تطفل الغريبة، وكلما طلبت منهم الخالة شيئاً ما، يشعرون أنفسهم مستغلين ومزاحين من مكانهم.

وإذا اختطف الموت من الولد أمه، فغالباً ما يشعر مكرهاً بالذنب في أن يظل وفياً لها، ويكره الخالة التي تبتسم له، لأنها تعرّض وفاءه للخطر. ومن ناحية أخرى، تخلق الأم التي لا زالت حية، ولها ارتباطات عاطفية وثيقة مع ابنها، حتى أكثر من الأم المتوفية، شروطاً غير ملائمة في التحول نحو الخالة. وكيف لطفل أن يثق بغريبة، في الوقت الذي خانته أمه الحقيقية فيه؟

هناك أيضاً عوامل هامة مثل عمر أولاد الزوج ودرجة نموهم، فلدى الصغار الذين لازالوا بحاجة كبيرة للحماية الأمومية، من الأسهل بالتأكيد تجاوز القوى السلبية بواسطة الحنان. وإذا ما سبق للأولاد أن كانوا مستقلين، فغالباً ما يحاولون الهيمنة على خالتهم، وإذلالها، وإطفاء تحريضاتهم العدوانية بها. وإذا كان لها ميول ماسوشية، فستلقى التحريضات السادية للولد قوة جديدة وستنمو بإطراد. وغالباً ما يعزز الإغواء النشيط للخالة الإنطباع الذي يملكه الطفل بأنه خُدع، واقتناعه بحقه برعاية خاصة. وإن لم يتلق هذه الرعاية، فيتخذ بإرادته موقفاً عدائياً إزاء الأم التي يقاومها. يكون الأولاد اليتامى عموماً محبوبين ومدللين من الأصدقاء والأهل، وتتعزز بذلك متطلباتهم النرجسية. ويكون موقفهم العاطفي من الواقع، الذي يمكن أن يقيّد متطلباتهم بالتدريج، ممتلئاً بالخيبة والكراهية. وبما أن الخالة تجسد هذا التقييد، فينتج عنه أن يُنظر لها كممقوتة.

إن تجاوز عقدة أوديب الطفولية إزاء الخالة أصعب من تجاوزها إزاء الأم الحقيقية. وقد يكون من السهل أكثر أن تتحمل الفتاة الصغيرة، التخلي عن حميمية الأب عندما لا يراعي وجود الأم المنافسة نشاط خيالها. فعندما ترى في الخالة منافسة جديدة، فإنها تشعر أن والدها قد خانها وتخلى عنها. قصص الجن تحيا من جديد، وترى الفتاة نفسها مثل ساندريون، وسلوكها المثير غالباً ما يدفع الخالة ذات النية الحسنة لأن تلعب دور الخالة الشريرة. أو على العكس تأخذ حالة عدوانية منذ بداية وضعها التقليدي كزوجة أب في أن تعاقب وتنهي وتقمع. ومن البديهي أن يتعزز موقف ساندريون هذا خلال مرحلة البلوغ. فالخالة التي تدخل إلى العائلة عندما تجتاز الفتاة الصغيرة مرحلة جنسية مثلية منضبطة ومتسامية، وتبحث عن أداة أنثوية تندمج فيها، تجد هنا، إن لم تنقصها الرقة والمكر، أفضل الظروف لتقيم علاقة مرضية ومثمرة مع ابنة زوجها. الغربة التي تحس بها فتاة بالغة تجاه خالتها التي نبذتها دون مراعاة، يكون دافعاً مألوفاً كتمرد وحقد عدواني لدى هذه الفتاة، أكثر من المنافسة على الأب. فعلى الخالة

أن تتجاوز تحريضاتها الخاصة المثلية الجنسية، لتكون قادرة على ضبط هبات المحبة العنيفة لابنة زوجها دون أن تسبب لها ألماً ما.

ولدى الفتى الشاب، يكون الموقف الأوديبي، في صيغة الطفولية الساذجة الغريزية أكثر حدة أيضاً وأكثر خطورة، عندما يتعلق بالخالة، منه عندما يتجه إلى الأم الحقيقية. فالمحبة الحانية التي يصوغها الصبي الصغير بالنسبة لأهله منذ بداية حياته، تساعده على السيطرة على صعوبات الموقف الأوديبي، إنما هذا لا يصح مطلقاً حينما تدخل خالة بعد ذلك على العائلة. لعل المنافسة للامتلاك الحصري للأم حادة جداً إذا اقترب الطفل من مرحلة البلوغ، وتصبح عقدة أوديب صراع دون كارلوس، حيث الأب والابن يتحديان بعضهما كخصمين، للفوز بمحبة المرأة التي تخص الأب والتي ليست الأم الحقيقية للابن.

هذا الصراع نجده ثانية في نفس الخالة حيث يتعلق سلوكها النفسي إلى حد كبير بحكم أنها تمكنت من الدخول في دائرة عائلية كمدبرة بيت أو كمربية أطفال، سلطة عهد بها إليها الأب لتسهر على ابنه، وتصبح بعد ذلك الخالة أو على العكس الخالة الشابة، إنها أداة الحب الجديدة للأب الذي صحبها من الخارج، وفي الحالة الأولى، غالباً ما تخون المرأة منذ البداية إلى حد ما، الأب لصالح الابن بنصرته في خلافاته مع أبيه يمكن لهذا التفهم الحنون أن يثير لدى الطفل شعوراً أن الأب قد خُدع، وهذا الشعور يكون من ضمن الجاذبية القوية التي يحس بها للمربية أو مدبرة المنزل. إنما إذا تبدل دور المرأة في البيت، وأصبحت الأداة الجنسية الجديدة للأب، فالموقف السابق، الذي أُلجم الآن، قد يهيج الصراع النفسي بشدة. فليس فقط العلاقة مع الأب التي شابها الجنس إنما الموقف كله، ويضطرب الحنان الموجود بين الخالة وابن الزوج بمساهمة جنسية. ويعتمد الابن الآن لاشعورياً على التحالف الذي انتفع منه إلى ذلك الحين مع خالته ضد أبيه، ويبدأ في كره هذه المرأة التي خانته. وبالنسبة للخالة، تصبح العلاقة البريئة القديمة محرمة، وفي موقف الدفاع عن النفس، ترتد بمشاعر سلبية نحو

كراهية الابن. ومن جديد، تتحول البديلة المحبوبة عن الأم إلى الخالة الشريرة.

وفي بعض الحالات، الروح الأمومية المشوبة بالجنس تكسب الجولة، وتستسلم الخالة للإغراء، بسبب الألم العشقي لابن زوجها المحبوب بحنان. وقد تكافح بكل طاقتها ضد رغبة غرامية عارمة، لكنها بتأثرها بشعورها الأمومي، تشعر نفسها مرغمة تقريباً لتخمد هوى الولد الذي تعزه، وهي تعطي لنفسها الحق في تحقيق تخيلها الوهمي الطفولي. ويمكن للحرم أن ينتهك ويُخرق بهذا الغدر. إن هذا الصبي، بنهاية الأمر، ليس ابنها الحقيقي، وبالنتيجة، لعبت الخالة الطيبة في حياة العائلة، دور الساحرة الشريرة الخائنة المضللة وغير الأمومية.

غالباً ما سنحت لي فرصة ملاحظة مواقف دون كارلوس، حيث تعزى بكل تأكيد، الجاذبية التي مارستها الخالة فقط لموضوع أنها زوجة الأب. وبلا ريب، يجتذب الحرام ابن الزوج بصورة لاشعورية، لكن فارق السن بين الخالة والأب يبدو له يزيل عن هذه المرأة طابع الأم و يساعده على التنصل من الموقف الأوديبي. وبالنسبة للمرأة، ليس للموقف شيئ مشترك مع الأمومة، حيث شاب ورجل يتصارعان على حبها، وتصبح كلمة خالة بكل بساطة ليس لها معنى.

ورغم السمعة السيئة للخالات، فالطيبات منهن لسن بأقل من الأمهات الطيبات، ويمكن للمرأة الأنثوية أن تتغلب بواسطة حدسها على أصعب موقف تمر به الخالة. إنها تحس أن الأمر الأهم في الحياة العاطفية والتخيلية للطفل، هو في إعادة ترسيخ الوحدة الأبوية التي حطمها رحيل الأم.

إنما على اعتبار أن الخالة هي مجرد زوجة للأب، أو أسوأ من ذلك، أداته الجنسية، فالمرأة التي تنام قربه، ستبقى الخالة الشريرة.

وبفضل الوحدة الأبوية الراسخة بسعادة، يمكن للولد أو الأولاد أن

يجري قبولهم، كأعضاء حقيقين للأسرة. إنهم ليسوا محرومين بسبب الطابع الشكلي الصرف الذي مكّن من هذا التقبل. ومن الأسهل طبعاً، إرساء هذه العلاقة إذا ارتكز الأمن العائلي للطفل على مرحلة مسبقة من حياته، في حين أن الخالة لها كل فرص الأم الحقيقية، كشخصية اجتماعية معينة، تنمو بعد ذلك عند الطفل بحيث يكون التكيف المتبادل ضروري. وإذا لم تكن الخالة جديرة بالتكيف مع الولد، فإن نواياها الحميدة ستفشل. وهذا على الأخص حالة النساء اللواتي لهن طابع صارم وصلب، ومرسخ بصيغة منمذجة، غير قابلة للتقولب، وبلا حدس. ستوضح هذه النقطة بالقصة التالية:

تقدم السيد والسيدة كوين معاً إلى وكالة اجتماعية، يطلبان النصح والمساعدة بشأن تربية ابنهما دافيد، البالغ من العمر عشر سنوات، وقد وُلد من الزواج الأول للسيد كوين. وكان الأب مطلّقاً منذ عدة سنوات عندما تزوج للمرة الثانية، وكان ذلك قبل سنتين من هذه الزيارة للوكالة. أما السيدة كوين، الخالة، فقد اهتمت بدافيد بحس نموذجي بالواجب، وكانت أيضاً معه، لطيفة وصاحبة ضمير كما لو أنه ابنها الحقيقي، ولم تشعر بنفسها مطلقاً مسؤولة عن مصاعبه. وقد استطاعت الوكالة التحقق الدقيق من تصريحات الأهل.

وقال الأب، إن الموقف وصل لدرجة من الحرج، بحيث اعتبر الجميع أن سوء التفاهم الشديد بين الولد وخالته، يجعل من غير المعقول بقاء دافيد في البيت. كان الولد يسرق ويكذب وغير لطيف ومتمرد. وعند السؤال حول تفاصيل السرقات، قال الأب أن أهم سرقة يعلم أن الطفل فيها مذنباً، هي مبلغ ستة دولارات. وكان يسرق من خالته أو من أهلها. أما الحدث الذي كان بمثابة النقطة التي فاض بها الكأس، فقد حصل منذ عدة أيام فقط، حيث سرق الولد دولاراً من أخت خالته. وعلم الأهل بالأمر من التاجر الذي لاحظ نفقات دافيد، لكن حينما سئِل الولد عن الموضوع، أنكر حتى أمام التاجر. ولم يكن مدهشاً ألا يعترف الولد بإساءته أبداً، حتى

عندما تلقى البراهين الأكيدة. وما يحصل، بمحض إرادته، أن يشتري السكاكر بالمال المسروق، ويعطيه بعد ذلك لأولاد آخرين. وكانت تحدث هذه الاختلاسات مرحلياً منذ أن أخذاه إلى بيتهما، في فترة زواجهما. وأحياناً كان يظل أسابيع بلا سرقة فيعتقدون أنهم تجاوز هذه العادة، ثم يحطم آمالهم في تكرار الجرم.

لقد كان موقف الفتى الصغير في البيت على الشكل التالي: انفصل والداه عندما كان عمره سنتان، ومن تلك الفترة لغاية زواج والده، كان قد عاش في مدينة مجاورة مع جديه من طرف أبيه. ولما سألت المساعدة الاجتماعية إذا سرق الطفل في بيت جديه، قال الأب إنهما لم يصدّقا أنه سارق، إنما، نقلاً عن رأي الخالة، أن ذلك لأن الجدة لم تكن تنتبه لما تملك، ولا شك أنها لم تلاحظه عندما كان يسرق منها شيئاً ما .

كانت المعلومات المتعلقة بأكاذيب دافيد هي التالية: أخذه والده ذات يوم عند طبيب الأسنان. ولدى عودته، قال الولد للجيران أنهما قد زارا المطار، وما كان خطأ أيضاً، أن الولد والابن تكلما عن الذهاب إليه. مثال آخر، كان الولد قد ذكر أن والده كان قائداً لفصيل من رجال الإطفاء، بينما واقعياً لم يكن فيه إلا متطوعاً.

وذكرت الخالة أن الطفل، بسرقاته وأكاذيبه، وضعها في حالة لا تعلم فيها ماذا تفعل. ففي زواجها من والده، كانت لها أفضل النوايا تجاه الفتى، لكنه جعل لهما أي تفاهم مستحيل. وعندما سئلت ما إذا كان الولد عاطفياً، أجابت أنه كان كذلك في بعض الأحيان معها، والعاطفة التي كان يكنها لابنها الصغير، البالغ من العمر عاماً واحداً، كبيرة جداً، وكان معه لطيفاً إلى أبعد حد. ولم يشتكيا من هذه النقطة.

كان الأب ابناً وحيداً لعائلة من ستة أولاد. وقد دعوه يفعل ما يشاء، ولم يُفرض عليه أي نظام. فأحس أن على ابنه أن ينشأ بصورة أخرى. في ما كان زواجه مع أم دافيد تعيساً، حيث لم تخلص له، وكما ذكر لنا

سابقاً، أنهما انفصلا عندما كان عمر دافيد سنتين. وخلال فترة، ظلت أمه على صلة معه، إنما الفرص أصبحت نادرة أكثر فأكثر، ولم تعد تراه منذ السنتين الأخيرتين. وترك هو نفسه تربية دافيد كلياً لجدّيه، ولم يعد ينشغل بأمره قط. وهو الآن يوجه اللوم لنفسه على ذلك. وبدا أن الأب أقام صلة مع الولد من باب الواجب. وأعطى انطباعاً أن علاقته مع زوجته كانت ودية ومنسجمة. وكانا، بصورة واضحة، مضطربين جداً لسلوك دافيد، ورغبا وضعه في نزل. ولم يعرفا إلى أين يأخذانه، وكما تبين، أن رغباتهما قد تكدرت من باب شعورهما بالواجب.

كانت الخالة ابنة رجل دين. قدم أهلها من روسيا، وهي نفسها وُلدت هناك. وعندها أخ أكبر منها أصبح يمتهن مثل أبيه. وتلقت مع أخيها تربية صارمة جداً. حيث كانت مبادىء الأم قاسية وتفرض أخلاقيات كثيزة على ولديها، وكان عليهما الطاعة بدون نقاش. في ما الأب كان متديناً جداً، وأكثر لطفاً، وتسيطر الأم عليه كلياً، كما تحكم البيت كله. وقد أكد السيد كوين انطباع المساعِدة الاجتماعية، حيث أخضعت زوجته دافيد إلى قواعد صارمة عديدة، وكانت سيدة المنزل وشديدة الدِّقة لدرجة مفرطة. وأرادت كل شيء بنظافة مطلقة، واستخدمت كل طاقتها للحفاظ على منزلها بهذه الحالة. ولم يعتقد أنها غيرت الشيء الكثير، إنما يدرك أن الموقف كان شاقاً لدافيد بصورة خاصة.

كانت حياة دافيد عند جدّيه سهلة دوماً. كان بإمكانه الذهاب والعودة على هواه، ويأتي إلى وجبات الطعام في أي ساعة كانت. في ما جدته ربة منزل متسامحة بما فيه الكفاية، وكان الناس في البيت ينامون أينما كان، والأسرّة غير مرتبة، والبيت في حالة فوضى معظم الوقت، لكنهم يشعرون فيه بالراحة ويخيم عليه جو من اللطف لم يعد يحس به الطفل الآن. كما ينبغي الإلحاح على مسألة أن دافيد، كان متعلقاً بمقيم في نزل أصبح بشكل واضح، بالنسبة له، بديلاً عن أبيه، وهو متفان ونشيط.

كانت إحدى شكاوى الخالة على دافيد، رفضه مساعدتها بصورة كافية

في أعمال البيت. فالسيدة كوين لا تستطيع تحمل رؤية الأطباق متسخة في المطبخ، ولا أواني الطعام على المنصب. إنها تحبذ جلي الأطباق وتنشيفها مباشرة بعد الطعام. وتعترف أنها تجد هنا كثيراً من الارتباك، فلديها مبادئ صارمة جداً، وتجد نفسها يائسة بشكل رهيب إن لم ترَ كل شيء في مكانه.

وقد أبدى دافيد إرادة سيئة في طاعتها، واشتكى من القيام بالجلي ثلاث مرات في اليوم، واعتبر أن هذا العمل مخجل له كصبي: «يريدون أن يجعلوا مني فتاة، فالجلي هو عمل الفتيات فقط».

لم تتنازل أو تتراجع السيدة كوين بما يخص أعمال البيت هذه، وبالطبع راح الطفل يجلي بصورة إرادية أكثر، عندما قام بذلك مع والده.

هناك شكاوى أخرى على دافيد، تتعلق بألاعيبه الجنسية الممنوعة مع أولاد الجوار. وعندما ضبط بها بالجرم المشهود، أبدى ندماً كبيراً. وأخذ يبكي، وبدا متكدراً بصورة مطلقة. وكانت السيدة كوين متضايقة نفسياً لأبعد حد من كل ذلك الموقف. فهي لم تكن تعلم أن الأطفال يقومون بأشياء كهذه، فهي بالتأكيد لم تتصرف هكذا عندما كانت طفلة.

ولم يكن عندها أي تساهل لما يخص إساءات دافيد هذه، إنها الأكثر تفاهة، وربما اعتبرتها كجرائم خطيرة. وقد صرحت أنها لم تحتك أبداً بالأطفال قبل زواجها من السيد كوين، وقد أخذت ذات يوم ابن صديقتها في عربته الصغيرة للقيام بنزهة، فانقلبت العربة، ومنذ ذلك الحين لم تعد تهتم بالأطفال مطلقاً. وكانت قد بدأت تعمل وهي في السنة التاسعة عشرة من عمرها وظلت محاسبة في محل تجاري لمدة اثنتي عشرة سنة. وكان وجهها يوحي بالعذوبة والإشراق عندما جعلت تتحدث عن سهراتها. وكانت تحضر محاضرات وندوات وتقرأ الكتب العلمية. وكان قاسياً عليها أن تتزوج وتستقر، وخاصة أن تدير منزل، لأنها لم تقم بذلك سابقاً أبداً. وقد حافظت على عملها إلى أن أصبحت حاملاً، وجاء عندئذ دافيد للعيش معهم. كان حملها صعباً، وأضجرها كثيراً، ثم مرض الطفل...إلخ، في ما هيئتها لا تنم عن أي مؤشر لأمومة سعيدة.

كانت مستعدة كلياً لتلقي تفسيرات نفسية حول سلوك دافيد، وأدركت هذه التفسيرات، وعزمت على اتباع النصيحة التي أعطيت لها. إنما بلا شك كان هذا التحسن مؤقتاً، ومن جهة أخرى كان سلوك دافيد أيضاً موضوع تبدل. ثم ما لبث أن عاد ثانية لعيوبه. لقد طرح هذا الطفل الساحر والذكي، رويداً رويداً، مشكلة حقيقية. حيث أصبح قاسياً وعدوانياً أكثر، ويعارض بكل قوته كل ما يجعل منه «فتاة»، ولا يزول توتره إلا عندما يكون الحديث عن أمه الحقيقية.

كان عند السيدة كوين انطباعاً أنه يفكر بأمه أكثر مما يُعتقد، واستناداً لأقوال الأب، بيّن دافيد بوضوح أنه في حالة حنين لأمه. وبدا ذلك، شيئاً فشيئاً، في مجرى المحادثات، أنه يضع في نفسه صورة مثالية لأمه ويتعلق بها. وكان يخاف من خالته علناً، كما يبدو أبوه خجولاً أمامها أكثر منه، ولم يتجرأ على التحالف ضدها.

ومن المرجح تماماً أن السيدة كوين تزوجت بنية صادقة في أن تصبح خالة طيبة، وتعامل دافيد كإبن حقيقي لها. إنما فرضت شرطاً أن يكون الولد ملبياً ومتجاوباً، إذ أرادت أن يتكيف مع طريقتها في الحياة، في ما كان الأمر غريباً بالنسبة إليه، حيث تكونت السيدة كوين على صورة أمه، حرفية صارمة وباردة كما قال زوجها تماماً، إنها لا تستطيع التبدل على الإطلاق. لكن دافيد بعدم استطاعته التكيف مع النظام الصارم، الهاجسي العصابي الذي يهيمن على المنزل، أصبح غريباً، وابن زوج، وعليه الرحيل.

أما ابن السيدة كوين الحقيقي، فهو يملك الوقت لإمكانية التكيف منذ بداية وجوده مع نمط حياة أمه، والتي كانت أقل تساهلاً معه من دافيد. فقد ترعرع، على نحو أو آخر، بالاحتكاك مع صلابتها الآمرة. لكن دافيد قادم من عالم آخر، كانت تتطلب حياته العاطفية أن يواصل جو بيت جدته، وكان بحاجة لخالة أنثوية، حدسية، تدرك، دون مواجهة عقلانية للموقف، أن دافيد يحتاج قبل أي شيء أن يكون مع والده، وأنه يخشى من سلبيتها

الخاصة، وأنه ما لم يُعط إمكانية الاندماج مع أب ذكوري، سيصبح صبياً لا يُطاق، وحتى في بعض الظروف، كائناً اجتماعياً. أو قد يهرب من الجو غير العاطفي لأمه الجديدة نحو خيال أمه الحقيقية التي بالكاد أن تكون واقعية، وصعبة المنال، وسببت له عصاباً.

ومن المهم أن نذكر أن دافيد شعر بالحنين لأمه، بطريقة واعية ومباشرة، بحيث لاحظ ذلك الأشخاص المحيطين به.

«عندما يأخذ الرب أم أحد ما، يأخذ له أباه أيضاً»[1] كان دافيد قد حاول تجاوز صدمته الثانية، الإهمال الفظ من والده، بصداقته مع النزيل. والآن أصبح والده عنده من جديد، ويطلب أن يكون معه بإصرار وبصورة فعلية. وقد عبر عن احتجاجه على إخفاقه بالوسائل غير المباشرة. كان يكذب ليجعل الآخرين يعتقدون أن والده كان ذا شأن كبير، وقد صحبه، بنوع من التحالف بين رجلين، إلى أماكن هامة ومثيرة. وبما أن أولاد الجيران لم يبدُ عليهم تصديق تبجحاته، فقد حاول إغواءهم، إن صح القول، بشراء السكاكر لهم بالنقود التي سرقها من خالته، وبذلك، استعاد، بصورة غير مباشرة، ما سلبته منه، وهو حب والده.

أصبحت السيدة كوين الطيبة، رغم نواياها الممتازة، خالة شريرة، لأنها بهوسها بالنظام والنظافة وقلبها غير الأمومي، كانت عاجزة عن التعاطف مع حاجات ورغبات دافيد.

ولو كان دافيد فتاة، لكان مهدداً بخطر أكبر أيضاً لأنه غالباً غير قابل للانعكاس. وأمام أعمال الجلي المحزنة، والاحتجاج ضد الخالة بالحقد على الوالد، والعض على التفاحة المسمومة للغيرة المتبادلة، لو تعرضت له فتاة لهربت من البيت. وملجأها الأقرب لم يكن تابوت بلانش نيج الزجاجي، إنما غرفة قذرة في فندق مشبوه، وحب والدها الضائع لا يعيده لها الأمير

(1) Proverbe lapon , cité dans Ploss and Bartels : Op. cit.

شارمان، إنما واحد من هؤلاء البحارة الذين ينتظرون الفتيات الصغيرات في الحانات المختلفة. فالفتيات الشابات اللواتي يعشن مثل هذه المواقف لسن جميعهن جميلات، إنما الكثير منهن يتهمن أمهاتهن بالجفاء والقسوة، ويستخدمن عبارة «الخالة الشريرة» لإطلاق اسم على الحرمان اللاشعوري.

كان صراع دافيد مع خالته (كغيره من الفتيان الذين يتعرضون لمواقف مشابهة) دون شك مسموماً بولادة الطفل الجديد. ويظن أولاد الزوج بحق، أن خالتهم تفضل أولادها الحقيقيين. إننا نعلم الإهانة العنيفة التي تعرض لها الولد في قدوم طفل جديد، وكم من الغيرة والمرارة ترافق هذه الولادة.

في ظروف عائلية عادية، نتوقع من الطفل أن يتجاوز ردود الفعل هذه. وتعتقد الخالة الطيبة أحياناً أن عليها الرضى بالتضحية، والتخلي عن إنجاب أولاد لها لتتمكن من تكريس رعايتها كلها لابن الزوج. تلك التضحية الأساسية أيضاً، التي تظهرها أعماق روح المرأة، لا تحمل عموماً ثماراً طيبة. وتطلب الخالة الطيبة بصورة لاشعورية تعويضاً من زوجها وأولاده، وبالنظر لأن متطلباتها الشديدة لا تكون مشبعة، فترد إخفاقها على أولاد زوجها وتصبح خالة شريرة. نحن نعرف بواسطة التجربة أن جميع الجهود التي تبذلها لتظل طيبة في هذه الظروف، تكون بلا تأثير.

لعل المهمة النفسية للخالة أكثر تعقيداً، عندما تجلب معها، إلى بيتها الجديد، أولاداً من الزواج الأول. وفي كوكبة عائلية معقدة أيضاً، تبدو علاقة الأهل التي تحدد مخرجاً للعديد من الصراعات الممكنة. فطفل غير شرعي، بشكل خاص، يرى نفسه مرتهناً بعد زواج أمه اللاحق، لزوج أمه وأخوته وأخواته من أمه، يشكل مشكلة صعبة لأمه. وفي ظروف مالية سيئة، تنتقل الصراعات النفسية إلى صعيد اقتصادي واقعي فاحش. ويجد زوج الأم نفسه مكلفاً بإعالة ابن رجل آخر، ذلك العبء الذي يجعله يربط به كل مشاعره العدائية ضد الولد، والخالة تهاجم أولاد زوجها للدفاع عن ابنها. وفي ظروف اجتماعية أكثر ملاءمة، تشير الصراعات بوضوح أكثر لطبيعتها النفسية، حيث يحس الأب باحتقار وغيرة لابن زوجته الذي لم ينجبه هو،

ولا يتغاضى عن مظاهر عقدته الأوديبية. وترقب الأم مشاعر الزوج تجاه ابنتها، وغالباً ما يخفي اللوم العاطفي «أنه لا يحبها كما يحب أولاده» خوفاً لاشعورياً من الاهتمام الغرامي الذي من الممكن أن يوليه لابنة زوجته. يتبين هذا الخوف، في حمايتها بسبب الخوف من الزنى، في عبارة «أيتها المرآة الصغيرة المعلقة على هذا الجدار، من هي أجمل من الجميع؟» وتحس الأم أن القرار يميل بوضوح لصالح البنت، بما أنها ليست البنت الحقيقية لزوجها.

غالباً ما تأتي إلينا النساء متهمات أزواجهن باهتماماتهم الجنسية ببناتهن اللواتي لهن معاشرات سابقة. ويبين اختبار أكثر عمقاً أن هذه الاتهامات غير العادلة، لا تختلف على الإطلاق عن تلك التي تصيغها الفتيات الصغيرات، والتي يتهمن فيها بشكل جائر زوج الأم أو الوالد بأنه يريد إغواءهن.

هناك موقف له عدد من السمات العاطفية، يؤدي إلى تبدلات كبيرة في العلاقات بين الخالة وأبناء الزوج. فمَثَل «العين بالعين» سيؤثر على نواياها الحميدة، بضرورة الدفاع عن أولادها الحقيقيين، والمقارنة المقامة بينهم وبين الآخرين، تجعلها قاسية بإفراط تجاه أولاد زوجها، وهي تقلل من شأنهم، وستخلق ردود الفعل العاطفية للطرفين، جواً قد لا تستطيع التغلب عليه وتجاوزه إلا امرأة وحيدة، هي المرأة الأنثوية الأمومية بفضل رهافتها الحدسية. إن الخضوع السلبي للخالة أو رغبتها الرجولية العدوانية في السيطرة على الموقف، يسمم كذلك الصراعات العائلية، ولو بطرق مختلفة.

نعمل حالياً، بدراسات نظرية، وعلى قاعدة الملاحظة العملية، على إقامة معايير وقواعد تحل مسألة الخالة على النحو الأفضل. وبالإجمال، يمكننا القول إن الأم الطيبة هي أيضاً خالة طيبة، وإن حل هذه المسألة الصعبة يمكن أن يُترك لمشاعرها الأمومية.

❀ ❀ ❀

خاتمة

سن اليأس

لعل قابلية المرأة واستعدادها للتكاثر يستمر ما دام الحيض عندها منتظماً. ومع انقطاع هذه الوظيفة، تنتهي خدمتها للنوع. وتدل نهاية فترات الطمث على أن الإباضة توقفت، وأن نشاط كامل الجهاز الغددي انقطع أو خف. وأن الأعضاء التناسلية ضمرت، ويظهر باقي الجسد، شيئاً فشيئاً، علائم الشيخوخة. تُدعى هذه المرحلة من حياة المرأة سن اليأس، أو تراجع العمر، وبمعنى أشمل، تبدل الحياة أو سن الكهولة. إنه عمز حرج بالفعل، ويمكن لبعض التأثيرات لتغير النشاط الهرموني أن تفعل فعلها على كل المشهد النفسي. وبلا ريب، أن ضبط ردود الفعل النفسية، عند الانحطاط العضوي يعد من أصعب مهمات حياة المرأة(1).

لسن اليأس عادة مرحلة تمهيدية تتميز ببعض الظواهر التي تنذر بالنهاية، حيث يصبح الطمث غير منتظم، ويظهر بفترات تطول أو تقصر، والسيلان يزيد أو يتضاءل. كما تظهر اضطرابات وعائية حركية، مع «نفحات حرارة» مميزة، بالإضافة إلى إحساسات بالدوار، والتعرق، وتترافق هذه المؤشرات غالباً مع صداع، وآلام عصبية...إلخ. وبشكل عام، جميع التوعكات الجسدية الذاتية تعتبر من خصائص سن اليأس، وتفسر بتعديلات

(1) Deutsch H.: Psychoanalyse der weiblichen Sexualfunktionen. Vienne: Internat. Psychoanal. Verlag, 1925.

الوظيفة الغددية. حتى هناك أعراض نفسية، تظهر في تلك الفترة، مثل الأرق، وحالات القلق، وقابلية التأثر والتهيج، والاكتئابات. وجميع تطورات سن اليأس، تتحدد، دون أي شك، بمسألة أنه، عند انقطاع النشاط المبيضي، يتشوش باقي نظام الغدد الصماء في وظيفته. ومع ذلك، تخضع المظاهر الفردية لسن اليأس، إلى حد كبير، لشخصية المرأة. وقد صاغت ويس وانكلش[1] هذه العلاقة الداخلية: «يمكننا القول إن الوظيفة الغددية تعطي تحريضاً للأطوار النفسية، إنما يجب أن نجد في ذلك بنية نفسية متشكلة بوضوح، يمكنها أن تفعل شيئاً ما، ينم عن الذكاء، بالنسبة للحاجات العاطفية للفرد التي تنتمي الغدد إليها».

يحدث سن اليأس تحت تأثير إذلال نرجسي يصعب تجاوزه. وتفقد المرأة فيه كل ما تلقته في مرحلة البلوغ. وعندما تبدأ الأطوار التناسلية بالتراجع، يؤول النشاط التجميلي للإفرازات الداخلية إلى الزوال، وتتأثر السمات الجنسية الثانوية بالزوال المطرد للأنوثة. ويتم الإحساس داخلياً بالطور البيولوجي الحالي والمداهم قبل التغيرات العضوية. وبكونها قادرة دوماً على الحمل من الناحية العضوية، تحس المرأة بأن أعضاءها التناسلية مهددة باعتبارها أعضاء تكاثر. تعزز هذه العلامة الداخلية المترافقة بإدراك المؤشرات الأولى لهذا العمر، الاهتمام لأن تتجه المرأة نحو شخصها الخاص. ويقوم كفاح من أجل حماية الأنوثة الآيلة للزوال الآن. يهم هذا الكفاح مرحلة ما قبل سن اليأس، قبل أن تتوقف فعلياً الوظيفة التناسلية. ويمكننا مقارنة هذه المرحلة بمرحلة ما قبل البلوغ، وهناك مثل الآن تماماً، فورة نشاط، وهذه المرة أيضاً تتحرك جميع قوى الأنا، لتحصل على أفضل تكيف مع الواقع، فتتهاوى القيم القديمة، ويتم الشعور برغبة بالحياة بشيء ما جديد ومثير.

---

(1) Weiss E. et English O.S.: Psychosomatic medicine. Philadelphie: Saunders, 1942, p. 254.

تتخذ فورة النشاط هذه، أشكالاً مختلفة وفقاً للفروق الفردية. فلدى كثير من النساء تتراءى مباشرة من المنطقة المهددة، فبعد عدة سنوات حيث سينقطعن عن خدمة التكاثر، ويشعرن بحاجة ملحة لأن يصبحن حواملاً ويعشن الأمومة من جديد. وبالرغم من ضرورة الاهتمامات الأخرى في الحياة، ومع استغراق هؤلاء النساء بمشاكل أولادهن الكبار، وحتى غالباً ضد رغباتهن الواعية، ينجبن ولداً أو ولدين بصورة متأخرة... قبل إغلاق الأبواب، إن صح القول. وعندنا انطباع، أنه حتى لو سبق وحصل العقم، فقد يرضخ أمام رغبة جامحة في أن المرأة لا زالت قادرة على التناسل.

ولدى النساء اللواتي يستحوذهن إلى ذلك الوقت تماماً وظيفة التكاثر، تتوجه فورة النشاط في أوجه مختلفة. فقد يتجهن نحو انشغالات خارج المنزل، وهؤلاء اللواتي أظهرن قبل الزواج حاجة ما أو هواية ما إبداعية، ينبشنها ويكشفن عنها، ويعشن من جديد في اهتمامات مدفونة منذ زمن بعيد، تلك الاهتمامات التي تتفتح خلال فترة قصيرة أيام مرحلة ما قبل البلوغ لكنها اختفت مع صراعات البلوغ.

كثير من هؤلاء النساء، عندما تزوجن، تخلين عن هذا الشكل من النشاط بسبب كبت نمطي جداً، وأحياناً غير قابل للفهم. ينطبق ذلك خاصة على التطلعات الفنية التي لم يتم تمتينها على نحو كاف قبل الزواج. تتخلى هؤلاء النساء، كضرب من الهلع، عن البيانو، او لوحة ألوان الرسم، أو أي وسيلة من اهتماماتهن القديمة، لأنهن يشعرن شعوراً مشوشاً أن عليهن «الاختيار». ويخشين ظاهرياً أن تهدد تساميتهن الفنية التجربة العاطفية للزواج. لقد تحدثنا في مكان آخر عن الصلة الداخلية الموجودة بين التجربة الغرامية للمرأة وإنجازاتها الخلاقة. تفسر هذه الصلة لماذا تنتعش من جديد الحاجة للإبداع، في فترة يتكثف فيها النشاط، وفي الوقت نفسه تكون العشقية مهددة. يصبح هذا الطور واضحاً بصورة خاصة جداً عندما يظهر بسبب تدهور الوظيفة التناسلية.

فالحاجة للإبداع الذهني والفني وإنتاجية الأمومة تتدفقان من المصادر نفسها، ويبدو طبيعياً جداً أن أحدهما يتمكن من الحلول محل الآخر. وتستطيع امرأة أمومية أن تتخلى عن اهتماماتها الأخرى لصالح وظيفة التكاثر، كما تعود إليها عندما تحس أنها اقتربت من التحديد البيولوجي.

ومن الصعب التحديد الدقيق لعمر ما قبل سن اليأس. ففي ظروفنا الثقافية، يتأخر باطراد، حيث أن للنساء في سن اليأس حالياً تسهيلات كثيرة لإنكار الأمور البيولوجية. وبصورة تقريبية، يكون السن النفسي لما قبل سن اليأس بين الأربعين والخمسين عاماً، وفيه تحدث الإباضة أو، لا. وهناك أيضاً كثير من عناصر سن ما قبل اليأس، خلال المرحلة التي يكون فيها الإقلال الفيزيولوجي للوظائف واضحاً على المحك.

وتتحرك فورة نشاط ما قبل سن اليأس والعودة إلى مسلك نفسي قديم بسبب دوافع مختلفة. وتلعب مؤشرات داخلية وخارجية دورها في هذا الطور. ومن بين المؤشرات الخارجية، هناك الانعتاق الوشيك، أو الذي ابتدأ مسبقاً، من الأولاد، وقطع الحبل السري النفسي من جهة الأولاد. ويتشابه الموقف العاطفي للأم المسنة مع موقف الفتاة الصغيرة المقتربة من البلوغ تشابهاً قوياً، حيث في تلك الفترة أيضاً، تتراخى الصلة بين الأم والولد، وتتوجه الطاقة النفسية للولد نحو غايات جديدة. إنها الآن الأم التي تحس بهذا التراخي، مع أن عليها أن توجه، بصورة سلبية، طاقتها العاطفية نحو جهة أخرى. مع اقتراب سن اليأس، تصبح أمومة جديدة مستحيلة، ويتوجه هذا النشاط المحروم نحو أهداف أخرى. ولكي نعرض الأمور ببساطة، نقول إن موقف المرأة هو التالي: «إن لم أستطع مطلقاً إنجاب أولاد، فعلي بالسعي نحو أمر آخر».

لعل الدافع الأكثر لاشعورية للنشاط الجديد هو إحساس الخيبة والمهانة الوشيكة. ويلعب هنا النشاط كآلية للدفاع. وفي الفترة التي يكف فيها إنتاج البويضات، تتوقف جميع الأطوار العضوية المكرسة لخدمة النوع. وتنهي المرأة وجودها بصفتها موجدة لحياة جديدة، إنها توصلت

لنهايتها الطبيعية، وهو موت جزئي، على اعتبارها خادمة للنوع. وهي منشغلة الآن بالكفاح النشيط ضد انحطاطها.

تعبر فورة النشاط أيضاً عن احتجاج المرأة، وإثبات أنها ليست فقط خادمة للنوع، أو آلة لصنع الأطفال، وأن لديها مراكز فكرية أرفع شأناً، وحياة عاطفية معقدة تتعدى الأمومة. ويمكنها بهذا، إيجاد مخرج للتعقيدات البيولوجية.

رغم هذه الظواهر التحضيرية التي وصفناها بالموت الجزئي، لا تتخلى أي امرأة عن الأمومة بصورة فعلية، ما دام هناك فقدان شهري للدم، أو حتى غير منتظم يذكرها بهذه الإمكانية. وهنا أيضاً، يمكننا إجراء مقارنة مع مرحلة البلوغ، حيث تمثل كل فترة طمث وعداً أو خسارة لطفل. ولدى نساء ما قبل سن اليأس، يهيمن المركب الإيجابي :«لا زلت في فترات الحيض، ولا زال بإمكاني الإنجاب». وفي هذه الحالة، لا تتخذ فترة الطمث إلا معنىً رمزياً، إذ أن المرأة قد تخلت حقاً عن أطفال جدد، لكنها لا زالت ترغب بإظهار حيويتها من الناحية البيولوجية. وقبل فترة قصيرة من سن اليأس، على ردود فعل المرأة التي تخضع لعملية تناسلية جذرية، أن تشير إلى القيمة الرمزية الكبيرة التي لا زالت ملكاً لها في هذه الأعضاء الآيلة لأن تصبح قريباً عديمة الفائدة. هناك عدوانية متنامية، وحالات من الإحباط...إلخ، غالباً ما تُفسّر بفقدان الأعضاء التناسلية، تلك الخسارة التي تمثل الإخصاء بالنسبة للمرأة. وبالنسبة لفتاة صغيرة، عندما يكون الحيض مؤشراً للنضج، هو أيضاً تجربة تحمل في طياتها القلق النفسي والإحباط. ويمكن للزوال المفاجىء للحيض بعملية ما، أن يكون له نفس المعنى إلى حد كبير.

وعلى العكس، يمكن لهذه العمليات أن يكون لها تأثير نفسي محرِّر. فهناك نساء، باحتجاجهن على الأطوار البيولوجية الوشيكة، واللواتي يظهرن أنواعاً كثيرة من الأعراض، غالباً ما يقبلن العملية «كأمر واقع»، عليهن الخنوع له. في ما النساء غير المتزوجات، أو اللواتي بلا أطفال، وعلى

الأخص، اللواتي في أملهن الخالد أن «ذلك ممكن أن يأتي أيضاً»، هن عاجزات عن تكريس أنفسهن من أعماق القلب لأمر ما، يعود إليهن الأمل على نحو ما بعد عملية حرمتهن من فرصتهن الأخيرة في الأمومة. إنهن يحررن طاقاتهن الحياتية للخلود والانتظار ويستخدمنها في اهتمامات إنتاجية.

شيئاً فشيئاً، يتغير سن ما قبل اليأس إلى سن اليأس. وتتوقف جريبات غراف عن التهتك ولا يعاود الغشاء المخاطي للرحم التجدد مطلقاً بصورة مرحلية. ولفترة من الزمن، تستمر البويضات في التشكل، إنما لا تتوصل مطلقاً للنضج، وبعد زمن قابل للتغير، عادة عدة سنوات، تزول جميع آثار الأمشاج[1]، كما يتخذ المبيض برمته نسيجاً ضامّاً متماسكاً. ويتحول، شيئاً فشيئاً، كل الجهاز التناسلي الأنثوي إلى بعض الأعضاء غير النشيطة وغير المجدية.

وفي الوقت نفسه، تظهر تبدلات مشابهة في نشاط الأعضاء الأخرى للغدد الصمّاء. ويتسمّك النسيج الشحمي تحت الجلد، ويفقد الجلد صلابته. ويظهر شعر ذكوري (فوق الشفة العليا، والذقن، والبطن). وتمثل التبدلات الحاصلة في جسم المرأة في سن اليأس، ليس فقط توقف التكاثر الفيزيولوجي، إنما أيضاً انحلالاً تناسلياً. ويظهر القدر البيولوجي للمرأة في زوال صفاتها الأنثوية الفردية في الفترة التي تتوقف فيها عن خدمة النوع. وهكذا كما ذكرنا، كل ما اكتسبته في مرحلة البلوغ يضيع الآن قطعة قطعة، ومع زوال الخدمة التناسلية يتلاشى جمالها، وبشكل عام أيضاً الانبعاث الحيوي والحار للحياة العاطفية الأنثوية .

تبدو الأطوار النفسية لسن اليأس كنداء استغاثة، يسمح للمرأة باستمرار الإحساس بحياتها. ويرجع التوتر الداخلي الموجه ضد الحدث إلى

(1) خلايا تناسلية لا تحتوي نواتها إلا على ن من الكروموسومات بينما تحتوي خلايا الجسم الأخرى 2 ن منها (المترجم)

الموقف الذي غالباً ما تحدثنا عنه، حيث تترافق الحركة المطردة نحو خسارة بيولوجية مع عناصر تراجعية. وبعد فترة ما قبل سن اليأس، التي قارناها بمرحلة ما قبل البلوغ، تدل التغيرات التي تحدث في سلوك المرأة بوضوح على تماثل بين سن اليأس والبلوغ. ويمكن لسن اليأس نفسه، أن نقسمه إلى مرحلتين متوافقتين مع الأطوار البيولوجية. وتشمل المرحلة الأولى، السنوات التي تكون فيها فترة الطمث مضطربة كثيراً أو متوقفة كلياً بحيث لم يتوقف بعد الجهاز الجنسي الغددي عن العمل في مجمله. وتكون المرحلة الثانية بلا شك، متوازية مع توقف أي حياة في الجزء من العضوية الذي يشكل الأمشاج. ويمكن للمرحلة الأولى أن تتواصل فيها فورة النشاط مع مرحلة ما قبل سن اليأس، لكنها تتصف بنمو للإثارة الجنسية، وبالاستعداد الجنسي المتزايد، أو وفقاً لموقف حياة المرأة، بكفاح قاس، على نحو ما، ضد هذه الأحاسيس، تماماً كما في مرحلة البلوغ. فإذا عاشت المرأة إلى ذلك الحين، على الطريقة المرفهة للأشخاص «المحترمين»، فسيكون الناس المحيطين بها، متفاجئين جداً بتغير سلوكها.

مرحلة البلوغ الثانية هذه، كالأولى تماماً، تتسم بجميع أنواع الخروج عن المألوف في السلوك، ولدى المرأة المسنّة، إذا كان لهذه الغرابة تأثير خارجي هزلي، فعلى الأرجح يكون معناها العميق مأساوي. وبسبب هذه المظاهر، يعرف سن اليأس بـ «العمر الخطِر»، ويصبح نمط معين من المرأة الناضجة كشخصية مسرحية هزلية.

وهناك نمط من المرأة في سن اليأس تظهر نشاطاً شبه هوسي. وعندها شعور بنشاط نفسي متنامٍ. ولو تجنبت في السابق التجارب العنيفة، لاعتراها فجأة، حاجة إلى جعلِ حياتها أغنى، وأكثر نشاطاً. إنها تشعر نفسها فتاة شابة تماماً، وهي تقول ذلك بنفسها، وتريد استعادة حياتها كلها. إنها تكتب مذكرات وخواطر على دفتر صغير، كما يحدث في مرحلة البلوغ، وتتحمس للأفكار المجردة، وتغير موقفها تجاه عائلتها، وتهجر وتهمل منزلها لنفس الأسباب كما في مرحلة مراهقتها. وبحماس يتجاوز غالباً حماس أولادها،

تهتم بإيديولوجيتهم. وفي عمر الخمسين عاماً، لا تكون مستعدة على الإطلاق للتخلي عن شيء. إنها تواصل الكفاح بصلابة ضد الانتقاص البيولوجي لأنوثتها، باللجوء إلى وسائل نفسية، وهي سعيدة بملاحظة أن فرصها باعتبارها امرأة تتحسن كثيراً في أيامنا هذه. وتصرح بأن أمها كانت سيدة مسنّة عندما كانت في عمرها. ولا يعود هذا التحسن طبعاً للعوامل البيولوجية، حيث لا شيء قد تغير، بلا شك، في الأطوار الهرمونية. وربما السلبية المتنامية عند الرجال خلال السنوات التي سبقت الحرب، تجيب جزئياً عن مسألة أن فرص النساء المسنّات اللواتي وجد الرجال فيهن حماية أكثر نشاطاً، وأقل تطلباً إزاء رجولتهم، تحسنت بصورة فعلية.

كما يساعد عالم الموضة والماكياج المرأة المسنّة، على التصرّف كفتاة صغيرة بالغة حديثاً. ولعل الغرور النرجسي يجعلها تصدق، أمام مرآتها، بشباب وجهها المصبوغ. فتمردها في مواجهة العمر ينسيها كل تجربتها. حتى لو أبدت سابقاً حكماً سليماً على الناس، تحيط نفسها الآن برجال من مستوى أدنى منها، بسبب توهمها أنها تنال الإعجاب والحب من الكثيرين.

وكفتاة شابة بالغة، تتفاخر الآن بشخصيتها، وبعد ثلاثين عاماً من الزواج السعيد، قد تثير القلاقل لمعرفة ما إذا كان زوجها أهلاً لها، وبالتلميح أن زواجها كان خطأً مشيناً. وأحياناً تكون فريسة لمصاعب هذا الحاضر، فتعود بصورة عاطفية إلى الأيام الأولى لزواجها، محاولة استعادة تجاربها أو تحقيق ما فاتها. وتجعل من أصدقائها أفراداً غير موثوق بهم، بحيث تجتذبهم الآن كالفراشات حول المصباح. وتبدو لها علاقاتها الشريفة والمحترمة عديمة المعنى والأهمية بل ومملّة. كما تبدي اهتماماً أكثر بالنساء ذوي السمعة السيئة، اللواتي تشكل حياتهن الآن لها إثارة تكتنفها الأسرار كما كان الأمر في مرحلة البلوغ.

وبصورة واضحة، تصبح النساء في هذه المرحلة من حياتهن، أكثر قابلية للتأثر، وتتضاءل بصيرتهن، كما يصبحن ضحايا للنصائح السيئة. وإن

لم يكن نشاطهن كبيراً على نحو كاف، أو إذا منعهن كبتهن العادي في تمثيل تخيلات مرحلة البلوغ الوهمية بصورة واقعية، فإنهن يتحولن نحو الماضي. وبدلاً من اكتساب تجارب واقعية، يتراجعن نحو الخيال، تماماً كما في مرحلة بلوغهن. ولإعطاء تخيلاتهن الوهمية محتوى واقعياً، يستعدن رسائل قديمة لأزواجهن أو عشاقهن الذين كانوا في الأيام السابقة. والمرأة التي سمحت لنفسها لفترة طويلة الذهاب إلى الفجور قبل زواجها، والتي هجرت هذا النوع من الحياة لتحقق كياناً برجوازياً منظماً، قد تتحدث عن «الأيام السعيدة» التي كانت لسنوات تشعر بالخجل منها. امرأة أخرى، أقامت قبل زواجها علاقة تعيسة مع عشيق، بحسب رأيها، شقي وشرير، تتذكره الآن برفق وحنان، وتقدره لصفات لم يمتلكها أبداً، وتكتب له رسائل دون إرسالها بالبريد.

هناك امرأة استحوذها تقريباً حنين مؤلم، خلال المراحل الأولى لسن اليأس، لرجل أحبته حباً أفلاطونياً لسنوات خلت، فطلبت المساعدة من طبيب نفسي لأنها نفسها نظرت لظرفها وكأنه شاذ. واتبعت النصيحة التي أعطيت لها، والتقت بالرجل المعني. وتصرفت حينئذ تماماً كما كانت تفعل في تلك السنوات، حيث كانت خجولة وصعبة المنال. وكانت ممتنة بعد ذلك لهذا الرجل، بأنه لم يتجاوز الحد ويخدعها بمحاولة تعتقد أنها كانت ستستسلم فيها، وأنه حافظ على «عفتها».

امرأة أخرى في الخمسين من العمر، تزوجت بعد الطلاق بزواج ثانٍ سعيد، وتصرفت بالطريقة نفسها. وراحت تتحسر، بطريقة لا يمكن تفسيرها، أسفاً على زوجها الأول، والذي تقول بحق أنه أساء التعامل معها. وبإدراكها أن هذا الحنين كان مرضياً، لجأت إلى العلاج النفسي. وأثناء علاجها، كشفت أنه في شبابها، وقعت في غرام رجل وتزوجته، مع علمها حينئذ أنه كان أدنى منها، لأنها أرادت تحقيق تخيل وهمي ماسوشي بالاغتصاب تتصف به مرحلة البلوغ. لكن التبعية الغريزية التي كانت تشعر بها لزوجها السادي العدواني، لم تتوصل إلى تدمير كرامتها وزهوها

بنفسها، وبعد عدة سنوات من الألم، تطلقت منه. وكما هو متوقع، تزوجت بعده من رجل أكثر رقة ولطفاً وسلبية، وأنجبت منه ثلاثة أولاد. وكان زواجها الثاني سعيداً ومنسجماً إلى حين سن اليأس، مع أنها ظلت باردة جنسياً مع زوجها الثاني (لم تكن كذلك مع زوجها الأول). وعندما اقترب التخلي النهائي، أصبح شبقها أكثر تطلباً ورغبت بالإشباع القديم. وظهرت ثانية تخيلاتها الوهمية بالاغتصاب، ولم يكن زهوها، الذي تزعزع في سن اليأس، كافياً إلى حد يقاوم رغبتها.

جميع هؤلاء النساء غير القادرات مطلقاً على ضبط حاجاتهن الشبقية المتنامية والمدفوعات لتفعيل تخيلاتهن الوهمية، يكررن مرحلة بلوغهن النفسية. ففي الواقع، استمر وجود تحريضات ورغبات تلك الفترة، طيلة الوقت، وأثناء سنوات النضج، رفضت وتسامت، في ما الآن، في سن اليأس، تعود للظهور. وبشكل عام، تبين النساء اللواتي تفعّل تخيلاتهن الوهمية، تكويناً هستيرياً، لعل الاستمرار الخاص للتخيلات الوهمية لمرحلة البلوغ هو هنا مميز جداً. ولهؤلاء النساء، منذ طفولتهن الأولى إلى سن اليأس، ميل للحلم، وتعطي مرحلة البلوغ لهذه الأحلام محتويات محددة. وعند اقتراب الحرمان الواقعي لمرحلة اليأس، يهربن إلى العالم الذي خلقنه قديماً بخيالهن، حيث يمكنهن البقاء شابات، جميلات، وبكامل، امتلاكهن لأنوثتهن.

وتهرب نساء أخريات، تماماً كما في مرحلة بلوغهن، من التخيلات الوهمية إلى الواقع، سواء كان واقعاً غريباً، كالذي رأيناه، أو كان واقعاً خلاقاً منظماً. وبعضهن يهربن أيضاً، كما في مرحلة بلوغهن، إلى طريقة زاهدة في الحياة، في تضحية بالذات للأعمال الخيرية، أو في تعبد ديني. يعد تحول امرأة تافهة دنيوية إلى أخرى ورعة مفرطة في التقوى نمطي جداً، وهكذا نؤمن، في الواقع، بالحكمة الألمانية القائلة :«باغية في شبابها، وراهبة في شيخوختها».

تبالغ بعض النساء، بلا حدود، بالأهمية الموضوعية لطور الشيخوخة.

«هيئتي تنم عن ساحرة عجوز»، يقلن ذلك ليس فقط لتحريض الاحتجاج المتملق من قبل الآخرين، إنما أيضاً للتعبير عن إذلالهن العميق: «يا للقدر الذي جعلني أنزوي جانباً!».

كثير من النساء، بمحاولاتهن تعزيز ثقتهن بأنفسهن، تلك الثقة التي يشوشها الإذلال النرجسي لسن اليأس، يتجنبن الحياة الاجتماعية لأنها تذكرهن بالواقع الحزين، ويعتكفن في «عزلة رائعة». مختلفات بهذا عن النساء النرجسيات اللواتي في خوفهن من سن اليأس، يبحثن عن إثباتات جديدة للحب، في ما المنعزلات يحتمين بالحرمانات بالافتخار التالي: «سأكفي نفسي بنفسي»، وبطريقة تذكر بمرحلة البلوغ بصورة نمطية.

غالباً ما تخضع علاقة المرأة مع بنات جنسها من النساء إلى تغير في سن اليأس. حيث تصبح صداقات سابقة وفية وبريئة مشوشة ومضطربة، وتخضع المثلية الجنسية المتسامية لاختبارات نلاحظها أحياناً في مرحلة البلوغ، حيث يكون التسامي غير مشبع، وتُصاغ متطلبات جديدة، كما تظهر الغيرة. وما نسميه بالذعر المثلي الجنسي مألوف أكثر أيضاً، وبسبب ردة أفعالهن بالخوف من خطر لاشعوري، تحطم هؤلاء النساء صداقاتهن القديمة. وبشكل عام، وخلال سن اليأس، تأتي أفكار ذهانية، من اشتداد المثلية الجنسية التي كانت كامنة سابقاً. فقد نرى صديقتين غير متزوجتين، أو أختين عاشتا سنوات معاً في عزوبية منعزلة، تتابعان بهدوء، ميولهما الخاصة بكل منهما، وتغيران السلوك فجأة. وتبدآن بالسجال والمشاجرة، أو تتحالفان بطريقة «جنون الإثنتين» لمواجهة العالم المحيط، من جوار وأهل وزملاء...إلخ[1] طبعاً في مثل هذه الحالات، نحن على صلة، بشكل عام، بفرديتين ذاتيتين مهيأتين تكوينياً، واللتين، منذ ما قبل سن اليأس، تنعزلان عن باقي العالم، والواحدة مع الأخرى بعلاقة مرضية. إنما في هذه الحالات أيضاً، تأتي الأزمة الذهانية من اشتداد الصراع الداخلي في سن

(1) Deutsch H.: Folie à deux, Psychoanalyt. Quart., vol. 7 , 1938.

اليأس. وينبغي أن نتذكر هنا أننا نعرف جيداً ردود الفعل الذهانية المؤقتة هذه، في مرحلة البلوغ، تجاه خطر المثلية الجنسية. إنها تطلق أحياناً طوراً ذهانياً مزمناً.

تشمل الاكتئابات التي نلاحظها غالباً خلال سن اليأس، ألماً معللاً بعالم يؤول إلى الزوال. في ما الحالات الاكتئابية المرتبطة بمشاعر الدونية مألوفة أيضاً لدى المراهقات. وحتى أن الحالات الاكتئابية للفتيات الشابات، يتم التغلب عليها أحياناً بتصاعد مفاجيء لمشاعر منتشية، وهكذا لدى النساء اللواتي يطعنّ في السن، يخضع الاكتئاب لحالات تهيج.

إن لاحظنا، بالتحليل النفسي، النشاط التخيلي المتنامي للنساء في سن اليأس، فنكتشف من وجهة نظر أسبابه اللاشعورية الأكثر عمقاً، أنه يكرر الأطوار نفسها لمرحلة البلوغ. ومن خلال رغبتها الشديدة قي مواصلة أن تكون محبوبة من الكثيرين على اعتبارها امرأة، تعود للظهور ثانية التخيلات الوهمية بالعهر. هناك امرأة مسنة، أم لعدة أولاد، وجدة محترمة، أوقفت في حديقة عامة لأنها تهيج الرجال، ثم اقتيدت إلى مفوضية الشرطة. ولم تتذكر مطلقاً في اليوم التالي، أحداث الليلة السابقة، فأرسلت إلى مشفى للملاحظة النفسية. الأمر الأخير الذي تتذكره، أنها استُقبلت عند إحدى صديقاتها، حيث شربت قليلاً، واقتيدت إلى بيتها من قبل أحد الرجال. ولدى سؤاله، أوضح هذا الرجل أنه أودع المرأة على باب بيتها، وأنه فوجيء قليلاً، عندما مدت له يدها بغنج قائلة بخفة :«لا شك أنك تحبذ أن تمضي الليل معي !؟»

لا تتذكر المريضة هذه الحادثة، لأنها في تلك الفترة، كانت متأثرة بتخيلاتها الوهمية اللاشعورية التي كانت تفعل فعلها. واتضح أنه من المستحيل تجاوز فقدان ذاكرتها، ورفضت لحين موتها تصديق ما قيل لها عن تصرفها في تلك الليلة. إنما وصفت بوضوح تام مشاعرها بالوحدة، وحنينها، وقلقها النفسي الليلي، وخجلها مع الرجال، بحيث أمكن

بسهولة، إعادة بناء الموقف النفسي الذي نجم عن حالة التشوش، وردود الفعل الموافقة له. المعرفة التي نمتلكها عن الحالات الغسقية لدى الفتيات الصغيرات، والتي تفعّل تخيلاتهن الوهمية، تعطينا مفتاح نفسية هذه المرأة المسنة، في هاتين المرحلتين من الحياة، حالة التشوش أخرجت على السطح ما كان كامناً في أعماق النفس.

يتواصل تماثل المرحلتين بعمق أكثر أيضاً. نحن نعلم أن التحرر من الوسط العائلي، وقبل أي صِلات بعقدة أوديب وترسخاتها، يكون في مركز صراعات مرحلة البلوغ. وبعد العديد من السنوات حيث تكيفت المرأة تماماً وحتى بصورة حسنة جداً مع الواقع، وحيث كانت امرأة وأماً في نضوجها، تظهر الآلهة القديمة للعالم الدنيوي من أعماق الحياة النفسية، تحت فورة تهيجات سن اليأس، وتساهم بشكل جديد بأحداث العالم العلوي. قال فرويد عن مرحلة البلوغ، إنها تكون نشراً ثانياً لمرحلة الطفولة، لأن فيها العلاقات القديمة المحتفظة مع الأهل تنطلق من جديد بانبعاث لعقدة أوديب، وفي سن الياس، نجد نشراً ثالثاً، ونكتشف أنه، خلال جميع هذه السنوات، لم يحدث فيها إلا إعادة تجمع، فالعلاقات الأصلية مع الأهل، والتي لا يمكن تجاوزها أبداً، تُعاش الآن من جديد مع الأطفال الذين أصبحوا كباراً. والحب الجنسي والحنون الذي كان للأهل في ما مضى، أصبح الآن للأطفال، والحنان الصافي الذي يتم الإحساس به نحوهم، يحتوي، كما كان ذلك في محبة الأهل أيام الطفولة، إلحاقات جنسية لاشعورية. لقد بينّا سابقاً، أنه حتى عندما لا تقوم الأم إلا بانتظار ولادة ابنها، تشيد بذكره في أناها الأعلى، ويصبح وريث نموذج الأجداد. فكل ما تجده الفتاة الصغيرة في ما مضى إلهياً في والدها، تعتبره وتقدره عالي التقدير وتتوقعه، يكون بعد ذلك مُسقَطاً على الابن. لكن ما يصدر حتى عن أرفع التسامي، لا يكون متكاملاً أبداً. ولعل المركب الجنسي الذي كان في ما مضى مكرساً للأب، يتحول أيضاً للابن.

من الواضح الآن، أن النشر الجديد للتخيلات الوهمية النمطية

لمرحلة البلوغ التي نجدها في سن اليأس، بكل اختلافاتها الممكنة، تحتوي على بقايا العلاقة مع الأب وإنجازها أو نفيها.

فالتخيل الوهمي بالاغتصاب الذي ذهب بامرأتنا المطلقة نحو زوجها الشرس لا يخصه بشيء، إذ التخيلات الوهمية بالعهر، الآن كما في السابق، تعبر عن الاستبدال والاستعاضة، كثير من الرجال بواحد وحيد. ولا يعاد تنظيم البنية النفسية إلا ضمن المقياس الذي تتخذ فيه الإرادة المحرمة الأولى من جديد، حيث الابن يحل الآن محل الأب، وليس فقط كمثل أعلى.

لعل الشد على الحبل السري النفسي، والحنين للابن يصبحان أكثر قوة. كما تصبح الحاجة المتنامية لحنينه الآن في حالة حرمان قاطع، ويؤدي الهروب بعيداً عن الابن (كما كان قديماً الهروب بعيداً عن الأب) إلى شهوة أدوات للاستبدال. وفي تحاليل لنساء في سن اليأس أو ما قبله، من الممكن ملاحظة هذا التوجه الجديد في تخيلاتهن الوهمية، وأحلامهن، وعلائمهن. وهذا ما حصل مع مريضة انقضّت عليها مصاعب سن اليأس، وهي أم لمراهق، تخيلت أن لها صديقة إطّلعت، بروح من البطولية والتضحية المفرحة، المراهقين، بصورة حنون، على أسرار الحب الجنسي. وقد وُصف هذا التخيل الوهمي بأزهى الألوان، وسرعان ما ظهر أن الصديقة هي المريضة نفسها، في ما المراهقون حلوا محل ابنها نفسه. لنتذكر في إطار هذا الموضوع حلماً راود ڤون هوغ هيلموث واستخدمه فرويد[1].

كانت الحالمة امرأة في الخمسين من العمر «لا تنقطع ليلاً نهاراً عن القلق على ابنها» وأظهرت في أحلامها استعداداً:

(1) Freud S. : Introductory lectures on psychoanalysis. Londres: Allen & Unwin 1929, lect. II.

لأن تضع شخصها تحت تصرف العسكريين والضباط والجنود، لإشباع حاجاتهم الغرامية، بطريقة تقوم بها بواجبها الوطني. إنما ذلك بشرط، ان يؤخذ العمر بعين الاعتبار، حيث أنها امرأة مسنة وربما لا تستطيع مجاراة الفتيان الصغار... ربما هذا فظيعاً.

واضح جداً هذا التخيل الوهمي بالعهر، تحت غطاء حاجة وطنية، والعلاقة المرفوضة مع الفتيان الشبان الذين يحلون محل الابن.

بدأت مريضة أخرى، كانت إلى حينه متماسكة وسليمة، بعصاب في حلم كابوس، مثّل لها ممارسة الجماع مع ابنها. وأخرى أيضاً في سن الخمسين، عولجت من اكتئابات، وروت القصة التالية :

حين كانت عانساً في سن الأربعين، تزوجت أستاذها وعمره خمس وخمسون سنة. كانت موسيقية موهوبة، عاشت قبل ذلك مع صديقة قديمة كانت تحس تجاهها بميل مثلي جنسي شعوري، ولم يكن مع ذلك لهذا الميل أي نتيجة عملية. وتخيلت أن الزواج من رجل مسن ربما يكون بر الأمان، وهذا ما حصل بالفعل. ولم تكن علاقتها مع زوجها أفلاطونية بشكل كامل، كما لم تجلب لها إلا إشباعاً جنسياً طفيفاً. وقبل بداية اكتئابها، كانت المريضة قد اجتازت فترة إثارة مرتبطة بسن اليأس. وبعد علاج هرموني، توقفت هذه الإثارة وحل محلها الاكتئاب.

كانت المريضة نفسها جديرة برؤية إثارتها تنطلق لسبب واقعي جداً. وكان زوجها قد صحب إلى بيته طالباً شاباً موهوباً جداً، بحيث لم تستطع تحمل ذلك. فوجوده جعلها مضطربة وحادة الطبع، و ذهبت من بيتها بهذا التهيج المرتبط بسن اليأس. واعترفت أنها لم تتناول أقراصاً وُصفت لها لتهدئة أعصابها، وأردفت تقول إنها لن تهدأ ما لم يغادر الشاب البيت. ثم عادت إلى بيتها، لكنها سرعان ما أصابها اكتئاب دفعها لزيارتي. ونجم اكتئابها عن افتقادها لذلك الشاب (الذي تكبره بثلاثين سنة)، الذي وقعت بغرامه بصورة لاشعورية.

كان شعورها المثلي الجنسي نحو صديقتها القديمة، يعبر عن تعلق نمطي بشخصية أمومية بضغط الشعور بالذنب، وقد تهرّبت من والدها في علاقة ما فوق التعويضية مع أمها. وفي السنوات التالية، أقامت علاقة مع رجل، إنما في الظاهر، دون أحاسيس جنسية. ولم تتكشف رغبتها الجنسية إلا في سن اليأس، متحولة على «ابن». ومن الواضح أن الشاب الموسيقي لعب فعلياً بالنسبة لها دور ابن. وقد أخفى اكتئابها مشاعر الحقد ضد زوجها، فقد فشل في أن تنجب منه طفلاً، إبناً. لكنه نفسه، حسب إحساسها، سد لها هذا الفراغ في حياتها، باصطحابه ابناً إلى البيت يمكنه أن يعلمه ويحبه. لماذا لم تسهم في ذلك؟ أجابت عن هذا السؤال بصورة غير مباشرة، حيث أحست برغبة جنسية نحو الفتى، بدلاً من حب أمومي وادع. وكررت في سن اليأس تجربة مرحلة بلوغها، وفي تلك الحقبة، تهرّبت من والدها لأنها خشيت من بداية حب نحوه.

ومن نافل القول، أن يصرح طبيب غير نفساني، ومنذ سنوات عديدة أن الأعراض الجسدية لسن اليأس تذكر، بطريقة لافتة، بالأعراض التي نلاحظها لدى نفس هؤلاء النساء عند مرحلة البلوغ. حيث كتب ج. ويزل[1] مايلي:

لفت نظري، على سبيل المثال، أمر أن الاضطرابات الهضمية المعوية، الملاحظة بتكرار مدهش في مرحلة البلوغ، تظهر أيضاً عند بداية سن اليأس. فضلاً عن إمكاننا إثبات، أن إفراط إفراز غدد الهضم الذي يظهر في مرحلة البلوغ، ويختفي بعد ذلك دون أن يظهر من جديد، أيضاً في سن اليأس يبدأ بالحالة نفسها، وإذا تعدّل تلون البشرة أثناء البلوغ، فإن التعديل نفسه نراه في سن اليأس. وحتى هناك اضطرابات وعائية حركية، أو قوباء، أو انحرافات النمو... إلخ. كما لفت نظري حالة مريضة ظهرت عندها خلال مرحلة البلوغ خصلة شعر كثّة بيضاء كالثلج، ثم اختفت هذه

---

(1) Wiesl. J.: Innere Klinik des Klimateriums. Handb.d. Biol. U. Path.d. Weibes.

الخصلة، لكنها عادت للظهور في سن اليأس، وحتى في المكان نفسه وفي الأبعاد نفسها.

ويخلص ويزل بالقول: «كنت أريد الإشارة إلى مقدار العلائمية لمرحلة البلوغ، وكم من الممكن مقارنتها بأحداث سن اليأس».

وما يقوله ويزل عن العلائمية العضوية ينطبق بصحة أكثر على العلائمية النفسية. العديد من الملاحظات أقنعتني بعمق شديد بهذا التماثل، وباستنادي على تطور مرحلة البلوغ (خاصة إذا كانت مرضية)، أثبت تكهناً، بالنسبة لسن اليأس، وغالباً ما أنصح بعلاج تحليلي نفسي لتلافي وتدارك الاضطرابات.

ومن غير المؤكد حالياً أن هذا التماثل ينسحب على الوظائف الهرمونية العادية. إنما الأطوار الطمثية، وهو أمر مهم، لها غالباً في ما بعد ما يقابلها، فالاكتئابات الطمثية لمرحلة المراهقة على سبيل المثال، والتي تزول خلال سنوات من الخدمة التناسلية، تعود أحياناً في سن اليأس. ومع عدم وجود النزف، تحدث الإكتئابات في فترات منتظمة، تنطبق مع مواعيد فترات الحيض. ويبين التحليل أن مضمون هذه الحالات هو الألم: «لو أنني لا أزال امرأة حقيقية، لأتى الحيض في هذه الفترة». ويتبدد الأمل بإنجاب طفل مع نهاية الطمث، وكما في مرحلة البلوغ تماماً، عندما تظهر الفكرة التالية: «لن يكون لي طفل».

يمكن لجميع هذه الصيغ من السلوك، حيث نستطيع إيجاد تشابهات بين مرحلة البلوغ وسن اليأس، أن تؤدي إلى ذهانات إن كان للمرأة استعداد مسبق لذلك، ذهانات مرحلة البلوغ لدى الفتيات، وذهانات سن اليأس عند النساء المسنات. وغالباً ما يبين محتوى الأفكار الجامحة، كما يكشفها التحليل النفسي، التشابه اللافت بين الطورين.

يتوضح أيضاً هذا التماثل في المظاهر الجنسية، حيث تظهر بوضوح لدى الفتاة البالغة والمرأة في سن اليأس، نمو للإثارة الجنسية. كثير من النساء المسنّات اللواتي كن باردات جنسياً خلال مرحلة التكاثر، يصبحن

الآن حساسات من الناحية الجنسية، وأخريات لا يصبحن باردات إلا الآن، وغالباً ما يكف الزواج، أحادي الزوج، عن إشباع نرجسيتهن المتنامية. وفي حقبة تكون فيها قدرة الزوج الجنسية ضعيفة بشكل عام، تطلب المرأة أن يرغبها بشوق عارم. نساء أخريات تحمّلن برودتهن الجنسية إلى الآن، ويتعرضن لجميع المظاهر التي ترافقها عادة، كمزاجهن المتقلب، وعدم الإحساس بالاستقرار، وحدة الطباع، تصبح كلها مشاكل متعبة، في آن واحد بالنسبة لهن ولمن يحيط بهن. وهناك غياب كامل للنظام، وإحساس بالمسؤولية يتناوب مع موقف يتكلف الرصانة إلى أقصى حد. ولا تتغاضى المرأة مطلقاً عن التبدل في الحياة الزوجية، ولا عن ضعف الإثارة الجنسية بالاعتياد، وتأثيرات المحيط التي حافظت المرأة بواسطتها على الوفاء الزوجي، قليلة الفاعلية الآن. لكن، بما أن الواقع والكبت المكتسب قويان جداً، فإن الأحاسيس الجنسية المتنامية لا تتعدى بصورة عامة، الإشباع الذاتي.

وترتبط التخيلات الوهمية الجنسية المزعجة بذروة لذة عنيفة مهبلية ارتكاسية، حتى لدى النساء اللواتي لم يكن قابلات للتهيج المهبلي سابقاً. وتستعيد أخريات، الاستمناء النظري الذي تخلين عنه منذ مدة طويلة، وغالباً ما يصح ذلك على الفتيات العانسات اللواتي ليس لهن تجارب تناسلية مباشرة أبداً. وفي جميع الحالات تصمد قابلية التهيج الجنسي لفترة طويلة مع القدرة على التناسل. وتؤكد ملاحظاتي التي أجريت على عدد كبير من النساء في مراحل مختلفة من سن اليأس على الحقيقة التي تتضمن الجواب الروحاني للأميرة دي ميتيرنيخ على السؤال التالي: «متى تكف المرأة عن أن تكون جديرة بالحب الجنسي؟»

وكان جوابها: «اسألوا أحداً آخر، فأنا لست إلا في الستين من العمر».

إننا لا نعلم ما إذا كان تنامي التهيج الجنسي ذا أصل غددي. ومن الصعب أن نثبت أن تراجعاً، وتقلصاً عضوياً، يبدأ بتصعيد فعلي للوظيفة.

وربما هذا التصعيد هو طور نفسي بحت، وردة فعل عن أطوار الانحطاط، وتعويض فائق لها. وعلى خلاف ذلك، لدينا أثناء مرحلة البلوغ قابلية متنامية للنمو الجسدي، إنما تخضع هذه القابلية لضغط المنع «هذا مبكر إلى حد كبير». غالباً ما يؤدي هذا المنع إلى سلوك غريب ومزعزع يسم مرحلة البلوغ.

«الإفراط في التأخير» لسن اليأس، له نفس تأثير «الإفراط في التبكير» لمرحلة البلوغ. ففي مرحلة البلوغ، تلعب آليات مختلفة في الدفاع دورها لمنع التجربة الجنسية، في ما في سن اليأس، تلعب دورها لتنفي ما تم فقدانه. في مرحلة البلوغ، تخدم أطوار الدفاع، بناء تساميات متينة، وقيم روحية، ومثاليات اجتماعية، واهتمامات فنية، ورياضية، أما في سن اليأس، لا تحظى محاولة كهذه الكثير من النجاح. فمرحلة البلوغ وسن اليأس تحاولان كلتاهما بناء حاضر بنظرة نحو المستقبل بالنسبة للأولى، وبنظرة نحو الماضي بالنسبة للثانية.

ليس وحده سن اليأس يميل لتكرار الحالات العصابية والنفسية لمرحلة البلوغ باستخدام آليات مماثلة للدفاع، إنما الآثار العصابية التي ظهرت سابقاً كآثار للطباع تشتد، كما في حال مرحلة البلوغ. وكما ذكرنا، هناك أفعال خارجة عن المألوف تتصف بها النساء اللواتي لديهن إستبعاد مسبق للهستيريا، إنه نفس الاستعداد المسبق الذي جرى التعبير عنه سابقاً في مرحلة البلوغ المفعمة بالسحر، والحيوية المفرطة، بحثاً عن المغامرة. لقد منع الاستعداد العصابي الهاجسي في مرحلة البلوغ العصاب، لكنه أدى إلى آليات في الدفاع على صورة ميول رجولية معززة، وإلى عقلانية. إن تأثيرات العصاب الهاجسي بلا أعراض على نمو المرأة، هي عموماً نمطية جداً، حيث يخلق شخصيات ضحلة عاطفياً، وعقيمة ذهنياً، إنما طموحة والتي غالباً ما تكون ذكية بشكل ملحوظ لكن بدون أي أصالة أو إبداع، وبالإجمال ينطبق تماماً على هذا النمط الأبيات الشعرية لفاوست (vol.I p.249). تتصف حياة هؤلاء النساء حتى سن اليأس برجولية متسامية جداً،

بمعنى أن ميولهن الذكورية لا تؤدي إلى تشوهات عصابية، مع أنها تترك في حياتهن بصمة واضحة جداً. ولدى هؤلاء النساء، يُترجم سن اليأس بمسألة أن الميول الأنثوية التي لم تأخذ أبعادها سابقاً، تظهر الآن مطالباتها وتدخل في صراع مع الميول الذكورية. وتتجنب هؤلاء النساء مخرجاً مرضياً لصراع مرحلة بلوغهن بتسام جيد، إنما في سن اليأس، يسقطن مريضات لأنهن عاجزات عن إشباع أنوثتهن الجديدة، المتيقظة بصورة متأخرة. وإجمالاً يقعن مريضات، ليس من عقدة الرجولة لبلوغهن، إنما لعقدة الأنوثة لسن اليأس. يذكر هذا الطور بطريقة لافتة بأطوار البلوغ التي وصفها فرويد[1] قائلاً :

غالباً ما يمكننا ملاحظة أن الشابات اللواتي أظهرن حتى مرحلة ما قبل البلوغ طبيعة وميولاً صبيانية، يصبحن هستيريات في البلوغ. وفي عدد كبير من الحالات، لا يتوافق العصاب الهستيري إلا على فورة موسومة بطرد، تخلقه المرأة التي تنبذ أحاسيسها الجنسية الذكورية.

يعد الطور متماثلاً في الحالتين، لأن النزعة الرجولية تم التخلي عنها لمحاولة أن تصبح امرأة، وهذا ما يفشل عموماً في سن اليأس.

لا تشكل الصيغ النشيطة والهائجة لسن اليأس، التي وصفتها، استثناءات. إنها بصورة محتملة، مألوفة أيضاً كالصيغ الاكتئابية، التي هي أكثر «اعتيادية» في مظاهرها الخارجية. وربما تجتاز جميع النساء في سن اليأس مرحلة اكتئاب تطول أو تقصر. وفي حين تنكر النساء النشيطات الأوضاع البيولوجية، تبالغ بها النساء الواهنات جسدياً. فالانحطاط الجسدي يتم الإحساس به كدنو من الموت، وتبدأ الحياة تظهر ضجرة وبلا هدف، ويتلون مضمون الحياة النفسية للمرأة بالألم، حتى لو استمرت بالمساهمة في الحياة الخارجية كذي قبل. وغالباً ما يكون الاكتئاب خفياً

---

(1) Freud S.: Allgemeins über den hysterischen Anfall : Kleine Schriften zur Neuroscnlchrc. Vienne: Deuticke , 1909.

جداً، بحيث لا يلاحظ التبدل إلا المرأة نفسها أو أصدقاؤها المقربون جداً. إنما تبدو أفكاراً وسواسية يتم التلفظ بها على نحو أو آخر، ويرتبط معظمها بحالات الجهاز التناسلي. وما كان في السابق مصدر حياة، أصبح الآن، ضمن المخاوف الوسواسية، ورماً خبيثاً. غالباً ما التقيت بنساء يتحدثن عن «ورمهن» كما لو أنه كالموت لايمكن تحاشيه. ويعبر هذا نفسياً عن التقليل من شأن العضو الحياتي، وعن تدمير وظيفته.

هذه الحالات الاكتئابية «العادية» تزول في بعض الظروف، وتتحول في ظروف أخرى إلى كآبة مرضية. لدي انطباع أن النساء الأنثويات العاشقات، يعشن سن يأس أكثر ملاءمة من النساء الذكوريات العدوانيات.

وتخضع كثير من الأمور، بصورة طبيعية، للظروف الخارجية، وظروف الحياة السابقة للمرأة. فالنساء الأنثويات اللواتي عشن زواجاً منسجماً، وسعيداً، ومرضياً من الناحية الجنسية، يعشن العواصف الأخيرة في برٍّ هادىء، ويتحدث كثير من الأزواج العجزة عن شهر «عسلهم» الثاني. ويستخدم الفنانون في الحب، والنساء في معايشتهن لحياة عشقية غنية ومشوقة، رغباتهن الأخيرة، ليس بالخوف الذي ينكر الخسارة المداهمة، كما تفعل ذلك النساء العجزة المثيرات للضحك، إنما بالاستمتاع حتى النهاية بالنعم الغرامية. وفي هذا الخصوص، من المعروف جداً أن النساء اللواتي جُبلت حياتهن من الجمال والسحر الأنثوي، يبقين جميلات وشابات لفترة طويلة ولدرجة مدهشة. «حبها لشخصها، ربما هو سر جمالها»، هذا ما يقوله فرويد. تمتلك هؤلاء النساء، على ما يبدو، ماء جوفانشي النفسية، على صورة نرجسية أنثوية معينة، هذا الماء الذي تسعى نساء أكثر تعاسة، لاستبداله بأحمر الشفاه والماساجات (تدليك الجسد) والفساتين الشبابية. وتظل نساء الفئة الأولى شابات لزمن طويل، في ما تتظاهر الفئة الثانية بأنهن لا زلن شابات.

غالباً ما يضرب المثل بامرأة مسنة حافظت على شبابها، إنها الفرنسية الشهيرة نينون دي لانكلوس، الجميلة الذكية، التي شعرت بالحب الهائم

تجاه رجل شاب، وهي كما يُقال في الخامسة والستين من عمرها. ثم وجد نفسه أنه كان ابنها، وعندما علم بالأمر، انتحر. مدعوون هنا لمناقشة صحة أسطورة أوديب الحديثة هذه، إنما هي سليمة من الناحية النفسية، حيث أن أداة حب امرأة مسنة هو ابنها الحقيقي. وبالنسبة لثلاثة أجيال من نساء في سن اليأس بقين شابات في قلبهن، ظلت نينون دي لانكلوس الأنا الأعلى لهن.

النساء العشقيات الأنثويات، بتجربتهن للحب، يتقبلن القدر المحتوم بكرامة أكثر وهدوء أكثر من اللواتي يتشابهن مع العانسات الباردات جنسياً والمحرومات دوماً. إن الخوف الذي يظهرنه هؤلاء لقاء التخلي يعبر عن نقمتهن لسلب أنوثتهن منذ بداية حياتهن. ويبدو من السهل جداً، النظر لمستقبل كالح عندما نعلله بماض مشرق وممتع. والتعلق بما كان بحوزتنا في الماضي يُصلح، دون أدنى شك، النرجسية المذلولة. ولهذا السبب تتحدث النساء الطاعنات في السن كثيراً عن الماضي المجيد ويبنين عالماً مخادعاً، ينتهي بهن الأمر لتصديق أنفسهن.

تقول النساء اللواتي على دراية بملاحظة أنفسهن جيداً أنه، أمام سن اليأس، يظهرن نوعاً من ضياع وانشطار للشخصية، بحيث يشعرن أنفسهن شابات ومسنات في الوقت نفسه: «هذه المرأة الآخذة بالنضج هل هي حقاً أنا نفسي؟ منذ وقت قريب، كنت تلك الفتاة الشابة الملأى بالوعود، والتي لا زلت أحس بها حية جداً في نفسي». إنهن يتخلين عن أنفسهن ليحببن بحنان هذا الكائن الشاب، كما نحب كائناً فقدناه. منهج آخر، ملائم أكثر، لتجاوز نكبة سن اليأس يكمن في أن تكون مغرمة بصورة متواصلة ونشيطة وحارة وسعيدة، يسم هذا النهج بصورة خاصة، النساء ذوات البنية النرجسية بوضوح. إنما هذا يجب ان ينطلق من حاجة صادقة ومستمرة في أن تُحب، بطريقة لا تقع في حيرة تحت هجمات الأطوار الفيزيولوجية. فالمرأة التي تقع مغرمة بحكم حاجة داخلية، لا تشبه المرأة التي تبتسم بصداقة مرائية.

النساء الجميلات النرجسيات اللواتي يبدو جمالهن مركز كيانهن، غالباً ما يطرحن هذا التساؤل: «ماذا سيفعلن في سن اليأس؟». ومن المهم رؤية كيف أن حب الذات الذي يمتلكنه هؤلاء النساء يحتاط للموقف. فقبل أن يتفاجأن بالنكبة، يتجنبنها بالتوجه، شيئاً فشيئاً، نحو اهتمام، سيكون لهن في ما بعد بديلاً مرضياً. إنهن يستخدمن رأسمالاً معيناً يكون بالنسبة لهن هبة متواضعة، ويجدن استخدامه بذكاء بفضل حبهن لذواتهن. ونرى بذلك، امرأة جميلة تهتم بالسياسة، وتدلي برأيها في الإجتماعات، وتبذل تعاوناً هاماً مع حركة إيديولوجية، أو تصبح نصيرة للآداب والعلوم والفنون. وبالإجمال، تجعل من شخصيتها ذات شأن وتتجنب هكذا نكبة يجلبها الطور الفيزيولوجي لنرجسيتها.

وتخضع ردود الفعل النفسية لسن اليأس أيضاً، لمركز ثقل وجاذبية المرأة، ولفكرة أن تعطي لنفسها ولشخصها أهمية فعلية. وإذا هيمنت عليها عقدة الرجولة، أو إذا لم تشوشها الحركة المباغتة الجديدة نحو الأنوثة، فيشبه سن اليأس عندها إلى حد كبير، الأطوار التي تطرأ كذلك عند الرجال في عمر معين، إذ أن الثقة بالنفس عند الرجل تتأثر كثيراً بتقلص قدرته، وخوفه من الشباب، الأكثر همة وجرأة، كما أن ردود فعله لانحطاطه الخاص، لها طابع نمطي.

ويمكن للرجال والنساء الذكوريات، وفقاً لشخصيتهم، أن يشيخوا بوقار وكرامة، أو يدمروا أنفسهم في الإذلال النرجسي. إن التلميحات العدوانية للماضي، وللمآثر المنتهية الآن تلعب الدور نفسه، في البنية النفسية للرجال والنساء الذكوريات، وفي الإثبات التقليدي للمرأة أنها كانت حسناء في السابق، والمطالبة في أن تجد نفسها مقدمة ومعتبرة من قبل الآخرين بالطريقة نفسها.

في مجرى حياة امرأة، غالباً ما تلعب الرجولة دور عوامة الإنقاذ. ويصح هذا في سن اليأس أيضاً. فالتسامي الذهني في حرفة ما، يحمي المرأة من الصدمة البيولوجية. وهذا ينطبق أكثر أيضاً على النساء الأنثويات

اللواتي لم يخاطرن بصفاتهن الأنثوية أي بالورقة الوحيدة للعشقية والروح الأمومية، إنما استثمرنها في تساميات صالحة. ومن جانب آخر، إذا شغلتهن اهتماماتهن الاجتماعية والمهنية بإفراط، فهؤلاء النساء مهددات في سن اليأس بخطر اسمه «الرجولية الكاذبة». ومع أنهن لسن ذكوريات كالمرأة المعقلنة الذهنية، إلا أنهن مرغمات بضغط بعض التعقيدات الداخلية والخارجية، لنوع من الحياة، بحيث لا عشقيتهن الأنثوية ولا محبتهن الأمومية تستطيع أن تفرجهن بحرية. ودون الدخول في التفاصيل، سألح فقط على ناحية من الطباع، تميز هؤلاء النساء عن النساء الذكوريات، حيث أنهن يحتفظن بصفاتهن الأنثوية بصدق، حتى في نوع من حياة ذكورية إيجابية نشيطة، ويحتل الحسد حيّزاً ضيقاً في طباعهن. وفي سن اليأس، يدركن خطأهن، وقد يردن إيقاف الطور البيولوجي للتمكن من المزيد من الحب، والإبقاء على الأمومية لمدة أطول. وفي كثير من الأحيان، لديهن عمل أكثر من اللازم، بحيث يحل الإنهاك المستمر محل السكون الداخلي، والعقل والإدراك محل الحكمة الأمومية.

تكتسب العلائم العضوية النمطية المختلفة لسن اليأس في معظم الحالات، أهمية نفسية ثانوية، وعلى العكس إنها أيضاً محددة بشدة بعوامل نفسية. والعلائم التي لم تلق فرصة لملاحظة عميقة، لا يمكن أن تُفهم بقدر القلق النفسي الذي يختفي خلف لفحات الحرارة، والدوار، والتعرق، والاختلاجات... إلخ. وتعد مختلف الحركات التلقائية الجسدية الجديدة، كما هو الحال في الطفولة الأولى، أشكالاً خفية للاستمناء، والمصاعب المتعددة من ناحية الإقصاءات والظواهر النفسية المرافقة لها، تذكر بسلوك الأطفال الصغار. ويُستعاد هنا التخيل الوهمي للحمل كما في مختلف الأعراض الأخرى العضوية لسن اليأس. هذا التخيل الوهمي هو هنا أيضاً بعيداً عن تحقيقه، كما كان ذلك في التمثيل الفموي للولادة عند الأطفال الصغار، أو في القياءات والتوعكات المعوية... إلخ. لمرحلة البلوغ. فـ «الإفراط في التبكير» أو «الإفراط في التأخير» يتلاقيان هنا أيضاً.

يصبح العلاج النفسي المثمر صعباً في سن اليأس، بموجب أنه يمكن عموماً تقديم شيء قليل جداً للمريضة لتعويض إرضاءاتها الخيالية. وهناك قدر كبير من الخوف الواقعي خلف الضيق النفسي العصابي، إذ إن الواقع أصبح فعلياً ضحلاً في وعوده، والحل الوحيد غالباً هو في التنازل دون تعويض. والتنازل هو أقسى مهمة تطرح على الكائن الإنساني!

في المستقبل، سيصبح بالإمكان تجنب الكثير من مصاعب سن اليأس بالتصرف بالجهاز الغددي. ومع تواضع إنسان عظيم يفهم حدود إنجازاته، يترك فرويد حيزاً لمثل هذه الإمكانات في علاج حالات العصاب. وفي الوقت الحالي، كلما توجّب على النساء اللواتي يكبرن، تقبل الوضع الراهن، يتصرفن بحكمة مرتكزات على سلمهن في القيم الإيجابية على ما يمكنهن تذوقه أيضاً.

بالنسبة للمرأة الأمومية، الصدمة التي يمثلها فقدان إمكانية التناسل، هي أعمق وأهم من الإذلال النرجسي في رؤية زوال الشباب والجمال.

أليست الطبيعة قاسية جداً على المرأة، ولا تجعلها تتوقع إلا الإخفاقات في مرحلة مهمة من حياتها؟ ألم تحرمها ما كان له أعمق معنى سابقاً في كيانها؟ لنختبر الموقف عن كثب. فأحد أهداف هذا الكتاب، كان محاولة فهم طبيعة الروح الأمومية، ليس فقط في ممارسة وظيفة التناسل بحد ذاتها، إنما أيضاً باعتبارها مبدأ يمتد إلى جميع مجالات الحياة، وهو مبدأ ملازم للمرأة.

يصمد هذا المبدأ بنجاح، بإمكانات الأعضاء التناسلية. ودون أن تكون شاعرة بذلك، تعرف المرأة الأمومية كيف تنقذ إمكانياتها النفسية من الضمور، ويساعدها الواقع في هذا المسعى. والأطفال «المفتقدون» الذين تحرروا من أمهاتهم، يعودون إليها إذا توصلوا فعلياً لاكتساب حريتهم. وإذا أدركت الأم تطلعات أولادها للحرية، وإذا لم تبالغ في الطرائق التي تسعى بواسطتها لاستمالتهم وجذبهم، فيمكنها أن تتذوق المنظر السعيد والغني في

امتلاكهم من جديد. فعليها افتقادهم، للعثور عليهم ثانية. وإذا تقلبت كراهية أولادها خلال مرحلة بلوغهم، وإذا كفّت عن استغلال مشاعرهم بالذنب، وإذا أدركت بعمق واقعي وليس ذهني، أن عليها الاعتزال من مهامها الأمومية، حينئذ فقط تجد نفسها متعللة بأملها في عدم فقدان أولادها. ويصل سن اليأس إلى فترة يحصل فيها التصالح، إذا كان تطور علاقة الأم بالطفل عادية، ومع أن العلاقات العاطفية فقدت حميميتها القديمة وعدم شموليتها، يمكن أن تكون مرضية جداً للمرأة التي تقدّمت في السن.

ولا ينبغي علينا نسيان أن المرأة الأمومية لها أحياناً أسلوب زيادة عدد أولادها ضمن إطار العائلة، دون أن تنجز بنفسها خدمة النوع. فمثلاً أصهرتها وزوجات أبنائها، والعلاقات العاطفية الشديدة، وغالباً المعقدة التي تنتجها قرابات جديدة. وتنسحب احتمالات عدم الاكتراث المتعارف عليه والكراهية التي لا تقهر على الحنان المنشط والمحبب.

وفي كتاب «توتيم وتابو» قال فرويد كل ما يمكن قوله في التحليل النفسي حول مشكلة العلاقات بالكنّة والصهر:

نعلم أن علاقات الصهر والكنّة، حتى في الأعراق المتمدنة، هي إحدى المظاهر الأصعب في النظام العائلي. ومع أن القوانين المستوجبة تجنّب بعضها بعضاً لا توجد مطلقاً في مجتمع الأعراق البيض في أوروبا وأمريكا، فكثير من الخلافات والمضايقات يمكن إزالتها، لو كانت هذه القوانين موجودة ولم تصحح بطريقة فردية. سيرى الكثير من الأوروبيين نصاً موضوعاً بحصافة عالية في هذه القوانين، التي وضعتها الأعراق البدائية الهمجية لمنع أي تفاهم بين شخصين حلّت بينهما قرابة وثيقة جداً. ومن الواضح بصورة عملية، أن هناك في الموقف النفسي للحماة والصهر، شيء ما يشعل عداوات بين اثنين، ويجعل حياتهما المشتركة صعبة، الأمر الذي جعل فكاهات الأعراق المتمدنة تتوجه، بطيبة خاطر، إلى ذلك الموضوع الخاص للحماة ويبدو أنه يدل، بحسب رأيي، على أن العلاقات العاطفية

بين الحماة والصهر تخضع لمركبات تتعارض بقوة. وأود القول إن العلاقة هي تناقضية وجدانية فعلياً، أي أنها تتضمن مشاعر متعاكسة من المودّة والعداء.

جزء ما من هذه المشاعر جلي. فالحماة ليست مستعدة للتخلي عن امتلاك ابنتها، إنها تتصدى لهذا الغريب الذي أُعطيت ابنتها له، وتُظهر ميلاً للحفاظ على الوضعية المهيمنة التي اعتادتها معها. ومن جانب الرجل، هناك تصميم على ألا يستسلم لأي إرادة غريبة، فضلاً عن غيرته من جميع هؤلاء الذين سبقوه في امتلاك حنان زوجته، وهناك عنصر أخير لا يقلّ أهمية، في خوف الصهر في أن يكون مشوشاً في تقديره الجنسي العالي والواهم. يأتي هذا التشوش عموماً من حماته، التي تذكره بزوجته في كثير من الملامح المشتركة، إنما التي ينقصها سحر الشباب، والجمال والعفوية النفسية التي تعطي زوجته قدرها.

إن المعرفة التي أمدتنا بها التقصّيات التحليلية النفسية للمشاعر النفسية المخبأة، تسمح لنا بإضافة دافعين آخرين إلى أولئك الذين أتينا على رؤيتهم. عندما يجب على الحاجات النفسية الجنسية للمرأة أن تكون مشبعة في الزواج والحياة العائلية، يكون الخطر موجوداً دوماً في عدم الإشباع، بالانتهاء قبل الأوان من العلاقة الزوجية ورتابة الحياة العاطفية للمرأة. تحمي المرأة التي تشيخ نفسها من ذلك في الدخول بحياة أولادها، وبإدماج نفسها معهم، وفي استملاك تجاربهم العاطفية. ويُقال إن الأهل يظلون شباباً مع أولادهم، وهنا في الواقع، أثمن النعم التي يستمدها الأهل من أولادهم. وهكذا يمنع غياب الأطفال إحدى أفضل السبل لتحمّل الإستكانة الضرورية التي يفرضها الزواج على الفرد. هذا الاندماج العاطفي مع البنت يؤثر بسهولة عند الأم لدرجة أنها تقع أيضاً في غرام رجل يحب ابنتها، مما يؤدي في الحالات الشديدة إلى حالات عصاب شديدة، بسبب الممانعة النفسية العنيفة التي تقاوم هذا الاستعداد العاطفي. وفي جميع الأحوال، الميل للوقوع في غرام الصهر أمرٌ مألوف جداً عند الحماة، وهذا

الحب نفسه، أو الميل لمعارضته يختلط بصراع القوى المعاكسة الموجودة في نفس الحماة. وفي كثير من الأحيان، إنه تحديداً هذا المركب الفظ والسادي للعاطفة الغرامية التي تتوجه ضد الصهر، لإلغاء المشاعر الوديعة الممنوعة.

وتجد النساء اللواتي نجحن في التوفيق بين تحريضاتهن النفسية المتناقضة وجدانياً، شيخوختهن غنية بالابن الجديد المحبوب بحنان والذي هو الصهر.

العلاقة مع الكنة قد تكون أكثر تعقيداً. حيث يعد التخلي عن الابن لصالح الغريبة امتحاناً حاسماً أكثر من التخلي عن الفتاة من أجل الصهر. وقد ينشأ صراع مميت بين الخصمين، ويكون مخرج هذا الصراع دوماً مفجعاً بالنسبة للحماة.

ماري بونابرت، في تحليلها عن حالة لي فيبر الشهيرة، جعلتنا ندرك الحياة النفسية للسيدة لي فيبر[1]، التي قتلت بطلق ناري كنتها المكروهة التي لم تستطع تجاوز غيرتها الرهيبة والكراهية من حملها. كانت الأطوار النفسية التي سبقت عملية القتل الذهانية للسيدة لي فيبر عادية جداً. إنها امرأة مسيطرة طموحة تسير بنظام تقوده الأم، تسعى للارتباط بزوجها وأبنائها بطريقة امتلاكية. وقد نجحت في ذلك، حتى جاء اليوم الذي انتزع فيه ابنها أندريه منها، حيث «كان الجرح الأول». لقد كان زواجه جرحاً شديد الإيلام.

سقمت السيدة لي فيبر أكثر فأكثر، جراء ابنها الذي يخصها بكل ما في هذه الكلمة من معنى. كانت تفكر ليلاً نهاراً، بالألم الذي كبدتها إياه هذه الكنّة التي فصلتها عن ابنها... وفي غضون السنوات الأولى من هذا الزواج، كبرت كراهية السيدة لي فيبر، إنما تحملت كنتها... وما إن علمت بخبر حملها حتى بدا لها الموقف لا يطاق وجعلت تواجه جريمتها.

---

(1) Bonaparte M.: Le cas Le fèbre. Imago, vol.15, 1929

تعتقد ماري بونابرت صواباً، أن السيدة لي فيبر نفسها، كانت في تخيل وهمي بالحمل بالعلاقة مع أعراض سن اليأس، ولم تستطع تحمل أن تنال كنتها، وخاصة من ابنها، ما استحال عليها نفسها إنجابه، هو الطفل.

أظهرت السيدة ز...، وهي حماة كانت لي فرصة دراستها، نفس الكراهية القاتلة إزاء كنتها. ولم يكن عندها ذهان، واقتصرت بالضغط على ابنها الوحيد ليهجر زوجته التي يحبها، بحجة أن مرضاً جسدياً يمنع هذه المرأة من أن تنجب لها طفلاً يجعلها جدة.

عند السيدة ز... عدة بنات متزوجات والعديد من الأحفاد. إنما كانت تصر على رغبتها في أن يكون لها حفيد من ابنها الوحيد. واستحوذت عليها فكرة دفع ابنها نحو الطلاق، وقامت ما في وسعها للحصول على قبول ذلك بالإرغام، وباللجوء إلى أزمات قلبية وتهديدات بالموت. غادر الابن أمه للالتحاق بالجبهة، وحافظ على سرية علاقته بزوجته الشرعية التي يهتم بها، وتألم أكثر فأكثر من شعور بالذنب: «ستموت أمي جراء غلطتي». بالنسبة للأم، لم يكن لزواج ابنها إلا معنى واحداً، طالما هي نفسها يستحيل عليها أن تحمل ابناً منه، فعلى المرأة الأخرى أن تنهض بهذه المهمة، وتنجب لها ولداً فهي الأم الفعلية. إنها إلى حد ما «تانت تولا» الأمومية الكبيرة التي بكبت خشيتها من الزنى، كلفت امرأة أخرى بتحقيق أمنيتها بطفل وبالحفاظ على وضعها كإمرأة محبوبة وحيدة. لكن عقم كنتها جعل منها خصماً وأثار وأجج كراهية وغيرة الأم.

لعل تحمل كثير من الأمهات لفساد وفجور أبنائهن أسهل وأيسر عليهن، من تحملهن لحبهن الوحيد. إنهن يجعلننا نفكر بهؤلاء الفتيات اللواتي يعزين لأمهن دور أداة جنسية مستذلّة، فقط للاستيلاء على «أفضل» جزء من أبيهن. الكنة التي أصبحت أماً، وتعطي الحماة الغيورة انطباعاً بامتلاكها الحنون لابنها، تعدها أخطر من الكنة المتخذة كأداة جنسية فقط. كما تخشى الأم من أن تؤدي أبوة ابنها، والذي لازال بنظرها ولداً صغيراً، إلى أن يكبر ويتحرر منها.

ومع ذلك، هناك امرأة أمومية طبيعية لطيفة، ترى مظاهر أخرى مُرضية في علاقتها مع كنتها. ويمكن لهذه العلاقة، في بادئ الأمر، إذا كانت المرأتان وادعتين وجديرتين بالحب، أن تتحول لصداقة حارة، دون إطلاق العنان لمنافسة لاشعورية. ومن ثم، من غير الصحيح في أن الكنة تحرف الابن المحبوب جداً عن أمه. إذ من الأقل خطورة على الأم، في أن يكِنَّ إبنها الحب لامرأة أخرى، من الخوف الذي يجلبه لها في ارتباطه المفرط بها. غالباً ما رأيت إبناً، إنفصل عن أمه، ثم عاد إليها بمشاعر حنونة، حينما شعر نفسه محمياً من العلاقة الأمومية، بحبه لزوجته. وتعيد الكنة في هذه الحالات الابن المفقود لأمه، وإذا لعبت دور الابنة العاطفية، فتكون المرأة التي تقدمت في السن، كسبت اثنين من الأولاد الجدد، وتكون أنجبتهما، إن صح القول، في عالمها النفسي.

الحاجة لامتلاك الأولاد التي تحس بها امرأة تطعن في السن، تتزايد أيضاً عند أولئك اللواتي لم يتزوجن، أو اللواتي لم ينجبن أولاداً أبداً. هذه المسألة ستوضحها بطريقة مؤثرة قصة موظفة، في الخمسين من عمرها، عاشت سنوات عديدة بكيان مطمئن وقناعة، وهي متعلقة بعملها. وذات يوم، وهي على العشاء مع أصدقائها، سمعت قولاً إن موظفة أخرى كانت على وشك الولادة، وستكون سعيدة لو وجدت أحداً في بيتها يحل محلها. وطلبت من باب المزاح من الفتاة العانس أن تقبل هذه الوظيفة. وكان ردها بالضحك، إنما منذ ذلك التاريخ، أخذت الفكرة تدور في رأسها ولا تفارقها أبداً، واستحوذها تصور إنجاب طفل. فغادرت موقعها المحبب، وكرست ما تبقى من حياتها لطفل امرأة أخرى. من الصعب القول، ما إذا دفعتها الغريزة على ذلك، أو قوة الأطوار الهرمونية، أو استحالة تحقيق رغبة الطفل، تلك الرغبة الأنثوية الخالدة والتي يسببها خوف «فوات الأوان».

ومع ذلك، في معظم الحالات، العوانس والنساء بلا أطفال، حين يفوت الأوان لمعالجة حرمانهن، وتكون ردة فعلهن النفسية من نمط «إنهم

يانعون جداً»، يصبحن حادات الطبع ونافذات الصبر مع الأطفال، فيقابلهن هؤلاء الأطفال بكراهيتهن المنكّدة لهن.

وبالرغم من كل شيء، فنهاية وظيفة التناسل للمرأة، لا تعني الإقرار بالرضى بصورة كاملة بالانهيار. فالطبيعة ليست عديمة الرحمة إلى هذا الحد. وعندما كفت الأمومة عن خدمة النوع، تستمر في خدمة التجربة الفردية. وبتعداد المرحلتين التمهيديتين للأمومة، الطفولة والبلوغ، يمكننا القول، إن الشيخوخة تشكل مرحلة رابعة هي «الأمومة الكبيرة».

ومنذ المراحل التمهيدية، لدينا فتيات أموميات على نحو أو آخر، ولدينا بعد ذلك نساء أموميات وغير أموميات، وقد حاولت وصف الفروق المتعددة جداً المشمولة، تحت العبارة البسيطة ظاهرياً وهي الأم. ويمكننا أن نقوم بالشيء نفسه بالنسبة لعبارة الجدة. وبقدر ما هناك أنواع من الجدات، هناك أنماط وطباع فردية للأمهات.وقبل كل شيء هناك جدات طيبات وأموميات، وهناك الشريرات وغير الأموميات.

سنهتم أولاً بالطيبات منهن. وبما أن ملاحظتهن التحليلية النفسية المباشرة نادرة المنال، فستكون ملاحظاتنا مختصرة بالضرورة. ويمكننا مع ذلك وصف ثلاثة أنماط :

أولاً ـ بالنسبة للمرأة التي تواصل، بصفتها جدة، أمومتها، وليس الأحفاد بالنسبة لها إلا أصغر أولادها. فبعد انقطاع طال أو قصر عن أفراحها وأشجانها الأمومية، تحس أمام أحفادها بردود الفعل العاطفية نفسها، التي أحست بها سابقاً أمام أولادها. وفي عالمها النفسي، كل شيء يحدث كما لو أنها قد أخذت إجازة من أمومتها وعادت إليها الآن. وأحياناً لا توافق كلياً على جميع التغيرات التي يجلبها التقدم، إنما هي بالإجمال أم سعيدة ومكرسة نفسها. يكمن الفارق الرئيسي، في أن اتجاهات الإسقاط والترحيل ينقصها جيل للعثور على نماذجهن. وإذا رغبت سابقاً في رؤية أولادها ينجزون ما قد فاتها، فهي ترغب الآن في رؤية أحفادها ينجزون ما

رفضه أولادها. وبالطبع، من النادر أن يتعلق الأمر هنا هذه المرة بالإيديولوجيات، والصفات، أو إرضاء الطموحات. وإذا لم يكن عند المرأة المسنة ابن، فهي تستقبل الحفيد الابن ببهجة خاصة، وإذا لم يكن عندها بنت، فإن كنّتها ستعوضها بشكل مضاعف عندما تنجب بنتاً. وبالإجمال، هناك حاجات عاطفية معينة تطلب الآن أن تُلبى.

وبنظر الجدة، يعني الحفيد دوماً وقبل كل شيء، العودة الحقيقية للابن، ابنها، لأن المرأة الأمومية، في حنينها للأمومة غير المشبعة، ترجع برغباتها نحو الماضي عندما كان عندها أولاد شباب. ولم يفعل سن اليأس إلا أنه زاد فيها ما كان ملازماً لها دوماً، وحتى بعد أن غادرها أولادها ليعيشوا حياتهم المستقلة. تماماً كما تعشق المرأة النرجسية الماضي الذي عاشته، تعشق المرأة الأمومية، أمومتها الماضية، وبهذه الأمومة امتلكت أولادها فعلياً لأنها لم تكن تستغني عنهم. «على الأولاد أن يظلوا دوماً صغاراً»، هكذا تفكر غالباً الأم عندما يغادرها ابنها الكبير. إنها ترحّل هذا الحنين على الأحفاد، ثم تسترد الحبل السري المقطوع، وتعيد بناء عالمها الذي كان يبدو ضائعاً على نحو لا يُعوّض.

ومع أحفادها، تعثر الجدة الأمومية على الحنان، وروح التضحية، والنشاط المكرس الذي أولته لأولادها الحقيقيين. ومن الصحيح، أنه من بين هؤلاء الأنواع الثلاثة للأمومة، يعد الاثنان الأولان الأفضل صوناً ووفاء، وأن الطبيعة أضعفت الثالث بحكمة. وإذا لم تكن الحالة هكذا، وإذا تبين أن الميول النشيطة، أقوى من تكيف حكيم مع الواقع الجديد، فتحتد الصراعات بين البنت أو الكنة وبين الجدة، و تحس الرعاية النشيطة المفرطة لهذه الأخيرة، كتدخل مزعج.

ثانياً ـ يطرح النمط الثاني للجدة الطيبة مظاهر ربما أكثر تعقيداً. لقد توصلت المرأة المسنّة لهذه المحطة من حياتها، حيث لا مستقبل مطلقاً لأمومتها الخاصة. إنها لا ترغب شيئاً من هذا العالم الضائع، وقد تكيّفت داخلياً مع الحرمان. لكنها بعيدة كل البعد عن ترك اللعبة. فهي لازالت

تحب الحياة، وتهتم بأشياء مختلفة، وسبق أن نجحت في سد فراغ كبير خلقه انهيار وظائفها الفيزيولوجية. إنها تقبل أمومة الجدة كهبة من السماء، ولا تحسها كتواصل لأمومتها، إنما تماماً كنشر جديد لها في اندماجها مع ابنتها. ولديها ذكرى تجاربها، إنما لا تتمكن من التمتع بالأمومة، باعتبارها تجربة شخصية، إلا من خلال الاندماج.

امرأة مسنّة، كان جمالها فائقاً، كانت تحب كثيراً مرافقة كنّتها الجميلة في الأماكن العامة، والمسارح، والحفلات الموسيقية... إلخ. وعند وصولها، كانت تقف على بعد خطوات خلف كنّتها، وتسجل ملاحظات الإطراء ونظرات الإعجاب التي كانت توجَّه إليها. واعترفت ضاحكة أنها أحسّت ما كانت تحسّه منذ زمن طويل، عندما كانت جميلة ومزهوّة بنفسها. لعل نمط الجدة التي ندرسها الآن يتضمن تماماً نفس الحالة أمام أحفادها. وتبدو هموم ابنتها، وجهودها، وإخفاقاتها، وأفراحها، كأنها تمسّها شخصياً. وفي علاقتها مع أحفادها، تعيش ثانية عالماً أيقظه اندماجها.

نحن نعلم أن طور الاندماج يتضمن بعض المخاطر. وهو يعني كذلك أخذ حيّز من أحد ما، ويمكن للجدة المحبّة أن تصبح بسهولة خصماً حاقداً ومكروهاً.

في عالم الأمومة هذا، الغني جداً بتكراره، على الجدة عموماً أن تستوعب دور الأم المساعِدة، تماماً كما فعلت ذلك عند فترة بلوغها، إنها تصبح الثلث الثالث في علاقة الأم بالطفل. وكانت سابقاً منذ جيلٍ مضى في ريعان الشباب، والآن هي في وضع مماثل، لأن الأم الحقيقية للطفل تدّعي أنها أكبر سنّاً وحكمة من جيل كامل بخبرته الإنسانية. والجدّة إن كانت عاقلة وحكيمة لا تفعل شيئاً لتبدد الوهم، حيث أن ابنتها تحمل تجربة جيل بأكمله ولها قيمة أكثر من تجربتها الشخصية الخاصة. وإذا حافظت على إمكانياتها الأنثوية بالتأمل الباطني، ستعرف أن تجربتها هي وهم لأنها خاضعة لقوى إرجاعية بالتكرار الملزِم ولحنينها للماضي، وهي في ذلك في نفس المرحلة، إزاء حفيدها، التي كان فيها أب وأم الحفيد صغاراً مثله.

يذكر هذان النمطان من الجدات بالأم المساعدة. الجدة القلقة مألوفة أكثر من الأم القلقة. ويمكن لهذه الأخيرة أن تلقي مسؤولية الأمر على افتقادها للتجربة، في ما تخشى الأولى أن تحتكم لتجربتها. وفي عمق حياتها النفسية، تحس بالمنافسة الحسودة التي تريد تجنبها. وتسعى لنيل إعجاب المرأة الأخرى، حيث ذلك يجعلها غير حاذقة، ومتناقضة الوجدان وقلقة. الجدة الأكثر حكمة والأفضل، ليست في نهاية الأمر إلا الجدة، وهنا حيث ترغب أن تكون أماً. ويمكن لنفسية البنت أو الكنة، ولموقفها تجاه الجدة، والتفاعل النفسي في مجمله، أن يؤثروا بصورة طبيعية، على سلوك الجدة.

ثالثاً ـ النمط الثالث هو الجدة بامتياز. إنها تخلت عن كل شيء، ولا تتواصل بشيء، ولا تبحث عن التكرار، وهي ليست بحاجة للاندماج، إنها متحررة من كل مشاعر المنافسة. وفي كل علاقاتها، هي أكثر حرية من أي فترة أخرى من حياتها، وربما تتناول الحياة بنفس الطريقة التي يتناولها طفل صغير. إنها متحررة من أهوائها، وربما ضبَطتها. وكل ما تنتظره من العالم هو السلام، وهي لا تطلب شيئاً صعب المنال، إنها لا تطلب إلا ما يمكنها الحصول عليه. وهي لا تعاني من الهوة الموجودة بين الرغبة والإمكانية، ولا توجه نظرها نحو أي هدف بعيد. ولأنها الآن عطوفة كحال كائن إنساني يتقبل قرب وقوع الموت، وحكيمة بقدر ما يمكن لكائن إنساني وحده أن يكون لطيفاً، ومتحررة من أي تناقض وجداني، فيحبها الأطفال عادة دون تناقض وجداني، مع حد أدنى من عدوانيتهم الجسدية. إنها تمثل فقط خطراً بالنسبة للجهود التربوية للأم، إذ أنها تدلل الأطفال، إنما هذا الدلال، حين يأتي من الجدة، يكون حكيماً، فما دفعها إلى ذلك هو الطيبة.

آه، أنت، أيتها الجدة الصغيرة، بحكمتك الرقيقة

آه أنت أم صغيرة، بقلبك الحنون[1]

نُقلت هذه الكلمات عن نحيب موردفان على موت جدته، وتثبت أن

(1) Ploss and Bartels: Op. cit ., p.377

«حنان الجدة تجاه الحفيد، وحنان الحفيد تجاه الجدة، يجب أن يعتبر، لبس كنتاج للحضارة، إنما كملمح عام للنفس الإنسانية[1]». وبمرورنا على ذلك نقول إن هذا ينطبق على معظم العلاقات الإنسانية.

هناك أيضاً جدات شريرات، طالما هناك نساء مسنات شريرات. من هنا تنطلق عبارة الساحرة. لا تريد هؤلاء النساء أن يتشوشن بأحفادهن، أو كما السيدة لي فيبر، بل يردنهم لهن أنفسهن، كما أنهن غيورات من بناتهن وكناتهن.

تتضمن الشيخوخة تراجعات. وما يحدث في الفلك الجنسي، يصبح نموذجاً لما يحدث للشخصية برمتها. إن التغيرات الطباعوية النمطية للتراجع، والحالات الاكتئابية، والآثار الذهانية، والإفراط في التدقيق المتنامي، والحذلقة المترافقة بالبخل والخوف من الفقر، والقلق المتعلق بأطوار الإبراز والتغذية، هي كلها نتاج تراجعات طفولية. وفي هذه الظروف، يزداد التناقض الوجداني للحياة العاطفية، وتحل الأنانية محل الإيثارية، والكراهية العدوانية محل الحب. تسم كل هذه الملامح الجدة الشريرة التي ترتاب منها.

تعتقد المرأة بصيرورتها جدة، مهما كانت مجريات حياتها، سواء كرست نفسها لغايات مبتذلة أنانية، أو لغايات نبيلة إنسانية، إنها لا تحقق ذاتها إلا إذا أحست بغنى هذه التجارب التي تشكل جوهر الأمومة.

سعى هذا الكتاب إلى تطبيق المظهر النفسي للأمومة على مركباته المتعددة، وبيّن أي تجربة غنية وأي سعادة للمرأة يمكن أن تجدها في قدرها البيولوجي. إن أقصر درب نحو هذا الهدف هو درب الوظيفة البيولوجية المباشرة. إنما يمكن للمرأة أن تُقدِم كذلك على مساهمات جمة في الحالات الاجتماعية، والفنية والعلمية، باستخدامها التطلعات النشيطة للأمومة بصورة غير مباشرة، وكذلك الحرارة العاطفية للروح الأمومية.

---

(1) Op. cit.

في الحالة الراهنة لحضارتنا، يتحقق الطموح الذي تحس به المرأة، في قطع صلتها بالتقاليد القديمة لكيانها، أكثر فأكثر. وسيخفف التقدم في علم الطب، شيئاً فشيئاً، من وطأة المهام البيولوجية للمرأة، وسيكون من الممكن الاتجاه نحو غايات أخرى للطاقات المتحررة. وكل ذلك لئلا تكون عبارات مُثُل الحرية والمساواة لا قيمة لها، وعديمة الجدوى، حيث تتوق المرأة بصدق لأن تكون على قدم المساواة مع الرجل من الناحية الاجتماعية. وسيعمل جيل ما بعد الحرب، لتسريع هذا الطور. ومع ذلك، تبين التجارب التي أوردها هذا الكتاب أن نيل المرأة لمساواة اجتماعية تامة لن يكون مُرحّباً به من قبلها أو من قبل الانسانية في مجمله، ما لم تجد، في الوقت نفسه، وسائل تفتح أنوثتها وروحها الأمومية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة..	7
الفصل الأول: ملامح إجتماعية وبيولوجية..........................	9
الفصل الثاني: الأمومة، الروح الدموية والأحاسيس الجنسية..........	27
الفصل الثالث: المراحل التمهيدية................................	70
الفصل الرابع: علم نفس الفعل الجنسي..........................	92
الفصل الخامس: مشاكل الحمل والشروط النفسية الضرورية له.........	123
الفصل السادس: الحمل..	145
الفصل السابع: الولادة..	224
الفصل الثامن: عقابيل الولادة والإرضاع بداية العلاقات مع الطفل....	284
الفصل التاسع: علاقة الأم بالطفل................................	322
الفصل العاشر: الأمهات غير المتزوجات..........................	363
الفصل الحادي عشر: الأمهات المتبنيات..........................	426
الفصل الثاني عشر: الخالة (الزوجة الثانية للأب)	469
خاتمة: سن اليأس	491
الفهرس..	527

2008/2/798

علم نفس المرأة
الأمومة

تَظهر المسائل الرئيسية للأمومة منذ بداية وظيفة التناسل، وتستأنف، كما رأينا، بعد ولادة الطفل، بالعلاقة بينه وبين أمه. وتتعلق إحدى هذه المسائل بالصراع الذي لا مفر منه، الموجود بين مصالح الفرد ومصالح النوع. وتكمن أكبر مهمتين للمرأة، بصفتها أماً، في إرساء طريقة منسجمة لوحدتها مع الطفل، وفي الانفكاك عنه فيما بعد بصورة منسجمة أيضاً.

الناشر

ISBN 978-9953-463-96-4
9 789953 463964
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع